

قررت اللجنة المكررة لمناقشة هذه
الرسالة منح صاحبها درجة "الدكتوراه" مع
رتبة الشرف الأولى في الأدب والنقد
«المناقشة»
تاريخ المصعد على هذه الدرجة

جامعة الأزهر
كلية اللغة العربية

١٧ مايو ١٩٧٩ م

كتابة البيرة النبوية في أدبنا الحديث

عرض ونقد وتحليل

الجامعة الإسلامية
د. شؤون الكتب - قسم المخطوطات
٥٣٣
التسجيل العام
الخاص
١٤ /

رسالة دكتوراه

مقدمة إلى كلية اللغة العربية (جامعة الأزهر)،
تفصيل درجة الدكتوراه في الأدب والنقد

إعداد

محمد عارف محمود حسين
مدرس الأدب بكلية اللغة العربية

إشراق

الأستاذ الدكتور عبد السلام سرحان

١٩٨٢
١٤ /



نسخ و طبع و تجلید
الجریسی
ت ۹۹۰۵۰ م ۶۵ ل ۲۹

ٖٖ مقدمة ٖٖ

الاهتمام بالمسيرة النهرية
الاهتمام بالصورة النهرية في العصر الحديث
اتجاهات الكتابة عن الميرة النهرية في الفكر
العربي الحديث موضوع البحث وسر اختياره
ومجاله السر في اختيار هذه الكتب السر
في تحديد مجال الدراسة وعدم شموله
منهج الباحث وجهده في هذه المقالة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الاهتمام بالسيرة النبوية

الحمد لله ، والسلام على رسول الله ، محمد بن عبد الله ،
الذي أرسله الله بالهدى وبالحق ليظهره على الدّين كلّّه (١) ، وأنزل
عليه كتاباً " لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ " (٢) ، أَكَلِمَاتٍ
آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ " (٣) ، " إِنَّمَا نَأْتِي لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى
وَرَحْمَةً " (٤) ، فهدي به الناس من الضلالة ، واستنقذهم من الجبالسة ،
واستخرجهم من التّيهلك ، فصولات الله وسلاته عليه هما يوتن من طهيق ،
وما رسم من سهل ، وما أقلم من حجب ، وما أوضح من محجب .

ومـــــــد

فما لا شك فيه أن للسيرة النبوية — على صاحبها أفضل الصلاة
وأتم التسليم — قد حظيت باهتمام المفكرين من الكتاب والأدباء — طس
اختلاف طرائقهم ، وتجايف أساليبهم ، وعوارف مناهجهم ، وطون أفكارهم — بسل
لا تزال تحظى بهذا الاهتمام ، بل سوف تظل محظية به في مستقبل
الأزمان والأصهار .

وليس الاهتمام بالسيرة النبوية قلصراً على فكر بمينه ، أو جهل خاصه
أو عصر محدد ، بل كان الاهتمام بها من قبل الفكر الاسلامي وغيره ، ومن
قبل جميع الأجيال والدهور .

وإذا ما حاولنا أن ننطس موانيع الاهتمام بالسيرة النبوية — من قبل
الكتاب العرب والمسلمين — وجدنا هذا الاهتمام واضحاً بارزاً منذ المصور
الاسلامية الأولى حتى عصرنا هذا .

(١) الآية ١ من سورة " الصاف " (٢) الآية ٤٢ من سورة " فصلت " .
(٣) الآية ١ من سورة " هود " (٤) الآية ٨١ من سورة " النحل " .

ففي المصور الاسلامي الأولى تناول السيرة النبوية - تدوينها وتأليفها وتصنيفها - رَوَاتُ أعلام من أمثال : عُرْوَةُ بن الزُّبَيْرِ ، وَأَبَانُ بن عثمان ، وعاصم بن عُمَرُ بن قَتَادَةَ ، وابن شهاب الزُّهْرِيُّ ، وموسى بن عُقْبَةَ ، ومحمد ابن اسحاق ، والواقدي ، وابن سعد ، وابن هشام ، والكثيري . . .

وفي المصور التي تلت المصور الأولى والمصور الوسطى ، تناول السيرة النبوية - تأليفها ، أو اختصارا للمؤلفات السابقة ، أو شرحا وتعليقا عليها - مؤرخون أعلام من أمثال : الأصبهاني ، والماوردي ، وابن حزم ، والبيهقي ، وابن عبد البر ، والقاضي عياض^(١) ، والسيوطي ، وابن الجوزي ، وأبي ذر الحُثَيْثِي ، وابن الأثير ، وابن سَهِدِ اللّٰهِي ، وابن كثير ، والمقريزي ، والسيوطي ، والقسطلاني ، وشمس^(٢) الدين القاسبي ، ونور الدين الحلي^(٣) . . .

وفي العصر الحديث تناول السيرة النبوية - دراسة وشرحاً وتعليقاً وفلسفة وصياغة - كثير من المفكرين والأدباء ، من أمثال : رفاعة الطنطاوي ، ومحمد الحُضْرِي ، ومحمد الرحمن عزام ، ومحمد أحمد جَادَ الْمَلِكِي ، ومحمد حُسَيْن كَهْكَل ، وطلح حسين ، ومحمد الحميد المصطفي ، ومصطفى صادق الرافعي ، وتوفيق الحكيم ، ومحمد فريد وجدي ، وأحمد الخالوي ، وأحمد حسن الزيات ، وهما سنحود المقلد ، ومحمد الحميد جُودَةُ الشَّحَارِ ، ومحمد عزة دُرُوزَةَ ، ومحمد الفزالي ، ومحمد الرحمن الشوقوي ، ومحمود شيت خطاب ، ونظمي لَوْقَا ، وخالد محمد خالد ، ومحمد شوكَّتِ التَّنُوخي ، ومحمد البرزوقي نَوَّال ، ومحمد

(١) هو : عياض بن موسى بن عياض بن عمرو ، أبو الفضل ، عالم المنبر وإمام أهل الحديث في وقته ، ولد عام ٤٧٦ هـ وتوفي عام ٥٤٤ هـ . من تصانيفه : " الشفا بتمحيص حقوق المصطفى " في السيرة النبوية .

(٢) هو : محمد بن يوسف بن علي بن يوسف شمس الدين الشامي ، مُخَدِّثٌ عَالِمٌ بالتاريخ . توفي عام ٩٤٢ هـ (١٥٣٦ م) من تصانيفه : " مُبَسَّلُ الْهُدَى وَالرَّشَادِ فِي سِيَرَةِ خَيْرِ الْمَبَادِ " ويعرف بالسيرة الشامية .

(٣) علي بن برهان الدين الحلبي . ولد عام ٩٧٥ هـ وتوفي عام ١٠٤٤ هـ من تصانيفه : " إنباء الميعون في سيرة الأمين المأمون " ويعرف بالسيرة الطلبية .

سميد رمضان البوطي ، ومصطفى محمود ، وغير هؤلاء وأولئك .

ولن يقف الاهتمام بالسيرة النبوية عند المصر الحديث ، بل سيظل الاهتمام بها قائما على امتداد المصور - ان شاء الله - ولا عجب في ذلك ، فلقد كانت السيرة النبوية - وستظل - ان شاء الله - الميدان الفسيح الذي يجول فيه كل عقل ، وسبح معه كل فكر ، وستبقى المادة الخصبة الثرية التي تمد كل ذى لسان وقلم . . بما يشاء ويهوى ، لما تحتوى عليه من صفحات مشرقة ملهية بالأحداث الغضة ، والمواقف الهارزة ، والمعطيات الجليلة ، والحكم البالغة ، التي نهل من معينها الخطباء والمفكرون والأدباء : فتناولها الخطباء في خطب بليغة مبينة ، يكشفون عما فيها من مواضع العظة والمبرة ، ومواطن الفخر والمظمة ، كما تناولها المفكرون - على اختلاف سبلهم واتجاهاتهم - بأساليب مختلفة وطرائق متباينة - اذ تناولها المصلون : المؤرخون ، والسياسيون ، والنفسيون ، والمفسرون . كما تناولها الأدباء من الكتاب والشعراء ، حيث وجدوا فيها المادة الدسمة التي تلهمهم التمرف الى المواقف العظيمة ، وادراك سر الأحداث الجليلة ، وتمييز الشخصيات الغضة ، التي راحوا يتخذون من مواقفها وأحداثها - وشخصياتها مادة يصوغون منها أدبهم على اختلاف أشكاله ، وتعدد أنماطه : من قصيدة ، وقصة ، ومسرحية ، ومقالة ، وخاطرة ، وفكرة . .

ولا غرو ، فالسيرة النبوية هي تلك الصفحات المشرقة لحياة الرسول - صلى الله عليه وسلم - تلك الحياة التي كانت تطهيرا عمليا للقرآن الكريم : عقيدة وسلوكا وعيلا وقولا وأدبا وتشريعا ، فلا عجب أن تكون هذه السيرة - بما حوت من أعماله وأقواله وتشريعاته ، وما وصفت من أخلاقه وسلوكه وأدابه ومعاملاته - منهاجا قويا ، وصراطا مستقيما ، يهتدي بها المهتدي ، ويقتدي بها المقتدي ، ولا عجب - لهذا كله - أن تكون تلك السيرة النبوية محط أنظار العقول البشرية ، ومحل اهتمامها

على اختلاف الأزمنة والأعمار ..

الاهتمام بالسيرة النبوية في العصر الحديث :

وإذا كانت العناية بالسيرة النبوية تعد قدرا مشتركا بين جميع الأزمنة والأعمار ، فإنه ما يلفت النظر ويستدعي الانتباه أن العصر الحديث كان صاحب الحظ الأوفى والنصيب الأوفر في الاهتمام بالسيرة ^{كأنه يكون} ~~كأنه يكون~~ ، فخرجت عشرات الكتب والمؤلفات والبحوث والدراسات والمقالات ، تتناول السيرة النبوية دراسة وشرحا وتحليلا ونظرة وصياغة .. بل ^{كأنه يكون} ~~كأنه يكون~~ من التقاليد الأدبية أن يقدم كل كاتب رؤيته الخاصة لهذه الشخصية الفذة ، ^{كأنه يكون} ~~كأنه يكون~~ الأثر نفس حياة العرب والمسلمين والبشر جميعا ... وكان ثمرة هذا كله ثروة هائلة احتوتها مكتبة " السيرة النبوية " .

اتجاهات الكتابة عن السيرة في الفكر العربي الحديث :

ونظرة الى ما أُلّف عن السيرة في عصرنا الحديث ، نرى أنه يختلف عما أُلّف في المصور الأولى والوسطى .

فالمؤلفات في المصور الأولى كانت تُعنى بتدوين السيرة وصنفيها وجمع ما يتصل بها ، وفي المصور التي تلتها اهتمت بترتيب أحداثها وقائمتها ، والمؤلفات في المصور الوسطى حتى العصر الحديث كانت تتجه الى تلخيص الكتب السابقة ، أو التعليق عليها ، أو شرح غريبها ، أو تجميع المعلومات منها ، أو الاهتمام بدلائل النبوة وشمال الرسول صفاته وأحواله . كما سنشير الى ذلك في موضعه .

والمؤلفات في العصر الحديث تتجه الى ^{الاهتمام} ~~الاهتمام~~ السيرة النبوية وتحليلها ونظمتها أو صياغتها ومحاولة كتابتها على نسق جديد يختلف

اختلافا كبيرا عن النسق الذى كُتِبَ به قبل ذلك . . . سواء فى الطريقة أو الأسلوب أو المنهج ، نظرا لما جَدَّ من ثقافات ، وما طرأ على الفكر العربى من تغيير، نتيجة الاحتكاك الفكرى بين الشرق والغرب .

ونظرة ثانية الى هذه المؤلفات ترينا أنها اختلقت فى اتجاهاتها وطرائقها وأساليبها .

فمنها ما هو تاريخى بحت ، يسير فى فلك الكتابة التاريخية القديمة ، وهى التى تتسم بطابع سرد الوقائع والأحداث، وحشد الأخبار والروايات ، فى أسلوب علمى تقهرى لا تظهر عليه روح التجديد السستى طرأت على الكتابة الحديثة .

ومن الكتب التى تمثل هذا الاتجاه كُتِبَ : "نهاية الأيجالز فى سيرة ساكن الحجاز" (١) ، ورفاعة رافع الطهطاوى ، و"نور اليقين فى

(١) يُعَدُّ هذا الكتاب بداية الجزء الثانى من كتاب : "أنوار توفيق الجليل فى أخبار مصر وتوثيق بنى اسماعيل" وهو الجزء الذى يقتصر تاريخ مصر بعد الاسلام ، وقد بدأ رفاعة ينشره فى ملاحق مجلة "رضة المدلس" فى سنتها الثالثة ، ولكن رفاعة مات قبل أن يتم طبعه . وترك الباقي من الكتاب مَسودات قام عليها من بعده ولده "على" . ومنهج رفاعة فى هذا الكتاب - خاصة ما يتعلق بأحداث السيرة النبوية بعد الهجرة - هو منهج مَسْنُون سبقت من المؤرخين كالطبرى وابن الأثير ، فقد مضى يؤرخ لحياة الرسول فى المدينة طالما بعد علم ، فيذكر فى كل سنة أعمال الرسول فيها ، وفرواته ، وما نزل فيها من أحكام ، أما أسلوبه فيغلب عليه الترسى والبساطة والبساطة ، والاعتماد على التعميد والتفصيل والتحرير الكامل من قواعد الزينة اللفظية ، إلا أن يأتي السجع طبعها غير مقصود ، على عكس ما نجده فى الجزء الأول الذى يغلب عليه الصناعة اللفظية - راجع كتاب : رفاعة رافع الطهطاوى ، أحمد

سيرة سيد المرسلين " (١) لمحمد الخضرى ، و "مورد الصفا فى سيرة المصطفى" لأحمد الحمالوى .

ومنها ما هو تاريخى تحليلى فلسفى ، وأغنى به الكتب التاريخية الحديثة التى تتجه الى الشرح والتفسير وتحليل الأحداث وفلسفتها، ومحاولة النفاذ الى أسرارها ودقائقها وكشف خباياها ، وسوق هذا كله فى أسلوب على لا يمت الى الأسلوب الأدبى بحسب .

ومن الكتب التى تمثل هذا الاتجاه كُتِبَ : " محمد المثل الكامل " (٢) لمحمد

أحمد بدوى . الطبعة الثانية - ١٩٥٩ . ط لجنة البهتان المرسلين . صفحات : ١٢٤ - ١٣٠ . وراجع كتاب : محمد صلى الله عليه وسلم " نهاية الابهاز فى سيرة ساكن الحجاز " دراسة وتحقيق د. فاروق أبو زيد . الجزء الأول . صفحات : ٣ - ٢٩ . ط دار الفكر والفن .

(١) ألف هذا الكتاب فى العشرينيات وقد طبع عدة طبعات ، ومنهج فيه صاحبه نهج الدراسات التاريخية القديمة التى تعنى بسرد الأحداث والوقائع حسب وقوعها ، كما يؤرخ الأحداث بحد الهجرة مرتبة حسب السنين ، كما فعل الطبرى وابن الأثير ، أما أسلوب الكتاب فعلمى تقريرى سردى لا يميل الى شرح أو تحليل أو تعليق الا فى حالات قليلة كتعليقه تنافس قرهش على وضع الحجر الأسود ، وتعليقه عدم اسلام أبى طالب .

(٢) ظهر هذا الكتاب سنة ١٩٣٩ ، حيث ظهرت الطبعة الأولى منه ، وهو كالكتاب السابق نهجا وأسلوبا وطريقة .

(٣) ظهرت الطبعة الأولى من هذا الكتاب سنة ١٩٣١ ، وطبع بحددا عدة طبعات ، والكتاب فى حقيقته مجزوءة من البحوث التاريخية التى تدور حول النبى صلى الله عليه وسلم ، كالحديث عن فضائله وسكانته بين الرسل ، والأسباب التى اقتضت بعثته ، وسراحل النبوة ، والأدلة على صدق نبوته ، وكونه أكبر المصلحين نجاحا ، وكونه أوفى الأنبياء ديناً . ثم يتناول المؤلف فى آخر الكتاب - السيرة النبوية فى ابهاز ، والمؤلف فى كتابه ينهج نهجا تاريخيا فى طريقته وأسلوبه .

أحمد جاد المولى ، " وسيرة الرسول : صُورٌ مقبسة من القرآن الكريم
وتحليلات ودراسات قرآنية " (١) " لمحمد عزة دروزة ، و " الرسول القائد " (٢) " للواء :

(١) ظهر هذا الكتاب فى طبعته الأولى سنة ١٩٤٧ ، وهو كتاب ذو منهج جديد ، حيث يعالج السيرة النبوية من خلال ما ورد عنها فى القرآن الكريم ، والذي دفع المؤلف الى سلوك هذه الطريق ، هو أن القرآن يعد أصدق مصدر للسيرة النبوية ، وهو وإن كان خاليا من التواريخ والأسماء والأعلام والأرقام يعطى فى النهاية صورة صادقة وصحيحة عن السيرة تفابير الكبير ما هو مستقر فى الأذهان أو ورد فى كتب السيرة ، والكتاب لا يجرى على نسق تاريخى ملحد شأن معظم كتب السيرة ، بل صنفه مؤلفه من خلال ما ورد عن السيرة فى القرآن من آيات مكية ومدنية ، وقام بتصنيفها وترتيبها فى مجموعات متناسبة ، كل مجموعة تحوى العديد من الآيات التى تدور حول موضوع واحد ، وضعها المؤلف فى فصل خاص ، فصل عن شخصية النبى عليه السلام ، وفصل عن مواقف العرب من الدعوة ، وفصل عن اليهود ومواقفهم فى العهد المكي ، وفصل عن الجهاد فى هذا العهد وهكذا ٠٠ ثم أخذ المؤلف يحلل الآيات الواردة فى كل مجموعة ، ويكشف ما فيها من دلائل وإشارات وأحكام ، والناسخ منها والمنسوخ ، والمتقدم والمتأخر . أما أسلوب الكتاب فملى تقريرى ٠٠

(٢) ظهر هذا الكتاب فى طبعته الأولى سنة ١٩٥٨ ، وهو دراسة تحليلية لحياة الرسول المسكينة ، وما حدث فيها من حروب ، على أسس المصطلحات المسكينة الحديثة ، مبرزاً ما فى هذه الحياة المسكينة المصدية من سبق فى هذا المجال لأغلب النظم والقوانين المسكينة الحديثة ، وقد ملأ هذا الكتاب مكاناً كان شاغراً عن حياة الرسول المسكينة ، فكل ما تقدم من كتابات عن هذه الناحية ، كان معلومات متناثرة غير وافية ، فجاء هذا الكتاب ملماً بهذه المعلومات ، ومنسقا لها ، مرتباً للأفكار ، فكرة ففكرة ، مبتدئاً فى كل غزوة - بالحديث عن مواقف الفريقين قبل المعركة ، ثم أهداف المعركة ، ثم قوات الطرفين ، ثم سير الحوادث ، ثم نتائج المعركة ودروسها المفيدة ٠٠ على أن هذا كله كان مشغوعاً بوسائل الانضاج من خرائط وأشكال وصور ورسم لمعركة مواقع القتال ، ورسم أدواته

محمود شيت خطاب ، و " محمد رسولا نبيا " (١) لعبد الرزاق نوفل ، و " فقهه
السيرة " (٢) لمحمد سعيد رمضان البوطي . . كما أن من المقالات

المستعملة وأسلحته الفخرية عن العصر الحديث ، مع التعريف بها .
هذا من ناحية طريقة الكتاب ومنهجه . أما أسلوبه فعلى وصفى ،
وتتاز ألفاظه وعباراته بالسهولة والبساطة .
(١) ظهر هذا الكتاب فى طبعته الأولى سنة ١٩٦١ ، وفيه يأخذ
المؤلف فى التدليل على صدق رسالة الرسول وصدق دعواه هذا ،
الرسالة ، من واقع حياته صلى الله عليه وسلم قبل الرسالة ومعداتها .
أما قبل الرسالة فكانت أخلاقه الحميدة ، وما اشتهر به من سمات
وعادات وشيم خير دليل على أن المتصف بها جدير بأن يكون
نبيا . أما بعد الرسالة ، فالأدلة كثيرة ، فهذا القرآن الذى
أنزل عليه أصدق دليل على صدق محمد فى دعواه النبوة والرسالة
بما اشتمل عليه من اعجاز بىانى وتصوير يلىخ لأحوال الآخرة ، وحديث
عن الأمم الفاهرة ، ودعوة الى مكارم الأخلاق ، وما حواه من تشريعات
فيها سعادة الانسان فى دنياه وأخراه ، وما فيه من اعجاز علمى
فى كثير من الأشياء التى يكشفها علماء اليوم . ومن الأدلة التى
ساقها المؤلف تجرد دعوة محمد صلى الله عليه وسلم من الأغراض
الشخصية . ومنها الحاجة الماسة لهذه الرسالة . ومنها ما
تقدم ميلاد الرسول من خوارق وارهصات وتنهات ، وما وقع منها
فى حياته أيضا . ومنها ما تحدثت به الكتب السابقة عن الرسول
محمد وما فيها من أوصاف لا تتطابق الا عليه . ومنها انتشار الاسلام
فى أكثر بقاع العالم . ويأخذ الكاتب فى تحليل هذه الأدلة فسى
أسلوب سهل يسير ، فيه سلامة واشراق ، يشع منه صدق الماطقة
وروح الايمان .

(٢) ظهر هذا الكتاب فى طبعته الأولى سنة ١٩٦٧ ، وفيه يتناول
المؤلف أحداث السيرة النبوية ووقائعها بالشرح والتفسير والتحليل ،
وذلك حين يورد الحادثة أو الواقعة ، ثم يأخذ فى شرحها
وتفسيرها وتحليلها ، مستتبها ما يمكن استنباطه من دروس ودلائل
وعبر وحكم وقواعد وأحكام شرعية يمكن أن تؤخذ من أحداث السيرة
ووقائعها ، من خلال أفعال الرسول وأقواله وتقديراته . والكاتب
ينهج نهجا تاريخيا فى عرضه لأحداث السيرة ، وتقسيمها الى

التي تشل هذا الاتجاه ، مقالات محمد فريد وجدي ، التي كتبها في
السيرة النبوية بعنوان " السيرة المحمدية تحت ضوء العلم والفلسفة " .

مراحل ، كل مرحلة تشل مدة زمنية لها أحداثها ووقائعها ، كما
أن الكتاب في طريقته ينفج نهجا مدرسيا ، حيث يعقب على
الحادثة أو الواقعة بما يستفاد منها " والكتاب ذو أسلوب علمي
تحليلي .

هي مجموعة من المقالات التي كتبها محمد فريد وجدي في السيرة
النبوية بهذا العنوان ، وقد نشرت في مجلة الأزهر ابتداء من
السنة العاشرة لصدور هذه المجلة سنة ١٣٥٨ هـ ، وفيها يتناول
الكتاب جوانب عدة من السيرة النبوية ، وخاصة الجوانب المتصلة
بالنبي والرسالة والوحي ، وغير ذلك من الأمور الروحية والفهمية .
وقد اعتمد الكاتب في تحليل هذه الجوانب على الأدلة المادية
الطبيعية المحسوسة ، بقصد التدليل على إمكان وقوع هذه الأشياء ،
لأنك الذين لا يؤمنون إلا بهذه الأدلة من مادي المصير
الحديث . أما أسلوب هذه المقالات فهو أسلوب علمي تحليلي
فلسفي ، يعتمد على الشرح والتحليل والتفسير وإيراد النصوص
والأدلة والموازنة بينها ثم الاستنتاج . ومن هذه المقالات :
" ما هي النبوة ، وما هي الرسالة ، والأدلة العلمية على إمكان
الوحي ؟ " . المقالة الثانية : صفحات : ٩٠ - ٩٨ - المجلد
العاشر - مجلة الأزهر . - " الشكوك في إمكان الوحي وعلاجها
بالتفوتحات العلمية الحديثة " - المقالة الثالثة : صفحات : ١٦١ -
١٦٨ - المجلد العاشر - مجلة الأزهر - " حظ الأم من
النبوة قديما وحديثا " - المقالة الرابعة : صفحات : ٢٤١ -
٢٤٦ - المجلد العاشر : مجلة الأزهر - " نصيب العالم من
رسالة خاتم المرسلين محمد صلى الله عليه وسلم " - المقالة الخامسة :
صفحات : ٣٢١ - ٣٢٥ - المجلد العاشر : مجلة الأزهر .

ومنها ما هو تحليلي فلسفي تاريخي ، ينحو نحو الشرح والتفسير وتحليل الأحداث وفلسفتها ، ولكنه لا يغفل أن يسوق أحداث السيرة النبوية ووقائعها في أسلوب أدبي محب الى النفس ، لا أقول : انه الأدب الخالص ، بل انه قريب من هذا الأدب " .

وهذا الاتجاه - اذن - يجمع بين الحقيقة التاريخية والمبارة الأدبية ، أو ما يسمى - بالصياغة الأدبية للتاريخ .

ومن الكتب التي تمثل هذا الاتجاه كتيب : " حياة محمد " (١) لمحمد حسين هيكل ، و " عمقيرة محمد " (٢) لمعاش محمود العقاد ، و " فقه السيرة " (٣) لمحمد الفزالي ، و " انسانيات محمد " (٤) لخالد محمد خالد ، و " محمد الرسالة والرسول " (٥) لنظمي لوقا ، و " صور من حياة

(١) سيرد القول عنه بالتفصيل في باب خاص من هذه الرسالة .

(٢) سيرد القول عنه بالتفصيل في باب خاص من هذه الرسالة .

(٣) سيرد القول عنه بالتفصيل في باب خاص من هذه الرسالة .

(٤) ظهرت الطبعة الأولى منه سنة ١٩٥٩ ، وفيه يتناول المؤلف بعض الجوانب الانسانية في شخصية الرسول الكريم ، من الرحمة والمعدل والحب والسو ، والعناية بمشاكل الناس ، وقد نهج المؤلف في الكشف عن هذه الجوانب منهجا تحليليا نفسيا ، حيث أخذ يتتبع هذه الصفات ، ويتقصى تلك السمات من خلال أفعال الرسول وأقواله ، ويسوق من الأمثلة والشواهد ما يدل عليها ، بل انه لمفرض فسى أعاق نفس الرسول الكريم ليكشف عن بواطن هذه الصفات ودوافعها ، وقد انتهى المؤلف الى أن يبحث هذه الصفات وتلك السمات مما جبل عليه الرسول من رحمة وحب وعادل ، وانسانية عالية رفيعة . والمؤلف بهذا المنهج - يبدو وكأنه متأثر بطريقة العقاد في كتابه " عمقيرة محمد " . أما أسلوب الكتاب الذي صاغ من خلاله هذه الجوانب الانسانية فهو أسلوب أدبي خطابي ، فيه جزالة وقسوة ، كما أن فيه سلاسة وإشراقا وحرارة تنبع من صدق عاطفة الكاتب وإيمانه وأخلاصه .

(٥) ظهرت الطبعة الثانية منه سنة ١٩٥٩ ، وفيه يتحدث المؤلف عن

الرسول (١) " لأمين دويدار . ومن المقالات التي تمثل هذا الاتجاه ، مقالات : مصطفى صادق الرافعي التي كتبها حول السيرة النبوية (٢) .

== الرسالة المحمدية والرسول محمد ، وفي الفصول الأولى من الكتاب يتناول المؤلف هذه الرسالة ويبين أنها قد جاءت مناسبة لظهور البشرية الخلقية ، ملهية حاجة الانسان الطهية ، موفقة بسين دينه ودينه ، ومتألفة تلك القسمة المسقة بين الروح والبدن في السر والعلن ، وفي الفصول الثلاثة الأخيرة من الكتاب يتناول المؤلف الحديث عن الرسول محمد صلى الله عليه وسلم . والحديث يدور حول التدليل على صدق الرسول في دعواه الرسالة ، وعلى أنه رسول حق . ويسوق المؤلف أدلة ثلاثة ، وهي : إيمانه بدعوته وشبته عليها وتحله في سبيلها كل صنوف الأذى والعنت . وعدم ادعائه لنفسه صفة أو ميزة ليست له ، أو حقاً يستلحق به على أحد . وسجاده نفسه وترويضه إياها على التواضع والطم والزهد . وقد ساق المؤلف هذه الفصول الثلاثة في أسلوب أدبي يخاطب العقل وينفذ إلى القلب ، تحسن منه صدق العاطفة وصدق التعبير . (١)

ظهرت الطبعة الأولى منه سنة ١٩٦٨ ، وفيه تناول المؤلف السيرة النبوية تناول المؤرخين ، الذين يسوقون أحداث السيرة وقائمه مرتبة ، ولكنه صاغها من خلال أسلوب قصصي ، وذلك منج المؤلف بين الحقيقة التاريخية والعمارة الأدبية ، وذلك بقصد تجهيز النشئ إلى مطالعة السيرة والوقوف على ما فيها من صفحات مشرقة ودروس مفيدة ، وتمكس عليها أفعال الرسول وأقواله ، بقصد أن يتأسى أولئك النشئ ويقتدوا برسولهم الكريم . والمؤلف متأثر في سلوكه الطريقة القصصية بطله حسين في كتابه " على هامش السيرة " .

هي مجموعة من المقالات التي كتبها مصطفى صادق الرافعي حول السيرة النبوية في مناسبات عدة ، خاصة مناسبة الهجرة ، تلك المناسبة التي أنشأ لها الكاتب مقالات عدة ، نشرها في مجلة الرسالة . وفي هذه المقالات يتناول الكاتب جوانب عدة من السيرة النبوية ، وأسلوب هذه المقالات فلسفي أدبي تطهلي ، يغلب عليه أسلوب الرافعي المشهور . ومن هذه المقالات : " وحى الهجرة " وهي أولى مقالاته في الرسالة ، أنشأها لعدد الهجرة "و" السيرة الروحية الأعظم " و" الجبال الفنى في الهاتمة النبوية " وقد أنشأها

(٢)

ومنها ما هو أدبي، يعنيه أن يعرض السيرة في قالب أدبي يجيب الى النفس الاطلاع على السيرة النبوية ، ويشوق القلب الى الاستماع اليها .

ومن الكتب التي تمثل هذا الاتجاه كتب : " على هامش الصورة " (١) لطفه حسين ، و " صور اسلامية " (٢) لمحمد الحميد المشهدي ، و " محمداً " لتوفيق الحكيم ، و " محمد رسول الله والذين معه " (٣) لمحمد الحميد جودة السحار ،

المؤلف هذا البحث جواباً لرجاء جمعية الهداية الاسلامية فسي بغداد سنة ١٣٥٢ هـ - و " فلسفة قصة " وقد أنشأ هذه المقالة لعدد الهجرة سنة ١٣٥٥ هـ - و " فوق الآدمية " (الاسرار والمعراج) وقد أنشأها برأى صديقه محمود أبى رية - و " حقيقة المسلم " وقد كتبها لجماعة " الكشاف المسلم " في بيروت في ذكرى المولد النبوي - و " الانسانية العليا " - و " سمو الفقر في الصلح الاجتماعي الأعظم " - و " درس من النبوة " - راجع هذه المقالات في " وحى القلم " الجزء الثاني من صفحة ١١ - ٢٠ ، والجزء الثالث من صفحة ٣ - ٣٠ - الطبعة السادسة .

سيرد القول عنه بالتفصيل في باب خاص من هذه الرسالة . (١)
كان هذا الكتاب في بداية أمره مجموعة من الفصول التي كتبها المؤلف في السيرة النبوية ، وكان ينشرها في مجلة " الصرخة " في الثلاثينيات ، وفي هذا الكتاب يستعرض الكاتب السيرة النبوية بأحداثها ووقائعها من خلال أسلوب قصصي ، بما فيه من سرد ووصف وتصوير .

سيرد القول عنه بالتفصيل في باب خاص من هذه الرسالة . (٢)
يقع هذا الكتاب في عشرين جزءاً ، وقد بدأت أجزاء هذا الكتاب في الظهور في منتصف الستينيات . وقد طبعت أكثر من مرة . وهذا الكتاب يروي أحداث السيرة ووقائعها من بدايتها إلى نهايتها في أسلوب قصصي جميل ، بل ان الكاتب لم يهمل الحديث عن السيرة بالحديث عن آباء الرسول وأجداده : عن ابراهيم واسماعيل ، وجزهم وصنى هاشم وجهد المطلب ، والحديث عن أحداث وقعت قبل ميلاده - صلى الله عليه وسلم - مثل حفر زمزم وواقعة الفيل - وكذلك يعطى الكاتب للقارئ صورة عن الحياة قبل ميلاد الرسول -

و "محد رسول الحرية" (١) لمبد الرحمن الشرقاوى ، و "محد فى طفولته

هى بمثابة المقدمات والبشائر لميلاد الرسول الكريم ، وقد استغرق هذا التمهيد عددا من الأجزاء الأولى من الكتاب . ثم أخذ الكاتب بمحد هذا التمهيد فى الحديث عن أحداث السيرة ووقائعها فى ترتيب زمنى ، مبتدئا بميلاد الرسول ومنتهاها بوفاته صلى الله عليه وسلم ، والكتاب يعد أوسع كتاب تناول السيرة النبوية بهذه الطريقة القصصية .

بدأ المؤلف يكتب فصول هذا الكتاب فى الخمسينيات ، وبدأ فى الستينيات ، وقد هجم الكاتب ووجه اليه نقد من قبل الكثيرين آنذاك . ثم طبعته هذه الفصول فى كتاب أكثر من مرة . والكتاب يروى أحداث السيرة ووقائعها من خلال أسلوب قصصى أشبه بالرواية ، وأما طريقة المعالجة فان الكاتب يعالج أحداثها ووقائعها من خلال فكرة خاطئة تقول : ان الاسلام ثورة اجتماعية جاءت لاصلاح حال الانسان . . . المعذب بظهور الظلم والمهروسة والاضطهاد - واسماده ، وأن محمدا صلح اجتماعى جاء لانصاف الانسان واعطائه حقه فى الحياة الكريمة ، وأن محمدا حين كان يخلو بنفسه فى غار حراء انما كان يفكر فى أمر هذا الانسان المضطهد . وفى كيفية انقاذه ما هو فيه . وأن محمدا حين يدعو الناس الى دينه ودعوته ، وحين يقاتل ويحارب من جحد وأنكر فانما يحارب من أجل الانسان المعذب المستضعف . . . هكذا يطوِّع الكاتب أحداث السيرة ووقائعها لهذه الفكرة الآتية ، ونسى الكاتب - أو تناسى - أن للهدف الأساسى من رسالة الاسلام ، هو انقاذ الانسان من ظلمات الشرك والوثنية الى نور التوحيد وعبادة الله وحده . ويضرب الكاتب صفحا عن النية والوحى والقرآن وكل ما يعنى بالجوانب الروحية ، لأنها - فى نظره - جوانب سلبية . والكتاب ملئ بالأخطاء والمفاهيم والأفكار الالحادية التى يجب أن يتأى عن التفكير فيها - فضلا عن اظهارها للناس - كل مسلم مخلص .

وصها (١) " لمحمد شوكت التونى ، و " جهاد النبى (٢) " لمحمد محمود زيتون .

ومن المقالات التى تشل هذا الاتجاه ، مقالات أحد حسن الزيات حول السيرة النبوية (٣) .

(١) ظهر هذا الكتاب فى طبعته الأولى سنة ١٩٥٩ ، والكتاب لا يروى أحداث السيرة من أولها الى آخرها ، كما يفعل غالبية الكتاب بل يروى - كما يظهر من عنوان الكتاب - جزءا من أخبار حياته صلى الله عليه وسلم ، هذا الجزء هو الحقبة الواقعة بين ميلاده وزواجه بالسيدة خديجة - رضى الله عنها - أى ان الكتاب يتناول ميلاد الرسول وطفولته وصباه وشبابه ورجلته قبل البعثة ، والكاتب يتحدث عن هذه الحقبة وما تخللها من أحداث ففى أسلوب قصصى تصويرى جميل ، بما يعتمد عليه من سرد ووصف وتصوير وخيال .

(٢) يقع هذا الكتاب فى جزأين ، وهو يصور مراحل الجهاد التى خاضها الرسول الكريم ، والتى قابلها بصبر وإيمان وشجاعة ففى سبيل الدعوة الى دين الاسلام ، من يوم أن كلف بالرسالة والدعوة الى عبادة الله وحده حتى وفاته ، وفى خلال هذه الحياة الحافلة بضروب الكفاح والجهاد ، يصور الكاتب مراحل الجهاد وتنوعها بين الجهاد بالقول والموعظة الحسنة والجهاد بالسيف حتى غدت راية الاسلام خفاقة عالية - والجزء الأول تهدأ أحداثه من عام الفيل وميلاد الرسول ، وينتهى بفزوة بدر - والجزء الثانى يبدأ بفزوة أحد ، وينتهى بحجة الوداع . والكاتب يصور هذه المراحل من خلال أسلوب يعتمد على ما يعتمد عليه الأسلوب المسرحى من فصول ومشاهد ومناظر وحوار .

(٣) هى مجموعة من المقالات التى كتبها أحد حسن الزيات حول السيرة النبوية ، فى مناسبات عدة ، وخاصة مناسبات الهجيرة وذكرى المولد النبوى ، وقد نشر هذه المقالات فى مجلة الرسالة . وفى هذه المقالات يتناول الكاتب بعضا من جوانب السيرة النبوية ، وأسلوب هذه المقالات أدبى يغلب عليه أسلوب الزيات المشهور بالصناعة اللفظية .

موضوع البحث وسر اختصاره وسجله :

ونظرة على ما ألف من كتب فى إطار الاتجاهين الآخرين : التاريخى
الأدبى ، والأدبى - وهذا ما يعنى الباحث الأدبى - ترينا أن هذه
الكتب اختلفت فى طرائقها وأساليبها وسنأهجا ، كما اختلفت فى البواعث
عليها والدوافع اليها . فكل كتاب له طريقته الخاصة التى مار عليها

-
- ومن هذه المقالات مقالات بعنوان : " ذكرى المولد " فى
أول ديسمبر ١٩٣٣ ، و ٢٥ يونيو ١٩٣٤ ، و ١٠ يونيو
١٩٣٥ - راجع هذه المقالات فى " وحي الرسالة " المجلد
الأول - الطبعة الثامنة ، صفحات : ٣٠ - ٣٢ ، ١٣٣-١٣٦ ،
٢٣٣ - ٢٣٦ .
- وسنأ مقالات بعنوان " العلم الهجرى " فى ٢٣ إبريل ١٩٣٤ ،
١٥ إبريل ١٩٣٥ ، و ٥ إبريل ١٩٣٧ ، و ٣١ مارس ١٩٣٨ - راجع
هذه المقالات فى " وحي الرسالة " المجلد الأول ، صفحات :
١١٢ - ١١٥ ، و ٢١٠ - ٢١٣ ، ٣٦٥ - ٣٦٨ ، ٤٢٥ -
٤٢٧ ، وسنأ مقالة بعنوان " محمد الزعيم " أنشأها فى ٤ مارس
١٩٤٠ - راجع هذه المقالة فى " وحي الرسالة " المجلد الثانى :
الطبعة السادسة - صفحات : ١٦٢ - ١٧٠ .
- وسنأ مقالة بعنوان " يوسان من أيام الرسول " أنشأها فى ٣ مارس
١٩٤٦ - راجع هذه المقالة فى " وحي الرسالة " المجلد
الثانى . صفحات : ٢٦٢ - ٢٦٥ .
- وسنأ مقالة بعنوان " رسالة الرسول " أنشأها فى ٢٦ يناير ١٩٤٨ -
راجع هذه المقالة فى " وحي الرسالة " . المجلد الثالث - الطبعة
الخامسة ، صفحات : ١٠٥ - ١٠٩ .
- وسنأ مقالة بعنوان " كيف أظن محمد حقوق الانسان " أنشأها
فى أول يناير ١٩٥١ - راجع " وحي الرسالة " المجلد
الرابع - الطبعة الثانية . صفحات : ٥ - ٨ .

بمالها من خصائص وسمات تتفرد بها عن طريقة كتاب آخر ، ولكل كتاب أيضا أسلوبه المنفرد الذى صيغت من خلاله أحداث السيرة ووقائعها بماله من سمات وصفات يتفرد بها عن أسلوب كتاب آخر ، كما أن لكل كتاب أيضا منهجه الخاص الذى يتسم به بما يعتمد عليه من أسس ومبادئ ، تعكس منهج الكاتب وفكره اللذين يرجعان الى عوامل مختلطة ، قد تكون ثقافته التى تشقق بها ، وقد تكون مبادئه التى آمن بها ، وقد تكون أفكاره التى عاشت فى عقله ووجدانه ، ولكل كتاب كذلك بواحه التى بحثت عليها ، ودوافعه التى دفعت اليه ، وهذه جوانب تستحق الدراسة ، وتستوجب التحليل والنقد .

وطى الرخم من كثرة ما ألف فى السيرة النبوية ، وما كتب فيها بأسلوب نثرى أدبى أو قريب منه ، لا نكاد نجد أحدا حاول أن يتتبع هذه المؤلفات ، وأن يتناولها بالدراسة والتحليل من حيث الجوانب التى أشرنا اليها ، للكشف عن بواحيها ودوافعها ، وطرائقها للكتابة ، وأساليبها التعبيرية ، ومناهجها الفكرية . . مع أن كل جانب من هذه الجوانب صالح لأن يكون موضوعا فيها لدراسة جادة وصبغة فى أدب السيرة النبوية .

ومن هنا وجدت فى هذا اللون من الأدب مكانا شافرا شجعتنى على أن اتخذ طريقى الى الكتابة فيه ، صانى أن أملا جزءا من هذا المكان ، واتجهت النية الى أن يكون موضوع الرسالة هو : " كتابة السيرة النبوية فى أدبنا الحديث " . وأعنى بكتابة السيرة النبوية : طرائق الكتابة ، وأساليب التعبير ، ومناهج التفكير ، وولاء هذه الكتابة . . وأعنى بأدبنا الحديث : الأدب المصرى الحديث . ومن هنا أيضا أخذت أغوص فى كتب فى السيرة النبوية فى أدبنا الحديث من مؤلفات ، وأنتقى منها أبرز ما فيها فكرا وأثرا وخصائص وسمات وأسلوبها وطريقة ، وما يمثل أبرز أساليب الكتابة فى السيرة ، وما يعكس الفكر الحديث واتجاهاته فى كتابتها ، وما

يكشف عن البواطن والدوافع وأثرها في كتابة السيرة، حتى أستطيع أن أكشف من خلالها عن ملامح الكتابة في السيرة في أدبنا الحديث، فكان اختياري لهذه الكتب الخمسة ، وهى : " حياة محمد " لمحمد حسين هيكل ، و " على هامش السيرة " لطف حسين ، و " محمد " لتوفيق الحكيم و " عقيرة محمد " لمهاج محمود المقاد ، و " فقه السيرة " لمحمد الفزالي .

السوفى اختيار هذه الكتب:

وليس اختياري لهذه الكتب من قهول الصادقة والاتفاق، وإنما هو اختيار مقصود ، ذلك أن كل كتاب يمثل طريقة معينة من طرق الكتابة ، وأساليبها خاصة من أساليبها ، أصدق تشيل .

فـ " حياة محمد " يمثل الطريقة العلمية الحديثة التى تعتمد على الشرح والتحليل والتفسير والموازنة والاستنباط - أصدق تشيل .

و " على هامش السيرة " يمثل الطريقة القصصية أصدق تشيل ، بما تعتمد عليه من سرد ووصف وتصوير .

و " محمد " يمثل الطريقة ذات الطابع المسرحى أصدق تشيل ، بما يعتمد عليه من فصول وسناظر وشاهد وحوار .

و " عقيرة محمد " يمثل طريقة التحليل النفسى وفلسفة الجوانب النفسية فى الشخصية التى يترجم لها - أصدق تشيل ، بما تعتمد عليه هذه الطريقة من شرح وتحليل، وتفتح وتقرى للمفاتيح والسمات ، وكشف عن بواطنها الأساسية ، ودوافعها الأصلية .

و" فقه السيرة " يمثل طريقة التحليل التاريخى للأحداث والوقائع ، والكشف بها فيها من عبر ودروس وعظات وحكم ، ومحاولة فلسفتها وتحليلها -
أصدق تمثيل .

والإضافة الى هذا السبب الأصيل فى اختيار هذه الكتب وترك ما عداها مما يشابهها طريقة وأسلوبها - وهو أن هذه الكتب تمثل الطرائق والأساليب التى كتبت بها أصدق تمثيل - بالإضافة الى هذا السبب ، نجد هناك أساليباً أخرى دفعت الى اختيارها ، وهى :

١ - أنها أقرب الكتب والمؤلفات الى الطابع الأدبى من غيرها -----
يشابهها فى الطريقة والأسلوب .

٢ - أنها من أشهر ما كتب فى السيرة النبوية فى عصرنا الحديث وأكبرها شيوعاً وذيوعاً .

٣ - أن هذه الكتب كان لها أثر بارز فى الفكر العربى الحديث فى مجال الكتابة فى السيرة النبوية ، بما رسمت من طرائق جديدة فى كتابتها ، وما حاكت من أساليب فى صياغتها ، وما خطت من مناهج فى معالجتها ، حيث تلت هذه الكتب كتب أخرى ، تملك طرائقها ، وتحاكى أساليبها ، وترسم مناهجها ، وكانت نتيجة هذا كله ثروة هائلة من الكتب والمؤلفات زخرت بها المكتبة العربية .

٤ - أن معظم هذه الكتب ألف فى حقبة هامة من حقب النهضة العربية فكرياً ووطنياً ، وهى المدة الواقعة ما بين الثلاثينيات والخسينيات ، وهى مدة مليئة - بلا شك - بالمواقف الوطنية ، والآراء المذهبية والتيارات الفكرية ، التى كان لها أثرها البارز فى حياتنا الفكرية والأدبية .

السر في تحديد مجال الدراسة وعدم شموله:

والسر في عدم شمول هذه الدراسة لكل ما كتب عن السيرة النبوية في أدبنا المسمى الحديث ، وفي اقتصرها على الأدب المسمى الحديث ، أنه من الصعب والمسير على باحث - أى باحث - أن يتناول بالدراسة الواسعة ، والتطويل المفصل ، والنقد المؤمل ، جميع ما كتب في السيرة نسي أدبنا المسمى الحديث من الجوانب التي أسلفنا الحديث عنها - عيسى اختلاف أوصار الوطن المسمى - إذ الاحاطة بدراسة ما كتب من مؤلفات عن السيرة في الآداب العربية المختلفة ، دراسة واسعة وعميقة عمل موسوعي يحتاج الى سنين طويلة ، من جماعات متضامنة .. لكثرة جوانبه ، وتشعب موضوعاته ، وتهاين مسائله ، ولهذا قصرنا الدراسة على لون واحد من هذه الآداب ، وهو الأدب المسمى .

والسر في اختيار الأدب المسمى بالذات مجالا للدراسة دون غيره من ألوان الأدب الأخرى ، هو أن مصر والمصريين رأس في هذا الشأن ، وأن أغلب ما كتب في السيرة في أدبنا الحديث كان بأقلام مصرية ، وهذا يجعله حاملا لأغلب السمات والخصائص التي امتازت بها كتابات السيرة في أدبنا الحديث ، هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى أن الفكر المصري يمثل حجر الأساس في الفكر العربي ، وهذه وتلك تجعلنا أحق بالدراسة ، وأجدر بالتطويل .

ومن الأسرار - أيضا - في عدم شمول هذه الدراسة كل ما كتب في السيرة النبوية من مؤلفات في أدبنا المسمى الحديث - على اختلاف بواعثها وطرائقها وأساليبها ومناهجها - دراسة تحليلية تشخيصية - أن تلك الدراسة على هذا النحو من الشمول والتفصيل عمل يحتاج الى بحوث عميقة ، وإطلاقات واسعة ، تهيجز الفرد أيا كان ، وقد تعجز الجماعة

فضلا عن أن هذه الدراسة الشاملة المفصلة تحتاج الى دراسات متعددة تتناول جوانبها وتلم بأطرافها ، إذ كل أسلوب من هذه الأساليب التى أشرنا اليها - بما يندرج تحته من مؤلفات ودراسات - صالح لأن يكون - وحده - رسالة مستقلة ، فالأسلوب العلمى - بما يندرج تحته من مؤلفات - صالح لأن يكون موضوعا بمعيته ، جديرا بالدراسة والتطويل ، والأسلوب القصصى - بما يندرج تحته من كتب - صالح - أيضا - لأن يكون رسالة مستقلة ، وكذلك الأسلوب ذو الطابع المسرحى ، ومثله الأسلوب التحليلى الفلسفى النفسى ، ويشبهه الأسلوب التحليلى الفلسفى التاريخى كل على حدة بما يندرج تحته من مؤلفات .. "صالح" لأن يكون رسالة مستقلة ..

ومن أجل ذلك لجأت الى طريقتى جميع معظم أساليب الكتابة فى السيرة النبوية ، وتحتوى أبرز سماتها وأشهر خصائصها ، حين حاولت أن أجمع بين هذه الأساليب ، وحين اخترت من كل أسلوب منها مؤلفا يمثل خصائص الأسلوب الذى يندرج تحته هذا المؤلف أصدق تمثيل ، ثم تناولت بالدراسة والتحليل والنقد ، ومن هنا ألفت بين الكم والكيف حين جمعت بين أساليب الكتابة فى السيرة ، فى الوقت الذى حققت فيه الدراسة التحليلية لكل أسلوب من هذه الأساليب من خلال الكتب التى اخترتها مثلة لهذه الأساليب .

منهج الباحث وجهده فى هذه الرسالة :

وللكشف عن معالم الكتابة الأدبية فى السيرة النبوية فى أدبيات الحديث ، من خلال هذه الكتب الخمسة التى اخترتها ، قمت :-

أولا : بدراسة هذه الكتب وتحليلها دراسة وتحليلا دقيقين ، لكى تتكشف أمامى بواطنها وطرائقها وأساليبها ومنهجها ، وبعد مرحلة الدراسة

والتحليل قمت :

ثانيا : بالملاحظة والاستنتاج وسحابة كشف المعالم العامة لاتجاهات
الكتابة من الجوانب الآتية الذكر ، وهى : البواعث ، والطرائق ،
والأساليب ، والمناهج ، التى تدر من خلال هذه الكتب .

ومعد مرحلة الملاحظة والاستنتاج ، قمت :

ثالثا : بالكشف عن هذه الجوانب وتحديد ها ، وهى ان سماتها وخصائصها
وما يمتاز به كل لون من ألوان الكتابة من رسوم ورسوم وشارات .

ومعد مرحلة الكشف والتحديد لهذه الجوانب ، قمت بنقد هذه
الكتب المختارة ، وحاولت تلخيصها على ضوء ما قدمت بين يديها من دراسة
وتحليل ، وعلى ضوء قواعد النقد الأدبى الممتددة والتحليلية .

هذا بالإضافة الى أننى عقدت بحثا تمهيديا تناولت فيه - بإيجاز -
موضوع كتابة السيرة النبوية قديما ، وكيف نشأ علم السيرة ، والمراحل التى
مر بها حتى استقل تماما عن علم الحديث ، كما تناولت دراسة بواعث الكتابة
فى السيرة آنذاك ، كما عشت مع مؤلفي السيرة القدامى ، وعرضت لمناهجهم ،
وما امتازت به هذه المناهج من سمات وخصائص .

هذه الأسس العامة للمنهج ، اقتضت أن تكون الرسالة جامعية
لأبواب خمسة ، وبحث تمهيدى يصدر الأبواب الخمسة وخاتمة .

أما البحث التمهيدي ، فقد تناولت فيه : كتابة السيرة النبوية
قديما ، متحدثا فى هذا الموضوع عن نقاط ثلاثة : الأولى : عن تدوين
السيرة النبوية هوامشه .. والثانية : عن كتاب السيرة النبوية القدامى
ومناهجهم ، والثالثة : عن نقد أهم كتب السيرة النبوية القديمة
وتقديمها ..

وأما الباب الأول : فقد تناولت فيه كتاب " حياة محمد " لهيكل ، بصفة الكتاب مثلاً للأسلوب العلمى الحديث ، وقد شمل هذا الباب فصولاً خمسة . وقد تناولت فى الفصل الأول منها : بواعث الكتابة فى السيرة النبوية عند هيكل .

وتناولت فى الفصل الثانى : طريقة هيكل وسماتها . وتحدثت فى الثالث : عن أسلوب هيكل فى " حياة محمد " وخصائصه . وفى الفصل الرابع : تناولت منهج هيكل فى " حياة محمد " وأسسـه . أما الفصل الخامس ، فقد خصصته لنقد كتاب " حياة محمد " وتقويمه .

وأما الباب الثانى : فقد تناولت فيه كتاب " على هامش السيرة " لطفه حسين ، بصفة الكتاب مثلاً للأسلوب القصصى ، وقد اشتمل هذا الباب على ستة فصول : تحدثت فى الفصل الأول منها : عن بواعث الكتابة فى السيرة النبوية عند طه حسين ، كما تناولت فى الفصل الثانى : الموضوع والفكرة فى هذا الكتاب . وفى الفصل الثالث : تحدثت عن أسلوب كتاب " على هامش السيرة " .

وفى الفصل الرابع : كان حديثى يدور حول الألوان القصصية فى " على هامش السيرة " أما الفصل الخامس : فقد تناولت فيه طريقة طه حسين فى " على هامش السيرة " وألوانها . . وأما الفصل السادس : فقد تناولت فيه " على هامش السيرة " بالنقد والتقويم .

وأما الباب الثالث : فقد تناولت فيه كتاب " محمد " لتوفيق الحكيم ، بصفة الكتاب مثلاً للأسلوب المسرحى ، وقد حوى هذا الباب خمسة فصول . تحدثت فى الفصل الأول منها : عن الحكيم والأدب المسرحى . وتناولت فى الفصل الثانى : الحكيم ومسرحياته الدينية . كما تناولت فى الفصل الثالث : الفكرة والمنهج فى كتاب " محمد " وتحدثت فى الفصل الرابع :

عن جوانب السيرة في هذا الكتاب . أما الفصل الخامس : فقد تناولت فيه كتاب " محمد " بالنقد والتقويم .

وأما الباب الرابع : فقد تناولت فيه كتاب " عقبة محمد " للمقاد ، بصفة الكتاب مثلاً للأسلوب الفلسفي النفس . وقد شمل هذا الباب فصولاً ست . الفصل الأول : يتحدث عن بواعث الكتابة في السيرة النبوية عند المقاد ، وأما الفصل الثاني : فقد تناولت فيه الفكرة والموضوع فـ " عقبة محمد " وأما الفصل الثالث فقد تناولت فيه : خصائص طريقته المقاد في " عقبة محمد " وسماتها . وقد تناولت في الفصل الرابع : أسلوب المقاد في " عقبة محمد " وخصائصه . وفي الفصل الخامس تناولت : منهج المقاد في هذا الكتاب وأساسه . وأما الفصل السادس ، فقد تناولت فيه " عقبة محمد " بالنقد والتقويم .

وأما الباب الخامس : فقد تناولت فيه كتاب " فقه السيرة " للغزالي ، بصفة الكتاب مثلاً للأسلوب الفلسفي التاريخي ، وقد اشتمل هذا الباب على أربعة فصول . تناولت في الأول منها : بواعث الكتابة في السيرة النبوية عند الغزالي ، وفي الفصل الثاني تناولت : طريقة الغزالي في " فقه السيرة " وخصائصها . وأما الفصل الثالث ، فقد تحدثت فيه عن : أسلوب الغزالي في " فقه السيرة " وسماته . وأما الفصل الرابع ، فقد خصصته لنقد الكتاب وتقويمه . وأما الخاتمة : فقد شملت موجزاً للرسالة ، وما اشتملت عليه من أبواب وفصول وباحث ومسائل ، كما اشتملت على ما توصلت اليه من نتائج ، وما انتهت اليه من آراء .

ولقد قابلتني في سبيل إعداد هذه الرسالة صميمات وعظات قصت - بحسن الله وتوفيقه - بتدليلها والانتصار عليها ، فحمد أن وفقني الله لاختيار هذا الموضوع الذي لقي من أستاذي المشرف كل تأييد وترحيب لأنه يمس موضوعاً حساساً من تلك الموضوعات التي تهم المسلمين جميعاً في حاضرهم وغدهم ، إذ أنه محمل بشخصية رسولنا الكريم محمد صلى الله عليه وسلم .

وكان سرور أستاذى عظيمًا حين يتناول هذا الموضوع ابن من أبناء الأزهر الذين شربوا في رحابه الفسحة، وشربوا من معينه العقيدة الإسلامية نقية صافية ...

أقول : بعد هذا الاختيار الموفق وبعد هذا التأييد المطلق لهذا الموضوع قابلتني صمحات وعقبات عدة :-

١ - المشكلة الأولى: وهى مشكلة تتصل بالموضوع :

حيث ان هذا الموضوع له جلاله وخطره وقدره وعظمته لأنه يعنى بشخصية جليلة وخطيرة، وهى شخصية الرسول الكريم - صلوات الله وسلامه عليه - ومن أجل ذلك كثر الكتابات عنها ، وتوفرت على الحديث فيها أقلام وأقلام، سواء من الشرق أو من الغرب، وتباينت في هذه الشخصية الآراء، واختلفت فيها الأنهام ، وتناولها هؤلاء وأولئك حسب عقائدهم وأفكارهم ومذاهبهم ، ومن هنا كثر فيها الاتجاهات، وتعددت اليها الطرائق ، واختلفت معها السبل ، وكان على باحث مثلى يتناول الحديث عن هذه السيرة النبوية في الأدب المصرى الحديث أن يقرأ ما وسعه الجهد مما تناول هذا التاريخ المشرق من كتب في الأدب المصرى كى يقف على وسائل الفكر المعنى في تناوله للسيرة النبوية، وهذا مجهود ضخم لكثرة ما كتب فيها حديثا .. وكان عليه - أيضا - أن يقرأ ما كتب عنها قديما حتى يقف على اتجاهات الكتابات هنا وهناك، وساهجها، ويستطيع أن يكشف عن الفرق بين الكتابتين : القديمة والحديثة ، وبالتالي يكشف عما طرأ على الكتابة في السيرة النبوية - على أيدي الكتاب المحدثين - من تحوّل وتغيير.

هذا بالإضافة الى أن الموضوع - نفسه - يفرض على الباحث نوعا من الحيطة والحذر في تدوين النصوص، وإيراد الشواهد ، والتثبت

من الآراء ، وتحصيص المرويات ، والتريث في الحكم على الآراء المتضاربة ،
لأهميته وجلاله وعظم قدره . .

ولأهمية الموضوع وقداسته وخطورة الحديث عنه ، وكثرة ما ألف فيه
تديبا وحديثا ، واختلاف آراء الكتاب حول هذه الشخصية الغدّة - أنفقت
من عمرى العلمى ما يقرب من ثلاث سنوات ، كت فيها أقرأ وأصنع وأتأمل
ما كتب هنا وهناك ، كي تتكشف أمامى - من خلال القراءة والتصنع والتأمل -
ملاحج الكتابة واتجاهاتها ومناهجها ومواضعها ، وكان على أن أقف على الرسم
الأولى للكتابة فى السيرة ، وكيف بدأ تدوينها ، والمراحل التى مرت بها
مواضع الكتابة فيها ، وكان على أن أقف - أيضا - على مناهجها القديمة
وما امتازت به هذه المناهج من سمات وشارات ، وأن أتعرف على مؤلفيها
وَصَنَفِيها فى بدء تاريخها المجيد ، وأن أتحصى ما لكل منهم من مزية
وفضل . . وكان على أيضا أن أقرأ توجهات هذه السيرة التى سالت على
أسلات الأقلام بأنامل قادة الفكر العربى الحديث ، حتى أتعرف على
اتجاهات الكتابة الحديثة ومعالجتها ومساكنها ، معطيا للأدب العربى
أهمية خاصة فى القراءة ، لأنه موضوع دراستى وسجال بحثى .

٢ - المشكلة الثانية: وهي تحليل الكتب المختارة لتكون مجال البحث والدراسة :

وإذا كان جلال الموضوع وخطره يشلان مشكلة أسلفنا الحديث
عنها آنفا ، فإن اختيار الكتب التى تشل اتجاهات الكتاب
الأدبية فى السيرة النبوية حديثا ، وتكشف عن معالها - تغلق
مشكلة أخرى ، ذلك لأن الكتابة فى السيرة النبوية فى أدبنا
الحديث قد تنوع وتطوّعت فى طرائقها وأساليبها ومناهجها ، كما
تنوع وتطوّعت فى الهوامش عليها والمعالج لها . . ودراسة

تناول تلك السيرة من كتب ومؤلفات شتى فوق الطاقة ، لذا كان لا بد من الانتقاء والاختيار ، ومن هنا كان من اللازم أن تكون هذه الكتب المختارة مثلة لألوان الطرائق والأساليب والمناهج والبواعث ، وهذا يعنى أن تسبق عملية الانتقاء والاختيار عملية القراءة والدراسة والتطهّل ، حتى يختار ما كان أكثر تشبهاً لهذه الطريقة أو تلك ، ولهذا الأسلوب أو ذاك . . وفى هذه وتلك من الحاجة الى الجهد ما هو واضح معروف .

٣ - المشكلة الثالثة: وهى تتمثل بالدراسة والملاحظة والتطهّل :

بعد مرحلة الانتقاء والاختيار للكتب التى ستكون موضوع الدراسة ، كان على أن أقوم بالتأمّل الدقيق والتحقيق المتيقن الذى استخلص من خلالها ملامح الكتابة فى السيرة واتجاهاتها من حيث الطرائق والأساليب والمناهج والبواعث ، وقد أنفقت فى هذه الدراسة وما تظلمها قراية سنتين ، استطعت خلالها أن أكشف عن سمات الكتابة فى السيرة وخصائصها من الجوانب السالفة الذكر ، وفى ثنايا هذه الكتب المختارة ، وقد خصصت لكل كتاب باباً مستقلاً به ، درست فيه ما يتعلق بهذا الكتاب من بواعث وطرق وأساليب ومناهج ، ومن خلال الكشف عن هذه الجوانب فى كل كتاب تجمع لدى مجيئة من عوامل التشجيع المخطف والدوافع المتهاينة التى كانت وراء الكتابة فى السيرة النبوية ، وتعرفت الى عدة طرائق لأنماط الكتابة فيها ، وأساليب الصياغة المعمورة فيها ، ووسائل العلاج لها بما لا يضاف الى أننى أتمممت هذه الجوانب فى كل باب فصلاً خاصاً يتعلق بنقد الكتاب ، وبينما قيمته ومنزلته بين الكتب الأدبية ، ناقداً طريقته وأسلوبه ومنهجه ، ومورداً آراء النقاد وأقوالهم التى وردت عنه ، ولعلنى بههذه الدراسة وذلك التطهّل أكون قد كشفت الستار عن هوى كتب السيرة النبوية واتجاهاتها من حيث بواعثها وطرائقها وأساليبها ومناهجها .

ولا شك أن الكشف عن هذه الجوانب يتطلب مجهوداً ضخماً ومعبداً

متصلا ، فالكشف عن البواعث والدوافع يلزم الباحث بأن يتعرف على نفسية الكاتب والظروف المحيطة به ، وثقافته ومذهبه الفكري ، حتى يستطيع أن يستشف من خلال ذلك البواعث التي حركته والدوافع التي حفزته الى الكتابة في السيرة النهائية ووجهته الى طريقة السير التي بها سار .

والكشف عن الطرائق الكتابية والأساليب التعبيرية لكتابة السيرة النهائية يلزم الباحث أن يدرس الكتاب الذي يتناوله ، وأن يفهم الفكر فيه والنظر اليه ، بل وأن يتعمق ويدقق ويبحث ويحقق ، حتى يستطيع أن يكشف الطريقة التي ينتهجها ، والأسلوب التعبيري الذي يملكه ، ولا يقف الأمر عند ذلك ، بل ان الباحث ليلتزم بأن يتعمق في دراسة تلك الطرائق ويضع تلك الأساليب ، حتى يكشف عن خصائصها وسماتها وما تمتاز به كل طريقة من سمات وصفات ، وما ينفرد به كل أسلوب من خصائص وألوان وأن يحدد هذه وطك في اطار يارز محدد ، يبرز جهد الكاتب وأثره ومزلقته لا سيما اذا كان صاحب طريقة وأسلوب معين ، يؤثر ففهم بعده من الكتاب الذين اتهموه وناصروه ، كما أن هذا الكشف عن تلك الطرائق بسماتها ، وعن هذه الأساليب بخصائصها ، يقصر الباحث على أن يورد من الأمثلة ما يكشف عنها ويدلل عليها ، وهذا كله يتطلب من الباحث تأنيهاً ففسي الدراسة ، وتركيزاً في التحليل ، وحق النظر في الكشف عما هناك من أسرار ، ودقة في الحكم على هذا الكتاب أو ذاك ، وتأهيذا لما يراه ويذهب اليه مدعوماً بالبحجج الهينة ، والبراهين الساطعة .

والكشف عن مناهج الكتابة للسيرة النهائية يلزم الباحث أن يتمسرف على الكاتب نفسه ، ويتابع أطوار حياته وثقافته ومذهبه الفكري ، وما يؤمن به ، لكي يستطيع أن يزيح الستار عن منهجه الذي التزمه في كتابة السيرة ، كما يوجب على الباحث أن يكشف عن السر في سلوك الكاتب لهذا المنهج أو ذاك ، وأن يعفر بهجته عما في هذه المناهج من آيات الحسن أو سمات

الجمال والجلال .

كما أن نقد الكتاب يتطلب من الباحث أن يكون ملما بالقواعد النقدية لأساليب الأدبية ، وأن يكون لديه رصيد من الخبرة النقدية والذوق الأدبي ، حتى يستطيع أن يحكم على الأشياء حكما دقيقا ، محاولا أن يطبق ما عرفه على ما أمامه من أساليب ، مستخرجا ما في هذه الأساليب من حسن وقبح وسحسن وساو . على أن جانب الدراسة والتحليل في الكتابة الحديثة لم يأت على حساب الكتابة القديمة ، فقد قمت - أيضا - بالقاء الضو على كتابة السيرة قديما ، كاشفا في ايجاز - عن ملامحها ومواضعها ، وكتابتها ومناهجهم ، وأثر كل واحد منهم في هذا المجال ، وما له من مزية وفضل ، محاولا في عرض سريع تفهم هذه الكتب التي تناولت السيرة قديما وأثرها وقيمتها . .

٤ - المشكلة الرابعة: وهي تحصل بمصادر البحث ومراجعته :

ما لا شك فيه أن خطر هذا الموضوع وجلال قدره قد وسع من دائرة الكتب التي تناولته وتفرقت على دراسته ، وهذه الكثرة الكاثرة من المؤلفات التي تناولت السيرة النيرة ، قد ألزمت الباحث أن يتطلع عليها وأن يتفحصها ويتأملها ، وأن يرجع الى القديم منها والحديث فضلا عن المصادر موضع الدراسة ومجال التحليل ، وأن يحاول أن يتعرف على الهمد منها والقريب ، ومن هنا كنت لا أدخر جهدا حين أعلم أن هناك - في مكان ما - كتابا يتناول حديثا - ولو طبرا - عن السيرة النيرة ، كما أنني لم أكن أدخر وسعا ولا مالا في الحصول على هذا المرجع أو ذاك ، ولقد رجعت نفسي هذه الرسالة الى نحو مائة مصدر ومرجع ، تنوعت الى ألوان عدة :

فهناك مصادر اعتمدت عليها في الكشف عن سمات الكتابة في السيرة

النهيوة وجعلتها موضع بحثى ودراستى ، وهناك مراجع فى السيرة رجمت اليها فى الكشف عن سمات الكتابة وخصائصها - فى ايجاز - من الكتب التى لم أتعرض لها بالدراسة والتحليل ، أو اعتمدت عليها فى الاستشهاد منها .

وهناك مراجع تاريخية رجمت اليها لأنها تتناول حديثا عن كاتب فى السيرة ، وترسم منهجه ، أو لأن فيها من النصوص والشواهد ما أريد الاستشهاد به .

وهناك مراجع أدبية ونقدية اعتمدت عليها فى تحليل ونقد الكتب التى تناولتها بالدراسة والتحليل ، بالإضافة الى مراجع أخرى فى التراجم والأعلام والمعارف العامة ، غير ما تصفحناه من الصحف والمجلات .

ولقد كان من حسن الطالع وتعام التوفيق أن تكون دراستى وكتابتى فى هذا البحث إبان بحثى الى الجامعة الاسلامية بالمدينة المنورة حيث مشى الرسول الكريم ، وحيث الأرض التى انطلقت منها الدعوة الاسلامية - بعد رسوخها - الى بقاع العالم ، تلك الأرض التى كانت مهدى مهاجر الرسول الكريم ورتج كفاحه ومشى جسده الظاهر .

ولقد كان فى جوارى لمسجد الرسول العظيم ، وقبرى من قبره الظاهر ما يدفعنى الى الكتابة ، ويحثنى على المزيد من البحث والدراسة ، ولقد كنت أتمثل النبى الكريم أمامى مهنئاً ، وأتخيل الرسول العظيم بين يدى وهو يمشى ويجهل على ثرى هذه الأرض الطيبة ، فأرجع الى كتبى وظمسى وكلى حمائى وإيماناً بما أدرس وأكتب ، وكان هذا كله يبهدينى نشاطاً الى نشاط وقوة الى قوة .

ومعد فهذه كلمة عن موضوع البحث وأهميته وسراختياره ، وعن منهج دراستي ، وعلى فيه وجهدي معه ، فان كان هذا البحث قد قارب الكمال فذلك فضل من الله ، وان كان قد عراه النقص فحسبي أننى لم أدخر وسعا فى اخراجه على وَجْهِ يحقق له الكمال ، وهذا على أن هذا الموضوع نفسه فيه متسع لدراسات ودراسات أرجو أن ينشط لها الباحثون والدارسون ، حتى يتحقق له ما نصبو اليه من وصول الى أهان السماء .

ولا يسمنى فى نهاية هذه المقدمة الا أن أتقدم بخالص الشكر وعظيم التقدير الى فضيلة أستاذى الجليل الدكتور / عبدالسلام أبو النجاس سرحان ، الذى كان لى شرف اشرافه على هذه الرسالة - على ما أسداء الى من نصح وارشاد ، وتوجيه وتسدبد ، وعلى ما كان له - حين مراجعته هذه الرسالة - من فضل التصويب والتشذيب والتوضيح والتتقيق ، الذى ظهر واضحا فيها ، وعلى ما أبداء من ملاحظات قيمة ، وآراء مفيدة ، وأفكار سديدة ، حتى غدت هذه الرسالة على هذا النحو الذى هى عليه .

وَاللَّهِ أَسْأَلُ أَنْ يجعل هذا العمل خالصا لوجهه ، وأن يعم النفع به ، وأن يلهمنا الرشاد والتوفيق والسداد فيما نقوم به من أعمال ، وسألت توفيقى الا بالله عليه توكلت واليه أنهب .

محمد طرف محمود حسين
المدرس المساعد بكلية الشريعة
جامعة الأزهر الشريف بالقاهرة

٢٢ بحث تمهيدى ٢٢

” كتاب السيرة النبوية قديماً ”

- أ - تدوين السيرة النبوية ومواقعها :
 - ١ - تعريف بالسيرة النبوية
 - ٢ - السيرة والحديث
 - ٣ - بداية تدوين الحديث
 - ٤ - حركة التصنيف والتأليف
 - ٥ - بواعث الكتابة فى السيرة النبوية
- ب - كتاب السيرة القدامى ومناهجهم :
 - ١ - الطبقة الأولى :
 - أ - أبان بن عثمان - ب - عروة بن الزبير - ج - شرحبيل
 - ابن سعد - د - وهب بن منبه
 - ٢ - الطبقة الثانية :
 - أ - عاصم بن عمر بن قتادة - ب - محمد بن شهاب الزهري
 - ج - عبدالله بن أبى بكر بن حزم
 - ٣ - الطبقة الثالثة :
 - أ - موسى بن عقة - ب - ميمون راشد - ج - أبو ميمون
 - المدنى - د - ابن اسحاق - هـ - الواقدي
 - ٤ - السيرة على يدى ابن هشام وابن سعد
 - ٥ - السيرة على يد الطبرى
 - ٦ - السيرة بعد الطبرى
- ج - نقد وتقييم

أ - تدوين السيرة النبوية ومواعيده

١ - تصنيف بالسيرة النبوية :

إذا أطلقت كلمة " السيرة النبوية " فإنتها تمنى تاريخ حياة
النبي صلى الله عليه وسلم منذ ولادته حتى لحوقه بالرفيق الأعلى ، وما
تخلل هذه الحياة من نشأة وشباب وحياة قبل البعث بعده ، وما اشتملت
عليه حياته بعد البعث من دعوة في سبيل الله الى الاسلام ، وما لاقاه
من اعراض عنها وايذاء وكيد وفتنة في مكة ... وهجرة الى المدينة
وحياة فيها جديدة .. وما أعقب هذه الحياة الجديدة من جهاد
وفزوات وحروب في سبيل دعم عقيدة الاسلام ونشرها .. والعمل على
إقامة الدولة الاسلامية واعلاء صرحها : دينها وادارها واجتماعها .

كما أن كلمة " السيرة النبوية " تشمل ما يقدم بين يدي أخبار النبي
صلى الله عليه وسلم من أخبار الجاهلية كأخبار جبرهم ودفن زمنه وحديث
قص بن كلاب وجمعه قريشا ، ونحو ذلك مما هو شئ لبعض أخبار آباء
النبي صلى الله عليه وسلم وأحوالهم وأحوال من عاشهم .

٢ - السيرة والحديث :

والسيرة النبوية في هذا : أمرها كانت مجموعة من الأحاديث التي
تتعلق بحياة النبي في مكة وهجرته وحياته في المدينة .. وقد ظلت هذه
الأحاديث - كما ظلت أحاديث الرسول كلها - رواية يتناقلها الناس على السنتهم بعدما
حفظتها ذاكراتهم ووعتها قلوبهم ، دون كتابة أو تدوين ، ولم يحدث
ذلك منهم اتفاقا ، ولا صرفتهم عن الكتابة والتدوين فيه شواغل ، ولكنهم
كان أمرا مقصودا عن تفكير ورواية ذلك أنهم كانوا يخافون أن يختلط
بعض ما يكتبونه بالقرآن الكريم ، فدخل في كتاب الله تعالى ما ليس

منه ، أو يلتبس بعض القرآن ببعض ما كتبه من غيره ، فيسقط من الكتاب الكريم بعض ما هو منه ، لذا رأوا ألا يكتبوا الا القرآن .

٣ - بداية تدوين الحديث :

ولقد ظل الأمر على هذا الحال حتى انقضى العصر الأول من عصور الاسلام ، أى: عصر الخلفاء الراشدين ، وانقضى أكثر عصر بنى أمية ، حتى جاء الخليفة عمر بن عبدالعزیز ففكر فى الأمر ، ورأى كثيرا من العلماء الذين رويوا حديث رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وأخباره ووعوا علوم المسلمين يموتون دون أن يخلّفوا شيئا من مروياتهم ، وخشى أن دام الحال على ذلك أن تضيق علوم المسلمين وتذهب أخبار رسولهم اذا بعد العهد وطال الزمن ، لا سيما أن رقعة الدولة الاسلامية قد اتسعت وكثرت طبقات البراءة، وتغشى الكذب على رسول الله - صلى الله عليه وسلم - من قهـل الزنادقة وأصحاب الأهواء ، وقُلّ الاعتماد على قوة الذاكرة وملكة الحفظ .

حينئذ كتب عمر بن عبدالعزیز الى أبى بكر بن حزم أحد شيوخ المحدثين وكبارهم ونائب عمر بن عبدالعزیز فى الامرة والقضاء على المدينة - كتب اليه يقول : " انظر ما كان من حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم فاكتبه فانى خفت دروس العلم وذهاب العلماء ، ولا تقبل الا حديث النبى صلى الله عليه وسلم ، ولتَجْلِسُوا العلم ، ولتَجْلِسُوا حتى يعلم من لا يعلم فان العلم لا يهلك حتى يكون سرا " (١).

وكان أمر عمر بن عبدالعزیز أبا بكر بن حزم بتدوين أحاديث الرسول حينذاك أمرا معقولا ومقبولا ، إذ قد زال السبب الذى من أجله امتنع

(١) سيرة ابن هشام - المقدمة ص : ٧ تحقيق : محمد محيى الدين عبدالحيد - مطبعة المدنى .

الصحابة ومن بعدهم عن الكتابة والتدوين ، وهو الخوف من اختلاط ما ليس من القرآن به ، وقد أصبح القرآن الكريم محفوظا في الصدور ، مكتوبا في الصاحف ، ثابتا مقروءا في الأمصار ، وقد قام أبو بكر بن حزم بتدوين ما كان يحفظه من أحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم في كتاب بحث به الى الأمصار ، وكما أمر عمر بن عبدالعزيز أبا بكر بن حزم بذلك أمر محمد بن مسلم بن شهاب الزهري أن يدوين حديث رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فصح في ذلك كتابا .

ولا يخفى هذا أن أحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم لم يدون منها شيء قبل أمر عمر بن عبدالعزيز بتدوينها ، بل سبق الى تدوينها وكتابتها بعض الصحابة ، أشبال عبدالله بن عمرو بن الماص . . فقد روى البخارى عن أبي هريرة قال : " ما من أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم أحد أكثر حديثا عنه منى الا ما كان من عبدالله بن عمرو بن الماص فانه كان يكتب ولا أكتب " (١)

وهذا يدل على أن عبدالله بن عمرو بن الماص ، كان من أسبق الصحابة الى كتابة أحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم ، ويدل أيضا على أنه كان يكتب في الأوقات التي امتنع فيها الصحابة عن الكتابة والتدوين . ولكن مثل هذه الكتابات لم تكن تُكتب من أجل اذاعتها وإهانتها ، كما أنها لم تكن أمرا ذاتا شائعا بل كانت شيئا خاصا ، لأن من كتب من هؤلاء الصحابة كان يكتب لنفسه ، وهذا يعنى أن هذه الكتابات كانت تمثل حالات فردية ، لم تأخذ بهمد طابع الذبوع والشعوب .

٤ - حركة التصنيف والتأليف :

أ - مرحلة الجمع العام :

يُؤمِّدُ أَمْرُ عمر بن عبدالمزيز أبا بكر بن حزم بتدوين أحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأَمْرُهُ محمد بن مسلم بن شهاب الزهري كذلك - بدايةً لحركة تدوين وتصنيف لأحاديث الرسول - صلى الله عليه وسلم - على نحو رسمى .

وإذا ما نظرنا الى الكتابات التى تشل تلك الهداية ، فإننا نجد أنها لم تنقيد بنهج خاص فى التسيق والترتيب . . . فكان العالم يجمع ما يرويه من الحديث فى كتاب غير متقيد بتمييز الموضوعات ، وضم ما يندرج من مروياته تحت مسألة واحدة ، أو مسائل متشابهة فى باب واحد ، وربما صنف أحدهم كتابا من الحديث فى باب واحد من أبواب التفسير ، وكانت أخبار رسول الله صلى الله عليه وسلم منذ ولادته الى التحاقه بالرفيق الأعلى يجمع ما عني المحدثون بروايته ، كما كانت بعض ما عني العلماء بتدوينه على أنه جزء من الحديث ^(١) .

ب - مرحلة الترتيب والتسيق :

ثم دخلت حركة تدوين الأحاديث وتصنيفها فى طور جديد ، حين أخذ المحدثون يرتبون الأحاديث وينسقونها ، فكانوا يضمون الأحاديث التى يستدل بها على شئ واحد ، أو على مسائل يجمعها شئ واحد تحت باب واحد ، ومن هنا كان هناك باب للوضوء ، باب للصلاة ، باب للزكاة ، وباب للهجرة ، وكان من بين هذه الأبواب الجامعة باب لأخبار النبي صلى الله

(١) سيرة ابن هشام - المقدمة ص ٨ . تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد مطبعة المدنى .

عليه وسلم ، يذكرون فيه ما يروونه عن ولادته ورضاعه وما بعدهما الى بمشتهه ، ثم يفسلون أحواله بعد البعثة في مكة . . ثم يَصِلُونَ كذلك أخباره نفسى غزواته وجهاده . . الى غير ذلك ، وقد خصوا ذلك الباب باسم " المغازى والمسير " (١)

وتعمد هذه الأحاديث التى تتعلق بحياة النبى وأخباره أساسا لما ألف بعد من كتب السَّيَرِ وَالْمَغَازِى .

ومن هنا يظهر أن السيرة النبوية كانت أول أمرها مجموعة من الأحاديث المنقذة بين تلك الأحاديث التى جمعت ودونت عن الرسول صلى الله عليه وسلم ، دون ترتيب أو تنسيق ، ثم أخذت السيرة نوعا من الاستقلال حين أُفِرَّ دَلِهَا بِابْخَاصٍ بِاسْمِ " المغازى والمسير " وذلك حين أخذت حركسة تدوين الحديث تدخل فى مرحلة الترتيب والتنسيق والتهيؤ .

ح - مرحلة استقلال علم السيرة عن علم الحديث :

ثم دخلت السيرة النبوية بعد ذلك فى مرحلة جديدة ، تتم بظاهج الاستقلال التام ، حين أُفِرَّتْ لَهَا كُتُبٌ ، وتصنيفات خاصة ، حملت اسم " المغازى والمسير " . ولكن على الرغم من ذلك ظل المحدثون يدخلونها ضمن أبوابهم فى البخارى - مثلا - كتاب " المغازى " وفى مسلم كتاب " الجهاد والمسير " وفى مسند أحمد كتاب " المغازى " الى غير ذلك من الأبواب المتصلة بتاريخ النبى صلى الله عليه وسلم .

(١) سيرة ابن هشام - المقدمة ص ٨ ، تحقيق محمد محى الدينى - عبد الحميد - مطبعة المدنى .

٥ - بواعث الكتابة فى السيرة النبوية :

أ : السيرة جزء من الحديث

ومن خلال ما تقدم من قول عن بدء تدوين أحاديث الرسول عامة ، والسيرة خاصة ، نستطيع أن نقول : ان الباعث السهم والدافع الأكبر والسبب الأول الذى أدى الى عناية المسلمين الأوائل واهتمامهم بتدوين السيرة النبوية التى تشكل أخبار حياة الرسول ومفازيه - هو أن السيرة - بما فيها من أخبار عن الرسول وحياته ومفازيه - جزء من الحديث وضرع له ، ولذا جاء الاهتمام بها نوعاً من اهتمامهم بالحديث .

ب - اشتغال السيرة على الكثير من الجوانب التشريعية :

ونستطيع أن نقول - محللين سر اهتمام المسلمين بتدوين مفازى رسول الله صلى الله عليه وسلم - ان اهتمام المسلمين بتدوين مفازى الرسول وحروبه ، يشبه - على وجه التقريب - اهتمام العرب الجاهليين بتاريخهم وما كان فيه من أهام وحروب . ولعل المسلمين قد ورثوا هذا الاهتمام عن هؤلاء العرب . . . يضاف الى ذلك أن المسلمين كانوا فى حاجة الى تدوين هذا الجانب الهام من حياة الرسول صلى الله عليه وسلم ، وهو جانب الحروب والغزوات ، وما كان يمله الرسول وما يتركه ، وما يأمر به أو ينهى عنه لاستكمال مصادر التشريع ووسائل التقنين ، ولكى يكون لديهم سند من سنة الرسول - صلى الله عليه وسلم - فى هذا المجال ، يتخذونه دليلاً هادياً فى فتوحاتهم الاسلامية .

والى هذين الباعثين يرجع بعض الباحثين سر اهتمام المسلمين الأوائل بتدوين سيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فهو يرى أن المسلمين كتبوا سيرته تحت مؤثرات أخرى ، غفرد منها بالتمييز عاملين كبيرين :

الأول : أن سيرة الرسول جزء من السنة ، فهي والحديث مصدران هامان من مصادر التشريع ، ومنهما تستفاد الأحكام ، ولذلك كان لا بد من جلاستها في دقة بالغة لكي تكون أعماله — الى جانب أقواله — مشرعا واضحا لرجال الشريعة وأهل الافتاء والقضاء .

والثاني : أن المسلمين كانوا قد ورثوا (الى حد ما) نظرة الجاهلية الى التاريخ ، وهي نظرة قائمة على " الأيام " وطبيعة الحروب وشؤون القتال ، ولذلك اهتم كتاب السير قبل كل شيء بمغازي الرسول ، وتصوير ذلك الدور الحربي الذي أدى الى انتصار المسلمين في النهاية :

ولم يكن هذا مضى تقليد لنظرة الجاهليين ، بل كان في مستلزمات الجماعة الاسلامية ما يؤيده ويدعو اليه ، ذلك لأن الفتوحات الاسلامية التي انبثقت عن انتصار الاسلام في الجزيرة ، كانت في حاجة الى سند من سنة الرسول في هذا المجال : كيف يعامل الأسرى والنساء والأطفال ، ويقسم الغني ، وهل يروى عن الرسول ما يوضح فنون الحصار ، وهل تهيج الأعمال الحربية قطع الشجر وتخريب الزروع ومنع المون ، ليلجأ العدو الى التسليم ، وماذا فعل الرسول بالاقطاعات ؟ ، وظل أي شيء — من الأحكام تحتوى كتبها التي كتبتها لوفود العرب جماعات وأفراداً ؟ .

كان المظهر الأكبر للإسلام هو الجهاد ، فلا غربة — اذن — اذا رأينا في السيرة على يدى موسى بن عتبة ، وابن شهاب الزهري وغيرهما ، ثم على يد ابن اسحاق وريث كتاب المغازي الأولين — تسجيلا دقيقا للممارك الحربية ، وما دار فيها من فنون (١) .

(١) في الأصل : " ولذلك فلا بد " وهو خطأ شائع صححه ما فعلناه .

(٢) فن السيرة ص ١٣ ، ١٤ ، بتصريف ومض التصحيح .

ح - رغبة المسلمين في تدوين سيرة الرسول الكريم :

ويمكن أن يضاف الى هذين الماملين عامل آخر : وهو ما يشمر به المسلمون نحو نبيهم من حب وتقدير ، ولعلمهم رأوا في تدوين سيرته وتخليد آثاره ما يشبع ميولهم الدينية التي ترى في الرسول - بلا ريب - قدوة المسلمين ، وهدى المهتدين ^(١) كما رأوا فيه ما يحقق لهم نوعاً من الفخر بنبيهم ، كما فخر أهل الكتاب - يهودا ونصارى - بموسى وعيسى ...

وعن هذا المامل ، وعن الماملين السابقين له يقول د . حسين نصار : " كان الحديث من عوامل ظهور الكتابة التاريخية ، إذ : ———
المسلمون بجمع الأحاديث ليفسروا بها القرآن ويستنبطوا منها أحكام الدين ، وكان من هذه الأحاديث جملة وافرة تتعلق بحياة النبي والصحابة فُجِّعَتْ فيها جمع وكانت أساس كتب السيرة والمغازي فيها عهد " ^(٢) .

ويقول في موضع آخر : " ظهرت كتب السير والمغازي التي تتناول حياة الرسول بالدرس ، وقد رأينا أن من عوامل ظهور هذه الدراسة جمع الأحاديث ، سواء ما تناول الناحية الفقهية ، وما تناول الناحية التاريخية من حياة مدافع من الرغبة الدينية ، وكذلك كان للمعجبين ينظرون الى النبي نظرهم الى بطل من الأبطال ، وتقدم وهماهم لهداية ^(٣) الأمم ، فعمدوا بتاريخه ، كما عمدوا بتاريخ أهلهم في الجاهلية ، ولا ننسى مع ذلك أنهم أرادوا أن يضعوا الرسول صلى الله عليه وسلم

(١) راجع تهذيب السيرة ج ١ ص ٥٥ .

(٢) نشأة الكتابة الفنية في الأدب العربي ص ١٢٥ .

(٣) في الأصل : " لفتح الأمم " ، وهو تعبير غير دقيق ، وفيه رائحة استشراقية مع الأسف الشديد .

بقرآن موسى وهارون الذي بنى معهما أهل الكتاب في القرون عليها الكعبة
وأحاطوها بالقصبة الصحيحة وفيه المصححة . كل ذلك وغيره اجتمعت
فأشهر كتب القضاة والمفسرين .

هذه هي البواعث التي كانت وراء كتابة السيرة النبوية .
والتي يمكن تلخيصها في أمور ثلاثة :

الأمر الأول : أن السيرة جزء من الحديث ، فلما كان الاهتمام بها
نوعاً من الاهتمام بالحديث .

الأمر الثاني : أن الجزء الأكبر من السيرة يشترك في الحروب والفروقات
التي خلفها الرسول وصحبه في سبيل دعم العقيدة الإسلامية ، وقد حرص
المسلمون على تدوين هذا التاريخ لأنه يبين دسوسهم لهم في هذه الناحية
يتأسسون به في فتوحاتهم الإسلامية .

الأمر الثالث : جاء تدوين السيرة نوعاً من الحب والولاء للذين
يؤمنون بها المسلمون نحو أنفسهم ، ولأنهم رأوا في تدوين سيرته صلى الله عليه
عليه وسلم ما يشبع ما في قلوبهم من ميل دينية وما يعجز عما في قلوبهم
من حب وتقدير للرسول صلى الله عليه وسلم .

ومن هنا أراهم لا أوافق د . حسين عمار فيما ذهب إليه من
أن العرب المسلمين كانوا ينظرون إلى النبي نظرتهم إلى بطل من الأبطال ،
وجاءت عنايتهم بتاريخه كعناية الجاهليين بتاريخ أبطالهم . . . - فالعرب
المسلمون حين دونوا سيرة الرسول - صلى الله عليه وسلم - لم يكن يسود
بخلهم هذا المعنى الذي يعتمد على تدوين الأبطال تقديراً مادياً .

بل كان يدفعهم الى تدوين سيرته أنه رسول موحى اليه ، ويرون في هذا التدوين تدوينا للوحي نفسه ، لأن الرسول لا ينطق عن الهوى " إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى " (١) فليس التدوين - اذن - راجعا الى شخص محمد بقدر ما هو راجع الى محمد النبي الذي تثلت فيه كل الممانس الروحانية التي تعد في حقيقة أمرها - تشيلا وتجسيدا وترجمة لما جاء به الوحي من السماء . ومن هنا كانت عنايتهم بالسيرة النبوية بعد عنايتهم بالقرآن وجمعه وتوزيعه على الأوصار .

ب - كتاب السيرة القداسي وسناهم

١ - الطبعة الأولى

أ - أَبَانُ بْنُ شِمَانَ بْنِ عَفَّانَ :

يعد المؤرخون أبان بن شمان - المتوفى سنة ١٠٥هـ - أول من اشتهر بالتأليف في المغازي ، وقد كان واليا على المدينة لعبد الملك ابن مروان سبع سنين ، كما كان معروفا بالحديث والفقه . يقول ابن سعد في المغيرة بن عبد الرحمن : " وكان ثقة قليل الحديث ، الا مغازي رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أخذها من أبان بن شمان فكان كثيرا ما تقرأ عليه ويأمرنا بتعليمها " (٢) .

ويبدو أن المغازي التي رواها المغيرة عن أبان ليست كتابا بالمعنى الدقيق ، بل كانت - فيما يظهر - صحفا فيها أحاديث عن حياة الرسول صلى الله عليه وسلم ، كما يدل على ذلك قول ابن سعد السابق

(١) الآية ٤ من سورة " النجم " .

(٢) الطبقات الكبرى لابن سعد : ٥ : ٢١٠ .

في المنيعة بن عبد الرحمن ، ويظهر - أيضا - أن هذه الصحف التي
تحتوي أخبارا عن الرسول صلى الله عليه وسلم ، قد ضاعت ، وعدا عليها
الزمن ، ولم يأخذ عنها أحد من كتاب السير تالولين ، فلم يأخذ عنها
ابن اسحاق ولا ابن سعد ولا ابن هشام .

ومن هنا لا نجد لأبان ذكرا في كتب التاريخ ، ولا نجد أحدا
من كتاب التاريخ والميرور عنه خبرا ، سوى ما ذكره ابن قتيبة في كتابه
" الشعر والشعراء " ^(١) عن أبان ، من أنه هو راوي الخبر القائل :
" إن مطوية اشترى البردة التي أعطاها النبي لكعب بن زهير مكافأة له
عن قصيدته " بلنت سعاد " وأن الخلفاء كانوا يلبسونها في الأعياد .

ب - عروة بن الزبير بن العوام :

هو عروة بن الزبير بن العوام ، وأمّه أسماء بنت أبي بكر ، وخالته
عائشة زوج النبي صلى الله عليه وسلم ، وقد ولد عروة سنة ٢٣ هـ ، وتوفي
سنة ٩٤ هـ . ونشأ بالمدينة وأخذ الحديث والأخبار عن كثير من الصحابة
مثل زيد بن ثابت وأبي هريرة وعبد الله بن عمر وعبد الله بن عباس ، كما
أن نسبه مكنه من أن يروى الكثير من الأحاديث والأخبار عن النبي صلى
الله عليه وسلم وحياة صدر الإسلام ، فروى عن أبيه الزبير وأمّه أسماء ،
كما روى الكثير عن خالته عائشة .

وقد عد عروة أحد الفقهاء السبعة الذين انتهى اليهم العلم
بالمدينة ، وروى عنه ابنه هشام ، وابن شهاب الزهري ، ووصل إلينا كثير

(١) الشعر والشعراء : ج ١ ص ٩١ .

من روايات عروة وأحاديثه في كتب ابن اسحاق والواقدي والطبري ، بل
ان كتب السيرة الأولى التي وصلت إلينا كثيرة ابن هشام ، وطبقات ابن
سعد ، وتاريخ الطبري - مدينة في جزء كبير منها لما رواه عروة .

وكان عروة يعيش في عصر أبان ، كما كان من أقدم من ألفوا في
التاريخ والسيرة النبوية ، فلم يقتصر على الروايات الشفهية بل دون بعضها
الأحداث التي طلبها منه عبد الملك بن مروان ، وابن أبي هنيدي السدي
كان صاحب الوليد بن عبد الملك ، في رسائل بعضها إليهما ، وقد وصل
بعض هذه الرسائل في صفحات ابن اسحاق والواقدي والطبري .

وتتناول رسالة عروة الأولى إلى عبد الملك هجرة الحبشة ، وتتناول
الثانية موقعة بدر ، والثالثة تتناول فتح مكة ، كما تناول عروة - في
تدويناته الأخرى - وفاة خديجة رضي الله عنها ، وهجرة النبي وأصحابه
إلى المدينة . وقد روى هذه الأخبار عنه ابنه هشام .

أما رسالته لابن أبي هنيدي ، فرواها الزهري ، وتتناول المناسبة
التاريخية لنزول الآية العاشرة من السورة الستين . (١) " وأطاع الزهري أمراً إلا
بما روى الزهري من أخبارها فإني قد كتبتها " سرور المحمدية

وتعد هذه الأخبار المشار إليها والتي دونها عروة عن بعض
الحوادث الخاصة في حياة النبي من أقدم المدونات التي وصلت إلينا ،
وان كانت لم تصل في مصنف خاص بعروة ، بل وصلت روايات في كتب
ابن اسحاق والواقدي والطبري .

وهذا الوضع - بدوره - يطرح سؤالاً : ألم يكن لمروءة مصنف
في السيرة والمغازي ؟ والجواب أن المراجع القديمة لا تكاد تذكر أي كتاب

(١) سيرة ابن هشام ج ٣ ص ٣٧٦ ، ٣٧٧ - تحقيق محمد محيي الدين
عبد الحميد - ط - دار الفكر - بيروت .

الفه عروة عن المفازى • ولكن حاجى خليفة يقول : " ويقال : أول من صنف فيها عروة بن الزبير " (١)

وهذا - على كل حال - لا يمنع أن يكون لعروة مصنف فى المفازى • ولكنه ضاع كما ضاعت مصنفات كثيرة • ومن هنا يكون من الصعب أن نتبين النهج الذى سار عليه عروة فى كتاباته التى دونها فى السيرة والمفازى • ولكننا على أى حال نستطيع أن نلمح نهجه من خلال كتاباته التى روتها كتب السيرة التى جاءت بعد ذلك •

وأول شيء نلمحه : أن عروة تأثر فى كتاباته فى السيرة والمفازى بعلم الحديث من حيث العناية بالاسناد • إذ أن علم السير والمفازى قد تفرع من علم الحديث • ولذلك رأينا الاسناد واضحا عند عروة • كما رأيناه عند أبان أيضا لأنهما أول كاتبين فى علم السير والمفازى • ولكن عناية عروة بالاسناد لم تكن شديدة • فهو أحيانا يذكره • وأحيانا لا يذكره • (٢)

الشيء الثانى : أن كتابات عروة تعنى بالاشارات القرآنية إلى الحوادث الاسلامية • فتحاول شرحها • بل انها لتجاوز ذلك إلى استعمال الألفاظ القرآنية • لتشير إلى مدلولها القرآنى • مثل استعماله لكلمة " الفتنة " فى حديث عن الهجرتين : الحشية والمدنية • ومتمما الآية التاسعة والثلاثين من السورة الثامنة • (٣)

(١) " وكانوا يسمونهم فتنه " (٢) " وكنانهم على الدعوة فتنه " (٣) " السيرة مدونة أيام النبوة " فإلى هذا المعنى يسمونه " (٤) سورة الفرقان

الشيء الثالث : أن عروة كما عنى فى كتاباته بالحديث • عنى بالروايات المكتوبة • مثل كتاب النبى إلى رَزَّة بن ذى يَزَن (٤) وكتبه إلى أهل هَجَر (٥)

-
- (١) كشف الظنون ج ٢ ص ١٧٤٧ • (٢) راجع نشأة الكتابة الفنية ص ١١٥ •
 (٣) راجع : نشأة الكتابة الفنية ص ١١٦ •
 (٤) فتوح البلدان للبلدري القسم الاول ص ٨٣ • ٨٤ •
 (٥) المرجع نفسه ص ١٦ • ١٧ •

وشيء رابع يلحظه قارىء كتابات عروة - أو بمعاونة أدق الروايات التى نقلت عنه - وهو أن عروة كان يريد فى كتاباته شعرا ينثره نفسى الحوادث على السنة المشتركين فيها " وعلى الرغم من فقه عروة ودينه لم يكن خصما للشعر ، بل كان ينثره فى الحوادث على السنة المشتركين فيها ، مثله فى ذلك مثل النموذج المعروف عن التاريخ الجاهلى " (١)

هذا كله بالإضافة الى اتباعه المأثور وموقفه عند الحديث ، وخوفه من ابداء رأيه فى الحوادث يقول ابنه هشام : " ما سمعت أبى يقول نسي شيء قط برأيه " (٢) وحيطته فى ايراد الأخبار ، اذ نجده يشير الى الأشياء التى لا يطمئن اليها أو يخاف أن يتحمل مسئوليتها بكلمة " زعموا " (٣)

وهذا مثال من كتابات عروة - وهو رسالته الى عبدالملك بن مروان عن أبى سفيان وخرجه - كما وردت فى تاريخ الطبرى ، " حدثنا أبان المطار قال : حدثنا هشام بن عروة ، عن عروة ، أنه كتب الى عبدالملك : " أما بعد ، فانك كتبت الى أبى سفيان وخرجه ، تسألنى كيف كان شأنه ؟ كان من شأنه أن أبا سفيان بن حرب أقبل من الشام فى قريب من سبعين راكبا من قبائل قريش كلها ، وكانوا تجارا بالشام فأتهموا جميعا ومعهم أموالهم وتجاريتهم " (٤) الخ .

ح - شرح جميل بن سعد :

شرح جميل بن سعد ، من موالى الأنصار ، مات سنة ١٢٣ هـ ، وقد

-
- | | |
|-----|---------------------------------------|
| (١) | نشأة الكتابة الفنية ص ١٩٦ |
| (٢) | تهذيب التهذيب لابن حجر : ٢ : ١٨٣ |
| (٣) | راجع نشأة الكتابة الفنية ص : ١٩٧ |
| (٤) | تاريخ الطبرى ح ٢ ص ٤٢١ مع تصرف وتصويب |

روى كثيرا عن زيد بن ثابت وأبى سميد الخدرى ، وأبى هريرة . وقال فيه
سفيان بن عيينة : ((ان أحدا لم يعرف المشازى وغزوة أحد معرفته
ولكن لم يكن من الثقة حيث كان أبان وغزوة)) يقول فيه ابن سميد :
" . . . وبقي الى آخر الزمان حتى اخطط واحتاج حاجة شديدة ، ولله
أحاديث ، وليس يحتج به " (١) .

ومن أجل ذلك لم يَرَوْ عنه ابن اسحاق والواقدي شيئا ، وان كان
ابن سميد روى عنه خبرا في انتقال النبي صلى الله عليه وسلم من قباء
الى المدينة (٢) .

وقد روى عنه أنه كتب " نَهْثًا " بأساء من هاجر من مكة الى
المدينة ، وأساء من استتركوا في غزوة بدر وغزوة أحد .

د - وَهْبُ بْنُ مَنبَهَةَ :

وهب بن منه ، يعني من أصل فارسي ، كما يقال ، ويقال أيضا
انه من أهل الكتاب الذين أسلموا ، وقد ولد في اليمن ، وأبغى حياته
بها ، ولكنه زار الحجاز ، وتوفي عام ١١٠ هـ .

ويعد وهب بن منه من أوائل من دون في السير والمغازي ، بسبب
انه لَيُذَكَّرُ في عِدَاد الطبقة الأولى التي قامت بتدوين السيرة ، ويقول عنه
حاجي خليفة عند كلامه في علم المغازي والسير : " ويقال : أول من
صنف فيها غزوة بن الزبير ، وجمعها أيضا وهب بن منه " (٣) .

(١) ضحى الاسلام : ج ٢ ص ٣٢٢ و ٣٢٣ - لجنة التأليف والترجمة والنشر .

(٢) الطبقات الكبرى : ج ٥ ص ٣١٠ .

(٣) الطبقات الكبرى : ج ١ ص ٢٣٧ .

(٤) كشف الظنون : ج ٢ ص ١٧٤٧ .

ومع ذلك لم تذكره كتب السيرة القديمة، على أنه أحد رَوَاة السيرة، كما أن كتاب السير الأولين لا يُسندون إليه شيئاً في كتبهم، اللهم إلا ما كان من ابن اسحاق، فقد روى عن وهب في القسم الأول من السيرة^(١). وينسب ابن النديم الى وهب كتاب "الابتداء"^(٢). ولعل في هذه النسبة ما يهيد أخذ ابن اسحاق عنه، إذ يشير هذا القول الى احتمال التشابه بين هذا الكتاب وبين القسم الأول من السيرة التي ألفها ابن اسحاق، بل يشير أيضا الى احتمال أن يكون ابن اسحاق قد اقتبس اسم القسم الأول من سيرته من اسم كتاب وهب.

ويذكر المؤرخون أنه قد عُثر على قطعة من مغازي وهب، ضمن مجموعة أوراق بردى شت رينهارت المحفوظة في هيدلبرج بألمانيا^(٣). وقد كتبت سنة ٢٢٨ هـ وراويناها "محمد بن بكر عن أبي طلحة عن عبد المنعم عن أبيه عن أبي الهيثم عن وهب"^(٤).

وتتناول هذه القطعة :بيعة العقبة الكبرى، واجتماع قرش في دار الندوة، وهجرة النبي صلى الله عليه وسلم، وفزة بني خنيسة، ما يدل على أن وهباً تناول تاريخ الحقبة المكية والحقبة المدنية من حياة الرسول^(٥).

كذلك فإن لوهب قطعة من المغازي حفظتها "حلية الأولياء" للأصبهاني، وتتناول وفاة النبي صلى الله عليه وسلم^(٦).

(١) راجع : مقدمة "المغازي" للمقادى ص ٢٢.

(٢) راجع : "الفهرست" ص ١٤٤.

(٣) راجع : نشأة الكتابة الفنية ص ٢٠٠.

(٤) راجع : ضحى الاسلام ج ٢ ص ٣٢٣ - النهضة المصرية

(٥) نشأة الكتابة الفنية ص ٢٠٠. وضحى الاسلام ج ٢ ص ٣٢٣ - النهضة المصرية

(٦) راجع : حلية الأولياء ج ٤ ص ٧٣ - ٧٩.

أما بالنسبة للقطعة التي عثر عليها في " هيد لبرج " فان وهبا أهمل فيها الاسناد وعنى بالشعر . " ويقول بعض من رأى هذه القطعة : ان وهبا يهمل فيها الأسناد ويعنى بالشعر " (١) . وأما بالنسبة للقطعتين الآخرين ، فانه يذكر الاسناد فيهما . (٢)

وهذا نموذج من كتابات وهب ، وهي القطعة التي تتناول وفاة النبي صلى الله عليه وسلم حيث يقول : " فلما كان يوم الأحد ، ثقل في مرضه ، فأذن بلال بالأذان ، ثم وقف بالباب ، فنادى : " السلام عليك يا رسول الله ورحمة الله ، الصلاة يرحمك الله " فسمع رسول الله صلى الله عليه وسلم صوت بلال ، فقالت فاطمة : " يا بلال ان رسول الله صلى الله عليه وسلم اليوم مشغول بنفسه " فدخل بلال المسجد ، فلما أسفر الصبح قال : " والله لا أقيمها أو استأذن سيدي رسول الله صلى الله عليه وسلم . الخ " (٣) .

٢ - الطبقة الثانية :

وهؤلاء الأربعة : أبان ، وعروة ، وشريحيل ، ووهب ، هم الذين وضعوا البذور الأولى لعلم المغازي والسير وخططوا أسسه ولبناته الأولى ، ومن هنا عدوا الطبقة الأولى من طبقات مؤرخي السيرة .

وقد جاء بعد هؤلاء الأربعة طبقة ثانية ، غنيت بالمغازي والسير ، بل دخلت السيرة على يدها في مرحلة جديدة ، ومن أشهرهم : عاصم ابن عمر بن قتادة المتوفى سنة ١٢٠ هـ ، وسعد بن مسلم بن شهاب

(١) نشأة الكتابة الفنية ص ٢٠٠ . وضحي الاسلام ح ٢ ص ٣٢٣ - النهضة المصرية

(٢) راجع نشأة الكتابة الفنية ص ٢٠٠ .

(٣) راجع نشأة الكتابة الفنية ص ٢٠١ .

الزهرى المتوفى ١٢٤هـ . وعبدالله بن أبى بكر بن حزم المتوفى ١٣٥هـ .

أ - عاصم بن عُمر بن قتادة :

هو عاصم بن عمر بن قتادة الظفرى - من قبيلة بنى ظَفَر -
الأنصارى ، المتوفى ١٢٠هـ ، كان جده قتادة أنصاريا شهد مع الرسول
غزوة بدر ، وكان أبوه عمر بن قتادة يروى الأخبار عن أبيه ، وقد روى عاصم
عن أبيه عمر ، واشتهر بأحاديثه عن حياة الرسول عامة ، حتى قال
فيه ابن قتيبة : " انه صاحب السر والمغازى " ^(١) ومع ذلك لم يُنسب
إليه كتابٌ خاصٌّ فى هذا الموضوع ^(٢) .

وقد أخذ عنه ابن اسحاق مباشرة ، وروى الواقدى عنه بطريق
محمد بن صالح ، ويونس بن محمد الظفرى ، وسماذ بن محمد الأنصارى ،
ويعقوب بن محمد ، وموسى بن محمد ، وعبد الرحمن بن عبد العزيز ^(٣) .

وقد عَنِ عاصم بِالْحَقِّ المَكَّة من حياة الرسول ، كما توضح اقتباساً
ابن سَمْعٍون فى طبقاته ، الى جانب عنايته بالحقة المدنية ، كما توضح
مقتطفات الطبرى ، بالإضافة الى اهتمامه بتاريخ الخلفاء الراشدين ، خاصة
أخبار فترة هُجُوتهم ^(٤) .

وعاصم ينهج نهج عروة وأبان فى الاعتماد على السند ، حيث
يذكر سند رواياته فى غالب الأحيان . . ولكنه مع ذلك يهمل فى أحيان كثيرة ^(٥) .

(١) المعارف ص ٤٦٦ .

(٢) راجع " المغازى " للواقدى - المقدمة ص ٢٢ .

(٣) راجع المرجع السابق ص ٢٢ .

(٤) نشأة الكتابة الفنية ص ٢١٠ .

(٥) المرجع السابق ص ٢١٠ .

هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى ، نراه يورد الشمر على السنة المشتركة في الحوادث ^(١) . ومن ناحية ثالثة نراه يمتاز بأنه لم يقتصر على جمع الحوادث وروايتها ، بل كان يبدى رأيه فيها ويعلق عليها . ^(٢)

وهذا مثال من أخباره في وصف بيعة العقبة : " قال ابي اسحاق : وحدثني عاصم بن عمر بن قتادة : " أن القيم لما اجتمعوا لبيعة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال المياس بن عباد بن نضلة الأنصاري ، أخو بني سالم بن عوف : يا معشر الخزرج هل تدرون على حرب تهايمون هذا الرجل ؟ قالوا : نعم ، قال : انكم تهايمونه على حرب الأحمر والأسود من الناس ، فان كنتم ترون أنكم اذا تَهَكَّتْ أموالكم مصيبة ، وأشرانكم قَتْلُ أسلمتوه ، فمن الآن ، فهو والله ان فعلتم خزي الدنيا والآخرة ، وان كنتم ترون أنكم وافون له بما دعوتوه اليه على نهكسة الأموال وقتل الأشراف فخذوه ، فهو والله خير الدنيا والآخرة ، قالوا : فانا نأخذوه على مصيبة الأموال وقتل الأشراف ، فما لنا بذلك يا رسول الله ان نحن وفينا ؟ قال : " الجنة " قالوا : ايسرُ يدك ، فبسط يده فهايموه ، فاما عاصم بن عمر بن قتادة ، فقال : والله ما قال ذلك المياس الا ليهشد العقيد لرسول الله صلى الله عليه وسلم فسيأخافهم " . ^(٣)

ب - الزُهْرِيُّ :

هو محمد بن مسلم بن محمد الله بن عبد الله بن شهاب الزُهْرِيُّ ^(٤)

- (١) نشأة الكتابة الفنية ص ٢١٠ (٢) المرجع السابق ص ٢١٠ .
(٢) سيرة ابن هشام ج ٢ ص ٥٥ تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد ط دار الفكر - بيروت .
(٤) راجع : ضحى الاسلام ج ٢ ص ٣٢٥ . مطبعة النهضة البصرية .

نَسَبَهُ إِلَى بَنِي زُهْرَةَ - المتوفى عام ١٢٤ هـ : وقد ولد بمكة عام ٥١ هـ ، وطاش بالمدينة ودرس فيها حتى غادرها إلى دمشق عام ٨١ هـ أو ٨٢ هـ^(١).

كان ابن شهاب الزهري من أسبق الناس إلى تدوين علمه ، على حين أن علماء زمانه كثيراً ما كانوا يتخرجون من ذلك مثال الزهري : " ما نشر أحد من الناس هذا العلم نَشَرِي ، ولا يَذْلُهُ بِذِلِّي " ^(٢) . ولم يكن الزهري مُجَدِّدًا في جمع الحديث وتدوينه فحسب ، بل كان مُجَبِّدًا - أيضا - في جمع وتدوين ما جاء عن الصحابة . قال صالح بن كيسان : " كنت أطلب العلم أنا والزهري ، فقال : تَعَالَ نَكْتُبُ السُّنَنَ ، قال : فكتبنا ما جاء عن النبي صلى الله عليه وسلم ، ثم قال : تعال نكتب ما جاء عن الصحابة ، قال : فكتب ولم أكتب ، فَأَنْجَحَ وَصِيَّتُ " ^(٣) . ومن أجل ذلك عدّه ابن حجر أحد الأئمة الأعلام ، وعالم الحجاز والشام فسي الحديث . ^(٤)

ولم يكن الزهري عالما من أعلام الحديث فحسب ، بل كان عالما بارزا من أعلام السير والمغازي . . . " وواضح من كثرة الأخبار التي رويت عنه من ابن اسحاق والواقدي أنه (كان) من أَجَلِّ علماء السيرة " ^(٥) . بل يكفي للتدليل على مكانته في هذا العلم وقدره أن كلا من ابن اسحاق وموسى ابن عقيّة ، ومالك بن أنس ، وأبي معشر ، وميمر بن راشد ، ومحمد بن عبد الله بن أبي سبرة كان من تلامذته الذين أخذوا عنه ^(٦) .

-
- (١) راجع : " المغازي " للواقدي - المقدمة ص ٢٢ .
 (٢) راجع : ضحى الاسلام ج ٢ ص ٣٢٦ . مطبعة النهضة المصرية
 (٣) راجع : ضحى الاسلام ج ٢ ص ٣٢٦ . مطبعة النهضة المصرية
 (٤) راجع المغازي " للواقدي - المقدمة ص ٢٣ .
 (٥) المرجع السابق ص ٢٣ .
 (٦) المرجع السابق ص ٢٣ .

ويظهر أنه كان للزهري كتاب في المغازي ، ويظهر - أيضا - أنه ضاع وعدا عليه الزمن ، كما ضاعت مصنفات الطبقتين : الأولى والثانية ، ولم يصل منها إلينا شيء ، ويدل على ذلك قول حاجي خليفة - عند الكلام على المغازي - : " ومنها مغازي محمد بن مسلم الزهري " (١) كما يدل على ذلك أيضا ما نسب له شمس الدين محمد بن عبد الرحمن السخاوي من أنه (كان) له كتاب يسمى " مشاهد النبي صلى الله عليه وسلم " رواه عنه يونس بن يزيد (٢) ولكن يبدو أن كلتا التسميتين : " مغازي " و " مشاهد " تدل على شيء واحد ، أو بعبارة أخرى ، ليس لهما إلا مدلول واحد . وأما ما كان الأمر فقد ضاع الكتاب ، ولم يصل إلينا للأسف ، والكتاب من الأهمية بمكان ، بحيث لا يحتاج الأمر إلى المبالغة في تقدير أهميته ، ويكفي للتدليل على بيان قدره ، كثرة الاعتماد عليه في كتب ابن إسحاق والواقدي . . (٣)

ولقد دخلت السيرة على يد الزهري في طور جديد ، فقد كان الزهري أول من يفرق بين الأحاديث المختلفة المصادر لموضوع واحد ، بادماجها في حديث واحد اجماعي ، يصدره بأسماء الرواة مجتمعين ، وكانت هذه خطوة إلى الأمام في العرض التاريخي . (٤)

ويقول د . مارسدن جونز : " ويبدو أنه أول من جمع - ما رواه التابعون من السيرة - وأضاف إليها ما رواه هو أيضا ، بعد ذلك

(١) كشف الظنون ج ٢ ص ١٢٤٢ .

(٢) راجع : الاعلان بالفتح لمن ذم التاريخ ص ٨٨ .

(٣) " المغازي " للواقدي - المقدمة ص ٢٣ .

(٤) نشأة الكتابة الفنية ص ٢١٢ .

رتب هذه الأخبار ، على شكل السيرة النبوية المعروفة عند ابن اسحاق وموسى ابن عتبة والواقدي .^(١)

أما منهجه فى الكتابة ، فقد سار الزهرى على منوال غيره من المؤلفين فى ذكر الاسناد تارة ، وحذفه أخرى ، وفى العناية بإدخال الشعر فى أخباره .^(٢)

وهذا مثال من أخباره ، يتناول بمبحث الرسول صلى الله عليه وسلم : قال ابن اسحاق : " فذكر الزهرى عن عروة بن الزبير عن عائشة رضى الله عنها ، أنها حدثت : أن أول ما بدئ به رسول الله - صلى الله عليه وسلم - من النبوة ، حين أراد الله كرامته ورحمة العباد - - : الرؤيا الصادقة لا يرى رسول الله صلى الله عليه وسلم رؤيا فى نوم ولا جاءت كلفى الصبح ، قالت : وحسب الله تعالى اليه الخلو ، فلم يكن شئ أحب اليه من أن يخلو وحده .^(٣)

ح - عبد الله بن أبى بكر بن حزم :

هو عبد الله بن أبى بكر بن محمد بن عمرو بن حزم الأنصارى ، المتوفى عام ١٣٥ هـ ، وهو ابن أبى بكر بن حزم الذى كتب اليه عمر بن عبد العزيز ، يأمره بتدوين حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وجده الأعلى عمرو بن حزم من كبار الصحابة ، بعثه رسول الله الى أهل اليمن ليفقههم فى الدين ويعلمهم السنة ومعالم الاسلام ، ويأخذ منهم صدقاتهم .^(٤)

(١) المفازى " للواقدي - المقدمة ص ٢٣ .

(٢) نشأة الكتابة الفنية ص ٢١٣ .

(٣) سيرة ابن هشام ج ١ ص ٢٥٢ تحقيق محمد محى الدين عبد الحميد ط . دار الفكر - بيروت .

(٤) ضحى الاسلام ج ٢ ص ٣٢٤ . مطبعة النهضة البصرية .

ولا ينسب الى عبدالله أنه ألف كتابا في السيرة ، ولكن ابن اسحاق والواقدي يذكرانه بكثرة ، فقد روى عنه ابن اسحاق مباشرة ، والواقدي يطبق عبدالرحمن بن عبدالعزيز ، ويحيى بن عبدالله بن أبي حمزة و ابن أبي سيرة (١) .

كما نقلت عنه أخبار كثيرة ذكرها ابن اسحاق والواقدي وابن سعد والطبري وغيرهم له أخبار تتعلق ببداية حياة النبي صلى الله عليه وسلم ، ووفود القناصل الى رسول الله ، وأخبار في الردة (٢) .

وهذا يعني أن عبدالله بن أبي بكر بن حزم كان له أثره في كتب المفازي والسير ، وكان له من بيته المظلم في الأنصار ، وتزوج به بفاطمة . . . التي تزوي عن عمرة . . . التي تزوي عن عائشة - رضى الله عنها - ما يفسر له جميع الأحاديث التي تصل بالمفازي (٣) .

ففي سيرة ابن هشام : " قال ابن اسحاق ، وحدثني عبدالله بن أبي بكر ، عن امرأته فاطمة بنت عمار ، عن عمرة بنت عبدالرحمن بن سعد ابن زُرارة ، عن عائشة كذا . . . "

وفي الطبري عن محمد بن اسحاق أنه " دخل على عبدالله بن أبي بكر فقال لامرأته فاطمة : " حدثني محمدا ما سمعت من عمرة بنت عبدالرحمن ، فقالت : سمعتُ عمرة تقول : سمعتُ عائشة تقول الخ . . . (٤) "

-
- | | |
|-----|--|
| (١) | المفازي - المقدمة . ص ٢٣ . |
| (٢) | ضحى الاسلام ح ٢ ص ٣٢٤ . مطبعة النهضة المصرية |
| (٣) | المرجع السابق ص ٣٢٥ . مطبعة النهضة المصرية |
| (٤) | المرجع السابق ص ٣٢٤ . مطبعة النهضة المصرية |

٣ - الطبقة الثالثة :

ومحمد هؤلاء الثلاثة : عاصم بن عمر بن قتادة ، ومحمد بن مسلم
ابن شهاب الزهري ، وعبدالله بن أبي بكر بن حزم - جاءت طبقة الثالثة ،
عاشت في العصر المباسي ، أشهرهم : موسى بن عقبة المتوفى عام ١٤١هـ ،
ومحمد بن اسحاق المتوفى عام ١٥٠هـ ، ومعمّر بن راشد المتوفى عام ١٥٤هـ
وأبو محشر السندی المتوفى عام ١٧٠هـ ومحمد بن عمر الواقدي المتوفى
عام ٢٠٧هـ .

وأشهر هؤلاء جميعا : محمد بن اسحاق ، ومحمد بن عيسى
الواقدي ، لأن مؤلفاتهما في السيرة هي أولى المؤلفات التي وصلت إلينا
أيدينا من مؤلفات كتاب السيرة الأولين ، ولأن السيرة قد دخلت - على
أيديهما - مرحلة جديدة ذات منهج جديد ، يدل على أصالتها وأثرها
في هذا العلم ، ولأنهما قد تركا بصماتهما على هذا العلم واضحة ،
وظهر أثرها جليا في آثار أولئك الذين جاؤا بعدهم ، فاقفوا أثرهم ،
وترسوا خطاهم ، بل إن منهم من لم يزد كثيرا على ما فعله ابن اسحاق
وهو ابن هشام الذي تناول سيرة ابن اسحاق بالاختصار والشرح والتعليق ،
ولم يضيف جديدا إلى منهج ابن اسحاق . . ومنهم من اعتمد على
تصنيفات أستاذه الواقدي ، ولم يضيف سوى أشياء قليلة ، وهو ابن سعد
الذي اعتمد على تصنيفات الواقدي في كتابه الشهير " الطبقات الكبرى " .

ومن أجل هذا كله سنلجئها مزيدا من البحث والدراسة ، ملقنين
القراء على كتابيهما ومنهجيهما مكثفين بإشارة موجزة إلى من سواهما
من رجال هذه الطبقة ، ومن هنا سنجعل الكلام عنهما آخر الحديث في
هذا المقام :

أ - موسى بن عتبة :

هو موسى بن عتبة بن أبي عياش الأسدي ، المتوفى عام ١٤١ هـ ، وقد كان موسى مولى لآل الزبير بن العوام ولعله استفاد من هذه الصلة بعض علمه ، إذ كان عروة بن الزبير وابنه همام من أشهر علماء المفازي وقد عني موسى وأخواه : إبراهيم ومحمد بمدارسة العلم في مسجد المدينة واشتهر ثلاثتهم بالفقه والحديث ، وعرف أصغرهم موسى بالمفازي ^(١) حتى قال فيه مالك بن أنس : " عليكم بمفازي موسى بن عتبة فإنه ثقة " وفي رواية ^{أخرى} " عليكم بمفازي الرجل الصالح موسى بن عتبة فإنه أصح المفازي " وفي رواية ^{أخرى} " فإنه رجل ثقة طلبها على كبر السن ، ولم يكن كثر غيره " ^(٢) .

وقال ابن حجر : " وقال إبراهيم بن المنذر أيضا عن محمد ابن طلحة بن الطويل ، قال : ولم يكن بالمدينة أعلم بالمفازي منه " ^(٣) وقال حاجي خليفة عن مفازي موسى : " ومفازيه أصح المفازي " ^(٤) .

وقد ألف موسى في المفازي كتابا رواه عنه ابن أخيه : إسماعيل ابن إبراهيم المتوفى عام ١٥٨ هـ ، ولكنه لم يصلنا مع أنه كان موجودا حتى القرن العاشر للهجرة ^(٥) بل وصلت منه شذرات قليلة ، ويظهر أن كتاب

-
- (١) راجع : " المفازي " للواقدي - المقدمة ص ٢٤ . وراجع " ضحى الاسلام " ج ٢ ص ٣٢٧ . - مطبعة النهضة المصرية
- (٢) تهذيب التهذيب ج ١٠ ص ٣٦١ .
- (٣) تهذيب التهذيب ج ١٠ ص ٣٦١ .
- (٤) كشف الظنون : ج ٢ ص ١٢٤٧ .
- (٥) راجع : المفازي للواقدي - المقدمة ص ٢٤ .

موسى فى المغازى، كان أصغر حجما من كتب المغازى الأخرى ، لقول مالك بن أنس السابق " ٠٠ ولم يكثر كما كثر غيره " ويقول بعض الباحثين عن سيرة موسى أو مغازيه : " ٠٠٠ وكانت سيرته التى كتبها مخصصة موجزة ، كما يروى الرواة " (١).

وإذا كان كتاب موسى فى المغازى لم يعلنا ، على النحو الذى وضعه ، فإنه قد وجد بألمانية - فى المكتبة " البروسية " الرسمية - قطعة من مغازيه ترجمها الأستاذ : " ادوارد سخاو " الى الألمانية عام ١٩٠٤م ، ولكن الناظر فى هذه القطعة لا يستطيع أن يكون فكرة شاملة عن الكتاب نفسه - من خلالها ، ولكن يمكن أن يكون هذه الفكرة من المقتطفات التى وصلت من مغازى موسى ، من خلال النقول التى وجدت عند ابن سعد والطبرى وابن سيد الناس وابن كثير (٢).

فقد اقتبس ابن سعد كثيرا منه عن طريق أستاذه الواقدي ، وعن طريق ابن أخى موسى : اسماعيل بن ابراهيم السابق ذكره ، وتكشف لنا اقتباسات ابن سعد - أو بمباراة أخرى ، مقتطفات من مغازى موسى - أن مغازى موسى كانت تحتوى على قوائم بأسماء المهاجرين الى الحبشة ، والمشاركين فى بيعتى العقبة ، والمهاجرين فى بدر (٣).

وقد اقتبس الطبرى فى تاريخه منه أخبارا كثيرة : بعضها يتصل بالسيرة النبوية ، وبعضها يتصل بالخلفاء الراشدين ، وبعضها يتصل ببني أمية ، ٠٠ بل يروى فى الأغاني " خبر " يدل على أن موسى بن عقبة

(١) ضحى الاسلام ج ٢ ص ٣٢٢ مطبعة النهضة المصرية

(٢) راجع : نشأة الكتابة الفنية ص ٢١٤ ، وراجع " المغازى " المقدمة ص ٢٤٠

(٣) راجع : نشأة الكتابة الفنية ص ٢١٥

اهتم بالأحداث الجاهلية أيضا ، إذ ضمر بعض الكتب أن الأغاني نقل عنه أخبار زهد بن عمرو الذي كان يتأله في الجاهلية . (١)

ومن خلال هذه المقطعات التي نقلها عنه ابن سعد والطبري يستطيع الباحث أن يقول : أن موسى بن عقبة ، انفرد عن المؤلفين قبله بعنايته الزائدة بالقوائم ، وتدوينه لتاريخ الخلفاء الراشدين ، ومضى الأمويين بل التاريخ الجاهلي أيضا . كما أنه يعنى أكثر من غيره بنظام الاسناد ، وإن تركه أحيانا . كما أنه يعنى أيضا بالأخذ عن مدونات من سبقه ، مثل ابن عباس ، كما يعنى بالوثائق المكتوبة ، وبالإضافة الى كل ذلك نراه يقتبس بعض الأشعار ، ويحاول ترتيب الحوادث ترتيبا زمنيا . (٢)

ومن خلال هذه الخصائص التي يراها الباحث في كتابات موسى ابن عقبة والتي تشكل منهجه الذي سار عليه - نستطيع أن نقول : أن السيرة دخلت على يديه مرحلة جديدة ، بل أن نقول : أن موسى بن عقبة وضع مع ابن اسحاق والواقدي الأسس التي بنى عليها المتأخرون كتبهم مثل الطبري ، وابن سعد الناس ، وابن كثير . (٣)

بل يذهب بعض الباحثين الى القول ، بأن النمط الذي سارت عليه كتابات موسى بن عقبة ، يشبه النمط الذي سارت عليه سيرة ابن اسحاق ، بل يشبه كتاب موسى في المغازي سيرة ابن اسحاق في كثير من تفصيلاته ، وينتهي من هذا الى القول بأن نمط السيرة النبوية كان مألوفا قبل تأليف ابن اسحاق . (٤)

(١) راجع : ضحى الاسلام ج ٢ ص ٣٢٧ ، والأغاني ج ١ ص ٣٦٨ - ٣٧١ .

(٢) راجع : نشأة الكتابة الفنية ص ٢١٥ .

(٣) راجع : المغازي - المقدمة ص ٢٤ .

(٤) راجع : المرجع السابق ص ٢٤ .

ب - مَعْمَرُ بْنُ رَاشِدٍ :

معممر بن راشد ، كان مولى لِكُرْدٍ ، وقد ولد ونشأ بالبصرة ثم رحل الى اليمن ، وظل يمتقل بين اليمن والبصرة الى أن توفي باليمن في صنعاء سنة ١٥٠ هـ أو ١٥٢ هـ .^(١) ويرى بعض الباحثين أنه ولد فسي الكوفة ، وتوفي بصنعاء سنة ١٥٤ هـ .^(٢)

ومعممر من كتاب السيرة الموالى ، كابن اسحاق وأبى معشر والواقدي ، الذين دخلت السيرة على أيديهم مرحلتها الأخيرة في المدينة . ومع أن المصادر سكنت عن ذكر أية صلة له بالمدينة ، نرى هنالك احتمالا كبيرا يوحي بأنه زار المدينة ، فقد روى أخبارا عن الزهري وعاصم ابن عمر بن قتادة .^(٣)

وكان معممر واسع العلم بالحديث والسير . ومعممر بن راشد من الرجال الذين وثقهم أصحاب الحديث والمغازي .^(٤) يقال يعقوب بن شيبة : مَعْمَرٌ رِيَّةٌ ، وصالحٌ تَيْهٌ ، وقال التَّمَّامِيُّ : رِيَّةٌ مَأْمُونٌ . وقال أحمد بن حنبل ، عمن عبد الرزاق ، عن ابن جريج : عليكم بهذا الرجل فإنه لم يبق أحد من أهل زمانه أعلم منه ، يعنى ممصرا ، وذكره ابن حبان في الثقات .^(٥)

وقد ذكر ابن النديم في الفهرست أن له كتابا في المغازي ، ولكن لم يصلنا من هذا الكتاب سوى مقتطفات متجذها عند الواقدي ، وأبى

(١) راجع : ضحى الاسلام ج ٢ ص ٣٢٨ . مطبعة النهضة النصية

(٢) راجع : المغازي - المقدمة ص ٢٧ . مطبعة النهضة النصية

(٣) راجع المغازي - المقدمة ص ٢٧ . مع بعض التصحيح .

(٤) راجع المغازي - المقدمة ص ٢٨ .

(٥) تهذيب التهذيب ج ١٠ ص ٢٤٥ .

سمد ، والطبري ، والبلدري ٠٠ وأكر ما يقوله معمر ينسبه الى الزهري ،
وقد كان شيخه ^(١).

ح - أَبُو مَعْشَرٍ الْمَدَنِيُّ :

هو نَجِيعُ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ السَّنْدِيُّ ، الْمَكْنِيُّ بِأَبِي مَعْشَرٍ الْمَدَنِيِّ ،
كان مولى لبني هاشم ، وقد روى ابن حجر : انه من اليمن ، ويقال : ان
المهدي لما جاء الى المدينة سنة ١٦٠ هـ ، طلب أبا معشر ليرافقه عند رجوعه
الى العراق ، وهاجر من المدينة الى بغداد ، ومات هناك سنة ١٧٠ هـ ^(٢).

ومع أن علماء الجرح والتعديل ، جرحوه في الحديث ، لأنهم
كان ضميم الاسناد من وجهة نظر رجال الحديث ، بعد ثمة صدوقاً فسي
المنازي والتاريخ ، وقد روى ابن أبي حاتم الرازي عن عبد الرحمن قال :
سمعت أبي ، ذكر مفازي أبي معشر ، فقال ~~أبو معشر~~ كان أحمد (بن
حنبل) يرضاه ، ويقول : كان بصيراً بالمفازي * ^(٣).

وقد قال ابن النديم ان له كتاباً في المفازي ، ويظهر من الفقرات
التي أوردها الطبري في تاريخه انه كان مفازي أبي معشر كفازي موسى
ابن عتبة ، فقد اشتملت على أخبار من حياة النبي - صلى الله عليه وسلم -
قبل الهجرة . ^(٤)

د - ابْنُ اسْحَاقَ :

هو أبو عبدالله ، ويقال : أبو بكر محمد بن اسحاق ، بن يسار

(١) راجع ضحي الاسلام ح ٢ ص ٣٢٨ . مطبعة النهضة المصرية

(٢) راجع : تهذيب التهذيب ح ١٠ ص ٤١٩ ، ٤٢١ .

(٣) المرجع السابق ص ٤٢٠

(٤) راجع : " المفازي " المقدمة ص ٢٨ ، ٢٩ .

ابن خيار ، ويقال : ابن كوثان ، المَظَلِّي ، المتوفى عام ١٥٠ هـ تقريباً^(١)
 وكان يَسَافِرُ بَيْنَ خِيَارٍ جَدِّ مُحَمَّدِ بْنِ إِسْحَاقَ مَوْلَى لَقَيْسِ بْنِ مَخْرَمَةَ
 ابن عبد المطلب بن عبد مناف - وفي بعض روايات الخطيب البغدادي^(٢) أن
 الذي كان مولى هو خيار أبوجده .

وقد ولد محمد بن اسحاق بالمدينة سنة ٨٥ هـ فيها نشأ حتى
 أدرك سن الشباب ، ولقى كثيراً من علمائها ، وأخذ عنهم الحديث - من
 أشال القاسم بن محمد بن أبي بكر ، ونافع مولى ابن عمر ، وابن شهاب
 الزهري ، وأبان بن عثمان بن غان . وكان يجمع الأحاديث خاصة
 ما عمل منها بالمغازي حتى اشتهر بها ، ولذا روى عن الشافعي أنه
 قال : " من أراه أن يتحرف في المغازي فهو عيال على محمد بن
 اسحاق " .^(٣)

ثم ترك ابن اسحاق المدينة - فيما بعد ويذكر ابن سيد الناس
 أن من أهم أسباب ترك ابن اسحاق المدينة عداوة هشام بن عروة وسالك
 ابن أنس له^(٤) . وقد قدم ابن اسحاق إلى الاسكندرية سنة ١١٩ هـ أو سنة
 ١١٥ هـ كما يرى البعض^(٥) . ولقى فيها كثيراً من أساطين علمائها ،
 مثل يزيد بن أبي حبيب ، وعبيد الله بن أبي جعفر ، والقاسم بن
 قزمان ، وعبيد الله بن المغيرة ، ويظهر أن زيارة ابن اسحاق لمصر

-
- (١) وقيل عام ١٥١ هـ وقيل ١٥٢ هـ وقيل ١٥٤ هـ .
 (٢) تاريخ بغداد (١ : ٢١٦) . نشر مكتبة الخانجي
 (٣) تاريخ بغداد : (١ ص : ٢١٩) نشر مكتبة الخانجي
 (٤) راجع : المغازي - المقدمة ص ٢٦ .
 (٥) راجع : سيرة ابن هشام ج ١ ص ٢٥ / تحقيق محمد محيي
 الدين / دار الفكر - بيروت .

كانت قبل أن يفادر المدينة نهائياً ، إذ يبدو أنه كان في المدينة سنة ١٢٣ هـ (١).

ثم رحل بعد ذلك الى نواحي كثيرة ، فرحل الى الرّي والكوفة والجزيرة والنجرة ، ثم رحل الى بغداد ومنها اعلم بأهلي جعفر المنصور . ولكن متى غادر ابن اسحاق المدينة نهائياً ؟

يقول د . مارسدن جونز : " ٠٠٠ ولا يمكننا أن نحدد تاريخ مفادته للمدينة ٠٠٠ وعلى أية حال يحتمل أن يكون قد ترك المدينة قبل بلوغه سن الأربعين " (٢) قال ابن حجر : وكان خرج من المدينة قديماً فأتى الكوفة والجزيرة والري وبغداد ، فأقام بها حتى مات سنة ١٥١ هـ (٣).

وقد ألف ابن اسحاق سيرته المشهورة في كتاب أسماه " المنازى " فإذا به يفتى على جميع هؤلاء المؤرخين المتقدمين ، ويجذب اليهم أنظار المتأخرين على الدوام ، ويُعَدُّ ابنُ اسحاقٍ أولَ كاتبٍ في السيرة وصلنا كتابه ، وإن كان هذا المؤلف العظيم لم يصلنا في صورته الأصلية ، بل وصل إلينا قسط عظيم منه في سيرة ابن هشام .

وقد ألف ابن اسحاق كتابه " المنازى " من مجموع الأحاديث والأخبار التي سمعها في المدينة والتي سمعها في مصر ، ويبدو أنه قد جمع كتابه قبل أن يرحل الى العراق (٤).

-
- (١) راجع : المنازى - المقدمة ص ٢٥ .
 (٢) راجع : المرجع السابق ص ٢٥ ، ٢٦ مع بعض التصرف .
 (٣) راجع : المرجع السابق ص ٢٥ ، ٢٦ .
 (٤) ضحى الاسلام ج ٢ ص ٣٣٠ مطبعة النهضة المصرية

ويقال : ان سبب تأليفه "المغازي" انه دخل ذات يوم على المنصور وبين يديه ابنه السهدي ، فقال له المنصور : اتعرف هذا يا ابن اسحاق ؟ قال : نعم ، وهذا ابن أمير المؤمنين ، قال : اذهب فصف له كتابا منذ خلق الله تعالى آدم عليه السلام الى يومك هذا ، فصف ابن اسحاق هذا الكتاب ، فقال له المنصور : لقد طولته يا ابن اسحاق ، اذهب فاخصمه ، وحفظ المنصور الكتاب الكبير في خزائنه .^(١)

وقد وصلت اليها سيرة ابن اسحاق بطرق عدة ، أشهرها رواية ابن هشام عن أبي بكير ، وأحد تلاميذ ابن اسحاق ورواته ، ومن أهمها رواية ابن بكير التي لم عمل اليها كاملة ، ولكننا نجد قطعا كثيرة منها عند ابن سعد وابن الأثير ، وأخيرا وجدت قطعة منها مخطوطة في مسجد القرويين بفاس ، وهي تشتمل على الجزء الأول من الكتاب^(٢).

ومن أفضل الطرق التي وصلت اليها - من خلالها - سيرة ابن اسحاق ، رواية سلمة بن الفضل الأبرشي ، أحد تلاميذ ابن اسحاق ورواته .

يروى الخطيب البغدادي فيقول : " قال الحسن وسمعت أبا الهيثم يقول : صف محمد بن اسحاق هذا الكتاب في القراطين ، ثم صير القراطين لسلمة - يعني ابن الفضل - فكانت رواية سلمة تفضل عيسى رواية غيره لحال تلك القراطين " .^(٣)

(١) نشأة الكتابة الفنية ص ٢٢٣ ، ٢٢٤ .

(٢) المغازي - المقدمة ، ص ٢٦ ، ٢٧ .

(٣) تاريخ بغداد ج ١ ص ٢٢١ مع تصرف دار الكتاب العربي بيروت .

وقد اعتمد الطبرى على رواية سلمة بن الفضل ، هل كان يروى عنه أكثر مما يروى عن ابن اسحاق (١) .

وقد علمنا أننا أن ابن هشام اعتمد على رواية البكائى ، أما ابن سمد فقد اعتمد — زيادة على رواية ابن بكير — على رواية هارون بن سمد (٢) .

وما هو معلوم أن السيرة التى بأيدينا والمعروفة بسيرة ابن هشام ، هى سيرة ابن اسحاق ، بعد الحذف والاختصار والتفصيل الذى ألحقه بها ابن هشام .

ويبدو من سيرة ابن هشام وما اقتطفه الطبرى وغيره من المؤرخين المتأخرين من سيرة ابن اسحاق ما هو محذوف عند ابن هشام — أن سيرة ابن اسحاق فى صورتها الأصلية كانت مقسمة الى ثلاثة أجزاء : المبتدأ ، والمبعث ، والمغازى .

أما المبتدأ : فيتناول التاريخ الجاهلى ، وينقسم هذا الجزء الى أربعة فصول ، يتناول أولها تاريخ الرسالات السابقة على الاسلام منذ خلق آدم حتى ظهور عيسى . ويتناول الفصل الثانى : تاريخ المبعث فى المصور الجاهلية ، ويتناول الفصل الثالث : تاريخ القائل العربى وعباداتها . ويتناول الفصل الرابع : أجداد النبی صلى الله عليه وسلم وديانة أهل مكة .

(١) ضحى الاسلام ح ٢ ص ٣٣٢ . مطبعة النهضة المصرية

(٢) المغازى للواقدي — المقدمة ص ٢٢ .

وقد خص ابن هشام هذا الجزء - أعنى : المبتدأ - من سيرة ابن اسحاق بال حذف أكثر من غيره ، ولكن الطبرى حفظ جزءا كبيرا منه فى تاريخه وتفسيره ، وخاصة ما يتعلق بالأنبياء منه ، كما حفظ الأزرقي أخبارا كثيرة منه تتناول تاريخ مكة القديم . (١)

وقد رجع ابن اسحاق فى الفصل الأول - أعنى تاريخ الرسالات السابقة على الاسلام - الى وهب بن منبه وابن عباس وأهل الكتاب ، بل رجع الى التوراة ذاتها ، الى جانب رجوعه الى القرآن ، وقد أورد فيه أخبار أهل الكتاب والقبايل المصوبة التى ذكرها القرآن مثل عاد وثمود ، بل التى لم يذكرها مثل طسم وجديس .

أما الفصل الثانى - أعنى تاريخ اليمن فى المصور الجاهلية - ف يرجع بعض الباحثين غناية ابن اسحاق به الى وجود الاشارات القرآنية المعديدة اليهم ، مثل اشاراته الى أهل الأخدود وأصحاب القهبل . (٢) وقد روى ابن هشام والطبرى جزءا كبيرا من هذا الفصل . (٣) وقصته هذه لما روى فى تكملة تاريخه على يد روضه زكى شمس الدين

ويلاحظ أن ابن اسحاق لا يفتنى فى هذا الجزء - أعنى المبتدأ - بالأسانيد الا نادرا ، وأغلبها فى الفصل الأول .

وأما البحث : فيشمل حياة النبى فى مكة ، والهجرة ، وهما العام الأول من نشاطه فى المدينة . وفى هذا الجزء يصدر ابن اسحاق الأخبار الفردية بموجز حافلها ، كما أنه يردون مجبوت كاملة من القوائم : فقايسة بمن أسلم من الصحابة بدعوة أبى بكر ، وأخرى بالمهاجرين السى

(١) نشأة الكتابة الفنية ص ٢٢٥ .

(٢) نشأة الكتابة الفنية ص ٢٢٦ .

(٣) المرجع السابق ص ٢٢٦ .

أرض الحشة ، وثالثة بمن عاد من أرض الحشة لما بلغهم اسلام أهل مكة ... الخ

ويلاحظ أنه توجد في هذا الجزء وثيقة انفرد بها ابن اسحاق من بين المؤرخين الآخرين ، وهي معاهدة النبي التي كتبها لينظم التعاون بين المهاجرين والأنصار واليهود بعد هجرته إلى المدينة مهاجرة ، كما يلاحظ أنه معنى في هذا الجزء بالترتيب الزمني للحوادث ، كما يلاحظ أنه ترداد عنايته بالأسانيد التي يرجع معظمها إلى شيوخه المدنيين .

وأما المغازي : فتتلول حياة النبي في المدينة ، وشلل الفزوات الحربية هذا الجزء ، وسور ابن اسحاق في هذا الجزء على خطبة مميقة ، هي : أن يبدأ الخبر بملخص حاوي لمحتوياته ، ثم يتعمق بخبر من جميع الأقوال التي أخذها من رواة ، وفي النهاية يكمله بما جمعه هو نفسه من المصادر المختلفة .

وفي هذا الجزء بدون أيضا مجموعات من القوائم : فثالثة بمن حضر بدرا من المسلمين ، وأخرى بمن استشهد من المسلمين يوم بدر ، وثالثة بمن قتل ببدر من المشركين ويفعل مثل ذلك في الفزوات المختلفة .

وفي هذا الجزء يلتزم ابن اسحاق بإيراد الأسانيد ، وجميع من روى عنهم - هنا - من المدينة ، وأهمهم الزهري وطعن بن عسر ابن قتادة ، وعبدالله بن أبي بكر بن حزم ، والذين أبدوه بما ساعدوا في ترتيبه الزمني للحوادث . وقد زاد ابن اسحاق المادة التي أخذها منهم بما جمعه بنفسه من غيرهم من الرواة ، ومن أقارب المشتركين فيس في الحوادث المؤرخة .

والناظر في سيرة ابن اسحاق هذه ، يرى ابن اسحاق قد
خطا بالسيرة خطوات الى الامام : من حيث الموضوعات التي اشتملت عليها
السيرة ومن حيث طريقة التأليف التي عالج بها السيرة ، ومن حيث
المنهج الذي سار عليه في كتابة السيرة .

أما من حيث الموضوعات : فقد وسَّعَ ابن اسحاق أفق هذه
السيرة ، ولم يجعلها : قاصرة على عرض سنوات حياة الرسول صلى الله
عليه وسلم فحسب ، بل جعلها تاريخاً للرسالة الالهية عامة . . فأدخل
فيها تاريخ الأنبياء المتقدمين . . وتاريخاً للمصور الجاهلية التي كانت
قبل الاسلام . . بل جعلها تاريخاً للخلفاء بعد الرسول صلى الله عليه
وسلم . ولعله في مد سيرته لتشمل تاريخ الخلفاء بعد الرسول كسان
متأثراً بعاصم بن عمر بن قتادة وسوسي بن عقبة . .

أما من حيث طريقة التأليف التي سار عليها في كتابة السيرة :
فهى جمعه الأحاديث المختلفة المصادر في خبر واحد ، يحوى ما تشمل
عليه تلك الأحاديث من أخبار ، والمناطة بتأليف خبر عام موحد من
تلك الروايات المختلفة ، وقد اتبع ابن اسحاق في تلك الطريقة أستاذاه
الزهرى ، الذى بعد أول من جمع بين الأحاديث في موضوع واحد ،
لادماجها في حديث اجزائى يصدده بأساء الرواة مجتمعين ، كما
سبق أن ألمحنا الى ذلك ، وبعد ذلك يتبع هذا الخبر العام بخبر
من جميع الأقوال التي أخذها من رواة (١) .

أما من حيث المنهج الذى انتهجه في سيرته ، فهى نفس
الخصائص الآتية :-

أولا : جُمعَ الأحداث وترتيبها وتوبيخها وسلسلتها على هذا النمط والنظام الذي يراه القارىء فى سيرة ابن هشام : " ولا بن اسحاق فضل جمع الأحداث وترتيبها وتوبيخها وسلسلتها " وهما كان هو أول من فعل ذلك ، وهذا خذوه من بعده " (١)

ثانيا : قلَّ عنائه بالاسناد فى الجزء الأول - المبتدأ - وعنائه به فى الجزأين الآخرين : المبعث والمنازى ، خاصة الأخير " المنازى " ، ولمل عنائه بالاسناد فى الجزأين الآخرين راجعة الى أن الرواة الذين أخذ عنهم ابن اسحاق فيهما ، من علماء أهل المدينة الذين عنوا بالاسناد من أمثال عاصم بن عمر بن قتادة ، وابن شهاب الزهري ، وعبد الله بن أبي بكر بن حزم .. كما ترجع الى اتصاله بكثير من الزبيريين وهو اليهم ، وأخذ عنهم علم عريق بن الزبير وهشام بن عروة (٢) ، وسمروء أنهم كانوا يمتنون بالاسناد ..

ثالثا : توسَّعَ ابن اسحاق فى الأخذ عن الرواة ، فلم يرجع فى سيرته الى علماء المسلمين فحسب ، بل رجع الى غير المسلمين ، ففى أخباره عن الحوادث اليهودية والمسيحية والفارسية ، ولذلك نراه يذكر بين رواة " بعض أهل العلم من أهل الكتاب الأول " (٣) . أو " أهل التوراة " (٤) أو " من يسوق الأحاديث من الأعاجيب " (٥) . بل يذهب ابن اسحاق الى أبعد من ذلك ، فيورد فقرات من

-
- (١) ضحى الاسلام ح ٢ ص ٣٣٢ . (٢) المرجع السابق ح ٢ ص ٣٣١ .
 (٣) نشأة الكتابة الفنية ص ٢٢٨ . ضحى الاسلام ح ٢ ص ٣٣١ .
 (٤) نشأة الكتابة الفنية ص ٢٢٨ . ضحى الاسلام ح ٢ ص ٣٣١ .
 (٥) المرجعان السابقان البيهقي ح ١ ص ٣٢٩ تحقيق محيى الدين - دار الفكر - بيروت .

يقول ابن التميم عن ابن اسحاق في ذلك : " ويقال (إنه) كان يُقْتَلُ له الأشعار ويؤتى بها ويُشَالُ أن يدخلها في كتابه فليس السيرة فيعمل ، فضمن كتابه من الأشعار ما صار به فضيحة عند رواة الشعر .^(١)

وقد التمس بعض العلماء المذنب في ذلك لابن اسحاق ، بأنه اقتبس هذه الأشعار لتزيين تاريخه لا لصحتها عنده ، فهو ما كان يتمسك بأنها صحيحة لو أثبت له غير ذلك ، وكل ما في الأمر أن فن الكتابة التاريخية كان قد لحظ ادخال الشعر للتغطية منذ الجاهلية .^(٢) كما اعتذر هو عن نفسه بأنه ليس عالما بالشعر ، وأنه يدون ما يُحَصِّلُ اليه .^(٣)

خامسا : يتم ابن اسحاق في سيرته بالأمانة العلمية والموضوعية ، إذ كان يدون آراء المذاهب المتعددة بكل أمانة ودون تحيز ، حتى لقد روى أشعار المشركين في هجاء الرسول صلى الله عليه وسلم وأصحابه .^(٤)



بعد ابن اسحاق بمنهج هذا المؤرخ الذي تتمثل فيه كـل التيارات التاريخية الموجودة في عصره - أو بمباراة أخرى - تتمثل فيه كـل المدارس التاريخية الموجودة في عصره . فقد تناول محمد بن اسحاق في سيرته : التاريخ الجاهلي والرسالات السابقة على الاسلام ، وتاريخ اليمن .

-
- (١) الفهرست : ص ١٤٢ .
 (٢) المفازي الاولى وولفوها لهورفتتر ترجمة د . حسين نصار ص ٩١ .
 (٣) راجع : طبقات الشعراء لابن سلام ص ٨٥٧ .
 (٤) انظر على سبيل المثال - شعر عبد الله بن الزهري يوم أحد : سيرة ابن هشام ج ٢ ص ١٦٦ ، ١٧٠ تحقيق محيي الدين / دار الفكر بيروت .

وقد تأثر ابن اسحاق في ذلك بالتهيار الجاهلي القائم على الأسماء والحروب ، وهو تيارٌ قديم يتألف من القِصص الخيالية والأساطير الشعبية المأثورة عن قدماء العرب ، والتي كان يرويها القصاص المتكلمون عن العرب الشماليين وأنسابهم وأيامهم ..

كما تأثر ابن اسحاق ، في هذا الجانب - أعني التاريخ الجاهلي - بالمدرسة الهنوية التي يمثلها محمد بن شبيب ووهب بن منبه ، والتي كانت تُعنى بأخبار أهل الكتاب وتاريخ اليمن وتعدد التاريخ قصصاً خيالية ، وأساطير شعبية .

وتعد هذه المدرسة استمراراً للتهيار الجاهلي ، بل تنطه أصدق تشيل .

.. تأثر ابن اسحاق بهذا كله فيما أورد من قصص شعبية وأشعار لتحطية القصص ، وأخبار عن أهل الكتاب .

وقد تناول ابن اسحاق في سيرته : السيرة النبوية وحياة الرسول في مكة والمدينة ، متأثراً في هذا بالمدرسة المدنية التي يمثلها أبان وعسرة والزهرى ، تلك المدرسة التي كُنيت بتأريخ حياة الرسول الكريم ، كما كان متأثراً بخصوص هذه المدرسة التي عنيت - في كتاباتها للسيرة - بالإسناد فنجد الإسناد واضحاً عند ابن اسحاق ، خاصة في المبحث والمغازي .

كذلك تناول ابن اسحاق في سيرته : تاريخ الخلفاء ، وقد تأثر في هذا بمدرسة العراق التي يمثلها الكلبي وعروة وأبو مخنف ، تلك المدرسة التي كانت تعنى بعناية خاصة بتاريخ الخلفاء ، بالإضافة إلى عنايتها بالتاريخ الجاهلي ، والتاريخ الاسلامي .. (١)

وخلامة القول : أن ابن اسحاق قد التقت فيه خصائص هذه المدارس : الموضوعية والمنهجية ، وكان ابن اسحاق - بحق - المؤرخ الممثل لهذه المدارس أصدق تشييل " ٠٠ ثم نجد هذه المدارس الثلاث تلتقى فتخرج لنا محمد بن اسحاق ، فيتناول هذا المؤرخ تاريخ اليمن وأهل الكتاب ، مثل اليمنيين ، ويتناول السيرة مثل المدنيين ، وتاريخ الخلفاء مثل المراقبين ، بل نجد عنده خصائص المدارس الثلاث من قصص شعبية وأسانيد وأشعار لتحطية القصص ، ومن أخبار أهل الكتاب ، واختصار كان جميع ما في هذه المدارس موجودا عند محمد بن اسحاق " (١)

هـ - الواقدي :

هو أبو عبدالله محمد بن عمر بن واقد الواقدي ، المتوفى عام ٢٠٧هـ على أرجح الأقوال (٢) . ولد الواقدي بالمدينة عام ١٣٠هـ في آخر خلافة مروان بن محمد ، فيها يذكر ابن سعد (٣) ، وكان الواقدي مؤلف لبني هاشم ، وقيل مؤلف لبني ستم ، أحد بطون بني أسلم (٤) .

وقد اجتهد الواقدي منذ بين مكره في جمع الأحاديث والأخبار والمعلومات المتصلة بالمغازي والسيرة النبوية ، وكان اجتهاده هذا موضع إعجاب وإشادة لدى الكتاب والمؤرخين ، ولم تكن عنايته متجهة الى السير والمغازي خاصة ، بل كانت جامعة لها وللعلوم الاسلامية بوجه عام ، الا أنه اشتهر بالمغازي والسير ، لأنه في الحقيقة قد أعطاها جهيدا

(١) راجع : نشأة الكتابة المغنية ص ٢٣٨ ٠٠ مع تصريف

(٢) راجع : المغازي للواقدي - المقدمة ص ٥٥

(٣) الطبقات الكبرى ج ٢ ص ٣٣٥

(٤) راجع : المغازي للواقدي - المقدمة ص ٥

وعناية خاصة ، وكانت له طريقة فريدة فى جمع المعلومات المتصلة ببعضها
تدل على حرصه على تحرى الحقيقة وعلى دقته فى الحصول عليها ، فقد
روى عن الواقدى أنه قال : " ما أدركت رجلا من أبناء الصحابة وأبناء الشهداء
ولا مولى لهم الا سألته : هل سمعت أحدا من أهلك يخبرك عن مشهده
وأين قُتِلَ ؟ فإذا أعلنى مضيت الى الموضع فأعابنه ، ولقد مضيت
الى ^(١) ~~الموضع~~ فنظرت اليها ، وما علمت غزاة الا مضيت الى الموضع حتى
أعابنه " ^(٢)

وقد رُوِيَت أخبار أخرى تدل على حرص الواقدى وتحريه الدقة
فى أخباره ، منها ما يروى عن هارون الفروى قال : " رأيت الواقدى بمكة
وسمه رَكُوة ^(٣) فقلت : أين تريد ؟ قال : أريد أن أضي الى ^(٤) ~~حُصَيْن~~
حتى أرى الموضع والوَقعة " ^(٥)

بل لعل فى الخبر الذى نسقناه الآن ما يدل على نهاية شأن
الواقدى فى هذا المضمار ويوضح صيته وطموحه .

يُروى أن هارون الرشيد ويحيى بن خالد البرمكى - حين زارا المدينة
فى حجتهما - طلبا من يدلها على قبور الشهداء والمشاهد فدلهما
على الواقدى الذى صحبهما فى زيارتهما ، ولم يدع موضعا من المواضع
ولا مشهدا من المشاهد الا مر بهما عليه . ^(٦)

لا غزو أن نجد - لكل ما تقدم وغيره من أخبار وروايات - عن
مكانة الواقدى فى علم المفازى والسير - كثيرا من الكتاب والمؤرخين

-
- (١) راجع : المفازى للواقدى - المقدمة ص ٥
(٢) الركوة : إناء صغير من جلد يشوب فيه الماء .
(٣) المفازى ص : ٥٥ (٤) كتاب " المفازى " ص ٥٥ .

يشيدون بمنزلة الواقدي ومكانته في المعلوم الاسلامي عامة والتاريخ خاصة ،
والسيرة النبوية ومغازي الرسول على وجه أخص .

يقول ابن سعد - تلميذ الواقدي وكاتبه - عنه : " وكان عالما
بالمغازي واختلاف الناس وأحاديثهم " (١)

ويقول ابن النديم عنه : " كان عالما بالمغازي والسور والفتوح
واختلاف الناس في الحديث والفقه والأحكام والأخبار " (٢)

الى غير ذلك من الأقوال والآراء التي تدل على مكانة الواقدي
في علم المغازي والسيرة ، ويمكن للقارئ أن يرجع الى كتاب : تاريخ
بغداد ، للخطيب البغدادي ، ليرى الكثير من هذه الأقوال والآراء .

وقد خلف الواقدي ثروة هائلة من المصنفات والمؤلفات التي تتناول
المعلوم الاسلامي عامة والتاريخ والسيرة خاصة . ولعل أشهر كتاب ألفه
الواقدي ، وترك صدى واسعا ، هو كتابه : "المغازي" الذي يتناول
حياة الرسول في المدينة من خلال الحديث عن غزواته ورحلاته .

ويعني هنا أن نهيي للقارئ طريقة الواقدي ومنهجه في هذا
الكتاب ، وإن الناظر في مقدمة كتاب "المغازي" للواقدي ، يرى أنه
قد أعطى القارئ فكرة عامة عن منهجه الذي التزمه في تناوله غزوات
الرسول صلى الله عليه وسلم ووصفها ، وعرضها . ذلك المنهج الذي
يمكن لنا أن نصفه بأنه منهج تاريخي علمي فني متكامل ، التزم الواقدي
في وصفه للغزوات على نحو موحد ، لم يتغير ولم يتبدل من غزوة إلى

(١) الطبقات الكبرى لابن سعد ج ٢ ص ٣٣٥ .

(٢) الفهرست ص : ١٥٠ .

أخرى .. ذلك المنهج الذى خطا بالسيرة وطريقة تأليفها خطوة الى
الامام ، والذى جعل الواقدى فى منزلة خاصة بين أصحاب السير والمغازى

فى هذه المقدمة - وقبل أن يتناول مغازيه بالتحليل والتفصيل -
يقدم لنا الواقدى قائمة طويلة بأسماء الرجال الذين نقل عنهم تسلك
الأخبار .. ثم يذكر بعد ذلك المغازى واحدة واحدة ، مع تاريخ
محدد للغزوة بدءاً ، وغالباً ما يذكر تفاصيل جغرافية عن موقع الغزوة .. ثم
يذكر المغازى وأسماء الذين استخلفهم على المدينة أثناء غزواته ، وأخيراً يذكر
شمار المسلمين فى القتال .

وبعد هذه المقدمة يبدأ الواقدى فى وصف كل غزوة على حدة
متبعاً أسلوباً موحداً فيها جميعاً فيذكر أولاً اسم الغزوة وتاريخها وأمرها
ويكرر فى بعضها اسم المستخلف على المدينة وتفاصيل جغرافية ما كان
قد ذكرها فى مقدمة الكتاب .

هذا فيما يتعلق بمنهج الواقدى فى كتابه " المغازى " بصفة
عامة .. أما إذا حاولنا أن نستكشف سمات منهجه على نحو مفصّل ،
فإنها تهدو على النحو التالى :

١ - قلنا سابقاً : ان الواقدى يبدأ الغزوة بذكر اسمها كما يذكر
تاريخها ، ويذكر أيضاً اسم المستخلف على المدينة أثناءها .. فيقول
مثلاً عن غزوة أحد : " غزوة أحد . يوم السبت لسمع ظنون
من شوال على رأس اثنين وثلاثين شهراً " (١) . فيها هوذا قد
ذكر اسمها وتاريخها .. ثم يذكر من استخلفه الرسول على المدينة

أثناءها .. فيقول " .. واستخلف رسول الله صلى الله عليه وسلم على المدينة ابن أم مكتوم " (١).

٢ - غالبها ما يذكر الواقدي بعض التفاصيل الجغرافية عن موقع الفزوة أو عن بعض الأماكن التي وردت في أثناء الحديث عن الفزوة ، مما قد يحتاج الى بيان وإيضاح .. فيقول مثلاً : ... فقدم طلحة بن عبد الله وسعيد المدينة اليوم الذي لاقاهم رسول الله صلى الله عليه وسلم بهدر ، فخرجوا بعترضان النبي صلى الله عليه وسلم ، فلقياه بترهان - وتَرْهَانُ بين ملل والسَّيَّالَةِ على المَحَجَّةِ - وكانت منزل ابن أذينة الشاعر .. " (٢)

ويقول في موطن آخر " .. وقدم على رسول الله صلى الله عليه وسلم عدى بن أبي الزغباء وَتَبَسُّ بن عمرو من بيوت السَّقِيَاء ، قالوا : وجاء عبد الله بن عمرو بن حرام الى رسول الله صلى الله عليه وسلم يوشذ ، فقال : يا رسول الله ، لقد سرني منزلك هنا ، عرضك فيه أصحابك ، وتغالت به ، ان هذا منزلنا - بني سَلَمَةَ - حيث كان بيننا وبين أهل حُصَيْكَةَ ما كان - حُصَيْكَةُ الذَّبَابُ - والذَّبَابُ جبلٌ بناحية المدينة ، كان بِحُصَيْكَةِ يَهُودٌ ، وكان لهم بها منازل كثيرة " (٣)

٣ - في المغازي الهامة يذكر الواقدي أسماء الذين شهدوا الفزوة ، وأسماء الذين استشهدوا أو قُتِلُوا فيها ، مع ذكر قباظهم البتي ينتسبون اليها ، ومع ذكر الرواة الذين روى عنهم هذه الأخبار ..

(١) المغازي : ج ١ ص : ١٩٩ .
(٢) المرجع السابق : ج ١ ص : ٢٠ .
(٣) المرجع السابق : ج ١ ص ٢٢ ، ٢٣ .

فشلا يذكر في غزوة أحد أسماء من استشهد من المسلمين ومن قتل من المشركين ، فيقول - تحت عنوان : ذكر من قتل بأحد من المسلمين . . . حدثنا محمد بن شجاع قال : حدثنا الواقدي قال : حدثني سليمان بن بلال ، عن يحيى بن سعيد ، عن سعيد بن المسيب ، قال : قتل من الأنصار بأحد سهمون ، وحدثني ابن أبي سبرة ، عن هبة بن عبد الرحمن ، عن أبي سعيد الخدري ، عن قتادة ، وحدثني عمر بن عثمان ، عن عبد الملك بن عبيد ، عن مجاهد ، عن أربعة من قريش وسائرهم من الأنصار - المزني وابن أخيه ، وابن أبي الهيثم . . أربعة وسهمون ، هذا المجتمع عليه ، ومن بني هاشم : حمزة بن عبد المطلب ، قتله وحشي ، هذا الأصح لا اختلاف فيه عندنا ، ومن بني أمية : عبد الله بن جحش بن رثاب ، قتله أبو الحكم بن الأحنس بن شريك . . ومن بني عبد الدار : ضعب بن عبيد ، قتله ابن قبيصة . . . (١)

وهكذا يأخذ في ذكر أسماء الشهداء على هذا النحو ، بل ويذكر أسماء القاطنين . ويقول - تحت عنوان : تسمية من قتل من المشركين : . . من بني أسد عبد الله بن حميد بن زهير بن الحارث ، قتله أبو دجانة ، ومن بني عبد المهار طلحة بن أبي طلحة يحمل لواءهم ، قتله علي بن أبي طالب عليه السلام ، عثمان بن طلحة ، قتله حمزة ابن عبد المطلب رضي الله عنه . . (٢) . وهكذا يأخذ في سرد أسماء القتل وقاطليهم .

٤ - وإذا كانت الغزوة قد نزل فيها آيات كثيرة من القرآن ، فإن الواقدي يفردنا وحدها مع تفسيرها ويضمها في نهاية الغزوة . .

(١) المنازي : ج ١ ص : ٣٠٠ .

(٢) المرجع السابق : ج ١ ص : ٣٠٧ .

فيقول ٠٠ تحت عنوان : ما نزل من القرآن بأحد - : " قال الواقدي : حدثني عبد الله بن جعفر عن أم بكر بنت المسور بن مخرمة ، قالت : قال أبي المسور بن مخرمة لعبد الرحمن بن عوف : حَدَّثَنَا عَنْ أَحَدٍ . فقال : يا ابن أخي عد بعد المشركين ومات من آل عمران فكانت حضرتنا : " وَإِنَّ عَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تَهْوِيُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ ٠٠ (١) قال غدا رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى أحد ، فجعل يصف أصحابه للقتال كأنما يُقِيمُ بهم للقداح إن رأى صدرا خارجا قال : تأخرا راي وفي قوله تعالى ، " إِنْ هُمْ إِلَّا يَخِرُّونَ مِنْكُمْ أَنْ تَضَلَّيْتُمْ " (٢) قال : هم بنو سلمة وبنو حارثة ، هموا ألا يخرجوا مع النبي صلى الله عليه وسلم إلى أحد ، ثم عَزَمَ لهما فخرجوا ٠٠ (٣) ٠٠ وهكذا يأخذ الواقدي في إيراد الآيات الواردة في هذه الغزوة ، كما يأخذ في غيرها .

٥ - في أماكن كثيرة يقدم الواقدي قصة الغزوة بأسناد جامع - أي يجمع الرجال والأسانيد في متن واحد - وقد عيب عليه ذلك ، عليه عليه رجال الحديث ، كما عابوا ذلك على الزهري وابن اسحاق من قبله ، وإن كان الواقدي قد اعتذر عن هذا بأن الأسناد يطول .

فشلا يقدم الواقدي غزوة أحد بأسناد جامع ، فيقول - بمسند أن يذكر أسماء الذين حدثوه عن هذه الغزوة ، ويروي عنهم - : " فَكُلُّ قَدْ حَدَّثَنِي بِطَائِفَةٍ مِنْ هَذَا الْحَدِيثِ ، وَبَعْضُ الْقَوْمِ كَانَ أَوْسَى لَهُ مِنْ بَعْضٍ ، وَقَدْ جُمِعَتْ كُلُّ الَّذِينَ حَدَّثُونِي ، قَالُوا : لِمَا رَجَعَ مِنْ حَضْرَةِ هَذَا " من المشركين إلى مكة ، والمعبر التي قديم الآيات : ١٢١ م سورة آل عمران * (٢) الآية : ١٢٢ من السورة نفسها . (١)

(٣) المنازي : ج ١ ص : ٣١٩ .

بها أبو سفيان بن حرب من الشام موقوفة في دار الندوة - وكذلك كانوا يصنمون - فلم يحركها أبو سفيان ، ولم يفرقها لغنية أهل المير^١ مشيت أشراف قريش إلى أبي سفيان بن حرب : الأسود بن عبد المطلب ابن أسد ، وَجَبَّيْرُ بْنُ مُطْعِمٍ ٠٠٠ فقالوا : يا أبا سفيان ، انظر هذه المير التي قدمت بها فاحتستها ، فقد عرفت أنها أموال أهل مكة ولطيمة قريش ، وهم طهيو الأنفس ، يجهزون بهذه المير جهشا لمحمد ، وقد ترى من قتل من آبائنا وأبنائنا وعشائرتنا ، قال أبو سفيان : وقد طابت أنفس قريش بذلك ؟ قالوا : نعم ، قال : فأننا أول من أجاب إلى ذلك ، وهو عهد مناف معي ٠٠ (١)

٦ - من أهم خصائص منهج الواقدي في مفازيه ، النظام المتكامل للتواريخ ، وكثير من المفازي غير المؤرخة عند ابن اسحاق مثل غزوة الخرار ، وغزوة بني قنقاع ، وغزوة دومة الجندل ، وغزوة القرطاض ، وغزوة بني سلقم ، وغزوة ذات السلاسل ٠٠٠ نجد لها عند الواقدي تأريخا معينا محددا ، وإن كان ما يؤخذ عليه - أحيانا - اختلاف نص تاريخ بعض الوقائع والأحداث في موضع عنه في آخر ٠٠ فشلا في قصة غزوة " القرطاض " ، يقول الواقدي : " قال محمد بن مسلمة : خرجت في عشر ليال خلون من المحرم على رأس خمسة وخمسين شهرا^(١) " بينما يقول في مكان آخر : " أربعة وخمسين شهرا^(٢) " وفي غزوة بني إحيان ذكر الواقدي في أول خبر الغزوة أن النبي خرج من المدينة في هلال ربيع

(١) المفازي : ج ١ ص : ١٩٩ ، ٢٠٠

(٢) المفازي ص : ٥٣٤

(٣) المرجع السابق ص : ٥٣١

الأول سنة ست (١) بينما في نهاية قصة الغزوة ، يورخها في المحرم سنة ست . (٢)

ولكن هذه الاختلافات وما شابهها لا تعدج في دقة تأريخ الواقدي لمغازيه . . . وعلى الرغم من هذه الاختلافات في التأريخ نجدتها (عامة) أدق وأثبت في نظامها من التأريخ المعاصرة فسي كتب السيرة الأخرى (٣)

٧ - ومن أهم خصائص منهج الواقدي : خاصة النقد ، فلم يكن الواقدي يكتفى بإيراد الأخبار وسرد الروايات ، بل كثيرا ما كان يذكر آراء الشخصية في الأخبار التي كان يسجلها ، وكثيرا ما كان يقول " وهو المثلث " و " والثابت عندنا " و " والمجتمع عليه عندنا " و " ولا اختلاف عندنا " و " والقول الأول أثبت عندنا " و " وهو أثبت " و " وهذا الثبوت عندنا " و " ومجمع عليه لا شك فيه " إلى غير ذلك من المهارات التي تبرز رأيه الصريح في تقييم تلك الأخبار . . (٤)

٨ - ويضاف إلى ما تقدم الاسهاب في التفصيل والدقة في الترتيب عند سرد الحوادث المشهورة مثل أحد والظائف بأكثر وأحسن مما هو مذكور في المراجع الأخرى للسيرة .

٩ - ويضاف إليه - أيضا - أن الواقدي ألقي الضوء على مشاهد كثيرة من الحياة في فجر الاسلام مثل الزراعة والأكل والأصنام

(١) المغازي ص : ٥٣٥ (٢) المرجع السابق ص : ٥٣٧

(٢) المرجع السابق - المقدمة - ص : ٣٣ . مع تصريف .

(٤) انظر على سبيل المثال : المغازي ج ١ ص : ٣٠٠

والمعادن في دفن الموتى .. وعلى تكوين وتنظيم المعيرات .. وغيرها
من مظاهر الحياة في المجتمع الاسلامي في المدة التي بين الهجرة وموت
النبي .

هذا هو منهج الواقدي في كتابه " المغازي " وذلك طريقته
وعلى الرغم من تضعيف المحدثين له لتقديمه الأخبار باسناد جامع - كما
مر - أو رجوعه في أخباره - أحيانا - الى كتب وصحف رآها واعتمد
عليها ، أو سمع عن رآها ما بعده المحدثون عليها في الحديث - على
الرغم من هذا كله ، يبقى الواقدي ركنا من الأركان الهامة التي قام
عليها علم المغازي والسيرة ، وسيظل الواقدي يكتبه " المغازي " مرجعا
هاما لكل باحث في السيرة والمغازي في الحقبة المدنية من حياة الرسول
صلى الله عليه وسلم . . . وهذا الكتاب - بسماته وخصائصه التي
أسلفنا الحديث عنها - الصورة الأخيرة من الصور التي تمثل مراحل
أطوار السيرة النبوية في القرنين : الأول والثاني للهجرة .

٤ - السيرة على يدى ابن هشام وابن سعد :

ويجىء بعد ابن اسحاق والواقدي علما بارزان من علماء " السيرة
النبوية " كان لهما دورهما المميز ، ومنهجهما الواضح قسسى
كتابة السيرة النبوية ، وهما ابن هشام وابن سعد .. وان كان
دورهما هذا في حقيقة أمره امتدادا لدور العالمين اللذين
سبقاهما ، وهما ابن اسحاق والواقدي ، ولذا كان من المنطوق
أن يُذكر البحث بإبن هشام وإبن سعد وأن يشير الى منهجهما
- ولو بإيجاز - بعد أن أوجز أخبار ابن اسحاق والواقدي .

والواقع أنه كلما ذكر ابن اسحاق ذكر ابن هشام ، وإذا ذكر
الواقدي ذكر ابن سعد ، إذ أن ابن هشام هو الذى تناول سيرة

ابن اسحاق بالتهذيب والتشذيب . . حذفاً واختصاراً وشرحاً وتعليقاً ،
ولهذا كان من المنطق الدقيق - كما قلنا - أن نشير الى ابن هشام ومنهجه
بمعد ابن اسحاق .

وأما ابن سعد فقد كان تلميذ الواقدي وكاتبه ، حتى لقب بكتائب
الواقدي ، وقد سار ابن سعد على نهج أستاذه ، فيها يتصل بالسيرة
النهوية في كتابه : " الطبقات الكبرى " بل ربما زاد عليه بعض المعلومات ،
ولذا كان من المنطق العادل - أيضا - أن نشير الى ابن سعد ومنهجه
بمعد الواقدي .

أ - ابن هشام :

وابن هشام هو أبو محمد عبد الملك بن هشام بن أيوب الجُمَيْريُّ
المَعافِرِيُّ ، البَصْرِيُّ ، المَصْرِيُّ ، المتوفى عام ٢١٨ هـ ، وأصله من البصرة
سها ولد ، وفيها درج ونشأ ، ثم رحل الى مصر ، ولقى فيها عالم قريش
الامام محمد بن ادريس الشافعي .

وابن هشام له شهرة ذائعة في عالم السير والمنازى ، وإذا ذكر
ابن هشام ذكرت سيرته المعروفة بسيرة ابن هشام التي هي - في الأصل -
سيرة ابن اسحاق .

وقد روى ابن هشام سيرة ابن اسحاق عن أبي محمد زياد بن
عبد الله بن الحَكَيْم البَكَّائِي المَصْرِيُّ الكُوفِيُّ ، المتوفى في عام ١٨٣ هـ .

وقد تناول ابن هشام سيرة ابن اسحاق بالتهذيب والتلخيص والحذف
والاختصار والتقيق ، حتى صارت على الوضع الذي هي عليه الآن ، وان كانت
تتسب الآن لابن هشام .

قال ابن خُلَّكَن : " . . ابن هشام هو الذى جمع سيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم من " المشازى " و " السير " لابن اسحاق ، وهذه كلها ولخصها وشرحها السهيلي المذكور وهى الموجودة بأيدى الناس ، المعروف بسيرة ابن هشام " (١)

وقال السيوطى فى " بَغِيَّةُ الوُعَاةِ " : " عبد الملك بن هشام بن أيوب الحميرى المصنف وقيل الذهلئ أبو محمد البصرى ، النحوى ، نزيل مصر ، مهذب السيرة النبوية ، (التي سمعها من زياد البكائى ، صاحب ابن اسحاق ونقحها وحذف من أشعارها جملة . (٢) "

ويحسن قبل أن نتموض لدور ابن هشام وصنيعه وأثره فى سيرة ابن اسحاق - أن نورد لآلام ابن هشام نفسه عن دوره هذا وطريقته حينما تناول سيرة ابن اسحاق بالحذف والاختصار والتهديب .

يقول ابن هشام : " وأنا - ان شاء الله - بهتدى بهذا الكتاب بذكر اسماعيل بن ابراهيم ، ومن وُلِدَ رَسُولُ الله صلى الله عليه وسلم من وُلِدِهِ ، وأولادهم لأصلابهم الأول فالأول من اسماعيل الى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وما يمرض من حديثهم ، وتَارِكُ ذِكْرَ غيرهم من ولد اسماعيل على هذه الجهة ، للاختصار الى حديث سيرة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، وتَارِكُ بَعْضَ ما ذكره ابن اسحاق فى هذا الكتاب مما ليس لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فيه ذكر ، ولا نازل فيه من القرآن شئ ، وليس فيها لشيء من هذا الكتاب ، ولا تفسيراً له .

(١) وفيات الأعيان ج ١ ص : ٥٢٠ .

(٢) بغية الوعاة ص : ٣١٥ .

ولا شاهدًا عليه - لما ذكرت من الاختصار - وأشعاراً ذكرها لم أر أحداً من أهل العلم بالشعر يصفها ، وأشياء بعضها يَشْتَعُ الحديث بسـ ، وَمَعْفُ يسوء بَعْضُ الناسِ ذِكْرَهُ ، وَمَعْفُ لم يَقْرَ لنا البكائي بروايته - وَمُسْتَقْبَرٍ - ان شاء الله تعالى - ما سوى ذلك منه ، يبلغ الرواية لسـ والعلم به أهـ^(١).

ويوضح من كلام ابن هشام دوره البارز وأثره الواضح في سيرة ابن اسحاق ، ذلك الدَّخْرُ وذاك الأثر اللذان يظهران من خلال السمات الآتية :-

١ - ترك ابن هشام جزءاً كبيراً مما كتبه ابن اسحاق ، وذلك حديث ما قبل اسماعيل وإبراهيم من بدء الخليقة ، وحديث أبناء اسماعيل على التفصيل ، وأخبار ليست من سيرة النبي في شيء ، ولا هي مؤدية في جملتها وتضميلها الى شيء من ذلك . وأشعاراً لم يجد أحداً من أهل العلم بالشعر يصفها . وأشياء يَقْبَحُ ذكرها . وغيرها ما أشار اليه في كلامه الذي أوردهناه آنفاً .

٢ - ما أبقاء ابن هشام من سيرة اسحاق ، قد حافظ فيه على عبارة ابن اسحاق ، لم يغير كلمة بل أداها كما رواها له زياد البكائي عن ابن اسحاق ، وآية ذلك أنه يأتي بمباراة ابن اسحاق ، ولولم تكن موافقة لما يعلمه هو ، ثم يحق عليها بقوله : قال ابن هشام ، ويذكر ما يراه صواباً . .^(٢)

٣ - وابن هشام لا يكتفى بهذا بل نراه يشرح كلمة يراها غامضة بكلمة أخرى أوضح منها .^(٣) أو يذكر رواية أخرى في كلمة من

(١) سيرة ابن هشام ج ١ ص : ٤ تحقيق محيى الدين - ط الحلبي .
(٢) انظر على سبيل المثال ص ٩٤ ، ٩٥ من سيرة ابن هشام ج ١ / تحقيق : محمد محيى الدين عبد الحميد ط . دار الفكر بيروت .
(٣) انظر على سبيل المثال ص ٣٢٣ - ٣٣٥ من المرجع السابق .

٦ - يمتاز ابن هشام - أيضا - بروح العدل والانصاف ، فكثيرا ما حذف ابن هشام شعرا لأن فيه من الاقذاع والفحش ما يصرف عن روايته ، وخاصة الذى يرويه ابن اسحاق بعد الغزوات الستى كانت بين المسلمين والمشركين . ولم يجعل ذلك قاصرا على الشعر الذى قاله شعراء المشركين فى الرسول صلى الله عليه وسلم وأصحابه ، بل طوى ذلك أيضا على شعر قاله شعراء الرسول صلى الله عليه وسلم ، وهَجَّوْا به المشركين ، حين وجد فيه من الاقذاع ما يصرف عن روايته أيضا .

هذا ما استهان لنا من طريقة ابن هشام ومنهجه وعمله فى مسيرة ابن اسحاق ، وهو عمل - لا شك - يستحق الثناء والحمد ، وليس هذا كلَّ ما صنع ابن هشام فى سيرة ابن اسحاق ، بل تجاوز ذلك السعى تحقيق الأعلام وذكر أروام ابن اسحاق ، ثم التعليق على عبارات المسيرة تعليقا فيه من الشرح والتفقد ما يدل على سعة اطلاع وكبير فضل .

ب - ابن سعد :

هو محمد بن سعد بن مَنَيعِ البَصْرِيُّ الزُهْرِيُّ ، المَكِّيُّ بِلَبَّاسٍ عبد الله ، المتوفى عام ٢٣٠ هـ . وقد ولد ابن سعد فى البصرة عام ١٦٨ هـ فنسب اليها ، وكان ابن سعد من الموالى ، فأباه موالٍ للحسين بن عبد الله بن مُهَيْمِدَ الله بن المَبَاسِ (١) . ولكن ابن سعد نفسه كان قد تطل من عهده بالولاء (٢) .

(١) ضحى الاسلام ج ٢ ص ٣٣٧ . مطبعة النهضة المصرية .

(٢) الطبقات الكبرى - المجلد الأول - ص ٦ .

وقد ارتحل ابن سعد الى المدينة والكوفة وبغداد ، وأقام
فى الأخيرة ملازمًا لأستاذه الواقدي يكتب له ، حتى عرف باسم : " كاتب
الواقدي " .

وقد كان همُّ ابن سعد فى أثناء حَلِّهِ وَتَرْحَالِهِ الى هذه البلاد ،
هو لقاءَ الشيوخ وكتابةَ الحديث وَجَمَعَ الكتب ، فقد اعمل بأعلام عصره
من المُحدِّثين ، فروى عنهم وقيد رواياته ، وأفاد منها فى تصنيف كتبه ،
حتى وصف بأنه كان كبير العلم ، كبير الحديث والرواية ، كثير الكتب
والإضافة الى هذا كان ابن سعد محل ثقة كبير من المُحدِّثين ، قال فيه
الخطيب البغدادي : " محمد بن سعد عندنا من أهل العدالة ، وحديثه
يدل على صدقه ، فإنه يتحوى فى كثير من رواياته " .^(١)

وإذا ذُكِرَ ابنُ سَعْدٍ ذكر كتابه الشهير " الطبقات الكبرى " الذى
يعد من أشهر المراجع التاريخية الاسلامية ، التى تؤرخ سيرة الرسول
صلى الله عليه وسلم وحياة القرنين : الأول والثانى من تاريخ الاسلام . .
" ففى صفحاته كثير لا يحصى من المعرفة لمن شاء أن يدرس سيرة الرسول
وحياة القرنين الأولين من تاريخ الاسلام ، وهو المنهج الذى يمد الباحثين
بموضوعات جديدة فى كتابة السير ، والبحث عن طرق الاسناد وكيفية
تدوين الحديث ، ويعلمنا الشيء الكثير عن الأمور الاجتماعية المتعلّقة
بحياة البيت والنسوق وأمور الزنى والطعام والشراب وعن جوانب من الأعمال
والمهن والحياة التجارية ، وعن كثير من النواحي الثقافية والأحكام
الفقهية ، والصراع بين الجنة والأهواء ، وعن عشرات من الموضوعات ، كل
ذلك فى لغة سهلة مستوية جزلة وفى اعتدال وقصد وبوضوح وتجرد . . " .^(٢)

(١) تاريخ بغداد ج ٥ ص ٣٢١ دار الكتاب العربى • بيروت

(٢) الطبقات الكبرى لابن سعد - المجلد الأول : ص : ١٦ و ١٧ .

ويقع الطبقات الكبرى في ثمانية أجزاء ، خصص ابن سعد
الجزأين الأولين لسيرة النبي صلى الله عليه وسلم ومغازيه ، وخصص
الأجزاء الستة الأخرى لأخبار الصحابة والتابعين^(١).

وقد استفاد ابن سعد في تصنيف كتابه " الطبقات الكبرى " خاصة ، وفي كتبه الأخرى عامة ، بأستاذه الواقدي ، بل إن ابن سعد اقتفى خطأ أستاذ الواقدي ، حين ألف هذا الكتاب — أعني " الطبقات الكبرى " — إذ ألف الواقدي كتابا باسم " الطبقات " أيضا ، وقد شمل " طبقات ابن سعد " رواية الواقدي لنفسه في السيرة والتراجم مضافا إليها روايات أخذها ابن سعد عن غير الواقدي في السيرة والتراجم أيضا . . . فإذا كان ابن سعد صورة أكل وأوسع لأنه يمثل نشاط المحدثين والإخباريين والتأريخين في عصره وفيما قبله^(٢).

فمن الفصول التي أضافها ابن سعد إلى السيرة النبوية والسنن لم يرد فيها ذكر للواقدي إطلاقا : " ذكر كنية رسول الله صلى الله عليه وسلم " ، و " ذكر ما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعمر به ويعمره به جبريل " (٣).

لكذلك أضاف ابن سعد إلى طبقاته ما كان ينقص كتاب الواقدي من أخبار الجاهلية ، إذ كان الواقدي قليل الاهتمام بأمر التاريخ الجاهلي ، وقد استعان ابن سعد في هذه الأخبار بهشام بن محمد ابن السائب الكلابي ، ولذا نجد رواية هشام هذا قد غلبت على الفصول المتصلة بتاريخ الأنبياء ، مما أنساب القديمة على وجه الاجمال . (٤)

(١) ضحى الاسلام ج ٢ ص : ٣٣٧ مطبعة النهضة المصرية

(٢) الطبقات الكبرى ج ١ ص : ٩

(٣) الطبقات الكبرى ج ١ ص : ١٠٠

(٤) الطبقات الكبرى ج ١ ص : ١٠٠

وكما استعان ابن سعد بهشام الكلبى فى تلك الأخبار . . استعان -
فى مواضع أخرى - بخبره من العلماء ، كابن اسحاق ، وأبى معشر ،
وموسى بن عقبة وغيرهم .^(١)

وعلى الرغم من استعانة ابن سعد بخبر الواقدى - فيما سبق
أن ذكرنا من أخبار لم يهتم بها الواقدى - نجد أن الفصول التى لم
يذكر فيها الواقدى قليلة ، وأهم فصول " الطبقات الكبرى " لابن سعد إنما
هو من اجتهاد الواقدى وتحريره ، حتى ليصدق قول ابن النديم على
ابن سعد : " ألف كتبه من تصنيفات الواقدى " .^(٢)

ولم يقف اعتد ابن سعد فى طبقاته - فيما يتصل بالسيرة النبوية ،
- على كتاب : " المغازى " للواقدى فقط ، بل اعتمد على كتب أخرى
للوواقدى - أيضا - فاستقى منها معلومات قيمة ، مثل كتاب " أزواج النبى
صلى الله عليه وسلم " وكتاب " وفاة النبى صلى الله عليه وسلم " وكتاب " أخبار
مكة " وكتاب " البيرة " وكتاب " طعم النبى " ولكن يظل للاعتداد ابن
سعد على مغازى الواقدى المكان الأول ، إذ يدخل هذا الكتاب ضمن
طبقات ابن سعد .^(٣)

هذا فيما يتصل بالموضوعات والمعلومات التى شملها كتابه ، والمصادر
التي استقى منها مواد كتابه ، أما فيما يتصل بمنهج ابن سعد فى طبقاته ،
فإننا نستطيع أن نقول :

١ - أن منهجه فى تراجمه للصحابة والتابعين قام على أساسين هامين ،
أو عنصرين شاملين ، هما : عنصر الزمان وعنصر المكان .

(١) ضحى الاسلام ج ٢ ص : ٣٣٧ . مطبعة النهضة المصرية

(٢) الفهرست ص : ١٥١ .

(٣) الطبقات الكبرى المجلد الأول ص : ١٠ .

أما المنصر الزمانى ، فقد تدخل فى بناء الطبقات من أولها إلى آخرها ، وكانت السابقة إلى الاسلام هى المحور الأكبر فيه ، سواء اتصلت بالهجرة إلى الهشة ، ثم بموقعة بدر ، أو وَكَّتَ بها قبل فتح مكة أو غير ذلك من الأسس الزمنية التى وجهت التقسيم فى ذلك الكتاب ، ومن ثم بدأ بالمهاجرين البدرين ، ثم بالأنصار البدرين ، ثم بمن أسلم قديما ولم يشهد بدرا ، وانما هاجر إلى الهشة أو شهد أحدا ، ثم من أسلم قبل فتح مكة وهكذا (١).

أما المنصر المكانى : فقد أخذ ابن سعد يترجم للصحابة ومن بعدهم على حسب الأعمار التى نزلوها خمس من كان بالمدينة ، ومكة ، والطائف ، واليمن ، والهامة ، ثم من نزل الكوفة ، ثم من نزل البصرة ، ومن صار موطنه الشام أو مصر أو غيرها (٢).

٢ - اعتمد ابن سعد فى تراجمه على الرواية ، ومن هنا نجده يفيض القول فى تراجم الصحابة وكبار التابعين ، بينما نجده يوجز القول فى تراجم من عاش فى عصرهم .

وهناك مظهر آخر لهذا التقسيم نتج من الاعتقاد الكلى على الرواية وذلك هو أننا كلما ابتعدنا عن الطبقات الأولى التى تم الرواية عنها ابن سعد من جميع النواحي ، أخذت الترجمة تتضائل وتقل قيمتها ، ودلا من أن يكتب ابن سعد ترجمات مستفيدة لمن عاشوا فى عصره ، نجده اكتفى فى هذا بقولة موجزة ، وأغافل كثيرا فى تراجم الصحابة وكبار التابعين (٣).

(١) راجع الطبقات الكبرى ج ١ ص : ١٢ .

(٢) الطبقات الكبرى ج ١ ص : ١٢ .

(٣) الطبقات الكبرى ج ١ ص : ١٣ . مع بعض التصرف

ونظرا لاعتماد منهجه الكلى على الرواية لم يهتم شخصية ابن سعد ، أو كادت وراء السند بل انه يمكن أن نَعُدَّ كتابه " الطبقات " رواية نقلها تلميذه : الحارث بن أبي أسامة ، ويدل على ذلك أننا نجد فى بعض المواطن هذه العبارة : " حدثنا محمد بن سعد " أى أَنَّ الذى يروى النص تلميذه لا هو (١).

٣ - يتمتع ابن سعد بمقدرة نقدية لا بأس بها ، وذلك لما يبدو فى الكتاب من بعض التعليقات والتفحيات على بعض الأخبار والروايات التى تدل على رأيه الشخصى وملكته النقدية ، وإن كانت هذه التعليقات ليست بكثيرة كالتى توجد عند أستاذنا الواقدي .

ومن ذلك قوله - تعليقا - على اختلاف العلماء فى نسب مَعْقُودٍ :- " ولم أر بينهم اختلافا أن معدا من ولد قنذر بن اسماعيل (٢) ، وهذا الاختلاف فى نسبه يدل على أنه لم يُحْفَظْ وإنما أُجِدَّ ذلك من أهل الكتاب ، وترجموه لهم ، فاختلطوا فيه ، ولو صح ذلك لكان رسول الله صلى الله عليه وسلم أعظم الناس به ، فالأمر عندنا على الانتباه إلى معد بن عدنان ، ثم الامساك بما وراء ذلك إلى اسماعيل بن ابراهيم (٣) " .

ومنه ما أورده من رواية يستفاد منها أن النبی بكى عند قبر أمه لما فتح مكة ، ويعلق عليها بقوله : " وهذا غلط وليس قبرها بمكة ، وقبرها بالأبواء " (٤) .

ومنه ما نقله عن هشام الكلبى من أن الذى حضر يدرا " هو السائب

- (١) الطبقات الكبرى ج ١ ص : ١٣ .
- (٢) فى القاموس المحيط : " وقنذر بن اسماعيل أبو العرب " د / سرحان .
- (٣) الطبقات الكبرى : المجلد الأول - مقدمة الكتاب ، ص ١٣ ، ١٤ .
- (٤) المرجع السابق . المجلد الأول ص : ١٤ .

ابن مضمون (لا السائب بن عثمان بن مضمون) فيملق عليه بقوله
 " وذلك عندنا فيه وتل " صدأى ضعف أو غلط به لأن أصحاب السيرة
 ومن يعلم المنازى يشتهون السائب بن عثمان بن مضمون فهن شهد
 " بدرا " وشهد " أحدا " و " الخندق " والمشاهد كلها ٠٠٠ الخ " (١).

أضف الى ذلك آراء الخاصة في بعض الأشعار التي يرونها وتضعيفه
 لبعضها أحيانا ٠٠

٥ - السيرة على يد الطبرى :

ويجيء بعد ابن سعد وابن هشام عالم بارز ، له أثره ومكانته
 في صفوف كتاب السيرة النبوية ، هو محمد بن جرير الطبرى ، وله هذا
 كان من حق البحث علينا أن نتناول الحديث عن الطبرى ومنهجه ففى
 كتابه للسيرة ~~بالدولة والتاريخ~~ ، على وجه خاص ومنهجه فى كتابه
 " تاريخ الأمم والملوك " بوجه عام :

والطبرى هو أبو جعفر محمد بن جرير بن يزيد الطبرى ، المتوفى
 عام ٣١٠ هـ - ولد الطبرى بمأمل عاصمة إقليم طبرستان فى آخر سنة
 ٢٢٤ أو فى مطلع سنة ٢٢٥ هـ ، ولم يكد أبو جعفر يبلغ السن التى
 تؤهله للتعليم حتى يعمد به والده الى علماء " آمل " ، وسرستان
 ما يشتغ عقله ، وتهدو عليه مغايل النهج ، وهو حدث ، فقد قال عن
 نفسه : " انى حفظت القرآن فى سبع سنين ، وكلمت بالناس وأنا ابن

ثمانى سنين ، وكثت الحديث وأنا ابن تسع سنين (١) .

وقد شَغِفَ الطبرى بالعلم منذ صغره ، فجدَّ فيه ورحل فى طلبه الى كثير من الأقطار وجاب الآفاق ليمسح الأساندة والشيخ الذى سن دوى صيتهم . . . وقرأ ما استطاع أن يقرأ مشغولاً بالمرقة كَلِفاً بالاطلاع .

ولكان من نتائج شغف الطبرى بالعلم على اختلاف ألوانه وجِدَّة فى تحصيله ورحلاته المتعددة فى سبيله وصبره عليه وشغفه له : أن خَلَّف ثروة عظيمة من التصانيف والمؤلفات الكثيرة المظنية ، المتعددة الألوان والأنواع ، نذكر منها : " جامع البيان فى تفسير القرآن " و " تاريخ الأم والملوك " و " كتاب ذيل الذيل " و " اختلاف الفقهاء " ، و " كتاب لطيف القول فى أحكام شرائع الاسلام " . . . الى غير ذلك من المؤلفات التى تقرب من الثلاثين مؤلفاً (٢) .

ويميننا - هنا - من كتبه التى أشرنا إليها بإيجاز ، كتابه : " تاريخ الأم والملوك " من حيث هو الكتاب الذى تناول السيرة النبوية ، وان لم يتناولها على نحو خاص ، بل تناولها على أنها حلقة من حلقات التاريخ العام الذى تهتدى أخواره من بدء الخليقة حتى سنة ٣٠٢ هـ .

وهذا الكتاب ينقسم الى قسمين : القسم الأول ، وقد تناول فيه الطبرى بدء الخليقة ، فتكلم عن الزمان ما هو ؟ وكَم سنة مضت منذ بدء

(١) مجمع الأدباء : ج ١٨ ص : ٤٩

(٢) راجع : " الطبرى " للدكتور : أحمد الحوفى ص : ٨٨ - ٩٨ .

الخليقة ، متى تنتهى ؟ وذكر ايليس وما قيل فى حقيقته ومكانته قبل خلق آدم ، ثم عصيانه وطرده من رحمة الله . وعقب على هذا بالكلام على آدم وامتحان الله اياه باباحة الأكل من الجنة هو وزوجه عدا ثمر شجرة واحدة ووسوسة الشيطان لهما ، وأكلهما من هذه الشجرة ، وطردهما من الجنة الى الأرض .

ثم عرض للأحداث التى كانت فى الزمن الذى قضاه آدم على الأرض وأولها قتل قابيل أخاه هابيل ، وذكر بعد ذلك الأحداث التى كانت فى أيام أبناء آدم منذ ملك ابنه شيث .

وعرض فى هذا القسم للكُتُب : نوح ، وابراهيم ، ولوط ، واسماعيل ، واسحاق ، وإسحق ، وشعيب ، ويعقوب ، ويوسف ، وموسى ، والياس ، وداود ، وسليمان ، وهود ، صالح ، ويونس ، وعيسى ، ومحمد عليهم الصلوة والسلام .

وأما الأم التى أرخ لها فهم الفرس والروم والمغرب واليهود ، فذكر تاريخ الفرس منذ زمن قديم . . حتى عهد كسرى الذى فتح المغرب ببلاد الفرس فى زمنه .

وتحدث عن أنبياء بنى اسرائيل وعن قصة الخضر مع موسى وعن قارون وعن رؤساء بنى اسرائيل بعد يوشع بن نون ، وعن الياس بن ياسين ، وعن شمويل بن هالى ، وتشلب الممالك هم وملكهم جالوت على بنى اسرائيل ثم خلاصهم على يد النبى داود وقطعه جالوت .

وذكر غزوات سليمان بن داود وعلاقته ببلقيس وتغرى الملكة بعده . . ثم تحدث عن غزو بختنصر لبنى اسرائيل وتخريبه بيت المقدس ، وتغرى بنى اسرائيل ونزول بعضهم فى الحجاز بهشرب ووادى القرى وغيرها .

وذكر ملوك الروم منذ المسيحية الى الاسلام . . . وتحدث عن عاد وشموذ و ذكر أخبار كشم و جديس ، و ذكر جرهم واصهار اسماعيل اليهم . . و ذكر ملوك اليمن وعلاقتهم بالحش والفرس ، كما تحدث عن بعض المشهورين من الأفراد ، مثل عمرو بن الظرب والنهاس . ثم ذكر أجداد النبي صلى الله عليه وسلم من عدنان الى عبدالمطلب ، و ذكر طرفا من أخبار الرسول قبل أن يبعث (١) .

أما القسم الثاني : فقد تناول فيه حياة الرسول صلى الله عليه وسلم وأخباره وغزواته . . . ثم ذكر تاريخ الخلفاء الراشدين وفتحهم ، وجعل يتتبع تاريخ المسلمين بعد ذلك في الدولة الأموية والدولة العباسية الى سنة ٣٠٢ هـ (٢)



وقد اعتمد الطبرى في تأليفه على مصادر عدة ، فاعتمد في تاريخ الرسل والأنبياء على كتب التفسير وكتب السير ، خاصة " سيرة " ابن اسحاق ، وكتاب " البتهدا " لوهيب بن منه ، واستند الطبرى في تاريخ الفرس من ترجمات عربية لكتب فارسية ، خاصة كتب ابن المقفع ، كما استند من كتب هشام الكلبي . . وعول الطبرى في تاريخ الروم على ما نقله من كتب نصارى الشام . . ونقل تاريخ اليهود من مصادر بعضها كتب اسرائيلية ، واعتمد الطبرى في تاريخ العرب قبل الاسلام على ما كتبه جَبْدُ بْنُ شَرْيَةَ الْجُرْفِيُّ وَصَحَّهُ بْنُ كَعْبٍ الْقُرْظِيُّ وَوَهَّبُ بْنُ مَتَّى وَهَشَامُ الْكَلْبِيُّ وَابْنُ اسْحَاقَ قُيُومٌ في السيرة النبوية على مؤلفات أبان بن عثمان

(١) الطبرى ص : ١٨٤ - ١٨٧ .

(٢) الطبرى ص : ١٨٧ .

وَعَرَّةَ بْنِ الزَّهَرِ وَشَرْحِيلَ بْنَ سَعْدٍ وَمُوسَى بْنَ عُقْبَةَ وَعَاصِمَ بْنَ عُمَرَ بْنِ قَتَادَةَ وَابْنَ شِهَابٍ الزُّهْرِيَّ ، وَابْنَ إِسْحَاقَ ، وَاعْتَدَ فِي حَرْبِ السَّرْدَةِ وَالْفَتْحِ عَلَى مَا كَتَبَهُ سَيْفُ بْنُ عُمَرَ الْأَسَدِيُّ وَالْمَدَائِنِيُّ ، وَاعْتَدَ فِي أَخْبَارِ مَوْقَعَةِ الْجَمَلِ وَمَوْقَعَةِ صَفَيْنَ عَلَى مَا كَتَبَهُ أَبُو مَخْنَفٍ وَالْمَدَائِنِيُّ وَسَيْفُ بْنُ عُمَرَ ، وَاعْتَدَ فِي تَارِيخِ بَنِي أُمَيَّةَ عَلَى مَا كَتَبَهُ عَوَّانَةُ بْنُ الْحَكَمِ الْكَلْبِيُّ وَأَبُو مَخْنَفٍ وَالْمَدَائِنِيُّ وَالْوَقْدِيُّ وَعُمَرُ بْنُ شَيْبَةَ وَهَشَامُ الْكَلْبِيُّ ، وَاعْتَدَ فِي تَارِيخِ بَنِي الْمُبَاسِ عَلَى كُتُبِ أَحَدِ بْنِ أَبِي خَيْثَمَةَ وَأَحْمَدَ بْنِ زُهَيْرٍ وَالْمَدَائِنِيِّ وَعُمَرَ بْنِ رَاشِدٍ وَالنَّهْشَبِيِّ وَنُوحٍ وَالْوَقْدِيِّ . (١)

وأما منهج الطبري في كتابه فقد اعتمد على أسرعة :

١ - الاعتماد على الرواية : فقد اعتمد الطبري في أكثر ما دونه على الروايات التي أخذها عن الرواة ولم يخلق عليها بتزجيح أو تغنيذ أو إبطال ، بل تسرك للقارئ أن يميز ويحكم ويختار ، وكان قلها ما يدلى برأيه ويرجع رواية على أخرى ، ولذا دون الأخبار على عهدة رواتها ، وعرضها عرضاً موضوعاً محايداً ، وزا كل رواية إلى صاحبها ، ولم يقتصر على ما يوافق فكره أو رأيه .

يقول الطبري في مقدمة كتابه : " ولعلم الناظر في كتابنا هذا أن اعتمادنا في كل ما أخصرت ذكره فيه إنما هو على ما رويت من الأخبار التي أننا ذكرناها فيه ، والآثار التي أننا مسندها إلى رواتها فيه دون ما أدرك بحجج العقل واستنبط بفكر النفوس إلا القليل

اليسير منه . . . فما يكن في كتابي هذا من خبر ذكرناه عن بعض الماضين — بما ينكره قارئه أو يستشعره سامعه من أجل أنه لم يعرف له وجها من الصحة ولا معنى في الحقيقة — فليعلم أنه لم يوت في ذلك من قبلنا ، وأما أتى من قبل بعض ناقله البنا ، وأنا إنما أدينا ذلك على نحو ما أدى البنا ^(١)

وقد كان اعتماده على الروايات وإيرادها دون تعديل روايتها أو تجريحهم ، وسياقة الأخبار دون تحصيل وتحقيق ، ماثرا للنقد عند بعض الباحثين ، لأن سياقة الأخبار دون تحصيلها أمر لا يليق بالمؤرخ الناقد البصير ، ومن هنا لا يصح له أن يعتمد على الرواية وحدها ، خاصة في تاريخ عصره الذي عاش فيه وشاهد أحواله ، ولا سيما رجل مثل الطبري لا يقصر بابه عن ذلك ، وهو من علماء الحديث وفي استطاعته أن يطبق منهمجهم فيوشق الروايات أو يجرحها خاصة أنه وقع في هذا التاريخ كثير من الأخبار الواهية والقصص الزائفة كالاسرائيليات وبعض أخبار الفرس ، كما ورد فيه كثير من الأحاديث الواردة في بدء الخلق ، وسير الأنبياء ، مما لا يرتفعه المحدثون ^(٢) ، فلا مندوحة إذن من نقد الروايات والرواة والرجوع إلى الوثائق الأصلية ^(٣) .

٢ - الحرص على السند : فقد حرص الطبري على أن يذكر في كل حادثة ما قبل فيها من روايات وأن يذكر سند كل رواية موصولا إلى صاحبه على طريقة علماء الحديث ، فإذا نقل من كتاب ذكر اسم مؤلفه ، مثل قوله : " قال ابن الكلبي " أو " قال محمد بن اسحق " أو " قال الواقدي " ،

(١) تاريخ الطبري ج ١ ص : ٢ ، ٨

(٢) تاريخ الطبري ج ١ ص ٢٥ .

(٣) الطبري ص : ٢٠٤ .

أو " ذكر لمن الكتيب " ، ولما كان يذكر اسم الكتاب ، وإذا سمع من
انسان مشافهة ، قال : حدثني فلان ، فلذا اشترك به في المصطلح
آخرون ، قال : حدثنا فلان ، وسلسل السند الى مصنفه الأول ،
وكان يعتمد أحيانا على المراسلة ، فيقول مثلا : كتب الى السدي من
فلان عن فلان الخ .

وقد كان حرصه على السند والرواية المتصلة حجة بارزة في الكتيب
كله ، الا بعض مواضع يظهر فيها اعتياده على النقل من الكتب ، فأهمل
اسم المحدث كقوله : حدثت عن فلان ، والا بعض مواضع يظهر فيها
تساهله في السند كقوله : ذكر لي بعض أصحابي ، وذكر لي جماعة من
أصحابنا .. (١)

وقد أخذ على الطبري أنه كان يذكر العلماء والرواة ولا يذكر
مؤلفاتهم التي نقل منها ، ولا يفرق كتب عدة ، فلا يستطيع الباحث أن
يصرف عن أيها نقل ؟ (٢)

كما أخذ عليه - أيضا - أنه كان في سرد الروايات المخلقة يقطع
الرواية إذا ما وصل الى موضع خلاف لذكر الرواية أو الروايات المخلقة ،
فإذا ما انتهى من ذكر الخلاف عاد الى استئناف الكلام من حيث توقف
وقطع ، وهذا كانت الروايات كثيرة ما تتداخل وتشابه ما يؤدي الى
تشتيت القارئ وشغله بالفرع عن الحادث الأصيل . (٣)

٣ - نظام السنين : فقد راعى الطبري ترتيب الحوادث ترتيبا زمنيا عاما

(١) الطبري ص : ١٩٤ و ١٩٥ .

(٢) الطبري ص : ٢١٦ . (٣) الطبري ص : ٢١٧ .

بعد عام ، فى القسم الخاص بالاسلام وما يعمده منذ الهجرة الى سنة ٣٠٢ هـ . فذكر فى كل سنة ما وقع فيها من حوادث تستحق الذكر . فاذا كانت الحادثة تستغرق سنوات جزأها أو أشار اليها ، ثم عاود اليها بالتفصيل فى موضعها الملائم . أما فى القسم الأول الخاص بما قبل الاسلام فقد عرض الحوادث غير مرتبة على حسب السنين اذ أن ذلك كان غير مستطاع .^(١)

وقد سبق الخبيري الى هذه الطريقة التهييم بن عدي المتوفى سنة ٢٠٢ هـ والواقدي المتوفى سنة ٢٠٢ هـ ثم حاكاه فيها ابن عسكروا وابسن الأثير وأبو الفداء .^(٢)

وكانت طريقته هذه من المأخذ التى أخذت عليه ، اذ اضطرت هذه الطريقة الى تقطيع الحوادث وتوزيعها على أوقات حيوتها وفى هذا تشتت لها وتزريق لوحدها .^(٣)

٤ - تسجيل النصوص الأدبية : أورد الطبرى فى تاريخه الكثير من النصوص الأدبية من شعر وخطابة ورسائل وصورات فى مناسباتها التاريخية ، والطبرى فى ذلك يجرى على عادة الذين سبقوه من المؤرخين والأدباء الذين كانوا يحرصون على تسجيل الشعر المتصل بالموضوع الذى يورخونه ، كلفا بالشعر من ناحية ، ورغبة فى توثيق الحادث أو الخبر ، والتشويق اليه من ناحية ثانية ، كما نرى فى كتاب " التيجان فى ملوك حمير " لمحمد بن شمسك ، برواية أبى محمد عبدالملك بن هشام ، وفى كتاب " نهايته

(١) الطبرى ص : ١٩٥ . (٢) الطبرى ص : ١٩٦ .

(٣) الطبرى ص : ٢٢٠ .

الأرب في أخبار الفرس والمرب " للأصمى ، وكتاب " السيرة النبوية " لابن هشام . (١)

هذه هي السمات البارزة التي اتم بها منهج الطبرى في تاريخه ، وسهما يكن من شأنه ، فان تاريخ الطبرى هو أول كتاب في التاريخ العام ، أكمل به الطبرى ما ابتداء سابقوه من التأريخ للأحداث أو الأقاليم أو طوائف الرجال كابن سعد واليعقوبى والذبيئورى والواقدى والبلدورى وابن اسحاق ، وهو تسويد لمن جاءوا بعده ، وصدر أصيل من مصادرهم كالسمودى وابن يكتوب وابن الأثير وابن خلدون ، ومازال مصدرا للباحثين الى اليوم . (٢) " وأياها كان (الأمر) فان كتاب " تاريخ الرسل والملوك " سيظل بما اشتمل عليه من الروايات الأصيلة ، والنصوص النادرة ، نفس أسلحه الرائع الرصين ، أشمل كتاب للتاريخ عند العرب " . (٣)

٦ - السيرة بعد الطبرى :

إذا كنا نطلق على المرحلة التي تبدأ منذ نشأة الكتابة في السيرة النبوية حتى نهاية القرن الثالث الهجرى اسم مرحلة التدوين ، والتصنيف ، فانتنا نستطيع أن نطلق على المرحلة التي تبدأ من القرن الرابع حتى الماشر الهجرين اسم مرحلة الشرح والاختصار وتجميع المعلومات والاهتمام بدلائل النبوة وشماثل الرسول وأحواله وصفاته وخصائصه وفضائله .

وهذا الاتجاه الذى أشرنا اليه خلال هذه الحقبة ، هو الاتجاه الغالب ، ذلك لأن بعضا من المؤرخين قد تناول السيرة بالتأليف

(١) الطبرى ص : ١٩٨ (٢) الطبرى ص : ٢٢٦

(٣) تاريخ الطبرى ج١ ص : ٢٦٦

وأفرد لها أقساماً من تاريخه العام من أمثال ابن الأثير ^(١) الذي كتّيب
عن السيرة النبوية في كتابه " الكامل " وابن كثير الذي تناول السيرة
النبوية في كتابه " البداية والنهاية " ^(٢).

وهذا الاتجاه الغالب بنواحيه المتعددة التي أشرنا إليها - من
شرح واختصار وتجميع للمعلومات - واتجاه نحو الشامل والدلائل -
نراه واضحاً في مؤلفات كثيرة :

فالإتجاه نحو الكشف عن شمائل الرسول وخصائصه وصفاته وأحواله
ودلائل نبوته - يظهر واضحاً في هذه المؤلفات : " دلائل النبوة " ^(٣) للأصبهاني

(١) هو : علي بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشافعي الجبزي
أبو الحسن بن الدين بن الأثير : المؤرخ الأمام من العلماء بالنسب
والآداب . ولد عام ٥٥٥ هـ (١١٦٠ م) وتوفي عام ٦٣٠ هـ (١٢٣٣ م)
ومن مصنفاته : " الكامل " في التاريخ ، وهو مرتب على المناسبات ،
بلغ فيه عام ٦٦٩ هـ وله : " أشد الغاية في معرفة الصحابة " .

(٢) طبع القسم الخاص بالسيرة النبوية من كتاب " البداية والنهاية " في
كتاب مستقل باسم : " السيرة النبوية " وقد وقع في أربعة أجزاء .
بتحقيق د . مصطفى عبد الواحد . مطبعة الطبع . طبع الجزء الأول :
الأول والثاني سنة ١٩٦٤ هـ والثالث سنة ١٩٦٥ هـ والرابع سنة ١٩٦٦ هـ .

(٣) في هذا الكتاب يخوض أبو نعيم لقضايا الرسول ويتقدم نبوته
وطيب مولده وحسنه ونسبه وإتمام الله بحجته وغير ذلك - ثم
يتناول ذكره في الكتب المتقدمة - وما سنع من الجن وأجواف الأصنام
بالأخبار من نبوته - ثم يستعرض حياة الرسول مشيراً إلى جانب
المنجزة أو حجة التصديق في كل موقف من المواقف ، والكتاب
تخطط فيه الأخبار الصحيحة بالأخبار الواهية والمنقطعة (راجع :
مقدمة المؤلف بأحوال المصطفى " بتحقيق مصطفى عبد الواحد) .

(٤) هو : أحمد بن عبد الله بن أحمد الأصبهاني : أبو نعيم ، حافظ ،
مؤرخ ، ولد عام ٣٣٦ هـ (٩٤٨ م) وتوفي عام ٤٣٠ هـ (١٠٣٨ م) ومن
مصنفاته : " طبقات الشافعية والرواة " دلائل النبوة " الذي
أشرنا إليه آنفاً .

و "أعلام النبوة" (١) للمآوردى (٢) ، و "دلائل النبوة" (٣) للبيهقى (٤) ،
و "الوفاء بأحوال المصطفى" (٥) لابن الجوزى (٦) ، كما يظهر فى غير هذه

(١) فى هذا الكتاب يورد المآوردى الأدلة على اثبات نبوة محمد صلى الله عليه وسلم ، ويبدأ بمعرض حجج المانعين لنبوته من اليهود والنصارى ، ويرد عليهم بأدلة العقل ، ولكنه لا يكفى بذلك ، بل يسوق الأدلة والبراهين والمعجزات الدالة على نبوة الرسول الكريم ، وفى مقدمتها القرآن الكريم ، ويمتاز هذا الكتاب باعتداده على الحجة العقلية الى جوار ما ينقله من آثار . (راجع : مقدمة "الوفاء بأحوال المصطفى")

(٢) هو : على بن محمد بن حبيب : أبو الحسن المآوردى ، من أصحاب التصانيف الكثيرة النافعة ، ولد عام ٣٦٤هـ (٩٧٤م) وتوفى عام ٤٥٠هـ (١٠٥٨م) ، ومن كتبه : " أدب الدنيا والدين " و " الأحكام السلطانية " و " أعلام النبوة " الذى أشرنا اليه آنفا .

(٣) فى هذا الكتاب تتبع البيهقى وتقصى الدلائل والآيات على نبوة محمد صلى الله عليه وسلم من خلال حياته ، وقبل أن يولد عليه الصلاة والسلام ، ومن خلال أحواله وصفاته وشماثله وخلقه ، وهذا الكتاب معرض للمعجزات الحسية بتفصيل كبير ، وهو يمتلىء بالأخبار الواهية والمكدمة الى جانب عرض المؤلف للسيرة فى بداية الكتاب .

(٤) هو : أحمد بن الحسين بن على ، أبوبكر ، من أئمة الحديث ، ولد عام ٣٨٤هـ (٩٩٤م) ، ومات عام ٤٥٨هـ (١٠٦٦م) ، ومن تصانيفه : " السنن الكبرى " و " السنن الصغرى " و " المعارف " و " الأسماء والصفات " و " دلائل النبوة " الذى أشرنا اليه آنفا .

(٥) فى هذا الكتاب يمرض المؤلف سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم من بدايتها الى نهايتها ، وفى خلال ذلك يدرج المؤلف دلائل نبوته وشواهد صدقه فى دعوته ، كما يوضح خصائصه ويجمع شماثله وجوانب هديه ، وما يتعلق بنواحي حياته ونظام معيشته ، والكتاب - بذلك - يجمع عناصر أربعة : ١ - سيرة الرسول - أى : وصف حياته وذكر أخباره منذ ولادته الى وفاته ، وعرض غزواته وشهادته . ٢ - شماثل الرسول ، أى الحديث عن أخلاقه وعبادته وهديته وصف سلوكه فى نواحي حياته الخاصة والعامة ٣ - خصائص الرسول ، أى فضايله وما ميزه الله به ، وما منحه له من أبواب الثواب والفضل ٤ - دلائل نبوته ، وتشمل معجزاته الحسية والمعنوية ، والاستدلال على صدقه بالأدلة التى تتراعى من مواقف حياته .

(٦) هو : عبد الرحمن بن على بن محمد الجوزى القرشى البشداوى ،

المؤلفات مما يشابهها منها وطريقه ، مثل : " شمائل الرسول ودلائل نبوته وفضائله وخصائصه " لابن كثير ^(١) ، و " إمتاع الأسماع بما للرسول من خولته وحديثه وشمائله " للمقريزي ^(٢) ، و " الخصائص الكبرى " أو كفاية الطالب اللبيب في خصائص الحبيب " للسيوطي ^(٣) ، و " المواهب اللدنية في المناسبات المحمدية " للقسطلاني ^(٤) .

- = أبو الفرج : علاقه عصره في التاريخ والحديث . ولد عام ٥١٠هـ (١١١٤م) وتوفي عام ٥٩٧هـ (١٢٠١م) . له نحو ثمانمائة مصنف ، منها : " تلخيص فہم أهل الآثار في مختصر السير والأخبار " و " الأذكياء وأخبارهم " و " مناقب عمر بن عبد العزيز " و " الوفا بأحوال المصطفى " الذي أشرنا إليه آنفا .
- (١) هو : اسماعيل بن عمر بن كثير بن صفي بن زرع القرشي البصري الديلمي ، أبو الفداء ، عماد الدين : حافظ مؤرخ فقيه ، ولد عام ٧٠١هـ (١٣٠٢م) وتوفي عام ٧٧٤هـ (١٣٧٣م) . ومن تصانيفه : " البداية والنهاية " في التاريخ ، و " شرح صحيح البخاري " و " طبقات الشافعية " و " تفسير القرآن الكريم " و " شمائل الرسول " . الذي أشرنا إليه آنفا .
- (٢) هو : أحمد بن علي بن عبد القادر ، أبو المعبس ، تقي الدين المقريزي : مؤرخ الديار المصرية ، ولد عام ٧٦٦هـ (١٣٦٥م) ومات عام ٨٤٥هـ (١٤٤١م) . من تأليفه : " المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار " ويمرّف بخطه المقريزي ، و " إمتاع الأسماع " الذي أشرنا إليه آنفا .
- (٣) هو : عبد الرحمن بن أبي بكر بن محمد بن سابق الدين الخفيري السيوطي جلال الدين : إمام حافظ مؤرخ أدب ، ولد عام ٨٤٩هـ (١٤٤٥م) وتوفي عام ٩١١هـ (١٥٠٥م) . له نحو ستائة مصنف ، منها " الجاسع الكبير " و " الخصائص الكبرى " الذي أشرنا إليه آنفا .
- (٤) هو : أحمد بن محمد بن أبي بكر بن عبد الملك القسطلاني المصري ، أبو المعبس ، شهاب الدين ، من علماء الحديث ، ولد عام ٨٥١هـ (١٤٤٨م) وتوفي عام ٩٢٣هـ (١٥١٧م) . ومن مؤلفاته : " ارشاد الساري لشرح صحيح البخاري " و " المواهب اللدنية في المناسبات المحمدية " المشار إليه آنفا .

أما الاتجاه نحو تلخيص كتب السيرة السابقة وتجميع المعلومات منها ،
فيظهر واضحا في المؤلفات الآتية : " الدرر في اختصار المغازي والتسير " (١) ،
لابن عبد البر (٢) ، و " جوامع السيرة " (٣) لابن حزم (٤) ، وما ينحصر نشاطهما
كتاب : " عيون الأثر في فنون المغازي والشمال والتسير " لابن سيدي

- (١) في هذا الكتاب اختصر المؤلف مبحث النبي صلى الله عليه وسلم ،
وابتداء نبوته وأول أمره في رسالته ومغازيه وسيرته فيها مـ
أوردته موسى ابن عقبة وابن اسحاق وغيرهما ، مقتصرا فيه على المعين
والزيد من الأخبار ، ألفه بطريقة المحدث الحافظ ، مهتما عما لم
يصح عنه من الروايات ، مع مناقشة ما رواه غيره من ضعيف الأخبار ،
وذلك بميزان الجرح والتعديل ، وأداره بروح المؤرخ الأديب ،
والناقد الصوري الخبير ، مقتصر على المحض اللطيف دون الحشو
والتكراار (راجع : صدر كتاب " الدرر في اختصار المغازي
والتسير " تحقيق شوقي ضيف ، نشر المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية) .
(٢) هو : يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر النمري ، أبو عمر :
من كبار حفاظ الحديث ومؤرخ أديب بطلته ، ولد عام ٣٦٨ هـ (٩٧٨ م)
وتوفي عام ٤٦٣ هـ (١٠٧١ م) ، من كتبه : " المحل والمقابلة " ،
و " الاستيعاب " و " الدرر في اختصار المغازي والتسير " المشار
إليه آنفا .

- (٣) هذا الكتاب قصد منه مؤلفه وضع مختصر قريب المأخذ ، سهل
التناول في أيدي طلابه ، وفي هذا المختصر يضع المؤلف الأصول
التي لا يستغنى عن تذكرها أو استظهارها كل من اشتغل بالسيرة
النبوية من طالب العلم . (راجع : مقدمة " جوامع السيرة ")
لابن حزم تحقيق : احسان عباس ، وناصر الدين الأسد . مراجعة :
أحمد محمد شاكر . ط . دار المعارف)

- (٤) هو : علي بن أحمد بن سعيد بن حزم الظاهري ، أبو محمد :
عالم الأندلس في عصره ، وأحد أئمة الاسلام ، ولد عام ٣٨٤ هـ
(٩٩٤ م) وتوفي عام ٤٥٦ هـ (١٠٦٤ م) من أشهر مصنفاته :
" الفصل في الملل والأهواء والنحل " و " المحلى " و " جمهرة
الأنساب " و " الناسخ والمنسوخ " و " الإحكام لأصول الأحكام " ،
و " جوامع السيرة " المشار إليه آنفا .

الناس . (١)

وأما الاتجاه نحو شرح بعض الكتب السابقة والتعليق عليها فيظهر
في كتاب : " الرُّوضُ الْأَنْفُ " (٢) لِلْسَّهْلِيِّ (٣) ، الذي شرح فيه سيرة ابن
هشام وعلق عليها ، وما ينحو منحاه " شرح غريب السيرة النبوية " لأبي
كَرِيمِ الْخُشَنِيِّ (٤)

- (١) هو : محمد بن محمد بن محمد بن أحمد بن سيد الناس ، أبو الفتح ، فتح الدين ، مؤرخ ، عالم بالأدب ، من حفاظ الحديث ، ولد عام ٦٧١ هـ (١٢٧٣ م) وتوفي عام ٧٣٤ هـ (١٣٣٤ م) ، ومن تصانيفه : " عيون الأثر في فنون المغازي والشمال والسير " ومختصره " نور الميرون " .
- (٢) هذا الكتاب قصد منه مؤلفه - كما يقول - : " إيضاح ما وقع في سيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم - التي سبق إلى تأليفها أبو محمد ابن اسحاق المطلبي ، ولخصها عبد الملك بن هشام المعافري المصري النسابة النحوي ، مما بلغني عنه ، ويسر لي فهمه ، من لفظ غريب ، أو أعراب غاض ، أو كلام مستغلق ، أو نسب عوي ، أو موضع فاتمه التنبه عليه ، أو خبر ناقص يوجد السبيل إلى تنبته ... وقد تحصل - في هذا الكتاب من فوائد العلوم والآداب وأسماء الرجال والأنساب ، ومن اللغة الهاطن اللهب وتعليل النحو وصنعة الأعراب - ما هو مستخرج من ثوب على مائة وعشرين ديوانا سوى ما أنتجته صدرى " (راجع : مقدمة " الرُّوضُ الْأَنْفُ " - تحقيق : عبد الرحمن الوكيل - نشر دار الكتب الحديثة - الطبعة الأولى) .
- (٣) هو : عبد الرحمن بن عبد الله بن أحمد الخنمي السهلي : حافظ عالم باللغة والسير ، ولد عام ٥٠٨ هـ (١١١٤ م) وتوفي عام ٥٨١ هـ (١١٨٥ م) . من كتبه : " التمهيد والإعلام في ما أبهم في القرآن من الأسماء والأعلام " و " الرُّوضُ الْأَنْفُ " في شرح السيرة النبوية لابن هشام ، الذي أشرنا إليه آنفا .
- (٤) هو : مصعب بن محمد أبي بكر بن مسعود الخشني ، أبو ذر ، قاض ، من العلماء بالحديث والسير والنحو ، ولد عام ٥٣٣ هـ . وتوفي عام ٦٠٤ هـ . وله كتب منها : " شرح غريب السيرة النبوية " للسيد أشرنا إليه آنفا و " شرح الإيضاح " و " شرح الجمل " .

ح - نقد و تقويم

وإذا ما حاولنا أن نلقى الضوء على ما ألف في السيرة من لـسـدن
عصر التدوين حتى القرن العاشر الهجرى — لكى نتبين أهم هذه المؤلفات
وقيمه ما سواها من مصنفات ومترجمة هذه — فالتا نستطيع أن نقول:

١ - ان المؤلفات الأولى في السيرة النبوية - كملقات عروة بن الزبير ابن العوام ، وأبان بن عثمان بن غان ، وموسى بن عقبة - وان كانت قد ضاعت - كانت أوفر صدقا وأكثر التزاما بتسجيل ما دق وجل من الأمور مما يتعلق بالسيرة النبوية ، واحكامها عن اعمال الهوى في الانتقاء ، وكان المؤلف في السيرة أشبه بالمحقق الذي يجمع ما يوسعه جميعه من المعلومات والحقائق .

وترجع سمة الصدق والصراحة في هذه المؤلفات الى أسباب أهمها :
 أ - أن أكثر مؤلفي السيرة الأوائل كانوا من علماء الحديث
 ومن ثم طبقوا معايير علم الحديث والمناهج التي التزموا
 بها فيه من التحري الشديد والدقة المتناهية والحرص على
 العناية بالسند .

نعم . . طبقوا هذه المعايير على كتابة التاريخ والسيرة النبوية ارتفاعا بها الى عوالم الصدق ، والسير المضى الى معالم الطريق . . . أضيف الى ذلك الورع الشديد السدى التزاما به أثناء تأليفهم سواء أكانوا يكتبون فى التفسير أو الحديث أو التاريخ ، وكان الورع فى التأليف عندهم ، يعنى التزام الصدق والأمانة ، وهما ما يسميان فى زماننا هذا بالروح العلمية ، أو بالموضوعية .

ب - أن القيم والمعايير والأذواق في عصرهم المقارب لعصر النبي لم تكن قد طرأ عليها بعد تغيير كبير ، وأن أحاديث الصحابة وأهل عصر النبي عن أحداث زمانهم وأفعال النبي وأقواله كانت لا تزال حية في أذهان التابعين . . . أضف الى ذلك أن اعجابهم الشديد بشخصية النبي وحرصهم على الاحاطة بكل ما كان يصدر عنه من أقوال وأفعال ، وكل صغيرة وكبيرة تتعلق به ، هي من أجل ارساء دعائم الفقه والشرعية وصحة حكم الدين في أدق تفصيلات الحياة اليومية دفعهم الى تسجيل كل ما يسمعون عنه ، لا ينتفون ولا يتخيرون ، ولا يستشعرون بحرج ازاء تدوين هذه الواقعة أو تلك ، فكل ما صدر عن النبي خليق بالتوقيف والدراسة ، وان كان هناك من الأفعال ما يصعب فهم بواطنه ، أو ما لا يتفق مع المعروف الشائع ، فان المشكلة انما هي في تصور فكرهم عن ادراك المغزى الذي قد تكشف الأهم عنه ، أو الحكمة التي قد تتضح لأجيال لاحقة ، وكان هذا دون أدنى ميل منهم الى تقديم نبيهم ، ودون أن تضيف عن أذهانهم فكرة أن محمداً انما هو بشر مثلهم يوحى اليه . .

٢ - تمد سيرة ابن اسحاق ، من أهم كتب السيرة ، لأنها أول كتاب في السيرة النبوية وصل الى الأيدي ، كما تمد من أوفى الكتب في السيرة النبوية بالنسبة الى ما سبقها . أما أنها أول كتاب في السيرة وصل الى الأيدي ، فلأن ما ألف في السيرة النبوية على أيدي رجال الطبقتين الأولى والثانية قد ضاع واندثر ، كما أن معظم مؤلفات رجال الطبقة الثالثة - التي يعد ابن اسحاق من رجالها - قد ضاع واندثر . ايضاً - ولم يبق من هذه المؤلفات جميعاً

شيء سوى نُقُولٍ وفقرات أوردتها كتب ابن اسحاق والواقدي وابن سعد والطبري . وأما أنها أوفى كتاب في السيرة ، فلأن ما سبقها من مؤلفات ، كانت تتناول أجزاء من السيرة ، وحقا محينة منها ، ولم تكن بطبيعتها تنحو نحو الشمول والمعمم . أما سيرة ابن اسحاق فقد شملت السيرة كلها ، وكانت مرجعا هاما وأصيلا لكل من ألف في السيرة من بعد ، ولذا صدق الشافعي حين قال : " من أراد أن يتبحر في المغازي فهو عيال على محمد بن اسحاق " . (١) تاريخ بغداد : ١٩٠١ - ١٩٠٢

٣ - لا يستطيع أحد أن ينكر فضل كتاب " المغازي " للواقدي ، الذي يورخ حياة الرسول في المدينة تأريخا قائما على منهج جديد لم يسبق إليه ، وهو بهذا يعد مرجعا هاما وأصيلا لكل من حاول أن يكتب في السيرة ، خاصة الحقبة المدنية من حياة الرسول الكريم ، كما لا يستطيع أحد أن ينكر ذلك الحوص والدقة والأمانة العلمية من تلك الصفات التي امتاز بها منهج الواقدي ، وهو وصف الغزوات ، ويتحرى المشاهد ، ويتبع المواقع الستى كانت مسرحا للمعالم الحربية - ومن هنا كان كتاب " المغازي " من الكتب الأولى الرائدة في كتب السيرة النبوية .

٤ - أما " الطبقات الكبرى " لابن سعد ، فيعد - أيضا - من أشهر المراجع التاريخية الإسلامية التي تدرج سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم ، وحياة القرنين الأولين من تاريخ الاسلام ، حتى قال عنه بعض النقاد : " .. وهو المنهج الذي يمد الباحثين بموضوعات جديدة في كتابة السير ، والبحث عن طرق الاستنباد وكيفية تدوين الحديث ، ويعلمنا الشيء الكثير عن الأمم الاجتماعية المتصلة بحياة البيت والسوق وأمور الزى والطعام والشراب وعن جوانب من الأعمال والمهن والحياة التجارية ، وعن

كثير من النواحي الثقافية والأحكام الفقهية ، والصراع بين السُّنَّة والأهواء ... (١)

٥ - يعد ما كتبه الطبرى فى السيرة النبوية ، فى كتابه : " تاريخ الرسل والملوك " رابع مصدر هام فى السيرة النبوية بعد " سيرة ابن اسحاق " و " مغازى الواقدي " ، و " طبقات ابن سعد " ، وذلك لما امتازت به هذه الكتابة من حرص على السند ، وأمانة فى النقل ، ودقة فى الرواية ، وتسجيل للنصوص التى وردت فى الروايات ، وما الى ذلك من السمات الموضوعية التى اتم بها منهج الطبرى فى كتابه هذا . وهو بهذا يعد مرجعا هاما ومصدرا أصيلا لكل من كتب فى التاريخ العام أو فى السيرة النبوية .

والحقيقة أنه ما من كتاب من الكتب التاريخية والاسلامية التى جاءت بعده الا جُمِلَ تاريخ الطبرى مصدرا من مصادره " وأياما كان (الأمر) ، فان كتاب " تاريخ الرسل والملوك " سيظل بما اشتمل عليه من الروايات الأصلية ، والنصوص النادرة ، فى أسلحه الراسخ الرصين ، أشمل كتاب للتاريخ عند العرب " (٢)

٦ - مناء على ما تقدم نستطيع أن نقول : ان هذه الكتب الأربعة : (سيرة ابن اسحاق ، ومغازى الواقدي ، وطبقات ابن سعد ، وتاريخ الطبرى) هى - بالإضافة الى القرآن الكريم ^{والله} أهم مصادر السيرة . . . لما تمتاز به هذه الكتب من أمانة ونزاهة موضوعية ، ولئن كانت هناك هنات تتمرض فى هذه الكتب - كما سبق أن أشار الباحث إليها - ان هذه الهنات لا تغض من منزلتها ، ولا تنقص من

(١) الطبقات الكبرى لابن سعد . المجلد الأول ص ١٦ ، ١٧

(٢) تاريخ الرسل والملوك للطبرى ج ١ ص ٢٦ .

أهميتها ، وستظل هذه الكتب هي المصادر الأصلية للسيرة النبوية .

٧ - لكن كتابة السيرة النبوية - بعد الطبرى - طرأ عليها تغيير ، وبدأت تتحرف عن هذا النهج الكتابى المسمى الذى يمثل نفس الالتزام بالسند ، والحرص على الرواية ، والعناية بتسجيل الأحداث كما وقعت - وذلك نظرا لتماقب الأجيال ، ومر القرون ، وتغير الأذواق والقيم ، خاصة أن الذين تولوا الكتابة فى السيرة بمسند ذلك هم بعض الموالى^{من} بدوى المعايير والمفاهيم المخالفة لمعايير العرب ومفاهيمهم ، فقد شغل العرب أساسا بإدارة شؤون الدولة والامساك بمدفة الحروب ، وعكف هؤلاء الموالى على الدراسة والكتابة فى مختلف العلوم والأصن علوم الدين ، حتى كان لهم التفرغ فى مضمارها .

وقد بدأ هذا الانحراف فى كتابة السيرة على أثر الفتوحات الاسلامية ، ومحاولات نشر الاسلام فى البلدان المفتوحة ، وما أدت اليه هذه المحاولات من دخول الفاتحين فى مجادلات دينية مع أهلها ، خاصة من اليهود والنصارى ، فقد كان هؤلاء فى دفاعهم عن تفوق دينهم يسيرون على المعجزات الخارقة لإنبياء العهد القديم ، أو الى ترفع المسيح عن الشهوات والأغراض الدنيوية . وكان أن اختار المسلمون فى جدالهم أن يردوا بنسبة قدر متزايد من المعجزات الى النبى محمد صلى الله عليه وسلم ، شبهة أو غير شبهة بمعجزات المسيح وإنبياء اليهود ..

وكان أن بدأت الأيدي تمتد الى السيرة لطمس بعض الحقائق أو اختراع القصص من أجل التخفيف من تأثير معين أو إزالته ، أو خلق تأثير معين أو تقويته ، وقد شجع ذلك على تناول بعض جوانب السيرة بالتزوير والتطويق .

وكان نتيجة ذلك كله أن طرأ تدهور ملحوظ على أسلوب المؤلفات في السيرة ومنهجها بعد ما كتبه ابن اسحاق ، والواقعي ، وابن سعد ، والطبري . ومن هنا اتجهت معظم المؤلفات في السيرة بعد الطبري الى الاهتمام بدلائل النبوة وشأنل الرسول وفنائله وخصائصه ، وكان أن باتت هذه المؤلفات أقرب الى السيرة التي تتم بتقديس الكاتب للمترجم لـه أو باظهاره بمظهر مثالي . ولم يجد بعض الكتاب ما يمنع من الاختراع والتفريق والاضافة الى السيرة . . . كي يخدموا أهدافهم ويحققوا أمهم .

وهذه المؤلفات - وان كانت لها قيمتها ومكانتها- لا يمكن أن تمتد كتب سيرة بالمعنى الاصطلاحي لهذه الكلمة فقد باتت هذه الكتب أقرب الى الوصف والارشاد منها الى الكتابة التاريخية . وصار الفرض هو الكتابة عن مثل أعلى يحتذى لا العناية بتسجيل الحقيقة من أجل الحقيقة ، وذلك على أساس التشكك في قيمة الحقيقة ما لم تكن تخدم غرضاً خلقياً أو دينياً ، وهو موقف يمكن أن يقبله فريق من الناس وأن يراه مشروطاً الى يومنا هذا . ولم يجد بعض هؤلاء الكتاب ضيراً من الاختراع ان كان من شأن الاختراع تعزيز الايمان ، وطقوا هذا المعيار في السيرة والحديث على السواء ، ومرور الزمن على وفاة النبي - صلى الله عليه وسلم - تضاعفت في الكتب والأذهان ملامح الصورة الواقعية الحية لبشر نبى خلق من لحم ودم ، ونمت الخرافات التي لا يحفلها عقل ، وقصص المعجزات التي لم ينسبها النسبي الى نفسه ، ولا الصحابة اليه ، ولا تحدث عنها القرآن الذي لم يترك في سبيل اقتناع خصم الدين بهدفة - دليلاً من دلائل نبوته محمد الا ذكره (١) يقول : احسان عباس : " وقد أضفت الكتب المتأخرة نوطاً من

(١) راجع : مجلة المشرق : المجلد ٢١٥ - صفحة ١٠٩ مع تصرف وتصويب .

التقديس على شخصية الرسول لا يُلَمَحُ في المصادر الأولى ، ويظهر الرسول في أكثر الروايات المبكرة ، كما صوره القرآن " قُلْ سُبْحَانَ رَبِّيَ هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا " (١) ثم انصرف الكاتِبون في السيرة الى تدوين دلائل النبوة وشمال النبي ، وذلك أخذت العناصر التاريخية تتفاضل أمام الجواب الخلقية في كتابة السيرة ، واتجه كتاب " الدلائل " من أمثال أبي نعيم والبيهقي ، وولفو أعلام السيرة كالسجستاني والماوردي الى إثبات أكثر ما يمكن من المعجزات ونسبها للنبي " . (٢)

(١) الآية ٩٣ من سورة " الاسراء " .
 (٢) راجع : فن السيرة : صفحة ١٧ مع تصرف

ٖٖ الباب الأول ٖٖ

السيرة النبوية والاسلوب العلمى الحديث

من خلال

" حياة محمد " لهيكل

- الفصل الأول : بواعث الكتابة فى السيرة عند هيكل .
- الفصل الثانى : طريقة هيكل وماتنها .
- الفصل الثالث : أسلوب هيكل وخصائصه .
- الفصل الرابع : منهج هيكل وأسمائه .
- الفصل الخامس : " حياة محمد " فى ميزان النقد .

الفصل الأول

ٖٖ بواعث الكتابة فى السيرة عند هيكل ٖٖ

بواعث عامة .

بواعث خاصة :

- ١ - جهل الغرب بسيرة الرسول صلى الله عليه وسلم .
 - ٢ - التحول الفكرى فى حياة هيكل .
 - ٣ - الرغبة فى كتابة السيرة بأسلوب علمى :
- أ - المستشرقون والدعوة ضد الاسلام .
- ب - الحبيبات التهذيبية .
- ج - تنقيح السيرة مما شابهها .

بواعث عامة :

فى أوائل الثلاثينيات من هذا القرن الميلادى حفلت المكتبة المربية بالمديد من الكتب التى تتناول الموضوعات الاسلاميه ، سواء منها ما يتصل بالاسلام نفسه ، كشفا عن محاسنه وتوضيحا لمبادئه وتشريعاته وأدابه ، وابرارا لآثاره المتعدده فى ميادين الحضارة والمدنيه . . . أو ما يتصل بالمعالم الاسلامى ودراسة أحواله الماضيه والحاضيه . . . أو ما يتصل بالشخصيات الاسلاميه التى كان لها أثر بارز فى تاريخ الاسلام ، وطلى رأس هذه الشخصيات ، شخصيه الرسول صلى الله عليه وسلم ، هل ان شخصيه الرسول كانت صاحبه الحظ الأوفر فيها صدر من كتب فى تلك الحقبة .

ويكفى للتدليل على ذلك أن نقول : ان أكثر من عشرين كتابا ، صدرت عن الاسلام ونسبى الاسلام فى أقل من عام ، هذا عدا مجلات اسلاميه كبيره ، ومقالات عن الاسلام متفرقه .

وقد استطعت هذه الظاهره نظر عدد من الباحثين ، فحاولوا تفسيرها وسعرة أسبابها وواجبها ومن هؤلاء الباحثين الاستاذ عباس محمود المقاد ، الذى كتب فى أغسطس ١٩٣٥ - وقيل أن يكتب عبقرياته - فى جريده " ريزاليوسف " يقول : " نحو عشرين كتابا صدرت عن الاسلام فى أقل من علم ، من أشهرها : " الاسلام والحضارة المربيه " لكردي على ، و " ضحى الاسلام " لأحمد أمين ، و " حياة محمد " للدكتور هيك ، و " الاسلام والتجديد " لمتريه عباس محمود ، و " على هامش السيره " لطف حسين ، و " الشرق الاسلامى " لحسين مؤنس ، و " من أخلاق العلماء " للأستاذ محمد سليمان ، و " حاضر المعالم الاسلاميه " لمجلى نبيهض ، وكتب أخرى عن حياة النبى لفريد وجدى ورشيد رضا ، وغيرهم من أفاضل العلماء ، وهذا عدا " مجلات اسلاميه " كثيره . . . وكل أولئك ظواهر اجتماعيه لا هامة تستحق الدراسة ، والبحث ، وبزهدنا

استحقاقاً (لذلك) أن معظم المؤلفين هنا من غير الدينيين المتفرغين
للمسائل الدينية الذين لا يستغرب منهم طرق هذه الموضوعات (١)

والمقاد يرجع هذه الظاهرة - بعد دراسته وتحليله لها - إلى
سببين رئيسيين عامين : سبب عالمي ، وسبب شرقي .

يقول المقاد : " إن السبب العالمي الأكبر لهذه الظاهرة ، هو
فشل الفلسفة المادية في اقتناع العقول ، وإرضاء النفوس ، وطمأنة الضمائر
بعد اجتياحها العالم زهاً ، قرن كامل ، واغترار الناس بها في غير طائل ،
وانتظارهم منها التعليلات والتفسيرات التي تمبوا في البحث عنها والرجوع
بها إلى الجامدين المتفنيين وهم لا يفقهون بم يجيبون ، ولا يسمحون
للناس أن يفقهوا ما يجهلون . أما السبب الشرقي فهو " البقعة المربية "
واللياذ بالمعقبة التي تعمد ذكرى المجد القديم ، وتحصى أصحابها من
غارات أعدائها في العصر الحديث ، ففي الحجاز واليمن والمراق وسوريا
وفلسطين وبصر وطرابلس وتونس والجزائر ومراكش والسودان والصحارى الأفريقية
والهند والجزر الآسيوية : حديد دائم عن الإسلام والحرب ووجهة دائمة
في القراءة عن تاريخ المسلمين ووعاء المسلمين ، وما يرجى بعد اليوم
للإسلام والمسلمين ، ومن كان قد اطلع على طرقي من الملحم " المصرية " من
أبناء هذه الأقطار المتراصة فهو يشتاق أن يرى الإسلام على هدى
هذه الملحم " المصرية " وأن يحكم الصلة بين زمانه وآرائه وبين ما سلف
من الأزمنة والآراء ... (٢)

ويضيف المقاد إلى هذين السببين الرئيسيين أسباباً أخرى لا تقل
عنهما قوة وخطورة ، ومن هذه الأسباب : الحركة التنشيرية ، والفزع من

(١) أعضاء على الأدب العربي المعاصر : ١١١ مع تصويب وتصرف

(٢) كذا يكتبها الناس وهو خطأ ، والصواب : سورة . د سرحان

(٣) أعضاء على الأدب العربي المعاصر : ١١١

• الشيوعية

يقول العقاد : " والتشير على هذه الأسباب في العمق والقسوة ، فان حركة المبشرين قد اشتدت أثناء الأزمة المالية والضنك السياسي فحولت اليها كثيرا من سخط الناس عن الحالة الاقتصادية والحالة السياسية فسوق ما أثارته من غيرة على الدين وغيره الناقين على الاستعمار . ويحيط بهذه الأسباب جميعا سبب شامل ، ذلك هو الفزع من الشيوعية والاعتصام منها بالعقائد الروحية التي لا تسخ المذاهب المادية (١) "

والأسباب التي ذكرها العقاد تعليلا لهذه الظاهرة تشكل - فسي الأعم الأغلب - الأسباب الرئيسة ، والبواعث الجوهرية وراء كتابات الفالهيمة المظلمة من كتابنا المحدثين ، الذين تناولوا هذه الموضوعات بالبحث والتطيل ، وهذا يعني أن هناك دوافع خاصة وبواعث معينة تتعلق بكل كاتب ، كانت وراء كتابه أو كتابته .



بواعث خاصة :

وبهنا - ونحن نتحدث عن كتاب " حياة محمد " للدكتور محمد حسين هيكل - أن نستعرض البواعث والدوافع التي كانت وراء هذا الكتاب ، والمتبجح لهذه البواعث وتلك الدوافع يستطیع أن يرجعها إلى ما يأتي - :

١ - جهل الغرب بحورة الرسول صلى الله عليه وسلم :
فمنذ بزغ فجر الاسلام وانتشر نوره ، والمسيحية لم يهدأ لها مضجع ،

(١) أعضاء على الأدب العربي المعاصر ص ١١١ ، ١١٢ .

فوقت من الاسلام ونبيه موقف الخصام ٠٠ والمداء ٠ بدأ بالمجادلات السلمية ٠ وانتهى الأمر بها أخيراً الى معارك قتالية ضروس ٠ ظلت مستمرة بين أتباع الاسلام وأعدائه ٠٠ قروناً متتالية ٠ ولم يقف القتال عند حربه الأسته والمدافع ٠ بل انتقل كذلك الى ميدان الجدل والنضال الكلامي ٠ وفى الوقت الذى حال فيه الاسلام بين المسلمين والحط من مقام عيسى ٠ نرى الكثيرين من المسيحيين يتناولون الرسول بالتمريض ٠ وينعتونه بأوصاف يبرأ منها معروف الرجال ٠ شفاء ٠ لما فى نفوسهم من غل ٠ واستفساراً وحفاً لشهوات الناس الدنيا ٠

يقول الدكتور هيكل : " ٠٠٠ (١) ما وضعت الحروب الصليبية أوزارها منذ مئات السنين ٠ فقد (٢) ظل تعصب الكهنة المسيحية ضد محمد على أشده الى عصور قريبة ٠٠ " (٣)

السيرة

ويبحث الدكتور هيكل عن سبب هذه المداوة وتلك الخصومة الهوجاء والحرب المنيقة ٠ التى تثيرها المسيحية على الاسلام ونبي الاسلام ٠ وينتهى به البحث الى أن السبب فى هذا كله ٠ هو جهل الغرب بحقيقة الاسلام وسيرة الرسول صلى الله عليه وسلم ٠ كما يرى أن الجهل من أعقد أسباب الجمود والتعصب وأشدّها استعصاء ٠ (٤)

وإذا كان هيكل يرى أن جهل الغرب بحقيقة الاسلام وسيرة الرسول سبب من أسباب التعصب الأحق الذى قام به متعصبو المسيحية ضد الاسلام ونبيه — فانه رأى لزماً عليه أن يسهم بقلمه ٠ ويقوم بواجب الكشف عن حقيقة الاسلام ومبادئه ٠ وأن يزيح الفهار عن سيرة الرسول صلى الله عليه

(١) كذا يكتب الناس فى المصور المتأخرة وهو خطأ ٠ والصواب: وعلى الرغم

من وضع الحروب الخ ٠ د / سرحان ٠

(٢) كذا يكتب الناس فى المصور المتأخرة وهو خطأ ٠ والصواب حذف " فقد " ٠

(٣) حياة محمد ص ٣ (٤) المرجع السابق ص ١٢

وسلم . ذلك الفهار الذى أثاره أعداء الاسلام على تاريخ الرسول بقصد التزييف والتشويه .

٢ - التحول الفكرى فى حياة هيكل :

لعل هيكل قد اتجه الى كتابة السيرة النبوية خاصة ، والتاريخ الاسلامى عامة ، نتيجة تحول طبيعى فى تفكيره ، فقد حاول أن يتخذ من ترجمة الأدب الأوربى وسيلته الى خلق ثقافة عربية جديدة ، فلم يجد السبيل ممهدا الى ذلك دون ارتباط حاضر الأمة بـماضيها ، فاتجه الى الفرعونية ، محاولا أن يربط بينها وبين حاضرها ، فلما لم يجد ذلك هو الطريق الأمثل ، اقتنع بأن الطريق هو فى بحث تاريخنا العربى الاسلامى ، وذلك فى اجلاء صورة الرسول صلى الله عليه وسلم وصحه : أبى بكر وعمر ...

يقول هيكل : " خَلَّيَ الزَّمَنُ - كما لا يزال يخيّل الى أصحابى - أن نَقَلَ حياة الغرب العقلية والروحية (هو) سهيلا الى هذا النهوض ، وما أزال أشارك أصحابى فى أنا ما نزال فى حاجة الى أن ننقل من حياة الغرب العقلية كل ما نستطيع نقله - لكنى أصبحت أخالفهم فى أمر الحياة الروحية ، وأرى أن ما نفس الغرب منها ما هو غير صالح لأن ننقله ، فتاريخنا الروحى غير تاريخ الغرب ، وثقافتنا الروحية غير ثقافته ، خضع الغرب للتفكير الكنسى ^(١) على ما أقرته الباهية المسيحية منذ عهدها الأول ، حتى الشرق يريثا من الخضوع لهذا التفكير ، بل حوربت المذاهب الاسلامية ، التى أرادت أن تقيم فى العالم الاسلامى نظاما كنسيا

(١) كذا فى الموضحين وهو خطأ وقع فيه جميع الكتاب كبارهم والصغار ، والصواب : الكنسى وكسبا . د / سرحان .

(تذيقه فيه) أهوال الحرب ، فلم تقسم لها فيه قائمة أبداً ٠٠٠ كيف نستطيع أن ننقل ثقافة الغرب الروحية لننهض بهذا الشرق، وبيننا وبين الغرب فى التاريخ وفى الثقافة الروحية هذا الثاوت العظيم ؟ لا مفر اذن من أن نلتبس فى تاريخنا وفى ثقافتنا، وفى أعماق ظهنا وفى أطوار ماضينا هذه الحياة الروحية ، نحس بها ما قتر فى أذهاننا وجمد من قرائننا . وقد خفى هذا الكلام منذ سنوات كان لا يزال خفياً على كثيرين منهم ، وقد حاولت أن أنقل لأبناء لفتى ثقافة الغرب الممنونة ، وحياتة الروحانية ، لتتخذها جميعا هدى ونبراسا ، ولكنى أدركت بعد لى أننى أضح البذر فى غير مَنبَتِهِ ، فاذا الأرض تهضمه ، ثم لا تتمحض عنه ، ولا تهتم الحياة فيه ، وانقلبت ألتمس فى تاريخنا الهميد فى عهد الفراغة موشلا لوحى هذا المصر ، ينشأ فيه نشأة جديدة ، فاذا الزمن ، واذا الركود العقلى ، قد قطع ما بيننا وبين ذلك العهد من سبب ، ورويت فوأيت أن تاريخنا الاساسى ، هو وحده البذر الذى ينبت ويشمر ، ففيه حياة تحرك النفوس ، وتجعلها تهتز وترى ، وعدت آمنا الى أن أمة لا يحصل حاضرها بماضيها خليفة أن تصل السهيل ، وأن الأمة التى لا ماضى لها لا مستقبل لها ، ومن ثم كانت الهوة التى زادت عمقا بين سواد الأمم فى الشرق ، والدعوة الى اغفال ماضينا والتوجه الى وجهة الغرب ، بكل وجودنا ، وكان النفور عن الأخذ بحياة الغرب الممنونة ، مع حرصه على نقل علومه وصناعاته ، والحياة الممنونة هى قوام الوجود الانسانى للأفراد والشعوب ، ولذا لم يكن لنا مفر من العودة الى تاريخنا ، نلتبس فيه مقومات الحياة الممنونة ، لنخرج من جمودنا وتنقى الخطر الذى دفعت الفكرة القوية الغرب اليه ، فأدامت فيه الخصومة بسبب الحياة المادية التى جعلها الغرب إلهه .

ولم ألبث حين تهيئت هذا الأمر أن دعوت الى احياء حضارتنا الشرقية ، وبصدر الحضارة سنا الأرواح الضيعة لى ، كم فى ماضينا من

أرواح ذات^(١) ضياء باهر ، قادرة بقوتها على أن تهتت الحضارة الاسلامية خلقا جديدا ، كما بحث فلاسفة اليونان الحضارة الغربية المدنية ، ومحمد ابن عبدالله هو النور الأول ، الذي استمدت هذه الأرواح منه ضياءها ، وهو الشمس التي أمدت كل هذه الأقمار بسناها ، لذلك جعلت سيرته موضع دراستي ... " (٢) .

٣ - الرغبة في كتابة السيرة بأسلوب علمي :

كانت الرغبة في كتابة السيرة النبوية بأسلوب علمي باعنا من هواهت الكتابة في السيرة عند هيكل ... وكان وراء هذه الرغبة أسباب تدفع إليها وتحت عليها ..

أ - المستشرقون والدعوة ضد الاسلام :

لم تنته المعركة التي أثارها قديما - ضد الاسلام ونبيها - هؤلاء الحاقدون من متمصبى المسيحية ، بل ظلت المعركة مستمرة حتى العصر الحديث ، ولقد أخذ متمصبو العصر الحديث - من المستشرقين - دعاة مناهج البحث العلمى الحديث - من تخلف الشعوب الاسلامية وما أضيف الى كتب السيرة النبوية مدسوسا عليها من أشياء لا يصدقها العقل - أخذ هؤلاء المتمصبون من هذا كله ، سهيلا للطعن فى الاسلام ، والافتراء على الرسول صلى الله عليه وسلم ، مدَّعِينَ أنهم فى كتابتهم عن الاسلام والرسول لا يبتغون سوى الحقيقة وحدها ، المبنية على أسس البحث العلمى .

(١) كذا يخطئ كثير من الكتاب ، والصواب : ذوات ضياء ، وفى القرآن الكريم عن الشئى : " ذواتا أفنان " د / سرحان .

(٢) أضواء على الأدب العربى المعاصر ، ص ١٠٢ - ١٠٩ ، ربيع (الزمن والوقت)

والحقيقة أن هوى نفوسهم المريضة، هو الذى كان يحركهم إلى
ذاك الطعن وهذا الافتراء .

.. فاذ أنت وقتت عندما كتبه هؤلاء، رأيته تمليه شهوة الجدل
والتجريح مصوغاً فى عبارة لا تخلو من براعة، تستهوى اخوانهم فى المقعدة
إلى الظن بأن البحث العلمى المجرد التزاع إلى الحقيقة وحدها، يريد
أن يستشفها من وراء كل الحجب، هو الذى وجه هؤلاء المتعصبين
من الكتاب والمؤرخين (١)

ولقد ساعد هؤلاء المستشرقين على ذلك، أن أحداً من المسلمين لم
يقف فى وجههم كى يرد عليهم افتراءاتهم وأباطيلهم، بالأسلوب الذى
يتهمون .. هذا بالإضافة إلى تأييد الاستعمار الغربى لهم، وتأيينه،
كذلك دعاء الجمود من المسلمين فى وقتهم ضد علماء المسلمين الذين
عمدوا لمطاعن المستشرقين المتعصبين بحجة أن البحث فى الأمور الدينية
ومناقشتها على هذا الوضع كفر والحاد، وكل ذلك بهدف القضاء على حرمة
البحث والرأى ..

ويتضافر مع هذا كله العمل على تأييد ما دس على الاسلام
يبرأ منه الاسلام، وعلى سيرة الرسول من خرافات لا يسوغ قبولها المقل..
وعلى تأييد الطاعنين على الاسلام والرسول .

هذا ما يراه هيكل، ويرى لزوماً عليه إزاء هذه الأهداف الخبيثة
أن يحاول كتابة السيرة النبوية بطريقة علمية حديثة، فى محاولة ترد على
أولئك الحاقدين حقدهم ..

والله اعلم
بما فى صدورهم
والله اعلم
بما فى صدورهم

يقول هيكل : " ٠٠ وشمرت بأن على واجها أقوم به في هذا الموضوع لانفساد الفاية التي ترمى هذه الخطة اليها ، والتي تضر الانسانية كلها ، ولا يقف ضررها عند الاسلام والشرق ٠٠ ولذلك فكرت في هذا وفكرت طويلا ، وهداني التفكير آخر الأمر الى دراسة حياة محمد صاحب الرسالة الاسلامية ، وهدف^(١) مطاعن المسيحية من ناحية ، وجود الجامدين المسلمين من ناحية أخرى ، على أن تكون دراسة علمية على الطريقة الغربية الحديثة ، خالصة لوجه الحق ، ولوجه الحق وحده " (٢) .

ب - الحالات التفسيرية :

قلنا سابقا : ان من بواعث الكتابة للميرة النبوية ، في العصر الحديث ظهور تلك الحركة التفسيرية ، التي استشرت في أوائل هذا القرن ، وتزيد القول السابق إيضاحا فنقول :

في نهاية العشرينيات وأوائل الثلاثينيات اتسع نشاط المبرشرين المسيحيين في مصر امتعاها مخيفا ، حتى تناولت الصحف أخبار هذا النشاط ، وقالت : ان الجامعة الامريكية بالقاهرة هي مصدر هذه الدعايات التفسيرية ، وان بها أركان الحرب التي تنظم هذه الدعايات ، وكان غيرها حقا هذا النشاط الذي أهداه المبرشرون ، والذي لم يسمع بمثله من عشرات السنين ، فقد امتد هذا النشاط من القاهرة الى بور سعيد ، وإلى غيرها من المدن والأقاليم .

(١) كذا في كتاب " حياة محمد " واللغة لا تساعد عليه ، والصواب : " واستهداف مطاعن " ، أو " بهدف نقض مطاعن " أو " والهدف الى مطاعن " ٠٠ د / سرحان .

(٢) المرجع السابق ص ١٨ .

وقد تحدثت الصحف عن وسائل الاغراء التى يلجأ اليها المبشرون
لحل السدج على اعتناق المسيحية ولتصير الأطفال الأبرياء من أبناء
المسلمين الفقراء .

وقد كان الدكتور هيكل من أشد المتحمسين لمقاومة هذا التهشير
اقتناعا منه أن هذه الحركة ، يقصد بها اضعاف ما فى النفوس من
ثقة بدين الدولة ، ولما تتطوى عليه من قصد سياسى ، هو اضعاف
ممنويات الشعب باضعاف عقيدته ، كما أنه يرى فى هذه الحركة مقاومة
لما يؤمن به من حرية الرأى ، فلغراء الناس بالوسائل المادية لحطيم على
تغيير مذهبهم أو رأيهم ، هو محاولة دنيئة ، ومحاورة دنيئة سائبا - لهذه الحجة ،
وهو استدلال للضعف الانسانى ، كاستدلال المرابى حاجة مدينه لبقضه
بالربا الفاحش ، كما أنه يرى فى التهشير - فضلا عن هذا - منافاة لقواعد
الخلق مادام يتم فى الظلام ، ولا يصارح القائم به الناس برأيه ، ليناقشوا
هذا الرأى ، وليتبينوا ما فيه من زيف أو نفاق .

وعن هذا النشاط التهشيرى يقول هيكل فى مذكراته :

" فى هذا الطور ظهر نشاط المبشرين بالمسيحية فجأة فسى
ثوب مخيف ، وقد تحدثت الصحف عن وسائل الاغراء ، التى يلجأ اليها
المبشرون لحل السدج على اعتناق المسيحية ، ولتصير الأطفال الأبرياء
من أبناء المسلمين ، وارتاع الناس لهذه الحملة التبشيرية أيما ارتعاع ،
وجعلوا ينظرون الى موقف الحكومة منها نظرة كلها عدم الرضا ، وتألفت
جمعية لمقاومة هذا التهشير ، كانت تجتمع فى دار الشبان المسلمين ، وكنت
من أعضائها ، كذلك الشيخ محمد مصطفى المرافى ، الذى كان شيخا
للأزهر فى سنة ١٩٢٨ ، وكان انضمامه لهذه الجمعية التى تقاوم التهشير
ما زادها قوة فى نظر الرأى العام ، وما دعا صدق (١) لحسب لهذا
(١) كذا وهو خطأ شائع بين الكتاب المعاصرين ، وصوابه : " صدقيا " =

الجو الجديد كل حساب ، وكان من أثر هذه الحركة التبشيرية وموقفها منها ، أن دفعنى التفكير فى مقاومتها بالطريقة المثلى التى يجب أن تقام بها ، ورأيت أن هذه الطريقة المثلى توجب على أن أبحث حياة صاحب الرسالة الاسلامية وبهائه بحثا علميا ، وأن أعرضه على الناس عرضا يشترك فى تقديره المسلم وغير المسلم " (١)

ج - تنقية السيرة النبوية مما شابهها :

لعل من الأشياء التى رعى بها المستشرقون والمتعصبون الاسلام ونبى الاسلام ما وجد فى كتب السيرة من اضافات تتصل بالنسب صلى الله عليه وسلم وحياته ، مما لا يصدق المقل ولا حاجة اليه فى ثبوت الرسالة ..

يقول هيكىل : " .. وما أضيف من ذلك قد اعتمد عليه المستشرقون واعتمد عليه الطاعنون على الاسلام ونبيه ، وعلى الأمم الاسلامية ، واتخذوه نُكَّاتِهِمْ فى مطاعنهم الشيرة لنفس كل منصف ، اعتمدوا عليه وعلى ما ابتدعوه من عندهم وما زعموا أنهم يكتفونه على الطريقة العلمية الحديثة " .. (٢)

وكان لا بد ازاء هذا كله من جبهة قوية تدحض مزاعم أولئك المتعصبين ، فقام بعض علماء المسلمين بهذه المهمة ، وكان على رأسهم الامام الشيخ محمد عبده ، وعلى الرغم مما بذله أولئك العلماء المسلمون من جهود فى هذا الصدد لم يفد بَذْلُهُمْ .. لأنهم لم يسلكوا فى ردودهم على مزاعم هؤلاء المتعصبين الطريقة العلمية

سواء بتشديد الياء على النسب أو تخفيفها على غيره د / سرحان .

(١) مذكرات فى السياسة المصرية ج ١ ص ٣٢٨ .

(٢) حياة محمد ص ١٥

التي زعم أولئك الكتاب والمؤرخون الأوربيون أنهم يملكونها ، لتكون لحجبتهم قوتها في وجه خصوصهم ، أذن لا بد من محاولة جديدة تعيد كتابة السيرة على منهج علمي حديث ، يصحح الكثير من الخرافات التي شاعت في الكثير من كتب السيرة ، وترد على المستشرقين والمتمصبين مزاعمهم وافترائهم . . . ذلك المنهج هو الذي يعتمد على العقل وحده في اثبات ما يمكن اثباته ونفى ما يراد نفيه . . .

هكذا رأى هيكل ، وأحسن - أراء هذا - أن من واجبه القيام بهذه المحاولة الجديدة التي تهدف الى دراسة السيرة دراسة علمية حديثة . . . وكان على هيكل - قبل أن يشرع في هذه المحاولة - أن يراجع ما كتب في السيرة النبوية قديما وحديثا بأقلام اسلامية وغير اسلامية ، حتى يستطيع أن يقف على ما في هذه الكتابة من آراء ومذاهب ، سواء أكانت جادة أو منحرفة . . .

يقول هيكل : " بدأت أراجع تاريخ محمد ، وأعيد النظر في سيرة ابن هشام وطبقات ابن سعد ومغازي الواقدي ، وعدت الى كتاب : سيرة أمير على " روح الاسلام " ثم حرصت على أن أقرأ ما كتب بعض المستشرقين فتلوت كتاب " ديرمينج " وكتاب " واشنطون إرفنج " ثم انتهزت فرصة وجودي في الأقصر في شتاء سنة ١٩٣٢ ، هذات أكتب . . . (١) .

ولكن الطريقة العلمية الحديثة التي عالج بها هيكل كتابة السيرة النبوية ، جعلته يخشى ما يقوم به أنصار الجود والمؤمنون بالخرافات من ضجة تفسد عليه ما يريد ، ومن هذه الزاوية أخذ ينشر ما كتبه عن " حياة محمد " فصولا في ملاحق السياسة وقدمها على أنها من تأليف

"أميل درمنجم" وترجمة وتعليق إميل ٠٠٠ ولكن ما لقيه من أقبال وتشجيع طائفة من شيوخ المعاهد ، جعله يفكر تفكيراً جدياً في تنفيذ ما اعتزم عليه من كتابة " حياة محمد " على الطريقة العلمية الحديثة ، كتابة مفصلة ، وجعله يفكر في أمثل الوسائل في تحيى السيرة تحيىاً علمياً ٠٠ فكان كتابه " حياة محمد " الذى نشر أول مرة عام ١٩٣٤ ، وأعيد طبعه بعد ذلك عدة مرات .

ٖٖ الفصل الثاني ٖٖ

٠٠٠ طريقة هيكل وساتها ٠٠٠

تعرّف بطريقة هيكل
ساتها

- ١ - التحليل والتعليق للأحداث والوقائع
- ٢ - التعليق على الأحداث
- ٣ - التحقيق والتحصن للوقائع والأحداث
- ٤ - الوصف والتصوير

تعريف بطريقة هيكل :

ان الناظر في كتاب " حياة محمد " لهيكل ، يرى أن الكاتب قد فاجأ القارئ في تلك البرهنة التي ظهر فيها هذا الكتاب ، بطريقة جديدة ، لم يألّفها القارئ منذ مدة طويلة ، ولا أعنى بالطريقة أساس الطريقة . . فأساسها موجود في كتب السيرة القديمة السهذه ، أمثال : ابن هشام ، وابن سعد ، وابن جرير الطبري وغيرهم . . وانما أعنى بالطريقة طريقة المعالجة .

وطريقة معالجة هيكل السيرة النبوية فيها جدّة وفيها ابتكار ، لم يكونا مألوفين في الكتابات التي سبقت كتابه هيكل في العصر الحديث .

ذلك أن الكتابة في السيرة النبوية — منذ مطلع هذا العصر الى أن جاء كتاب " حياة محمد " — كانت تلك الطريقة التقليدية ، تلك الطريقة التي تعتمد على سرد الحوادث والوقائع التاريخية مجردة من التحليل والتعليل والشرح والتفسير ، ومناقشة الروايات وتمحيص الأدلة ، وسجدة من وقوف الكاتب أمام الحدث التاريخي يستعطقه ، ويأله ، كما أنها مجردة من رؤية الكاتب الخاصة وتفسيره الشخصي للأحداث والوقائع وما ينتهي اليه بعد ذلك من رأى .

وكما كانت الطريقة التي كانت السيرة تكتب بها مجردة من كل ما تقدم ، كان الأسلوب الذي تكتب به السيرة مجردا من الصبغة الأدبية التي تضاف على الفكرة جاذبية ورقة^(١) ، ويستطيع القارئ أن يرى تلك الطريقة التقليدية واضحة في مثل كتابات الشيخ رفاعه الطهطاوي ، والشيخ محمد الخضري ، والشيخ رشيد رضا . . . في كتب " نهاية الإيجاز فسي سيرة ساكن الحجاز " و " نور اليقين في سيرة سيد المرسلين " و

هذا التعليق ظهر منه كثيرا من الملاحظات لغيره من الكتابات
السيرة الأدبية التي تضاف على الفكرة جاذبية ورقة
التي تضاف على الفكرة جاذبية ورقة

خلاصة السيرة المحمدية " وغيرها من الكتب التي تنحو
هذا النحو .

وظلت الكتابة في السيرة على ذلك النهج التقليدي حتى جاء
هيكल بكتابه هذا ، وفتح به لونا جديدا في مجال الكتابات الاسلامية ،
أطلق عليه من بعد اسم " تأديب التاريخ " .

وإذا كانت الطريقة التقليدية على النحو الذي ذكرنا ، فإن طريقة
هيكل التي عالج بها السيرة جاءت مخالفة تماما لتلك الطريقة السابقة
في المعالجة والأسلوب ، فلم يكن هيكل يمتحن بسرد الحوادث والوقائع
فقط ، كما كان سابقوه ، بل كان يستعرض السيرة ، ويقف أمام الحوادث
والوقائع شارحا ومحللا ، كما يقف أمام النص والدليل يوثقه ويحققه
ويمحصه ، إن كان يحتاج الى توثيق وتحقيق وتحصيل . . كما أنه كان يقف
أمام النصوص موازنا بينها ان تعددت ، ويتناقض الروايات ان اختلفت ،
ويختار الراجح منها ويرفض المرجوح . . ولا يكفى بذلك ، بل يضيف
الى ذلك كله فهم الخاص وزرئته الخاصة ، وقد يخرج من خلال هذه
الرؤية بتفسير جديد ، يدلل عليه ، ويمسك له الحجج والبراهين .

هذا من ناحية طريقة هيكل في معالجة السيرة ، أما من ناحية
الأسلوب فلم يكن هيكل يعرض السيرة ، كما عرضها سابقوه في أسلوب
سردى تاريخي جاف ، بل كان يعرض ما يعرض من أحداث ووقائع نفس
أسلوب أدبي جميل ، بما يفيض من ذات نفسه على هذه الأحداث وتلك
الوقائع ، من عواطف جياشة ، وخيال مهدع ، وتصوير جميل .

وهيكل بطريقة معالجه السيرة على النهج الذي ذكرنا ، وأسلمه
الذي كتب به هذه السيرة ذو منهج متكامل ، يجمع بين التحليل والتحقيق والتعليق
والتصوير . . . هذا المنهج الذي أطلق عليه هيكل " الطريقة العلمية

الحديثه .

يقول هيكل : " لعلى أكون أدنى الى الحق اذا ذكرت أنسى بدأت هذا البحث فى العربية على الطريقة العلمية الحديثه " (١)

ويشرح هيكل أساس طريقته هذه فيقول : " وقد تأخذ القارئ الدهشة اذا ذكر ما بين دعوة محمد والطريقة العلمية الحديثه من شبه قوى ، فهذه الطريقة العلمية تقتضيك اذا أردت بحثاً أن تحو من نفسك كل رأى وكل عقيدة سابقة لك فى هذا البحث ، وأن تبدأ بالملاحظة والتجربة ، ثم بالموازنة والترتيب ، ثم بالاستسباط القائم على هذه المقدمات العلمية ، فاذا وصلت الى نتيجة من ذلك كانت نتيجة علمية خاضعة بطبيعة الحال للبحث والتحقيق ، ولكنها تظل علمية ما لم يثبت البحث العلمى تسرب الخطأ الى ناحية من نواحيها ، وهذه الطريقة العلمية هى أسى ما وصلت اليه الانسانية فى سبيل تحرير الفكر ، وها هى ذى مع ذلك طريقة محمد وأساس دعوت " (٢)

وطريقة هيكل هذه جديدة بالنسبة للحقيقة التى ظهرت فيها ، ولكنها ليست جديدة فى تاريخ الدراسات الاسلامية العربية ، فقد اتبعها أسلافنا من علماء الاسلام ..

يقول الشيخ محمد مصطفى المراغى فى تقديمه لكتاب " حياة محمد " :

" أما أن هذه الطريقة طريقة القرآن ، فذلك حق لا ريب فيه ، فقد جعل العقل حكماً والبرهان أساس العلم ، وعاب التقليد وذم المتلدين ،

(١) حياة محمد ص ٢٢ .

(٢) حياة محمد ص ١١٢ ، ١١٣ .

وأنب من يتبع الظن ، وقال : " ان الظن لا يفنى من الحق شيئا " . .
 وأما أن هذه الطريقة حديثة فهذا ما يمتدح عنه ، وقد سائر الدكتور
 غيره من العلماء في هذا ، . . . ذلك لأنها طريقة القرآن كما اعترف
 هو ، ولأنها طريقة علماء سلف المسلمين . . . وقد جرى الامام الفزالي
 على الطريقة نفسها ، وقد قرر في أحد كتبه أنه جرد نفسه من جميع
 الآراء ، ثم فكر وقدر ، ورتب ووازن ، وقرب واعد ، وعرض الأدلة وهذبها
 وحللها ، ثم اهتدى بعد ذلك كله الى أن الاسلام حق ، والى ما اهتدى
 اليه من الآراء " . (١)

وقد سبق أن ألمحنا آنفا الى طريقة هيكل ، وانتهينا الى أن
 طريقته قد جمعت بين التحليل والتعليق والتحقيق والتصور ، وبناحن أولاً بصدد
 الحديث عن هذه السمات التي احتوتها طريقته في معالجة السيرة .

سماتها

١ - التحليل والتعليق للأحداث والوقائع :

ولقد عني هيكل في هذا الجانب بإبراز الأحداث التاريخية
 والوقوف أمامها طويلاً بالشرح والتحليل والتفسير ، سائراً أغوارها
 ومفلساً نتائجها وفيايتها ، مخاطباً بذلك العقل والوجدان .

والمتعصف للكتاب يجد فيه الكثير من وقفات هيكل التحليلية
 للأحداث والوقائع وفلسفته لها ، ويكفي هنا أن نشير الى بعض

هذه الوقائع - أمثلة ونماذج - محللين القارىء الى صفحات الكتاب
ليقف بنفسه على ملامح هذه المسألة .

فى صفحة ٢٤٧ ، ٢٤٨ ، يحدثنا هيكل عن واقعة اجلاء يهود
بنى قينقاع بعد غدرهم ونكسهم المصد ، وحرص الرسول على اجلائهم عن
المدينة ، وعدم ابقائهم فيها ، وأمام هذه الواقعة وقف هيكل يشرح ويحلل
ويحلل لماذا كان الرسول صلى الله عليه وسلم حريصا على اجلائهم عن
المدينة ، وينتهى من تحليله هذا الى أن الرسول كان يهدف من
وراء ذلك الى هدف سياسى غاية فى الحكمة . بعد النظر : أن تخلو
المدينة من العناصر غير المسلمة حتى يحفظ للمدينة وحدتها السياسية .

يقول هيكل : " خلت المدينة من اليهود بعد جلاء بنى قينقاع
عنها ، فقد كان سائر اليهود المنتسبين للمدينة بعيدا عنها بخيبر
ورادى القرى ، ولهذا المنتهجة كان يقصد محمد ^(١) من اجلائهم ، وهذا
تصرف سياسى آية فى الدلالة على الحكمة بعد النظر ، وهو مقدمة لسم
يكن منها بدءا للآثار السياسية التى ترتبت بعد ذلك على خطة محمد ،
فلم يمس شئ آخر على وحدة مدينة من المدن من تنازع الطوائف فيها ،
واذا كان نضال هذه الطوائف لا بد منه ، فهو لا بد منه الى تغلب
طائفة على سائرها غلبة تنتهى الى سيادتها .

وقد تحدث بعض المؤرخين منتقدا تصرف المسلمين ازاء اليهود
زاعما أن حكاية المسلمة التى ذهبت الى الصائغ كان من اليسير تسويتها
مادام قد قتل من المسلمين رجل ومن اليهود رجل .

(١) كما يكتب أكثر الناس ، والأولى : " كان محمد يقصد " . فسرستان .

وقد نستطيع دفع هذا القول ، بأن مقتل اليهودى والمسلم لـم
يمح ما لحق المسلمين من اهانة فى شخص المرأة التى عمت اليهودى بها ،
وأن مثل هذه المسألة عند العرب أكثر منها عند غيرهم من الأمم ، جديرة
أن تثار لها الآثار وأن يقيم من أجلها القتال بين قبيلتين أو طائفتين
سنوات متتابعة ، وفى تاريخ العرب من ذلك أمثال يحرقها المظلمون
على هذا التاريخ ، ولكن هنالك الى جانب هذا الاعتبار اعتبارا^(١) آخر
أقوى منه ، فحادث المرأة كان من حصار بنى قينقاع واجلائهم عن المدينة
(مثل) ما كان مقتل ولّى عهد النمسا سيرواجينو سنة ١٩١٤ من الحرب
الكبرى التى اشتركت فيها أوروبا^(٢) جميعا ، هو انما كان^(٣) الشرارة التى
ألهمت ما تَأَجَّجُ به نفوس المسلمين واليهود جميعا ٠٠ (كان) لهما
أدى الى انفجارها والى كل ما يحدث الانفجار من آثار ، والحسب أن
وجود اليهود والمشرّكين والمنافقين الى جانب المسلمين بالمدينة ، وما
أدرك ذلك من أسباب الفرقة ، قد جعل المدينة من الناحية السياسية
على بركان لا مفر له من أن يتفجر ، وقد كان حصار بنى قينقاع وجلائهم
عن المدينة أول مظاهر هذا الانفجار^(٤) .

وفى صفحات : ٣٥١ ، ٣٥٢ ، ٣٥٣ ، ٣٥٤ - يحدثنا
هيكل عن إيفاء الرسول صلى الله عليه وسلم رسله الى الملوك والأمراء بكتب
يدعوهم فيها الى الاسلام ، ويبين هيكل بالشرح والتطليل والتعليل حكمة
الرسول ومحمد نظره فى ارسال هؤلاء الرسل ، مع أن التفكير السائد فى
ذلك الوقت كان يخشى مخبة هذا الارسال ، نظرا لمكانة دولتى الفرس

(١) كلمة " اعتبار " معناها الاتعاض ، والأولى : وجهها أو سببها أو دواعيها .

(٢) كذا يكتبونها ، والصواب : " أوربة " بتاء التأنث ، د / سرحان .

(٣) أسلوب فيه ركة وثقل ، والأولى " فكان الشرارة ٠٠ الخ " د / سرحان .

(٤) حياة محمد ص ٢٤٧ ، ٢٤٨ .

والروم ، التى قد تعرض المرب جميعا لنير كلتا الدولتين - وهى حكمة قائمة على أساس نظرة بعيدة المدى ، وعلى أساس رؤية نافذة على مستقبل الاسلام على أرض الدولتين كلتيهما .

وفيلسوف هيكل تلك النظرة البعيدة وهذه الرؤية النافذة ، حين يبين أن الرسول كان يعرف الأساس الذى قامت عليه كلتا الدولتين بحكم تحليله لكيانهما ، وهو كيان قائم على أساس مادى لا روح فيه ولا حياة ، وخلق بدولتين تقومان على هذا الكيان أن تضمحلا وتزولا ، اذن فالرسول كان يعلم أن نهاية الدولتين قريبة ، وأنه اذ يرسل رسله الى هؤلاء الملوك والأمراء ... يرى أن الاسلام سوف ينتشر فى وقت قريب فى بلاد الفرس والروم ، لأن الدين الذى أتى به فيه جانب روحى افتقده الكيانان اللذان قامت عليهما الدولتان ..

يقول هيكل شارحا صطلا وفلسفا : " ويسير عليك اذ تذكر مكانة الدولتين أن تقدر ما يبعثه اسمها من الرهبة الى النفوس ، ومن الهيبة الى القلوب ، حتى لا تفكر دولة فى التمرد لهما ، ولا يدور بخلد أحد أن يفكر فى غير خبطة ودهما ، واذا كان ذلك شأن دول العالم المعروفة يومئذ جميعا ، فقد كان أجدر ببلاد العرب أن يكون ذلك شأنها ، وقد كانت اليمن والمراق تحت نفوذ الفرس ، وكانت مصر والشام تحت نفوذ هرقل ، فكان الحجاز وسائر شبه الجزيرة (المهيمنة) محصورا فى دائرة نفوذ " الامبراطوريتين " ، وكانت حياة المرب وقفا على التجارة مع اليمن ومع الشام ، فكانت بذلك محتاجة أشد الحاجة الى مصانعة كسرى وهرقل جميعا ، حتى لا يفسدا بسلطانهما عليها تجارتها .

ثم ان المرب لم تكون تريد على قبال تشتد الخصومة بينها حينما تشهدا حيناً آخر ، ولا تهبط بعضها ببعض رابطة تجعل منها وحدة

سياسية تستطيع أن تفكر في مواجهة نفوذ الدولتين العظميتين ، ولذلك كان عجيبا أن يفكر محمد يوشد في أن يرسل رسله الى الملوك العظميين ، والى غسان واليمن ومصر والحشة ، يدعوهم الى دينه دون خشية مما قد يترتب على عمله هذا من نتائج ربما تجر على بلاد العرب كلها الخضوع لنير فارس أو بيزنطة ، لكن محمدا لم يتردد في دعوة هؤلاء الملوك جميعا الى دين الحق ..

أليس ارسال محمد هؤلاء الرسل عجا يثير الدهشة ! أو ليس أشد اشارة للدهشة ألا تضي ثلاثون عاما بعد ذلك ، حتى اذا هذه البلاد ^(١) التي أرسل محمد اليها رسله قد فتحها المسلمون وقد اعتنق أكثرها الاسلام ؟ لكن هذه الدهشة ما تلبث أن تتلاشى حين نذكر أن الامبراطوريتين العظميتين - اللتين كانتا تزعمان تحضير عالم ذلك مصر ، وكانت حضارتهما هي الغالبة على العالم كله - انما كانتا تتنازعان الغلب المادى ، على حين كانت القوة الروحية فيهما جميعا قد انحطت واضمحلت ، فقد كانت فارس مقسمة بين الوثنية والمجوسية ، وكانت مسيحية بيزنطة قد اضطربت بين مختلف المذاهب والفرق ، فلم تظلم عقيدة سليمة تحرك النفوس ، وتقوى القلوب ، بل انظمت طقوسا يهيم بها رجال الدين على عقول السواد لحكمه واستفادله .

أما الدعوة الجديدة التي يدعو محمد اليها فكانت روحية صرفة ، وكانت ترتفع بالانسان الى أعلى مراتب الانسان وحيثما التقت المادة والروح ، وحيثما انتطح هم الحاضر بأمل الخلود ، انهزمت المادة وعنا وجهه الحاضر .. ^(٢)

(١) واضح أن هذا التمهيد ركبك ان لم يكن فاسدا ، والصواب : حتى

كانت هذه البلاد ٠٠٠ الخ ، د / سرحان .

(٢) حياة محمد ص ٣٥١ - ٣٥٤ .

وللقارئ أن يتصفح - بالاضافة الى ما أوردنا من أمثلة - صفحات : ١٣٨ الى ١٤٥ ، ليرى كيف تناول هيكل بالشرح والتحليل والتعليل الأسباب التي منعت قريشا من متابعة الرسول . . . ويتصفح - أيضا - صفحات : ٤٤٥ الى ٤٥٠ ، ليرى - أيضا - كيف تناول هيكل بالشرح والتحليل والتعليل أسباب نزول سورة براءة . .

وما أوردنا من أمثلة ، وما ألقنا القارئ الى مثلها في الكتاب ، إنما هو على سهيل المثال وليس الحصر ، ويستطيع القارئ أن يلمح - ببسر - خصوصية التحليل في غالب صفحات الكتاب .

٢ - التعليل على الأحداث والوقائع :

وكما قام هيكل بشرح الأحداث وتحليلها وتعليل أسبابها وكشف نتائجها - كما سبق أن أوضحنا - كان - أحيانا - يكتفى بحد استعراض الأحداث والوقائع ، بالتعليل عليها ومحاولة القاء الضوء حواليتها .

ففي صفحتي : ١٠٥ ، ١٠٦ يعلق الكاتب على دعوة محمد قومه الى عبادة الله وحده لا شريك له ، دون اتخاذ وسطاء أو أنداد أو شركاء . . يعلق الكاتب على دعوة محمد هذه ، ويراهم دعوة الى الحرية ، لأنها دعوة تنتزع من دعوا اليها من برائن التقليد الأعمى والمهودية المقنوعة التي وجدوا عليها الآباء والأجداد ؟ . . تنتزعهم من داء التقليد وذل المبودية الى عبادة اله واحد ، ليس بينه وبين من يمهّدونه وسطاء أو شركاء . . وطك هي الحرية بأسمى معانيها . . فلا وسطاء ولا شركاء يحولون بين الاله الواحد وبين من يمهّدونه . .

يقول هيكل - بعد استعراضه دعوة الرسول الناس الى عبادة الله وحده ، ونبيذ ما يعبده من دون الله - : " وأى شيء خير مما يدعو اليه محمد ؟ إ أليس هو يدعو الى الحرية إ الى الحرية المطلقة التى لا حدود لها إإ الى الحرية العزيزة على نفس المصير اعزازة حياته . نعم إ أليس يطلق الناس من التقيد بأية عبادة غير عبادة الله وحده إ أليس يحطم كل ما بينهم وبينه من أغلال : لا هبل ولا السلا ولا العزى ، ولا نار المجوس ولا شمس المصريين ولا نجوم عباد النجوم ولا الحواريون ولا أحد من الانس أو من الملائكة أو من الجان يَحْجُبُ بين الله والانسان ، وأمام الله ، أمامه وحده لا شريك له يُسأل الانسان عما قدم من خير أو شر ، وأعمال الانسان هى وحدها شفيمة ، وضميره هو الذى يزن أعماله ، وهو وحده صاحب السلطان عليه ليتقدم يوم تُجْزَى كل نفس بما كَسَبَتْ ."

أية حرية أوسع مدى من هذه الحرية التى يدعو محمد اليها ؟ وهل يدعو أبو لهب أو أبو سفيان الى شيء من مثلها ؟ أم هم يدعون الناس لتظل نفوسهم فى رق وعبودية بما تكذب عليها من خرافات جهت عنها نور الحق وضياء الهدى ؟ (١)

والناظر فى كتاب هيكل يرى كثيرا من مثل هذه التعليقات التى تعقب استعراض الأحداث أو الوقائع استعراضا يلقى الضوء عليها ، كما أشرنا آنفا . . .

٣ - التحقيق والتحصيل للوقائع والأحداث :

وكما رأينا هيكل واقفا أمام الأحداث والوقائع شارحا ومطلا

ومحلا ومفسرا ، وكما رأيناه محلقا على الأحداث والوقائع ، ملقيا الضوء عليها - كما مر في الجانب التحليلي - نجد هيكلا لا يكفى بذلك بل كثيرا ما يقف أمام الأحداث والوقائع محققا ومحصا ، وذلك اذا كان الحدث التاريخي أو الواقعة التاريخية يحتاجان الى تحقيق وتحصيل ..

وهو في ذلك يستعرض أولا الحدث التاريخي ، ثم يتناول جوانبه المختلفة من ايراد للأدلة والنصوص التي تؤيده ، ثم يعقب على ذلك بمناقشة لتلك الأدلة والنصوص ، وما يترتب على تلك المناقشة من تأييدها أو تضييفها .

وقد يستلزم ذلك ايرادا لروايات ونصوص مؤيدة لتلك الأدلة أو مضمطة لها .. ثم ما ينتهي اليه الأمر بعد ذلك من اختيار للدليل القوى المدعوم بالروايات القوية ، وفي المرور بتلك المراحل وصول الى تحقيق الحدث أو الواقعة ووضوح كل منهما في مكانه الصحيح من مسار الأحداث التاريخية ..

ولتوضيح الجانب التحقيقي في كتاب هيكلي ، يكفي أن نشير الى بعض الأحداث والوقائع التي حققها وحصلها وانتهى فيها الى رأى وموقف - أيا كان هذا الرأى وذلك الموقف - خاصة تلك الأحداث والوقائع التي كثر حولها اللغط والجدل ، وكانت مثار طعن وموضع افتراء من جانب المستشرقين والمتشككين .

وها هي ذى بعض الأحداث والوقائع التي رأينا الإشارة اليها من خلال استعراضنا للكتاب مثل : " قصة زواج الرسول بزَيْنَب بنت جحش " (ص ٢٨٣ - ٢٩٤) ، و " الفزوات الأولى والفرض منها " ، الفصل الثاني عشر " ، وقصة " الفرنج " .

ولملمه من المفيد أن نختار أحد هذه الأحداث - ولتكن قصة " الفرانيق " - لتتناولها بالشرح والتحليل ولتقف من خلالها على طريقة هيكل فى تحقيق الأحداث واستعراض الأدلة، ومناقشة الروايات .

فى الفصل السادس من الكتاب يتناول الكاتب قصة " الفرانيق " بالشرح والتحليل ويمرض لآراء التى وردت فى شأنها ثم يمرض للأدلة ويناقشها، ثم يضمها فى موضعها الصحيح ، وينتهى من ذلك الى الرأى الحق فى هذه القصة ، كما يتناول الكاتب بالشرح والتحليل الحدث التاريخى الذى صاحب هذه القصة ، وهو عودة مهاجرى الحبشة الى مكة ، ويبرهن على أن قصة الفرانيق لم تكن سببا لعودتهم - كما زعم الكيرون - ثم هو لا يقف عند نفى سببنة حادثة الفرانيق لعودة المهاجرين ، بل يشرح الأسباب الحقيقية التى أدت الى عودتهم . . كل ذلك بأسلوب علمى منطقي يعنى بتحليل الأحداث وعرضها عرضا علميا مدعوما بالأدلة والبراهين .

ويتخذ الكاتب من الحديث عن عودة مهاجرى الحبشة الى مكة مدخلا الى قصة الفرانيق ، فبعد استعراضه لحدث عودة مهاجرى الحبشة الى مكة وتحليله لهذا الحدث التاريخى ، وجريه وراء الأسباب الستة أدت الى عودتهم - يأتى الحديث عن قصة الفرانيق ، لأنها - كما يزعم الكيرون - من أسباب عودة المهاجرين الى مكة ، وكان لا بد اتصالا للحديث واستكمالا لجوانبه - من أن يستعرض قصة الفرانيق هذه ويظهرها على طريقته التى أشرنا اليها ليضعها فى موضعها الصحيح ، من أحداث السيرة النبوية . .

يقول هيكل : " . . أى داع حفز مسلمى الحبشة الى العودة بعد ثلاثة أشهر من مقامهم ؟ . . . هنا يرد حديث الفرانيق . . (١) " .

ويأخذ الكاتب في عرض هذه القصة وتحليلها وتحقيقها فيقول : " وحدث
الفرانيق : أن محمدا لما رأى من تجنب قريش إياه وأذاهم أصحابه
تنى ، فقال : ليت لا ينزل عليّ شيء يُنْفَرُهم عني ، وقارب قومه ، ودنا
منهم ، ودنوا منه ، فجلس يوما في ناد من تلك الأندية
حول الكعبة ، فقرأ عليهم سورة " النجم " حتى بلغ قوله تعالى :
أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْمُزَى . وَنَاءَ الثَّالِثَةِ الْأُخْرَى (١) . فقرأ بعد ذلك :
تلك الفرانيق العلاء ، وإن شفاعتهن لترتجى . ثم مضى وقرأ السورة
كلها وسجد في آخرها ، وسجد القيم جميعا لم يتخلف منهم أحدا ، وأعلنت
قريش رضاها عما تلا النبي ، وقالوا : قد عرفنا أن الله يحيى ويميت ويخلق
ويرزق ، ولكن آلهتنا هذه تشفع لنا عنده ، أما إذ جعلت لها نصيبا
فنحن ممك . وهذا زال وجه الخلاف بينه وبينهم وفشا أمر ذلك ففى
الناس حتى بلغ أرض الحشمة ، فقال المسلمون بها : عاشرتنا أحب النساء ،
وخرجوا راجعين ، حتى إذا كانوا دون مكة بساعة من نهار لُقُوا رُكْبًا
من كِبَانَةِ فِصَالِهِمْ ، فقالوا : ذكر آلهتهم بخير ، فتابعه الملاء ثم ارتد
عنها ، فماد لستم آلهتهم ، وعادوا له بالشر ، واثَّثَرُ المسلمون ما
يصنمون ، فلم يطيقوا عن لقاء أهلهم صبرا فدخلوا مكة " (٢)

ثم يروى هيكلا ما ذكرته الروايات من ارتداد محمد عن ذكر آلهة
قريش بالخير ، وهو أنه كبر عليه قول قريش : " أما إذ جعلت لآلهتنا
نصيبا فنحن ممك " وأنه صلى الله عليه وسلم جلس في بيته حتى إذا أمسى
أتاه جبريل وعرض النبي عليه سورة " النجم " ، فقال جبريل : أَوْحِثُكَ
بِهَاتَيْنِ الْكَلِمَتَيْنِ ؟ مشيرا الى : " تلك الفرانيق العلاء . وإن شفاعتهن

(١) الآيتان : ١٩ ، ٢٠ من سورة النجم .

(٢) حياة محمد ص ١٢٣ ، ١٢٤ .

لترتجى " . قال محمد : قلت على الله ما لم يقل ، ثم أوحى اليه :
 " وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ وَإِذَا
 لَا تَخَذُوكَ خَلِيلًا ^(١) الخ " .

ويعلق هيكلى على حديث " الفرانيق " هذا بقوله : " . . . وهو
 حديث ظاهر التهافت ، ينقصه قليل من التحميم ، وهو يخذ حديث ينقض
 ما لكل نبي من العصمة فى تهليخ رسالات ربه ، فمن عجب أن يأخذ
 به بعض كتاب السيرة وبعض المفسرين المسلمين ، ولذلك لم يتردد ابن
 اسحاق حين سئل عنه فى أن قال : انه من وضع الزنادقة " ^(٢)

ومعد أن أورد لنا هيكل حديث " الفرانيق " ، شرع فى ايراد
 أدلة القائلين بهذا الحديث ، ثم شرع فى مناقشتها مناقشة علمية . .

يذكر هيكل أن هؤلاء القائلين قد احتجوا بالآيات الكريمة :
 " وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ " . وهذه الآيات : " وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ
 رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنسُجُ اللَّهُ مَا يُلْقِي
 الشَّيْطَانُ " ^(٣)

كما يذكر هيكل حجة لبعض هؤلاء القائلين وهو " السير : وسلم
 موبر " — يراها قاطعة بصفة حديث الفرانيق ، وهى عودة مهاجرى
 الحشة الى مكة ، ولم يك قد مضى على هجرتهم اليها غير ثلاثة أشهر
 أجارهم النجاشى أثناءها وأحسن جوارهم .

(١) الآية : ٧٣ من سورة الاسراء .

(٢) حياة محمد ص ١٢٤ ، ١٢٥ .

(٣) الآية : ٥٢ من سورة الحج .

وهو يرى أنه لو لم يكن قد تراسى اليهم خير الصلح بين محمد وقريش، لما دفعهم دافع الى العودة، حرصا على الاتصال بأهلهم وعشائره، وان هذا الصلح لن يكون الا اذا سمى محمد اليه، لأنه الأقل نفرا والأضعف قوة ..

ومعد أن يذكر هيكل حجج القائلين بهذا الحديث - يشرح في تطيلها ومناقشتها ، ومناقش هيكل هذه الحجج ، ويبدأ بمناقشة حجة سير : ولهم موبر ، ودفعها، بذكر الأسباب الحقيقية التي دفعت هؤلاء المهاجرين نحو العودة الى مكة ، ويرجعها الى سببين : أولهما : اسلام عمر الذي تم بعد هجرتهم بظليل، وما حصل بعده من هدنة بين المسلمين وقريش ، بلغ خبرنا مهاجري الحبشة ودعاهم الى التفكير فى المود الى مكة . ثانيهما : تلك الثورة التي شبت فى الحبشة على النجاشي ، والتي كان من أسبابها عطفه على المسلمين ، فخير لهم أن يدعوا الفتنة وراء ظهورهم ، لا سيما أنهم ترامت اليهم أخبار الهدنة بين محمد وقريش ، هدنة أنجت المسلمين مما كان يصيبهم من الأذى وينتهى من ذلك الى أنه ليس الصلح الذى يشير اليه المستشرق : موبر ، هو اذن الذى دعا المسلمين الى العودة من بلاد الحبشة ، فتأييد حديث الفرانيق بحجة الصلح تأييد اذن غير ناهض .

ثم يتناول بعد ذلك الآيات التي احتج بها المحتجون من كتاب السير والمفسرين ، فيقول : " أما احتجاج المحتجين من كتاب السير والمفسرين بالآيات : " وان كادوا ليفتنوك .. " والآيات : " وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبى الا اذا تنى ألقى الشيطان فى أنيته .. " فهو احتجاج أشد تهاوتا من قصة السير موبر ، ويكفى أن نذكر فى الآيات الأولى قوله تعالى : " ولولا أن ثبتناك لقد كدت تركن اليهم شيئا قليلا " لئرى أنه ان كان الشيطان قد ألقى فى أمانة الرسول حتى

لقد كاد يركن اليهم شيئا قليلا ، فقد ثبته الله فلم يفعل ، ولو أنه فعل لأذاخه ضعف الحياة وضعف الممات ، واذن فالاحتجاج بهذه الآيات احتجاج مقطوع ، فقصه الفرانيق تجرى بأن محمدا ركن السي قريش بالفعل ، وأن قريشا فتنته بالفعل ، فقال على الله ما لم يقل ، والآيات هنا أن الله ثبته فلم يفعل .

فاذا ذكرنا ذلك أن كتب التفسير وأسباب النزول جعلت لهذه الآيات موضعا غير مسألة الفرانيق ، رأينا أن الاحتجاج بها في مسألة تتنافى مع عصمة الرسل في تبليغ رسالاتهم ، وتتنافى مع تاريخ محمد كله ، احتجاج متهاافت ، بل احتجاج سقيم .

أما الآيات : " وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبي .. " فلا صلة لها بحديث الفرانيق ألبيته ، فضلا عن ذكرها أن الله ينسخ ما يلقي الشيطان ، ويجعله فتنة للذين في قلوبهم مرض .. (١)

ومعد أن ناقش هيك حجاج القائلين بحديث الفرانيق نقاشا انتهى منه الى رفضها ودفعها - انتقل منه الى تحميم قصة الفرانيق تحميها علميا لا يدع مجالا لأي ناظر اليها الا أن يؤمن بعدم صحتها ، وذلك بمعرض العديد من الأدلة المتوفرة التي تدل على تهافت القصة وعلى أنها موضوعة ..

يقول هيك : " وأول ما يدل على ذلك تعدد الروايات فيها ، فقد رويت كما سبق القول على أنها : " تلك الفرانيق المصلا . " وان شفاعتهن لترتجى . " ورواها بعضهم : " الفرانقة الملا . " ان شفاعتهن

(١) حياة محمد ص ١٢٧ ، ١٢٨ .

ترتجى " وروى آخرون : ان شفاعتهن ترتجى . دون ذكر الفرانقة أو الفرانيق . وفى رواية رابعة : " وانها لهن الفرانقة العلا " وفى رواية خامسة : " وانهن لهن الفرانيق العلا . وان شفاعتهن لهن التى ترتجى .

" وهذا التعمد فى الروايات يدل على أن الحديث موضوع ، وأنه من وضع الزنادقة ، كما قال ابن اسحاق ، وأن الغرض منه التشكيك فى صدق تليخ محمد رسالات . به .

ودليل آخر أقوى وأقطع وهو سياق سورة النجم وعدم احتماله لسألة الفرانيق ، فالسياق يجرى بقوله تعالى : " لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى . أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْمَؤْزَى . وَنَافَةَ الثَّالِثَةَ الْآخَرَى . أَلَكُمُ الذَّكْرُ وَلَهُ الْأُنثَى . تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَى . إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءُ سَمَّيْتُهَا أَنْثَى وَأَبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمْ الْهُدَى " ^(١) وهذا السياق صريح فى أن اللات والمؤزى أسماء سماها المشركون هم وأبائهم ما أنزل الله بها من سلطان ، فكيف يحتل أن يجرى السياق بها يأتى : " أفرايتم اللات والمؤزى . ونافاة الثالثة الأخرى . تلك الفرانيق العلا . ان شفاعتهن لترتجى . ألكم الذكر وله الأنثى . تلك اذن قسمة ضيزى . ان هى الا أسماء سميتوها أنتم وأباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان " .

ان فى هذا السياق من الفساد ومن الاضطراب والتناقض ، ومن مدح اللات والمؤزى ونافاة ، ومنها فى أربع آيات متعاقبة ما لا يعلم به عقل ، ولا يقول به انسان ، وما لا تنقى معه شبهة فى أن حديث الفرانيق مفتري وضعه الزنادقة لغاياتهم ، وصدقه من يسيفون كل غريب ، ومن تغبل عقولهم ما لا يسيخ العقل " . ^(٢)

(١) الآيات : ١٨ - ٢٣ من سورة النجم .

(٢) حياة محمد ص ١٢٨ ، ١٢٩ .

ثم يسوق هيكل حجة لقوية للامام محمد عبده ، يقول هيكل :
 « وحجة أخرى ساقها المغفور له الأستاذ الشيخ محمد عبده ، حين كتب
 يفند قصة الفرانيق ، تلك أن وصف العزب لآلهتهم بأنها الفرانيق لستم
 يرد في نظمهم ولا في خطبهم ، ولم ينقل عن أحد أن ذلك الوصف كان
 جاريا على ألسنتهم ، وإنما ورد الْقَرْنُوقُ وَالْفِرْنِيقُ على أنها لطائر مائى
 أسود أو أبيض ، وَالْفِرْنِيقُ الشَّابُّ الأَبْيَضُ الجميل ، ولا شئ من ذلك
 يلائم معنى الالهة أو صفها عند العرب » . (١)

ثم يورد هيكل حجة قاطعة الدلالة على استحالة قصة الفرانيق ،
 استشفها من حياة محمد نفسه ، وهى أن حياة الرسول كلها كانت صدقا
 فى صدق ، فلم يجرب عليه كذب طيلة حياته حتى سعى بالأميين ، وإذا كانت
 أخلاقه وصفاته تنمعه من الكذب على الناس فكيف يكذب على الله ويقول عليه
 ما لم يقل ؟ .

يقول هيكل : " فالرجل الذى عرف بالصدق فى صلاته بالناس
 منذ نموه أظفاره الى كهولته ، كيف يصدقُ انسانٌ أنه يقول على ربه
 ما لم يقل ويخشى الناس والله أحق أن يخشاه .

هذا أمر مستحيل يدرك استحالة الذين درسوا هذه النفوس القوية
 المتأززة التى تصرف الصلابة فى الحق ، ولا تداجى فيه لأى سبب ، وكيف
 تَرَى يقول محمد : لو وضعت قرين الشمس فى يمينه والقمر فى شماله على
 أن يترك هذا الأمر أو يموت دونه ما فعل ، ثم يقول على الله ما لستم
 يَؤَيُّ اليه ، ويقول له لينقض به أساس الدين الذى بعثه الله به هدى ومشرى
 للمالين !!

ومنى يرجع الى قريش بعد عشر سنوات أو نحوها
من بمشما^(١) ومعد أن احتل هو وأصحابه فى سبيل الرسالة من السوان
الأدى صنوف التضحية ما احتل^(٢) ! ! ! ، ومعد أن أعز الله الاسلام بحمزة وعمر ! !

ان القول بذلك حديث خرافة ، وأكذوبة مجوجة " (١)

ثم يذكر أن الذين اخترعوا هذه القصة شعروا بسهولة افتضاحها
فأرادوا سترها بقولهم : ان محمدا ما كاد يسمح كلام قريش ، اذ جعل
لآلهتهم نصيبا فى الشفاعة حتى كَبُرَ ذلك عليه وحتى رجع الى الله
تائها أول ما أمسى ببيتته وجاءه جبريل فيه .

لكن هذا الستر أحرى بأن يفضحها .

يقول هيكل : " فسادام الأمر قد كبر على محمد منذ سجع مقالة
قريش ، فما كان أحرأه أن يراجع الوحي لساعته وما كان أحرأه أن يُجَرى
الوحي الصواب على لسانه ! " (٢) .

ثم يذكر فى النهاية دليلا على بطلان هذه القصة وهو أن
الذين اخترعوا هذه القصة ونسبوها الى الرسول الكريم ، قد فاتهم أن ما
أَفْتَرَوْهُ على الرسول وأَدْعَوْهُ عليه يُعَدُّ افتراء فى لب الدعوة الاسلامية
وهو التوحيد .

يقول هيكل : " وأعجب ما فى جرأة هؤلاء المقترين أنهم عرضوا
للافتراء فى أم مسائل الاسلام جميعا : فى التوحيد ، فى المسألة السقي
بعث محمد لتبيينها للناس منذ اللحظة الأولى ، والتي لم يقبل فيها من منذ

(١) حياة محمد ص ١٢٩ ، ١٣٠ .

(٢) المصدر السابق ص ١٣٠ .

تلك اللحظة هوادة، ولا أماله عنها ما عرض عليه قريش أن يعطوه ما يشاء من المال أو يجعلوه ملكا عليهم ، وعرضوا ذلك عليه حين لم يكن قد اتهمه من أهل مكة إلا عدد يسير ، وما كان أذى قريش لأصحابه ليجمله يرجع عن دعوة أمره به أن يلفسها الناس... " (١)

ومن خلال قصة الفرانيق ، رأينا طريقة هيكل ومنهج في تحقيق الأحداث، وتحصيل الوقائع، ومناقشة الأدلة، وتحليل الحجج ، ورأينا طريقته في عرضه أدلته التي يسوقها تدليلا على صحة ما يذهب إليه ...

ففي هذه القصة يبدأ بشرحها، ثم يورد بعد ذلك حجج القائلين بها ، وبعد ذلك يتناول هذه الحجج بالمناقشة والتحليل، حجة اثر حجة مبينا بالمنطق القاطع والبرهان الساطع بطلانها وعدم صحتها ، ثم ينتقل بعد ذلك الى أدلته هو التي يراها قاطعة في التدليل على بطلان هذه القصة ..

وهيكل في الأدلة التي ساقها هو - تدليلا على تهافت هذه القصة ، بل على اختلاقها - يترقى من دليل الى دليل .

فهو - أولا - يدل على تهافت القصة بتمدد رواياتها مما يقوى أنها موضوعة .

ثم يسوق - ثانيا - دليلا أقوى من سابقه ، وهو أن سياق سورة " النجم " يأبى عقلا ومنطقا مسألة الفرانيق ، لما يترتب على ذلك من فساد السياق واضطرابه وتناقضه .

ثم يسوق - ثالثا - دليلا لفيها ، وهو أن كلمة الفرانيق لم ترد في كلام العرب ، وما ورد من هذه المادة ، وهو الفرنوق والفرنيق ،

لا شيء منه يلائم معنى الآلهة أو وصفها عند العرب .

ثم يسوق — رابعا — دليلا تاريخيا ، استقاه من تاريخ الرسول نفسه ، وهو صدقه وأمانته، وإذا كان صدق محمد وأمانته يمنعانه من الكذب على الناس ، فكيف يكذب على الله ؟ .

ثم يورد هيكل — خامسا — دليلا ، لعله في نظري ، أقوى الأدلة على اختلاق قصة الفرانيق وكذب مخترعيها ، وهو أن قصة الفرانيق لا يمكن أن تقع ، لأنها تتعارض مع الهدف الأصلي لرسالة الرسول ، وهو الدعوة إلى التوحيد . فلا يحقل أن يقول الرسول مثل هذا الكلام ، وهو — الذي جاء لينشر التوحيد بين العالمين —

وهكذا يترقى هيكل ، فينتقل من دليل إلى دليل . . بل ينسج بين هذه الأدلة ، فمن دليل على . . إلى دليل يمانى قرآني . . إلى دليل لفوى . . ثم إلى دليل تاريخي . . ثم إلى آخر عقدى . . فإذا بالقارئ في النهاية قد سلم بما سلم به الكاتب ، وهو مطمئن النفس بآراءه القواد .



٤ — الجوف والتصوير :

وفي هذا الجانب ترى هيكل الأديب الفنان ، الذى يصور بخلجات نفسه ، وخواطره ، قلبه بعض أحداث السيرة ووقائمه ، تلك الأحداث التى أثارت عاطفته وهذه الوقائع التى هزت فؤاده ، فإذا به يصورها في قالب أدبي جميل ، يبرز فيه انفعاله بالحدث وتأثيره به ، ويرسم فيه نوازع النفس وخواطرها ، كما يصور انفعالاتها وما تنور به من عواطف ومشاعر .

ولعل من المواقف التي هزت عاطفته ، وحركت مشاعره ، ذلك الموقف الذي صور فيه نفسية الرسول الكريم ، يوم سمع ما سمع من كلام يتصل بشرف زوجه الطاهرة السيدة عائشة رضى الله عنها .

سَمِعَ رَسُولُ

لقد استطاع هيكل أن يصور نفسية الرسول وما تجهش به من هواجس لرسالة القدر وما يعتل فيها من خواطر ، وما تضطرب به من نوازع الحيرة والقلق ، والجدول ما يرى ولقد استطاع بمهارة واقتدار أن يصور لنا طهيمة النفس البشرية فسى مثل بل عبد المفسر هذه الظروف ، مهما بلغت من الرفعة والسمو ، ويصور لنا ما ينتابها من زعم سقاء المعزول من مشاعر القلق والحيرة حين يدب فيها دبيب الشك والارتباب . .

يصور هيكل ذلك كله فيقول : " . . . ولفت هذه الأختار محمدا ، فاضطرب لها .

ماذا ؟ ! عائشة هذه تخونه ! هذا مستحيل ، انها الأنفة والاباء ، وان لها من حبه اياها وشدة عطفه عليها ما يجعل مجرد ظن كهذا اثما دونه كل اثم . نعم ! ولكن أف للنساء ! من ذا يستطيع أن يسبر غورهن ، أو يصل الى قراة ما فى نفوسهن ، وعائشة بعد طفلة ، يافعة الشباب ، وأى شيء هذا الحقد الذى فَعَدَتْ ، فذهبت تلتسه جَوْقُ الليل ؟ ! وما بالها لم تُحَدِّثْ له - وهم ما يزالون فسى المسكر - من أمره ذكرا ؟ ! وَتَكَلَّبَ النَّبِيُّ عَلَى أَشْوَاقِ الْحَيْرَةِ ، مَا يَدْرَى أَيْصَدَقَ أَمْ يَكْذَبُ " (١)

وكما صوّر هيكل ذلك . . صور - أيضا - فى هذا الموقف المواقف والانفعالات التي كانت تجهش فى نفس السيدة عائشة رضى الله عنها حين

علمت بهذا القيل عنها ، وحين علمت - أيضا - أن جفاء الرسول أياها
انما كان نتيجة لهذا القيل .

كما عرض هيكل صورة للحيرة التي استهدت بالسيدة عائشة ، وللخاطر
التي كانت تحدثُ بها نفسها ، وما كان يغشى هذه الخواطر من قلق
وحزن وألم .

يقول هيكل مصورا ذلك : " . . . وانتهى الخبر آخر الأمر إلى
عائشة . . حدثتها به امرأةٌ من المهاجرين ، فلما عرفت كادت يُغشى
عليها من هولهِ ، وانطلقت تبكى لا يحس دمعها حابس ، حتى شمعت
كان كبدُها تصدع ، وذهبت إلى أمها ، وقد أثقل الهم كاهلها ، حتى
كاد ينوء بها ، وقالت لها - والعبرةُ تخنقها - : يغفر الله لك يا أماء !
تحدث الناس بما تحدثوا به ولا تذكرين لى من ذلك شيئا !!! ورأت أمها
الهم الذى بهاء فحاولت تخفيف أثره فى نفسها ، فقالت : أى بنيسة !
خفى عليك الشأن ، فوالله لقلما كانت امرأة حسناء عند رجل يحبها
ولها ضرائر الا كمن وكثر الناس حولها ، ولكن عائشة لم تتعز بهذا القول
وزادها ألما أن ذكرت جفاء النبى أياها بعد الذى كان من لطفه بهاء
وأن شمعت بأنه قد وقع فى نفسه من هذا الحديث أثر ، وقامت بنفسه
منه ريبة .

لكن ! ماذا عساها تستطيع أن تفعل ؟ ! أفتاحه القول وتذكر له
الخبر ، وتقس له أنها بريئة ؟ !

هى اذن تتهم نفسها ، ثم تدفع التهمة بالإيمان والتوسلات ،
أفتعرض عنه كما أعرض عنها وتجفوه كما جفاها ؟ لكنه رسول الله وهو قد
اصطفاها على نساءه ، وليس من ذنبه أن تحدث الناس عنها بسبب تأخرها
عن الممسك ، وعودها مع صفوان .

رباه ! ألهمها في هذا الموقف الدقيق مخرجاً ، يتضح لمحمد معه الحق في أمرها ليمود الى مثل ما كان من حبها والعطف عليها واللفظ بها " . (١)

* * *

ومن المواقف التي هزت فؤاده وحركت مشاعره فراج يصورها ففى لوحة فنية أدبية ، ويبرز ما فيها من جمال وروعة - موقف مشهور رائع : يوم خرج المسلمون الى مكة كي يؤدوا عمرة القضاء .

ففى هذا المشهد الرائع ، استطاع هيكل أن يصور مشاعر وأحاسيس المسلمين وأن يرسم البشر والابتهاج على وجوههم ، فرحاً بقدمهم على بيت الله الحرام ، واستطاع هيكل أن يصور باللفظ ، ويرسم بالمهارة ، ويصف بالكلمة هذا الموكب الحافل بأعداد المسلمين ، وقد عُلَّتْ قَسَمَاتُ وجوههم آيات الفرج والسرور ، وقد تهبأوا لأداء عمرة حرموا منها قبل عام ، كما تهبأوا للقدوم على بلد عزيز حرموا الإقامة فيه ، وعلى بيت كريم حرموا العبادة فيه ، فإذا هلك - وأنت تقرأ ما كتبه هيكل في هذا المشهد - كأنك أمام مظاهرة ابتهاج وموكب فن وسرور . . أمام صورة حية نابضة بالحياة والحركة . . . تراءت لك من خلال السطور .

يقول هيكل - واصفاً ورأساً وصوراً - : ويسير عليك أن تقسدر كيف أقبل المسلمون يلبون هذا النداء ، ومنهم المهاجرون الذين تركوا مكة منذ سبع سنوات ، ومنهم الأنصار الذين كانت لهم مع مكة تجارة ، ولهم الى زيارة البيت الحرام هوى ، لذلك زاد الركب الى ألفين بمقد أن كان ألفاً وأربعمائة (٢) في العام الذى سبقه ، وتفيذا لمحمد

(١) حياة محمد ص ٣٢٨ .

(٢) كما ورد في " حياة محمد " ص ٣٦٢ ، وهو خطأ مشهور ، والصواب : " أربعمائة وألفاً " د / سرحان .

الحدية لم يحمل أحد من هؤلاء الرجال سلاحا الا سيفا فى قرابه ، ولكن محمدا كان يمشى الفدر دائما ، فجهز مائة فارس جمل على رأسهم محمد بن مسلمة ، ومشهم طلحة له على ألا يتخطوا حرم مكة ، وأن يحدروا اذا هم بلغوا "مَرَّ الظَّهْرَانِ" ، الى واد قريب منها ، وساق المسلمون - ومحمد على رأسهم يركب ناقته القصوى ^(١) - الهدى امامهم ستين ناقة ، وساروا من المدينة يحدوهم شغف أى شغف بالدخول الى أم القرى والطواف بهيت الله ، ويرقب كل واحد من المهاجرين البقعة التى ولد فيها ، والهيت الذى شبَّ عن الطوق بين جدانه ، والأصحاب الذين غادر ، وأن يتنسم عَرَفَ هذا الوطن المقدس ، وأن يلمن فى إجلال واعزاز ترى القرية المباركة الميمونة التى أنجبت الرسول ، والتى نزل فيها أول ما نزل من الوحي .

وتستطيع أن تصور هذا الجيش من المسلمين وعدتهم ألفان - يُفِيدُونَ سِرَّهُمْ تَطْفُرُ امامهم قلوبهم ، وترقى جَدَلًا أفئدتهم ، فاذا أناخوا جمل كل واحد منهم يقص على أصحابه آخر عهده بمكة ، أو أيام طفولته بها ، أو يحدث عن أصدقائه فيها ، أو عن المال الذى ضحى به فى سبيل الله عند هجرته منها .

تستطيع أن تصور هذه المظاهرة الفذة من نوعها ، يُزْجِي سِرَّهَا الْإِيمَانُ، وَيَجْزِي أَصْحَابَهَا إِلَهٌ بِهِتٌ جملة الله مثابة للناس وأمانا ، وانك اذن لترى بحين بصيرتك أى طرب كان يستخف هؤلاء الذين حمل بينهم حين هذا الغرض المقدس ، اذ يسيمرون اليه ليدخلوا مكة آمنين ، مطقين رؤسهم ومقصرين ، لا يخافون . . . ^(٢)

(١) كذا ورد فى حياة محمد " ص ٣٦٧ ، وهو خطأ والصواب " القصوى " .

(٢) حياة محمد ص ٣٦٧ ، ٣٦٨ .

والمصنف لكتاب هيكلي يرى الجانب التصويري واضحا في مواطن
كثيرة ، وحسبنا أن نشير - بالاضافة الى ما أوردناه آنفا - الى بعض
هذه المواطن ، مثل : ثلاثة أيام بمكة (ص ٣٢٠) ومثل : أممات
محمد حقا ؟ (صفحة ٤٨٠ و ٤٨١) .

ٖٖ الفصل الثالث ٖٖ

(أسلوب هـكل وخصائصه)

- ١ - الفرق بين السيرة^{التاريخية} والترجمة الأدبية .
- ٢ - خصائص أسلوب هـكل بموجمه بين الأسلوبين : العلى والأدبى
وغلبة الأول عليه .
- ٣ - نماذج تطهقة على أسلوب هـكل
- ٤ - " حياة محمد " سيرة تاريخية ، وليس تاريخاً ولا ترجمة أدبية .

١ - الفرق بين السيرة والترجمة الأدبية :

من المرض والتعطيل السابقين لطريقة هيكل في كتابه " حياة محمد " الجامعة بين التطليل والتعليل والتحقيق والتصوير - من هذا كله نستطيع بمسر أن نتعرف على ملامح أسلوب هيكل وهل هو أسلوب علمي أو أسلوب أدبي ؟ كما نستطيع أن نحدد مكان كتابه هذا بين الكتب الأدبية ، أو بين الكتب التاريخية البحتة ، وهل هو ترجمة أدبية أو سيرة تاريخية ؟

ولعله من المفيد - قبل أن نحدد مكان هذا الكتاب بين كتب الأدب أو التاريخ - أن نتعرف على الفرق بين السيرة والترجمة .

يذهب البعض الى أنه لايس في الفروق اللغوية ما يبين الفرق بينهما على وجه التحديد ، إلا أن الاصطلاح والاستعمال هما صاحبا الفتوى في هذا ، فقد جرت عادة المؤرخين أن يسموا الترجمة بهذا الاسم حين لا يطول نفس الكاتب فيها ، فإذا ما طال النفس وانصمت الترجمة سيرة " (١) .

وجاء في " دائرة المعارف الاسلامية " مادة " سيرة " : " السيرة هي الترجمة المأثورة لحياة النبي محمد عليه السلام . . . على أن ثمة شاهدا آخر على استعمالها بمعنى الترجمة لحياة النبي عليه السلام . ثم ان كلمة سيرة كانت تستعمل في تلك الأيام (الاسلامية الأولى) حقا للدلالة على ترجمة الحياة بصفة عامة " (٢)

(١) التراجم والسير ص ٢٨٠

(٢) دائرة المعارف الاسلامية ج ١٢ ص ٤٣٩

ورأى ثالث يذهب الى أن السيرة ترجمة فنية لتاريخ رجل (١).
ورأى رابع يرى أن التراجم " تشتمل المنصرين الأساسيين للعمل الأدبي :
" التجربة الشمورية " ، والمهارة الموحية عن هذه التجربة " ، لأن احساس
المؤلف بحياة من يترجم له ، وظروفه وحالاته النفسية وتطبيقها على تجاربه
هو فى عالم الشمور والحياة ومحاولة استفاد الملاحظات التى أحاطت
بحياة بطله كل هذا يجعل عنصر " التجربة الشمورية " .
ذا وجود حقيقى فى ترجمة الشخصية ، أما القيم التمييزية فهى بطبيعتها
ستوجد بوجود التجربة الشمورية على هذا النحو من القوة والوضوح .

فإذا خلت الترجمة من هذين المنصرين أو من أحدهما امتحالت
سيرة أو تاريخا بعميدا عن عالم الأدب ، فمجرد سرد الحوادث والوقائع -
مهما بلغ من الدقة والتفصيل والتحقيق - ليس هو " الترجمة " ، انما هو -
المادة الخام التى تصنع منها الترجمة حين يتناولها مؤلف موهوب ، فينفخ
فيها روحا وحياة " . (٢)

هذه أربعة آراء نجد الأول منها يفرق بين السيرة والترجمة على
أساس الكم وطول النفس ، وهذا لا يمكن التعليم به ، والثانى يدل على
استخدام الكلمتين بمعنى واحد منذ المصور الأولى ، وهذا التزاوج نفسى
استعمال الكلمتين قد يكون مسئولا عن اضطراب المعنى فى رأى الثالث .

بقى الرأى الأخير الذى يمكن الاطمئنان اليه ، لأنه يتميز بـ
المعير التى تعد تاريخا وتجميعا لحوادث ووقائع . . . والترجمة التى تعد
ضربا من الأنواع الأدبية ، فتشمل التجربة الشمورية بعد أن تختلط

(١) الأصمى : د أحمد كمال ص ٤٠

(٢) النقد الأدبي . سيد قطب ص ٨٨ .

الوقائع والحوادث بنفسية الأديب ووجدانه فيخرجها مترجمة بنفسه وهو — روحه ، ومعارته الموحية عن تلك التجربة التي نقلها من الواقع التاريخي الى الحيز النفسى الذى صيرها وأخرجها شيئا جديدا . .

وطى هذا يخطف عمل المؤرخ عن عمل الأديب ، فالأول ينقل البناء الحقيقة كاملة ، فى الوقت الذى يقدم فيه الأديب تجربة فنية كاملة بعمد أن ثقافت حياة المترجم له ، واتسحت أمام نفسه معالم شخصيته — بحسه الأديبى وذوقه الفنى .

ونخلص من هذا الى أن هناك فروقا جوهرية بين السيرة التاريخية والترجمة الأدبية ، وان كانت المادة الخلقة بالنسبة لهما واحدة .

فالسيرة تُعنى بسرد الحوادث والوقائع وتحترم النص ولا تفسره ، وان كانت تناقشه ، كما لا تستطيع أن تكمل الطبقات الناقصة فى تاريخ انسان اذا ما أهملها الرواة وأهل الأخبار .

أما الترجمة الأدبية فهى تتطلب من الانسان الأديب أن يصهر تاريخ الانسان الذى يترجم له فى نفسه ويُقدِّم لنا تجربة نفسية كاملة الطبقات وان كانت غير كاملة فى الواقع ، بالإضافة الى الأسلوب الأدبى الذى تتطلبه كل الأعمال الفنية فى الأدب .

ومن المفيد أن نذكر هنا رأى " بودلير " الذى يوضح هذه الحقيقة فهو يرى : " أن المبقرية الأدبية عميقة مدركة واعية تعتمد على العقل كما تعتمد المبقرية العلمية تماما ، غير أنها تمتاز على المبقرية العلمية بأنها قادرة على اكتشاف العلاقات بين الشاعر والأشياء (١) بعضها فى نطاق أشمل وأوسع من النطاق الذى تعمل فيه المبقرية العلمية " .

٢ - خصائص أسلوب هيكل وجمعه بين الأسلوبين : العلمى والأدبى
غلبة الأول عليه :

لعلنا نستطيع الآن - بعد أن اتضح الفرق بين السيرة التاريخية والترجمة الأدبية - ومحد أن عرضنا نماذج من كتاب " حياة محمد " تدليلا على طريقة هيكل ، وما فيها من تطيل وتحقيق وتصوير .. معتمدا على مناهج البحث العلمى ، التى تقوم على الشرح والتطيل والتعليل والموازنة ومناقشة الأدلة واستنباط الأحكام والنتائج ، مسوقا هذا كله فى أسلوب أدبى جميل ، وبجارة بيانية رائعة ..

لعلنا بعد أن اتضح ذلك كله نستطيع أن نقول : ان تناول هيكل للسيرة النبوية بهذا الأسلوب العلمى الطريفة ، والأدبى اللفظ ، يجعلنا فى حيرة حين نحاول أن نرجع هذا الكتاب الى أحد هذين اللونين : السيرة التاريخية أو الترجمة الأدبية .

فالطريقة التى عالج بها هيكل كتابة السيرة النبوية والتى أسلفنا الحديث عنها ، تجعل الكتاب ذا طابع علمى بعيدا عن الترجمة الأدبية التى سبق أن أوضحناها ، والتى تعتمد على التجسية الشمورية ، ثم على صب هذه التجسية فى قالب تمبيرى مـروح .

ولكن طريقة هيكل العلمية التى جعلت كتابه بعيدا عن الترجمة الأدبية ، لا تمنى أن هيكل تخلص من عاطفته الدينية ، فالواقع أنه لا يمكن أن يتصور ذلك .

فالكاتب مسلم مؤمن بدينه ومرسوله ، وفى ذهنه قهلا أن يدافع عن الدين والرسول المفترى عليهما ، فلا بد أن تستقر العاطفة فى ذهنه وان لم تؤثر على الطريقة العلمية التى اتبعها ، ولذلك

نجد أن سيرة الرسول وحياته لم تنب في متاحف المناقشات والموازنات
والردود التي امتلأ بها الكتاب .

ومعنى هذا أن هيكله لم ينس على الرغم من هذا كله صورة
الرسول الكريم وحياته على مر السنين مرحلة اثر مرحلة ، حسب التاريخ
الزمنى والمنطقى للأحداث ، أى : ان الصورة العظيمة النقية التى
أراد أن يرسمها فى مؤلفه تلك مشرقة وضامة مصورة ما قام به الرسول من
جلائل الأعمال وما نادى به من عظيم المبادئ والآراء ، وفى
الوقت نفسه لم تنسه عاطفته الدينية التى تمسك بها أثناء كتابته أصول
المذهب العلمى فى البحث الذى أعلن أنه سيتمسك به .

ومن هنا خرج كتاب " حياة محمد " زاخرا بمنطقية العلم ورقصة
الماطقة ، تجد فيه متاعا للعقل ولقلب معا ، وهذه الثنائية بين العلم
والأدب تجعلنا فى حيرة - كما قلنا سابقا - حين نحاول أن نحدد
بالضبط مكان هذا الكتاب من الأنواع الأدبية ، لأنه بهذه الصورة يجمع
بين خصائص السير التاريخية والتراجم الأدبية .

ولكن نظرة فاحصة فى الكتاب كله ، تجعلنا نضع الكتاب فى مكانه
الصحيح ، فالكتاب الى السيرة التاريخية أقرب منه الى الترجمة الأدبية ،
ذلك لأن الناحية العلمية طفت على الناحية الأدبية .

ولعل منهج هيكل العلمى وطريقته الحديثة يتضحان فى كتاباته
الفكرية والتاريخية والأدبية خاصة فى كتاباته التاريخية الاسلامية .

يقول الاستاذ سيد قطب - فى معرض الموازنة بين مناهج الكتاب
فى كتابة السير والتراجم :-

" ولدينا الطريقة المقابلة لطريقة المقاد ، وهى طريقة هيكل فى
" حياة محمد " و" الصديق أبوبكر " وفى " الفاروق عمر " ولكن

هيكلا تنقصه الحساسية الشعرية ، وهى عنصر أصيل فى الترجمة ، لأنها
هى التى تكفل الحياة للسيرة وتضمن عملية البحث ، فلهست الترجمة
حوادث تروى بل حياة تعاد ٠٠٠٠

والقارئ لكتب هيكل هذه يجد سردا للحوادث وتعليقا عليها ،
ومناقشة للآراء فيها ، وهذا كله يحدد الصورة الانسانية
من ورائها ، ويحيطها سيرة تاريخية جامدة ، عنصر الحياة فيها ضئيل ، ويصعب
احتسابها " عملا أدبيا " بالمعايير التى أسلفناها الانى مواضع منها
معدودة " (١)

ويقول الدكتور : احسان عباس : " حياة محمد " لهيكل مشلا
أو كتاب : " محمد على الكبير " كشاف غيها ، لا يزالان أقرب الى
التاريخ ، وان زاد الأول على الثانى بجلطة الأسلوب وزين التمييز ، ومثل
ذلك يقال أيضا فى كثير من هذه السير والتراجم التى لا تزال تعرض
تاريخ فترة (٢) كاملة تحت اسم فرد واحد ، ومن الخطأ أن يتناول النقد
هذه الكتب بالنقد مثلا يتناولون الأثر الفنى ، بل النقد انما ينصب فيها
على الرواية التاريخية والانصاف فى الحكم ، والقدرة على التحليل " (٣)

ولقد أرجع (٤) بعض الباحثين غلبة الأسلوب العلمى فى كتابات
هيكل ، وما فيه من تحليل وتعليل ومناقشة واستنباط .. على الأسلوب
الأدبى - أرجع بعض الباحثين ذلك الى شيئين : ثقافته وعقلية ..

-
- (١) النقد الأدبى : سيد قطب ص ٩٠
(٢) الفترة : الزمن بين نهدين ، والصواب : حقبة أو بهرة ، د / سرحان .
(٣) فن السيرة : ص ٦٠
(٤) أرجع - بالهمزة أولها : لغة هذيل ، د / سرحان .

أما عن الأولى فيقول : " . . . ولكن الذى يحتاج الى تأكيد هو أن دراسة القانون والاعداد للدفاع والمحاماة ، تغرض على العلم بها أن يكون أسلمه فيه شئ " من الحاجة والمجادلة ، خاصة إذا تعرض لمناقشة قضية ما ، وقد أثرت هذه الثقافة فى أقاصيصه ومقالاته الأدبية والصحفية ، وفى دراساته التاريخية الاسلامية . . . (١)

وأما عن الثانية فيقول : " . . . كذلك فان عقلية هيكل المنسجمة تظهر فى انتاجه (٢) الفكرى والأدبى متميزة على عاطفته الأدبية ، تلك العقلية التى أبعدت إبعادا كبيرا كتبه " عشرة أيام فى السودان " ولدى " فى منزل الوحي " ، أبعدتها عن حيز الترجمة الشخصية لهيكل ففى فترة من فترات (٣) حياته ، كذلك نلاحظ تميز هذه العقلية فى كتبه الاسلامية التى كتبها عن الرسول وأبى بكر وعمر وخمان ، إذ نجد الفكر والمقل ففى هذه الكتب تغالب الحاطقة والذوق الأدبى ، وعلى هذا وجدنا الكثير منها ينضوى تحت السير (٤)

بل ان هيكل نفسه ليؤكد أن لدراسته القانونية أثرا كبيرا فى طريقة كتابته واعتمادها على المنطق والمقل فيقول : " . . . ولا شك فى أن دراستى للقانون أفادتني فى حياتي الأدبية ، فالأسلوب القانونى أسلوب منطقي دقيق ، يعتمد على الفكرة ودقة أدائها ، أكثر مما يعتمد على اللفظ المنطقى المزوق ، وسبب ذلك أن التشريع والقوانين بوجه عام تقتضى كاتبتها ألا يزيد فى ألفاظه على ما يقصد الله من المعانى ، وهذه فى نظرى فائدة كبيرة لكل مشغل بالكتابة ، هذا الى أن رجل القانون لا يستغنى فى أدائه

-
- (١) الدكتور محمد حسين هيكل ص ٥٥٠ طه عمران وادى .
 (٢) انتاج هنا خطأ ، والصواب : نتاجه ، د / سرحان .
 (٣) أشرنا الى أن استعمال فترة بمعنى الزمن المطلق خطأ ، د / سرحان .
 (٤) المرجع نفسه ص ٥٦ .

عن المادة الأدبية ، وإن استغنى عن الخيال الأدبي^(١) " ويتضح لنا مما تقدم : أن هيكلنا في كتاباته الفكرية والأدبية والتاريخية عامة - وكتاباته " حياة محمد " ، مجال بحثنا خاصة - صاحب أسلوب على منطقتين ، وأن هذه العلمية والمنطقية اللتين تخاطبان الفكر والعقل ، يفلفهما أسلوب أدبي رائع يخاطب الشعور والوجدان .

٣ - نماذج تطبيقية على أسلوب هيكل :

ولعل من المفيد أن نورد نصفاً من كتاب هيكل - بالإضافة إلى ما أوردناه عند حديثنا عن طريقته - لتكون تطبيقاً على ما قلناه .

في صفحة ٢٢٩ و ٢٣٠ ، يصف لنا الكاتب ، كيف وقف النبي الكريم في غزوة " بدر " يحث المسلمين على التقدم إلى صفوف القتال مبيناً لهم فضل الشهادة في سبيل الله ، خاصة في هذا اليوم العظيم . . . وصور لنا كيف سرت من هذه النفس القويمة المهيبة إلى نفوس المسلمين قوة ، ضاعفت إيمانهم وقوت غزيمهم . . ثم ينتقل بعد ذلك إلى بيان أثر القوة المعنوية في النفوس ، مطلقاً أسباب ازدياد هذه القوة ، وكيف أن الأمم تهوى النشء منذ نعومة أظفارهم على صقل نفوسهم وتقويتها بتعليمهم حب الوطن والسلام . . ثم يخلص من ذلك إلى موازنة بين الوطنية وقضية السلام التي تهوى الأمم النشء عليهما ، ليتقوى في نفوسهم حبهما . . والقضية التي يدعو إليها محمد ، موازنة تهيئ مقدار القوة التي تمنحها تلك القضية السامية التي يدعو إليها رسول الله .

(١) قصة الأدب المعاصر في مصر الحديثة ص ٥٢ ، ٥٣ ، وكلمة معاصر ليست في اللغة .

يقول هيكل : " . . . وخرج الى الناس يحرضهم ويقول لهم : " والذي ندين محمد بيده لا يقاتلهم اليوم رجل فَيَقْتُلُ صابرا محتسبا مقبلا غير مدبر الا أدخله الله الجنة " وسرت من نفسه القوة (التي) أمدها الله من لدنه بما سما بها فوق كل قوة ، الى نفوس هؤلاء المؤمنين برسالة قوة ضاعفت عزمهم ، وجعلت كل رجل منهم يَسْعُدُ رجلين ، بل يعدل عشرة رجال .

ويسير عليك أن تقدّر هذا إذا لم كنت ما لازدياد القوة المعنوية من أثر في النفس متى توافرت أسباب ازدياد هذه القوة المعنوية فيها ، فدافع الوطنية يزيدها ، وهذا الجندى الذي يقف مدافعا عن وطنه ، المهدد بالخطر ويحب الوطن احسا سا صادقا ، تتضاعف قوته المعنوية بمقدار حبه لوطنه وابتائه به .

ولهذا تفرس الأمم في نفوس أبنائها ، منذ نعومة أظفارهم حسب الوطن والاستهانة بالتضحية في سبيله ، والايان بالحق والمدل والحرية والمعاني الانسانية السامية يزداد القوة المعنوية في النفس بما يضاعف القوة المادية فيها .

والذين يذكرون ما قام به الحلفاء في الحرب الكبرى من دعوة واسعة النطاق ضد الألمان ، أساسها أنهم يدافعون عن قضية الحرية والحق ، ويحاربون في أمانة الجندية المسلحة ويهدون لعهد سلام ونور : يدركون ما كانت تضاعف هذه الدعوة من قوة في نفوس جنود الحلفاء بمقدار ما كانت تحيطهم به من عطف أكثر أمم العالم .

وما الوطنية وما قضية السلام الى جانب ما كان محمد يدعو اليه ؟ الى اتصال الانسان بالوجود كله اتصالا يندمج به فيه ويصبح معه قوة من قوى الكون الموجهة له (الى) سبيل الخير والنعمة والكمال .

وصف وتصوير

تحليل

موازنة

نعم ! ما الوطنية وما قضية السلام الى جانب الوقوف في جانب الله ، ودفع الذين يفتنون المؤمنين عنه ، والذين يصدون عن سبيله ، والذين ينزلون بالانسان الى دَرَكِ الوثنية والاشراك ! اذا كانت النفس يزيدها حب الوطن قوة بمقدار ما في الوطن كله من قوة ، ويزيدها حب السلام للانسانية قوة بمقدار ما في الانسانية كلها من قوة ، فما أكثر ما يزيدها الايمان بالوجود كله ومخالق الوجود كله من قوة !! انه ليجعلها قديرة على أن تسيّر الجبال وتحرك العوالم وتهيمن بسلطانها المعنوي على كل من كان أقل منها في هذا الأمر ايهانا .. » (١)

وهكذا نراه ينتقل من وصف الى تصوير الى تحليل ثم الى موازنة فتعليل ثم الى استنباط ، وهذا التسلسل المنطقي من سمات طريقة هيكل العلمية ، على أن هذا التسلسل المنطقي في الأفكار ، قد صاغه هيكل في أسلوب أدبي ، مما يزيدها تأكيداً على أن هناك في أسلوب هيكل تلك الثنائيات التي تجمع بين منطقية العلم وروعة الأدب .

وفي صفحة ٩٢ يصف لنا هيكل ~~مكة~~ ^{الذي} التحنث الذي كان يقضي به الرسول الكريم في غار حراء طوال شهر رمضان ، منقطعا فيها عن الحياة بقصد التأمل والتفكير بغية الوصول الى الحق الذي ينشد .

يقول هيكل : " وقد وجد فيه محمد خيراً ما يمكنه من الامعان فيما شغلت به نفسه من تفكير وتأمل ، كما وجد فيه طمأنينة نفسه وشفاء شغفه بالوحدة ، يلتصق أثناءها الوسيلة الى ما يرح شوقه يشتد اليها من نشدان المعرفة واستطهام ما في الكون من أسرارها ، وكان بأعلى جهل حراء - على فرسخين من شمالى مكة - غار هو خير ما يصلح للانقطاع والحنث ،

(١) حياة محمد ، ص ٢٢٩ ، ٢٣٠ .

فكان يذهب اليه طوال شهر رمضان من كل سنة ، يقيم به مكثفا بالقيام
من الزاد ، يحمل اليه ، معينا في التأمل والمجاهدة ، يحمدا عن ضجة الناس
وضرأ الحياة ، ملتصا الحق والحق وحده . (١)

ثم ينتقل بعد ذلك الى وصف نفسية الرسول الكريم . . تلك النفسية
المتشوقة الى المعرفة ، والمتطلعة الى نور الحق ، . . النفسية التي
كان يطفى عليها التأمل والفكر الى درجة أن تنسى نفسها وتنسى كل شيء
في الحياة . . تلك النفسية التي كانت تأمل أن تجد هذا الحق في هذا
الكون المحيط بها ، بل ربما امتد تفكيرها وتأملها الى ما وراء هذا الكون
بخا عن المعرفة وتشوقا الى الحقيقة .

يقول هيكل : " ولقد كان يشتد به التأمل ابتغاء الحقيقة حتى
لكان ينسى نفسه وينسى طعامه وينسى كل ما في الحياة ، لأن هذا الذي
يرى في الحياة مما حوله ليس حقا . وهناك كان يقرب في صحف ذهنه
كل ما رأى ، فيزداد عما يؤول الناس من ألوان الظن وغيرة وازورار ، وهو لم
يكن يطمح في أن يجد في قصص الأحبار وفي كتب الرهبان الحق الذي ينشده
بل في هذا الكون المحيط به : في السماء ونجومها وقمرها وشمسها ، وفي
الصحراء ساعات ليهيبها المحرق ، تحت ضوء الشمس الباهرة اللآلئ ، (أو)
ساعات صفوها البديع ، اذ تكسوها أشعة القمر أو أضواء النجوم بلباسها
الربط الندي ، وفي البحر ووجه ، وفي كل ما وراء ذلك ما يتصل بالوجود
وتشمله وحدة الوجود ، . . في هذا الكون كان يلتصق الحقيقة المطلوبة ،
وابتغاء ادراكها ، كان يسمو بنفسه ساعات خلوته ليتصل بهذا الكون
وليخترق الحجب الى مكون سره " (٢)

(١) حياة محمد ص ٩٢ .

(٢) حياة محمد ص ٩٢ و ٩٣ مع تعريف

وهنا نرى هيكلًا لا يقتصر على وصف نفسية الرسول المتأمل ففى هذا الكون وما فيه من ظواهر طبيعية، بل نراه يصف بعض ظواهر الكون، فنراه يصف الصحراء وقت اشتداد الحر، حيث يتلأأ ترابها تحت أشعة الشمس الباهرة، وساعات الليل حيث يرسل عليها القمر نوره وتكسوها النجوم بلباس من الضوء الجميل. . . هذه الظواهر الطبيعية الجميلة السرى تشد الناظر إليها وتجذب المتأمل فيها فينسى نفسه وما حوله فى لحظات استغراق فكرية وتأملية . .

وهكذا نرى هيكلًا صادق الحس والشعور حينما يصف هذه الظواهر الطبيعية ووصف ما يخالغ الانسان المتأمل فيها من لحظات فكر وتأمل، يشعر بعدها بغيش من الحنين الجارف الى التشوف الى سر هذا الوجود الذى يمحيط فيه .

وهنا - فى هذا النص - نجد اللمسة الأدبية أشد وضوحا من المسحة العلمية التى هى سمة أسلوب هيكل .

على أننا لا نكاد ننتهى من هذا النص حتى نفاجأ بهيكل - ففى الموضوع نفسه - يعود بنا الى أسلوبه العلمى المنطقى المعمود بتحليلاته الفلسفية وتحليلاته العلمية - حينما يصور نفسية الرسول وهى تسترسل وراء تأملاتها وسبحاتها فى هذا الكون الملىء بالأسرار والألغاز ويصورها وهى تغف أمام بعض هذه الأشياء، تغفى معرفة حقيقتها، عليها تعمل من وراء ذلك الى حقيقة الحقيقة . ويصورها أيضا بعد أن تنتهى من تطويل ظاهرة من الظواهر المحيطة بها، وهى أشد ما تكون حيرة حين تفاجأ بأن الحقيقة التى تهت تحت عنها لا تجد لها فيها .

وينتقل هيكل بهذه النفسية المتعطشة الى المعرفة من ظاهرة الى أخرى، وهى تهت عن هذا الحق فلا تجده . . كل ذلك من خلال

أسئلة محيرة تطيقها هذه النفس على العقل ! أسئلة علمية فلسفية تعقبها اجابات علمية فلسفية معتمدة على التحليل والتعليل والمناقشة .. أسئلة تتصل بالكون وما فيه ، والحياة نفسها ، وحمل الانسان في هذه الحياة !!

يقول هيكل : " ولم يكن بحاجة الى كثير من التأمل ليرى أن ما يباشر قومه من شؤون الحياة ، وما يتقربون به الى آلهتهم ليس حقاً . فما هذه الأصنام التي لا تضر ولا تنفع ولا تخلق ولا تزق ولا تدفع عن أحد غائلة شر يصيبه ؟ !! وهبل واللات والمزى ، وكل هذه الأنصاب والأصنام القائمة في جوف الكعبة أو حولها ، لم تخلق يوماً ذبابها ولا جادت (فرس) مكة بخير ! ولكن ! أين الحق اذا ؟ أين الحق في هذا الكون الفسيع بأرضه وسماواته ونجومه ؟ أهو في هذه الكواكب الضيقة التي تهت السي الناس النور والدفع ومن عندها ينحدر ماء المطر ، فيكون للناس ولأهل الأرض كافة من خلائق ، حياة بالماء والنور والدفع ؟ كلا ! فما هذه الكواكب الا أفلاك كالأرض سواء ، أهو فيها وراء هذه الأفلاك من أشير لأحد ولا نهاية له ؟ ولكن ما الأثير ؟ ! وهذه الحياة التي نحيا اليوم ستنتفى غذا ، ما أصلها وما مصدرها ؟ . أهى مصادقة تلك التي أوجسدت الأرض وأوجدتنا عليها ، لكن للأرض وللحياة سننا ثابتة لا تهدل لها ولا يمكن أن تكون المصادقة أساسها ، وما يأتي الناس من خير أو شره أفتأتون به طواعية واختياراً ؟ أم هو بعض سلبقتهم فلا سلطان لاختيارهم عليه ؟ .

في هذه الأمور النفسية والروحية كان محمد يفكر أثناء انقطاعه (١) وتعمده في غار حراء ، وكان يريد أن يرى الحق فيها وفي الحياة جميعاً . . .

* * *

على أن ما تقدم لا يعنى أن هيكلنا لم تكن له لمحات الأدبيّة الخالصة ، ذلك لأن المصنف كتاب : " حياة محمد " يجد فيه بعض هذه اللّمحات الأدبيّة واضحة قويّة ، وإن كانت هذه اللّمحات قليلة جداً ، وحسبنا أن نشير الى بعض هذه اللّمحات .

في صفحتي : ١٠٨ ، ١٠٩ يصور لنا هيكل ذلك الموقف الرائع الذي كان بين الرسول الكريم ، وبين عمه أبى طالب حين طلب منه عمه أبو طالب - بعدما جاءته وفود قريش طالبة منه أن يدع محمد ما يدعوه اليه - أن يدع ما هو فيه حتى يبقى عليه وعلى نفسه ولا يحمله ما لا يطيق . . .

يقول هيكل : " . . . وأطرق محمد اطرافه وقف ازاها تاريخ الوجود كله بهرقة مبهوتا لا يدري أيّا يكون اتجاهه ؟ ! " ، في الكلمة السّنة تحترق عنها شفتا هذا الرجل حكم على العالم أهو يظل في الضلال يسد له فيه ، فتطغى المجوسية على النصرانية المتخاذلة المضطّحة ، وترفع الوثنيّة بها طلبها رأسها الخرف الآفن ! أم هو يضئ أمامه نور الحق ، وتعلن فيه كلمة التوحيد ، وتحرر فيه العقول من رق اليهودية ، والظلم من أسر الأوهام ، وترتفع فيه النفس الانسانية لتصل بالملأ الأعلى . وهذا عمه كأنه ضعف عن نصرته والقهام معه ، فهو خاذله وسلمه ، وهؤلاء المسلمون ما يزالون ضعافا لا يقومون على حرب ولا يستطيعون مقاومة قريش ذات السلطان والمال والمدة والمعدد .

إذا لم يبق له دون الحق الذي ينادى الناس باسمه نصير ، ولم يبق له سوى إيمانه بالحق عدة ، وليكن ! ! ان الآخرة خير له من الأولى ، فليؤد رسالته ، وليدع الى ما أمره به ، ولخير له أن يموت مؤمناً بالحق الذي أوحى اليه من أن يخذله أو يتردد فيه ، ولذلك التفت الى عمه مبتلى ، النفس بقوة إرادته ، وقال له : " يا عم والله لو

ضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله أو أهلك فيه ما تركته ."

بالعظمة الحق وجلال الايمان به ! اهتز الشيخ لما سمع من جواب محمد * ووقف هو أيضا مبهوتا أمام هذه القوة القدسية والارادة السامية فوق الحياة وكل ما في الحياة * (١)

في هذا الموقف العظيم صور هيكل مشهدا من أروع مشاهد التاريخ تجلت فيه قوة ايمان الرسول بما يدعو اليه . وصور أيضا ما كانت تجيش به نفس الرسول الكريم من عواطف وانفعالات ازاء ما سمع من عمه . كما صور خواطره النفسية وما كان يدور بخلده آنذاك : أيخذه عمه الآن بعدما وقف بجانبه مدافعا ومليدا ١٩ لمخذه عمه ان أراد لكنه لن يتراجع . كما لا ننسى - في هذا النص - هذا التخييل الجميل الذي صور فيه هيكل التاريخ وقد وقف باهتا كائما أنفاسه لا يدري أيما يكون اتجاهه انظارا للآلة التي ينطق بها الرسول الكريم .

وننتقل الى لوحة أخرى فنجد فيها هيكل القصى يطل برأسه من ثناياها ، فمن ذلك وصفه للنحو المستشرقين في مسألة زواج زينب بنت جحش . . حيث يقول : " ويطلق المبشرون والمستشرقون لخيالهم العنان حين يتحدثون من تاريخ محمد في هذا الموضوع ، حتى ليصور بعضهم زينب ساعية رآها النبي ، وهي نصف عارية أو تكاد ، وقد انسدل ليل شعرها على نام جسدها الناطق بما يكن من كل معاني الهوى ، ولهذا ذكر آخرون أنه حين فتح باب بيت زيد لعب الهواء بأستار غرة زينب ، وكانت مسددة

(١) حياة محمد ص ١٠٨ ، ١٠٩ .

على فراشها في ثياب نوسها ، فمصف منظرها بقلب هذا الرجل الشديد
الولع بالمرأة صفاتها ، فكلم ما في نفسه وان لم يطلق الصبر على ذلك
طويلا !! (١)

بل ان هيكلنا حين رد على هذه القصة التي اخترعها المستشرقون
والمبشرون - رد عليها بأسلوب أكثر رقة وأكثر أدبا . . . يقول : " أما
قصة زينب بنت جحش ، وما أضفى بعض الرواة وأضفى المستشرقون والمبشرون
عليها من أستار الخيال حتى جعلوها قصة غرام ووله ، فالتاريخ الصحيح
يحكم بأنها من بفاخر محمد وأنه هو المثل الكامل للإيمان وقد طبق فيها
حديثه الذي معناه : لا يكمل إيمان المرء حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه ، وقد جعل
نفسه أول من يضرب المثل لما يضع من تشريع يحويه عقليد الجاهلية
وعاداتها ويقر به النظام الجديد الذي أنزله الله هدى ورحمة للعالمين .

ويكفي لهدم كل القصة التي قرأت عنها من أساسها أن تعلم أن زينب
بنت جحش هذه ، هي ابنة أمية بنت عبدالمطلب عم رسول الله عليه
السلام ، وأنها بيت بمينة وخاتمة ، وأنها كانت لذلك منه بمقام البنت أو الأخت
الصغرى ، وأنه كان يمرضها ويعرف أنه ذات مقاتن أم لا قبل أن تزوج
زيدا ، وأنه شهدا في نموها تنجو من الطفولة الى الصبا الى الشباب ،
وأنه هو الذي خطبها على زيد مولاه . اذا عرفت ذلك تداعت أمام نظرك
كل تلك الخيالات والأقاصيص من أنه مر ببيت زيد ولم يكن فيه ، فـرأى
زينب فبهره حسننها ، وقال : سبحان قلب القلوب ! أو أنه لما فتح باب
زيد عيت الهواء بالستار الذي على غرفة زينب فألفاها في قميصها بمسودة
وكانها " مدام ركاميه " فانقلب قلبه فجأة ، ونسى سودة وعائشة وحفصة وزينب

بنت مخزوم وأم سلمة ، ونسى كذلك ذكر خديجة التى كانت عائشة تقول : انها لم تجد فى نفسها غيره من أحد من نساء النبى ما وجدت من ذكر خديجة . ولو أن شيئاً من جهها علق بقلبه لخطبها الى أهلها على نفسه بدل أن يخطبها على زيد ، وهذه الصلة بين زينب ومحمد ، وهذا التصوير الذى صورناها به لا يدعان بعدهما لتلك القصة الخيالية التى يروون أى أساس أو أى حق فى البقاء " (١) .

وننتقل الى لوحة أدبية أخرى ، فترى هيكل الأديب يعزل لنا اسراء النبى عليه السلام تعليلاً أدبياً حين مال الى الرأى الذى يرى أن اسراء النبى عليه السلام كان بالروح ، يقول : " والاسراء بالروح هو فى معناه كالاسراء والمعراج بالروح جميعاً سواء وجمالاً وجلالاً ، فهو تصوير قوى للوحدة الروحية من أزل الوجود الى أبدى ، فهذا التصريح على جبل سيناء حيث كلم الله موسى تكليماً ، وعلى بيت لحم حيث ولد عيسى ، وهذا الاجتماع الروحى ضمت الصلاة فيه محمداً وعيسى وموسى وإبراهيم مظهر قوى لوحدة الحياة الدينية على أنها من قوام وحدة الكون فى موره الدائم الى الكمال . والعلم فى عصرنا الحاضر يقر هذا الاسراء بالروح ويقر المعراج بالروح فحيث تتقابل القوى السلمية يشع ضياء الحقيقة ، كما أن تقابل قوى الكون فى صورة معينة قد طوع لما ركضى — اذ سلط تياراً كهربياً خاصاً من سفينة التى كانت راسية بالبندقية — أن يضئ بقوة موجات الأثير مدينة "سدى" فى استراليا (٢) . وفى عصرنا يقر العلم نظريات قراخ الأتكار ومعركة ما تتطوى عليه ، كما يقر انتقال الأصوات على الأثير بالراديو وانتقال الصور والمكتوبات كذلك ، مما كان يعتبر (٣) فيها من بعض أفانين الخيال ، وما تزال القوى

(١) حياة محمد ص ٢٩٠ وما بعدها .

(٢) الصواب : استرالية ، د / سرخان .

(٣) خطأ شائع ، والصواب : محمد ، د / سرخان .

الكمينة في الكون تتكشف لعلنا كل يوم عن جديد ، فإذا بلغ روح من القوة ومن السلطان ، ما بلغت نفس محمد ، فأسرى به الله لهلا من المسجد الحرام الى المسجد الأقصى الذي بارك حوله ليريه من آياته ، كان ذلك مما يقر العلم ، وكانت حكمة ذلك هذه المعاني القوية السامية في جمالها وجلالها ، والتي تصور الوحدة الروحية ووحدة الكون في نفس محمد تصويرا صريحا ، يستطيع الانسان أن يصل الى ادراكه اذا هو حاول السمو بنفسه عن أوهام العاجلة في الحياة ، وحاول الوصول الى كنه الحقيقة العليا ليصرف حقيقة مكانه وسكان العالم كله منها ^(١) .

٤ - " حياة محمد " سيرة تاريخية ، وليس تاريخا ولا ترجمة أدبية :

وخلاصة ما تقدم أن كتب " حياة محمد " على الرغم من طريقتيه العلمية التي انتهجها في العرض والتطيل والمناقشة والتعميم والتحقيق لا يمكن أن نعدده علم تاريخ بالمعنى الاصطلاحي للكلمة " علم " وذلك لأن قارئ هذا الكتاب لا يفتقد فيه عاطفة الكاتب ولا احساسه الأدبي ، كما لا يفتقد فيه صدق التعبير ووضوح اللغة وجزالة لعل ما تقدم من نماذج دليل صدق على ما نقول .

على أن الاحساس الماطفي والأسلوب الأدبي اللذين وجدناهما نفسي هذا الكتاب يعلى أن عذوبة اللغة وجزالة اللتين لسنأهما ، لا تجعلنا نضجع هذا الكتاب ضمن كتب التراجم الأدبية الخالصة ، لانفتاده بعضا من سمات الترجمة الأدبية ، التي منها اللغات الفنية التي تتعمق في البحث عن الشخصية المدروسة وتميش معها وتعطينا حياتها من الداخل .

أضف الى ذلك طريقة الكتاب العلمية التى تجعله الى الناحية العلمية أقرب منه الى الناحية الأدبية .

يقول الأستاذ : سيد قطب " . . . دراسات هيكل تنقصها وثبات الفكر وأريحية الشاعرية ، فهى " استطراد تفسيرى " أشبه شىء بالمذكرات القانونية و " الدفوع الفرعية " مع الشرح والتفسير والتحقيق ، لا تطلع فيها على أفق مجهول ولا عالم مكون " . (١)

وإذا كان كتاب " حياة محمد " ليس علم تاريخ ولا ترجمة أدبية فماذا يكون ؟

ان الكتاب باشتاله على منطقية العلم ورة الأدب - كما سبق أن ذكرنا - يجهلنا نقول ، ان الكتاب فى منزلة بين التاريخ علما ، والترجمة أدبا ، لأنه قد أخذ من التاريخ اعتماده على الوثائق والمدونات والأسانيد والنصوص ، وأخذ من الترجمة أنه قصة تتعلق بشخصية فذة دخلت التاريخ من أوسع الأبواب ، هى شخصية الرسول صلى الله عليه وسلم فضلا عن الأسلوب الذى صيغت فيه ، واحساس الكاتب نحو هذه الشخصية . وهذه المنزلة هى ما تسمى بـ " السيرة التاريخية " والسيرة قصة تاريخية لا تشذ أبدا عما يقيد التاريخ من حقائق تعتمد على الوثائق والمدونات والأسانيد القاطمة الهميدة عن الكذب والافتراء ، إلا أنها قصة تتعلق بحياة انسان فرد متمرك من الأثر فى الحياة ما جذب اليه التاريخ وأوقفه على بابها ، وهى أحفل من التاريخ العام بالمواطن الزاخرة الجياشة والأحاسيس النابضة ، لأنها تموض من سيرة الفرد لجوانب حياته المختلفة ، حتى تتجلى مقومات شخصيته وتبرز معالم حياته لتفصح عن

(١) كتب وشخصيات ص ٣٠٠ .

سر نهفته و تنفرده ، اذ لا تحفل السير الا بكل ناهضة فريد ، لهذا كانت
كتابة السير أمرا غير يسير لا يقدر عليها الا من أوى على قدرة المسوخ ،
واحساس الأديب معا " (١)

ملاحظة

(١) التاريخ والسير ص ٦١

"الفصل الرابع"

:: منهج هيكل وأهمه ::

- ١ - أساس منهج هيكل : المفضل .
- ٢ - تطبيق منهج هيكل في المجزات والخوارق ، وفي تنفيذ المزاعم .

١ - أساس منهج هيكل : العقل :

يعد كتاب " حياة محمد " أول دراسة من نوعها في العصر الحديث ، فلقد تناول السيرة النبوية بطريقة في المعالجة حديثة ، وأسلوب في كتابة التاريخ جديد ، وقصد هيكل من وراء ذلك أن يقدم لقارئ السيرة النبوية - مسلما أو غير مسلم - صورة لحياة الرسول الكريم نقية من كل شائبة ، واضحة لا لبس فيها ، ومن أجل ذلك كان لا بد أن يقرأ ما كتب في السيرة قديما وحديثا ، وأن يرجع إلى القرآن الكريم : " بدأت أراجع تاريخ محمد ، وأعيد النظر في سيرة ابن هشام وطبقات ابن سعد ومغازي الواقدي وعدت إلى كتاب سيد أمير على (روح الاسلام) ، ثم حرصت على أن أقرأ ما كتب بعض المستشرقين فطوت كتاب (دومنجم) وكتاب (واشنطن أرفنج) ثم انتهزت فرصة وجودي في الأصر في شتاء سنة ١٩٣٢ ، وبدأت أكتب ٠٠٠ ولقد تبين أن أصدق مرجع للسيرة إنما هو القرآن الكريم ، فيه إشارة إلى كل حادث من حياة النبي المصطفى ، يتخذها الباحث منارا يهتدى به في بحثه ويحصي على ضوائه ما ورد في كتب السنة ، وما جاء في كتب السيرة المختلفة " (١) .

ولقد ^{أوضحنا} ~~أوضحنا~~ سابقا وبيننا الطريقة التي عالج بها هيكل للسيرة النبوية ، كما أوضحنا - أيضا - الأسلوب الذي تناولها به وصاغها من خلاله ، وبيننا في هذا الفصل أن نتحدث عن المنهج الذي سار عليه هيكل في تحليله لوقائع السيرة ومناقشته للقضايا وعرضه للحوادث التي احتوتها السيرة النبوية .

والناظر في كتاب هيكلي يجد أنه قد استخدم - في تحليل وقائع السيرة وأحداثها - المنهج العقلي حيث قدم للقارئ السيرة النهرية من خلال المعركة العقلية ، وهو يقصر المعركة العقلية على الوقائع المادية وحدها ولا يمدّها إلى مجالات العقيدة والإيمان ، ومن هنا نراه يرفض الخوارق والمعجزات والتأبيدات الإلهية ، لأنها لا تدخل في دائرة المشاهد المحسوس . . . بل أن هيكلا قد بالغ في اعتياده على المنهج العقلي ، حين حاول تفسير النصوص القرآنية الصريحة الدلالة والأحاديث الثابتة تفسيراً ينسجم مع منهجه القائم على الوقائع المادية المحسوسة - ومعلوم أن العقل يستمد معرفته بالأشياء - وبالتالي حكمه عليها - من مصادر الحس وهي الحواس الخمس ، والحواس الخمس تستمد مدركاتها من عالم الحس الذي يحيط بها ، ومعلوم أيضاً أن عالم الحس مضبوط بنواميس محكمة لا تتغير ، ولا تتبدل ، ولقد ألف العقل هذه النواميس وأصبح لا يقبل أى خرق لها . .

ونخلص من هذا إلى أن هيكلا في اعتياده على العقل قد نفى كل ما يتصل بالرسول من معجزات وخوارق كما سبق أن قلنا ، من حيث هي خارقة للعادة ، وكل خارق لها لا يقبله العقل ، لأنه على غير ما ألف . .

يقول هيكلي : " هنالك تقدم غير الشعراء^١ فيسألون محمداً عن معجزاته التي يثبت بها رسالته ، معجزات كمعجزات موسى وعيسى ، فما باله لا يحيل الصفا والنجاسة^٢ ذهاباً ، ولا ينزل عليه الكتاب الذي يتحدث عنه مخطوطاً من السماء^٣ ! ولم لا يبدو لهم جهنم الذي يطول حديث محمد عنه ! ولم لا يحى الموتى ولا يسير الجبال حتى لا تظل مكة حبيسة بينهما ! ولم لا يفجر ينهوا أعذب من زمزم ماء " ، وهو أعلم بحاجة أهل بلده إلى الماء !

ولم يقف أمر المشركين عند التهمك بالمسألة في هذه المعجزات ، بل كانوا يزدادون تهكماً ويسألونه : لم لا يوحى إليه ربه أنمان السلح حتى

يضاربوا على المستقبل ، وطال بهم اللجاج ، فرد الوحي لجاجهم بما
أنزل على محمد من قوله تعالى : " قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا
إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبُ لَاسْتَكْرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ
إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ " (١) . نعم ! ما محمد الا نذير
وبشير ، فكيف يطالبونه بما لا يقبل العقل ، وهو لا يطلب اليهم الا ما
يقبله العقل ، بل يلميه ويحتمه ! وكيف يظلمون اليه ما تأنف منه
النفس الفاضلة ، وهو لا يطالبهم الا أن يستجيبوا لوحى النفس الفاضلة !
وكيف يظلمون اليه المعجزات وهذا الكتاب الذى يوحى اليه ، والسبى
يهدى الى الحق ممجزة المعجزات ! (٢)

وليس غريبا من هيكل أن يرتكن الى صوت العقل ، وجعله الأساس
فيما يصدر من آراء ، فهيكل قد تأثر بالفكر الأوهى ، وقد تعلم فى أوهية
أن لكل شىء ، ولكل كائن قوانين وحدودا لا يخرج عنها ، فكل ما يخرق
هذه القوانين لا يقبله العقل ، وما لا يقبله العقل باطل ، لا معجزة
اذن ولا خارقة ، كذلك فان هيكلا قد تأثر بأفكار " جان جاك روسو "
خاصة مقالاته الأولى حول " الانسان الطبيعى " .

وتتخص هذه الأفكار فى " أن الانسان بطبيعته خير ، وهو يقترب
من فطرته الخيرة كلما اقترب من الطبيعة ، وأن المجتمع يفورقه الطبيعة
واستبداده الحكوى وتقاليده الجامدة ، هو الذى يفسد الانسان ، وأن
العقل قادر على اكتشاف الحقيقة وحده دون واسطة (٣) من أحد أولجؤ
الى نص ، فالحقيقة هى ثمرة المواجهة المباشرة بين الانسان والطبيعة (٤)

(١) الآية : ١٨٨ من سورة الأعراف .

(٢) حياة محمد ص ١٠٦ ، ١٠٧ .

(٣) كذا وهو خطأ شائع والصواب : وساطة .

(٤) محمد وهولاه ص ٣٨ .

يضاف الى هذا كله، أن هيكلا باستخدامه للمنهج العقلى فى تحليل أحداث السيرة ووقائعها ، كان يقصد أن يجارى منهج المستشرقين فى كتاباتهم عن السيرة النبوية، وأن يرد عليهم مزاعمهم واقتراءاتهم بالمنهج الذى يدينون به ، ذلك المنهج الذى يعتمد على العقل وحده فى اثبات ما يمكن اثباته ونفى ما يراد نفيه .

٢ - تطبيق منهج هيكل فى المعجزات والخوارق ، وفى تفنيد المزاعم :

ويبدو المنهج العقلى الذى اعتمد عليه هيكل واضحا ، حين يحقق واقعة، أو يفند مزعما، أو يرفض خارقة، أو يحلل حادثة . . . وقد أشرنا الى طريقته - سابقا - فى تحقيق الوقائع وتحليل الأحداث .

وسمنا هنا أن نوضح منهجه العقلى فى رفض الخوارق وتفنيد المزاعم .

أما بالنسبة الى الخوارق والمعجزات، فإن هيكلا قد حاول - جاهدا - رفضها وانتكارها، فإن كانت الخارقة قد وردت عن طريق القرآن، فإنه يحاول تفسيرها؛ أما على أنها أمر طبعى كما فى معجزة غزوة الأحزاب، وأما أن يفسرها تفسيراً مادياً يمحدها عن دائرة المعجزة ويتلأم ومنهجه العقلى كما فى قصة أصحاب الفيل . . . وإن كانت الخارقة قد وردت عن طريق الروايات، فإن هيكلا يحاول - جاهداً أيضاً - تضعيف هذه الروايات أو توهين سندها ، كما فى حادثة شق الصدر ومعجزة الفار ، وإذا لم يستطع تضعيف الرواية أو توهين السند لوجود نص من القرآن يؤيد الرواية ، فإنه يحاول تفسيرها تفسيراً لا يتناقض ومنهجه العقلى المادى ، كما فى معجزة الاسراء والمصراع . . .

ففي معجزة غزوة الأحزاب، التي أيد الله فيها المسلمين بجنود
لم يرؤهم وأرسل ريحا شديدة اقطعت خيام المشركين وأكفأت قدورهم ٠٠
لم يشر هيكل الى هذا التأييد الالهي للمسلمين على أنه معجزة وخارقة
وانما أشار اليه على أنه أمر من أمور الطبيعة المأثرة ٠

يقول هيكل : " ٠٠ فلما كان الليل عصفت ريح شديدة، وهطل
المطر هاتئا، وقصف الرعد وخطف البرق واشتدت الماصقة فاقتطعت خيام
الأحزاب وكفأت قدورهم وأدخلت الرعب الى نفوسهم ٠٠ " (١)

ومثل تفسير هيكل لما حدث في غزوة الأحزاب على أنه عارض من
عوارض الطبيعة - تفسيره لما وقع لِمَوَاةَ لَمَّا سَاحَت أَقْدَامُ فَرَسِهِ فَنَسِيَ
الأرض حين أدرك النبي صلى الله عليه وسلم وصاحبة - فقد فسر ذلك
الذي حدث تفسيراً طبعياً ، وهو أن كبرة الفرس موة بعد موة، انما كان
نتيجة اعياء وتعب شديدين نالا الفرس لكثرة ما جهده، بقصد اللحاق بهم ٠

يقول هيكل : " ٠٠٠ وبدأ محمد وأبو بكر يفكران في امتطاء
جمالهم اذ كانوا من سراة قَيْدِ الْهَمَرِ ، وكان جواد سراة قد كباها -
قبل ذلك لشدة ما جهده ، فلما رأى الفارس أنه وشيك النجاح وأنه
مُدْرِكُ الرجلين فرادتهما الى مكة أو قاطعهما ان حاولا عن نفسيهما دفاعا ،
نسى كهوتى جواده ولزه ليمسك بيده ساحة الظفر ، لكن الجواد في قوته
كهاكة عنيفة ألقى بها الفارس من فوق ظهره يتدحرج في سلاحه ٠٠٠ " (٢)

وأما في قصة أصحاب الفيل التي وردت في القرآن الكريم، فاننا نقرأ
يفسر الطير الأبايل شعيراً ما دبا، بعده عن دائرة المعجزة ويتلوه بوضوحه

(١) حياة محمد ص : ٣٠٥

(٢) حياة محمد ص : ١٨٠

المقل ، ان يفسر الطير الأبايل بأنه ماء تشفى فى جيش أبرهة .

يقول هيكل : " . . . ذهب عبدالمطلب ومعه نفر من قريش فأخذ حلق باب الكعبة وجعل يدعو ويدعون ، يستصرون آلهتهم على هذا المحتدى على بيت الله ، فلما انصرفوا وخلت مكة منهم ، وأن لأبرهة أن يوجه جيشه ليتم ما اعتزم ، فيهدم البيت ويمود أدرجه الى اليمن ، كان ماء الجدري قد تشفى فى الجيش وبدأ يفتك به ، وكان فتكاً ذريعاً لم يمهّد من قبل قط ، ولعل جراثيم الهواء جاءت مع الريح من ناحية البحر ، وأصاب العدى أبرهة نفسه ، فأخذ الروع وأمر قومه بالعودة الى اليمن ، وفر الذين كانوا يدلون على الطريق ، ومات منهم من مات ، وكان الهواء يزداد كل يوم شدة ، ورجال الجيش يموت منهم من يموت كل يوم بغير حساب ، ولغ أبرهة صنعاً ، وقد تناسر جسده من المرض فلم يبق الا قليلاً حتى لحق بمن مات من جيشه " (١)

وفى معجزة الاسراء والمعراج نرى هيكل يفسرها تفسيراً يتلاءم ومنهجه المقل ، فهو يرى أن الاسراء والمعراج كانا بالروح لا بالجسد ، وأن لهذه الرحلة معنى أكبر من هذا الذى يصورون .

يقول هيكل " فى الاسراء والمعراج فى حياة محمد الروحانية معنى سام غاية السمو ، معنى أكبر من هذا الذى يصورون ، والذى قد يشوب بعضه من خيال المتكلمين المخلّين حظ غير قليل . فهذا السروح القوى قد اجتمعت فيه فى ساعة الاسراء والمعراج وحدة هذا الوجود بالغة غاية كمالها . لم يقف أمام ذهن محمد وروحه فى تلك الساعة حجاب من الزمان أو المكان أو غيرهما من الحجب التى تجعل حكمتنا

نحن في الحياة نسبها محدودا بحدود قوانا المحنة والمديرة والمناظرة .
تداعت في هذه الساحة كل الحدود أمام بصيرة محد، واجتمع الكون كله
في روحه ، فواء منذ أزل إلى أبدى صورته في تطور^(١) وحدته إلى الكمال
عن طريق الخير والفضل والجمال والحق في مفاهتها وتغلبها على الشر
والنقص والقبح والهاطل بفضل من الله وسفيرة . وليس يستطیع هذا السمو
إلا قوة فوق ما تعرف الطبائع الانسانية ٠٠٠ والاسراء بالروح هو نفس
معناه كالاسراء والممرج بالروح جميعا سماء وجمالا وجلالا ، وهو عسير
قوى للوحدة الروحية من أزل الوجود إلى أبدى ، فهذا التمرج على
جهل سيناء حيث كلم الله موسى تكليما ، وعلى بيت لحم حيث ولد عيسى ،
وهذا الاجتماع الروحي ضمت الصلاة فيه محمدا وعيسى وموسى وإبراهيم ،
مظهر قوى لوحدة الحياة الدينية على أنها من قوام وحدة الكون نفس
موره الدائم إلى الكمال^(٢) .

وهيكل - بهذا التفسير - يرى الاسراء والممرج " استجماعا
ذهنيا ونفسيا لوحدة الوجود من الأزل إلى الأبد في فترة من فترات
التألق النفساني الفذ ، الذي اختص به بشر نقي جليل مثل محد صلي
الله عليه وسلم ، وفي إبان هذا التألق الذي استعمل به على كل شيء
- استمرضى حقائق الدين والدنيا ، وشاهد صور الثواب والمقاب الخ ٠٠
فالاسراء حق ٠٠ وهو - عنده - روحى لا مادى ، ولكنه في اليقظة
لا في المنام ، فليس رؤيا صادقة ، كما يرى البعض ، بل هو حقيقة
واقعة على النحو الذى صورته ٠٠٠^(٣) .

(١) كلمة " تطور " غير موجودة في اللغة وهى من الأخطاء الشائعة .

(٢) حياة محد ص : ١٥٨ ، ١٥٩ .

(٣) فترة وفترات خطأ شائع والصواب : حقبة وحقب .

(٤) نفع السيرة للاستاذ محمد الغزالي ، ص ١٣٥ .

ويدلل هيكل على صحة تفسيره لرحلة الاسراء والمعراج ، فيقول :
 " والمعلم في عصرنا الحاضر يقر هذا الاسراء بالروح ، ويقر المعراج
 بالروح ، فحيث تتقابل القوى السلبية يشع ضياء الحقيقة ، كما أن تقابل
 قوى الكون في صورة ممينة قد طوع لما ركزنى " - إذ سلط تيارا كهربيا
 خاصا من سفينته التى كانت راسية بالبندقية - أن يضى بقوة موجبات
 الأثير مدينة " سدنى " فى استراليا ، وفى عصرنا هذا يقر المعلم
 نظريات قراح الأفكار ومعرفة ما تنطوى عليه ، كما يقر انتقال الأصوات
 على الأثير بالراديو وانتقال الصور والمكتبات كذلك ، مما كان يعتبر فيما
 مضى بعض أنانيين الخيال وما تزال القوى الكمية فى الكون تتكشف لعلنا
 كل يوم عن جديد " (٧)

ويمتطيح القارئ أن يلح منهج هيكل العقل فى تحليله لحادثة
 شق الصدر ، ومعجزة الفار وغيرهما من الخوارق والمعجزات التى لم
 نشر اليها ، فليرجع القارئ اليها اذا أراد .

وأما بالنسبة الى تغنيذ المزاعم ، ودحض المطاعن ، ودفع الشبهات التى
 وجهها المستشرقون وأعداء الاسلام الى الرسول صلى الله عليه وسلم ،
 فان هيكل قد احتكم الى العقل - أيضا - فى تغنيذ كل ذلك واطهار
 زيفه وابطاله ، وراح يناقشها مناقشة عقلية تعتمد على منطق سليم وحجة
 قوية ، ويهمنى فى هذا المجال أن نورد مثالا من الأمثلة التى ناقشها
 هيكل بعقله ومنطقه للدلل به على طريقتة العقلية التى انتهجها نفس

(١) الأصوب : يعد - لأن الاعتبار معناه : الاتماظ ، ولكن الكتاب

يخطئون كثيرا فى هذا .

(٢) حياة محمد ص ١٥٩ .

مناقشة هذه المطاعن .

من المطاعن التي وجهها المستشرقون كاتهام النبي بحب النساء اعتمادا على أنه تزوج^{مع} تسع زوجات مما فسره بعض المؤرخين المسلمين على أنه فحولة جسدية ظانين أن ذلك نوع من الكمال، وتهمهم المستشرقون في هذا التفسير - ولكن بدون توفير - فقالوا : انه اسراف في المتعة الجسدية .

وهنا يرد هيكل على أولئك المستشرقين ردودا ناصعة قوية قوامها العقل والمنطق والتاريخ الناصح لحياة النبي صلى الله عليه وسلم ، ويبدأ هيكل في شرح وتحليل البواعث والاسباب التي كانت وراء كل زيجة من زيجاته ، والتي لم تكن المتعة الجنسية والرغبة الجسدية واحدة منها ؛ فالرسول صلى الله عليه وسلم كان قد تزوج خديجة الأولى زوجاته ، وهو في الثالثة والعشرين ، وهو في شرح الصبا وريمان الفتوة ووسامة الظلمة وجمال القصات وكمال الرجولة ، ومع ذلك ظلت خديجة وحدها زوجة ثمانية وعشرين سنة حتى تخطى الخمسين ، في الوقت الذي تكبر فيه خديجة خمسة عشر عاما ، هذا على حين كان تعدد الزوجات أمرا شائعا بين العرب في ذلك الحين .

أما بقية أزواجه فخصنهن من تزوجها تمويضا لها عن فقد عائش أو تشريفا لها بالانتساب اليه كسودة بنت زمعة أرملة السكوان بن عمرو ابن عبد شمس . " ولم يرو راو أن سودة كانت من الجمال أو من الثروة أو من المكانة بما يجعل لمطعم من مظامع الدنيا أثرا في زواجه منها . انما كانت سودة زوجا لرجل من السابقين الى الاسلام الذين احتلوا في سبيله الأذى ، والذين هاجروا الى الحبشة بعد أن أمرهم النبي بالهجرة عبر البحر اليها . وقد أسلمت سودة وهاجرت معه ، وعانت من المشاق ما

عاني، ولقيت من الأذى ما لقي، فإذا تزوجها محمد بعد ذلك ليعملها
وليترفع بمكانتها إلى أمة المؤمنين، فذلك أمر يستحق من أجله أسمى
التقدير وأجل الحمد (١).

ومنهن من تزوجها دعاء لروابطه بأسرتها كعائشة بنت أبي بكر
وحفصة بنت عمر: "أما عائشة وحفصة فكانتا ابنتي وزيريه: أبي بكر
وعمر، وهذا الاعتزاز هو الذي دعا محمدا أن يرتبط وياهما برابطة
المصاهرة بالتزوج من ابنتيهما ٠٠٠ ليعتن أواصر هذه الجماعة الإسلامية
الناشئة في شخص وزيريه، كما تزوج من سودة، ليعلم المجاهدون من
المسلمين أنهم إذا استشهدوا في سبيل الله قلن يتروا وراءهم نسوة
وذرية ضامنا يخافون عليهم غيلة" (٢).

وكان السبب الذي من أجله تزوج سودة، هو نفس السبب الذي
من أجله تزوج زينب بنت خزيمة، ومن أم سلمة. فقد كانت زينب
زوجة لعبيدة بن الحارث بن المطلب الذي استشهد يوم بدر، ولم
تكن ذات جمال، وإنما عرفت ببطولتها واحسانها حتى لقيت أم المصاكين،
وكانت قد تخطت الشباب ٠٠٠ أما أم سلمة فكانت زوجة لأبي سلمة،
وكان لها منه أبناء عدة. وقد سبق القول: ان أباسلمة جرح في أحد
ثم برأجرحه، فعقد له النبي لحرب بني أسد فشتتهم وطاد إلى المدينة
بما غنم، ثم نشر عليه جرح أحد ومازال به حتى قضى عليه ٠٠٠ ومحمد
أربعة أشهر من وفاته طلب محمد إلى أم سلمة يدها فاعتذرت بكثرة
الميال، وأنها تخطت الشباب، فمازال بها حتى تزوج منها، وحتى
أخذ نفسه بالعناية بتثنية أبنائها. أفيزعم المبشرون والمستشرقون بعد

(١) حياة محمد ص: ٢٨٧

(٢) حياة محمد ص: ٢٨٨

ذلك أن أم سلمة كانت ذات جمال ، هو الذى دعا محمدا الى السترج منها ؟ ان يكن ذلك فقد كانت غيرها من بنات المهاجرين والأنصار من تفوقها جمالا وشبابا وشرقة ونضرة ، ومن لا يسهظه عب عيالها ، لكنه انما تزوج منها لهذا الاعتبار السامى الذى دعاه ليتزوج زينب بنت خزيمة . . . (١)

ومنهن من تزوجها الرسول لتقرير مبدأ تشريعى ، كزينب بنت جحش التى تزوجها الرسول صلى الله عليه وسلم بعد أن طلقها متنهأه : زيد بن حارثة ، وذلك ليقرر مبدأ تشريعى ، وهو أن الابن المتبنى ليس كالابن الأصل ، وليس له من الحقوق الشرعية ما للابن ، عكس ما كان ممرورا وشائعا بين العرب ، الذين جعلوا للمتبنى ما للابن من الحقوق ، ولكى يهدم الرسول هذه العادة ، وليقيم مكانها هذا المبدأ التشريعى ، وهو أن الأدياء ليسوا كالأبناء ، كان زواج الرسول - بأمر من الله تعالى - من زينب بنت جحش بعد تطليق زيد أياها ، وتلك كانت الحكمة من زواج الرسول لزينب ، وليس كما يدعى المستشرقون والمبشرون من أن الرسول شغف حيا بزينب بنت جحش ، وهى تحت زيد بن حارثة مولاه ، لغير شيء إلا أنه مر بهيت زيد وهو غائب فاستقبلته زينب ، وكانت فى ثياب تدهى محاسنها ، فقال : سبحان الله مقلب القلوب ، وأنه كره هذه العبارة ساعة انصرافه ، فسمعتها زينب ، ورأت فى عينه وهج الحب فأعجبت بنفسها وأبلغت زيدا ما سمعت فذهب من فوره الى النبى يذكر له استعداده لتصريحها ، فقال له : أمسك عليك زوجك واتق الله ، لكن زينب لم تحسن من بعد عشرته فطلقها ، وأمسك محمد عن زواجها

وطلبه في شغل بها حتى نزل قوله تعالى من سورة الأحزاب : " يَا ذَا الْقُرْآنِ إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُكَذِّبُ بِهِ ۖ وَلَمْ نُكَلِّمُ بِهِ شَيْئاً ۚ وَلَئِنْ كُنَّا نَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ لَخَرَجْنَا بِهِمْ أَقْدَامَهُمْ فَاعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَعِيرًا " ١٠٠ الى قوله : وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَقْعُودًا " (١) اذ ذاك تزوجها ، فأطلقا بزواجهما لاذع جهه ، ومتوهج غرامه ٠٠

وهنا ينبغي هيكل للرد على هذه الفرية ، ويبين بالمنطق والعقل والفهم السليم لوقائع الأمور أن زواج الرسول من زينب بنت جحش ليس كما يدعى المستشرقون والمبشرون ، وإنما كان للمقاصد التشريعية التي أسلفنا الحديث عنها ٠٠

يقول هيكل : " أما قصة زينب بنت جحش ، وما أضفى بمفض الرواة وما أضفى المستشرقون والمبشرون عليها من أستار الخيال حتى جعلوها قصة غرام ووله ، فالتاريخ الصحيح يحكم بأنها من مفاخر محمد ، وأنه ، وهو المثل الكامل للإيمان ، قد طبق فيها حديثه الذي معناه : لا يكمل إيمان المرء حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه ، وقد جعل نفسه أول من يضرب المثل لما يضح من تشريح يحو به تقاليد الجاهلية وعاداتها ويقربه النظام الجديد الذي أنزل الله هدى ورحمة للمالئين ، ويكفسي لهدم كل القصة التي قرأت عنها من أساسها أن تعلم أن زينب بنت جحش هذه هي ابنة أمية بنت عبدالمطلب عم رسول الله عليه السلام ، وأنها ربيت بحمينه وعنايته ، وأنها كانت لذلك منه بمقام البنات أو الأخوات الصغرى ، وأنه كان يعرفها ويعرف أهلها ذات مقاتن أم لا قبل أن تتزوج زيدا ، وأنه شهد بها في نوحها تحو من الطفولة الى الصبا الى الشباب ، وأنه هو الذي خطبها على زيد مولاه ٠٠٠ ولو أن شيئاً من جهها علق بقلبه لخطبها الى أهلها على نفسه بدل أن يخطبها على زيد ، وهذه الصلة بين زينب ومحمد ، وهذا التصوير الذي صورناها به لا يدعان بمحدهما لتلك القصة الخيالية التي يروون أي أساس أو أي حق

من البقاء . (١)

ومعد أن هدم هيكل ما كان قد بناء المستشرقون والمبشرون من قصص خيالية واهية حول زينب بنت جحش ورؤية الرسول اياها بين هيكل الحكمة التي كانت وراء زواج الرسول من زينب بنت جحش بمعد أن طلقها زيد .

يقول هيكل : " . . . وكان الشارع الحكيم قد أراد أن يطل ما كانت تدبر به العرب من التصاق الأدعياء بالبيوت ، واهمالهم بأنسابها ومن اعطاء الدعي جميع حقوق الابن ومن اجرائهم عليه أحكامه حتى نسي الميراث وحرمة النسب ، وألا يجعل للمتني واللصيق الا حق المولى والأخ في الدين ، فنزل قوله تعالى : " وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ كُنْمْ ذَلِكُمْ قَوْلَكُمْ بِأَفْوَاهِكُمْ وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ " (٢) ومعنى هذا أنه يجوز للمدعي أن يتزوج من كانت زوجا لمن ادعاه . ويجوز للمتني أن يتزوج من كانت زوجا لمتناه . ولكن كيف السبيل الى تنفيذ هذا ؟ ومن من العرب يستطيعه وينقض به تقاليد الأجيال السالفة جميعا ؟ ان محمدا نفسه على قوة عزيمته وعميق ادراكه لحكمة الله في أمره قد وجد على نفسه الغضاضة في تنفيذ هذا الحكم بأن يتزوج زينب بمعد تطليق زيد اياها . ودار بخاطره ما يمكن أن يقول الناس في خرقه هذه المادة القديمة المتأصلة في نفوس العرب ، وذلك ما يريد تعالى في قوله : " وَتَخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ " (٣) لكن محمدا كان القدوة في كل ما أمر الله به وما ألقى عليه أن يبلغ رسالته ، فلا يخش ما يقول الناس في تزوجه من زوج زيد

(١) حياة محمد ص ٢٩٠ ، ٢٩١ .

(٢) الآية : ٤ من سورة الأحزاب .

(٣) الآية : ٣٢ من سورة الأحزاب .

مولاه، فذلك لا شيء، الى جانب خشية الله بتفويض أمره ، وليتزوج من
 زينب ليكون قدوة فيما أبطل الشارع الحكيم من الحقوق المقررة للتبني
 والادعاء . وفي ذلك نزل قوله تعالى : " فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا
 زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي
 أَنْزِلُوا مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا " . (١)

تفسير

(١) الآية : ٣٧ من سورة الاحزاب .

(٢) حياة محمد ص ٢٩٢ و ٢٩٣ .

الفصل الخامس

" حياة محمد " في ميزان النقـــد

- ١ - قيمة الكتاب وأثره ..
- ٢ - مناقشة هيكل في خطأ اعتماد منهجه على العقل فقط ، وتعليق
ركونه اليـــــــس ..
- ٣ - مناقشة هيكل في تحليله لبعض الخوارق التي حاول تفسيرها تفسيراً
عقلياً ..
- ٤ - مناقشة هيكل في تحليله الخاطيء لبعض الأحداث والوقائع ..

١ - قيمة الكتاب وأشهره :

لا يستطيع باحث أو مفكر أن يشك في القيمة العلمية والأدبية بل والاسلامية لكتاب " حياة محمد " لهيكل ، كما لا يستطيع أن يجحد الفضل الذي قدمه هيكل لقراء العربية في مجال السيرة النبوية ، حيث عرض هذه السيرة في ثوب جديد لم يك مصروفًا لقراء العربية في تلك المدة التي ظهر فيها هذا الكتاب ٠٠٠ سواء في طريقته أو أسلوبه أو منهجه ، كما سبق أن أوضحنا ، وهذا يمد " حياة محمد " فتحًا جديدًا في مجال الدراسات الاسلامية عامة ، والسيرة النبوية خاصة ، حيث تلت محاولة هيكل محاولات أخرى في هذا المجال ، تنحو نحو هيكل في الجمع بين التاريخ والأدب ، أبرزها كتابات " طه حسين " و " الرافعي " و " الشهيد " و " العقاد " و " الزيات " وغيرهم ، وقد أطلق على هذا اللون الجديد من الكتابة اسم : " تأديب التاريخ " كما أشرنا الى ذلك من قبل .

ولم يكن ما قدمه هيكل من طريقة جديدة في مجال الكتابات الاسلامية ، قاصرا على كتاب " حياة محمد " بل تلتته كتب أخرى - في هذا المجال - أمثال : " أبوبكر الصديق " و " الفاروق عـ " و " عثمان " و " في منزل الوحي " و " الامبراطورية والأماكن المقدسة " (١)

وهيكل بهذا السبق في مجال السير والتراجم الاسلامية ، يمد من رواد الفكر في العصر الحديث ، بما حدا بالأستاذ العقاد أن يقول

(١) الكتاب الأخير طبع في دار الهلال " كتاب الهلال " العدد ١٢٠ (مارس ١٩٦٣) .

عنه : " ولا شك أن هيكل المورخ وكاتب السيرة جدير بأن يملك فى
عداد نوابغ مصر والأمة المصيرية ، بل جدير بأن يملك فى عداد
الكتاب العالميين ان جاز أن يكون مصريا فحسب ، فى غير هذا المجهول^(١) "

ولكن على الرغم من هذا السبق الذى حاز به هيكل والذى كانت
له آثاره فى مجال الكتابات الاسلامية ، حيث توالى تلك الكتابات تحذو حذو
هيكل فى محاولته كتابة التاريخ بطريقة جديدة تجمع بين التاريخ والأدب ..
... أقول : على الرغم من هذا كله ، نرى أن كتاب
" حياة محمد " موضوع بحثنا لا يخلو من نقدرات ، نرى من الواجب
إيرادها ، اتماما للبحث وانصافا للحق ..

٢ - مناقشة هيكل فى خطأ اعتياده منهجه على الحق فقط ، وتبليغ
ركنه البهيم :

قلنا سابقا : ان هيكل قد اعتمد فى تطيله لأحداث السيرة النبوية
ووقائمه .. بها على المنهج العقلي ، ولقد حاول هيكل اخضاع هذه
الأحداث وتلك الوقائع للمقاييس العقلية التى تعتمد على الواقع المحسوس
~~هو أن كل من واقع الحياة أو من واقع التاريخ~~ ... ونحن لا ننكر
على هيكل اعتماده على العقل ، لأن العقل أودع فى الانسان ، كى
يفكر به ويصل عن طريقه الى الحقيقة التى يود الوصول اليها .. وانما
الذى ننكره على هيكل ، هو اسرافه فى الاعتماد على العقل وتحكيمه فى
كل ما يعين له من أمور ، حتى فى المجالات التى ليس للعقل مجال
فى الحكم عليها ، لأنها فوق قدرته وطاقته ، كالمعجزات والخيوارق ،

(١) من مقالة بكتاب " الدكتور محمد حسين هيكل " ص ٢١٣ .

لأن للمقل - لا شك - وظيفة ، وله قدرة ، كما أن له - أيضا - حدوده وروافده التى تنده بالمعلومات والمعارف والمدركات التى تصل الى تلك الروافد - فما كان داخلا من هذه المدركات فى دائرة ادراكه فله أن يحكم عليها ، وما ليس داخلا منها فى دائرة ادراكه فليس له أن يحكم عليها .

وما يدخل فى دائرة ادراك العقل ، هو ما جاء من المدركات عن طريق الحواس الخمس ، التى تنده بها من عالم الحس المحيط بها ، لأن ما جاء منها عن طريق الحواس الخمس المستمد من عالم الحس خاضع للمقاييس العقلية والنواميس الطبيعية المادية .

وما لا يدخل فى دائرة ادراك العقل ، هو ما جاء من المعارف خارجا عن عالم الحس والمادة وهو ما يسمى بـ " ما وراء الطبيعة " أو " ما وراء المادة " لأن ما جاء للعقل مما وراء الطبيعة أو المادة ليس خاضعا للمقاييس العقلية المحدودة والنواميس الطبيعية المادية ، وعلى العقل ان جاء اليه شئ من المعارف أو الأخبار التى لا تخضع للمقاييس العقلية المادية والتى لا تتأتى الا عن طريق السماع - أن يؤمن به - ايمانا مبنيا على الاقتناع والتسليم دون مناقشة ودون شك ، وذلك اذا تلقى الخبر من صادق أمين ، له قدرة على الاعمال بما وراء المادة ، ولا يكون ذلك الا للكثيراء والرسلى (١) .

ونخلص من هذا الاستطراد الى القول بأنه كان مقبولا من هيكل مناقشات العقلية المبنية على المنطق الواضح والحجة البينة التى ملأها

(٢) راجع ذلك بالتفصيل فى كتاب " صور من حياة الرسول " ٦٠٤ - (ملحق : الاسراء والمصراع) .

كتابه ، والتي تدخل فى المجالات العقلية ، وذلك مثل مناقشاته للطموون والمزام التى وجهها المستشرقون والمبشرون الى الرسول صلى الله عليه وسلم كان مقبولا أن يناقش هذا كله وأن يجبه بالعقل والمنطق كل هاتيك الطموون والمزام .

فى الوقت الذى نقبل فيه من هيكل هذا ولا ننكره عليه ، نقرر أننا لا نقبل منه - بل ننكر عليه - أن يقم العقل فيما لا مجال للعقل فى الحكم عليه ، وذلك كتحكيمه العقل فى مسألة الخوارق والممجزات التى جاءت فى ثنايا وقائع السيرة النبوية وأحداثها ، لأن هذه الأمور ليست خاضعة - كما قلنا - للمقاييس العقلية ، والنواميس الطبيعية والمادية . ومن هنا راج هيكل يَصْمَفُ من أسانيدها أو يوهن رواياتها أو يؤولها تأويلا يتفق تماما مع المقاييس العقلية المادية . وكان على هيكل أن يسلم بهذه الممجزات وتلك الخوارق ، وأن يؤمن بها ، تسليما وإيمانا لا يدعان مجالاً لريبة أو شك ، لا سيما تلك الممجزات والخوارق التى لا مجال لتكذيبها وانكارها ، أو تأويلها تأويلا عقليا خاضعا لما هو مقرر نفسى عالم الحس والمادة ، وذلك كالممجزات والخوارق التى وردت فى القرآن الكريم ، كالأسراء والمصراع وتأييد الله المسلمين فى بدر والخندق وحسين بجنود لم يروها أو تلك الممجزات التى جاءت بها روايات مشوق بصحتها ولا مجال لانكارها .

وهيكل قصد الى ذلك قصدا ، لأنه أراد أن ينقى السيرة النبوية مما قد علق بها مما أضافته كتب السيرة الى حياة النبى مما لا يصدقه العقل ، ولا حاجة اليه فى ثبوت الرسالة - كما يذكر ذلك فى تقديم كتابه - من الممجزات والخوارق التى اتخذ منها المستشرقون تكملة

للنيل من الاسلام ونبيه ، وسبيلا الى الطمن فى تاريخ الاسلام . . (١)

وقد ذكرنا من قبل أن هيكلًا قد اتخذ من العقل حكما وهو يكتب السيرة النبوية وأنه حاول تفسير الوقائع والأحداث من خلال هذا المقياس ، كى يجارى طريقة المستشرقين التى بها يؤمنون ، وطبيها يسيرون " وقد تبين من يحد أن الدكتور هيكل انما كان يهدف الى اختصار منهج المستشرقين أنفسهم فى الكتابة عن السيرة وأنه تجاهل كثيرا من الجوانب الروحية الفذة التى قد تتعارض مع الأمور المادية وهو ما لا يحدث الا لذوى الرسائل الالهية " (٢)

وقد فات هيكل أن هؤلاء المستشرقين هم اليهود والمسيحيون أتباع الكتاب المقدس .

والمهد القديم والمهد الجديد جميعا ، تنص أسفارهما على معجزات لا يتقبلها العقل ولا تخضع لمصادقات الطبيعة . (٣)

ويرى بعض الباحثين أن الذى حدا بهيكل الى سلوك هذا المنهج الاستشراقى هو التهييب من حدة النقد القوي للمعجزات وعدم ركون العقليّة المادية اليها أو اطمئنانها لها ، فعمل هيكل - كما عل قبله جماعة من الباحثين المسلمين - على تهوينها أحيانا أو جعلها صادقة من أحداث الطبيعة أحيانا أخرى ، وربما أعرضوا عنها نهائيا ، وجرت فى هذا الطلّ كى فى التفسير وقصص الأنبياء والسيرة النبوية . (٤)

(١) راجع : حياة محمد ص ١٤٤ ، ١٥

(٢) أضواء على الأدب العربى المعاصر ص : ٢٨٥ ، ٢٨٦

(٣) راجع " مجلة الأزهر " - السنة الثامنة والثلاثون - ص : ١٧٠ ، ١٧١

(٤) المرجع السابق - ص : ١٦٨ - ١٧٠

يقول الباحث : " . . . وعلى هذا النهج جرى الدكتور هيكل فى كتابه " حياة محمد " ، اذ كان مجرد حياة النبى صلى الله عليه وسلم من كل معجزة عدا القرآن، ولعمل هذا هو الذى اضطره الى الانغصاء عن عمل الملائكة يوم بدر والوعد بهم يوم أحد ، وتأيد جنود الله للنبى والمؤمنين يوم الأحزاب ويوم حُنين ، وعن كون الاسراء والمعراج بالروح والجسد معا ، وقد اكتفى بمرض ما فى المسألة من خلاف وعنى بشرح الأدلة التى تؤيد أنها بالروح ، كما فسر حادث سراقه بأنها كانت كهوات جواد أجهده السير حتى تطير سراقه ورجسح " (١)

كما يرجع باحث آخر سلوك هيكل وغيره هذا المنهج العقل السانينهار هؤلاء الكتاب بالنهضة العلمية فى أوربة " . . . ذلك الانهيار الذى أصيب به كثير من العقول الصربية المسلمة من أنها النهضة العلمية فى أوربا (٢) فقد راحت تلك العقول تتوهم - تحت تأثير ذلك الانهيار - أنه ليس بين المسلمين وبين أن ينهضوا مثل تلك النهضة الا أن يفهموا الاسلام هنا ، كما فهمت أوربا النصرانية هناك ، وأن يضعوا حقائق الاسلام الغيبية من وراء اكتشافات العلم المادية ، فلا يؤمنوا بغيب لم يدركه علم ، ولا يعرجوا على معجزة لم يؤيدها اكتشاف أو اختراع ، فاذا فعلوا ذلك نهضوا نهضة أوربا فى علومها ولحقوها فى رقيها وفنونها " (٣)

ثم يذكر هذا الباحث أن هؤلاء المنهبرين بالنهضة الأوربية والذين حاولوا كتابة التاريخ الاسلامى والسيرة النبوية من خلال مناهجهم العلمية

(١) راجع " مجلة الأزهر " - السنة الثامنة والثلاثون - ص ١٦٨ - ١٧٠ .

(٢) كذا ، والصواب : أوربة - بالتاء - .

(٣) " فقه السيرة " للدكتور : محمد سعيد رمضان البوطى ص : ٨

الحديث - يذكر أنهم هدوا ذلك "اصلاح ديننا".

"... ومن هنا أنشأ أقطاب تلك المدرسة ما زعموه "الاصلاح الديني" والدين الصحيح ما كان يوما ما ليفسد حتى يحتاج الى مصلح أو اصلاح ، وكان من مظاهر هذا "الاصلاح" ظهور أول تجربة تحاول تطويل حياة الرسول صلى الله عليه وسلم تحليلا يسير في خضوع منكسر وراء العقبة الأوربية ، وتحت لواء ما زعموه " العلم الحديث " .

أجل ، فلقد كان كتاب " حياة محمد " لحسين هيكل ، التجربة الرائدة في هذا المضمار ، أعلن فيه الرجل أنه لا يريد أن يفهم حياة محمد صلى الله عليه وسلم الا كما يأمر به "الحلم" ولذلك فلا خوارق ولا معجزات في حياته عليه الصلاة والسلام ، انما هو القرآن والقرآن فقط ... " (١)

ونحن من جانبنا نقول لهيكل ومن جرى على نهجه : ما الذي يمنع أن تقع خوارق ومعجزات في حياة الرسول صلى الله عليه وسلم ؟ ألم تقع خوارق ومعجزات في حياة الرسل السابقين ؟ والرسول ليس يدعى من الرسل .

ثم اننا نقول لهيكل : اننا محك في أن المعجزة المتحدية بها ، بل الدليل الأول على صدق رسالة الرسول ، انما هي القرآن . . . وليست تلك المعجزات والخوارق الدليل على صدق الرسالة ، وليست من قبيل المعجزات والخوارق المتحدية بها ، وما تلك المعجزات والخوارق التي وقفت له الا تأييدات وبانة ، قصد بها تثبيت ايمانه وتقوية عزمه ، كالسنة

(١) "فقه السيرة" للدكتور : محمد سعيد رمضان البوطي ص : ٨ .

وقعت يوم بدر والخندق وحينئذ .. والا تعظيم وتكريم قصد به اعلام الرسول بمحظي مكانته ، وطو قدره عند الله ، وأن الله مؤيده وناصره ، وذلك كمعجزة الاسراء والمعراج .. وهكذا .

واذا كان الأمر كذلك فيما يتعلق بأثر هذه الخوارق وتلك المعجزات وقيمتها ومكانتها بالنسبة للرسول فلم يحاول هيكل - جامدا - انكارها ، أو تضييعها ، أو تأويلها تأويلا لا يتطابق مع مفزاها وهدفها ؟ !

٣ - مناقشة هيكل في تحطيمه لبعض الخوارق التي حاول تفسيرها تفسيراً عقلياً :

ولعل من الواجب أن نناقش هيكل في بعض هذه الخوارق التي حاول تفسيرها تفسيراً يتفق ومنهجها العلمي ، وستكون مناقشتنا اياه قائمة على منهج علمي سليم لا مجال للاختلاف عليه ..

في قصة أصحاب الفيل فسر هيكل الطير الأباهيل بأنه ماء نثسي في جيش أبرهة وليس طيراً حقيقياً ، وهيكل قد لجأ الى هذا التفسير ، لأن عقله يستبعد أن يأتي طير يحمل حجارة ، ثم يرمي بها جيش أبرهة بحينه يقصد اهلاكه وابطاده .

وكان على هيكل أن يمعن النظر في سورة " الفيل " وأن يرى ما فيها من دلالات قوية تؤكد أن المقصود بالطير في السورة الطير الحقيقي .

أولى هذه الدلالات : أن القرآن نزل على لفظ " الطير " ومصرف في المربة أن اللفظ يصرف الى معناه الحقيقي ما لم يوجد ما يصرفه عن هذا المعنى الحقيقي من قرائن لفظية أو معنوية ، وليس في السورة ما يصرف لفظ " الطير " عن معناه الحقيقي الى معنى آخر ، بل ان في

السورة ما يؤكد ويقوى أن المقصود بالطير حقيقة الطير ، وهو قوله :
 " ترسيمهم بحجارة من سجيل " اذن فهناك رعى وهناك حجارة ، ولا يتأتى
 رعى بحجارة الا من طير حقيقى .

ثانية هذه الدلالات : أن مطلع السورة وما تلاه : فيه من الدلالات
 القوة على أن ما حدث لأصحاب الفيل على الوجه الذى ذكرته السورة
 كان حقيقة يجب على كل مسلم أن يعلم بها ، وذلك حيث أسند الفعلان :
 "فعل" و"أرسل" الى الله ، الأول الى صريح لفظ الرب ، والثانى الى
 ضميره ، حيث قال : " أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ ؟ ٠٠ وَأَرْسَلَ
 عَلَيْهِمْ كَيْدًا أَبَاطِيلَ " ^(١) ومعلوم أن الفعل والمفعول يفسران فى ضوء الفاعل ،
 فاذا كان الفاعل ما يقدر على أحداث الفعل الواقع بالمفعول ، ففسر
 الفعل والمفعول تفسيراً ينصرف الى حقيقة لفظهما ، وإذا كان الفاعل
 ما لا يقدر على أحداث الفعل الواقع بالمفعول ، ففسر الفعل والمفعول
 تفسيراً يتفق ويتناسب وقوة هذا الفاعل .
 الواردين فى السورة : " فعل " و"أرسل " نجدهما قد أسندا الى
 الله : الى صريح لفظ الرب فى الأول ، وإلى ضميره فى الثانى ، كما
 ذكرنا ، وإذا كان الفاعل بأصحاب الفيل هو الله ، وإذا كان المرسل
 عليهم " طيرا أبابيل " هو الله ، فيجب أن يفسر ما فعله الله بأصحاب
 الفيل تفسيراً حقيقياً ، اذن فارسل الطير الأبابيل حقيقة ، وليس
 وباءً تفشى فى جيش أبرهة كما يرى هيكلى .

ولماذا يتكلف هيكلى ويتمصف ، ففسر الطير الأبابيل على أنها
 ماء ، مع أنه قد علم من القرآن الكريم ، أن الذى أرسل الطير الأبابيل
 على جيش أبرهة هو الله ، ^(١) الله بقادر على ارسال طير حقيقة
 ترسيمهم بحجارة من سجيل ؟ !

(١) الآية ١ ، ٣ من سورة الفيل .

وهناك دلالة ثالثة عظيمة، تؤكد أن ما فعله الله بأصحاب الفيل وما أرسل عليهم من طير أبابيل ... ترهبهم بحجارة من سجيل - كان حقيقة واقعة ، وهى أن القرآن الكريم حين أخبر عن هذه الحادثة لم يستطع أحد أن ينكرها ، لا سيما أن هذه السورة حين نزلت كان هناك من العرب من حضروا هذه الحادثة ، فلو لم تقع هذه الحادثة على الوجه الذى صوره القرآن لأنكرها المشركون حين سمعوها ، لا سيما أنهم كانوا يتصيدون للرسول الثغرات ويلفقون له الأكاذيب ، ومع ذلك لم يثبت أن أحدا أنكر هذه الحادثة على النحو الذى ذكرته السورة ، وهذه دلالة عظيمة قوية على أن الطير الأبابيل كان حقيقة وليس ما .

وفى حادثة الاسراء والمعراج يذهب هيكل الى أنها كانتا بالروح لا بالجسد وقد سبق أن أشرنا الى تفسيره للاسراء والمعراج فى موضعه . . . وكان على هيكل أن يمعن النظر فى النصوص القرآنية التى وردت فيها حادثة الاسراء والمعراج ، ليرى ما فيها من دلالات قوية على أن الاسراء والمعراج كانتا بالروح والجسد معا وليس بالروح فقط كما يرى هيكل . .

فمن الاسراء يقول الله تعالى : " سُبْحَانَ الَّذِى أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى " (١) فنرى أن الفعل " أسرى " مسند الى الضمير الذى يرجع الى الله ، وقد سبق أن ذكرنا أن الفعل يفسر فى ضوء الفاعل ، وإذا كان الذى أسرى عبده هو الله ، فيجب أن يفسر الاسراء بالرسول على أنه كان حقيقة بالجسد والروح وليس بالروح فقط ، ولا جدال فى ذلك ولا مراءاة ، ولا أحد يستطيع أن يتعمل

(١) الآية ١ من سورة " الاسراء " .

بقانون المسافة ويضم أن الاسراء كان بالروح ، لأن الذى أسرى بمجده هو الله ، والذى خلق قانون المسافة هو الله ، والذى خرق هذا القانون للرسول هو الله ، لأن خالق القانون قادر على خرقه . هذه دلالة .

ودلالة أخرى على أن الاسراء كان بالجسد والروح مما أن متعلق الفعل " أسرى " وهو لفظ " بمجده " لا يطلق الا على الجسد ، فلا يقال عن الروح عهد " وهذا أمر معروف فى اللغة الصربية .

وعن المعراج يقول الله تعالى : " ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى . فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى . فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى . مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى . أَفَتُنَبِّئُونَ عَلَىٰ مَا يَرَى . وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى . عِنْدَ رِندَةِ الْمُتَنَبِّئِينَ . عِنْدَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَى . إِذْ يَمْشَى النَّفْسُ مَا يَفْشَى . مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى . لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى " (١) .

والناظر فى صدر هذه السورة يرى أنها تصدرت بقوله تعالى : " وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ . مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ . وَمَا يَنْطَلِقُ عَنِ الْهَوَىٰ . إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى " (٢) .

ولهذا التصدير دلالة وفغراء ، إذ يقرر - ابتداء - أن الرسول صادق فيما يُخبر به ، لأنه يخبر عن وحى وليس عن هوى ، فإذا ما أخبر بخبر أو حدث بشئ ، كان خبره صادقا وحديثه حقيقة لا مراها فيها . فإذا جاء بعد هذا التصدير الحديث عن المعراج وما حدث به الرسول الناس عما رآه فى معجازه ، فيجب أن يُسلَّم بوقوعه ، لا على أنه بالروح

(١) الآيات ١٨/٨ من سورة " النجم " .

(٢) الآيات ١ / ٤ من السورة نفسها .

فقط، ولكن بالروح والجسد معا ، لأن الرسول صادق فيما يخبر به ، والقرآن يؤكد هذا المعنى الحقيقي الحسى للمصراع بقوله : " أَفَتَمَارُونَهُ عَلَى مَا يَرَى " فلو لم تكن الرؤية حقيقية بالجسد والروح ، وليست منامية بالروح أو يقظة بالروح ، لما قال الله تعالى : " أَفَتَمَارُونَهُ عَلَى مَا يَرَى " لأن الممارسة لا تقع الا حين يختلف على شئ ، والاختلاف على الشئ انما يكون فى كونه حقيقة واقعية ، لا رؤيا منامية ، لأن أى انسان يمكن أن يرى فى منامه أشياء ما كان ليبرأها لو كان فى اليقظة ، ويمكن أن تقع له أشياء ما كانت لتقع لو كان فى اليقظة ، ومع ذلك يخبر بما رأى ولا يجادل به فيه انسان ، فالممارسة انما وقعت لأن الرسول أخبرهم بأنه عرج به حقيقة بجسده وروحه الى السماوات العلا ، وأنه شاهد ما شاهد فى رحلته هذه بعين بصره وبصيرته ، كما قال تعالى : " مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى . لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى " ان لو كانت رحلة المصراع منامية أو بمرجه يقظة وأخبرهم الرسول بذلك لما كان فى ذلك موضح للانكار ولا مكان للممارسة .

وكان على هيكل أن يسلم بذلك تسليما قاطعا وعلى الوجه الذى ذكره أكثر المؤرخين والمفسرين ، وهو أن الاسراء والمصراع كانا بالروح والجسد يقظة - لا أن يتمسف فى التفسير، ويتمحل فى التأويل والاسراء والمصراع من هذه السميات . . . فليس للعقل مجال فى الحكم عليهما بالصدق أو بالكذب ، (وان كانا من الأمور الجائزة التى لا يحولها العقل) لأنهما غير داخلين فى نطاق علمه ، فاذا تصدى للحكم عليهما فقد تصدى للحكم فيما ليس له به علم ، فليس للعقل - اذن - الا التصديق بما ورد عنهما على لسان الصادق الأمين ، وهو رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وليس له أن يسأل عن صفة وقوع ذلك أو كيفيته ، لأن ذلك شئ ليس فى طاقة العقل أن يفهمه ، لأنه من عالم الغيب الذى لا يدخل فى

دائرة ادراكه ، أما الذى يستطيع العقل أن يسال عنه فهو المنكوسة
فى حدوث الاسراء والمصراع .^(١)

وهيكل يستند — فيما يذهب اليه من انكار المعجزات فى حياة
الرسول صلى الله عليه وسلم أو رفضها أو تأويلها — الى قوله تعالى :
لَوْ مَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأُولُونَ .^(٢)

ونحن نقول : ان استناد هيكل الى هذه الآية استناد غير
صحيح ، وان استدلاله بها استدلال مردود ، ذلك لأننا اذا نظرنا
الى الآية نجد أنها ليست بسبيل انكار المعجزة واستحالة خرق المادة
على الله عن طريق نبيه صلى الله عليه وسلم ، وانما بسبيل توكيد الموقف
المسلمى من التحدى بالمعجزة ، حيث تضمنت تقريراً باننا صريح بأن الله
عز وجل امتنع عن التزام اظهار المعجزة على يدى النبی صلى الله عليه وسلم
اجابة على تحدى الكفار ، وتعليلاً صريحاً لذلك ، وهو أن الأمم السابقة
قد كذبت بالآيات التى أظهرها الله على أيدي أنبيائه ، وأنها لم تحقق
المقصود منها — اذن فالآية لا تمنع أن تقع معجزات أو تأييدات وبانوية
على يدى النبی صلى الله عليه وسلم ، وانما تمنع الالتزام أن تقع المعجزات
للتحدى ، استدلالاً بها على صدق رسالة الرسول ، ذلك لأن المعجزة
المتحدى بها — بالنسبة لمحمد صلى الله عليه وسلم — انما هى القرآن ،
ولذلك نرى القرآن لا يستجيب الى ما طلبه الكفار من معجزات لتكون
دليلاً على صدق الرسول فى دعوته ، لأن الله يعلم أنهم لا يؤمنون ،

(١) صور من حياة الرسول . ص ٦٠٨ و ٦٠٩ . مع تصرف وتصويب .

(٢) الآية ٥٩ من سورة " الأسراء " .

أما ما يخرج عن نطاق اصطلاح معجزة التحدى، فإنه لا يصح أن يكون ثمة أى رب فى وقوع تأييدات ربانية للنبي يصح أن تسمى معجزات ، ولو لم تكن من معجزات التحدى ، ومنها ما أخبر به القرآن ، كما فى سورة الأنفال . الآية : ٩ - ١٢ ، والأحزاب . الآية : ٩ . ٠٠٠ هذا الى أن المعجزة الربانية على أيدي أنبياء الله ما أخبر بوقوع القرآن بنصوص صريحة ، والايان بها جزء لا ينفصل عن الايمان بالقرآن ورسالة النبي صلى الله عليه وسلم مع اليقين بقدرة الله تعالى عليها .

٤ - مناقشة هيكل فى تحطيمه الخاطىء لعمض الأحداث والوقائع :

أ - من الخطأ الفادح والجهل البين، أن يحاول الناس الحكم على الأنبياء والرسل كما يحكمون على عامة البشر : عظيمهم وخاملهم ، أو أن يحاولوا تصوير حياتهم ، على نهج ما ألفوا فى تصوير حياة أولئك البشر ، ذلك لأن الأنبياء والرسل يسبغون فى حياتهم وفق منهج الهى مرسوم ، وأعداد ربانى خاص ، قدر أزلا ، منهج وأعداد يؤهلانهم لأداء الأمانة وحمل الرسالة ، ومن هنا كانت الصفات التى فطروا عليها ، والملكات التى جُبلوا عليها ، والسجايا التى انصفوا بها - وبالتالى كان سلوكهم وكانت تصرفاتهم وأفعالهم وأقوالهم - تسير وفق هذا المنهج الالهى المرسوم ، وذاك الاعداد المقدر أزلا . ومن هنا لا يمكن أن يصور انعمان أن يأتى نبي أو رسول من الأفعال أو الأقوال أو التصرفات ، ما يخالف مبدأ من المبادئ التى جاءت بها شريعته ، أو يناقض هدفا من أهدافها ، سواء فى ذلك ما قبل الرسالة أو النبوة أو ما بعدها .

والذى دعانا الى سوق هذه المقدمة ، ما وقع فيه هيكل من خطأ حين اعتقد أن الرسول صلى الله عليه وسلم قد شارك زوجه خديجة - موافقة ورضا - فى تقديم القرابين والنذور ، تقربا الى أصنام الكعبة

رجاء الابقاء على أولادها، الذين تساقطوا الواحد تلو الآخر .

يقول هيكل : " تعاقبت السنون ومحمد يشارك أهل مكة فى حياتها العامة ، ويوجد فى خديجة خير النساء : حقا : الودود الولود التى وهبت كل نفسها له ، والتى أنجبت له من الأبناء : القاسم والظاهر والطيب ، ومن البنات : زينب ورقية وأم كلثوم وفاطمة . أما القاسم والظاهر والطيب فلم يعرف عنهم الا أنهم ماتوا أطفالا فى الجاهلية ، لم يتركوا على الحياة أثرا يبقى أو يذكر . لكنهم من - غير شك - قد ترك موتهم فى نفس أبيهم ما يترك موت الابن من أثر عميق ، وترك موتهم - من غير شك - فى نفس خديجة ما جرح أمومتها ثلاث جراحات دامية ، وهى - لا ريب - قد انتجبت عند موت كل واحد منهم فى الجاهلية السى آلهتها الأصنام تسألها : ما بالها لم تشملها برحمتها وبرها ، وما بالها لم ترحم قلبها من أن يهوى به الشكل ليتحطم على قرارة الحزن ، مرة فمرة . وقد شمر زوجها - لا ريب - معها بالألم لوفاة بنيه ، كما حز فى قلبه هذا الألم الحى مثلثة صورته فى زوجه يراه كلما عاد الى بيته وجلس اليها ولا ريب فى أنه استوقف تفكيره ولفظ نظيره فى كل واحدة من هذه الفواجع ما كانت خديجة تتقرب به الى أصنام الكعبة ، وما كانت تتحرر لهلل واللات والمزى ولمنة الثالثة الأخرى ، تريد أن تغتدى ما ألم بها من ألم الثكل ، فلا يَفِيدُ القُرْبَان ولا تجدى النحور " (١)

ولا شك أن هيكل قد انزلق فيها لا يمكن أن ينزلق فيه مستشرق عالم ، فأما وقد سمح لنفسه أن يتخيل كيف عصفت خديجة وكيف تصرفت

الرسول صلى الله عليه وسلم عند وفاة أولادهما ، فلا أقل من أن يسوق كالمه على سبيل الاحتمال ، بدلا من أن يسوق عباراته : " وليس من شك " و " لا ريب " الدالة - على سبيل القطع واليقين - على أن السيدة خديجة كانت تتحرر للأصنام تحت سمح الرسول وصبره ، دون أن يمنع ذلك أو يعترض عليه .

وكان على هيكل - قبل أن ينزل فيها انزل في - أن يرجع الى تاريخ الرسول صلى الله عليه وسلم ، وأن ينظر في صفحات ذلك التاريخ ليري كيف أن هذه الصفحات لم تسجل - قبل بعثته - هنة عليه ، أو زلة ترويه بها ، فضلا عن أن تكون هذه الهنة أو الزلة دينية في صميم المقيدة . وفي الوقت الذي لم تسجل عليه صفحات تاريخه صلى الله عليه وسلم ذلك ، سجلت تلك الصفحات - بكل فخر واعتزاز - موقفه من كل تهييج مزر من الأفعال والأقوال ، خاصة موقفه من الأصنام التي ما ينكس في حياته شيئا مثلما بغضها .

كان على هيكل أن ينظر في ذلك التاريخ الناصح المشرق النظيف من كل دنس وقهيج ، وينظر كيف أن الرسول صلى الله عليه وسلم ، رفض في سبيل صفة رابحة للسيدة خديجة - وهو بالشام في تجارة لها - قبل أن يتزوجها - رفض أن يقسم باللات والمزى ، وقال انه لم يقسم بهما قط . اذن فهل يعقل أن الرجل الذي يرفض مجرد التأكيد لمشتريه فيقسم بهما - بالكلمات - هو الذي يشارك بعد ذلك في تقديم الذبائح لللات والمزى وسنة الثالثة الأخرى ؟ حتى ولو كانت هذه المشاركة . (١)

ولو فرضنا - جدلا - أن ذلك الذي ذكره هيكل قد حدث ، فكيف يمكن للرسول صلى الله عليه وسلم أن يقابل قومه بوجهه ، وهو يدعوهم

(١) راجع : فقال الاستاذ : أحمد حسين بمجلة " رابطة العالم الاسلامي " السنة : الثالثة عشرة الممدد الثامن ، صفحة ٤٤ - ٤٦ .

الى ترك الأوثان والأصنام ، وهو بالأس كان يقدم لها القرابين ويتوسل اليها بالنحور ؟! اذ لو حدث ذلك لوجد المشركون طريقا واسعة ينالون فيها من الرسول صلى الله عليه وسلم ، وسبيلا للسخرية منه ومن دعوته ، اذ كيف ينهاهم عن عبادة الأصنام التى كان يتقرب اليها بالأس ؟ وكيف يدعوه الى التوحيد ، وقد كان قبل رسالته ضد هذا التوحيد !!

والتاريخ لم يسجل أن المشركين قد طعنوا الرسول من ناحية كهذه ، ما كان لهم أن يتركوها له ، لو أحسوا بشيء من ذلك منه ، ولوجدوا فى ذلك أكبر طعنة توجه الى الرسول والى دعوته .



ب - وكما أن من الخطأ الاعتقاد بأن حياة الرسل والأنبياء حياة البشر الماديين ، يقاس وينطبق عليهم ما يقاس وينطبق على أولئك البشر - يكون من الخطأ أيضا الاعتقاد أو التصور بأن حياة الرسل أو الأنبياء تخضع فى تفسيرها وتحليلها لنظريات علم النفس الحديث التى ترجع الكثير من تصرفات الشخص وسلوكه الى عوامل عدة : قد تكون وراثية ، أو بيئية : زمانية أو مكانية ، وقد تكون راجعة الى تكوينه الجسمانى صفاته الخلقية وقد تكون راجعة الى نواح ثقافية ، أو فكرية ، أو مذهبية أو اجتماعية ، أو سياسية ، أو ما الى ذلك من العوامل والأسباب . .

نقول : ان حياة الرسل والأنبياء لا تخضع فى تفسيرها وتحليلها لتلك المقاييس ولا الى هذه المفاهيم ، فاذا ما حاول شخص أن يتناول حياة رسول أو نبي ، فيجب أن يفسر ويحلل ويفلسف هذه الحياة على ضوء مقاييس أخرى - غير تلك المقاييس - هى مقاييس النبوة أو الرسالة فقط .

نقول هذا الكلام، لما رأيناه من أثر نظرية حديثة، حينما حاول
هيكل تصوير جانب من جوانب حياة الرسول صلى الله عليه وسلم، أمّا
النظرية الحديثة، فهي نظرية " الرجل الطبيعي " ^(١) أما الجانب الذى
حاول هيكل تصويره من خلال هذه النظرية وعلى ضوءها، فهو تلك
المدة التى كان الرسول يعيشها فى غار حراء، قبل بعثته يلتصق الحق
وينشد الطريق الموصلة الى خالق هذا الوجود، عن طريق النظر فى
الكون والتفكر فى الأرض والسماء وما فيها .

وتتلخص هذه النظرية فى: أن الانسان بطبيعته خير، وهو يقترب
من فطرته الخيرة كلما اقترب من الطبيعة، وأن المجتمع بفوارقه الطبيعية
واستبداده الحكيم، وتقاليد الجادة، هو الذى يفسد الانسان، وأن العقل
قادر على اكتشاف الحقيقة وحده، دون وساطة من أحد أو لجوء الى
نص، فالحقيقة هى شرة المواجهة بين الانسان والطبيعة . ^{فَرَّاهُ اللَّهُ لَهَا}

وتأثر هيكل بهذه النظرية، يفسره لنا اهتمامه بتصوير ما تلقاه النبى
— صلى الله عليه وسلم — عن الصحراء والطبيعة، ليس فقط زمن تخرجه
وتمبده فى غار حراء قبل بعثته، بل قبل ذلك أيضا، حين كان
طفلا فى بادية بنى سعد، التى لا يصرف جوها الصحو قيدا من قيود
الريح أو المادة . . . وحين كان صبيا يذهب مع عمه أبى طالب فى رحلته
الى الشام . . . وحين كان يرعى الغنم فى صباه . . . وحين كان شابا يتاجر لخديجة
فى مالها .

يقول هيكل — صَوْرًا — ما تلقاه الرسول — صلى الله عليه وسلم —
عن الصحراء والطبيعة فى طفولته فى بنى سعد — : " وأقام محمد نسي

(١) كذا فعل المترجمون، وهو خطأ، والصواب: الطبيعي .

الصحراء سنتين ترضعه حليمة ، وتحضنه ابنتها الشيباء ، ويجد هو في هوا الصحراء ، وخشونة عيش الهادية ، ما يسرع به الى النمو ، ويزيد في وسامة خلقه وحسن تكوينه . فلما أتم سنتيه ، وأن فصاله ، ذهبت به حليمة الس أمه ، ثم عادت به الى الهادية . . . وأقام الطفل بالصحراء سنتين آخرين يسر في جو هاديتها الصحر الطليق ، لا يحرف قيدا من قيود الروح ولا من قيود المادة (١) .

ويقول هيكل : " وأقام محمد في بني سعد الى الخامسة من عمره ، ينهل من جو الصحراء الطليق روح الحرية والاستقلال النفس ، ويتعلم من هذه القبيلة لغة العرب مصلاة أحسن الصافية ، حتى لقد كان يقول من بعد لأصحابه : " أنا أعربكم ، أنا قرشي ، واسترضعت في بني سعد بن بكر " ، وتركت هذه السنوات الخمس في نفسه أجمل الأثر وأبقى " (٢)

ثم يقول هيكل - مصورا ما تلقاه الرسول - صلى الله عليه وسلم - عن الصحراء والطبيعة في صباه في رحلته الى الشام مع عمه أبي طالب : " . . . في هذه الرحلة وقعت عيننا محمد الجليل على فسحة الصحراء وتملقت بالنجوم اللامعة في سماءها الصافية البديعة ، وجعل يمر بمدين ووادي القرى وديار ثمود ، وتستمتع أذناه الترفهت الى حديث العرب وأهل الهادية عن هذه المنازل وأخبارها وماضي نهجها . وفي هذه الرحلة وقف من بلاد الشام عند الحدائق الفناء (٣) البانعة التي أنستهم حدائق الطائف وما يروى عنها ، والتي تعتبر (٤) جنات الى جانب جسد

(١) حياة محمد ص ٧١ ، ٧٢ .

(٢) حياة محمد ص ٧٣ ، ٧٤ .

(٣) خطأ شاع بين كتاب المعصر حتى كبارهم ، والصواب : " الفن " .

(٤) الصواب : تعد . . . لأن الاعتبار هو الانتماء .

الصحراء المقفرة والجهال الجرداء^(١) فيها حول مكة . وفى الشام كذلك رأى محمد أحجار الرجم ونصرايتهم، وسبح عن كتابهم وعن مناواة الفرس من عباد النار لهم، وانتظارهم الواقعة بهم . ولئن كان بَعْدُ فى الثانية عشرة من سنه^(٢) فقد كان له من عظمة الروح، وذكاء القلب، ورجحان العقل ودهه الملاحظة، وقوة الذاكرة، وما الى ذلك من صفات جاءه القدر بها تسهيدا للرسالة العظيمة التى أعده لها - كان له من ذلك كله ما جعله ينظر الى ما حوله ومن حوله نظرة الفاحص المحقق ، فلا يستريح الى كل ما يسمع ويرى ، ويرجع الى نفسه يسألها : أين الحق من ذلك كله ؟ " (٣)

ثم يقول هيك - مصورا ما تلقاه الرسول عن الطبيعة وهو صبى يرى الغنم - : " . . . وما زاده انصرافا الى التفكير والتأمل اشتغاله برعى الغنم سنى صباه تلك . . . وراعى الغنم الذكى القلب والنهاد يجد فى فسحة الجو الطليق أثناء النهار وفى تالكؤ النجوم اذا جن الليل موضعا لتفكيره وتأمله ، يسبح منه فى هذه العوالم، حتى يرى فيها وراءها ويلتصق فى مختلف مظاهر الطبيعة تفسيرا لهذا الكون وخلقه ، وهو يرى نفسه ، مادام ذكى النهاد عليم القلب ، بعض هذا الكون غريب منفصل عنه . أليس هو يتنفس هواه ولو لم يتنفسه قصى ؟ أليست تحببه أشعة الشمس وبغمره ضياء القمر ويصل وجوده بالأفلاك والموالسم جميعا ؟ هذه الأفلاك والموالسم التى يرى فى فسحة الكون أمامه ، متصلا بعضها ببعض ، فى نظام محكم " لَا الشَّمْسُ يَنْفَى لَهَا أَنْ تُدَارِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ^(٤) " . وإذا كان نظام هذا

(١) الصواب : الجُرد ، والجرداء : خطأ .

(٢) الصواب : لقد كانت . . . لأن الجواب هنا للقسم . . . لا للشرط .

وجواب الشرط محذوف وجها هنا ، فلا محل للقاء .

(٣) حياة محمد ص ٢٦٦ و ٢٧٧ (٤) الآية ٤٠ من سورة " يس " .

القطيع من النعم أمام محمد يقتضى انتباهه ويقطعه، حتى لا يمسدو الذئب على شاة منها، وحتى لا تضل احداها فى مهلهه الهاديـــــة ، فأى انتباه وأية قوة تحفظ على نظام العالم كل احكامه ؟ وهذا التفكير والتأمل من شأنهما صرف صاحبهما عن التفكير فى شهوات الانسان الدنيا والسو به عنها، اذا تهدى له كاذب زخرفها ، لذلك ارتفع محمد فى أعماله وتصرفاته عن كل ما يمس هذا الاسم الذى أطلق عليه بمكة وقس له " الأمين " (١)

ثم يقول — مصورا اتصال الرسول بالطبيعة والكون وهو شهاب حين كان فى تجارة لخديجة فى طريقه الى الشام — : " خرج محمد مع "ميسرة" غلام خديجة بعد أن أوصاه أعمامه به ، وانطلقت القافلة فى طريق الصحراء الى الشام مارة بؤدى القرى ومدين وديار شمو ، وتلك البقاع التى مر بها محمد مع عمه ابنى طالب وهو فى الثانية عشرة من عمره ، وأحبت هذه الرحلة فى نفسه ذكريات الرحلة الأولى ، كما زادت تأملا وتفكيرا فى كل ما رأى وسمع من قبل سفره بالشام أو بالأسواق المحيطة بمكة " (٢)

ثم يقول — مصورا اتصال الرسول بالكون والطبيعة ، وهو رجبيل قد تقرب الأيمنين ، حين كان يتحنن فى غار حراء — : " ٠٠٠ وقد وجد محمد فيه — أى : الانقطاع والتحنن — خير ما يمكنه من الامعان فيما شغلت به نفسه من تفكير وتأمل ، كما وجد فيه طمأنينة نفسه وشفا شغفه بالوحدة ، يلتمس أثناءها الوسيلة الى ما بين شوقه يشتد اليه من نشدان المصرة واستلهم ما فى الكون من أسبابها . وكان

(١) حياة محمد ص ٨٠ ، ٨١ .

(٢) المرجع السابق ص ٨٣ .

بأعلى جبل حراء - على فرسخين من شمال مكة - غار هو خير ما يصلح للانقطاع والتحنث ، فكان يذهب اليه طوال شهر رمضان من كل سنة ، يقيم به مكثفا بالقليل من الزاد يُحَلُّ اليه ، بمعنا في التأمل والمعبادة ، يحمدا عن ضجة الناس وضوضاء الحياة ، ملتصبا الحق والحق وحده وهو لم يكن يطمح في أن يجد في قصص الأحرار وفي كتب الرهبان الحق الذي ينشد ، بل في هذا الكون المحيط به : في السماء ونجومها وقمرها وشمسها ، وفي الصحراء ساعيات لحيها المحرق تحت ضوء الشمس الباهرة اللاه . . . في هذا الكون كان يلتصق الحقيقة العليا ، وابتغاء ادراكها ، كان يسمو بنفسه ساعيات خلوته ، ليتصل بهذا الكون وليخترق الحجب الى مكون سره وإذا استدار أمام وجه شهر رمضان كرة أخرى ، ذهب الى حراء وطاد الى تفكيره ، ينضجه شيئا فشيئا وتزداد به نفسه امتلاء بعد سنوات شغلت أثناءها هذه الحقائق العليا نفسه ، صار يرى في نومه الرؤيا الصادقة تهلج أثناءها أمام باصره أنوار الحقيقة التي ينشد ، ويرى معها باطل الحياة وغرور زخرفها إذ ذاك آمن أن قومه قد ضلوا سبيل الهدى ، وأن حياتهم الروحية قد أفسدها الخضوع لأوهام الأصنام وما اليها ، من عقائد متصلة بها ليست دونها ضللا وشارف محمد الأربعين ، وذهب الى حراء يتحنث وقد امتلأت نفسه ايمانا بما رأى في رؤاه الصادقة ، وقد خلصت نفسه من الباطل كله ، وقد أدبته به فأحسن تأديبه ، وقد اتجه بقلبه الى الصراط المستقيم وإلى الحقيقة الخالدة وفيما هو نائم بالغار يوما جاءه ملك وفي يده صحيفة فقال له اقرأ . . الخ ^(١) .

هذه نصوص ستة، صور فيها هيكل اتصال الرسول بالكـ
والطبيعة على اختلاف مراحل حياته : طفلا ، فصبيا ، فشابا ، فرجلا ،
حتى قارب الأربعين وجاءه الوحي . وفي كل مرحلة من هذه المراحل
كان تأمله يزداد ، وتفكره يشتد ، واتصاله بالكون والطبيعة يقوى ، وكان
يريد أن يصل الى الحق الذى ينشد ، والحقيقة التى يريد عن طريق
النظر والتفكر فى صفات هذا الكون الملىء بالعجائب والأسرار ، بل
ان نظره وتفكره كانا يمتدان الى ما وراء هذا الكون ، عله يهتدى الى
ما يريد أن يهتدى اليه . . . صور هيكل أن محمدا ظل على اتصاله
بالطبيعة حتى اهتدى الى هذا الحق ، وإلى تلك الحقيقة ، فجاءه
الوحي وهو بالفار - فى حلة اتصال - معلنا إياه أن الله قد اختاره
نبيا ورسولا ليلبغ الناس رسالة ربه الحق ، ويدعوهم الى عبادته وحده
لا شريك له . . .

والتأمل فى المعانى التى احتوتها تلك النصوص يجدها المعانى
نفسها التى اشتملت عليها نظرية " الرجل الطبيعي " .

ولأن هيكلأ أراد أن يخلص من هذا كله الى القول - وأن لم
يكن صراحة - أن الرسول محمدا - باتصاله المباشر بينه وبين الطبيعة
والكون - كان يسير على طريق الوصول الى الحق ، حتى تهيأت نفسه
واستعدت لاستقباله ، فكان الحق ، وكانت الحقيقة التى ظل محمد ينشدها . .
فكان الوحي وكانت النبوة ، ولأن هيكلأ يريد أن يقول أيضا - وأن كان
ضمنا - : ان اهتداء محمد الى هذا الحق ، كان ثمرة طبيعة لتسلط
المواجهة المباشرة بينه وبين الطبيعة .

ومن هنا نرى أثر هذه النظرية واضحا فى فكر هيكل ، وانعكاس
هذا الأثر فى تفسيره لمعنى النبوة وتهيهو محمد لحمل الرسالة التى اختاره
الله لها .

ونحن نقول : ان اختلا الانسان بالطبيعة يجعل نفسه أقرب الى الصفاء وأدنى الى الشفافية ، وان ادامة النظر فيها وإطالة التفكير فيمن فيها وفيما فيها ، يجعل النفس أقرب الى التماس الحق ، وأدنى الى وضوح الرؤية الحق ، ولعل ذلك راجع الى النظر والتفكير الهادئين اللذين يمشيهما الانسان فى حالة اختلاكه وحده مع الطبيعة ، حيث لا ضواء ولا شواغل ولا مؤثرات جانبية مؤثر قطعا فى التفكير ، وتجميل الرؤية الحق لما يفكر فيه الانسان غير واضحة ..

ومن هنا كان الانسان الذى يعيش فى مجتمع غارق فى نظمته البالية وتقليده الفاسدة وعاداته القبيحة متأثرا بهذا كله ، غير قادر على الرؤية الحق حين يفكر ، وعلى التماس الحق حين يتفكر ، لأن صفاء النفس لم يتح له ، وشفافية الروح لم تتم بها نفسه ، لوجود المؤثرات التى تحول بينها وبين ذلك ..

وهذا هو تفسيرى لما جاء فى نظرية " الرجل الطبيعى " ونحن الى هذا القدر نتفق مع هذه النظرية ، وإلى هذا القدر - أيضا - نتفق مع هيكل .. أما القدر الذى لا نتفق فيه مع هذه النظرية ومع هيكله فهو أن الحقيقة هى ثمرة المواجهة المباشرة بين الانسان والطبيعة ، فالحق الذى اهتمت اليه محمد ، وهو النبوة والرسالة - لم يكن نتيجة اتصال بينه وبين الطبيعة ، وإنما كان نتيجة ارادة الهية أزلية اختصرت محمدا ليكون نبيا رسولا ، يبلغ الناس رسالة ربهم ويدعوهم الى توحيده ، ومن هنا أعدته هذه الارادة وهياكله لاستقبال هذه الرسالة وتحمل هذه التهمة ، فدلته على الطريق الحق ، ويسرت له سهل الوصول اليه ، وجعلته بعيدا عما يعيش فيه قومه من عبادات فاسدة ، وتقاليد جائرة مستهدة .. فجهت اليه الخلوة ، واشتد شوقه الى التماس الحق ، وظنوه

الى معرفة مطلق هذا الوجود، عن طريق النظر فى هذه المخلوقات المحيطة : فى الأرض وفى السماء، ممعنا النظر فيها ، بعيدا باختلاسه وأمله وتفكره عما يضطرب فيه قومه من مفاسد وظالم وجمود وصالدة . وظل على حاله تلك الى أن جاء الوقت المحدد الذى اختاره الله ألا ليكون محمد نبيه ورسوله يبلغ وحيه ورسالته .

ح - من الأخطاء التى وقع فيها هيكل أثناء تطيله لبعض أحداث السيرة النبوية " عهد الحديبية " وهو يتحدث عن دعوة الرسول الناس الى الخروج معه الى مكة بقصد الحج والعمرة عام الحديبية ، - ما رآه هيكل من أن الرسول وجه دعوته هذه الى المسلمين ، وإلى القبائل الأخرى من غير المسلمين ، وحكمته فى ذلك أنه يريد أن تعلم العرب كلها أنه ما خرج الا بقصد الزيارة ولم يخرج غازيا . . . وأن بعض هذه القبائل غير المسلمة " الأعراب " قد تخلفوا عن دعوته ، خوفا من أن ينشب القتال بين محمد وقريش وتكون الدائرة فيه على محمد وأصحابه

يقول هيكل : " . . . كلا . لا قتال ولا حرب ، بل أذن محمد فى الناس بالحج فى شهر ذى القعدة الحرام ، وأوفد رسله الى القبائل من غير المسلمين يدعوهم الى الاشتراك وإياه فى الخروج الى بيت الله آمنين غير مقاتلين . وحرص محمد فى نفس^(١) الوقت على أن يكون معه من المسلمين أكبر عدد مستطاع . وحكمته فى ذلك أن تعلم العرب كلها أنه خرج فى الشهر الحرام ولم يخرج غازيا ، وأنه أراد أدبه فريضة فرضها الاسلام ، كما فرضتها أديان العرب من قبل ، وأنه أشرك العرب

(١) تعبير خطأ يقع فيه الناس كثيرا ، والصواب : فى الوقت نفسه .

معه من ليسوا على دينه في أداء هذه الفريضة .. (١) ثم يقول :
 " ... أذن محمد في الناس بالحج ، وطلب الى القبائل من غير
 المسلمين الخروج معه ، فأبطل عليه كثير من الأعراب " (٢) .

والخطأ الذي وقع فيه هيكل يكمن في أنه جعل الأعراب المتخلفين
 عن دعوة الرسول الى الحج من القبائل غير المسلمة .. مع أن الثابت
 من نصوص القرآن أن هؤلاء المتخلفين كانوا من المسلمين ، لما في هذه
 النصوص من دلالات قوية تؤكد أنهم من المسلمين .. ولو رجع هيكل
 الى نصوص القرآن الكريم ، التي نزلت في شأن هؤلاء المتخلفين ، واستطههم
 ما فيها من معان ، لرأى ما يؤكد أنهم من المسلمين ، ولنجد الى هذه
 النصوص لنقف على ما فيها من دلالات قوية ، تؤكد ذلك الذي نقول :

١ - يقول الله تعالى : " سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَا
 أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا فَاسْتَغْفِرْ لَنَا يَقُولُونَ بِالسَّيْتِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ " (٣) .

٢ - يقول الله تعالى : " قُلِ لِلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الْأَعْرَابِ سُدُّعُونَ إِلَيَّ
 قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَنَّكُمْ أَزْوَاجُهُمْ أَنْ يَسْلِمُونَ فَإِنَّكُمْ عَلَيْهِمْ مُّوَكَّلُونَ
 اللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا وَإِنْ تَوَلَّوْا كَمَا تَوَلَّيْتُمْ مِنْ قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا
 أَلِيمًا " (٤) .

والآية الأولى تتضمن دلالة نستشف منها أن هؤلاء الأعـراب
 المتخلفين كانوا من المسلمين - وهي أن هؤلاء الأعراب طلبوا استغفار
 النبي لهم " فَاسْتَغْفِرْ لَنَا " وهذا لا يمكن أن يكون الا من مسلمين .

(١) حياة محمد ص ٣٣٥ (٢) المصدر السابق ص ٣٣٥

(٣) الآية : ١١ من سورة " الفتح " .

(٤) الآية : ١٦ من سورة " الفتح " .

وأما الآية الثانية فتتضمن دالتين على أن هؤلاء الأعـراب
المتخلفين كانوا من المسلمين . .

الدلالة الأولى : أن الله يريد أن يختبرهم في موقف آخر كما يقولون فيـه
أعداء أقوياء حتى يدينوا بالاسلام ولا يمكن أن يدعى
الى مثل ذلك الموقف الا مسلمون .

الدلالة الثانية : أن الله وعدهم الأجر الحسن ، إن هم أطاعوا ولبوا دعوة
النبي وخرجوا لملاكة أولئك القيم الأشداء ، ولا يعود
بالأجر الحسن على الطاعة والاجابة الا مسلمون .

ٖٖ الباب الثاني ٖٖ

" السيرة والأسلوب القصصى "

من خلال

كتاب " على هامش السيرة " لطفه حسين

- الفصل الأول : بواعث الكتابة فى السيرة النبوية عند طه حسين .
- الفصل الثانى : الموضوع والفكرة فى " على هامش السيرة " .
- الفصل الثالث : أسلوب كتاب " على هامش السيرة " .
- الفصل الرابع : الألوان القصصية فى " على هامش السيرة " .
- الفصل الخامس : طريقة طه حسين أو مذهبه القصى .
- الفصل السادس : " على هامش السيرة " فى ميزان النقد .

❖ الفصل الأول ❖

” بواعث الكتابة في السيرة النبوية عند طه حسين ”

- ١ - الباعث الأدبي *
- ٢ - الباعث التعليمي التوجيهي *
- ٣ - الباعث الاجتماعي *

يعد كتاب " على هامش السيرة " حلقة في سلسلة الدراسات الإسلامية التي قدمها طه حسين ، والتي زخرت بها المكتبة المبريكة ، مما يجعلنا نستطيع أن نطلق عليها " إسهامات طه حسين " وهى :
مرآة الاسلام ، و الوعد الحق ، و الشيطان ، و خدعان ، و طمس
وبنو ، بالإضافة الى كتاب " على هامش السيرة " بأجزائه الثلاثة .

وقد ظهر " على هامش السيرة " أول ما ظهر على شكل فصول^(١)
وظهر أول فصل منه فى مجلة الرسالة الأسبوعية خلال يناير سنة ١٩٣٣ و
لبث هذه الفصول أن تحولت الى هذا الكتاب المعروف .

ويعد هذا الكتاب تحولا كبيرا فى كتابات طه حسين الإسلامية
وذلك اذا وازنا هذا الكتاب بكتابه " فى الشعر الجاهلى " الذى
ظهر قبل فصول كتاب " على هامش السيرة " بسبع سنوات .

ومن أجل ذلك كان من حق البحث علينا أن نتبع البواعث والدوافع
التي كانت وراء هذا الكتاب .

ونستطيع أن نقرر بادئ ذى بدء أنها ليست واحدة من البواعث
والدوافع التي أسلفنا الكلام عنها عند كلامنا عن كتاب " حياة محمد "
لهيكل تلك البواعث والدوافع التي ترجع فى مجموعها الى حركتى الاستشراق
والتشهير ، كما ترجع الى الخوف من الالطد والشيوعية ، واللياذ منهم
بالمقيدة الإسلامية - نقول : لم يكن واحد من تلك البواعث والدوافع
وراء كتاب " على هامش السيرة " لأن طه حسين لم يكن يقصد بكتابه
هذا أن يكون جبهة مضادة فى وجه الهجمة الضاربة من قبل المستشرقين

والمبشرين والملحدين، التي اجتاحت العالم الاسلامى من أقصاء الى أقصاء
ولقد أخطأ من قال: ان " على هامش السيرة " قد جاء نتيجة اهتمام
بالكتابة الاسلامية بسبب تلك الهجمة الضارية التي استهدفت بها الاسلام
من كل من حركتى الاستشراق والتشهير .^(١)

واذا لم يكن واحد من هذه البواعث أو تلك الدوافع وراء " على
هامش السيرة " فماذا يمكن أن تكون تلك البواعث والدوافع ؟

يستطيع القارئ يمسير من التأمل أن يكشف عن هذه البواعث
وتلك الدوافع ، بل يستطيع أن يرجعها الى أنواع ثلاثة : أدبي ، وتعليمي ،
 واجتماعي .

١ - الباعث الأدبي :

لم يكن طه حسين حين كتب " على هامش السيرة " يقصد أن يقدم
كتاباً فى السيرة ، أو فى التاريخ الاسلامى ، ولم يكن يقصد أن يقدم
للعلماء والباحثين-الذين تميزهم الحقائق العلمية - حقائق السيرة محققة
ومحصنة .. لم يكن طه حسين يقصد شيئاً من ذلك . بل كان يقصد أن يقدم
كتاباً فى الأدب ، اتخذ مادته من التاريخ القديم ، وأدار فضوله حول بعض
حوادثه ووقائمه وحول بعض شخصياته ، وهى حوادث ووقائع وشخصيات
وقف أمامها وتأثر بها ، لأنها هزت مشاعره وحركت وجدانه ، ولذا له أن يصور
تلك الأحداث وهاتيك الوقائع ، كما لـَّ له أن يصور تلك الشخصيات وأن يرسم
انفعالاتها وعواطفها .. فراح يتناولها تناولاً جديداً ، هو تناول الأديب
الفنان ، ويستعيد صورتها فى الأذهان بشكل جديد ، هو الشكل القصصى ،

(١) طه حسين فى معاركه الأدبية ص ١٤٧ .

وذلك بما أضفاء على أحداث السيرة وشخصياتها التي اختارها من بيان ساحر وخيال مهدع ، وما أتيح له من قدرة على التفتين في عرضها ، وطلاقة على بحثها حية في النفوس ، واستطاعة لتلوينها تلوينا مسحور النفوس ويأخذ بمجامع القلوب .

ويهدف طه حسين من وراء عرض بعض حوادث السيرة ووقائعها وشخصياتها - ذلك الموضوع الأدبي في ذلك الشكل القصصى ، بما صوره من شخصيات ، واستعرض من أحداث ، وأدار من حوار - يهدف طه حسين من وراء هذا كله أن يخرج بحقيقة هامة ، هي : أن الأدب العربي القديم والتاريخ الاسلامي القديم يخفان بالصفحات الخالدة والأحداث الملهمة الموحية ، والشخصيات البارزة ، والوقائع الخطيرة ، ويستلطان بما هو كليل أن يهدي قارئه من اللذة والامتع ومن الخصب والقوة ، ما تجرى به أقلامهم من جديد ، يصورونه بما " يلائم حياتهم التي يحيونها ، وعواطفهم التي تشور في قلوبهم ، وخواطرهم التي تضطرب في عقولهم " (١)

وهذا يعني أن الأدب العربي القديم عامة - والسيرة خاصة - مع ما فيه من لذة وامتع وصفحات مشرقة مضيئة - قادر على الانسواء والاعطاء .. قادر على الوجد والالهام ، والتألي هو أدب حي خالد " وفي أدبنا العربي على قوته الخاصة ، وما يكفل للناس من لذة ومتاع : قدرة على الوجد وقدرة على الالهام ، فأحدث العرب الجاهليين وأخبارهم لم تكتب مرة واحدة ، ولم تحفظ في صورة بحيثها ، وإنما قصها الرواة في ألوان من القصص ، وكتبها المؤلفون في صنوف من التأليف ، وقل مثل ذلك في السيرة نفسها ، فقد ألهمت الكتاب والشعراء في أكثر المصورات الاسلامية ، وفي أكثر الهلاد الاسلامية أيضا ، فصوروها صورا مختلفة

تفاوت حظوظها من القوة والضعف والجمال الفنى " (١).

وهذا يعنى أن السيرة فيها من الفن والأدب والخيال ما يشرى من جوانب الأدب والفن والخيال .. وفيها من العلم والتاريخ ما يشرى من جانبى العلم والتاريخ .. وهذا مرجعه الى أن السيرة — من الأدب الى العلم — بالأحداث البارزة والنماذج البشرية الباقية التى تملأ الأبصار والبصائر على مر العصور والأزمان .. " ولا خير فى حياة القدماء اذا لم تلهم المحدثين ، ولم توح اليهم رايح البهائم شمرا وتنشأ ، وليس القدماء خالدين حقا اذا لم يكن التماسهم الا عند أنفسهم ، ولا تعرف أنباؤهم الا فيما تركوا من الدواوين والأشعار ، انا يحيا القدماء حقا ويخلدون اذا امتلأت بصورهم وأعمالهم قلوب الأجيال منها يمد بها الزمن ، وكانوا حديثا للناس اذا لقي بعضهم بعضا ، وكهوا يستمرهم الكلاب والشمراء لاحياء ما يمالجون من ألوان الشعر وفنون الكلام " (٢)

وفى اتخاذ الأدب المعنى القديم عامة والسيرة خاصة مادة يعرضها الشمراء والكتب بصور جديدة مخطقة ، وفى أنماط متباينة بأسلوب رشيق جميل ، وخيال رايح مبدع ، تقرؤها الأجيال الجديدة ، وناشئة اليوم ، بالإضافة الى ما فى ذلك من اثره للأدب الحديث ، واكتار من روافده ، وتدليل على ثراء أدبنا القديم وغناه ، وعلى قدرته على الوحى والالهام ...

... أقول : فى اتخاذ الأدب القديم والسيرة بنوع خاص مادة تعرض بألوان جديدة يقبل عليها الناشئة برغبة وشوق شديدين — تيسير

(١) على هامش السيرة ج ١ ص : ح

(٢) المصدر السابق ج ١ ص : ح

لهم سهل قراءة الأدب العربي القديم عامة والسيرة خاصة بعدما أفلتحت منهم وامتمعت عليهم ، حيث يجدون عسرا في قراءته وفهمه وتدوقه فيمسك حوى من أسانيد مطولة ، وأخبار يلتوى بها الاستطراد ، تجور بها لفتها القديمة الغريبة عن سبيل الفهم السهل والذوق الهين .

٢ - الباعث التعليمى التوجيهى :

ان اتخذ طه حسين من السيرة مادة لكتابه وموضوع لفصله ، والفتاه الى تلك المدة من تاريخ البشر ، ليصور أحداثها وما ينتابها آنذاك من صراعات وما يحترقها من قلق ، وما كان يترقبه العالم فيها من بزوغ فجر جديد ينير له معالم الطريق ، ويرسم ما فى تلك الحقبة من نماذج بشرية وما يعتل فى نفوس أهلها من خير وشر وما يمدور فى أفكارهم من آراء ومعتقدات وتقاليد ..

... ان اتخذ طه حسين من السيرة مادة وموضوع وراءه أهداف تعليمية توجيهية تربوية - بالإضافة الى أهدافها الفنية الأدبية الواضحة التى أشرنا اليها آنفا - أمر له أهمية بالغة .

ومن هذه الأهداف التعليمية أن طه حسين - بمعرضه الشائق للسيرة على هذا النحو من التصوير الواضح الجميل ، والأسلوب الرائع البين ، والخيال البديع الجديد ... - يريد أن يحب الى الشباب قراءة السيرة خاصة والأدب القديم عامة ، وأن يلتسوا فيها اللذة والمتاع ، كما يلتسبون فيها التجارب الناضجة والنصائح الراشدة ، والعظات البليغة بما حوى من صفحات مشرقة هادية ، ونماذج بطولية رائعة ، وأحداث خطيرة فذة ... " ... فاذا استطاع هذا الكتاب أن يحب الى الشباب قراءة كتب السيرة خاصة ، وكتب الأدب العربي القديم عامة ، والتماس المطع الفنى

فى صفها الخصبة ، فأنا سعيد حق ، موفق حق لأحب الأشياء الى ،
وأثرها عندى . (١)

ومن هذه الأهداف: أن طه حسين يريد أن يوجه نظر الناشئة
من الأدباء والكتاب الى تاريخهم القديم ، وإلى ما فيه من صفات موحية
ملهمة ، يقصد أن يدفعهم الى استغلال هذه الصفات الموحية عن الحياة
المصرية الأولى ، بل والحياة المصرية الاسلامية العربية المريضة ، وأن
يتخذوا منها موضوعات قيمة خصبة ، يثرى بها أدبهم الحديث ويحا تراثهم
الاسلامى الخالد وحضارتهم الموهبة الأولى . . " وإذا استطلع هذا
الكتاب أن يدفع الشباب الى استغلال الحياة المصرية الأولى واتخاذها
موضوعا قيما خصبا ، لا للانتاج* العلمى فى التاريخ والأدب الوصفى وحدهما ،
بل كذلك للانتاج فى الأدب الانشائى الخالص ، فأنا سعيد موفق لبعض
ما أريد . (٢)

ومنها أيضا أنه يريد بهذا الكتاب أن " يلقى فى نفوس الشباب
حب الحياة المصرية الأولى ويلفتهم الى أن فى سذاجتها وبسرها جمالا ،
ليس أقل روعة ولا نفاذا الى القلوب من هذا الجمال الذى يجدونه
فى الحياة الحديثة المعقدة " (٣)

ومنها أنه يريد أن " يلقى فى نفوس الشباب أن القديم لا ينهض
أن يهجر لأنه قديم ، وأن الجديد لا ينهض أن يطلب لأنه جديد ،
وانما يهجر القديم اذا برئ من النفع وخلا من الظائدة ، فان كان نافعا

(١) على هامش السيرة ج ١ ص ط .

(٢) كلمة الانتاج : خطأ شائع بالمعنى المراد . والصحيح : النتاج
- يفتح النون أو كسرهما - ويقال : أنتجت الناقة : اذا قهرت ولادتها .

(٣) على هامش السيرة ج ١ ص ١٠ (٣) المصدر السابق ج ١ ص ط .

مفيدا كغالب الناس أقل حاجة اليه منهم الى الجديد . (١)

٣ - الباعث الاجتماعى :

يضاف الى الباعثين السابقين - الأدبى والتعليمى - باعث آخره هو أن طه حسين بكتابه هذا أراد أن يصحح موقفه الشعبى الذى ساء بعد صدور كتابه " فى الشعر الجاهلى " الذى أحدث فجوة عميقة وهوة واسعة بين طه حسين وبين مجتمعه الذى يعيش فيه بما حل هذا الكتاب من أفكار متكررة وآراء باطلة ، تتصل بالأدب الجاهلى عامة ونواح دينية خاصة ، كما أحدث ثورة عارمة على طه حسين من مختلف طوائف الأمة وأفرادها من سياسيين وشعبيين وطائفة الشعب . .

أما على المستوى السياسى : فقد نوقش هذا الموضوع أكثر من مرة فى مجلس النواب حينئذ ، وقدم أحد النواب اقتراحا : بصادرة الكتاب وإحالة طه حسين الى النيابة والغاء وظيفته ، وكان ذلك سنة ١٩٢٦ غير أن اختلافا حدث بين السياسيين - آنذاك - وانتهى الأمر بصادرة الكتاب وعدم مطاردة صاحبه . ولكن هذا الموضوع أثير مرة ثانية على هذا المستوى ^{القمي} فى سنة ١٩٣٢ وهجم على طه حسين هجوما انتهى به الى النقل من الجامعة الى وزارة المعارف ، ثم فصله بعد ذلك من الوزارة .

سنة ١٩٢٢ هـ
أسلوب القراءات
دور رضى بن سحر

أما مثقوا الأمة : فقد هالهم ما تضمنه كتاب طه حسين من أنكار وآراء وراعى ما ألفت به الدين من كذب واقتراء ، فراحوا يشرعون أقلامهم للدفاع عن تراثنا الأدبى والاسلامى .

وقد اتخذ دافعهم طريقين : طريق الكتب والمطبوعات التى صدرت فى هذا الصدد لنقد الكتاب ونقضه . . وطريق المقالات الصحفية الستى

(١) على هامش السيرة ج ١ ص ٥ .

وقت تندد بكتاب طه حسين وتظهر ما فيه من عور وزيف .

أما طريق الكتب : فقد خرجت عشرات الكتب ، كلها في نقد كتاب " في الشعر الجاهلي " والرد عليه ودحض آرائه ، وأظهرها : " تحت راية القرآن " للمرحوم مصطفى صادق الرافعي ، و " الشهاب الرائد " للأستاذ محمد لطفي جمعة و " نقد كتاب الشعر الجاهلي " للأستاذ محمد فريد وجدي ، و " نقض كتاب الشعر الجاهلي " للشيخ محمد الخضر حسين و " النقد التحليلي لكتاب في الأدب الجاهلي " للدكتور محمد أحمد الفمراوى ، وغيرها من الكتب .

أما طريق المقالات الصحفية : فنقول الى جانب هذه المؤلفات والكتب التي صدرت في العام نفسه وهو عام ١٩٢٦ الذي صدر فيه كتاب " في الشعر الجاهلي " - صدرت عشرات المقالات ، واشتركت أكثر من صحيفة في معركة الدفاع عن تراثنا الاسلامي والعربي ، كما صدرت مقالات صحفية أخرى في هذا الصدد عام ١٩٣٢ حين أعيد فتح موضوع هذا الكتاب .

ونذكر على سبيل المثال - بعض هذه المقالات : في ٢ مايو عام ١٩٢٦ صدر مقال بصحيفة الأهرام للأستاذ محمد عبدالمطلب المسدرس بدار العلم بعنوان : " الشعر الجاهلي والأستاذ طه حسين " وفي ١٢ مايو ١٩٢٦ صدر مقال بالصحيفة نفسها للأستاذ عبدالمتعال الصمودي بعنوان : " في الشعر الجاهلي سرقات مؤلفه " كما نذكر ما كتبه الدكتور عبدالحميد سعيد في الأهرام من مقالات في ١٧/٣/١٩٣٢ ، و ٢٩/٣/١٩٣٢ ، و ٦/٣/١٩٣٣ .

أما المستوى العام : فقد قامت مظاهرات عارمة احتجاجا على ما كتبه طه حسين في الشعر الجاهلي منادية بخروجه من رتبة الاسلام وحلاليته

بإدائه ومحاكمته .. (١)

هذه الثورة العارمة من قبل الأمة على اختلاف طبقاتها ومستوياتها على ما كتبه طه حسين .. وما أدت إليه من أحداث فجوة عميقة، وهوة واسعة بين طه حسين وبين مجتمعه الذي يعيش فيه، وما استتبع ذلك من وجود أزمة ثقة فكرية بينه وبين هذا المجتمع ..

هذا كله كان باعثا لطله حسين على أن يتجه الى النواحي الاسلامية في كتاباته ، يتناولها بأسلوب مختلف وطريقة مغايرة لما كتب به " نفسى الشعر الجاهلى " لعله يرضى الشعب الفاضل ويهدئ الأمة الثائرة ، ومن هنا كانت محاولته التى حاولها فى هذا الصدد وهى كتابه " على هامش السيرة " ما يعد تحولا واضحا وتغيرا كبيرا فى فكر طه حسين وطريقته وأسلوبه ، كما سبق أن أشرنا فى مطلع هذا الفصل ، قصد به تصحيح موقفه الشعبى وتحويل أنظار الناس عن مفاهيمه الخاطئة فى كتاب " فى الشعر الجاهلى " . (٢)

(١) راجع هذا الموضوع بالتفصيل فى كتاب : طه حسين فى محاربه

الأدبية ص ٢٨ - ١٠٩ .

(٢) راجع : أضواء على الأدب العربى المعاصر ص ٢٢٣ .

ٖٖ الفصل الثاني ٖٖ

الموضع والفكرة في "على هامش السيرة"

- أ - الموضع .
- ب - الفكرة .

أ - الموضوع :

انتهى البحث سابقا الى أن " على هامش السيرة " لم يكن كاتبهه يقصد به أن يكون كتاب تاريخ أو سيرة يستعرض الكاتب جميع ما فيهمها من أحداث ووقائع شخصيات ، سارداتها ، طشدا للآراء ، مناقشا للأدلة ، باحاثا عن الموامل والأسباب ، وما الى ذلك . . بل قصد به كاتبهه أن يكون كتاب أدب ، استلهمت مادته من السيرة ، واستوحيت فصوله من أحداثها وشخصياتها ، لأنه وجد في السيرة مادة خالدة أمامه تلهمه ويثرى بها قلبه وتثير في قلبه مختلف العواطف والأحاسيس التي لا مفسر من أن يدونها ويخرج بها الى الناس صورا للنفس البشرية في صراعمها وتشوئها وتظلمها . .

انتهى البحث الى هذا . . ونود هنا أن نقول : ان هذه المادة التي استلهمت من السيرة وتلك الأحداث والوقائع والشخصيات التي استوحيت فيها فصول " على هامش السيرة " : لم تكن كل ما في السيرة من أحداث ووقائع ، ولم تكن الشخصيات التي يجدها القارئ في تلك الفصول ، هي كل ما في السيرة من شخصيات . . . لأن الكاتب لم يتبع عملا عسليا أو تاريخيا لا بد فيه من استقصاء كل ذلك - بل هي بعض ما فيها من أحداث ووقائع وبعض ما فيها من شخصيات ، وقف أمامها - حين استعرض السيرة - وقفة المتأمل المدقق ، لأنها استرعت انتباهه ، وشدت اهتمامه ووجد فيها ما يدعوه الى التوقف حولها ، والوقوف أمامها ، والنظر اليها من غبطة بليغة ، وعبرة بالغة ، وتجيئة انسانية خالدة تستحق الدراسة والتسجيل . .

ومن هنا راجع الكاتب يرسمها ويصورها ويجعلها أمام القارئ حتى تهدو في ثوب يشف عما تحته من غلظة وجمهرة ومعجزة انسانية ، فكانت تسلك

الفصول التى صاغ الكاتب من خلالها هذه الوقائع وتيك الأحداث وتلك الشخصيات فى قالب أدبى قصصى جميل .

ويستطيع القارئ أن يخلص من هذه المقدمة الى أن فصول " على هامش السيرة " قد اتخذت من وقائع السيرة وأحداثها وشخصياتها موضوعا دارت فى فلكه ، وبجلا تلف حوله ، وحققا لإبراز التجارب الانسانية التى تبرز حقيقة النفس البشرية الظلدة ، التى لا تتعلق فى خلودها بزمان أو مكان .

ومن هنا تعددت الموضوعات بتعدد الأحداث والوقائع ، كما تعددت بتعدد الشخصيات ، كل حدث يرسم لونها وكل واقعة تصور جانبها . من ألوان وجوانب الحياة ، وكل شخصية تعكس عظما من أعطاف النفس الانسانية ، وما يطرع فيها من خير وشر ، وما يضطرب حولها من مذاهب وآراء .

الا أن هذه الموضوعات على تعددها واختلافها - تدور حول موضوع عام واحد يجمع بينها ، ويجعلها تنتظم فى عقد واحد ، هذا الموضوع هو تصوير ذلك المصر الذى فى تاريخ البشرية . عصر الرسالة المحمدية بما كان يطرع قبله من عقائد وما يسود من قلق ، وما يعترى من شك ، وما يضطرب فيه الناس من بحث عن الحق والتماس للنهى توالى بشائره وتطبع آياته ، وما سبق ميلاده وبمبعثه من هذه البشائر وتلك الآيات ، وما تبع ذلك من تغيير شمل الحياة كلها مثلا فى انتصار الاسلام وانتشاره . . .

وهذا المصر الذى اتخذ طه حسين مادة لكتابه وموضوع لفصله وهوامشه ، يتخذة غالبية كتّاب السيرة تسهيذا للكتابة فى السيرة ان عن لهم أن يتناولوا هذا المصر بالكتابة والدراسة والتحليل .

وهذا مما يجعل نصيب السيرة النبوية في كتاب طه حسين قليلا لا يصور سوى لمحات قليلة وموضات غامرة تناولت بعض جوانب من حياة الرسول - صلى الله عليه وسلم - ، كذلك التي تصور ميلاده ودة رضاعه وحضانه وأيام كفالته بين جده وعمه . . . وكذلك التي تصور جزأاً من زمن شبابه : وهو سيؤا شتغاله برعى الغنم . . . وعمله في تجارة خديجة وزواجه منها ، وكذلك التي تصور بعضاً من صفاته وخلقه ، من بر وحب وغنى ورحمة .

ونحن نجد هذه اللمحات القليلة ، والموضات العابرة متناثرة في أجزاء الكتاب الثلاثة ، وذلك في الفصول الآتية : " اليتيم " و " المراضع " و " الطفلة " و " راعى الغنم " و " البر " و " شوق الحبيب الى الحبيب " و " طبيب النفوس " و " القلب الرحيم " . . . ومن هنا كانت كلمة " على هامش السيرة " أصدق عنوان في الدلالة على المعنى المراد منه .

وأذا ما عدنا الى فصول " على هامش السيرة " أو بعبارة أخرى الى قصص " على هامش السيرة " لنرى ما ترسم من أحداث كما تصور من شخصيات وما تبرز من محان ، وما تجلى من مواقف - نجد أن هذه الفصول أو تلك القصص قد تنوعت بتنوع الأحداث التي ترسمها والشخصيات التي تصورها ، والمعاني التي تبرزها ، والمواقف التي تجليها . . . كما نجد أن كل نوع من أنواع هذه القصص قد اختلف وتنوع باختلاف صور الأحداث والشخصيات والمعاني والمواقف . . .

ومن هنا نجد أنفسنا أمام أنماط ثلاثة من القصص : ١ - القصص التي ترسم الأحداث والوقائع - ٢ - القصص التي تصور الشخصيات والنماذج البشرية . - ٣ - القصص التي تجلى المواقف وتبرز المعاني .

فمن النوع الأول — وهو الذى يرسم الأحداث والوقائع —: قصة مولد الرسول وقصة
حادثة الفيل " وقصة نشأة الرسول " وقصة زواج الرسول من خديجة " وقصة
الحجر الأسود " والخلاف حوله .

والقصص الثلاث الأولى استغرقت الجزء الأول من الكتاب ، فـ " قصة
مولد الرسول — أو الهشارات والدلائل على ميلاد الرسول فى بيــــــــــــــــت
عبدالمطلب —: استغرقت الفصول الخمسة الأولى منه ، وهى : " حفر زمزم " و
" التحكيم " و " الفداء " و " الاغراء " و " البين " .

وقصة حادثة الفيل — أو قصة الصراع بين اليهودية والوثنية — من
جانب ، وبين اليهودية والمسيحية من جانب آخر — استغرقت الفصول
الخمسة التى تلت الأولى ، وهى : " القضاء " و " الردة " و " الطاغية " و
" البشير " و " راهب الاسكندرية " .

وقصة نشأة الرسول ، الأولى ، استغرقت الفصول الأربعة الأخيرة من هذا
الجزء ، وهى : " اليتيم " و " الحظنة " و " المراضع " و " السبر " .
أما قصة زواج الرسول من خديجة " رضى الله عنها — أو القصة
التي تصور جزأ من صدر شهابه — فقد استغرقت فصلا من الجزء الثانى
بمعنوان : " راعى الغنم " ، وأما قصة الحجر الأسود " والخلاف حوله ، فقد
استغرقت هى الأخرى فصلا من هذا الجزء بمعنوان : " حديث باخم " .

ومن النوع الثانى — وهو الذى يصور الشخصيات والتمناج البشرية
— قصة أبى جهل " صريع الحسد " ، وقصة حمزة " سيد الشهداء " وقصة
جعفر بن أبى طالب " ذو الجناحين " ، وقصة مصعب بن عمير " مصعب
ابن عمير " ، وقصة لسان غلام صفوان بن أمية قاتل زيد بن الدثنة " طريد
البأس " وقصة وحش قاتل حمزة " نزيل حص " ، وقصص الشخصيات

هذه نجدها مهيئة في الجزء الثالث من الكتاب .

ومن النوع الثالث - وهو الذي يجلى المواقف ويميز المعاني - ويصور الأفكار :- قصة " الفيلسوف الطائر " - أو القصة التي تصور القسوق الروحي الذي كان أولئك الناس يعانونه قهيل مبعث الرسول - وقسمت هذه استغرقت هذه القصة الفصل الأول من الجزء الثاني . . وقصة " صاحب الطان " - أو القصة التي تصور ما كان عليه مشركو مكة من مجادة فاسدة ومميوذات باطلة - . . وقد استغرقت هذه القصة فصلا من الجزء الثاني . . وقصة " نادى الشياطين " - أو القصة الحوارية الخيالية التي تصور انجلاء الظالم والشرك والوثنية وحلول النور والتوحيد بمبعث النبي صلى الله عليه وسلم - . . وقد استغرقت هذه القصة فصلا من الجزء الثاني وهو الفصل الأخير . وقصة " حديث عداس " التي تصور خروج الرسول الى الطائف ليدعوها الى الايمان ، وما لقيه من أذى وعناد ، وتصور أيضا انتصاره عليها بعد أعوام في وقعة حنين . . وقد استغرقت هذه القصة فصلا من الجزء الثالث . . وقصة " الوفاء المر " التي تصور وفاة رجل من اليهود للرسول صلى الله عليه وسلم هو " مخيريق " . . وقصة " طهيب النفوس " التي تصور طرزا من أخلاق النبي صلى الله عليه وسلم ، من كرم وغفر وصفح ، وأحال نفس صفوان بن أمية الملتوية الطقدة على الرسول الى نفس سوية مريحة ، يتقلب فيها الخير فتسلم وجهه . . وقصة " شوق الحبيب الى الحبيب " التي تصور قصة زيد بن حارثة ونهكى الرسول اياه . . وجهه الشديد له ولولده أسامة . . وقصة " القلب الرحيم " التي تصور ما كان يفيض به قلب الرسول من عطف ورحمة تجلت واضحة حين وفاة ابنه ابراهيم . . والتقصص الأربع الأخيرة قد استغرقت الفصول الأربعة الأخيرة من الجزء الثالث .

ب - الفكرة :

من خلال العرض السابق لفصول " على هامش السيرة " وما تضمنته من موضوعات، وما دارت حوله من أحداث وقائع وشخصيات ، نستطيع أن نستخرج الأفكار العامة التي يدور حولها الكتاب .

وهذه الأفكار هي :

- ١ - أن العالم آنذاك كان في حاجة الى رسالة .
- ٢ - أن محمداً كان هو النبي المنتظر لحمل هذه الرسالة .
- ٣ - انتصار الاسلام وانتشاره .

والفكرة الأولى: تبرزها بعض القصص التي تصور ما كان يمانيه العالم آنذاك من اضطراب نفسي، وفساد عقدي ، وشك حسي، وقلق روحي ، وصراع بين الديانات الموجودة آنذاك ، وظلم اجتماعي ، كما تصور انتظار العالم لرسول أطل زمانه وتتابع آياته ، وتلهمهم على مقدمه ، كي يخلصهم مما هم فيه من فساد واضطراب وقلق وشك ..

والقصص التي تصور هذا كله ، هي قصص : " حادثة الفيصل " و " الفيلسوف الحائر " و " صاحب الحان " و " صريح الجسد " و " حديث عداس " .

والفكرة الثانية: تبرزها بعض القصص التي تصور الدلائل، والبشارات والآيات التي وقعت لعبد المطلب وابنه عبد الله ، والتي تقول: ان محمداً هو النبي المنتظر لحمل هذه الرسالة ، والتي تصور الدلائل والآيات التي سبقت بعثه على يديه صلى الله عليه وسلم .

والقصص التي تصور هذا كله هي " قصة ميلاد الرسول " التي استغرقت الفصول الخمسة الأولى من الجزء الأول . و قصة " راعي الغنم "

التي استغرقت فصلا من الجزء الثاني ، بالإضافة الى ما انتهت في القصص الأخرى من اشارات لهذه الدلائل وتلك الآيات ٠٠ كقصص : " الفيلسوف الحائر " ٠٠ و " صريع الحسد " و " حديث عداس " ٠٠

والفكرة الثالثة :- وهي انتصار الاسلام وانتشاره - تبرزها معظم قصص الجزء الثالث التي تشير الى بعض الغزوات التي وقعت بين الاسلام وخصومه - والتي انتصر فيها الاسلام - اشارة عابرة من خلال تصوير بعض الشخصيات التي كان لها دور في هذه الغزوات ايجابا أو سلبا ، وهذه الغزوات هي غزوة بدر " صريع الحسد " ، وغزوة أحد " سيد الشهداء " و " مصعب بن عمير " ، وغزوة مؤتة " ذو الجناحين " و " شوق الحبيب الى الحبيب " وغزوة حنين " حديث عداس " .

وهذه القصص - كما تشير الى هذه الغزوات وانتصار الاسلام فيها على قوى الكفر والظفیان - تشير الى انتصار الاسلام في نفوس أولئك الذين ضحوا بأرواحهم في سبيل الاسلام . وأى شيء أدل على انتصار الاسلام في نفوس أولئك الناس من انتصاره في نفس حمزة ، ومصعب بن عمير ، وجعفر بن أبي طالب ، وزيد بن حارثة الذين احتلوا من البلاء والجهاد والشهادة في ذات الله ما يعجز القلم عن تسطيره .

كما تبرز هذه الفكرة بعض القصص التي تمثل انتصار الاسلام بعبادته ومثله مثلثة في أخلاق الرسول صلى الله عليه وسلم مع بعض النفوس التي ران عليها الحقد والبهف وسوء الطوية ، اذ تحيلها أخلاق الرسول من حب وغفر وصفح وكرم الى نفوس محبة سوية مسلمة ، كما في قصة " طبيب النفوس " . وانتصاره في بعض نفوس جذبتها الى الاسلام أخلاق النبي من رحمة فياضة غامرة ، كما في قصة " القلب الرحيم " .

ولكن " على هامش السيرة " بالاضافة الى هذا كله استطاع أن يرسم صورة للحياة العقيدية والاقتصادية والفكرية والاجتماعية في الجزيرة العربية ، كما استطاع أن يعطى لمحات عن الحياة في المجتمعات الأخرى آنذاك : في اليونان ، والشام ، والمراق ، وفارس ، ومصر ، والحشة ، كما استطاع أن يصور الحياة العقلية في العالم الذي زامن محمداً من خلال تصويره هذه الشخصيات التي اخترعها اختراعاً أو التشظـ بعض أخبارها من الكتب ثم أضاف إليها ما يكملها .

والكتاب - بالاضافة الى كل ما تقدم - تمبير واضح عن فـ طه حسين حول وحدة الحضارة أو وحدة الثقافة - التي تعد من أفكاره الأساس ، والتي عبر عنها في صور مخطفة - وذلك حين يجعل " على هامش السيرة " ملتقى لطلاب الحق والمعرفة في مخطف بلاد المالم القديم ، ويجعل الاسلام تمبيراً عن هذا الحق الذي توحدت فيه آمال الناس وأحلامهم على اختلاف جنسياتهم وثقافتهم .

يقول الاستاذ سيد قطب عن كتاب " على هامش السيرة " : (سيرة طه حسين)

" انه الكتاب الأول في اللغة العربية الذي يجعل من بعض حقائق السيرة وبعض أساطيرها فناً حياً جذاباً ، ولكنه لا يقف عند هذا الحد بل يحيل هذا الفن الحيّ الجذاب (الى) صورة " علمية " صادقة للجزيرة العربية وأطرافها في الفترة بين مولد النبي صلى الله عليه وسلم في الجزء الأول ، وانتصار دعوته في الجزء الثالث ، صورة للحياة الاقتصادية والسياسية والاجتماعية والفكرية ، صورة لما يهيج في الضمائر

(*) أشرنا مراراً الى أن الفترة هي الزمن الواقع بين نهيين أو رسولين ، ولكن الناس جميعاً يخطئون فيها .

والأخلاق ، وما يبدو من الاتجاهات والآراء ، صورة للبيئة وللأفراد
في الحياة هناك وذلك كله حسب كتاب . . ليكون عملاً يستحق
التقدير ، وأنه للكتاب الأول في أعمال الدكتور ، لا يوازيه في هذا
الا كتاب " الأيام " (١)

(١) كتب وشخصيات : ص ١٠٨ .

» الفصل الثالث ::

أسلوب كتاب " على هامش السيرة "

- ١ - " على هامش السيرة " ذو أسلوب قصصى .
- ٢ - مثال تطبيقى على قصصية الأسلوب .

١ - " على هامش السيرة " ذو أسلوب قصصى :

سبق أن ألمح البحث الى أن فصول " على هامش السيرة " يمكن أن تسمى قصصا ، والحقيقة أن التأمل فى فصول هذا الكتاب يجسد أنها قد كتبت بأسلوب يعد أقرب فنون الكلام الى هذا اللون المعروف فى فن الأدب بفن القصة .

ذلك أن الكثير من شروط هذا الفن تتوافر كاملة فى هذه الفصول كلها ، ولعل هذا القول يعتمد على ما لهذه الفصول من شكل ومحتوى ، فهى فى قالبها العام الغالب حداثته يرويه الراوية أو يحكيه المؤلف ، وهى فى محتواها لا تريد أن تصور الحياة بأكملها ، أنا تريد تصوير موقف من بذاته فى حياة فرد أو أفراد ، جاهدة كل الجهد أن تجلو هذا الموقف ما وسعها أن تجلوه ..

فالكتاب فيها يلتقط صورة من صور الحياة أو الأفراد من زاوية معينة يشهد منها الأحداث ويرويها ، ويريد أن يخرج منها آخر الأمر بمعنى بذاته يلقيه الى قلب القارئ وحسه وعقله القاء ..

وهذه الفصول تبدأ بتتمو وتتكمّل وتنتهى ، كما تنمو القصة وتتكامّل ثم تنتهى .. فهو فى أول الأمر يسوق للقارئ الحدث سوطا هينا مرتبطا ومتزجا بمن يقدم اليه من شخصيات ، فإذا به يعرف هذه الشخصيات معرفة كاملة ، ويحس بما يضطرب فى نفوسها من خير أو شر ، ويعرف ما يملأ عقولها من علم أو جهل ، ويلح ما يجيش فى قلوبها من عواطف أو نوازع ، وهو فى الوقت نفسه يراها رؤية المين فيحدد أشكالها ويستبين قساعاتها ويلمس شخصها .

ثم يمضي الكاتب بالقارئ من بداية القصة الى وسطها حيث تتمتع الأحداث وتتشابه ، فاذا بالقارئ أمام نسج متكامل يمثل جزءا في تاريخ فرد أو أفراد ، وفي تاريخ حدث أو أحداث ، واذا بالقارئ يعيش في هذا الجزء من التاريخ بكل جوانحه ، يربطه الحدث ربطا اليه وتتفرع منه شخصيات الاعجاب بها حيناً أو السخط عليها حيناً آخر ، أو الاشفاق على مصائرها والقلق على ما قد تنتهي اليه في كثير من الأحيان . . ثم اذا بالكاتب يأخذ بيد القارئ فيسير معه سيرا هينا ليناً ليخرج به من كل هذا بمعنى بذاته أحب أن يلقيه الى قلبه وأن يضعه أمام عقله . . فاذا به راض أشد الرضا قد غمرته نهاية القصة بغضب مغموس من الانفعال لعله هو الذي جاش بصدر الكاتب حين بدأ يكتب فصله ، أو بمهارة أخرى قصته ، فلكل قصة من قصص " على هامش السيرة " بداية ثم وسط تتمتع فيه الأحداث وتشابه ، ثم نهاية واضحة جلية يستقر عندها القارئ ، كما يستقر عندها الحدث ، مثلما استقر عند الكاتب .

وهذا القول يستطيع القارئ أن يلمسه بوضوح شديد في فصول " على هامش السيرة " ، ونذكر على سهل المثال قصص : " ميلاد الرسول " - " حادث الفيل " - " والفيلسوف الحائر " - " و " صريح الحسد " - " و " الرثاء المر " .

٢ - مثل تطبيقى على قصصية الأسلوب :

ولعل هذا القول يزداد وضوحاً وتأكيداً حين يتناول البحث إحدى هذه القصص بالتحليل ، ولتكن هذه القصة الأخيرة : " الرثاء المر " مثلاً واضحاً يحدد ما يعنيه هذا القول .

في قصة " الرثاء المر " بالجزء الثالث ، يقدم الكاتب للقارئ فتى بين جسمه المضطرب النشاط ، ونفسه الساكنة الهادئة الحزينة تناقض يحس

به لداته وأقرانه ، كما تحس به أمه ، إذ يقبل عليها ساعيا وتحدث به —
 عنه الشيخ إذا خلت اليه . . والقارئ يحس من الصفحات الأولى أن الفتى
 لا يعلم من أمر تناقضه هذا شيئا ، أنا هو يعيشه كما قدر له —
 دون أن يملك لنفسه إلا الاستسلام له ، بينما أمه تعلم سر هذا التناقض
 كما يعلمه عمه الشيخ ، ويؤلم نفسها أنها لا تستطيع لابنها شيئا —
 وإن كان في يدها مفتاح الأمر كله لأن عمه يجبهها دائما بقوله : " مهلا
 مهلا يا أسامة " فان الأوان لم يثن بعد^(١) " ثم يضى الكاتب بالقارئ ليحدثه
 من " أمر أسامة " أم الصبي بها يجلو الكثير من الأسرار ، وإن كان لا يكشف
 الصورة كلها . .

فهى قد جاءت هذه المدينة من مدن الشام منذ أكثر من عشر
 سنوات ساعية بابنها تحمله بين ذراعيها ، تقدم له فى ضمتها الكثير من
 المطف والاشفاق ، وما تخاله من حاية وأمن . .

فاذا ما أهلت على عم الصبي ، فهو يرحب بها ويقدم لها الميعش
 الرغد على ألا تتخلى عن الفلام إلا حين يشتد عوده . . . وترد الأم على
 عم ابنها بأنها إنما تعيش له منذ ودعها زوجها " أبو كعب " ماضيا إلى
 الموقمة والفضب يظهر فى عينه والعنف يهدو فى حركاته وهو يدفع
 بها وابنها معا إلى طريق الشام حيث يعيش أخوه هذا . . . ويصر
 الشيخ على أن تكلم أسامة عن الصبي ما تعلم من أمر أبيه . . . ويشب
 الفلام يسأل عن أبيه فيعلم من أمره اسمه ومكانته من قومه اليه —
 ثم . . أنه لقي مصرعه هناك فى الأرض الحميدة ، ولا يرضى هذا
 الفتى فيلجأ إلى عمه يسأله ، ولكن عمه لا يمل تعطشه إلى أن يعترف . .
 فتعتقد نفس الفلام ويحس الخوف من هذا السر الذى يخفيه عمه وتخفيه

(١) على هامش السيرة ح ٣ ص ١٩٢ .

أمه ... " فمكف الفتى على نفسه ، وأثر الحزن فى ضميره ، وجاهد
الهم ما استطاع الى جهاده سبيلا ، فلم يقهر الهم ، ولكن الهم لم
يقهره " (١)

هكذا قدم الكاتب للقارئ أشخاص قصته، وحدد له معالم الحياة
التي يعيشونها، ورسمها واضحة، ليسير بعد هذه المقدمة فى الحدث
خطوات ... فإذا الفتى يقبل ذات يوم على عمه وأمه معا يأمرهما
بالرحلة عن هذه المدينة ، لأن جيوش أصحاب محمد قد دنت منها ،
ولأن نائب قيصر يستعد للقائهم ، ويقول له الشيخ اليهودى : " وسأ
نحن وهذا الصراع ، نصارى ومسلمون يقتتلون ، وسنرحل وتخلو بينهم (٢)
فيخبرها الفتى أنها سيرتحلان حقا ، ولكنه هو سيقم لأنه يقدر على
الحرب ، ويريد أن يصرف فيها نفسه وهمه فأصدا الى الموت قصدا ليستريح
من حياته المتناقضة هذه ، وهنا ينظر الشيخ نظرة ما كوة الى الأم الواجته
ويقول : " لقد آن الأوان يا أساه " (٣) وينصرف تاركا الفتى وأمه التي
تسأل الفتى عن يريد أن يحارب ، فإذا ما أخبرها أنه يريد أن
يحارب أصحاب محمد ، قالت له الأم : " فانك لن تفعل من هذا
شيئا يا بنى الا أن تكون ابنا عاقا ينكر أباه " (٤) ويدعش الفتى فما علم
الا أن هذه الفتنة من أصحاب محمد عدو له ولليهود ، وتزيل الأم دهشته
حين تفتح عينيه على السر الكبير ... فقد كان أبوه "مخبريق" صديقا
لنبي العرب وحليفا له ، فلما نفر النبي الى الحرب تقاعس اليهود ،
ودعا مخبريق أهله الى الوفا بالمهد فأبوا وتملأوا ، وحل الرجل سلاحه
لا يريد الا الوفا بما تعهد به، فقاتل فى صف النبي بعد أن ودع أهله

(١) على هامش السيرة ح ٣ ص ١٩٥ .

(٢) المصدر السابق ح ٣ ص ١٩٦ . (٣) على هامش السيرة ح ٣ ص ١٩٦ .

(٤) المصدر السابق ح ٣ ص ١٩٧ .

هذا الوداع الذى تعرضه ، وظل يقاتل الى ان قتل ، وكان الرسول يقول عنه كلما ذكر له " مخيري خير يهود " (١) ثم تحكى الأم قصة ارتحاضها وما صادفته من أهوال حتى وصلت الى عمه الذى أبى أن يصدق إلا أن محدا قتل اليهود جميعا ، ومنهم مخيري " وما قتلوه يابنى وما عرضوه للقتل ، وما طلبوا منه حرا ، ولا قتالا ، ولكن أباك وفى بالمعهد يابنى ، وقد يكون الوفاء مرا فى بعض الأحيان ، فانظر ماذا تمنع : أتصر قويا نصرهم أبوك ؟ أم تكف عن حرب قوم نصرهم أبوك ؟ فأما أن تخذل من كان لهم أبوك ناصرا ، فما أرى أن ذلك شئ تستطيع أن تقدم عليه " (٢) .

وهكذا تتمتع أحداث القصة وتشابك وتنمو الشخصيات ليهود لنا ما فى المم من عصبية وخف ، وما فى الأم من أصالة وعراقة ، وما نرى الابن من حيرة واضطراب ، وقد واجهوا جميعا الحدث فى اكتماله وجاءت ساعة الفصل . .

ثم تأتى النهاية بعد عام ومضى عام حين يقبل حارث بن الجباب السلى بحثا عن امرأة يهودية تعرف بأى كعب وهى " أساء " زوج " مخيري " فاذا لقيها قال : " أبشرى بأئمة الله فقد كتب الله لاهنك الشهادة ، كما كتبها لأبيه مخيري ٠٠٠ فلم تعيس ولم تهتم ٠٠٠ وأنا قالست : أنا لله وأنا اليه راجعون " (٣) .

وهذا تنتهى هذه القصة ، ويتضح للقارئ - من خلال ما تقدم - ما فيها من بناء فنى فى المقدمة والمضمون والخاتمة .

(١) على هامش السيرة ج ٣ ص ٢٠٠ .

(٢) المصدر السابق ج ٣ ص ٢٠١ .

(٣) المصدر السابق ج ٣ ص ٢٠١ .

والمقدمة تحمل الخيوط الأولى للشخصيات والحدث ، والضمون
يجمع هذه الخيوط ويمقددها ويصمد الحدث ويصل به الى ذروتته
ثم تأتي الخاتمة تحمل ما أراد الكاتب أن يسوقه الى القارئ من معنى
واضح جلي .

والشخصيات فى القصة واضحة المعالم ، بَيِّنَةُ القصات ، وهى
شخصيات حية تتلئ ، بما تتلئ به الشخصيات الحية من المواطن
والنوازع ، وتميش فى صراع أطرافه واضحة ، وأسبابه أشد وضوحا ، والخاتمة
حين تأتى لن تكون غريبة ولا شاذة ، فقد هُئِىَ لها القارئ حين علم
من أمر الفتى ما علم ، وحين علم من أمر أبيه ما علم ، وحين رأى من
خلق أمه وتصرفاتها ما رأى . . انما الأمر كله وفاة وإيثار هذل .

والناظر فى هذه القصة يجدها قد استوفت شرائطها الفنية ، فالقصة
متراصة الأجزاء كل جزء قاد الى ما يليه فى تسلسل طبعى ويسر واضح . .
كذلك يرى نما الشخصيات خلال الأحداث واضحا وضوحا بينا ، كذلك
فانه يرى هذا التركيز الواضح فى الزمان والمكان والشخصيات . . بالاضافة
الى ما يجده القارئ من وضوح الزاوية التى شاء الكاتب أن يقف عندها
ليصور هذا القطاع من قطاعات الحياة فى حياة هذا الفرد أو هؤلاء
الأفراد . . بالاضافة - أيضا - الى ما احتوته هذه القصة من مضمون هادف
نهيل ، وهو تصوير الوفاة فى أربع صوره ، وإبرازه للقارئ فى صورة جميلة
تهببه اليه وتدفعه الى التحلى به والدعوة اليه .



ويخلص البحث من خلال ما تقدم الى أن الأسلوب الذى كتب
به فصول " على هامش السيرة " - وهو الأسلوب القصصى - يجعل هذا
الكتاب الى العمل الأدبى الفنى أقرب منه الى العمل العلمى السذى

تتأقش فيه الأحداث ، وتهت فيه الوقائع ، وهذا يعنى أنه هل فنى يتذوق
كما يتذوق العمل الفنى ، ويقاس بما يقاس به العمل الفنى ، ويتاح فنى
ما يتاح للعمل الفنى - بصرف النظر عن أحداث السيرة - من تجوز
فى التاريخ ، وحرية فى اختراع الروايات والأحداث والأخبار ، ونسبة فنى
اختلاق الشخصيات - ولا يتاح فى العمل العلمى . .

يقول طه حسين : " وأحب أن يعلم الناس أيضا أنى وسعت
على نفسى فى القصص ونحتها من الحرية فى رواية الأخبار واختراع الحديث
ما لم أجد به بأسا ، إلا حين تتصل الأحداث والأخبار بشخص النبى أو
ينحو من أنباء الدين ، فأنى لم أبج لنفسى فى ذلك حرية ولا سمة ،
وانما التزمت ما التزمه المتقدمون من أصحاب السيرة والحديث ، ورجال
الرواية ، وطما الدين . . . " (١)

الا أن هذه الحرية التى أباحها لنفسه والسعة التى أجازها لها
واختراع الأخبار والشخصيات الذى أجراه على قلمه لم ترض الكثير من
الكتاب ، بل كانت مثار نقدهم ، ووضع طعنهم على الكتاب ، بحجة أن السيرة
يجب أن تكون بمنأى عن هذا كله من الأحداث المخططة والأخبار الملققة ،
والشخصيات المبتدعة ، وأنه ان جاز للكتاب أن يبيع لنفسه هذه الحرية
وطك السعة ، وأن يخترع ما شاء له أدبه أن يخترع من أخبار وروايات
وأن يخلق ما شاء له ضميره أن يخلق من أحداث وشخصيات - حين
يتناول تاريخا أو يكتب سيرة - فانه يجب عليه أن يفرق بين ما يجوز
فيه ذلك وما لا يجوز . . أو بمعبرة أخرى يجب عليه أن يفرق بين
الموضوعات الاسلامية وغيرها من الموضوعات الأخرى ، وأنه ان جاز ذلك

(١) على هامش السيرة - ص ١٠

فى الثانية فلا يجوز فى الأولى ، حتى لا تكون الموضوعات الاسلاميـة
والمسائل الدينية عرضة للتشكيك فيها والريبة حولها . . من أجل
ذلك أود أن يفصل الدكتور طه حسين فيما قد يكتب من بعد من فصول
تجرى مجرى " على هامش السيرة " بين ما يتصل بالمقائد وما لا
يتصل بها ^(١)

ولكن على الرغم من هذا النقد الموضوعى الجاد ، نرى الكتاب
من الناحية الفنية الأدبية ، قد بلغ نضجا فنيا ، وقمة أدبية عالية فى المجال
القصصى ، مما يشهد لطله حسين فى هذا المجال بالبراعة والثفوق والمنزلة
المالية . .

يقول المازنى : " طه حسين قصصى بارع ، وأديب روائى مـمن
الطبقة الراقية ، وأنه خير للأدب المصرى فى رأى أن ينضو عنه بـردة
العلم ويتناول قلم القصاص ، وأحسبه يوافقنى على أن كتابه : " الأيسام "
سيفقى ، على حين قد يلقى أو لا يلقى " حديث الأرحم " و " نفس
الأدب الجاهلى " ^(٢) .

ويقول الدكتور محمد عبدالمنعم خفاجى : " وقد بلغ طه حسين
فى كتابه " على هامش السيرة " وفى " الوعد الحق " منزلة كبيرة نفسى
فن القصة المعاصرة " ^(٣)

(١) طه حسين فى معاركه الأدبية ص ١٥٢ .

(٢) مع طه حسين ص ٧٧ .

(٣) نهىنا مرارا الى أن كلمة "معاصرة" خطأ شائع ، والصواب : المصرية .

(٢) الأدب الحديث ومدارسه ص ٤٧٧ .

::الفصل الرابع::

الألوان القصصية في " على هامش المسيرة "

- ١ - القصة الشخصية •
- ٢ - القصة الحداثيّة •
- ٣ - القصة التي تصور الممّنّى وتبرز الفكرة •

سبق أن انتهى البحث الى أن طه حسين قد اتخذ من بعض أحداث السيرة وقائمهـا مادة لكتابه وموضوعا لفصله ، وهى تلك الأحداث والوقائع التى تصور الحقبة التى سبقت ميلاد الرسول صلى الله عليه وسلم وما كان ينتابها من شك وقلق روحى وصراع عقدى ، والعدة التى طلّت ميلاده صلى الله عليه وسلم وما وقع فيها من أحداث ، وما أشارت اليه تلك الأحداث من قرب محبته صلى الله عليه وسلم ، كما صور بعض الأحداث التى تلت محبته، وما أشارت اليه تلك الأحداث وما دلّت عليه من انتصار الاسلام وانتشاره .

كذلك سبق أن انتهى البحث الى أن طه حسين قد استطاع أن يصور تلك الحقبة، من خلال تصويره للأحداث التى اختارها، والشخصيات التى انتقاها، والمواقف التى أبرزها، من تلك الأحداث ، والشخصيات ، والمواقف التى لها دلالة واضحة فى تصوير تلك الأيام وإبرازها .

وقد سبق أن أشار البحث الى أن فصول هذا الكتاب أو قصصه قد دار بعضها حول تصوير بعض الشخصيات التى اختارها الكاتب، ورسم بعض النماذج البشرية التى تمثل اتجاهها من اتجاهات الانسان، أو صفة من صفاته ، أو مذهبها فكريا يؤمن به ويعتقّه . كما أن بعضها قد دار حول تصوير بعض الأحداث والوقائع التى انتقاها الكاتب، وكانت ذات تأثير واضح فى ذلك الزمن . . . كما أن بعض هذه القصص قد دار حول إبراز بعض المواقف وتجلية بعض المعانى التى تمثل زاوية من زوايا تلك العدة ، وقد أشار البحث الى هذه الأنماط من الموضوعات التى دارت حولها قصص هذا الكتاب عند الحديث عن موضوع الكتاب وفكرته .

ومن خلال هذه المقدمة التى صُدِّرَ بها هذا الفصل ، يستطيع القارئ أن يستنتج ما فى هذه الفصول من ألوان قصصية بعضها يعبر

الشخصية ، ومعضها يصور الحدث ، ومعضها يجلى الموقف ويميز الممضى
ويوضح الفكرة . .

ومهمة هذا الفصل أن يتناول هذه الألوان بالدراسة والتطليل ،
وأن يتخَّلَّ من كل لون من هذه الألوان بعض القصص التي تثلّه أصدق
تشثيل ، متعرضا لها بالتطليل وإبراز ما فيها من صفات وسمات .

١ - القصة الشخصية :

والقصة الشخصية: هي التي تعنى برسم الشخصيات ورسم النماذج
البشرية المختلفة ، وتصوير جوانبها المتعددة ، وتصوير ما يعتل فسى
نفوسها من خير أو شر ، وما يطرع فيها من آراء ومعتقدات ، وما تؤمن
به من مذاهب وأفكار . والقصة الشخصية لا يعنى أنها تتناول الشخصية
التي تتناولها من جميع جوانبها وزواياها، بل غالبا ما تتناول جزءا من
حياتها ، تريد أن تصوره ، أو اتجاهها معيناً فى تلك الشخصية تريد
أن تبرزه ، أو موقفا بارزا اتخذته تريد أن تجلوه ، لأن الشخصية
التي تُصَوَّر ، والنموذج الانسانى الذى يُرَسَّم فى القصة الشخصية ،
لا يُصَدَّق لذاتيهما ، ولا يُخْتَار تصويرهما لِمَقِيَّتَيْهِمَا ، بل ان الشخصية
حين تصور ، والنموذج الانسانى حين يرسم ، لا يقصد من تصويرهما
ورسمهما الا جلاء المعانى الانسانية التى يريد الكاتب أن يجلوها واظهار
الأفكار والآراء التى يريد أن يظهرها .

و" الأشخاص فى القصة مدار المعانى الانسانية ومحور الأفكار
والآراء المامة ، ولهذه المعانى والأفكار المكانة الأولى فى القصة منذ
انصرفت الى دراسة الانسان وقضاياها ، اذ لا يسوق القاص أفكاره وقضاياها

الهامة منفصلة عن محيطها الحيوى ، بل بسوقها مثلة فى الأشخاص الذين يعيشون فى مجتمع ما ، والا كانت مجرد دعاية ، وفقدت بذلك أثرها الاجتماعى وقيمتها الفنية معا ، فلا مناص من أن تحيا الأفكار فى الأشخاص أو تحيا بها الأشخاص ، وسط مجموعة من القيم الإنسانية يظهر فيها الوعى الفردى متفاعلا مع الوعى العام فى مظهر من مظاهر التفاعل ، على حسب ما يهدف اليه الكاتب فى نظرته الى هذه القيم وفى أغراضه الإنسانية (١).

وإذا ما رجعنا الى القصص الشخصية فى كتاب " على هامش السيرة " والى الشخصيات التى صورتها والنماذج البشرية التى رسمتها ، نرى أن هذه الشخصيات وتلك النماذج مختلفة ومتنوعة : مختلفة فى نزعاتها وأهوائها وآرائها ، مختلفة فيما يصرع داخلها من خير وشر ، وجب ونقض ، وإيمان وكفر ، ومن القصص التى تمثل هذا الاختلاف فى " على هامش السيرة " قصص : " صريح الحمد " و " سيد الشهداء " و " مُصَمَّبٌ بَيْنَ عَمِيرٍ " و " طريد البأس " و " نزيل رحى " . وهى متنوعة فى أنماطها وأشكالها ، فكما اتخذ طه حسين شخصيات قصصه من الأناس ، كالقصص السابقة التى أشرنا إليها آنفا ، فقد اتخذ فى بعضها شخصيات خيالية من الشياطين ، وذلك كقصة " نادى الشياطين " كما اتخذ فى بعضها الآخر شخصيات خيالية من المماتى المجردة ، وذلك كقصة " ذو الجناحين " .

ولسنا هنا فى مجال تتج هذه القصص بالدراسة والتحليل ، وإنما نحن بصدد أن نبين للقارئ أن فصول " على هامش السيرة " مليئة

(١) النقد الأدبى الحديث ص ٥٢١ د . غنيمى هلال .

بهذا اللون من القصص التي تصور الشخصيات .

على أن هذا لا يمنع أن نتناول إحدى هذه القصص بالدراسة والتحليل ، ولتكن قصة " صريح الحسد " ونشير الى مضمون ما عداها في ايجاز . ولذلك كان من الأفضل أن نشير الى مضمون هذه القصص أولا ، ثم نتناول قصة " صريح الحسد " ثانيا .

قصة " سيد الشهداء " ^{١٤} تدور حول اسلام " حمزة " ولائه في سبيل الله واستشهاده في " أحد " وحزن الرسول عليه . .

وقصة " مصعب بن عمير " تحكى أمر مصعب وحاله قبل الاسلام من الخنى واليسار وطيب المعيش ، كما تحكى أمر اسلامه وما تركه فسى سبيل الاسلام من الخنى وطيب المعيش ، وما صار اليه حاله من فقر وخشونة عيش كما تحكى صبره وللاه وهجرته مرتين الى الحبشة ، ثم عودته الى مكة واحتماله في سبيل الله من الأذى والهلا ، مؤثرا قربه من الرسول واستهانته في ذلك بما يلقاه من الأذى والهلا ، ويصير مصعب - بقربه من الرسول - فقيها من فقهاء الاسلام ، ويرسله الرسول الى يثرب ليفقه من دخلوا فسى الاسلام ، ويصود مصعب من المدينة بسهميين من الأنصار دخلوا فسى الاسلام على يديه ، وهم أهل بيعة العقبة الثانية ، وذلك لحلو حديثه ونفاذ قوله وسماحة طبعه ، ويشهد مع الرسول بدر " ثم يشهد " أحدا " ويشاء الله أن يستشهد في هذه الغزوة بعد أن أبلى بلاء حسنا .

وقصة " طريد الياض " تدور حول مقتل أولئك الصحابة الذين خرجوا من المدينة ، مع نفر من " هذيل " ادَّعوا الاسلام وطلبوا من يفقههم في الدين ، فيرسل الرسول معهم هؤلاء الصحابة ، فيقتلون منهم في الطريق من يقتلون ، ويبيعون من يأخذونهم أسرى الى قريش ليصيروا بهم مالا ، وكان من هؤلاء الأسرى " زيد بن الدثنة " الذي اشتراه

تحرى دمنه
المصاحبة للرجلة
تدور القصة

"صفوان بن أمية" ثم دفعه الى مولا "لسياف" النصراني ليقتله .. ويؤكد الكاتب الأضواء على لسياف هذا ، ويصور كيف صار أسيرا للندم ، طريدا للياس بعد أن امتدت يده الآثمة لتسفك دما مؤثما زكيا ..

وتص "نزيل حش" تدور حول شخصية "وحش" العبد الحش الذي نال حرته بقتل حمزة عم الرسول ، إذ طعمه بحرسته يوم أحد .. ثم مضى بعيدا عن القتال ، فإذ كان له فيه من أرب إلا أن ينال حرته وقد نالها بهذا الثمن الضخم ، وتغضى به الأيام حرا كالعميد ، ونور الاسلام ينتشر من حوله ، وهو في خوفه من غيبة الرسول والمسلمين يحاربهم في كل ميدان ، حتى لا يصيب هناك ميدان .. فيهرع يريد الهرب ، وتغيب به الجزيرة الحربية كلها ، فإذ عاد هناك مكان يقيه وقد انهست سلطان النبي على كل مكان ، وأصبحت الهجرة متعذرة غير ميسورة ، ففر من غضب الرسول الى رحمة ، وذهب يعلن اسلامه ، فينال الحفو ويحش بين المسلمين تلقا محزونا ، وقد بدأت جريمته تتغل له بهشاعتها وتحتها ، ويريد أن يضرق هم في القتال ، فإذا به يشترك في حرب المرتدين ، وإذا بحرته التي صرعت حمزة صرع "مسيلة" الكذاب ، ولكن دم مسيلة لا يغسل دم حمزة .. لقد صفى النبي ، ولقد صفى المسلمون ، ولكن "وحش" لا يعرف الراحة ، يقاتل الروم دوما من نفسه ، ويشرب الخمر طول يومه دوما من ضيقه ، وإذا بالناس يعرفون فيه سكره وندمه ، وإذا بالولاة يحدونه في الشراب ، ولكنه يعود اليه بخا عن السلوان ، والندم يسد عليه المسالك كلها ، ويظل وحش بين حبه وخمره وندمه وثقله ، حتى يحد في الخمر - وقد ضعف وكبر - فيموت ..

أما تص "صريح الحميد" التي آثرناها بالدراسة والتطيل ، فانهما تدور حول شخصية كان لها موقف بارز واضح في تاريخ الدعوة الاسلامية ،

هو موقف المداء السافر للاسلام ، والبغض الشديد للرسول ، والصدد
الأحق عن سبيل الله . . تلك هى شخصية عمرو بن هشام ، المعروف
فى التاريخ الاسلامى بأبى جهل . . وقد اتخذ أبو جهل هذا الموقف
من الاسلام ورسوله ، من لدن قامت الدعوة الى الله على يد الرسول صلى
الله عليه وسلم حتى مصرعه فى غزوة بدر . . بل ان بغضه الشديد
للرسول وحقده عليه ، بدأ قبل أن يبعث الرسول بوقت طويل منذ أول عهد
الشهاب يوم دُعِيَ الى وليمة فى دار عبد الله بن جُدعان . .

وموقف أبى جهل هذا من الاسلام ورسوله ، كان يزداد مع الأيام
شدة وضراوة ، كلما ازدادت شوكة الاسلام واتسعت رقعة ، وكثر أنصاره
وأتباعه .

وفى هذه القصة يصور الكاتب شخصية أبى جهل تصويرا دقيقا
مبرزاً جوانبها ، موضحاً صراعاتها النفسية ، وخباياها الداخلية ، كما شفا عن
مواقفها المدائية المتكررة مع الرسول صلى الله عليه وسلم ، مطسلا
سر عداوتها وحقدتها . . كل ذلك فى أسلوب تحليلى أدبى دقيق ،
تظهر من خلاله شخصية أبى جهل ، كما أراد أن يصوره الكاتب ، فإذا
بالقارئ - وقد انتهى من قراءة القصة - أمام انسان حاقد حاسد ، لا يحمل
بين جنبهيه الا الحقد على الاسلام ورسوله .

ولنعمد الى تحليل هذه القصة من البداية : فى هذه القصة نلتقى
بشباب يصور : " رجلا شديد الطموح ، بميد الأمل واسع الرجاء ،
ولكن الأسباب قد تقطعت به ، فهو غير راض عن نفسه ، ولا عن حوله
من الناس ولا عما حوله من الأشياء ، يريد أن يذعن لظروف الحياة التى
لا يستطيع لها تفسيراً ولا تهديلاً ، ولكن نفسه لا تطيق الاذعان ولا تطمئن

اليه ، فهي في جهاد متصل وصراج مستمر (١) ذلك الشاب الفنى الذى يسمى بماله المريض عليهم به في تجارة قريش ويحمله الى عمه الوليد بن المغيرة ، السيد الذى هو من أروع سادات قريش ، والرجل الذى هو عظيم بين رجالات البطحاء ذلك الشاب الذى يحمل على الناس من حوله في سخيرة عابثة لاهية ، لا تحترم قدرا لصنم ، أو مكانا لمعظم ، أو تقديرا لأحلام الكبار والصغار معا ، ويحمل على الحياة من حوله في ازدراء ، لما يتقلب فيه الناس من لهو وضلال ، فهو يفر الى حانة "نسطاس" حينا ، وإلى لقاء ورثة بن نوفل "أحيانا يلتصق فوق الشراب والفناء" ، واللهو بمتعة العلم والمعرفة ولكننا حين نغنى في القصة قليلا نحص أن سخيرة عمرو ليست خالصة للسخر وحده ، وأن لهوهم حين يلهو وحده عن العلم والمعرفة ليما للهو أو للعلم والمعرفة وحدهما ، وإنما هي نفس الثقتى التى تريد أن تحص بالثبوت على من حولها ، وتخالف الآلاف والمعهود عن رغبة في أن تهدو شاذة ملفتة للكأنظار ، خالصة للعقول ، ونشهد الفتى يفتدو الى صاحبه نسطاس الرومى فلا يجد عنده الا ازوارا ، فإذا ما ذهب الى ورثة أحسن به ضجرا ما تعود ، وما يعنى نسطاس وورثة وهما أمام حلم حياتيهما يوشك أن يتحقق ، وهما يعالجان هذا الأمل الجديد قد بدأ ينشق ، بعد طول انتظار ما يحتملها - وهما يعلمان من أمر محمد وبشارة محم - من أمر هذا الفتى اللاهى الساخر المايث الذى لا يلقى عندهما ما تعود من حديث فيذهب الى ناديه ليلقى حديثا يؤذيه ، ذلك هو الأمر الذى فوت عليه المتعة التى كان يجدها عند النصرانيين : بشارة محمد ودعوته الجديدة .

(١) على هامش السيرة ج ٣ ص ٥٨

ونضى قليلا لنحن في نفس الفتى حنقا قديما على محمد، هذا الذي تتعلق به الأبصار عن اعجاب لا عن انكار، وعن حب لا عن مخافة، وعن خلق قويم سليم لا عن ادعاء وغرور... حنقا قديما لا يريد الزمن أن يحويه... بدأ منذ أول عهد الشباب يوم دعيا الى وليمة فنى دار" عبد الله بن جدعان" فازدحم القوم، وزاحمه محمد فزحمه فزلت قدمه وسقط على الأرض سقطة مازالت آثارها باقية لا تزول، وممها بغض لمحمد لا يزول، وينميه في قلبه ما يسمعه من القوم ثناء عليه... وهو كما يقول نسطاس: "فتى طمأخ^(١) شديد الطموح، مضرور يكاد يقطعه الغرور، وحسود يأكل الحسد قلبه، كما تأكل النار ما يلقى فيها من الحطب، وهو على ذلك ذكى القلب، فصيح اللسان، وأثير عند قومه، وما أرى الا أنه سيكون أشد الناس عداوة لهذا النور الجديد، وما أرى الا أن عداوته ستزيد هذا النور انتشارا كلما أمنت في الشدة والحدة" (٢)... وقد استعد قلبه لدعوى الشيطان يغرس فيه الحقد ويسقيه من زق الكراهية يملأه قلبه ووجدانه معا، فاذا هو أشد الناس عداوة لمحمد ودعوته لا عن ايمان واقتناع، ولكن عن حقد في قلبه، ودث في ضميره، وغرور يملأ صدره، وجهل يرين على عقله وفؤاده... ويظل أبو جهل على حاله تلك يقوده البهوى على محمد والكيد لـه والحقد عليه، والشيطان من ورائه يفتديه ويقويه، ولكنه أضعف من أن يحمل في النور، فهو يخشى محمدا خشية لما هو أكبر من المسوت يخشاه حين يقبل عليه ليقطعه، ويخشاه حين يطلب منه محمد مال أعرايس غريب فيظهره، ثم يموت آخر الأمر بسهم حقدته وحسده يوم يسدده يوم علت قدم ابن مسعود صدره، ونزل سيفه يحتر رأسه.

(١) في الأصل: طمأخ وهي كلمة منتشرة على الألسنة وأسلات الأقلام، ولكنها ليست في القواميس بالمعنى الذي أراد الكاتب.

(٢) على هامش السيرة ج ٣ ص ٤٧.

ولكن القصة لا تنتهى عند هذا الحد ، إذ أن الكاتب يطوى الأيام والأعوام ليرينا مشهدا من مشاهد موقعة " اليرموك " ، تلك الموقعة التى استشهد فيها «عكرمة بن أبى جهل» ، حين أدخلوه جريحاً على خالد بن الوليد قد أشرف على الموت ، وقت أن كان خالد بمن الوليد يجلس الى نسطاس صديق أبى جهل أيام أن كان فى مكة ، وقيل أن يهوى قومه من الروم لنور الاسلام الجديد . ويقول خالد بمن الوليد عن عكرمة ملتفتا الى الشيخ نسطاس " أما أبوه فقد صرعه الحسد والهوى ، وأما هو فقد صرعه الجهاد فى ذات الله " (١)

ولعل هدف الكاتب من ايراد هذا المشهد يبدو واضحا ، إذ تظهر من خلال الموازنة بين أبى جهل وابنه عكرمة الحكمة البالغة والمظلمة البليغة ، وكيف أن الله قادر على كل شئ ، يخرج من صلب كافر قتلته الهوى على الاسلام والحسد على رسوله - رجلا يصرع فى سبيل الله . وفى هذا دليل على انتصار الاسلام وانتشاره .

ولعل من المفيد بعد ايراد البحث مضمون هذه القصة تفصيلا - أن نكشف عما فيها من سمات وخصائص فنية :

١ - ولعل البحث لا يتجاوز الحق اذا أطلق على هذه القصة اسم القصة التطيلية ، وذلك لأنها تعنى بتعطيل نفسية البطل (أبى جهل) وشرحها ، وتبنى أيضا بإبراز المواقف والمؤثرات التى كونت هذه الشخصية ، وتصوير الحياة التى عاش فيها البطل وما ساد فيها من أفكار ومعتقدات وغير ذلك مما من شأنه أن يكون له أثر واضح

فى تكوين المزاج النفسى والظُّق لهذا البطل . .

وغالبا ما تتكفل الروايات والقصص الطويلة بتحليل الشخصيات وتفسير جوانبها الاجتماعية والنفسية والجسمية ، ذلك لأن مجال التفسير فيها أرحب ومجال الشرح فيها أمكن . . . ونادرا ما تقوم القصة القصيرة بهذه المهمة نظرا لقصرها ، وان قامت بذلك جاء التفسير موجزا والشرح مختصرا ، كذلك يكون تحليلها للشخصية فى جانب معين أو زاوية من زواياها المتعددة أو كشف صفة من صفاتها المختلفة .

" ويقصد بها - معنى الرواية التحليلية - تلك الرواية التى يبرز فيها جانب التحليل النفسى ، حتى يكاد يطفى على بقية عناصر الرواية ، فالأحداث والشخصيات والحوار وغير ذلك من مقومات الرواية ، تأتى فى المكان الثانى أو ما دون الثانى ، حيث يتصدر جانب التحليل النفسى للبطل وحشد كل ما يُمكن من هذا التحليل ، ويمين عليه . . من ممرضة ماضى هذا البطل ومينته وما تكون لديه من عقو ، أو ما صُج به عالمه النفسى من صراعات ، حتى ليختار البطل لهذا اللون من الروايات - غالبا - من ذوى الميول النفسية غير السوية ، بل من ذوى الحقد والأُمراض النفسية أحيانا ، وهكذا تأتى الرواية بمثابة تحليل نفسى لخبايا نفس معينة ، وبيان كيف دفعتها ظروف خاصة الى سلوك غير سوي أو سلوك غير عاقل على وجه المصوم ، وليس ما يمنع أن يكون للرواية بالإضافة الى ذلك هدف اجتماعى أو اصلاحى أو نحو ذلك " (١)

واذا ما نظرنا الى جانب التحليل لشخصية البطل فى هذه القصة نراه واضحا فيما يأتى :

أ - تقديم بعض الأبعاد الجسمية والنفسية والاجتماعية لشخصية عمرو بن هشام وذلك عن طريق السرد والوصف المباشر تارة وعن طريق الوصف غير المباشر من خلال تصوير تصرفاته وأحداثه تارة أخرى ، ومن خلال هذين الوصفين تتكشف صفات شخصية أبي جهل عالتى تتسم باللهو والمبث والسخرية لكل من حولها وما حولها ، ومحاولة مخالفة المعهود المألوف والاحساس بالتفرد والتفوق .^(١)

ب - التحليل الدقيق لنفسية عمرو بن هشام واستهتان عالمها الخفى وسبر هذا العالم سبرا حقيقيا ، ثم تصويره تصويرا دقيقا كاشفا يجسم ما فيه من انفعالات وصراعات ، وما يسطرح فيه من حقد وحسد ، وذلك من خلال الأحداث وللحجرات التى أجراها الكاتب بين عمرو بن هشام وبين أصحابه مرة ، وبينه وبين الشيطان مرة أخرى .^(٢)

٢ - من الجوانب المشرقة فى هذه القصة: ذلك الضمون الهادف ، فالقصة تجرى أحداثها حول شخصية حاسدة ، وقد نجح الكاتب فى الكشف عن تلك الشخصية وتمييزها أمام القارئ فى أنماط متعددة ، وأشكال متباينة ، وهو بهذا الكشف وظك التمويه قد نجح فى تنفير القارئ من ذلك المرض الاجتماعى الخبيث ، وبالإضافة الى هذا الضمون الهادف ، يوجد هناك هدف اجتماعى اصلاحي يتضح من خلال هذه القصة وهو فصح الحاسدين والحاقدين ، وبيان عاقبة من اتصف بصفة الحسد أو الحقد ، كما حدث لعمرو بن هشام .

(١) انظر " على هامش السيرة " ج ٣ من ٨ - ١٨ ، ص ٣٧ ، ٣٨ ، ٣٩ .

(٢) انظر " على هامش السيرة " ج ٣ من ٤١ ، ٤٢ ، ٦٥ - ٧١ .

٧٤ - ٧٩ ، ٨٤ - ٩٨ .

٣ - من الجوانب الفنية فى هذه القصة أيضا - بالاضافة الى ما تقدم - الاستعانة فى رسم بعض الشخصيات والتعرف على داخلها النفسى وما يدور فيها من خلجات ، بوصف المجال الذى تقع فيه الأحداث ورسم طبيعته ، وذلك يتضح حين يصف الكاتب جو به و ما كان يلفه من قهظ شديد وما يغلغه من هدوء وسكون لانشاط فيه ولا حركة ، فكل شئ فيه ساكن هادئ يوم أن سمى نسطاس الى ورة بن نوفل فى حذر مطء شديد ين يلفه خوف وترقب خشية أن يراه أحد . (١)

٤ - نجح الكاتب نجاحا كبيرا فى رسم صورة للمجتمع القرشى وما كان يسوده من عادات وأعراف وتقاليد . (٢)

على أن بالقصة - الى جانب هذه الجوانب المشرقة - بعض المآخذ التى لا تفض كثيرا من قيمتها الفنية .

وأول هذه المآخذ : هو الاستطراد فى وصف الأقداح والنجوم والنسيم والاسترسال فى تصويرها ، حين يصف الخلوة التى كانت بين عسرة ابن هشام وصديقه نسطاس - استطرادا واستعمالا لخدما القصة ولا يؤثران فى مسار أحداثها . (٣)

وثانى هذه المآخذ : هو تدخل الكاتب أحيانا تدخلًا مباشرا بالشرح والتعطيل والتعليق لبعض المواقف النفسية ، فنراه يحلل نفسية عسرة ابن هشام ، وما ألم بها من ضيق وتبرم ، بعد أن قابل ثلاثة من أحب الناس اليه هم : عمه الوليد ، ونسطاس ، وورة بن نوفل . (٤)

(١) انظر " على هامش السيرة " ح ٣ ص ٤٥ .

(٢) انظر " على هامش السيرة " ح ٣ ص ١٤ ، ١٥ ، ١٧ ، ٢٩ ، ٣١ ، ٣٢ ، ٣٧ ، ٣٨ ، ٣٩ ، ٥٦ .

(٣) انظر على " هامش السيرة " ح ٣ ص ٣٢ .

(٤) انظر على " هامش السيرة " ح ٣ ص ٣٤ ، ٣٥ .

ولا شك أن هذا التدخل يحد عينا في القصص الحديث : " ومن المصيب في القصص الحديث أن يتدخل المؤلف تدخلًا سافرًا بالشرح والتحليل مستقلا في ذلك عن الحوار والحديث النفسى ، فينهى أن يكون تدخله مستورا وفي أضيق الحدود : كأن يقصد فى تدخله الى الفوص فى أعماق شخصيته أو الكشف عن الوعى الباطنى لبطل من أبطاله فى اجمال يملأ به فجوة يريد الكاتب أن يمر بها دون تفصيل " (١)

* — * — *

٢ - القصة الحديثة :

والقصة الحديثة : هى القصة التى تُعنى بتصوير الأحداث وسرد الوقائع ورسم هذه الأحداث وتلك الوقائع فى لوحة جديدة ، مميزة ، ما فيها من دلالات واضحة ومعان هادئة ، متجيزة جوانبها وزواياها المختلفة فى تسلسل ومنطقية .. حتى تصل القصة الى النهاية التى تريد أن تصل اليها .. ولا يعنى هذا أن القصة الحديثة لا تعنى الا بتصوير الحدث ورسمه ولا تلقى بالا الى ما سواه من عناصر : من شخصية وزمان ومكان بل يعنى أن القصة الحديثة تركز على الحدث وتجعله فى المقام الأول ، ويكون ما عداه من عناصر فى المرتبة الثانية ، أو ما يسمى فى النفس بالانصاف الثانوية .

واذا ما عدنا الى " على هامش السيرة " لنرى ما فيه من قصص حديثة فالتنا نجد هذا اللون موجودا فيه ، وأن طه حسين كما وقف أمام الشخصيات يصورها ويرسمها .. كما سبق أن أوضحنا ، فانه قد عالـج

بعض أحداث من السيرة استهوت، ووقف أمامها ليصورها من جديد بأسلوبه القصصى ، ويرسمها فى صورة جديدة مبرزاً ما فى زواياها من آيات عميقة الدلالة ، واضحة الأثر فى هذا الجزء من تاريخ البشرية .

ومن الأحداث التى عنى بها طه حسين واستهواه ما فيها من دلالات وعبر : مولد الرسول .. وحادث الفيل .. ونشأة الرسول .. وقصة الحجر الأسود والخلاف حوله .. وزواج النبى من خديجة - رضى الله عنها .

والقارئ يشعر فى اختيار طه حسين لهذه الأحداث أنها تركت فى نفسه أثراً كبيراً، دعاه الى أن يفرس وراءها خلال التاريخ يسأل عن مقدماتها الأولى ، ثم هى قد أتاحت له الفرصة ليصور لنا الحياة فى هذه الجزيرة العربية وما حولها ، وليصور عادات الناس وطبائعهم وليقدم لنا أحلامهم وآمالهم وأخلاقهم .. ومن هنا يراه القارئ فى علاجه للأحداث يرجع بها الى أصولها الأولى فيفتحها منذ بدأت التباشير الأولى فيسير معها خطوة خطوة ، وهى تنمو وتتدرج وتعمد ، حتى تصل الى نهايتها المرسومة لها .

وتتيح طه حسين للأحداث هكذا منذ بدايتها ، متسلسلاً معها مستقصياً لها لما بجوانبها، تراه واضعاً فى قصتين ، هما : قصة " ميلاد الرسول ونشأته " ، وقصة " حادثة الفيل " .. والقصة الأولى قد شغلت من الجزء الأول تسعة فصول : الفصول الخمسة الأولى ، والفصول الأربعة الأخيرة منه ، أما قصة حادثة الفيل فقد شغلت من هذا الجزء خمسة فصول ، وتوسطت قصة ميلاد الرسول ونشأته .

ومن هنا كانت تلكا القستان قريبتين من القصة الطويلة أو الرواية ، أما القستان الأخيرتان : قصة " الحجر الأسود " و " زواج النبى من

خديجة " ، فهما أقرب ما تكونان الى القصة القصيرة ، اذ لم تشغل الأولى سوى فصل بعنوان : " حديث باخوم " ولم تشغل الثانية سوى فصل - أيضا - بعنوان : " راعى الخنم " وكلاهما فى الجزء الثانى من هذا الكتاب .

ومن هنا كان اختيار البحث للقصتين الأُوليين مجالا للدراسة والتحليل وإبراز الخصائص والسمات التى تدل على هذا اللون من القصص فى هذا الكتاب ، اذ فهما يكون مجال استعراض هذا كله أرحب وأوسع .

ولنستعرض قصة " مولد الرسول ونشأته " ، وقصة " حادثة الفيل " التى تخطتها ، لنرى أن قصة مولد الرسول تبدأ منذ دفع عبدالمطلب دفعا الى حجر يثر زمزم ، فترك ما لقى من جوهر وسلاح للبيت ، واحتفظ بما وجد من ماء له ولأولاده من بعده ، فاذا ما خالفه قومه من قريش فى حقه فى الماء فهو يرضى أن يحتكم معهم الى كاهنة بنى سمسد هذيم ، واذا بالقوم فى الطريق الى الكاهنة ، وقد طال بهم السير وامتنع عنهم الماء حتى رأوا الموت جهارا ويسموا من الجفاف ، واذا بعبد المطلب تتجبر من تحت راحته المياه فيسلمون له بالأمر كله ، واذا بعبد المطلب يعود ظافرا الى مكة ليكر من ولده بزواجه من فاطمة المخزومية ، فاذا ما كا فى الفصل الثالث شهدنا عبدالمطلب ، وقد اكتمل أولاده عشرة يريد أن يغى بنذره الذى نذره يوم تجبر الماء من زمزم ، ورأى القوم من حوله يكاثرونه بما لهم من ولد . . . وتقع القداح على عبدالله فيذعن لقضاء أبيه فيه ، ثم يقدمه فلا يفتدى الا بمائة من الإبل ، واذا بمحمد الله يعود سالما الى أهله لتخطب له ^{سكينة} زوجة أبيه أمة بنت وهب . . . فاذا ما كا فى الفصل الرابع ، فهذا عبدالله وقد بنى بأمته وهو يتركها هذا الصباح مسرعا الى أبيه الذى يختاره ليخرج فى غير قريش ، ويحل الفتى

أن يفادر عروسه راضيا غير ضَجِر ، وفى عودته اليها يلقاه غنا من بيت
فى الطريق . . . وإذا بفاطمة الخثعمية ابنة "مُرّ الخثعمي" صاحب المال
المريض ، وإذا هى معجبة به منذ يوم الفداء ، وإذا هى تحب اليه
أن يتزوجها فينعم بشرورها كلها خالصة له ، وتقبل عليه تغريه كل الاغراء ،
ولكن شيئا فيه يمنحه من التماذى معها فيتركها على وعد بلفاء بعد حين . . .
ويذهب الى زوجه فيقبل ، ويقبل على زوجه اقبال الزوج المحب فى أيام
زواجه الأولى . . . فإذا ما عاد يمر بفاطمة أنكرت فيه شيئا قد ذهب ،
وإذا هى التى تصدّف عنه وتهمس قائلة لصاحبتها عاتكة " لا تهزنى ،
فقد ذهبت آمنة بخير ما كنت أحب ! " . . . فلما ما جاء الفصل الخامس
عرفنا ذاك الذى كانت ترجوه ، حين يرتحل الركب بعبد الله ، ثم يعود
الركب من غيره ، فقد مرض ومات فى يثرب وأن يزوجه تملن بعد حسين
أنه قد حلها أمانة ترى النور فى يتم ، وتهمس فاطمة إذ تعرف النبأ :
" نذر وفداء ، ورحلة ومرض ، وموت فى يثرب ، أن للقدّر فى هذا القسرى
من قريش لسرا ! " (٧)

وعند هذا القدر من القصة يقف طه حسين الى حين . . . حيث
يروى قصة الفيل ، فيبدأ بها من قبل . . . من يوم عرف "تَيْح" اليهودية
على يد حَبْرَيْن من أحبارها ، فَهَادَ ونشر دينه فى اليمن الى أن مات ،
فخرج "حسان" بجيش لنشر الدين ، ويشدر به أخوه عمرو فيقطعه ويعود بالجيش
ويتولى ملك حمير ، بل ويرتد عن الدين ، ويطول عذاب عمرو بهجرته
فينتحر ، ويتولى السلطان غدرا صهره ذو الشناتر الذى يستأثر بالأمور
كله فى غلظة وجفوة حتى يقتل ابنه وابنها ، ويترك أخا عمرو يضمر له
غدرا أشد ونكالا أسوأ ، ولكن زُرَّة بن تَيْح يفتك بالغادر ، فيردىه

(١) على هامش السيرة ج ١ ص ٥٣ .

(٢) على هامش السيرة ج ١ ص ٦٤ .

ويجلس على عرش تيج ويسمى "يوسف" ويلقب "ذا نواس" ، ويمود الى اليهودية يأخذ الناس بها أخذاً ..

واذا بالرواية تقف لتحكى قصة دخول المسيحية بلاد العرب على يد "كيمون" الذى فرّ بدينه الى بلاد العرب ، فتصر أهل نجران على يديه ، وينفس اليهود على نجران تنصرها ، فيدسون لها عند ذى نواس فيغير على نجران يحرقها ويقتل أهلها تقتيلاً ..

وينتقل الحديث ليفدو على لسان راهب من الاسكندرية ، حمل الى الدير مالا وجواهر ، وجاء اليه قائلاً ينتظر ، فلما أقبل عليه أهل الدير يحدثونه .. يضى يحكى لهم قصة هذه المعونة التى طلبها النجاشى لينقم من ملك يهودى عرق المسيحيين فى نجران من بلاد العرب ، وطلبها من قيصر فأسهم هذا الراهب ، وكان تاجراً كبيراً بتقديم السفن ، ثم سافر معها ليصحب الجيش الكبير المنتقم الذى هجم اليمن .. وينتصر الجيش ويوسط سلطانه على اليمن ، ويأخذ بثأر أولئك الشهداء الذين حرقهم ذو نواس .. ولكن سرعان ما يدب الخلاف بين "أرياط" قائد الجيش وبين غيره من زعماء الجيش وعلى رأسهم "أبرهة" فأرياط يرى أن رسالة البعثة قد تمت ، وكفى ما سفك من دماء ، وأما أبرهة ومن معه فلا يريدون الا أن يفرضوا النصرانية على القوم فرفض ، ويحطوهم عليها بقوة السلاح . ثم يكاد الخلاف يؤدى الى معركة بين الأحباش لولا أن يحسموا الأمر بمبارزة بين القائدين تنتهى بقتل أرياط وتولى أبرهة الأمر .. فأقام فى صنعاء كنيسة لم يعرف أهل هذه البلاد مثلها فخامة وضاخمة ، الا أن أبرهة يضيق أشد الضيق حين يرفع اليه نهباً تلطخ الكهبة بالقاذورات ، وأن هذا الأمر لا يمكن أن يقدم عليه الا واحد من تهامة الذين لهم بيت يقدسونه اسمه الكهبة ، ويقسم أبرهة غاضباً ليهب من هذا البيت .. ثم يضى الراهب فى حكايته لنعرف كيف سار الجيش ، وكيف كان لقاء عبدالمطلب

لأبرهة، وكيف أدخل بينه وبين البيت. وتغنى القصة لتكشف عن وقعة الفيل كاملة، تلك التي ارتد فيها جيش أبرهة مهزوما ترميه طير أهابيل. بحجارة من سجيل .. وهنا تنتهى قصة حادثة الفيل .. ويعود طه حسين الى قصة مولد الرسول، فيحكى طرفا من طفولته الأولى : ساعة ولادته حين يرى الحياة يتوما قد ذهب أبوه، وأيام أن كان طفلا فى حجر أمه تحوطه بحنانها ورعايتها .. ثم طفلا فى حجر حاضنته "أم أيمن" بعد موت والدته، ثم يحكى الكاتب قصة طيبة وقصة هذا الصبي اليتيم معها، ثم يغضى الكاتب بعد قليل ليحكى رعاية جده وجه له ورعاية عمه بعد موت جده، وكذلك رعاية حاضنته، ثم يستطرد ليمرض صورا من بكر هذا الصبي - أذ كبر - بمن كفلوه، وحضنوه وأرضعوه .

بعد أن استعرضنا هاتين القصتين نود أن نشير الى ما فهمنا من سمات أدبية وخصائص فنية :

١ - أولى هذه السمات: أن هاتين القصتين يغلب عليهما طابع الرواية أو القصة الخيالية، وقد سبق أن أشرنا الى ذلك، وفى قصة " ميلاد الرسول " نجد طه حسين يتتبع هذا الحدث منذ بدايته، فيبحث عن مقدماته الأولى، ويظل مع هذه المقدمات متسللا معها متقصيا ما فيها من دلالات وإشارات، حتى يصل الى النتيجة التى يريد أن يصل اليها .

وتوضيحا لذلك نقول : ان طه حسين، حين تحدث فى هذه القصة عن ميلاد الرسول ونشأته، لم يشأ أن يبدأ هذه القصة بمولد الرسول صلى الله عليه وسلم، بل رجع بالقارئ الى ما قبل هذا الميلاد .. يوم أن أمر عبدالمطلب بحفر زمزم، وظل مع هذه الأحداث يتتبعها ويتسلل معها، حتى وصل الى النتيجة التى يريد بها، وهو -

أن بيت عبدالمطلب هو البيت الجدير بأن يولد الرسول المنتظر منه ، والمقدمات التي ساقها الكاتب وتتمعها تعطى هذه النتيجة: وهى أن الرسالة فى بيت عبدالمطلب شيئاً طبعياً يتفق مع مجريات الأحداث ، وفى هذه المقدمات يورد الكاتب الشواهد والدلائل على ذلك ، فمبدالمطلب يؤمر من دون قومه بحضر زمزم ، وهو وحده الذى يتدفق الماء من تحت راحته فى الصحراء وقد كاد قومه يموتون عطشا ، وعبدالله ولده هو الذى تعرض للتضحية ، ثم افتدى ليقضى مع زوجته أياماً قليلة ، ثم هو يرحل فيموت غرباً . كل هذه المقدمات العامة وما فصل فيها طه حسين من شواهد ودلالات وإشارات توحى بهذه النتيجة ، فكأننا هيا التاريخ له ذلك ، وقاد بحوادثه وتصرفاته الى هذه النتيجة .

وفى قصة حادثة الفيل ، نرى طه حسين يتتبع هذا الحدث منذ بدايته ، فيرجع بالقارئ الى مقدماته الأولى ، باحثاً عنها ، مفصلاً لها ، حتى يضح يد القارئ على هذه الأحداث التى قادت الى حدث الفيل . . . فيبدأ هذه القصة من يوم أن دخلت اليهودية أرض اليمن . . ثم ارتداد اليمن عنها بارتداد عمرو بن تبح بعد قتله أخاه حسانا ، ثم المسودة الى اليهودية على يد يوسف ذى نواس ، ثم قصة دخول المسيحية الى نجران ، والصراع بينها وبين اليهودية ، وما حدث فى هذا الصراع من تحريق ذى نواس للمسيحيين ، ثم ما أعقب ذلك من أخذ قيصر على يد النجاشى - بشار شهيد المسيحية . . ثم ما أدى اليه من انتصار المسيحية على اليهودية . . وما تبع ذلك من قيام أبرهة ببنتاه كنيسته عظيمة فى صنعاء . . ثم ما حدث لهذه الكنيسته من تطهير بالقاذورات على يد جماعة من العرب . . فأقسم أبرهة ليهتك من الكنيسته التى يقدسونها ويعظمونها ، ثم ما حدث لجيش أبرهة - حين قصدوا الكنيسته يتقدم هذا الجيش الفيلة - من صد عنه . . وما وقع فى قلوبهم من هلع

ورعب ، اذ أرسلت عليهم طير أباييل . ترميمهم بحجارة من سجيل .

٢ - ونتيجة لهذا الطول الذى أدى اليه تنجح الكاتب للأحداث من بدايتها وتسلسله مع تلك الأحداث - نتيجة لهذا ، استطاع الكاتب أن يقف متأنها عند كل شخصية وكل حدث ، ويتمتع بمنظرة ثاقبة ما فى داخل هذه النفوس وما فى هذه الأحداث من دلالات ، فاذا بالكاتب يقدم نضوله المتتابعة شائقة كأجل ما تكون القصة الطويلة ، عميقة كأمس ما يكون التحليل الجاد . . . واذا بالقارئ لا يحس أنه أمام رواية متكاملة الا اذا انتهى من قراءتها وراح يستعرض ما قدّم له من مشاهد وحوار صراع بين أبطال حكاياته . . . ليقوده آخر الأمر فى رفق وأناة الى حديث هذا الحدث الذى قصد اليه أول الأمر قصدا .

٣ - نجح الكاتب - نتيجة لهذا التمتع الدقيق للأحداث والشخصيات - فى تصوير الأحداث ورسم الشخصيات نجاحا كبيرا ، وأرى القارئ شخصيات هاتين القستين واضحة القسمات بينة الملامح ، يمثلون جوانب الخير والشر فى الانسانية أصدق تشييل ، كما أنه نجح فى رسم صورة لتلك الأحداث حين صور الهيئات التى تدور فيها أحداث روايته - وذلك حين قدم للقارئ هذه الهيئات تقديما يجسمها ويوضحها ، ويصور أرضها وسماها وجبالها وصوامعها ، كما يمثل عاداتها وتقاليدها وأخلاق أهلها وطبائعهم . . . كما يجسد صراعاتها ومشكلاتها والخلاقات التى تتشابه فتتغير من أمرها وأمر أهلها .

٤ - نجح الكاتب - فى كل قصة على حدة من هاتين القستين - فى تنجح الأحداث وتقسيمها من بدايتها ، كما نجح فى ربط الأحداث ربطا منطقيا متسلسلا ، كل حدث يقود الى ما يليه بحيث تهدو الأحداث طبعية متشابهة حتى يصل الى نهايتها المرسومة ، فلا يشمر القارئ

بفجوة بين الأحداث ، ولا بفرغ بين أجزائها، يستند هذا التسلسل مواقف
مرسومة في دقة ، وحوار يسيّر سُلُوكٌ ، يقرب الأفكار للقارئ تقريرا .

هذه هي السمات العامة لهاتين القصتين وما فيهما من نـواـجـه
فنية .

وإذا كان شيء قد بقي مما يمكن أن يكون مأخذا يوجه إليه ما
فهو :

المأخذ الأول : أن طه حسين قد فصل بين أحداث قصة مولد
الرسول بقصة حادثة الفيل ، ولكن هذا المأخذ مع وجاهته يمكن
أن يدفع بشيئين :

الأول : أن طه حسين وهو يتحدث عن الأحداث التي سبقت ميلاد
الرسول ، كان لا بد أن يتحدث عن تلك الحادثة الهامة ، التي ولدت
الرسول في العام الذي وقعت فيه ، ولعل الذي مكن طه حسين من
أن يترك أحداث السيرة قليلا ربما يحكى قصة حادثة الفيل ، هو
أن طه حسين وقف على " هامش " السيرة ، ولم يقف وسطها ولا بعيدا
عنها . وقف المؤلف في هذا الكتاب على " هامش " السيرة ، لم يقف
في وسطها ولا بعيدا عنها ، بل على هامشها ، وقد كان من حسن
التوفيق أن اختار هذا الموقف الذي مكّنه من أن يعتمد عن السيرة أحيانا
إذا دعا لذلك داع ، ثم يعود إليها بعد أن يخلو بالآفاق مفرجًا
على بلاد الروم والأجاش واليمن ، وقد اضطر الى أن يعتمد عن السيرة
قليلا لكي يشرح لنا ماذا دعا أبرهة الأشرم الى الاغارة على البيت الحرام
في العام الذي قدر للعالم فيه أن يستقبل أكرم أبنائه وأشرفهم .

كان لا بد للمؤلف أن يعتمد عن السيرة قليلا لكي يشرح لنا كل هذه الحوادث، واضطر لأن يقوم بهذا الشرح في خمسة فصول (من السادس الى العاشر) تحس أثناء قراءتها أن المؤلف يكتب في شئ من السرعة والايجاز، كأنما يخشى أن يطول غيابه عن مكة وأهلها، وعن السيرة وما يحيط بها، فهو يريد أن يسرع بالعودة إليها، وهو لهذا مضطر أن يُلخِّص الحوادث على خطورتها " تلخيصا " ويكتفى في بعض المواضع بأن يُلِمَّ بها العامة... (١)

الثاني : أن اتهم الكاتب بقصة حادثة الفيل بين ثنانيا قصة مولد الرسول صلى الله عليه وسلم، قد يبدو للنظرة العامة فاصلا بين أحداث القصة الواحدة، وحشواً يفسد تسلسل القصة وتتمها، ولكن مَن يعمق النظرة يرى أن قصة حادثة الفيل تمثل جزءا من قصة مولد الرسول بصفتها احدى الدلائل والبشائر التي تتمها طه حسين قبل مولد الرسول، ايدانا وايماء وإشارة الى قرب مولد هذا الرسول .

ولعل هذا المعنى هو الذي يؤكد طه حسين في القصة نفسها - بعد انتهائه من قصة الفيل -

يقول طه حسين مصورا ما يدور في نفس عبدالمطلب : " كان الشيخ يضحك في نفسه ضحكا حزينا حين كان يفكر في غرور قريش وتقديرها أن الله قد رد طاغية الجشة، وأرسل عليه وعلى جهشه ما أرسل من الطير الأبابيل، و تكريما لها وإيثارا... كلا . كلا . لم يهزم الفيل وأصحاب الفيل إكراما لقريش، وإنما هي آية أجراها الله لأمر يعلمه هو، ولا يعلم الناس منه شيئا " (٢)

(١) مجلة الرسالة بتاريخ ١٨/١٢/١٩٣٣ " من مقال للدكتور محمد عوض محمد"
(٢) على هامش السيرة ج ١ ص ١٤٩.

الماخذ الثاني : هو ذلك الذى يمكن أن يوجه الى قصة مولد الرسول: وهو عدم تقييد الكاتب بالترتيب الزمنى للحوادث ، وذلك حين يسهب فى وصف شخصية أم أيمن خاضعة الرسول اسبابا يجعله يصف حياتها منذ ولادة محمد صلى الله عليه وسلم الى أن شهدت عهد أبى بكر وعمر وثمان .. ثم يعود بعد ذلك الى حديث الرضاة ووفاة عهد المطلب .

وهذا الماخذ يمكن دفعه بما دفعنا به الماخذ الأول ، وهو أن وقوف الكاتب على " هامش السيرة " مكنته من الاعتماد عن السيرة اذا دعا داع ، ولعل الداعى هنا هو اعجابه بشخصية أم أيمن .. كما يمكن دفعه أيضا بأن طه حسين لا يكتب فى السيرة نفسها ، بل فى دراسات مستقل بعضها عن بعض " .. وهنا لك فائدة أخرى استفادها المؤلف من موقعه " على الهامش " ذلك أنه استطاع ألا يتقيد بالترتيب الزمنى للحوادث فاذا بدا له أن يسهب فى وصف شخصية راقته وأعجبته اندفع فى وصفها الى النهاية ، لا يلتفت عن ذلك حادث أو خطبء فقد أعجب - مثلا - وحق له أن يعجب بشخصية أم أيمن أو فى النساء ، خاضعة النبى ، فلم يزل يصف حياتها منذ ولادة محمد بن عبدالله الى أن شهدت عهد أبى بكر وعمر وثمان ، ثم يعود بعد ذلك الى حديث الرضاة ووفاة عهد المطلب ، وهذه الخطة التى ألزم بها المؤلف نفسه قد تهدو غريبة وربما اعترض عليها بأنها تدفع بالقارئ من أول السيرة الى عصر الخلفاء الراشدين ، ثم تعود به مرة أخرى الى بدء السيرة ، ولا تزال بالقارئ هكذا ذهابا وإيابا ، ومع أن لهذا النقد وجهته التى لا شك فيها ، نلتصق* للمؤلف عذره بأن الذى يريد أن يكتبه ليس حديث السيرة بالذات ، بل دراسات مستقلة بعضها عن بعض ، وفى وسع القارئ أحيانا أن يطالع الفصل مقتطعا من الكتاب فلا يكاد يفتقر

(*) فى الأصل : " فان للمؤلف " وهو خطأ أصلناه .

الى ما سبقه (١)

* * *

٣ - القصة التي تصور المعنى وتبرز الفكرة :

وهذا النوع من القصص لا يعنى برسم الشخصيات وتصوير الأحداث قدر عنايته بإبراز المعاني ، وتصوير المواقف ، وتجلية الأفكار ، وغالباً ما تعنى القصة من هذا النوع بتركيز الضوء على إبراز جانب معين من جوانب الحياة ، أو تصوير فكرة معينة تريد تصويرها ، أو رسم موقف معين تريد رسمه ، أو اظهار زاوية من زوايا شخصية معينة تريد اظهارها ، أو الكشف عن معنى يبدو من خلال حدث تريد القصة كشفه .

واذا ما عدنا الى كتاب " على هامش السيرة " فاننا نجد هذا اللون من القصص متواتراً فيه ، وأن طه حسين ، كما وقف يرسم الشخصية ، ويصور الحدث عوقف يبرز المعنى ويرسم الموقف ويجلى الفكرة ، كما سبق . ان أوضحنا ذلك عند الحديث عن موضوع هذا الكتاب .

ومن القصص التي تشل هذا النوع فى كتاب " على هامش السيرة " قصص " الفيلسوف الحائر " و " صاحب الحان " و " نادى الشياطين " و " الوفاء المر " و " طبيب النفوس " و " شوق العجيب السى " و " الحبيب " و " القلب الرحيم " ، وقد سبق أن ألمح البحث السى مضامين هذه القصص .

ويعنيها هنا أن نقدم احدى هذه القصص للقارئ ، ونتناولها بالعرض والتحليل ، للتدليل على هذا النمط من القصص فى هذا الكتاب ،

(١) من مقال للدكتور محمد عوض محمد : مجلة الرسالة بتاريخ ١٨/١٢/١٩٣٣

ولتكن هذه القصة قصة " الفيلسوف الحائر "

وتبدأ هذه القصة بحوار طويل تمتع بين حاكم المدينة الرومانسى ، وبين صديقه : " كاليكراتيس " و " أندروكليس " ، حول ما يريد قيصر من رقابة على دين الناس ، يفرض عليهم المسيحية أنا ، الليل وأطراف النهار ، وحول ما يريد هؤلاء النفر من عبادة حرة لآلهة اليونان والرومان القدماء الذين يسمحون لهم اللذة والمتعة بلا خوف من عقاب أو ارباب ، وحول التقية التى يريد بها حاكم المدينة ، فيقتن أن يقسموا المسألة بين قيصر وآلهتهم ، فقصر ومسيحيته لهما النهار ، والآلهة واللذة التى يسمحون لهم الليل . . والحوار يطول والمناقشة طريقة شائعة لولا أن اللبيل يؤذن بانتهاء . ونحن نعلم أن الحاكم يريد ارضا قيصر وأن أندروكليس يريد ارضا نفسه ، وأن كاليكراتيس لا يكاد يرضى عن شئ ، فنحن حين نخلو الى الأخير ، نرى هذا الصراع الفكرى الحاد الذى يحجب اليأس الخالص بالموت من هذه الحيرة العقلية الرهيبة التى يحسها تزقة تزيقا . . ثم يذكر سقراط وما كان بينه وبين أصحابه من حوار فى خلود النفس ، فإذا به يلجأ الى قراءة هذا الحوار هربا من نفسه ومشكلاته . .

ويضى طه حسين بكاليكراتيس يقلب معه مختلف الطول بين الهرب من المدينة ، أو تحدى القيصر وتقبل المقاب ، أو مداراة وهانئته ، حتى يلتقى راهبا يزور حاكم المدينة فيضيان الليل فى حديث طويل ، وحسوار قد حول حرية العقيدة وحرية الرأى ، وذلك الطلق الذى يساور صاحبنا فلا هو يستقر على الرثنية التى ينبو بحقله عنها ، ولا يقف عند المسيحية التى يريد القيصر أن يحمله عليها حملا ، وهأبى هذا ايمانه بحقله واحترامه له . . وهو يريد أن ينكر كل شئ ، والراهب يؤكد له أن الانسان بلا ايمان ليس انسانا . . ويرتحل الراهب تاركا فى نفس كاليكراتيس قلقا واضطرابا . . وتاركا فى قلبه حنانا ورقة ، ويتبعه كاليكراتيس بمد حسين

الى ديره الذى يقيم به . وهناك يلتقى ببخبرى الذى يشره بنور جديد ينشق من الجزيرة وتهدو علاماته كل حين . . . ويفزع كالليكراتيس الذى فسر من المدينة وماله فيها من جاه بخا عن الحرية ، يفزع وراءه بخبرى بخشا عن الايمان فيضحى بخبرته ان يأسره أعراب فى بعض الطريق . . . وتتطلب به الحياة عهد الجسد طليق الروح ينتظر على أمل . . . الى أن يلتقى بشيخ من قريش ، هو "زيد بن عمرو" الذى فر مثله من بلاد المـسـرب — بخا عن الايمان — الى بلاد الروم ، ولكنه يعود من رحلته خاوي الوفاض ، ويلتقى كالليكراتيس " صبيح " — وقد غدا هذا اسمه بعد الأسر — بالشيوخ المبري يتناقشان ويتبادلان البشارات ، ثم يمضى الاثنان الى قريش ، فقد دنا الميعاد ، فاذا بهما يقتلان دون أن يصلا الى غايتيهما .

هذا هو محتوى القصة وما يدور فيها من حوار وما يتخللها من أحداث . أما سمات هذه القصة فتتجلى فيما يأتى :

أولا : هذه القصة لا تمنى بتصوير شخصية ، ولا يرسم حدث قدر عنايتها بإبراز فكرة ، وجلاء معنى ، والشخصيات والأحداث فيها ليست مقصودة لذاتها ، بقدر ما هى مقصودة لإبراز هذه الفكرة ، وجلاء هذا المعنى ، وهذه الفكرة وذلك المعنى : أن العالم آنذاك — قبل مبعث الرسول صلى الله عليه وسلم — كان يحترقه قلق روحى ، وشك فكري ، وينتابه صراع عقدى ومذهبي . . . وأن هذا العالم يتهدى لمقدم نبي أظلم الناس زمانه ، وتوالت آياته وتتابعبت بشائره . . . أما القلق الروحى والشك الفكرى والصراع العقدى والمذهبي ، فيصوره الحوار الطويل الذى دار بين الأصدقاء الثلاثة : حاكم المدينة ، كالليكراتيس ، وأندروكليـسـه وما يحكسه هذا الحوار من خلاف فى الرأى وتهاين فى الآراء والأفكار (١) . . .

أما تهيه العالم لمقدم نبي أظل الناس زمانه ، فيصوره الحوار الذى دار بين الأصدقاء الثلاثة حين الراهب الشيخ ^(١) ، كما يصوره الحوار ^(٢) الذى دار بين الفيلسوف الشاب : كاليكراتيس ، وصديقه : الراهب الشيخ ، الذى تمرف عليه والتقى به عند صديقه : حاكم المدينة . . . كما يصوره ذلك اللقاء الذى تم بين هذين الصديقين ، وبين الراهب بحيرى وما تم فى هذا اللقاء من حديث ^(٣) حول ظهور آيات النبي المنتظر وتتابع دلائله ، وما تم بين كاليكراتيس وبحيرى من حديث وحوار ^(٤) ، كما يصوره ذلك اللقاء الذى تم بين كاليكراتيس أو " صبيح " وبين الشيخ القرشى المتحنف : زيد بن عمرو ، وما تم فى هذا اللقاء من حديث ^(٥) حول آيات ومشارب النبي المنتظر . . . تلك الآيات والمشارب التى تجمعت فى محمد صلى الله عليه وسلم . . .

ثانيا : لعلنا لا نتجاوز الصواب - بحد ما تقدم - إذا أطلقنا على هذه القصة " القصة الفكرية " أو القصة " الذهنية " لأن الكاتب يقدم من خلالها صراعا فى الأفكار ، ولقاء فى الآراء ، وحوارا متمما حول المعتقدات والمذاهب .

ثالثا : نجح الكاتب فى تصوير هذا الصراع الفكرى والمذهبى نجاحا كبيرا ، كما نجح فى خلق هذا الحوار الذى دار حول المعتقدات والمذاهب

-
- (١) على هامش السيرة ج٢ ص ٣٩ - ٥١ .
 - (٢) المصدر السابق ج٢ ص ٥٢ - ٦٩ .
 - (٣) المصدر السابق ج٢ ص ٧١ - ٧٩ .
 - (٤) المصدر السابق ج٢ ص ٨٧ - ٩٠ .
 - (٥) على هامش السيرة ج٢ ص ١٢٣ - ١٣٦ .

الفكرية ... وذلك حين قدم الموضوعات الفكرية على بساط البحث فـسى مناقشة تقدم حجج الأطراف جميعا ، وحين وثق الجدل الذى دار بين هؤلاء الأطراف حقه ، فأمتنع القارئ - بما قدم - متعة عقلية صافية ، ترضى الذهن ، والعقل .

رابعا : نجح الكاتب فى تقديم هذا كله ، حين لفته فى شـوب قصصى ، يقطع على القارئ الملل ، ويدفع عنه السأم .

خامسا : نجح الكاتب - أيضا - حين ربط بين هذا كله وبين أحداث السيرة برباط وثيق ، بل جعل منه تمهيدا طبعيا لانهلاج ضو الرسالة الذى أذهب كل قلق وقضى على كل شك .

٢٢ الفصل الخامس ::

"طريقة طه حسين أو مذهب الفن"

- ١ - تعريف بطريقة طه حسين .
- ٢ - ألوان هذه الطريقة :
 - أ - تصوير الشخصيات .
 - ب - تصوير الأحداث .
 - ج - تصوير المعاني والخواطر .
 - د - تصوير الشخصيات الخيالية .
 - هـ - تصوير البيئة التي تدور فيها الأحداث .

١ - تعريف بطريقة طه حسين :

يستطيع القارئ المتأمل لفصول " أو قصص " على هامش السيرة " أن يتعرف على الطريقة التي عالج بها طه حسين هذه القصص ، أو بمعبارة أخرى : أن يتعرف على مذهبه الفني الذي تناول من خلاله هذه القصص .

وطريقة طه حسين في كتابه " على هامش السيرة " بل في غالب كتبه الأدبية الانشائية ، أن لم نقل : في كلها ، هي طريقة قلما تخطئها عين ناقدة ، أو تلتهس على قريحة نفاذة . . هذه الطريقة هي طريقة : الاستعراض التصويري .

والاستعراض التصويري : معناه أن طه حسين لا يتناول الشخصية — ان كان يتناول شخصية من الشخصيات القصصية — من جانب واحد أو زاوية واحدة ، بل انه يستعرض جميع جوانبها وزواياها ، ويظل يقلبها أمام القارئ هورا ما فيها من صفات ، وما تهيج به من خواطر وخطجات ، متبها أطوارها في مراحل الحياة المختلفة ، راسا ما حولها من بيئتي الزمان والمكان ، حتى يعطى القارئ الصورة عنها كاملة . . وطه حسين في هذا الاستعراض التصويري ، لا يعطى القارئ الصورة التي يرسمها عن الشخصية عن طريق السرد ، أو الوصف الجاف الذي هو أشبه شمس بالتقريرات ، بل يصور الشخصية بجوانبها وأبعادها الحسية والمعنوية ، متخذاً في هذا التصوير جميع أدواته : من كلمات وجمل حارية صورا خيالية — من تشبيه ومجاز واستعارة ومبالغة ومقابلة . . حتى يعطى الصورة التي يرسمها حقها من التصوير المؤثر في نفس القارئ أو السامع .

• • • وان كان طه حسين يتناول حادثة من الحوادث أو واقعة من الوقائع ، فانه لا يتناولها من جهة واحدة أو زاوية ومعيّنة — من جهة تاريخية ، أو زاوية اجتماعية مثلا — بل يتناول الحادثة أو الواقعة من

جميع زواياها وجوانبها ، مستعرضا هذه الزوايا وتلك الجوانب ، بل انه ليتبع الحادثة أو الواقعة قبل أن تحدث أو تقع ، حين يتحدث عن مقدماتها وأسبابها ، كما سبق أن أشرنا .

ولا يقف طه حسين في رسم الحادثة أو الواقعة عند هذا الحد ، بل انه ليلم بأطراف الصورة كلها ، حين يصور الشخصيات التي صاحبت هذه الأحداث وتلك الوقائع ، وحين يصور البيئة التي وقعت فيها هذه الأحداث وتلك الوقائع ، وما يسودها من أحوال وأعراف وتقاليد ومعتقدات ، وهو في هذا كله لا يترك نامة ولا صوتا ولا حركة الا صورها وأعطاها حقها من التصوير .

وطريقة طه حسين هذه لا يستعملها فقط حين يصور شخصية أو حادثة بل يستعملها أيضا حين يصور الشخصيات الخيالية التي اخترعها ، بل حين يصور المعاني المجردة والخطرات النفسية ، فتستعمل هذه المعاني المجردة ، وتلك الخطرات النفسية — بعد تصويرها — الى أمور حسية أو كالحسية ، بل انه ليستعمل هذه الطريقة ، وهو يصور المناظر الطبيعية .

كل هذا يفعله امعانا في رسم الصورة واستعراض جوانبها بما فيها من أحداث وشخصيات ، وما يحيط بالحدث والشخصية من زمان ومكان . . " فاذا قصّ أو وصف أخذ عليك أقطار الحوادث والأشياء ، ودخل السق أعماق الشهور وجوانب النفوس مدققا مستقصيا يخشى أن يفوته شيء " (١)

ويتحدث الدكتور محمد عوض محمد عن كتاب " على هامش السيرة " وطريقة طه حسين فيه فيقول " . . ويمتاز هذا الكتاب الجديد — يقصد :

" على هامش السيرة " - عن سابقه - يقصد : " الأيام " ، و " فسى الصيف " - بأن المؤلف لم يلجأ هنا الى حوادث حياته الخاصة ، بل انصرف الى الأخبار القديمة ، فالتمس وحيه بين صفحاتها ، والذي يدهش له القارئ أن يرجع الى تلك الكتب القديمة ، ثم يعود الى : (هامش السيرة) فيرى (١) أمامه شيئاً مبتدعاً مخترعاً ، وجدة جذابة ، وطرافية ممتعة ، ومع هذا كله لا يرى خروجاً عن الأصول التي استوحاها المؤلف واستلهمها .

لقد اعتمد طه حسين على الكتب القديمة ، كما اعتمد شكسبير على قصص " فلو طرفوس " وأمثاله ، وشتان بين السبيل التي سلكها شكسبير وبين الأصل الذي استرشد به . . . وكذلك كان طه حسين يتناول الحادث الذي يمر به قارئ السيرة عجلاً ، دون أن يلتفت نظره منه شيء ، ويتناوله ثم يأخذ في تصويره وتخليه وإبرازه وإظهاره وتخليه على جوانبه (٢) ، حتى يشب أمام العين شيئاً ، ويبدو ما في الحادث اليسير (٣) من حكمة وشعر ، وقوة وسحر .

وأكبر شيء ساعد طه حسين على تأليف كتابه هذا : (هو) مقدرته على تبيين الموقف الذي ينطوي على شيء كثير من الحكمة ومن الشعر ، فيختار هذا الموقف ، ثم لا يزال به يصقله ويجلوه حتى يهديه للمبين راعياً مجسماً ملموساً .

-
- (١) في العبارة شيء من الركة الأسلوبية ، ولو قال : عندما يرجع الى تلك الكتب القديمة ثم يعود . . . أنه يرى " لكان أوضح " .
- (٢) في الأصل : نواحيه وهو خطأ .
- (٣) في الأصل : البسيط وهو خطأ .

وقد نخدمه التوفيق في الكتاب كله ، فان الفصول - وان تفاوتت أحيانا - تشهد جميعها بحسن الاختيار والابداع في التصوير فلم تعد أشخاص هذا الحديث ، أسما مجردة أو ألفاظا مسلوطة بل غدت (١) كائنات حية بارزة نكاد (٢) نحسها ونراها تتحرك بين أيدينا (٣) .

أما طبيعة هذا التصوير الذي يتخذه طه حسين طريقة ومذهباً فهو التصوير الحسي الذي يرد المعاني والخواطر إليه المناظر والحوادث صوراً حسية أو كالحسية ، فهذه يعيدها كما بدأت أول مرة (حتى) ، وتوشك أن تكون مجسدة . وهو يخلق على هذه الصور الحسية لونا من اللون الحياة والحركة ، ولكنها الحياة اللطيفة ، والحركة الوثيدة التي تدب على هيئة ، وتخطر في رفق ، فالسرعة النابضة ، والجموية الدافقة ، ليستا من مطالب هذه الصور في يوم من الأيام (٤) .

٢ - ألوان هذه الطريقة :

هذه هي طريقة طه حسين ، وذاك مذهبه . . . وبحسن يمد عرضنا لتلك الطريقة وذاك المذهب ، أن نورد من الشواهد والأمثلة من كتابه هذا ما تدل به على ذلك .

أ - تصوير الشخصيات :

لقد عنى طه حسين - فيما عنى به - بتصوير الشخصيات ورسمها ، وأبدع في ذاك التصوير وهذا الرسم أيما ابداع ، وأحال هذه الشخصيات

(١) في الأصل : أصبحت أشخاص . . . وليست أسما مجردة وألفاظا . . . بل

كائنات حية . . . هو أسلوب ركك مفك .

(٢) في الأصل : نكاد أن نحسها ، وأن يعد " نكاد " شاذة .

(٣) مجلة الرسالة بتاريخ ١٨/١٢/١٩٣٣ مع بعض التصرف .

(٤) كتب وشخصيات ص ١٠٥ . وفي الأسلوب وكه ضعف تأليف وان كان . . .

من مجرد الفاظ ومضى أسماء الى كائنات حية نحسها ونراها ، وأعاد صورتها في الأذهان شائعة ماثلة كأنما تدب فيها الحياة وتتحرك .

ومن الشخصيات التي أبدع طه حسين في تصويرها - ما نورد على سبيل المثال - شخصية عبدالمطلب جد الرسول صلى الله عليه وسلم ، وشخصية أبي جهل ، وشخصية وحش قاتل حمزة رضى الله عنه .

وقد سبق أن أشار البحث الى كيفية تصوير طه حسين لشخصية أبي جهل ورسمها بكل أبعادها وجوانبها ما ذكر في موضعه ، فلا يفاد هنا .

بقى أن نشير الى تصوير طه حسين لشخصية كل من عبدالمطلب ، ووحش ..

أما شخصية عبدالمطلب فقد أجاد تصويرها ورسم هيولها ووصف حياتها ، واستطاع أن يجمع صورتها ، حتى كأنها حية تتحرك ، في جميع مراحل حياتها وعلى جوانب هذه الحياة ، منذ أن أخذ عبدالمطلب في حفر زمزم حتى رقادة رقدة الموت .. وكانت هذه الصورة هي التي تقول في النهاية : ان عبدالمطلب كان انسانا مؤمنا واثقا بربه مديبرا حكما ..

وحسب البحث أن يشير الى نماذج من هذا الوصف الدقيق للتصوير المتسق التعبير كما في قوله :

" كان عبدالمطلب سمح الطبع ، رضى النفس ، سخي اليد ، طمو المشرة ، عذب الحديث ، وكان عبدالمطلب أيضا قوى الايمان ، تملك

قلبه وتسيطر على نفسه نزعة دينية حادة عنيفة ، ومحسها ويخضع لها ولكنه لا يتهينها ولا يستطيع لها نهما ولا تفسيراً^(١)

" فلم يكتمل للفتى شهابه حتى كان فتى من قريش ، ولكنه يمتاز عن بقية فتیان قريش : فيه ذكاؤهم وفطنتهم ، وفيه اياؤهم وعزتهم ، ولكن فيه دعة لم تكن مألوفة عندهم ، وفيه شدة في الدين قلما كانوا يرضونها أو يسمون لها ..

على أن خصلة أخرى ميزته عنهم أشد التمييز ، فلم يكن يَحْسُدِرُ في حياته ، كما كانوا يصدرون عن الروية والتفكير وطول التدبر ، وإنما كانت تدفعه الى الحمل والاضطراب في الحياة قوة خفية يحسها وبأبسى عليها ويفعل في الابهاء ، ولكنه يضطر الى أن يذعن لها ويأتمر بأمرها^(٢)

ويصفه بعد مجئ الهاتف اليه أول مرة يأمره بحفر طيبة (زمزم) وما أعقب ذلك من خوف وذعر ، وما انتهى اليه بعد ذلك من نوم هادئ ، فيقول : " ها هوذا مضوق في نوم هادئ مطمئن ، وقد هدأ من حوله كل شيء ، واطمأن في نفسه وجسمه كل شيء . ولكن ما هذا الشخص الغريب [الذي] يقبل ساعيا اليه في أناة ، حتى اذا دنا منه قال له في صوت رفيق غريب فيه أنس وفيه وحشة : " احفر برة " (زمزم) وجسم الفتى هادئ مطمئن ، ولكن نفسه ثائرة مضطربة ، ولسانه يتحرك في ثقل ، وصوته ينبعث من بين شفثيه خفيفا رقيقا بهسده الكلمة : " وما برة ؟ " فينصرف الشخص ، وينقطع الصوت ، ويفيق النائم وجلا مذعورا ، متمجها آملا ، ويفكر ويقدّر ويتقلب ، ثم ينهض

(١) على هامش السيرة ج ١ ص ١

(٢) على هامش السيرة ج ١ ص ٢

فيقال السماء ولكنها صامتة ، ويسأل الأرض ولكنها ساكنة ، ويسأل الأصنام
الكعبة ولكنها مغفرة في الهله والوجوم ، ويضيق الفتى بنفسه وبالسماء والأرض
والأصنام ، فيفهم على وجهه يلتبس في الحركة والاضطراب نسيان هذا
الطائف الذي يفزع ويفزع .. " (١)

ويصف خواطره النفسية وحديث نفسه اليه بعد مجيء الطائف اليه
في المرة الثانية ، وتردده بين الفرار من النوم حتى لا يرى ذلك الطائف
الذي أفزع ... وبين رغبته في النوم أملا في أن يلم به ذلك الطائف.

" ونبض الفتى ثقيلًا ، فمشى الى بيته متباطئا يود لو فر من
النوم ، ويود مع ذلك لو نام فآلم به هذا الطائف .. انظر اليه !
انه ليرتد : أيكد بنفسه في أمواج النوم هذه التي تتغل أمام عينيه ؟
أم يبقى على الشاطئ يقظان يداعبه النوم ولا ينام ؟ "

ليتردد ما استطاع ، ليمتنع على النوم ما وسعه الامتناع ، فإن
هذه الأمواج الصطخبة أمامه تستطيع أن تطفئ على الشاطئ فتغمسه ،
وتغمر معه كل شيء .

وكيف يستطيع هذا الفتى أن يمتنع عليها ، وما استطاعت أن تمتنع
عليها جبال مكة هذه التي تحيط بها من كل ناحية ! ! انظر ! أتري
حركة ؟ اسمع ! أتحس نفاة ؟ كل شيء هادئ ، كل شيء مطمئن ،
فما نهوك وما امتناعك ؟ ! هلم الى النوم لا تخف شيئا ، ان هذه
الأمواج تريح ولا تفرق .. أجهل الى هاتين الذراعين اللتين تمتدان
اليك ، فستسقي بينهما كل شيء ، ومن يدري ! لعلك تجد بينهما

شفاً لنفسك الحائرة ..

وأطبق الفتى جفنيه واندفع أمامه ، فاشتعلت عليه أمواج النـوم
كما اشتعلت على غيره من الناس والأشياء " (١)

هذه أمثلة ونماذج أوردها على سبيل المثال ، ويستطيع القارئ
أن يجد صوراً لمبدأ المطلب مثل هذه الصور التي أوردها - في أكثر
فصول قصة " ميلاد الرسول " ..

" وقد أبدع طه حسين أيما إبداع في وصف شخصية عبدالمطلب
وصف حياته منذ أن أخذ في حفر زمزم إلى التقائه بأبرهة الأشرم ، إلى
رقاده رقدة الموت بين الأبناء والأحفاد .

يصف طه هذا كله فترى الصور أمام أعيننا ماثلة قوية لا لبس فيها
ولا إبهام ، في الكتاب الشيء الكثير الذي يستثير الإعجاب ، ولكن أكبر
ما يمجنا فيه هذا الإبداع في تصوير الأشخاص عامة ، وشخص عبدالمطلب
خاصة ، ثم هذه الحياة التي تنتظم المناظر والمواقف ، بحيث يرى القارئ
نفسه وقد نقل نقلاً إلى ذلك الزمن وتلك الأمكنة " (٢)

أما شخصية "وحشى" المبدأ الجشى الذي قتل حمزة رضى الله
عنه ، فيصورها طه حسين في قلقها وخوفها وندمها أجمل تصوير كما يصور - قتل
ذلك الطلق والخوف والندم بعد مقتل حمزة - ونجبتها في الحرية وجربها
على قتل حمزة ، كما يصور "وحشياً" لحظة استتاره بشجرة ينظر إلى "حمزة"
ويرتقب غفلة حتى يضربه الضربة القاتلة التي ينال بها حرته .

(١) على هامش السيرة ج ١ ص ٥٥ .

(٢) من مقال للدكتور محمد عوض محمد بمجلة الرسالة ١٨ / ١٢ / ١٩٣٣ .

وطه حسين يعرف كيف يختار الشخصيات التى يصورها ويبرزها جليلة للقارئ؛ لما ينطوى عليه تصويرها من مغزى يبريد ابرازها وحكمة يقصد نشرها. وشخصية وحشى من الشخصيات التى قد يمر بها قارئ السيرة مكر الكرام فتحفظه جريمتها ويحفظه اسمها فيقطع من قلبه كل عطف عليها وكل اشفاق، ولكنها عند طه حسين من الشخصيات الجديدة بالدراسة . . . الجديدة بطوك القصة التى صور من خلالها تلك الشخصية ، تصويرا كشف للقارئ اعق ما فيها . . . ورفح الحجب عن هذا المذاب النفس الأليم الذى يختفى وراء الجريمة الشنيعة والجلب الأسود السميك . .

لقد عرف طه حسين كيف يتخير الشخصية الانسانية التى تشل الندم أصدق تشيل ، لأنها عاشت وعانت ، وحين صورها هذا التصوير السلس اليسير جمل القارئ يعيشه ويعاناه ، وأن بحراطفه الانسانية تجيش بالشفقة والمطف ، وقد تجاوزت بالرحمة على هذه النفس المعذبة . . بعدما أحفظته جريمتها وأحفظه اسمها . .

وحسب البحث أن يشير الى صور من هذا الوصف والتصوير ، وذلك حيث يقول المؤلف :

" انه رجل لم يعرف الناس من أول أمره الا أنه كان عبدا حبشيا لسيد من سادات قريش فى مكة وهو "جَبْرِ بن مَطْعَم" ، وكانوا يرونه فبغى شديد الهأس عظيم الأيد ، شجاعا جريئاً ، يعمل لسيدته فيما يعمل فيه الرقيق ، ولو أن الرق لم يعرض له لكان خليقا أن يسود فى بلده حين قومه هؤلاء السود . ولكن الرق عرض له كما عرض لكثير من أشرف الروم والفرس ، فالتقاء الى هذا الحى من قريش ، وفوض عليه ما يفوض على الأرقاء من الخنوع والخضوع ومن الذلة والهوان ، ومن العمل فيما لا يعمل فيه أصحاب النجدة والمروءة من الناس . وكان هذا الفتى ضيقا بحياته

أشد الضيق ، منكرا لها أعظم الانكار ، جامحا حين يتاج له الجموح ،
شامسا حين يتهبأ له الشمس ، لا يخفى بنفضه للرق وطعمه في الحرية
مهما يكلفه ذلك من غضب سادته وزجرهم واعانتهم له والحاحهم عليهم
بالاعانت " (١)

ويصف لحظة ارتقا به حمزة وقتله اياه . . فيقول :

" . . . فقد أخذ يرقب حمزة وهو يقوم من المسلمين مقام الأسد
يزود عن أشباله ، يهذب الجيش بسيفه هذأ ، والناس يرونه من بعيد
كأنه الجبل الأورق ، فتتملى قلوبهم لمنظره رعبا وينصرفون عن موقعه انصرافا ،
وهو يتحداهم ويدعو فرسانهم ومفاويزهم . والعبد قائم قد استتر عنه
بشجرة ينظر اليه ويرقب غلظه ، وحمزة لا يراه ولا يحس بمكانه ، فلما
أمكنته الفرصة هز حيطه حتى رضى عنها ، ولم يكن له بغير الحرية من
السلاح علم . فلما تهبأت له الرمية رمى ، وإذا الحية تعصب حمزة
في مقتل فيخر صريعا ، والعبد قائم مكانه لا يرمي يرقب أسد الله صريعا
بعد أن كان يرقبه جاثلا في الميدان " . (٢)

ويصف قلقه وخوفه بعدما أذغت جزيرة العرب كلها للرسول ، فأبين
المهروب ؟ " . . ورأى ذات صباح جيوش المسلمين تدخل مكة ، واستوقن
العبد أنه مقتول ان ظفر به المسلمون ، ففر وانطلق في الأرض يلتمس
لنفسه مأمنا فلا يجده . هؤلاء المسلمون ينصرفون على العرب يوم " حنين " ،
وهذه أرض العرب كلها غزن للنبي ، فأين الملأ من الله الا الى الله !!
لقد أوى العبد الى الحائث ، وقاوم فيها المسلمين ما قاومهم أهلها ،

(١) على هامش السيرة حد ٣ ص ١٨٠ ، ١٨١ .

(٢) على هامش السيرة حد ٣ ص ١٨٢ ، ١٨٣ .

ولكن وفد الطائف يتهباً للسفر الى المدينة ، وما هي الا أيام حتى
تدعن الطائف لما أذعنت له مكة ، والآن يفكر العبد في مهاجرة [من]
البلاد العربية كلها ، ولكن كيف السبيل الى الهجرة ؟ لقد أخذت عليه
سبيل الحشة ، وأخذت عليه سبيل الروم ، وانهبط سلطان النبي على
الشمال والجنوب ، لقد كانت الهجرة ميسورة قبل الآن فلما الآن فقد تقطعت
من دونها الأسباب " (١)

ويصف ندمه بعد أن غفا عنه الرسول صلى الله عليه وسلم فيقول :
وعاش وحشياً في المدينة حراً كالعبد ، وظليفاً كالأسير ، وجعل الندم
يحز في قلبه حزا ، ويمزق قواده تزيقا ، ويؤرقه اذا جن الليل ، ويعذبه
اذا أقبل النهار (٢) " ولكن ندمه هذا لا يحوه بلاؤه في سبيل الله
ولا جهاده مع المسلمين بل يظل يلزمه ويؤرقه ويغص مضجعه فيستعصمين
عليه بالخمر . . . ويظل على هذا حتى يموت " . . . ولكن العرب يرتدون
ويذهب خالد بن الوليد لقتال مسيلمة ، وهذا العبد يذهب معه ليقاتل
في سبيل الله بعد أن كان يعد عن سبيل الله . وهذا العبد يهـز
حريته ذات يوم ، كما هزها يوم أحد ، ويتهباً لرميها كما تهباً يوم
أحد ثم هو يطلقها كما أطلقها يوم أحد ، واذا هي تصيب رجلاً فتصرعه ،
واذا الحربة التي قتلت حمزة قد شاركت في قتل مسيلمة ، واذا وحشياً
قد قتل خير الناس وقتل شر الناس . وقد غفا النبي عن قاتل عمه
وغفا المسلمون عن قاتل أسد الاسلام . ولكن نفس وحشياً لم تعف عن
وحشياً ، ولكن دم مسيلمة لم يغسل من نفسه دم حمزة . وهذا العبد
الحر يغص مع جيوش المسلمين غلغلاً ، فيقاتل الروم وينصر مع المنتصرين
ويستقر مع المستقرين في مدينة " حص " هذه ، ولكن بلاه أيام الردة وسلاه

(١) على هامش السيرة ج ٣ ص ١٨٤ .

(٢) المصدر السابق ج ٣ ص ١٨٥ .

أيام الفتح ، وما احتل في هذا كله من جهد ، وما ناضل في هذا كله عن الاسلام ، لم يغفل عن نفسه دم حمزة ، ولم يبرئ نفسه من الندم لمقتل حمزة ، ولم يبلغ الاسلام من قلب هذا الرجل ما بلغ من قلب كثير من الناس فيمحو من قلبه ما قدم في جاهليته ، وإذا هو يستعين على الندم بالخمر ، وإذا هو يشرب ويسرف في الشرب ، وإذا هو يضرب في الشرب فلا يمنعه الحد عن معاودة الشرب . . . وإذا هو معروف في أهل حصي بمكـرره اذا سكر ، وصحوه اذا صا . . . وإذا هو يسكر حتى يصبح مخوفا على من يدنو منه ، وصحوه حتى يصبح عاقلا حلو الحديث ، والندم يلح عليه حتى يئـمـمـه الى نفسه تهغيضا ، ويصرفه عن الصحو صرفا ، وكلما مضت عليه الأيام ازداد امعانا في الشرب ، والسن تتقدم به ، وجسمه يضعف شيئا فشيئا ، وعقله يذهب قليلا قليلا ، والندم مائل مع ذلك في نفسه ملـمـ بداره ، يأخذه من كل وجه ، وهو لا يجد سبيلا الى الفرار منه الا الى الشرب . . . وهو يضرب في الشرب وقد ضعف وفنى فلا يحتمل الضرب فيموت (١)

ب - تصوير الأحداث :

ما لا شك فيه أن طه حسين قد أجاد تصوير الأحداث التي اختارها في هوامشه ، وأبدع في وصفها أيما ابداع ، واستطاع أن يلم بجوانبها المختلفة وزواياها المتعددة ، بل وأن ينتهيها منذ البداية ، ويتسلسل معها حتى تصل الأحداث الى نهايتها ، كما أجاد رسم مسرح الأحداث

ويثبتها من زمان ومكان ، كما أجاد رسم الشخصيات التي تجرى حولها ومن خلالها هذه الأحداث ، وقد سبق أن أشرنا الى ذلك عند الكلام عن القصة الحديثة ..

وعسبنا - هنا - أن نورد بعض الأمثلة على ذلك ، من القصص الحديثة التي صورها طه حسين . ونختار بعض صور من قصة " ميلاد الرسول " ، وقصة " حادثة الفيل " ..

ففي قصة ميلاد الرسول : يصف طه حسين حفر عبدالمطلب وابنته حارث زمزم " فيقول :

" ... كان صوت عبدالمطلب يتدفع بهذا الرجز عريضا يملأ الفضاء من حوله ، نقيها يكاد يبعث الحنان فيما يحيط به من الأشياء . وكان كل شيء مستقرا لا يضطرب فيه الا هذا الصوت العريض النقي ، والا هذه الذراع التي ترتفع بالممول قوية ، ثم تهوى به محفورة ، ثم تدع السى المسحاة فتفترق بها التراب في المكمل ، والا هذا الخلام الناشئ يرقب حركة أبيه ويسمع صوته ويرد عليه رجح هذا الصوت كلما وصل في الدعاء الى هذا البيت ..

* لَاهِمَ فَلَغَسْدُقْ لَنَا الْأَمَانِي *

حتى اذا امتلأ المكمل حمله بذراعيه الضحيفتين ، وأسرج في شيء من الجهد الى خارج المسجد ، فالتقى ما فيه ثم عاد ، وأبوه يرفح الممول فسى الجو ويهبط به الى الأرض ، ويملأ فضاء البيت بصوته العريض ، والمشرق يتصب على جبينه ، ولكنه لا يحس جهدا ولا يجد اعياء ، وكانت الشمس قد ألفت على الأرض رداً من النور نقيا ، ولكنه ثقيل همد له كل شيء ، وأوى له الناس الى بيوتهم يقيلون ، وانقطعت له الحركة ، وخفت

الأصوات ، إلا هذه الجنادب^(١) التي يروقها وهج الشمس ، ويسكرها لهب القيقظ ، فتصدح بالفناء إذا سكت كل شيء^(٢) .

وفى موضع آخر من هذا الرصف يقول : " . . . وأقبل الرجل وابنه على السلة فأصابا مما فيها فاهلين واجمين ، ما أحسب أنهما وجدا لما يصيان طعما أو حسا له ذوقا ، يصرفهما عنه هذا الذهب الذي يتوهج في الخفرة ، وهذا السلاح الذي يظهر أنه كثير ثقیل . حتى إذا فرغوا من طعامهما عاد عبد المطلب الى الخفرة فيستخرج ما فيها ، فإذا غزالان من ذهب نقي ثقیل ، وإذا سيوف ودروع فيكبر ، ويرفع صوته بالتكبير ويسرع اليه أفراد ظيلون ، كانوا قد بدأوا يقدون الى المسجد ، كدأب قريش حين كانت تخف وطأة القيقظ ، فإذا رأوا هذا الكثر دهشوا ثم تصايخوا . . . " ^(٣)

وفى قصة ميلاد الرسول نفسها ، يصف طه حسين أقبال المراضع الى مكة حين ولد الرسول ، فيقول : " أقبل المراضع الى مكة عجافا نحافا ، تحلطن حمر عجاف نحاف ويصحبهم أزواجهن ، قد مسهم الضر وأعيأهم الكسب ، واشتدت عليهم السنة ، وأجدبت بهم الأرض ، فما يجدون الى أمن ولادة ولا حياة سبيلا ، وقد أقبلوا - كدأب أهل البادية - الى مكة ، يلتبسون الرضعة أبناء السادة والمترفين في قريش . . . فلما ألقوا رجالهم ، انحدر المراضع الى مكة يعرضن أنفسهن على دور الأغنياء وأهل الثراء ، ومنازل السادة وأصحاب الشرف من أهل البطحاء^(٤) ، وأسرع أزواجهن الى المسجد ، يظوفون ويلقون سراة الناس من قريش ، فيسمعون منهم ويتحدثون اليهم ، ويستعينون بهم على احتمال أثقال الحياة في تلك البادية النائية

(١) الجنادب : جمع جندب ، وهو نوع من الجراد يصر ويقفز ويطيح .

(٢) على هامش السيرة ج ١ ص ١٢ ، ١٣ .

(٣) على هامش السيرة ج ١ ص ١٤ ، ١٥ .

(٤) البطحاء : المكان المتسع يمر به السهل ، فيترك فيه الرمل والحصى الصغار .

بادية بنى سعد بن بكر^(١)

ويصف عودة حليمة الى الرضيع محمد بعد ما أعرض عنه المراضع
صدت عنه حليمة أولاً ، فيقول : " . . . وتنهض بنت "أبي ذؤيب" فتتمسود
الى آمنة فتعرض عليها ارضاع الطفل ، واذا آمنة تأبى وقد آذاها ما
رأت من اعراض المراضع وانصرافهن ، وطى وجهها آيات حزن عميق ،
وفى صوتها بقية من بكاء ، وأمتها "بركة" تمنىها على الابه وتعرضها على
الامتناع . ولكن ابنة أبى ذؤيب تنظر الى الطفل فاذا قلبها يمتلئ بحاله ،
واذا هى تحس أنها مدفوعة اليه ونعا ، واذا هى تسرع الى الحفيل
فتفرقه بين يديها وتدنيه من صدرها ، واذا الطفل يلتصق الثدى كأنما
كان منه على ميعاد ، واذا هو يشرب حتى يروى ، واذا بنت أبى ذؤيب
تجد من اللبن ما لم تكن تجد من قبل ، واذا آمنة تستجيب لها ،
وكيف تأبى عليها وقد رأت من حبها للطفل ومن اقبال الطفل عليها ومن
ارضاعها له ما رأت .^(٢)

وفى قصة حادثة الفيل يصف طه حسين وقعة الأخدود ، وما تسم
فيها من تحريق مسيحي نجران على يد ذى نواس : " . . . هنالك أمر
ذو نواس فاحشفت الأخاديد ، وجمع فيها الحطب والخشب ، وألقى فيها
الزيت ، وأضرمت فيها النار فودفع أهل نجران اليها دفعا . وهنالك
أطلق ذو نواس أيدى حمير فى أهل نجران ، ينالونهم بالقتل والمظلة ،
ويحتازون من أموالهم ونسائهم ما يشاءون . وهنالك جرت الدماء أنهارا ،
وانشرت الأشلاء انتشارا ، وارتفع اللهب الى السماء بنفوس الشهداء .^(٣)

(١) على هامش السيرة ج ١ ص ١٧٠ .

(٢) على هامش السيرة ج ١ ص ١٧٣ .

(٣) المصدر السابق ج ١ ص ١١٧ .

ويصور طه حسين حادثة الفيل نفسها فيقول : " . . . وأصبحنا وقد أمر الملك بدخول المدينة ، فيهم الجيش أن يتحرك وفي مقدمته فيل عظيم ، ولكنني أرى دليلنا "فِيلَ بْنِ حَبِيبٍ الْخَثْعَمِيِّ" يدنو من الفيل فيأخذ أذنه ويسير فيها كلاما ، ثم يرسلها ويشتد هائبا في الجبل ، وتثير حركة هذا الرجل في نفس شيثا من العجب ، فما علمت أنه يعرف منطق الفيلة ، وما علمت أن الفيلة تعرف منطق العرب . عجبت ، وليت عجبى لم يتجاوز هذه القصة ، ولكنني رأيت بعد ذلك ما يقضى على كل عجب . . . رأيت الفيل قد برك حتى إذا دنا منه ساسته لينهضوه نهض معهم ، حتى إذا وجهوه إلى مكة برك من جديد ، ويجد ساسته بعد ذلك في انهياضه فلا يملفون منه شيئا ، ويحشونه ويؤذونه ويضربونه ، ويملفون به أقصى ما يهيج الفيل فلا ينهض ولا يهجم بالنهوض . حتى إذا أداروا رأسه نحو الشام أو نحو اليمن أو نحو الشرق نهض وضى مهرولا ، فإذا أداروا رأسه نحو مكة برك ولم يتقدم أمامه أصحبا . ونحن ننظر إلى هذا وقد ملأنا العجب ، وأخذ الدهش من نفوسنا كل مأخذ ، وبدأ الخوف يلعب بقلوبنا ، وبدأ الذعر يطلق بعض الألسنة بالفرقة عن دخول المدينة والانصراف عن هذا البيت . وأنا لقي ذلك تنظر إلى الساسة وهم يحالجون الفيل ، وإذا الجو يظلم شيئا فشيئا ، وإذا سحب كثيف يبدو لنا من بعيد ، قد أهمل إلينا مسرعا من ناحية البحر ، فلا تكاد تطيل النظر إليه حتى نتبين ، ويأهول ما نتبين . لعلنا نرى سحباً كالسحاب ، ولا غماما كالغمام ، وإنما نرى سحباً حَيًّا يَخْفِقُ بأجنحته خَفَقًا ، ويهيمت منظره في نفوسنا رَوْعًا يُخْرِجُنَا عن أطوارنا وينتهي بنا إلى شيء يشبه الذهول .

انى لأرى الآن السحاب، حين كان يقبل علينا أسراباً من طير صفار،
لها مناقير الطير وأكف الكلاب، حتى اذا دنت منا أخذت تصب الجيش
بحجارة دقاق، كانت تحملها فى مناقيرها وأرجلها، ولم تكن هذه الحجارة
تبلغ دقة المدسة ولا عظم الحصاة، وانما كانت شيئاً بين بين، وكانت
على دقتها لا تمس شيئاً الا هشمته تهشيماً، ولا تمس رجلاً الا ألقته
صريعاً، وسلوا ما شئتم عن خوف الخائفين وذعر المذعورين، وانصراف أصحاب
الفيل عن الفيل، وتحول الجيش عن مكة الى غيرها من الوجوه جادا فس
الهرب، وهذه الأسراب من الطير تنهمه، تصبه بهذه الحجارة، وتملأ
الجو من حوله بصياح مخيف^(١).

ح - تصوير المعانى والخواطر :

ولا يقف طه حسين فى وصفه وتصويره عندما هو يشاهد أو محسوسه
بل يتعداه الى ما ليس كذلك من النواحي المعنوية، من ضائيل نفسية،
وخواطر داخلية، وغير ذلك مما يدرك بالعقل لا بالحواس.

و"على هامش السيرة" : ملئ بمثل هذا النوع من الوصف والتصوير.

ففى قصة "ذو الجناحين" يرسم طه حسين صورة للهجرة،
ويتخيلها شخصية جلست الى شيخ أثر العزلة وهجر الناس تحدثه وتحاوره.
فيقول واصفاً للهجرة ".... وأكبر الظن أن هذه الخواطر الحزينة
التي أطالت التردد بين نفسه وظله، وأطالت الفناء فى دخيلة ضميره،
قد دعت اليه هذه الصورة الغريبة الجميلة التي رآها ماثلة أمامه على
الضفة المواجهة له من ضفتى الجدول، يترقرق على وجهها الرائع الهسار

(١) على هامش السيرة ح ١ ص ١٤٣ - ١٤٥.

غشاء رقيق هادئ من ضوء القمر الذى قام فى مكانه من السماء يرسل أشعته المطمئنة فى أناء وريث الى الأرض . . . والغريب أن الشيخ لم ينكر هذه الصورة التى كانت ماثلة أمامه ولم يحرفها ، ولم يضق بمكانها منه ، ولم تنبسط نفسه لها ، وإنما نظر اليها فأطال النظر ، كأنما كان ينتظر زيارتها له والعامها به . ونظر اليها دون أن يوجه اليها حديثاً ، كأنما كان ينتظر منها أن تهدأ هي بالحديث وقد فعلت ، فهذا صوت طوقان رقيق يصل الى الشيخ وقد مازحه همس الجدول . . وإذا هذا الصوت الطوقان يقع فى نفس الشيخ موقع الماء من ذى القلعة الصادى ^(١)

ويتخيل طه حسين حواراً دار بين الهجرة وذاك الشيخ .

فيقول : " وإذا هو يسمع الصورة تسأله : " ما هذا الصوت الذى أنت مفرق فيه ؟ ! لقد دعوتنى الى نفسك فأطلت الدعاء ، وهأنذاى أسمى اليك وألم بك وأقف منك غير بعيد ، فلا تحفل بى ولا تأبه لى ، ولا توجه الى حديثا ولا تسألنى عن شئ ! فقيم دعوتنى أذا ؟ وفهم تكلفت السعى اليك ؟ وفهم تجشمت فى ذلك ظلمة الليل ؟ !

قال الشيخ فى هدوء ودعة : " أنا دعوتك بالهنتى ؟ ! ومن تكونين ؟ قالت : " فمن هذه التى أهملت تسعى رويدا رويدا ، مثل ما يسمى النسيم الليل ؟ " .

قال الشيخ : " لا أدري بالهنتى ، لم أدع أحدا ولم أتحدث لى أحد ، وإنما هي خواطر كانت تضطرب بها نفسى ، ومما كان يخفق بها قلبى " .

(١) على هامش السيرة ج ٣ ص ١٢٨ ، ١٢٩ .

قالت الصورة : " فقل انى دعوت نفسى اليك ، أو انى دفعت
نفسى اليك ، أو ان مقامك هذا بين هذه الشجرات الخضرة ، وهذا
الجدول النقى ، وهذه الطير النائمة ، وهذا الضؤ الهادئ الذى ينحدر
من القمر ، قد أعجبنى فأقبلت أشاركك فى هذه المعزلة ، وأتحدث اليك
فى بعض ما يكون فيه الحديث ."

قال الشيخ : " ولكن من تكونين ؟ "
قالت الصورة : " أحرصى أنت على أن تعرفنى ؟ فقل انى أنا
المعزلة التى يفزع اليها المكروب اذا ضاق بالأحيا والأشياء ، وقل انسى
أنا الوحدة التى يفر اليها الانسان من نفسه وأهله ، ومن الأعداء والأصدقاء
ومن الخير والشر " (١)

وكما صور طه حسين المعانى المجردة كما مر فى تصويره للهجرة
أو المعزلة .. فانه صور - أيضا - ما يدور فى النفس من عواطف وخواطره
وما يحتل فيها من شك أو يقين ، وما يطرع فيها من خير أو شر ..

ومن الأمثلة على ذلك تصويره ما كان يعترى نفس عبدالمطلب من
خوف وقلق على ابنه عبدالله الذى أرسله فى تجارة الى الشام ، وتصويره
ما كان يشور فى نفسه من خواطر وانفعالات وتساؤلات ..

يقول طه حسين : " وكان على هذا كله لا يستطيع أن يدافع
خاطرا يلم به من حين الى حين ، فيصور له يوم الفداء ، ويصور له هذا
الصراع المنيغ الذى كان بينه وبين الموت فى ذلك اليوم ، والذى كان
موضوعه هذا الفتى الذى تَرَقَّلُ به مطيته الآن نحو بلاد الشام ، وكان كلما

(١) على هامش السيرة ج٣ ص ١٢٩ ، ١٣٠ .

فكر في ذلك أحس خوفاً مَرَّاً تظهر آثاره على وجهه المشرق الوقور ، كأنما كان يسأل نفسه : أنى الحق أن قد انتهى هذا الصراع بينى وبين الموت ؟ أنى الحق أنى قد استخلصت هذا الفتى ووديعته للحياة المتصلة والبقاء الطويل ؟ ان الدهر لكثير الغدر ، مشغوف بالخداع ، وان من حولنا لقوى خفية ان يكن منها الخير المسعف فان منها الشرير الخاتل . وان هذه القوى الشريرة لتجد لذة سيفة في تضليلنا والمهت بنا ودفعنا الى الشئ كأنه الخير كل الخير ، حتى اذا اندفعنا اليه وتورطنا فيه ، انصرفت عنا ساخرة منا ، وتكشف لنا الأحداث عن الشر والتكر والهلا . ومن يدري لعل قوة خفية من هذه القوى الخاطلة قد خدعتنى ومكرت بى ، وخيلت الى أن فى حمل هذا الفتى على الرحطة مع شباب قومه وكهولهم نفعا له واصلاحا ، على حين لم تكن تريد به الا الشر ، ولم تكن تريد به الا التكر . . . ولعلها أن تكون قد أرصدت له فى الطريق رَصْداً ، وكادت له فى السفر كَيْداً . . . " (١)

ومنها تصويره نفسية " الفيلسوف الحائر " وقد عجزت عن التفكير واعتراها ما اعتراها من حيرة وذهول ، اثر ما حدث لها من أسر وهى نفس الطريق الى الحجاز لتكون بالقرب من مهبط النور ، حيث يقول :

" . . . ثم يخيل الى الفتى كأن عقله قد وقف عن التفكير وكأن قلبه قد عجز عن الشحور حيناً ، وكأنه فى شئ يشبه النوم وليس بالنوم ، وكأنه يسمع ذلك الصوت الغليظ الخشن ، وهو ييمت فى الفضاء قهقهة عالية ملؤها السخيرة والاستهزاء ، فيمود الفتى الى شحوره الأليم ، وتفكيره المقيم ، واذا هو يسأل نفسه مرة أخرى عن هذا الصوت : ما هو ؟ وما

عسى أن يكون ؟ وترسم على ثغره ابتسامة أخرى فيها سخرية مرة ، واستهزاء حزين ، فهو يسأل نفسه : ألا يمكن أن يكون هذا الصوت الذى أغراه بالمودة وورطه فى هذه الكريهة ، صوت اله من هؤلاء الآلهة القدماء الذين كان يعبدهم ويقبل عليهم فى المدينة مع صاحبه ، ثم لم يلبث أن شكَّ فيهم وتكر لهم وأعرض عنهم ، واستجاب لصديقه الشيخ ، وجمعل يبحث عن اله جديد دون أن يلغى أو يهتدى اليه فأضاع نفسه بـ بين قديم كان يحرفه ، وجديد لا يألوه .. " (١)

ومنها - أيضا - تصويره للخواطر والهواجس التى كانت تتدور فى نفس خديجة - رضى الله عنها - اثر ارسالها محمدا فى تجارة لها الى الشام ، وما كان يلف هذه الخواطر والهواجس من خوف وقلق عليه .

يقول طه حسين : " لقد أجت خديجة هذا الفتى منذ كان صبيا ، وجعلت ترعاه من بعيد وترقب من أمره ما تستطيع أن ترعاه ، وتتبع نموه واكتماله ، وكلما نما الفتى نما حبها له وكلفها به ، أحيان بلغ الفتى أشده وأصبح خليقا أن يحقق أملها فيه ، يخطر لها هذا الخاطر الغريب ، فإذا هى تدفعه الى الرحلة ، وتقذف به الى أرض الروم .. ومن الحق أنه لم يكن لها زوجا ، ولكن كانت تتشاء لنفسها زوجا . وربما كان الخوف على الأمانى أشد على النفس وأوقع فى القلب من الخوف على الحقائق الواقعة والشئ الذى ظفرت به يحد أن طال تمنيك له وألحت وغبنتك فيه . وكانت خديجة تذكر أمته ، وتذكر نفسها ، فترى أن أمته لم تدفع زوجها الى الرحلة وانما أنعنت فى ذلك لقوانين الحياة التى تقضى على فتیان قريش بالاضطراب فى الأرض والابعاد فى الأسفار . ولو قد خبرت أمته

لاستبقت زوجها • ولو قد أتبع لقلبها أن ينطق لألج على زوجها فس
البقاء • فأما هي فلم تتركه على فراق الفتى ، وإنما سمعت إليه ورغبتها
فيه ، وأغرقت به الفتى أغراء ، ودفعته إليه دفعا ، ودست فيه الرسائل
الى عمه الشيخ ، وأضعفت أجره أضمافا •

أمحبة هي لهذا الفتى أم مبغضة له ؟ أراغبة هي عن هذا الفتى
أم راغبة فيه ؟ أحرصة هي على جوار هذا الفتى أم على فراقه ؟

ان أمرها لعجب مهما تقلبه على وجوهه ! ولكن ألمها شديد ،
وحزنها موجد ، وقلقها مزين ، وقد تذكر أنها لم ترسله وحده السس
الشام ، ولم تعرضه وحده للأخطار ، وإنما أرسلت معه غلامها القوي الفتى
الأمين الناصح ، وهو خليف أن يحوطه ويرعاه ، وأن يلقى الموت فى سهيل
حياطته ورعايته ، ولكن غوائل الدهر وعوادي الأيام جائرة غاشمة ، وهى
أقوى من غلامها "ميسرة" مهما يكن قويا ، وأجرا منه مهما يكن جريشا ،
وأضى الى المكر والكيد منه الى الحياطة والحماية والنصح " (١)

د - تصوير الشخصيات الخيالية :

وكما صور طه حسين المعانى والخواطر والمواقف والأحاسيس ،
فانه قد صور - فى هوامشه - شخصيات تخيلها ، وأجرى على ألسنتها
حوارا ، ورسم ما يدور فى خواطرها من آراء وأفكار .

ومن هذه الشخصيات المتخيلة التى صورها طه حسين ، وتخييل
ما يدور على ألسنتها من حوار ، وما تهجس به خواطرها من أفكار - شخصا

(١) على هامش السيرة ج ٢ ص ١٥٥ ، ١٥٦ .

آلهة اليونان الأربعة : أبولون ، وأريس ، وأرتميس ، وأتنا . وقد اجتمعوا لينظروا فيما عساهم يفعلون وينتهى اجتماعهم باجماعهم على الرحيل من تلك الديار التي سادوا فيها زمنا طويلا ، وأنه قد جاء الوقت الذي يجب أن يتراجعوا فيه أمام هذه الأديان السامرية الجديدة التي محتهم ونصحت دينهم . . . سمعت أشبههم بأبلون يقول : ما أبشع هذه المدينة التي نحيا ونصبو اليها . وما أقيح هذه الرياح التي تصعد إلينا منها . قالت أشبه هؤلاء الأشخاص بأتنا : لقد كنا نحب أن نلم بهذه المدينة فنطيل فيها المقام ، وكنا نستعذب حديث أهلها ونستحب أخلاقهم ونستلذ ما كانوا يقدمون إلينا من الضحايا والقربان . قالت شبيهة أرتميس : وم كم كنت أحب أن أتجول في غاباتها وأستمتع فيها بلذة الصيد . قال شبيهة أريس : أما أنا فكانت تمنجني حصونها المحصنة ، وقلاعها المؤشبهة ، وهذا الجيش الباسل المرابط فيها والمستمد في كل لحظة للدفاع والهجوم قال شبيهة أبولون : فقد آن لنا أن ننصرف عنها على ألا نرجع إليها ، وأن نلقى عليها نظرة وداع للاقاء بعد^(١) .

ثم يقول آخر هذا الحوار : " . . . قال شبيهة أبولون : وما بقاؤنا في هذه الأرض التي ليست لنا بدار بعدما أزمع الآلهة أن يدعوا هذا الاقليم لدين قبصر ولهذا الدين الجديد ؟ لقد وقفنا فأطلقنا الوقوف وودعنا فأطلقنا الوداع ، وأن لنا أن نلحق بمن سبقنا من الآلهة إلى تلك الأرض الموعودة التي لم تفسد عقول أهلها حيلة بروسثيوس ، ولا فلسفة سقراط ، ولا سياسة قبصر ، هلم . . . " (٢)

" بمثل هذا الحوار الشمري الجميل يصف لنا المؤلف كيف زالت الوثنية اليونانية ، وحلت محلها اليهودية والنصرانية ، وهذه القطعة وحدها

(١) على هامش السيرة ج ١ ص ٩٩ .

(٢) المصدر السابق ج ١ ص ١٠١ .

تشهد بأن المؤلف قد رزق النصيب الأوفر من خصصة الخيال والقدرة على
القباس الحادث المادى ثوبا شعريا رائعا ٠٠ (١)

ومن الشخصيات التى تخيلها طه حسين ، وجعلها تتحدث وتتجاوز ٠٠
شخصية الشيطان وقد جعله الكاتب صديقا لأبى جهل ، وحظيفا له يجمع
بينهما الحقد على الرسول صلى الله عليه وسلم ، والصد عن دعوته ، وقد
تخيل الكاتب هذه الشخصية ، وتخيل هذه الصداقة ، وتخيل هذه اللقاءات
المفكرة التى تمت بينهما ، كما تخيل ما جرى بينهما من حوار يدور حول
الحسد والحقد على الرسول صلى الله عليه وسلم ٠٠

يصور طه حسين الشيطان فى صورة شيخ ، وقد استوقف أبا جهل فى
أول لقاء تم بينهما ، كما يتخيل ما دار بينهما من حوار ، فيقول :

" ٠٠ وبينما كان راثا (يعنى أبا جهل) فى ذات يوم السى
حانته تلك ، يشرب فيها ويطرب وينفخ على شباب قرش شهبهم وطههم
عرض له فى بعض الطريق شيخ أعرايى حسن الوجه رائق المنظر ، لولا أنه
كان غليظ الزكي ، خشن الثياب ، يكاد يبدو عليه الضر ، لولا أنه يتجمل
ويروض نفسه على ما لم يتمود الأعراي أن يروضوا أنفسهم عليه ، فلمّا
رأى عمرو بن هشام هذا الشيخ مقبلا عليه ، رماء بنظرة سريعة فيها كثير
من السخرية ، وطيل من الحذر ، وهمّ أن يضى لوجهه ، ولكن الشيخ
استوقفه فى رفق ، فأظهر عمرو أنه لا يحفل به ، ولكن الشيخ رفع صوته
قليلًا بهذه الكلمة : " مكانك يافتي فان لى اليك حديثا " ولغ هذا الصوت
أذن الفتى فروعه شيئا ، ولم يدّر الفتى أهمّ هذا الصوت أم يكرهه "

(١) من مقال للدكتور محمد عوض محمد بمجلة الرسالة بتاريخ ١٨ / ١٢ / ١٩٣٣ .

وأراد ليضئ أمامه ولكن رجله لم تطاوعه ، فقام مكانه كأنما ثبتت قدماه
فى الأرض شبيهاً • ودنا الشيخ منه يسمى متباطئاً قصير الخطا ، حتى انتهى
إليه فوضع إحدى يديه على كتفه فى رفق وظل له فى صوت بلغ أعماق قلبه
: " لا تُرْعُ يا بنى فما أريد بك إلا خيراً • "

قال الفتى فى صوت مضطرب يريد أن يثبت : " من تكون أيها
الشيخ ؟ وماذا تريد ؟ • "

قال الشيخ : " ستعرف من أكون ، وستعرف ماذا أريد ، ولكن
تعلم أنى بعمد أن وضعت يدي هذه على كتفك هذه قد ملكت أمرك كله
فلن تتطرق إلا بلسانى ، ولن تعمل إلا بمرأى ، ولن تُعَدِّرَ إلا عن أمرى • (١)

كما يصف طه حسين لقاء آخر من هذه اللقاءات المتكررة ، ويتخيل
فيه حواراً طويلاً ثم بين الشيطان وبين صديقه أبى جهل ، تقتطف منه
هذا المقطع •

يقول طه حسين : " • • قال الشيخ وهو يقدم إليه القسح :
اشرب أبا الحكم • فلا بد من أن نستفد ما فى الزق " ثم استأنف
حديثه فقال : •

سولقى (يقصد محمداً) إليهم (يقصد أتباع محمد) أن الناس جميعاً سوا
لا يتفاوتون فى الدنيا ، وإنما يتفاوتون فى الآخرة بما يقسمون بين أيديهم
من العمل ، فمن عمل صالحاً فله جنة لا أدرى ما هى ، ومن عمل
سيئاً فله نار لا أدرى ما هى • "

(١) على هامش السيرة ج ٣ ص ٥٧ ، ٥٨ •

قال عمرو وقد رفع القدح الى فمه فشرب منه : " وما الآخرة التى تحدثنى عنها ؟ " .

قال الشيخ وهو يصب فى القدح ليملاؤه : " حياة يزعم ابن عبدالمطلب أنها كائنة بعد الموت ، وأنها لا آخر لها " .

قال عمرو وقد عب فى القدح عباً شديداً وقد حث عيناه شيئاً كأنه الشرر ، وغشى وجهه شئاً كأنه اللهب ، وانبعث من فمه ضحك قهيج .

حياة بعد الموت لا آخر لها ! هلم أبا مرة (وطك كنية الشيطان) اسقى من خمر هذه التى كأنها النار ، أو من تارك هذه التى كأنها الخمر . حياة بعد الموت لا آخر لها ! لن تخرج بزقك وفيه قطرة من شراب . حياة بعد الموت لا آخر لها ! حياة بعد أن تصبح تراباً تذروه الريح ! . . . (١)

هـ - تصوير البيئتين :

وكما عنى طه حسين بتصوير ما تقدم . . عنى - أيضاً - بتصوير البيئتين التى تقع فيها الأحداث وتتحرك فيها الشخصيات ، ونرى هذا واضحا من خلال فصول " على هامش السيرة " .

ومن تصوير البيئتين ، تصوير طه حسين المكان الذى اختلج فيه - الصديقان : نسطاس الرومى وعمرو بن هشام ، وتصوير ما يحيط بهما من مناظر طبيعية .

(١) على هامش السيرة ج ٣ ص ٦٨ ، ٦٩ .

يقول طه حسين : " على أن الفتى لم يصل الى هذا الموضع من
نجوى ضميره حتى ازداد رغبة الى رغبة، وشكا الى شك ، فقد ذكر
أن وجه نسطاس لم يكن خاليا له أمن ، وأن نفسه لم تكن خالصة لـ
كما تعودت أن تخلص له حين يتقدم الليل وتسكت الموسيقى وينقطع الغناء
ويغرق النداء ويخلو الصديقان ، لا يشهد خلوتهما الا هذان القدحان
قد بقيت فيهما بقية من شراب يقبلان عليه بين حين وحين ، فمحسوان
منه حسو القطا ، والا هذه النجوم التي كانت تطل عليهما من السماء
كأنما كانت تريد أن ترى ما يمنعان أو تسمع لما يقولان ، وهى على ذلك
تخفى عليهما أسارا غاضة ، طالما اشتقاكا الى استجلائها ، والا هذا
النسيم الخفيف الضئيل الذى كان يختلس مسراه من سكون الليل اختلاسا
ومر بهما من آن الى آن حذرا متحفظا كأنما يخشى أن يغطنا لـ
فَيَدُلَّا عليه ضوء الليل .. " (١)

وفى موضع آخر يصور طه حسين منظرا من مناظر الطبيعة - يصور
جو مكة فى يوم شديد الحرارة : يوم سمى نسطاس الرومى الى ورقة بمن
توفى فى خوف وحذر ليهوده الوداع الأخير .

يقول طه حسين : " وكانت أجيال مكة قائمة حولها ساهمة واجمعة
فى يوم شديد القيلظ ، كأنما أدركها منه ما يدرك الناس فيذهلهم عنى
أنفسهم وعما حولهم من الأشياء . وكانت مكة بين هذه الأجيال ساكنة
سكونا مخيفا لا حركة فيه ، هامة هدوءا مفظما لا نشاط فيه ، قد استقرت
بين هذه الأجيال ، واستقر فيها كل شئ ، فما تجرى فيها نسمة ، وما
يغنى فيها طائر ، وما تصوت فيها حشرة ، وانما هى جامدة هامة
تصب فيها أشعة الشمس المحرقة صبا ، وتمكن فى هذه الأشعة المحرقة

ألوان مختلفة من هذه الصخور القائمة من حولها حتى ليخيل الى مَنْ
كان يمكن أن يراها في ذلك الوقت : أنها طَسَّتْ يَحْبُ فيها معدنٌ مُذَابٌ
يَشْهُرُ كُلُّ مَا مَسَّهُ مِنْ شَيْءٍ " (١)

وفي موضع آخر يصور طه حسين طبيعة الهيئة التي هاجر إليها الشيخ
الذي أثر الهجرة والعزلة في قصة " ذو الجناحين " .

يقول طه حسين : " .. فهجر المدينة والتمس العزلة في مكان
يميد في طرف من أطراف الريف ، وقد قامت فيه شجرات خُضْرٌ ملقحة
الأغصان ، على جدول من الماء .. هادئ صافي الأديم ، يداعب
النسيم صفحته في رفق ، فيشير عليها أمواجاً صفاراً توشك أن تكون حُباباً .

هنالك جلس الشيخ مع الأصل ، وهنالك انصرف الشيخ عن نفسه
وعن الناس ، وعن المدينة وأهل المدينة ، وعن الأعداء ، وما كانوا يأتصرون ،
وعن الأصدقاء ، وما كانوا يدبرون ، وفرغ لشجراته الخضراء وجدوله الصافي
وهذا النسيم العليل القاتر يداعب أوراق الشجر ، وصفحة الجدول ، وضوء
الشمس الحزينة المتهالكة يهتمها حزناً متهاكاً في طريقها الى الشروب ،
وهذه الطير الكبيرة قد أقامت على غصونها مترجحة في أناة وهدوء ، متفنية
في شيء يشبه الحزن والاسى ، كأنما كانت تودع النهار كارهة للسوداع ،
وتستقبل الليل ضيقة باستقباله . " (٢)

* * *

(١) على هامش السيرة ح ٣ ص ٤٥ .

(٢) على هامش السيرة ح ٣ ص ١٢٧ .

ٖٖ الفصل السادس ٖٖ

" على هامش السيرة " فى ميزان النقد

- ١ - قيمة الكتاب وأثره .
- ٢ - نقد بعض أفكار الكتاب .
- ٣ - موقف بعض النقاد من الكتاب .

١ - قيمة الكتاب وأثره :

لا شك أن طه حسين قد استطاع - بكتابه هذا - أن يحقق الهدف الذى قصد اليه حين قدم هذا الكتاب للقارئ فى صورته التى عرضه بها ، ذلك الهدف الذى يرمى الى بحث التاريخ القديم عامة والسيرة خاصة فى صورة جديدة محببة للنفس ، يطلع القارئ من خلالها على الماضى الحقيقى المشرق وتاريخه المريق الطيد ، بما فيه من صفحات مضيق مليقة بالوجود والبطولات ، ولا سيما صفحات السيرة النبوية التى تزخر بكل ما هو "مُثَالِيٌّ قَدْ" ، و"كَمَالِيٌّ" نادر من الصفات والأخلاق والبيادى والمثل العليا التى تعد القدوة الحسنة لكل "مُقْتَدِيٍّ" والأسوة الحقة لكل "مَتَّاسِيٍّ" .

وذلك الهدف الذى يرمى الى الاتجاه نحو هذا التراث المجيد يتخذ الشباب من صفحاته الزاهرة مادة للفكر والأدب يشرون بها فكرا وأدبا ، كما يُحْتَوُونَ بها هذا التراث حين يعرضون هذه الصفحات نفس أسلوب أدبى جميل .

وكان من أثر توجيه طه حسين الكتاب^د الى تراشيم - يستلهمون من صفحاته المادة التى يَشْرَى بها فِكْرُهُمْ وَأَدَبُهُمْ - أن توالى الكتابات التى تحذو حذو طه حسين فى عرض السيرة فى أسلوب قصصى جميل من أمثال كتب " محمد رسول الله والذين معه " لعبد الحميد جودة السحار ، و" محمد رسول الحرية " لعبد الرحمن الشرقاوى ، و" صور من حياة الرسول " لأمين دويدار .

وقد استطاع طه حسين أن يحقق أهدافه هذه ، حين استطاع أن يقدم للقارئ بعض أحداث ووقائع من السيرة ، اختارها وانتقاها وصاغها

فى أسلوب أدبى قصص جميل ، يعيد الماضى بأحداثك وشخصه صورة
حية نابضة ماثلة أمام الميرون والقلوب بكل ما فيها من عظيم الأحداث
وجليل الذكريات .

يقول الأستاذ : أحد الشايب : " . . . وقد أخلص ثانيهم - يقصد
طه حسين - لفنه القصص فاستلهم المراجع القديمة التى صاحبت حوادث
السيرة ، وانتقل الى أماكنها كذلك ، وعاش مع أهلها يطفى عنهم الحقائق
والخرافات والتواريخ والأساطير ، حتى اندمج فى هذا الماضى وأعاده
الينا قصصا جميلا حقا ، بأسلحه الفيض ، الموسيقى ، المستقى . . . " (١)

وكان نجاح طه حسين فى تقديم أحداث السيرة فى تلك الصورة
الحية النابضة - راجعا . الى تقديم هذه الصورة من خلال طريقته
التصويرية التى أسلفنا الحديث عنها ، تلك الطريقة التى استطاعت أن تحيل
أحداثها ووقائعها التاريخية الجافة الى فن حيّ جذّاب ، كما استطاعت
- فى الوقت نفسه - أن تجعل من هذا الفن الحى الجذاب " صورة
" علمية " صادقة للجزيرة المحمية وأطرافها فى الفترة (٢) بين مولد النبى
صلى الله عليه وسلم فى الجزئ الأول ، وانتصار دعوة فى الجزئ الثالث . .
صورة للحياة الاقتصادية والسياسية والاجتماعية والفكرية ، صورة لما يهيجس
فى الضمائر والأخلاق ، وما يبدو من الاتجاهات والآراء ، صورة للبيئات
ولالأفراد فى الحياة هناك " (٣)

وإذا كان طه حسين قد نجح فى الطريقة التى عرض بها أحداث
السيرة ووقائعها . . . فانه قد نجح فى عرض الأفكار التى قصدها من

-
- (١) الأسلوب : ص ١٠٢ .
(٢) استعمال كلمة " الفترة " هنا خطأ شائع ، والصواب البدة أو الحقبة ونحوهما .
(٣) كتب وشخصيات : ص ١٠٨ .

خلال هذه الأحداث .. تلك الأفكار التي سبق أن أشار إليها البحث ، والتي تتلخص في : أن العالم آنذاك كان في حاجة الى رسالة تميد كيانه وبنائه وتقييمها على نظام سليم صالح . وأن محمداً - بما سبق مبین اشارات وشارات تقدمت مولده وبعثته - هو النبي والرسول المنتظر لحصل هذه الرسالة ، وأما الفكرة الثالثة فهي تمثل انتشار الاسلام وانتصاره ..

ومع هذا الذي حققه طه حسين بكتابه هذا ، فإننا نلمح في ثنايا بعض فصول الكتاب تمبيراً غير مباشر عما يقع في مجتمع طه حسين وعما يقع له من أحداث ، استغل طه حسين أحداث السيرة ووقائعها في التمبر عنها ، وهذا يعد من الأدب الرمزي ، وهذا يعني أن طه حسين لم يكن منفصلاً عن مجتمعه ، وهو يكتب أحداث السيرة ..

فن الأول - وهو ما نراه تمبيراً غير مباشر عن بعض ما يقع في المجتمع - ما يقوله طه حسين على لسان كالكبرائيس الذي لا يرى لقيصر حقاً في أن يطلب منه الايمان بالمسيح ، مادام هو يؤدي واجبه نحو الدولة كما يؤديه المواطن الصالح ، يقول :

" أليس يكفي أن ييسط سلطانه على الأجسام حتى يحاول أن ييسط سلطانه على القلوب والعقول ؟ وكيف السهيل له الى استدلال القلوب والعقول .. انه لا يبلغ من ذلك شيئاً ، ولكنه يضع قوته عثا ويفنني جهده في غير طائل ، ويخرج الناس ويهرقهم من أمرهم عسراً ، وينتهى آخر الأمر الى أن يصرفهم عن جهه ، ويزهدهم في طاعته ، ويمأ قلوبهم بغضاله وانكاراً عليه ، وقد يدفعهم الى أن يعصوه ويشوروا بسلطانه حسين يجدون الى العصيان والثورة سهيلاً " (١)

(١) على هامش السيرة ص ١٣ و ١٤ .

ففى هذا النص تلميح بالواقع الاجتماعى آنذاك ، وتمريض بحكومة
"صدق" وغيره من رجال القصر ، والانجليز الذين اشتدت قبضتهم على الحياة
السياسية آنذاك .

وقد صدر " على هامش السيرة " خلال النصف الأول من الثلاثينيات
٠٠ أى : فى المدة التى اشتدت فيها قبضة هؤلاء على مصر ، وعطّل
فيها الدستور والبرلمان سنوات عديدة ، ومن هنا جاء " على هامش السيرة " .
فى بعض فصوله تعبيراً عن حرية الفكر والرأى ، وانكاراً للاستبداد والكتاتورية
ونرى هذا بوضوح فى قصة " الفيلسوف الحائر " التى أوردنا منها النص
السابق .

ومن الثانى - وهو ما نراه تعبيراً غير مباشر عن ذاته هو ، وتلميحا
عما يجيش بصدوره وينفعل به من أحاسيس تجاه أشياء وقعت له - ما يقوله
فى قصة " ذو الجناحين " عن شيخ ، يستقبل يومه نشيطاً فلا يلبث
حتى تأتى إليه الأنباء تحمل له أخباراً تقول : ان سحبا تتجمع فى الجوى
وأن ريحا حقا تريد أن تسوقها إليه ، وتصب شرها عليه ، وأن كسيـدا
يكاد وشرا يراود . . . وإذا به يهرب من كل هذا الى مكان فى الريف
بعيد ، وهناك تفرج نفسه القلقة بالريف الجميل والطبيعة الحانية . . . وإذا به
يرى صورة تسمى إليه تهدد وحدته وترقا وحشته ، وإذا الصورة تحادشه
وتخبره أنها العزلة ، أنها الهجرة يرضاها الحر الكريم . . . ثم اذا بها
تحادشه ينأى رجل من قرىش فى غيبته ، إذ هاجر بدينه الى الحبشة
مرة ، ثم الى المدينة مرة ، ثم الى الاستشهاد آخر الأمر . . . وترضى
نفس الشيخ بما سمع من أمر فتى قرىش ذاك ، وما سمع من حديث عزلته
تلك ، وما نعم من صحة الطبيعة حوله ، فتشرب إليه نفسه ، ويمرود إليه
اطمئنانه . (١)

مرجع القارئ الى قصة " ذو الجناحين " يستطيع بسهولة ويسر
أن يتعرف على هذا الشيخ الذى هاجر بنفسه الى العزلة والطبيعة
بحيدا عن كود الكائدين ودرس الداسيين .. ان هذا الشيخ تهـدو
عليه ملاح الكاتب وشخصيته .. انه طه حسين ..

واذا عرف القارئ أن " على هامش السيرة " قد جاء بعد صدور
" فى الشعر الجاهلى " بسبع سنوات ، واذا عرف - أيضا - أن هذا
الكتاب - أعنى : " فى الشعر الجاهلى " - قد سب له متاعب كثيرة ،
وأقام عليه الدنيا واقعد لها ، مما عرفناه عند الحديث عن بواعث ودوافع
الكتابة لكتاب " على هامش السيرة " .. اذا عرف القارئ هذا كله
استطاع أن يعرف معنى الكهد الذى يزعجه والدس الذى يدعه ..

* * *

٢ - نقد بعض أفكار الكتاب :

والإضافة الى ما تقدم ، استطاع طه حسين أن يتخذ من بعض
أحداث السيرة ووقائعها مجالا للتعبير عن بعض أفكاره التى يؤمن بها ،
وعن بعض آرائه التى عبر عنها فى كثير من مؤلفاته .

ومن هذه الأفكار : فكرته القائلة بوحدة الثقافة ، أو وحدة الحضارة ،
وهى فكرة تعد من أفكاره الأساس التى عبر عنها فى كتبه : " أديسب " ،
و " مستقبل الثقافة فى مصر " و " على هامش السيرة " .

وقد عبر عن هذه الفكرة فى كتاب " على هامش السيرة " حسين
جمل الكتاب ملتحق لطالب الحق والمعرفة فى مختلف بلاد المالم القديم ،
وحين يجمل الاسلام تعبيراً عن هذا الحق الذى توحدت فيه آمال

الناس وأحلامهم على مختلف جنسياتهم وثقافتهم .. وذلك حيث يصرح فيه طه حسين خروج العالم القديم كله في انتفاضة روحية شاملة بحثا عن الحقيقة حتى وجدها مثقلة في محمد ورسالة .. ففي الكتاب يرى القارئ شبانا يونانيين وثنيين ، وآخرين مسيحيين قد خرجوا من بلادهم بحثا عن الدين الحق يلتصقون به فيما حولهم من بلاد وثقافات ، ومنها هذه البلاد الصحراوية الهيمدة فيصل بعضهم ويموت آخرون دون الغاية من أشغال كالليكرايتس^(١) اليوناني ، ونسطاس^(٢) صحران^(٣) ونسطور الرومانيين ، كما يرى القارئ شبانا عربا وثنيين قد خرجوا من بلادهم إلى الشام وبيزنطة من أجل هذه الغاية نفسها فيصبح بعضهم نصارى بيزنطيين ، كما أن بعضهم لا يهتدى إلى شيء ، ويموت بعضهم إلى الوطن يمشرون بشيء من المسيحية حتى يقدر لهم أن يشهدوا الحق في ميلاده العظيم ، من أشغال : عثمان بن الحويرث ، وزيد بن عمرو^(٤) ، وورقة بن نوفل .. كما يرى القارئ سلمان الفارسي عبدا كهلا في يثرب ، وكان قبل استرقاقه شاهبا تقيا عرف النصرانية ، فتصر وخرج من أصفهان إلى العراق والشام طلبا لليقين ، فإذا هو يشتغل بين الأديرة والكنائس والصوامع ، فيبتلي على أيدي قس وأساقفة وراهبان ، يدلونه على مطلق النور في جزيرة العرب ، فيشد رحاله إليها مع تجار يندرون به في الطريق ، ويبيعون له ليهودي من بني قريظة في يثرب فيستعبد بها ، ويظل حتى يأتي الرسول صلى الله عليه وسلم مهاجرا إلى المدينة ، فيصبح سلمان من أقرب صحابه.

-
- (١) راجع قصة " الفيلسوف الحائر " ح٢ من على هامش السيرة .
 - (٢) راجع قصة " صريح الحسد " ح٢ من على هامش السيرة .
 - (٣) راجع قصة " الفيلسوف الحائر " ح٢ من على هامش السيرة .
 - (٤) راجع قصة " الفيلسوف الحائر " ح٢ من على هامش السيرة .

ومن هذه الأفكار التي يؤمن بها : فكرته القائلة بأن الثقافة اليونانية والرومانية أسبق من الثقافة العربية ، وقد ردد طه حسين هذه الفكرة في كتبه وكتابات ، وعلى وجه الخصوص كتاب : " مستقبل الثقافة في مصر " . كما ردد هذه الفكرة في كتابه الذي معناه " على هامش السيرة " وذلك حين يقول على لسان عمرو بن هشام عندما يتحدث الى ورقة بن نوفل :

" .. نعم . وقد كنت أعرف أنك وأمثالك تخرجون من بلادنا هذه لتضربوا في الأرض ولتلتبسوا الحق والعلم والدين عند هؤلاء الأعاجم من الفرس والروم ومن اليهود ، وما كنت أنكر من ذلك شيئا فهم قد سبقونا الى الحضارة ، وهم قد سبقونا الى الكتاب ، فأما أن يخرج الروم من بلادهم الى هذه البلاد المجيدة الفاحشة الغليظة الجانية التي لاحظ لأهلها من حضارة أو علم أو كتاب ليلتمسوا عندنا الحق والعلم والدين ، فهذا هو الذي لا أفهمه ، ولم تطمئن اليه نفسى حين حدثنى نسطاس بما حدثنى به أمس " (١)

وحين يقول — أيضا — على لسان " باخوم " المصري السذى شارك في بناء الكعبة ، متحدثا عن العرب : " .. وكنت أنظر اليهم ، والى ما كانوا يرون ويقدرون في شئ من المظف عليهم والاهتمام لهم ، فهم أصحاب سذاجة لم يألفوا من الحضارة ما ألفنا ، ولم يملوا من خطوب الأيام ما ملأنا " (٢)

ونحن لا نوافق طه حسين على فكرته الأخيرة القائلة بسبق الحضارة اليونانية والرومانية للحضارة العربية ، كما لا يوافق عليها الكثير من الناس ،

(١) على هامش السيرة ج٣ ص ٢٢ ، ٢٨ .
(٢) على هامش السيرة ج٢ ص ١٩٤ ، ١٩٥ .

فمعروف أن الحضارة العربية أسبق من الحضارة اليونانية والرومانية، والأدلة على ذلك كثيرة، فيلتبسها من أرادها في مواطنها، وحسنها أن تشير إلى بعض الكتب التي توضح هذه الحقيقة، وهو كتاب العقاد: "الثقافة العربية أسبق من ثقافة اليونان والعبريين" (١)

* * *

وإذا كنا لا نوافق طه حسين على فكرته هذه، فانتا لا نوافق على ما ورد في قصة "شوق الحبيب إلى الحبيب" من أن الله قد ألقى في قلب النبي حب زينب زوج زيد، وألقى في قلب زيد الانصراف عن زينب والنفور منها. وأن النبي مضطرب لهذا الحب، ومنكر على نفسه هذا الحب، مخفٍ له، ولكن الله يهدي ما يخفيه. يقول طه حسين: ".... ولكن الله يريد أن يلقى نظام التهنى هذا، وأن يرد الناس إلى أنسابهم وأن يدعوا الأبناء لأبائهم، وإذا هو يمتحن فسي ذلك نبيه، ويمتحن في ذلك زيدا، ويمتحن في ذلك المؤمنين الصادقين جميعا، يلقى في قلب النبي حب زينب زوج زيد، ويلقى في قلب زيد الانصراف عن زينب والنفور منها، وهذه نفس محمد مضطربة أشد الاضطراب، متمتعة أشد الامتناع، واجمة أشد الوجوم، ترفض هذا الحب رفضا وتكزور عنه ازوارا، وإذا هي تتكره حتى على نفسها ولكن الله يهدي ما تخفى، ويمصرف الناس ما تتكره، وإذا زيد يريد أن يطلق امرأته والنبي ينهها، ويذره ويحذر... (٢)"

نقول: لا نوافق طه حسين على هذا القول، ذلك لأن قوله: أن الله قد ألقى في قلب النبي حب زينب زوج زيد، قول مردود مرفوض،

(١) هو كتبه صدر في سلسلة: المكتبة الثقافية رقم (١).

(٢) على هامش السيرة ح ٣ ص ٢٢٧.

يرفضه الواقع ويأباه خلق الرسول ، فزينب كانت منذ صغرها الى أن اكملت
 أنوثتها أمام بصر النبي وكان يرى ان كانت ذات صفات أم لا ، فلو
 كانت له رغبة فيها لتزوجها قبل أن يزوجه متنها الذي أرغمت على
 الزواج منه بأمر السماء ، وإذا كان هذا القول مرفوضا واقعا ، فهو
 مرفوض خلقا ، ولا سيما خلق رسول كريم ، بحث ليتم مكارم الأخلاق ،
 ان كيف يتعلق قلب الرسول محمد بحب زوج متنها ، وهو الذي زوجه
 اياها؟ . وإذا كان الله قد أراد للرسول أن يتزوج من زينب بمقد
 تطليق زيد اياها ابطلا لعادة التهنئة وقضا على عادة الجاهليين في
 إياه التزوج ممن كانت زوجا لرجل أصله من العبيد ، فليس يلزم أن يسبق
 زواج الرسول منها حب من جانبها لها ، ولا أن يلقى الله في قلبه
 حبها ، مادام الله قد أراد ذلك ، ان ليس يلزم - أيضا - أن يسبق
 فعل المأمور به حب له ورغبة فيه من جانب المأمور .

وهذا القول رده من قبل طه حسين المستشرقون الحاقدون
 وسار على نهجهم طه حسين ، ولكن طه حسين قد غلف هذا القول
 بفلكة رقيقة تستر ما فيه من ادعاء صطلان ، حين قال : ان الله
 قد ألقى في قلب النبي حب زينب ، وذلك لا يجعل للنبي يدا في
 هذا الحب ، ولا قصدا منه اليه !

ولا نوافق طه حسين - أيضا - حين يقول : ان الله قد
 ألقى في قلب زيد الانصراف عن زينب والنفور منها ، لأن هذا القول
 يرفضه الواقع ، فالواقع يقول : ان زيدا لم يطلق زينب انصرافا عنها ونفورا
 منها ، بل طلقها رافة ورحمة ، لأن زينب كانت متألمة من هذا
 الزواج من أول يوم ، وربما كانت تدل عليه بنسبها ومكانتها ، وكثيرا
 ما تكررت منها حركات الأنفة والتأني وتكرر منه الشكوى منها والشفق

عليها الى رسول الله ، ولم يمد زيد يستمرئ هذه الحياة المضطربة ، فطلب من الرسول أن يطلق عليه زينب ، ولكن الرسول كان يقول له : " أمسك عليك زوجك .. " مع أن الرسول يعلم أن الله سيؤوجه اياها بعد تطليق زيد لها ، وهذا هو موضح العتاب في قوله تعالى : " وَتَخْفَى فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ " .

فالأمر الذي كان يخشى النبي أن يظهر ، وكان يحوص على اخفائه في نفسه ، ليس هو حب زينب ، كما يقول طه حسين ، بل هو زواجه من زينب بعد تطليق زيد اياها ، خوفا من أن يقول الناس ان محمدا تزوج زوج متهناه بعد طلاقها ، وكان أمرا يمدونه خرقا لمعاداتهم التي ألفوها ..

يقول محمد حسين هيكل في هذا الصدد : " ... ان محمدا نفسه على قوة عزيمته وعميق ادراكه لحكمة الله في أمره قد وجد على نفسه الغضاضة في تنفيذ هذا الحكم بأن يتزوج زينب بعد تطليق زيد اياها ، ودار بخاطره ما يمكن أن يقول الناس في خرقه هذه العادة القديمة المتأصلة في نفوس العرب ، وذلك ما يهده تعالى في قوله : " وَتَخْفَى فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ " لكن محمدا كان القدوة في كل ما أمر الله به وما ألقى عليه أن يبلغ رسالته ، فلا يخشى ما يقول الناس في تزوجه ممن كانت زوج زيد مولاة ، فذلك لا شيء الى جانب خشية الله بتنفيذ أمره ، وليتزوج من زينب ليكون قدوة فيما أهدى الشارع الحكيم من الحقوق المقررة للهنئ والادعاء .. " (١)

(*) الآية ٣٢ من سورة " الاحزاب " .

(١) حياة محمد ص ٢٩٢ ، ٢٩٣ - مع تصويب .

٣ - موقف بعض النقاد من الكتاب :

وبالإضافة الى هذه النقدات التى أسلفنا الحديث عنها نقرر أن كتب " على هامش السيرة " أو فصول على هامش السيرة ، حسين بدأ طه حسين فى كتابتها فى مجلة الرسالة الأسبوعية - قد واجهه هجوما شديدا ونقدا عنيفا ، وكان النقد يأتى من نواح عدة : من محافظين ومجددين وغيرهم .

فالمحافظون يهرون أنه ليس طه حسين بالذات هو الرجل الذى يعيد كتابة التاريخ الإسلامى والسيرة النبوية بوجه خاص ، ويذكرون الناس بمصر " فى الشعر الجاهلى " قائلين : انه يوم كتب عن الشعر الجاهلى كفر وألحد ، فريما يسلك السبيل نفسها حين يكتب عن السيرة النبوية .. ثم يتساءلون : وما الذى يمنح ؟

ومن هنا نرى أن نقد هؤلاء المحافظين لم يكن نقدا علميا متجها الى ما فى الكتاب من آراء وأفكار ، ولا نقدا أدبيا متجها الى ما فى الكتاب من خصائص أدبية وسمات فنية .. بل كان نقدا شخصيا متجها الى شخص طه حسين نفسه ، ورأيهم فيه من حيث موقفه من التاريخ الإسلامى المعروف فى كتابه " فى الشعر الجاهلى " وعدم ثقتهم فيه حين يتناول الموضوعات الإسلامية .

وأما المجددون - وعلى رأسهم محمد حسين هيكل - فكان نقدهم موجها الى الكتاب من حيث طريقتة التى عالج بها السيرة ، وتناول من خلالها أحداثها ، تلك الطريقة التى تعتمد على نشر وإداعة الأساطير والاسرائيليات من تلك الأخبار التى لا يقبلها العقل ولا يستمضها المنطق ، ومحاولة ربطها بأحداث السيرة ووقائعها ، فى الوقت الذى يجب

أن تتحرر فيه السيرة من تلك الأساطير ، حتى لا تكون عرضة للشكوك ،
بالإضافة الى تلك الحرية التي منحها طه حسين لنفسه ، حين تلاهب
بأحداث السيرة تلاعب القصاصين ، وحين وسَّحَ عليها في القصص ، فابتدعت
واخترعت من الأخبار والأحاديث والشخصيات ما شاء لها أن تهتدع وتخترع ،
قصدا من طه حسين الى احياء أدب الأساطير .

كما أنهم يقولون : اذا كان طه حسين يريد أن يحمي أدب
الأسطورة - كما يفعل أدباء الغرب حين يتحدثون عن أساطيرهم
القديمة - فينبغي له أن يفرق بين الموضوعات التي يمكن أن تتخذ
مادة لهذا الأدب والتي لا يمكن أن تتخذ مادة له . . . فالتاريخ الذي
لا يترك صدقه أو كذبه في حياة النفوس والمقائد أثرا ما ، لا مانع
أن يتخذ منه مادة لأدب الأسطورة ، أما التاريخ المرتبط في النفوس
بالمقيدة ، فانه يجب أن يكون بعيدا عن تلك الأساطير ، والأحاديث
المختلقة والأخبار المبتدعة .

يقول محمد حسين هيكل : " الدكتور طه حسين ، انما سلك
في " هامش السيرة " طريق كتاب الغرب من يتحدثون عن الأساطير
القديمة ينشرونها ويزينونها ، والدكتور طه حسين انما قصد الى احياء
أدب الأساطير حين أملى هذا الكتاب أو حين دَفَعَ الى ذلك دفعاً
وأكره عليه اكراها . . . " (١) .

ثم يقول : " . . . ان أدب الأسطورة هو أخصب ألوان الأدب ،
ويزيدها خصبا أن الكاتب والقارئ يعرفان جميعا أن المادة التي

يحالجان هي من نوع الأسطورة ، ولا جُنَاحَ عليهم اذا هم أطلقوا للخيال فيها العنان فابتدعوا من خيالهم ما يزيد هذه الأساطير رمةً وغدسةً لا يحول بينهم وبين الأخذ بقول بعضهم " أعذب الأدب أكذبهم " أى حائل ، ولذلك أستطيع طه العذر ان خالفته في اتخاذ النبي ومصره مادة لأدب الأسطورة .. " (١)

وقد أشار الدكتور محمد حسين هيكل في نقده هذا الى ما اتصل بسيرة النبي ساحة مولده وما روى عما حدث له من اسرائيليات - روجت بعد النبي - لا ينهى أن تتخذ مادة لأدب الأسطورة ، فقال :

" .. لهذا وما اليه يجب في رأيي ألا يتخذ مادة لأدب الأسطورة ، فانما يتخذ من التاريخ وأقاصيصه مادة لهذا الأدب ما اندثر أو ما هو في حكم المندثر ، وما لا يترك صدقه أو كذبه في حياة النفوس والمقائد أثرًا ما . والنبي سيرته ومصره تتصل بحياة ملايين المسلمين جميعًا ، بل هي فلة من هذه الحياة ومن أعز فلاتها عليها ، وأكبرها أثرًا في توجيهها . والدكتور طه حسين يعلم أكثر مما أعلم أن هذه الاسرائيليا إنما أريد بها افادة أساطير ميثولوجية اسلامية لافساد العقول والقلوب من سواد الشعب ولتشكيك المستربيين ، ودفع الريبة الى نفوسهم فسس شأن الاسلام بنهيه .. من أجل ذلك أؤكد أن يقبل الدكتور طه حسين فيما قد يكتب من بعد من فصول تجرى مجرى " على هامش السيرة " بين ما يتصل بالمقائد وما لا يتصل بها " (٢)

أما غير هؤلاء وأولئك فيرون أن طه حسين بكتابه " على هامش السيرة " أراد أن يتعلق الجاهير فكريا بعد ثورتها عليه بسبب آرائه التي

(١) ملحق السياسة الصادر في ديسمبر ١٩٣٣ .

(٢) ملحق السياسة الصادر في ديسمبر ١٩٣٣ .

جاء بها كتاب " في الشمر الجاهلى " كما تعلقها سياسيا حين
احصل بالوفد وترك الأحرار الدستوريين^(١)

وقد كان رأيهم هذا مبنيًا على ما يعرفونه من موقف طه حسين
من الشمر الجاهلى ، وموقفه من بعض الموضوعات الاسلمية التى أثارها
فى كتابه " فى الشمر الجاهلى " وأنه لا يمكن لانسان مثله هجم القيم
الروحية قبل سنوات من صدور " على هامش السيرة " بأسلمه النقدى
ومنهجه " الديكارتى " - أن يكتب فى السيرة النهمية بأسلوب ومنهج
مخالفين لاتجاهه الذى كتب به " فى الشمر الجاهلى " وأن يولمها
اهتماما كبيرا ، الا اذا كان يقصد من وراء ذلك حظوة شعبية لدى الجماهير
وتصحيح موقفه الذى ساء بعد صدور كتابه " فى الشمر الجاهلى " ^(٢)

(١) راجع : طه حسين فى معاركه الأدبية ص ١٤٨ .
(٢) راجع : أضواء على الأدب العربى المعاصر ص ٢٨٥ .

ٖٖ الباب الثالث ٖٖ

" السيرة والأسلوب المرحسى "

من خلال

كتاب " محمد " لتوفيق الحكيم

- الفصل الأول : الحكيم والأدب المرحسى .
- الفصل الثانى : الحكيم ومرحياته الدينية .
- الفصل الثالث : الفكرة والمنهج فى كتاب " محمد " .
- الفصل الرابع : جوانب السيرة فى كتاب " محمد " .
- الفصل الخامس : كتاب " محمد " فى ميزان النقد .

ٖٖ الفصل الأول ٖٖ

الحكيم والأدب المسرحي

يعد توفيق الحكيم رائدا للأدب المسرحي المعاصر الحديث ، وعظما
من أعلامه البارزين ، لما قدمه فى هذا المجال من أعمال أدبية رفيعة ،
تشهد لصاحبها بالتفرد والتفوق .

وإذا قلت : للأدب المسرحي ، فانا أعنى الأدب المسرحي الفنى
الذى اكتملت أصوله ، واستوفت شرائطه حسب الأصول النقدية المعمورة
فى النقد الحديث .

ذلك لأن الأدب المسرحي غير الفنى - أى : الذى لم تكتمل
فيه عناصر هذا الفن ، ولم تستوف شرائطه - كان محروفا قبل توفيق
الحكيم ، وعرفه الأدب المعاصر الحديث منذ سنة ١٨٧٠ على يد محسوب
صنوع ، وعلى يد مارون النقاش وسليم النقاش وغيرهم ممن جاءوا بهمد
محسوب صنوع وكان لهؤلاء الرواد فضل ادخال هذا اللون الجديد
من الأدب فى الأدب المعاصر الحديث ، وكانت المسرحيات التى ظهرت
على أيدي هؤلاء الرواد تمثل الهذور الأولى لهذا اللون من الأدب .

ومن هنا كانت تلك المسرحيات تفتقد الكثير من شرائط هذا الفن
وأصوله ، كما اعتمدت على الاقتباس من المسرحيات الأجنبية ، وكذلك
على التمريب والتصير ، ثم انتقلت الى التاريخ المعاصر والاسلام تأخذ
منه موضوعاتها ، ومثلة بذلك طورا جديدا فى مراحل حياتها . . . كما
أن هذه المسرحيات لم يكن الفرض منها قيمة أدبية بقدر ما كان الفرض
منها اضحاك الجماهير وارضاه أدواقهم آنذاك . .

ويأتى الحكيم وتكتمل على يديه المسرحية المصرية فنيا ، وتستوفى
شرائطها نقدية ، ويستوى هذا الفن على سوقه ، ويدخل مرحلة النضج
والاكتمال ، وذلك بفضل دراسة الحكيم لهذا الفن ، واعتان أصوله وقواعده

واجادته له ، وتمكنه منه .

ولقد زخرت المكتبة المصرية بالمديد من مسرحيات الحكيم ، التى ترجم أغلبها الى اللغات الأجنبية ، فشرى بذلك ~~للكاتب~~ الأدب المسمى الحديث بهذا اللون الذى وفد على الأدب العربى من الآداب الأوربية — من ناحية ، ودخل الأدب العربى فى قائمة الآداب العالمية من ناحية أخرى ، واستحق الحكيم — بفضل ما قدمه فى هذا الفن — أن يكون الرجل الجدير بأن يتوج زعيما للأدب المسرحى المسمى .

ٖٖ الفصل الثاني ٖٖ

” الحكيم ومسرحياته الدينية ”

استغل الحكيم معرفته هذا اللون من الأدب ، واختاره شكلا أدبيا لتناجه الفنى ، ولكن الحكيم كان حريصا على أن يستهت به نسي الأدب المسمى والتراث المسمى بعدما هضم أصوله الأوروبية ، كما كان يخشى الوقوع فى التقليد ، ولذا حرص على أن يبحث عما يسميه بالموضوع الشرقى ، وقاده هذا الى البحث فى طبيعة الروح الشرقى والحضارة الشرقية ، فى مقابل الروح الغربى والحضارة الغربية ، ولذا راج يفتش فى التاريخ الشرقى - على تعدد ألوانه وأناطه - ليتخذ من صفحاته وأحداثه مادة لمسرحياته ٠٠ فمن التاريخ الفرعونى كتب الحكيم مسرحية " اينيس " ومن التاريخ الأسطورى المسمى كتب مسرحية " شهزاد " ومن التاريخ الأسطورى اليونانى كتب مسرحية " أوديب "،

واستكالا لدائرة شرقية الموضوع ، اتجه الحكيم الى مسرحياته الدينية ، فمن القصص القرآنى كتب الحكيم مسرحيتى : " أهل الكهف " و " سليمان الحكيم " ومن التاريخ الاسلامى كتب الحكيم مسرحية " محمد ".

ولعل الحكيم كان يقصد من وراء مسرحياته الدينية أن يشبع الحس الدينى القوى فى المسرح حتى يحقق هدفه الخلقى فى صياغة الحضارة بنواحيها العلمية والفكرية والمادية صياغة جديدة ، تثقف الانسان من شقائه ، وتضبط علاقاته بالله والكون والمحيط الانسانى الذى يرمى الى الحرية والكمال والملاقات الحانية الودودة^(١) .

وبالنسبة لمسرحية " محمد " خاصة قال الحكيم : انه أراد بها أن يسجل صورة النبى بشرا ٠٠٠ لخدمة هدف وطنى وقومى ، وذلك

(١) كلمة " الودودة " خطأ لا يقع فيه الا ساذج ، وفى الحديث : " تزوجوا الودود الودود " فالتاء خطأ .

(١) راجع : مجلة الهامة ص ٣٨ و ٣٩ . السنة العاشرة - العدد ٣٩١٠ .

عن طريق إبراز المبادئ والقيم العليا التي تهدف الى سعادة الانسان .

وقال أيضا : انه يقدم في هذا الكتاب عملا فنيا يقوم على روح
"الدراما" وجوهرها ، وانه يكتب هذا الأثر ليحقق ويخلد ، لأنه يصدر عن
شعور ديني بوجود اله يتحكم في الانسان ، وذلك في عصر ليس فيه
مفكر غربي يؤمن حقا بوجود اله آخر غير الانسان نفسه . (١)

والناظر في مسرحيات الحكيم الدينية يراها تعتمد على فكرة
المزاوجة بين المادة والروح ، أو على الحقل والقلب . وهذا هو الخط
الذي يربط بينهما . . . وكان الحكم يريد أن يقول : ليس للعالم عالم
مادة فقط ، أو عالم روح فقط ، أو عالما يعتمد في معرفته على العقل
فقط أو القلب فقط ، انما هو عالم مزيج من هذا وذاك . فما كسسان
ماديا منه فالوسيلة الى الايمان به انما هي والعقل ، وما كان روحيا
فالوسيلة الى الايمان به انما هي القلب . .

يقول الحكيم في مقال له بعنوان " منطق الايمان " :
فالعقل لا يدري الا ما يلائم وظيفته وما يخضع لقاييسه ، والحقيقة
الحقيقية ليست الحقيقة كلها ، ولكنها الحقيقة التي يستطيع العقل أن
يراه من زاويته ، فاذا كانت المعقدة مرجعها القلب ، فان العقل
لن يرى منها الا الشطر الذي يستطيع أن يراه ، ويظل محجوبا عنه
الشطر الواقع في دائرة القلب . فوجود الخالق الجبار المنتقم الرحمن
للطيف لا شك فيه عند القلب ، أما العقل فان استطاع أن يتصور
وجود الخالق فانه قد يرتاب في صحة تلك الصفات المنسوبة اليه ، وقد
يراه . . في منطق . . صفات آدمية أسهبها البشر على خالقهم اجلالا له ،

لأنهم وهم بشر لا يملكون غير تلك الصفات التي هي في عرفهم مرادف
الأكهار والتقدير . أما حقيقة الخالق فأمر بعيد عن مقدرة العقل ، وهـل
يستطيع الجؤ أن يرى الكل ؟ " (١)

اذن ، فالمعرفة الدينية عند الحكيم هي معرفة حدسية تعصف
بالقلب مرة واحدة ، فهي ليست وليدة تأمل فكري أو خلاصة نظر عقلى ،
وانما هي قبل كل ذلك يقين يتجلى للقلب ، كما يتجلى الجمال ، لأنها
أمر مكوّن في النفس فطر عليه الانسان .

ونرى هذه الفكرة : فكرة المزاجية بين العقل والقلب ، أو المادة
والروح - واضحة كل الوضوح في مسرحيتي : أهل الكهف " و " محمد " .
فالراعى في مسرحية " أهل الكهف " لم يقده الى الايمان كلام الراهب
بما فيه من جمال ومنطق ، بل أيقظ في نفسه ايمانا قديما فطر عليه
الراعى . واذا كان الراعى يمثل الفطرة ، فان زميله : " مشلينا " .
يمثل القلب ، بينما يمثل " مرنوش " العقل . .

وشخصية محمد في مسرحية " محمد " لها جوانب ثلاثة :
جانب الروح ، وجانب المادة ، وجانب الفطرة . . بجانب الروح يمثل
تصوير الحكيم لشخصية محمد نبيا رسولا ينزل عليه الروحى من السماء ،
وجانب المادة يمثل تصوير الحكيم لشخصية محمد بشرا يفرح ويفض
ويحزن ، وينام ويصحو ، ويموت ويموت . . . وجانب الفطرة يمثل تصوير
الحكيم لشخصية محمد انسانا يفكر ويتأمل في خالق هذا الكون كيمسا
يصل الى الحقيقة التي ينشدها ، وهذا هو الايمان الفطرى . . واذا كان

(١) " محمد وهؤلاء " ص ١٠١ .

الانسان يرى فى مادية الرسول وشرعيته شيئا يؤمن به بحظه لأنه يــــــراه ويحسه ، أى يرى ويحس آثار هذه المادية والبشرية ، فانه يرى نفسى روحية الرسول وطقية الوحى من السماء وما فيها من أمور تخفى على العقل وتندق على الفهم — شيئا لا يستطيع أن يدركه بحظه ، أو يفسره ، بمنطقه ، لأنها فوق مستوى العقل والمنطق ، هل يدركه بقلبه .

وقد أكد الحكم نفسه جانب الروح والمادة ، أو جانب القلب والعقل ، عندما قال : أنا أتحرك دائما فى عالمين ، وأقيم تفكـــــــىرى على عمودين ، ولا أرى الانسان وحده فى هذا الكون .. انى أوسن ببشرية الانسان .. وأرى عظمتة فى أنه بشر ، له ضعفه ونقصه وعجزه وأخطاؤه ، ولكنه بشر يوحى اليه من أعلى^(١).

ولعل هذه المزاجية فى فكر الحكم راجعة الى مزاجيته الثقافية التى جمعت بين الثقافة الأوروبية الحديثة المبنية على العقل والمادة ، والتى فهمها الحكم وتذوقها ، بل تغنى فيها — والثقافة المصرية الاسلامية المبنية على القلب والروح وعلى العقل اولا ، والتى كان الحكم من أكثر المثقفين المصريين حرصا عليها .

ويستطيع القارئ أن يجد هذه المزاجية بين المادة والروح ، أو العقل والقلب ، ليس فقط فيها أسلفنا من حديث عن بعض مسرحياته الدينية ، بل يجدها — أيضا — فى تأملاته الاجتماعية والسياسية والفنية ، فهو — فيها — يبدو شرقيا وغربيا فى وقت واحد ، أو هو يحاول التوفيق بين القديم والجديد ، أو بين الشرق والغرب على سنة العرب المسلمين فى عهد نهضتهم الأولى ، فان لم ينجح فى هذا التوفيق ، أعطــــن

أن حضارة الشرق أعمق وأبقى " فالغرب يستكشف الأرض والشرق يستكشف
السماء " و" الروح لا الملم مصدر الخلود " (١)

ولقد استطاع الحكيم بهذه المزاجية أن يزيد الفكر والأدب العربي
ثراءً بفكره وفن وأدبه فيه أصالة القديم وابتكار الجديد ، وأن يحقق بذلك
ثقافة قومية ، لا تختلف عن الثقافة الأوروبية ولا تندمج فيها .



(١) محمد وهولاء ص ١٠٤ .

:: الفصل الثالث ::

" الفكرة والمنهج في كتاب " محمد "

- أ - الفكرة •
- ب - المنهج •

أ - الفكرة :

لحل الذى قادنا الى ذلك الفصل السابق الذى أوضحنا فيه الخط الفكرى الذى التزم به الحكيم ، والذى انتظم معظم مسرحياته - هو أن نقول : أن هذا الخط قد التزمه الحكيم فى مسرحية " محمد " أنصح هذا التعبير ، وأنه زاوج فيها بين الجانب المادى والجانب الروحى ، أو بمباراة أخرى : زاوج فيها بين شخصيتى محمد : شخصية محمد البشر ، وشخصية محمد الرسول ، ولعل ذلك يفسر لنا سر تصدير الحكيم كتابه " محمد " بهذه الآية الكريمة : " قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَىَّ .. " (١)

وإذا ما عدنا الى كتاب " محمد " لنفتش فيه عن فكرة معينة حاول الحكيم أن يبرزها ، أو مشكلة أراد أن يعالجها ، فإنا لا نعثـر على شئ من ذلك ، فى الوقت الذى نجد فيه جميع مسرحياته تتضمن أفكارا وآراء ، أو مشكلات وقضايا ، وتحاول إبرازها ومعالجتها ..

ففى مسرحية " شهرزاد " مثلا يعالج الحكيم فكرة الصراع بين الانسان ، وبين الفريضة والمأطفة والعقل ، وتحطه فى هذه القهـود الثقال .

وفى مسرحية : " أوديب " يعالج الحكيم مشكلة القدر .
وفى مسرحية " أهل الكهف " يعالج الحكيم مشكلة الزمن ، وهكذا .

(١) الآية : ١١٠ من سورة الكهف .

(٢) نشر الحكيم سيرة محمد فى كتاب سنة ١٩٣٦ وكان قبل ذلك ينشرها سلسلة فى مجلة " الرسالة " .

والسر فى خلو كتاب " محمد " من الأفكار والقضايا التى نجدها
مباشرة فى مسرحيات الحكيم ، أن الحكيم فى كتابه " محمد " لم يكن
يقصد به أن يكون مسرحية متضمنة فكرة بالمعنى الفنى لهذه الكلمة
ومشكلة يقصدها من وراء كتابة المسرحية . بل كان يقصد به أن يتناول
سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم ، وتصوير وقائعها وأحداثها من خلال
طريقة عصرية جديدة ، هى الطريقة المسرحية ، ومشكل أدبى لم تكنسب
به من قبل ، هو الشكل الحوارى الذى يأخذ ما للمسرحية من سمات ،
هى التقسيم الى فصول ، وتقسيم الفصول الى مناظر ، وتصوير الوقائع
على ألسنة الأشخاص من خلال حوار مباشر .

وهذا مع المحافظة على حقيقة الصور التاريخية والأحداث التى
وقعت فى تاريخ السيرة النبوية ، دون أن يتدخل من جانبه بشئ من
تفسير أو تحليل أو رؤية خاصة ، أو فكرة معينة يبرزها من خلال الحوار ،
الذى قد يغير عن غير عدد بعض الملاح والسمات .

والحكيم نفسه صرح بهذا كله فى مقدمة كتابه ، حين قال :
" المؤلف فى كتب السيرة أن يكتبها الكاتب ، ساردا ، باسطا ، محلا ،
مقبا ، مدافعا ، مقندا . غير أنى يوم فكرت فى وضع هذا الكتاب قبل
نشره عام ١٩٣٦م ألقى على نفسى هذا السؤال : الى أى مدى تمتطيع
تلك الطريقة المؤلفوة أن تبرز لنا صورة بعيدة - الى حد ما - عن
تدخل الكاتب ؟ . صورة ما حدث بالفعل وما قيل بالفعل ، دون
زيادة أو اضافة ، توحى إلينا بما يقصده الكاتب أو بما يرمى إليه ؟ .

عندئذ خطر لى أن أضح السيرة على هذا النحو الفرسب ،
فمكثت على الكتب الممتدة ، والأحاديث الموثوق بها ، واستخلصت منها
ما حدث بالفعل وما قيل بالفعل وحاولت - على قدر الطاقة - أن أضح

كل ذلك فى موضعه كما وقع فى الأصل ، وأن أجمل القارئ يتمثل كل ذلك ، كأنه واقع أمامه فى الحاضر ، غير مبهج لأى فاصل - حتى الفاصل الزمنى - أن يقف حائلا بين القارئ وبين الحوادث ، وغير مجوز لنفسى التدخل بأى تعقيب أو تعليق ، تاركا الوقائع التاريخية ، والأقوال الحقيقية ترسم بنفسها الصورة ..

كل ما صنعت هو الصب والصياغة فى هذا الاطار الفنى البسيط ^(*) ، شأن الصائغ الحذر ، الذى يريد أن يبرز الجوهر النفيس فى صفاتها الخالص ، فلا يخفيها بوشى متكلف ولا يفرقها بنقش مصنوع ، ولا يتدخل الا بما لا بد منه لتثبيت أطرافها فى اطار رقيق لا يكاد يبرى .. هذا ما أردت أن أقمل .. ^(١)

ومن هنا ظهر لنا أن عمل الحكيم فى كتابه " محمد " يختلف اختلافا كبيرا عن عمله فى مسرحياته الأخرى ، وظهر لنا أيضا أنه ان جاز أن نسمى هذه الأعمال مسرحيات ، فإنه لا يجوز أن نسمى كتاب " محمد " مسرحية بالمعنى الفنى لهذه الكلمة .. " غير أنه من الواضح أن سيرة " محمد " كما عرضها الحكيم ليست مسرحية ، رغم تقسيمها الى ثلاثة فصول لها مقدمة وخاتمة ، ورغم تقسيم هذه الفصول الى مشاهد تحاول رسم المكان والزمان والمربيات والمعنويات التى تجسرى خلالها الأحداث وتتحرك الشخصيات .

وذلك أن هذه السيرة ، كما عرضها الحكيم تظل من الهنأ " الدرامى " أولا ، كما أن بها كثيرا ما لا يمكن تجسيمه على المسرح

(*) كلمة " البسيط " خطأ شائع ، ومدلولها عكس ما يراد منها ، والصواب : الضيق أو المحدود أو نحوها .

(١) " محمد " : توفيق الحكيم ص ٥٥ .

ثانياً ، ومن ذلك الملائكة والجن والنبي والصحابة ... وليس يخفى
أن المؤلف لم يقصد قط الى عمل مسرحية من كتابه عن سيرة " محمد " .
ومن هنا لا يمكن أن يحاسب على أن هذا العمل مسرحية ... (١)

ولعل ذلك يفسر لنا السر في اغفال بعض النقاد - الذين تناولوا
نتاج الحكيم المسرحي - كتاب " محمد " وعدم عدّه مسرحية لما تقدم .

وطى الرّم من أن عمل الحكيم في كتابه " محمد " قد انصهر
في صب السيرة النبوية وصياغتها في هذا الاطار الفني ، كما يقول ،
وهو الاطار المسرحي الذي يمتد على الأسلوب الحوارى ، دون تدخل
منه بتعليق أو تعليق .

أقول على الرّم من ذلك نجح الحكيم في هدفه هذا نجاحاً كبيراً ،
فالسيرة النبوية التى يروىها في كتابه هذا ، فيها من الجلال والروعة ،
كما فيها من التسلسل والسر ، الى جانب التشويق والامتع ما يجعل
من عمله شيئاً ناجحاً وجديداً : ناجحاً من حيث السرد الممتع الجميل للأحداث
السيرة ، وجديداً من حيث الشكل الحوارى والقالب المسرحي الذى صب
فيه ... بالإضافة الى أنه استطاع أن يقدم أخبار السيرة لجسم ————
القراء رشيقة خالصة من المنعناات الكثيرة والمضاهيل التى لا تنهم الا الباحثين
والمحققين والمؤرخين ، ما يجعلها في متناول القارئ العادى ، بالإضافة
— أيضاً — الى تقديم شخصية الرسول بصورتها — صورة محمد البشر
وصورة محمد الرسول — في لوحة جديدة ، حيث عرض كل صورة من هاتين
الصورتين في مناظر متعددة ، جرى من خلالها تلك الشخصية الفذة
التي كانت مثلاً عالياً فهذا في كلتا الصورتين .

(١) الأدب القصصى والمسرحى في مصر ١٩١٤ و ١٩١٥ .

ومع كل هذا الذى أضافه الحكيم - حين عرض السيرة النبوية -
هذا الموضوع الأدبى الجميل ، وعمل هذا العمل فى كتابتها على هذا
النحو - لا يمكن أن نعدّه ابداعا فنيا خالصا ، لافتقاده الفكرة الخاصة
التي هى هدف الفنان ، حين يقدم عملا فنيا ، لافتقاده وجهة نظر
المؤلف فى تصويره لشخصياته الذين احتوتهم السيرة ، وعلى رأسها شخصية
الرسول صلى الله عليه وسلم ، كما فعل - مثلا - المؤلفون الأوروبيون
الذين كتبوا عن ابراهيم وموسى وسليمان والمسيح ومحمد ، اذ عالجوا
هذه الشخصيات بالطريقة التى تتلاءم مع فكرة كل مسرحية .

ولعل الذى حال دون أن ينهج الحكيم هذا النهج الفنى الخالص ،
الذى يعرض من خلاله شخصية الرسول ، من وجهة نظر معينة وفكرة محددة . .
هو أن شخصية النبی محمد لها من الجلال والقداسة فى نظر المجتمع
الاسلامى ، جلال وقداسة يمنعان تعرض هذه الشخصية الفذة لاجتهادات
الأدباء والفنانين ، بحيث يصورها كل منهم كما يشاء له فكره ومذهبه .

ومن هنا نرى الحكيم لا يستخدم فى هذا الكتاب فنه بقدر ما
يستخدم ذكاه وسهارة ، فيحول الأخبار والروايات الى حوار ، ويرتبها بما
يتفق مع فكرة التابع الزمنى للوقائع وحوادث الحياة .

ب - المنهج :

واذا كان الحكيم قد اعتمد بالسيرة عن أن ينحو بها نحو فنيا
خالصا ، فيسوقها من خلال فكرة معينة أو يصورها من خلال رؤية
خاصة . . وإذا كان الحكيم قد التزم فى عرضه لأحداث السيرة وروايتها
بما جاءت به كتب السيرة ، وما انتهت كتب التاريخ من وقائع وأحداث وروايات

وأخبار ، لم يَحِدْ عنها الحكم ، كما سبق أن أشرنا .

أقول : إذا كان الحكم قد اُبتدع بالسيرة عن أن ينحو بها نحو فنيا خالصا ، وإذا كان الحكم قد التزم بما أتت به كتب السيرة فإن هذا لا يعنى أن الحكم قد استعرض السيرة من خلال منهج تاريخي ولا لتعقب ما جاء في كتب السيرة والتاريخ من وقائع وأحداث وأخبار وروايات بالشرح والتفسير والتطويل والتحقيق ، وهذا ما أعلن الحكم أنه لن يقدم عليه .

ومن هنا لا نستطيع أن ننسى عمل الحكم هذا سيرة أو تاريخا ، وإن كان قد استند فيه إلى الكتب التاريخية المعتمدة ، ذلك لأن الاعتماد على الكتب التاريخية شيء وعمل المؤرخ المحقق الدارس شيء آخر ، فالكتاب المحقق المؤرخ يطالب بتمحيص ما يقرأ وعرضه على الحقيقة ، وتحقيقه ما ناله من شوائب الضح والانتحال أو من عوادي التفسير والزهادة ، وهو يطالب — أيضا — بأن يكون صاحب وجهة نظر محددة ، يريد أن يثبتها فنيا يقدم بين أيدي القراء من عمل .

وإذا ما حاولنا أن نطبق المنهج الذي يعتمد عليه المؤرخ المحقق — والذي أشرنا إليه — على عمل الحكم هذا ، فإننا نرى أن الحكم لا ينهج نهج المؤرخ من شرح وتفسير وتطويل وتحقيق . كما أنه لا يناقش — من خلال كتابه هذا — شيئا محينا ، أو يضيف إلى كتابته رؤية خاصة نحو بعض الأحداث أو الوقائع كما يفعل المؤرخون .

ومن هنا جاء كتابه جامعا لما أتت به كتب السيرة من حقائق أو خيالات ، من روايات صادقة تخضع للعقل والمنطق ، أو روايات يقف أمامها العقل والمنطق حائرا ، ولذا رأينا كتاب " محمد " مليئا بالآيات القرآنية ، والأحاديث النبوية ، وهو أيضا مليء بالمأثورات والشعر

والحكايات المروية على ألسنة الصحابة وغير الصحابة من مسلمين وبهمهود وكفار ونصارى ٠٠ دون أن يتناول شيئا من ذلك بتحقيق أو تحصيل أو تفسير.

وليس فى هذا كله عيب وقع فيه الحكيم ، ولكنه يحدد لنا أن عمل الحكيم ليس تحقيقا تاريخيا ، وأن الحكيم فى كتابه " محمد " ليس باحسا محققا ، ولا مؤرخا يقدم تحليلا جديدا للسيرة ، يتناولها من وجهة نظر معينة ، أو يحشها وفق منهج بذاته ٠٠٠

وانما الحكيم أولا وأخيرا فنان ، اهتمت نفسه أمام أحداث السيرة النبوية ، وفاضت عاطفته تجاه صاحبها عليه الصلاة والسلام - فعبّر عنها فى هذا القالب الحواري وليس عليه أن اختار هذا القالب بذاته ، وليس عليه أن اختار من أحداث السيرة ما يعبر به عن احساسه تجاه السيرة وصوقه منها . وهذا الموقف بالنسبة للحكيم موقف فنى جمالى ، لا يبحث فيه القارئ عن الحقيقة ولا عن مدى ثقل العقل لما فيه من أغوار وروايات ٠٠٠ بقدر ما يبحث فيه عن صدق الاحساس وصدق التعبير.

ولقد أحسن الحكيم الأديب احساسا عميقا - وهو يستعرض السيرة النبوية - وامتلأت نفسه بمحمد البشر الذى يحب ويقاتل ويفكر ويخطئ ، ويفرح ويحزن ، ويحزن ويصيح ، وينام ويصحو ٠٠ - فعبّر عن ذلك فى صور متعددة .

كما أحسن الحكيم الأديب احساسا عميقا ، وفاضت نفسه بمخطويف المواطف والانفعالات نحو محمد الانسان ٠٠ الذى يقف ثابتا قويا أمام كل الأحداث المثبطة المموجة فيقلب عليها بقوة ايمانه ، وجلسده وجبره ٠٠ يقف أمام الصعاب التى تعترض طريقه فيذلها تارة بالحيلة ،

وتارة بالقوة ، وتارة بالصبر والصمود .. الانسان الذى تمثلت فيه هذه الكلمة بكل ما تحتمله من معان ودلائل .. انسان فى سلوكه .. فى أدبه .. فى خلاقته .. ان محمدا الانسان هز الحكيم وأثر فى عقله وقلبه مما فعبّر عنه فى صور متعددة وأنماط مختلفة .

وبالإضافة الى احساس الحكيم وامتلاك نفسه بشخصية محمد صلى الله عليه وسلم : بشرا وانسانا ، أحس الحكيم وفاضت أحاسيسه بمحمد الرسول الذى يأتيه الوحي من السماء بأوامر الله ونواهيه وآدابه وتشريعاته .. ليبلغها الرسول الى الناس كافة .. أحس الحكيم بهذه العلاقة القوية التى تربط الانسان به ، وهذه الصلة القوية بين عالم الأرض وعالم السماء .. بين دنيا الناس بشروهم وآثامهم ، وبين ربهم القوى المادل الرحيم ، يرسل من عنده الهداية والرحمة ، كى يكون فى التزامهم بها سعادتهم فى الدنيا والآخرة .. أحس الحكيم بهذه المعانى فعبّر عنها .. الى غير ذلك من الجوانب المختلفة التى أحس بها الحكيم أثناء قراءته السيرة .

ولقد أثار أحاسيس الحكيم وفجر خياله - بالإضافة الى ما تقدم - ما أثبت فى السيرة النبوية من خوارق ومعجزات ، إذ رأى فيها الحكيم مجالا خصبا يطلق فيه خياله المنان ، بما تفتح أمام الأعين من عوالم فساح ، وما تتحه للانسان من مجالات للهروب من الواقع المحدود الضيق الى واقع فسيح رحيب .. ولذا لا نعجب حين نرى هذه الخوارق وتلك المعجزات ~~مفصلة~~ فى كتاب " محمد " لأن الحكيم قد استهوته هذه الأشياء فعبّر عنها .

والحكيم فيها أحس به وعبّر عنه - ما تقدم - كان ملتزما بما جاء فى كتب السيرة النبوية سواء فيها يتعلق بجوانب شخصية الرسول .. أو فيها

أورده من خوارق ومعجزات ٠٠ ولكن الحكيم على الرغم من التزامه هذه يبدو في بعض المشاهد ، وكأنه الفنان المتيد الذي يتامل بحثا عن مواقف يجبر فيها عن نفسه ، وينطلق فيها من هذا القيد الذي ألجم به ظمه ٠٠ ويجد الحكيم هذه المواقف في الأخهار التي لا يكون النبي طرفا مباشرا فيها ٠٠ أو فيها يعن لخياله من اضافات لا تتناقض مع أخهار السيرة كما نجد - مثلا - في المشهد الذي يصور فيه ابلين وقد ظهر في ثياب شيخ تجدى وقد دخل دار الندوة حيث كانت تجتمع قريش للتشاور في أمر محمد ، وتتفق على قطه قبل الهجرة ٠٠ ان سورة ابن هشام تذكر هذا الخبر في سطور قليلة ، ولكن توفيق الحكيم يمتدح لقاء حوارا يجري بين ابلين والحيمة التي كانت رسوله الى حواء في الجنة، والتي تظهر له في حائط دار الندوة ، وهو بهم بدخولها ٠٠ والحوار بينهما عسل في متكامل يتحدث في انفعال عن الفواية والايمان وعن السعى الحثيث الذي يقم به ابلين ليضوي الناس من ربه، وعن موقفه من هذه الدعوة الجديدة التي لا سهيل له على صاحبها .

وخلاصة ما تقدم أن منهج الحكيم في معالجته للسيرة النبوية منهج فني أدبي ، لا منهج علمي تاريخي، لأن الفن انتقاء واختصار، والعلم تنقيح واستقرار ، فالعالم يمتنع ويستقصي كل ما أمامه من حقائق وأخا، والفنان يلتقط بحاسة المرفهة من كل ما حوله ما يتجاوب مع انفعاله ، ويعبر عن مشاعره أمام الحدث ، فيحدد هذا الاختيار العمل الفني نفسه ٠٠ وما بالك بكاتب السيرة وقد امتلأت أمام الحكيم بحكايات من كل نوع ، ترضى عنده أكثر من نزعة ، وتتجاوب مع كل انفعال ، ولم يكن أمام الحكيم الا أن يختار ٠٠ وكان الحكيم صادقا صادقا فنيا مع نفسه ومع عمله، حين اختار ما هز مشاعره وتجاوب مع أخايسه .

وليس أدل على هذا من أن هناك جواب محينة ركر عليها الحكيم
الأضواء أكثر من غيرها ، هذه الجواب تكشف عن عملية الاختيار الفنى
عند الحكيم .. فهو قد ركر الأضواء على مواقف الرسول من موت ولده
وموت عمه حمزة وموت عمه أبى طالب .. الموت هز الحكيم . هذا الموقف
الذى تتفجر فيه النفس البشرية قوة طليقة ، حررها الألم من كل قيد ..
فركر الأضواء عليه . وكذلك فعل الحكيم من موقف الرسول من عائشة وغيرها
من النساء ، فالعلاقة بين الرجل والمرأة - هذه العلاقة التى هى سر
الكون - كانت كهيئة أن شيره وتطهيره فركر الأضواء عليها .. بل كذلك
فعل الحكيم حين رسم شخصية النجاشى ملك الحبشة ، فقد أعطى له صورة
الملك الكريم الناضج المؤمن ، ورمز به الى ما بين الأديان السماوية
من علاقات الحب والمودة والترايط ، اذا خلت هذه العلاقة من شوائب
الحقد والخيرة ووجدت النفوس الراضية المطمئنة .. الى غير ذلك من
المواقف التى سلط عليها الأضواء .

ٖٖ الفصل الرابع ٖٖ

جوانب السيرة فسى كتاب " محمد "

- ١ - محمد الرسول :
- أ - الوحى .
- ب - التبليغ .
- ح - المعجزات والخوارق .
- ٢ - محمد البشير .

فلما سابقا ان الحكيم قد استعرض السيرة النبهية من خلال كتابه " محمد " فى قالب مسرحى ، يمكن أن يسمى مسرحية ، أو يسمى سيرة حوارية ، وقد جعل الحكيم هذه المسرحية ، أو تلك السيرة الحوارية فى ثلاثة فصول ، تسبقها مقدمة وتمهيدا خاتمة ، وقد قسم الحكيم هذه الفصول ، وما سبقها ولحقها من مقدمة وخاتمة الى مناظر بلغت فى مجموعها خمسة وتسعين منظرا ، ومن خلال هذه المناظر استعرض الحكيم السيرة النبوية منذ بدأت بشائر مولده صلى الله عليه وسلم ٠٠ حتى وقف أهله وصحابته حوله وهو مسجى فى فراش الموت ٠٠

أما المقدمة: فتتناول أطرافا من حياة الرسول صلى الله عليه وسلم منذ بشائر مولده ، حتى زواجه من خديجة رضى الله عنها ٠٠ وأما الفصل الأول: فيعرض صورا من حياة الرسول منذ أن نزل عليه الوحي وهو فى غار حراء - أى منذ بعثته رسولا - حتى هجرته وصاحبه أبى بكر الى المدينة ٠

ويمكننا أن نقول - بمباراة أخرى - : ان المقدمة والفصل الأول يصوران الحقيقة المكينة فى حياته صلى الله عليه وسلم ، ويعرضان صورا من حياته قبل البعثة ، وصورا من حياته بعد البعثة ، وما لاقاه خلال تهليفه دعوة ربه من أذى وغت وأرهاق ، وصبره على هذا كله وصبر أصحابه معه ٠٠

وأما الفصل الثانى: فيعرض صورا من حياة الرسول صلى الله عليه وسلم فى المدينة منذ هجرته اليها ، حتى غزوة الخندق وحصار بنى قريظة ، ويقدم الحكيم خلال هذا الفصل مشاهد من حياته خلال هذه المسددة وما لاقاه فى سبيل الدعوة من عتات وصعوبات سواء أكانت من جانب

المشركين أهل مكة أو من جانب اليهود ساكنى المدينة أو من جانب المنافقين الذين ذهبوا كثيرا من المشاكل والقلق للرسول والمسلمين، كما يمرض صورا وشاهد لفزوات الرسول خلال هذه الأزمات .

وأما الفصل الثالث : فيمرض صورا من حياة الرسول منذ غزوة بنى المصطلق حتى فتح مكة ، ويقدم الحكيم خلال هذا الفصل مشاهد من حياة الرسول ، مثل حادثة الافك ، وفتح خيبر ، ورسله الى الملوك والأمراء ، وولادة ابنه ابراهيم ، ووفاته ، صلح الحديبية ، وفتح مكة .

وأما الخاتمة : فتتناول الصفحة الأخيرة من حياته صلى الله عليه وسلم ، فيمرض الحكيم فيها حج الرسول حجة الوداع وخطبته ، ومرضه ، ووفاته .

ويمكننا أن نقول - فى ايجاز - ان الفصلين : الثانى والثالث ، والخاتمة ، تمرض مناظرها صورا وشاهد من حياة الرسول المدينة . كما تمرض المقدمة والفصل الأول صورا وشاهد من حياة الرسول المكية .



والحكيم فى تناوله للسيرة النبوية واستمراضه لها ، لا يتبع كل الوقائع ولا يستقصى كل الحوادث ولا يورد كل الروايات والأخبار . بل يختار من تلك الوقائع والحوادث ، ومن هذه الروايات والأخبار ما يصنع منها صورا وشاهد يصور حياة الرسول فى مكة والمدينة منذ مولده حتى وفاته ، من خلال تصويره جانبى شخصية محمد صلى الله عليه وسلم ، وهما : شخصية محمد البشر ، وشخصية محمد الرسول .

ومن هنا يرى القارئ صوراً وشاهد من حياة محمد الهشيم يرى فيها محمداً الرجل المثالي والزعيم القوي ، والداعية الصامد ، كما يرى فيها كل سمات الهشيمية من القوة والخشية ، ومن الصواب والخطأ ، والرجة والألم والحزن والفرج ... الى غير ذلك من سمات الهشيمية ومظاهرها ..

ومن هنا - أيضا - يرى القارئ صُوراً وشاهد من حياة محمد الرسول : يرى فيها جبريل وقد نزل بالوحي من السماء على محمد صلى الله عليه وسلم ، برسالة ربه وحيا منزلا يرسم للناس طريق الهداية ، وطريق المهادنة ، وطريق الحياة الصالحة ... كما يرى القارئ محمداً الرسول الذي يبلغ الناس رسالة ربه ويتحمل في سبيل تليفها الصعاب والشاق .



١ - محمد الرسول :

أ - الوحي :

ان سمة النبوة أو الرسالة ، انما هي الوحي المنزل على النبي أو الرسول من السماء ، عن طريق جبريل عليه السلام ، وقد ركز الحكيم الأضواء عليه ، وذلك حين عرض صوراً وشاهد يصور فيها نزول جبريل على الرسول محمد صلى الله عليه وسلم واتصاله به ، وقد تكرر هذا النزول ذاك الاتصال على امتداد حياة الرسول منذ بعثه الله رسولا حتى التحاقه بالرفيق الأعلى ..

(١) في المنظر الأول من الفصل الأول، يرسم الحكيم صورة لمحمد وهو في غار حراء، ياحثاً عن الحق، مخاطباً خالق الكون، وقد نزل عليه جبريل عليه السلام بالوحي:

محمد : يا رب هذا الكون ! .. يا خالق السموات ! .. يا خالق
الشمس والقمر والنجوم ! .. يا خالق هذه الأرض وهذه
البحال !! يا وى وخالق وخالق الكائنات ! .. أريد
وجهك ! .. أريد وجهك ! ..

" يرى ضوءاً غريباً ، ويسمع صوتاً عجيباً ، ويهبط عليه الوحي "

الوحي : " يا محمد " .. !

محمد : " ياخذُه دعر " من هذا ؟

الوحي : " يا محمد " أنا " جبريل " !!

محمد : ماذا أسمع ؟ ! ماذا أسمع ؟ !

جبريل : أنا جبريل يا محمد .

محمد : جبريل !

جبريل : " يدنى منه كتاباً في نمط من ديباج " اقرأ !

محمد : " ياخذُه رعب " ما اقرأ !

جبريل : يَفْتَحُ بِالْكِتَابِ " اقرأ !

محمد : " وقد بلغ منه الجهد " ما اقرأ !

جبريل : يَفْتَحُ " اقرأ !

محمد : ماذا أقرأ ؟

جبريل : " اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ . خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ .

اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْبَرُ . الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ . عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا

لَمْ يَعْلَمْ " (٢)

(١) الآيات : ١ - ٥ من سورة الملئ

(٢) محمد ص ٢٠ ، ٢١ .

(٧) وفي المنظر الرابع من الفصل الأول ، يصور الحكيم محمداً وقد جلس مع خديجة في دارهما ، وقد أرادت خديجة أن تستيقن من أمر الذي يأتي محمداً ، أهو ملك كريم أم شيطان رجيم ، وتتأكد خديجة في النهاية أن الذي يأتيه ملكٌ فتشره ، وذلك حين لم تـره لحظة أن تحسر وتلقى خارها ، وحين تمود خديجة الى خارها يبدو جبريل من جديد ويدنو من الرسول ، فيترمد ويتصبب جبينه عرقاً وينادى على خديجة ، طالبا منها أن تدثره ، وفي هذه اللحظة ينزل عليه الوحي مبلفاً محمداً أن الله اختاره رسولا يبلغ الناس رسالة ربه . .

محمّد : " مرتجف الصوت " خديجة !
 خديجة : " تراه فَتَهْتَرُ اليه " مالك يا ابن عم ؟ !
 محمّد : إِنِّي !
 خديجة : " في قلق وخوف " مالك ترتعد ، وما لجبينك يتعقد عرقاً ؟
 محمّد : دَثَرُونِي ! دَثَرُونِي !
 خديجة : " تدثره سريعا وتهمس " هَوِّنْ عليك !
 جبريل : " لمحمّد ، ولا يسمعه غير محمّد " . . يَا أَيُّهَا الْمَدَّثَرُ .
 ثُمَّ تَأْتِدِرْ . وَرَيْكَ فَكَبِّرْ . وَشَايَكَ فَطَهِّرْ . وَالرُّجُزَ فَاهْجُزْ . وَلَا تَتَنَنَّ تَسْتَكْبِرْ . وَلِيَّكَ فَاصْبِرْ . (١) (٢)

(٣) وفي المنظر السابع من الفصل الأول ، نرى جبريل يصدر لمحمّد أمر الدعوة الملنية .
 " محمّد على جهل الصفا ، بين يدي جبريل "

(١) الآيات : ١ - ٧ من سورة المدثر .

(٢) محمّد ص ٢٦ .

جبريل : " وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ . وَخُفِّصْ جُنَاحَكَ
لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (١) . " وَقُلْ إِنِّي أَنَا
النَّذِيرُ الْمُبِينُ . . . فَأَصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعِزِّضْ عَنِ
الْمُشْرِكِينَ (٢) "

" يرتفع عنه الوحى "

محمد : " كالمخاطب لنفسه " سأصدع بما أمرت ، سأصدع
بما أمرت " (٣)

" ينهض "

(٤) وفى المنظر السادس عشر من الفصل الأول، يصور الحكيم
الرسول عند غار حراء محزوناً يدعو ربه ويستعين به ، ويدعوه أن يبعث إليه
وحيه ، بكل ما سألت به قريش يهدمها طالت غيبته ، حتى شق على
الرسول ما يرجف به أهل مكة ، كما يصور الوحى وقد نزل على الرسول
بمد هذه الغيبة فيراء الرسول فينتلئ قلبه فرحاً . .

محمد : " وحيداً فى بلا يستعين ربه " أى رب . .
إليك أشكو بلائى . . . أى رب . . ! ابعث
الىّ وحيك . . ابعث الىّ وحيك ! . . لقد
سألونى عن الروح ، ولا أعلم بى أجيب . . أى رب
. . أنسىنى ؟ اللهم انى لفى بلا ! . . اللهم
انى لفى بلا ! . .

" يسمع صوتاً فيرفع رأسه فيرى جبريل فينتلئ قلبه

فرحاً ويصيح . . . "

محمد : جبريل ! . . جبريل ! . .

(١) الآيتان : ٢١٤ ، ٢١٥ من سورة الشعراء . (٢) الآيتان : ٨٦ ، ٨٧ من
سورة الحجر . (٣) محمد ص ٣٠ .

جبريل : محمد ! ..

محمد : جبريل ... لقد احتسبت على ما " جبريل " حتى سوت ظنا ! ..

جبريل : " وَمَا تَنْتَظِرُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِي رَسُولٍ وَمَا خَلْفَهُ وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا (٥) وَلَا تَقُولَنَّ لشيءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ عَدَاً إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ وَادْكُرْ رَبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَى أَنْ يَهْدِيَنِّي رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَذَا رَشَدًا (٦) " وَمَسْأَلُكَ عَنِ السَّاعَةِ (٧) قُلِ الرُّبُوعُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا (٨) "

(٥) وفي المنظر الثالث عشر من الفصل الثاني ، يصور الحكيم الرسول وقد غاظه ما فعلته قريش بجثة عمه حمزة ، ومقر هند بنت عتبة بطنه ... فيقسم لئن ظفر بهم ليمثلن بهم ، وفي هذه الحالة التي عليها الرسول من الغيظ والغضب والحقد ، يهبط عليه جبريل بوحى السماء ، يدعوهُ الى الصبر ..

محمد : " ناظرا الى جثة حمزة البقرة " والله لـولا أن تحزن " صفة " وتكون سنة من ممدى لتركته حتى يكون في بطون السباع وعواصل الطير ، ولئن أظهرنى الله على قريش في موطن من المواطنين لأمثلن^(٥) مثلكم رجلا منهم ! ..

المسلمون : " في حزن وغيط " والله لئن أظفرننا الله بهم يوما من الدهر لنمثلن بهم مثله لم يمثلها أحد من العرب ! ..

(١) الآية : ٦٤ من سورة مريم (٢) الإيتان : ٢٣ ، ٢٤ من سورة الكهف (٣) الآية : ٨٥ من سورة الأسراء (٤) محمد ص ٥٤ (٥) مَثَلًا وَمَثَلًا : تَكَلَّمَ بِهِ بِجِدِّهِ أَنْفَهُ أَوْ قَطْعَ أَدْنَاهُ أَوْ غَيْرَهَا مِنَ الْأَعْضَاءِ .

جبريل : " يهبط على محمد " .. " وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا
بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ .
وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ
فِي ضَلَالٍ مِمَّنْ يَمْكُرُونَ " (١)

محمد : " لأصحابه " الصبر خير لنا ! .. اصبروا ، ولا
تثقلوا بأحد ! .. (٢)

(٦) وفي المنظر الثامن عشر من الفصل الثاني : يصور الحكيم
الرسول ، وقد وضع السلاح هو والمسلمون بعد غزوة الأحزاب ، فيُنزل
عليه جبريل ، مُخْبِراً إياه ، أن الملائكة التي حاربت معه لم تلق السلاح
بعد ، بل أمرا الله اليه بالذهاب الى بنى قريظة :

عَلَيْكَ : يا رسول الله ! .. أنصرف عن الخندق ونفزع
السلاح ؟ ..

محمد : نعم ..

" وفجأة ينزل عليه الوحي "

جبريل : أوقد وضعت السلاح ؟

محمد : نعم ! ..

جبريل : ما وضعت الملائكة السلاح بعد .. ان الله يأمرك

بإمحاء أن تدير الى بنى قريظة فاني عامد

اليهم فزلزل بهم حصونهم .

" يصبح جبريل " (٣)

(١) الآيتان : ١٢٦ ، ١٢٧ من سورة النحل .

(٢) محمد ص ٢٠٢ ، ٢٠٣ .

(٣) المصدر السابق ص ٢٢٥ .

(٧) وحين يخطط الأمر في قصة الافك ، ويقف الرسول حائراً بين التصديق والتكذيب يتدخل الوحي لينقذ النبي من حورته ، ويُنزل جبريل ببراءة عائشة .. ففي المنظر الخامس من الفصل الثالث ، يصور الحكيم السيدة عائشة وقد انهمرت دموعها ، ورسول الله يطهل النظر اليها مشكراً ، وفجأة تأخذ غشية ..

- أبو بكر : " همسا ، وهو مسرع اليه " الوحي ! ..
 " ثم يسجيه بشوّه ، ويضع تحت رأسه وسادة .. "
- عائشة : " في دَهْشِي " الوحي ! ..
 زينب : " في رجفة " اللهم غفوك ورضوانك ! ..
 عائشة : " كالمخاطبة نفسها " الوحي ؟ .. من أجلسي ؟ !
 وأيم الله لأنا أحقر وأصغر شأنًا من أن ينزل الله فيّ قرآنًا يقرأ ويصلى به في المساجد ! ..
- أبو بكر : " في رجفة " اللهم رحمتك ! ..
 عائشة : " في صوت خافت " لماذا تغرقان هذا الفسرق ؟
 فوالله ما أفزع ، فاني أعرف اني بريئة وأن الله غير ظالمٍ ! ..
- أبو بكر : " وهو لا يبعد عن النبي بنظره " رحاك اللهم ! ..
 عائشة : " اتخشيان أن يأتني من الله تحقيق ما قال الناس ؟ .. "
- أبو بكر : صه ! ..
- زينب : " وقد رأت النبي يتحرك " صه ! ..
 محمد : " يسرى عنه ، ويجلس ويسبح المرقع عن جهنمه " !
 أيشري يا عائشة ! .. فقد أنزل الله براءتك ! ..

عائشة : " صائحة " لبي الحمد ! لبي الحمد ! ..
 زينب : " تتنفس في فرح " الحمد لله ! ..
 أبو بكر : " رافعا يديه الى السماء " لك الحمد اللهم !
 محمد : " يتلو " إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْأَحْكَامِ حُبَّةً مِّنْكُمْ لَا تَخْصِمُوهُ
 شَرًّا لَّكُمْ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ لِكُلِّ أُمِّيٍّ مِنْهُمْ مَا اكْتَسَبَ
 مِنَ الْأَثَمِ وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ (١) (٢)

وإذا كان الوحي هو سمة النبوة والرسالة ، أو بمثابة أخرى : هو
 الفصيل الذى يفصل بين البشر الماديين والبشر الذين اختارهم الله
 رسلا ، فإن الحكيم قد استطاع أن يعبّر عن هذه السمة - سمة الوحي -
 حين أبرزها فى هذه المناظر وتلك المصاحف التى أشرنا إليها آنفا ..

والحكيم حين عبّر عن هذه السمة لم يمتنع كل صور الوحي ، ولم
 يستقص كل المرات التى هيّط فيها على الرسول عليه السلام على امتداد
 ثلاثة وعشرين عاما .. بل اختار من هذه الصور ومن تلك المرات -
 أثار نفسه وحرك أحاسيسه ، وأيقظ عاطفته ، فلم ير بدا من أن يصورها -
 ويمبّر عنها ..

فأول منظر منها ، يمثل أخطر هبوط لجبريل عليه السلام على محمد
 صلى الله عليه وسلم ، وأهم اتصال بين الأرض والسماء منذ أمد طويل ،
 به تفتتت معالم الحياة ، وبعد وقت انتصرت فيه الوثنية على التوحيد

(١) الآية : ١١ من سورة النور .

(٢) محمد ص ٢٤٤ و ٢٤٥ .

وطلب الظلام النور ، وساد الظلم على المدل ٠٠٠ بالإضافة الى ما يمكنه
هذا الاتصال من تأثير الروح على المادة وتحولها الى شيء آخر ٠٠٠
تحويل البشر العادى الى بشر رسول ٠٠٠ وما يحيط بهذا الاتصال
من قوة ووهبة تستمدان من المبدأ الأعلى ٠٠ كل هذه المعانى والخواطر
هزت عاطفة الحكيم ، فمير عنها فى هذا المشهد المثير ! ٠٠



وثانى منظر منها ، يصور خديجة ، وقد جلست بجوار الرسول تطمئنه
وتشد أزره وتعينه على ما داخل نفسه من رعب وخوف اثر نزول جبريل
عليه ، وتحاول أن تلقى فى نفسه أن ما جاءه ليس بشيطان رجيم بل
ملك رحيم ٠٠ وأرادت أن تبرهن للرسول على صدق ظنها ، فتضع خمارها
مرة ، وتلقيه أخرى ، فيرى الرسول جبريل فى الأولى ولا يراه فى الثانية ٠٠
ويخبرها الرسول بذلك فتشبهه أن الذى يأتيه ملك وليس بشيطان ٠٠ ونسى
هذه المرة هبط جبريل على الرسول بلفه أن الله اختاره رسولا يبلغ
الناس دعوة ربه ٠٠

ولا شك أن هذا المنظر قد أثار فى نفس الحكيم الكبير —
الأحاسيس والانفعالات ، فقد أثار فى نفسه اخلاص المرأة — حين تخلص —
وشقتها فى صدق زوجها ، ومحاولة تشجيعها اياه فى الوقت الذى يحتاج
فيه الى مثل هذا التشجيع وسنحه الثقة فى نفسه ، حتى يستطيع أن يواجه
ما يقابله من عقبات وصعوبات ٠٠٠ كما أثار شك الرسول فى نفسه وخوفه
أن يكون ما جاءه نوعا من الجن ٠ أثار هذا فى نفس الحكيم معانى
كثيرة تدور حول صدق الرسول فيما يخبر به من النبوة ، والرسالة ،
وفيا بلفه عن ربه ، ولو كان دَعِيًّا كاذبا ، لما شكَّ حتى استيقن ، ولا جزع
حتى اطمئن ٠٠

هذه المعاني وتلك الخواطر أحس بها الحكيم فعبّر عنها فكان
هذا المنظر ..



وثالث منظر منها : يصور الحكيم فيه الأمر النازل من الله إلى محمد
بإعلان الدعوة ، وفي الوقت نفسه يصور بداية المعركة بين الحق والباطل ..
ولا شك أن هذه بداية لها أثرها وخطرها .

ورابع منظر منها ، وهو الذي يصور فيه الحكيم الرسول محزوناً
في غار حراء - وقد أبطل عنه الوحي - يدعو به أن يرسل وحده
حتى يستطيع أن يرد على أولئك المشركين الساخرين .. فإذا بالوحي
ينزل عليه فيطأه الرسول فرحاً مسروراً .. ولا شك أن هذا الموقف
المؤثر قد أثار في نفس الحكيم الاشفاق والمطف على الرسول الكريم ..
كما أثارها في نفس كل قارئ ، فعبّر عنها في هذا المنظر الفريد .



..... وسابع منظر منها ، وهو الذي يصور ما كان يعتري الرسول
من حيرة واضطراب ، وشك وقلق ، وتردد بين ثقته في زوجه بما يعرفه
عنها ، وشكه في الأمر لما يسمح من أحاديث الافك .. إلى أن يجيئ
الوحي ببراءة السيدة عائشة فيزيل ما في نفس الرسول من غم وحزن
واضطراب وشك .. لا شك أن هذا الموقف المثير لمختلف المواطنين
المحرك لشتى الانفعالات جدير أن يحظى باهتمام الحكيم فيعرضه نفس
هذا المنظر المؤثر البالغ التأثير !!

وهكذا نجد أن كل منظر من هذه المناظر، وأن كل موقف من تلك
المواقف، قد ترك في نفس الحكيم أثراً بالفاً واحساساً قوياً به .. فكان

اختياره له وتمجيده عنه نتيجة هذا الأثر وهذا الاحساس.

ب - التهليخ :

وإذا كان الوحي هو السمة التي تميز البشر الرسول عن البشر
المادى ، فان تهليخ الدعوة التي كلف بها الرسول ، هو السمة الأولى
التي يجب أن يتسم بها الرسول ، وأن يقوم بها على خير وجه وأكمله .

ولقد قام الرسول محمد صلى الله عليه وسلم بتهليخ الدعوة التي
كلف بها ، وأمر بتهليخها على خير وجه وأكمله ، ولما لاقى رسول الله صلى
الله عليه وسلم في سبيل تلك الدعوة ما لاقى من صنوف الأذى والهـلاـكـة
والمنـة ، وصادفته عقبات وصعوبات في سبيل نشرها وإظهارها ، واحتصل
في سبيل تقييدها والتكسين لها من ألوان الجهاد ما احتل ، ولقد تشـل
ذلك وأضحا طوال حياة الرسول صلى الله عليه وسلم ، سواء في مكـة
أو في المدينة .

ولقد عنى الحكيم بإمراز هذا الجانب - أعنى جانب التهليخ -
والتقى عليه كثيرا من الأضواء بل جلاه في مناظر متعددة ، وأنماط مختلفة .
ولا شك أن جانب التهليخ يمثل الجزء العام في حياة الرسول - أي رسول -
ويلقى الضوء على الصراع الدائر بين الحق والباطل والخير والشر ، ويكشف
عن قضية هذا الصراع الذي لا يظهر في زمن دون زمن . بل يستند
عبر الزمن كله من أوله إلى آخره .

ولقد تنبع الحكيم هذا الجانب من جوانب شخصية محمد الرسول ،
وعبر عنه في صور متلاحقة ومناظر متعددة ، منذ أول عهده بالرسالة حتى

آخر عهده بالدنيا ، مبتدئا بدعوة أهله وعشيرته الأقربين .. ومنتهيها بدعوتهم الملوك والأمراء الى هذا الدين الحنيف .. رأسا بين البدايات والنهاية صورا وأنماطا مختطفة لتبليغ الدعوة التي قام بها الرسول الكريم .. صورا وأنماطا مختطفة لصنوف العنت والايذاء التي لقيها الرسول الكريم رحمه الكرام ... صورا وأنماطا لألوان السخرية والاستهزاء التي قوبل بها النبي صلوات الله عليه هو وصحابته، وصورا وأنماطا لألوان الممارك والحروب التي خاضها الرسول في سبيل هذا التبليغ ... سواء في هذا كله ، أكان من جانب المشركين ، أو اليهود ، أو النصارى ، أو المنافقين .

ولا يستطيع البحث أن يستعرض كل تلك الصور ولا كل هذه المناظر التي كشفت عن هذا الجانب والتي أبرزها الحكيم في كتابه .. بل حسبه أن يشير الى بعض تلك الصور للتدليل على غاية الحكيم بإبراز هذا الجانب .

(١) في المنظر السابع من الفصل الأول ، يصور الحكيم الرسول وقد وقف على جبل الصفا يدعو قومه وعشيرته الأقربين الى هذا الدين الجديد ، كما يصور سخرية عمه أبي لهب منه ومن دعوته ، ومحاولته صرف الناس عن الاستماع اليه .

محمد : " .. يتجه الى الناس مناديا " يا معشر قريش !

" يهملون ويجمعون اليه وفي مقدمتهم عمه أبو لهب " .

أبو لهب : مالك يا محمد ؟ ..

محمد : ادنوا مني أكلبكم ! ..

قريش : تكلم .

محمد : أرايتم لو أخبرتكم أن خيلا بسفح هذا الجبل أكرمتم

تصدقونني ؟ ..

قریش : نعم . أنت عندنا غير متهم ، وما جهننا عليك كذا قط .
محد : اذن فاسموا .

قریش : قل ! ..

محد : انى نذير لكم بين يدي عذاب شديد ! .. يا " بنى
عبدالمطلب " يا " بنى عبد مناف " يا " بنى زهرة " .
يا " بنى تميم " يا " بنى مخزوم " يا " بنى
أسد " ! .. ان الله امرنى ان أنذر عشيرتسى
الأقربين وانى لا أملك لكم من الدنيا منفعة ، ولا من
الآخرة نصيبا الا أن تقولوا : لا اله الا الله .

أبولهب : تَهَالِكُ سائر هذا اليوم ! .. الهذا جمعتنا ؟ ! ..

الناس : " ساخرين " : الهذا جمعتنا ؟ ! ..

أبولهب : ثفروا - أيها الناس - عن هذا المجنون الضال !

محد : ما أعلم انسانا فى العرب جاء قومه بأفضل مما جئتمكم
به ، وقد جئتمكم بخير الدنيا والآخرة ، وقد أمرنى ربي
ان أدعوك اليه ، فأياكم يؤازرنى على هذا الأمر ؟ وأن
يكون أخى روصى وخليفتى فيكم ؟ ..

قریش : تهتمد عنه ساخرة " لا أحد ! .. لا أحد ! ..

أعرابى : نعم ! .. لا أحد يؤازرك على هذا ، حتى ولا كلب
الحى !

عليّ : " يتقدم ويصبح بصوته الصغير " أنا يا رسول الله
عونك ! .. أنا حبيب على من حاربت !

أعرابى : " مشيرا الى عليّ " انذا كل جيشك يا محمد ؟ !

" يضحك ويضحك معه الناس "

أبولهب : " للصي على " تهالك ولمن اتهمت ! ..

الأعراسى : دع الصبي فهو لا يَقْفُهُ ما يصنع ! ..
أبولهب : تَهْلِكُهُمَا من ضَالِّكَيْنِ ! .. (١)

وهكذا يهضى الحكيم فى تصوير هذا المشهد الذى يصور أول صدام بين الدعوة وأعدائها الذين أعلنوا الحرب عليها وعلى صاحبها وعلى مَنْ اتبعها منذ اللحظة الأولى لإعلانها ! ..

(٢) وكما يصور الحكيم الرسول وقد جهر بدعوته ، لا يحميا بمسار يلقيه من استهزاء وسخرية ، كما حدث فى المنظر السابق ، فإن الحكيم فى المنظر التاسع من الفصل الأول ، يصور قوة إيمان الرسول بدعوته وثقافته فى إبلاغها ، ولو كان فى ذلك هلاكه ..

تلك القوة التى استهانت بكل عروض الدنيا فى مقابل ترك هذه الدعوة ، بل استهانت بكل ضروب السخرية والأذى .

تلك القوة شدت الحكيم فمبر عنها فى هذا المشهد ، الذى جاء فيه زعماء قريش يطلبون من أبى طالب أن يكف ابن أخيه عما هو بآخيه فيه من أمر الدعوة ، والا أجمعوا على فراقه وعداوته .

ويتترك هذا الموضع فى نفس أبى طالب حزنا وغيرة ، فيطلب ممن ابن أخيه أن يبقى عليه وعلى نفسه ، والا يحمله من أمر نصرته فسوق ما يطيق .. ولكن موقف الرسول من قول عمه كان موقف الداعية الصامد الذى لا يلين بوعده ، ولا يخاف من وعيد ..

" أبو طالب مطرق مفكر محزون "

محمد : " يقبل عليه " عماء ! .. مالك ؟

أبو طالب : " متغير الصوت " يا ابن أخى ! .. ان قومك قد
جاءنى فى أمر هذا الدين الذى جئت به ، وأجمعوا
على فراقى وعداوتى ، فأبغى على وعلى نفسك ، ولا تحلنى
من الأمر ما لا أطيق .

محمد : " فى قوة وعزم " يا عم ! .. والله لو وضعوا الشمس
فى يمينى والقمر فى يسارى ، على أن أترك هذا الأمر
حتى يظهره الله ، أو أهلك فيه ما تركته .
" لا يتالك فيستمبرهاكيا "

أبو طالب : " يَرْقُ له " أتتهكى ؟

" محمد يذهب منصرفا "

أبو طالب : " يناديه " أقبل يا ابن أخى .

محمد : " يتقبل " أخاذلى أنت ؟

أبو طالب : " فى عزم وقوة " كلا ، اذهب يا ابن أخى فقل ما
أحببت ، فوالله لا أسلمك لشيء أبدا . (١)

(٢) وفى المنظر العاشر من الفصل الأول ، يصور الحكيم لونا

من ألوان المناوأة ، وصورة من صور الكيد الذى لقيه الرسول ، وهو
يبلغ دعوة به ، وذلك حين يقف الرسول على منازل القحائل من بنى
عامر فى موسم الحج ، ويدعوهم الى الاسلام ، ويقف من خلفه
أبو لهب ، يسخر منه ، ويصد الناس عن دعوته .

" محمد واقف على منازل القحائل من بنى عامر فى موسم الحج "

محمد : يا بني عامر ! .. انى رسول الله اليكم ، يأمركم
أن تعبدوا الله ، ولا تشركوا به شيئاً وأن تعلموا
ما تعبدون من دونه من هذه الأنداء ، وأن تؤمنوا
بى ، وتصدقوا بى ، وتنمونى حتى أبين عن الله
ما بعثنى به !

" يأتى أبولهب من خلفه "

أبولهب : يا بني عامر ! ان هذا انما يدعوكم الى أن تخلصوا
اللات والعزى من أعناقكم وخلفكم من الجن التى
ما جاء به ، من الهدى والضلالة ، فلا تطيعوه ،
ولا تسمعوا منه ! .. " (١)

(١) وفى المنظر الرابع والمشرين من الفصل الأول ، يصور
الحكيم للقارئ لونا آخر من ألوان الأذى والاضطهاد الذى لقيه الرسول
الكريم ، وهو يبلغ دعوة ربه ، وذلك حين اتجه الى الطائف واجتمع
بسادات ثقيف وأشرافهم يدعوهم الى الاسلام - وذلك بعد أن فقد
فى مكة كل عون ونصير من أهله وذوى قبهاء ، واشتد به أذى سادة
قريش وأشرافها - فما كان من ثقيف الا أن قابلت دعوته بالاستهزاء
والسخرة .. بل أغرت به سفهاءها وعبيدها وأراذلها ، يصيحون فسى
وجهه ويسهونه ويرمون به بالحجارة حتى دميت قدماء ، فجا الى حائط
حزينا منها متعباً ، يدعو ربه ويتضرع ويرفع اليه شكواه ..
" فى الطائف ... محمد فى نفر من سادة ثقيف
وأشرافهم ، على مقربة من حائط لمتبة بن ربيعة وأخيه شيبعة
وهما فيه ينظران ... "

عتبة : " يهيمس " ما جاء به الى الطائف ؟ ..
 شيعة : ما أحسبه الا جاء يلتصق النصرة من ثقيف والمنعة بهيم
 من قومه .
 عتبة : قريش ؟
 شيعة : نعم . . . ما كان أحد ينعمه وينصره على قريش الا عمة
 " أبو طالب " فلما هلك عمة وهلك زوجته " خدة بجة "
 نالت منه قريش من الأذى ما لم تكن تطمح به في حياة
 عمة وزوجه .

عتبة : وهل تحسب ثقيفا ناصرة اياه ؟
 شيعة : ان لم تنصره ثقيف فلانصر له .
 عتبة : " يلتفت الى ناحية القوم " انظر يا شيعة . انه جلوس
 الى أشراف ثقيف يدعوهم الى ربه الذي يحدث عنه . .
 وما أرى في وجوه القوم الا استهزاء به وما يقول ! ..
 شيعة : " ينظر " اسمع ! .. هذا مسعود بن عمرو يدنونه !
 مسعود : " يدنو من محمد " اني أمرك^(١) ثياب الكعبة ان كان
 الله أرسلك . .

شيعة : هذا أيضا " جَدُّ يَالِيلُ بْنُ عَمْرِو " يدنو منه ! ..
 جَدُّ يَالِيل : " يدنو من محمد " : أما وجد الله أحدا يرسله غيرك ؟

" محمد يقوم وقد يش منهم "

(١) بالتشديد بمعنى أَكْثَرُ ، وَأَمْرُكَ - كَيْفَ تَصْرُفُ : أَوْفَى ، وَالْأَوَّلُ أَنْسَبُ .

عتبة : انظر يا شبة انه قد قام ! ..
شبهة : ما أراه الا يائسا حزينا ! ..

" صياح وأصوات "

عتبة : ما هذا الصياح ؟ .. " ينظر " انظر ! .. هؤلاء
ناس وعبيد يصيحون به !

شبهة : " ينظر " ما أحسب الا أن القوم قد أغروا به سفهاً هم
وعبيدهم يسبونهم ويصيحون به ! ..

عتبة : انظر ! .. لقد اجتمع عليه الناس ، وهو لا يستطيع
منهم فرارا ! ..

شبهة : ما أرى الا أنه سيلقى منهم أذى كثيراً ! ..

عتبة : لقد ألجأوه الى حائطنا ! ..
شبهة : أجل ، ها هو ذا يسقط اعياء ! ..

.....

عتبة : أى هوان لقي هذا الرجل من أهل الطائف !

شبهة : اتحركت له رحمتك يا عتبة ؟

عتبة : " ينظر اليه " اسمح ! اصغ ! .. انه يقول شيئاً ! ..

محمّد : " وقد اطمأن قليلاً بعد ذهاب الناس عنه " : " اللهم

اليك أشكو ضعف قوتى ، وقلة حيلتى ، وهوانى على

الناس ، يا أرحم الراحمين ! .. أنت رب المستضعفين ،

وأنت ربى .. الى مَنْ تَكَلِّمُ ؟ .. الى محمّد

يَتَجَهَّمُ^(١) ، أم الى عدو ملكه أمرى ؟ .. ان لم يكن

(١) جهمه وتجهمه : استقبله بوجه كريمة .

بك على غضب فلا أبالي .. ولكن عافيتك هي أوسع
لى .. (١)



لا شك أن الحكيم قد أحس بالدور الذي قام به الرسول الكريم
في سبيل تلميح دعوة ربه ، بل تأثر وانفعل بما لقي الرسول في سبيل
هذا التلميح من أذى واضطهاد وعنت وارهاق وسخرية واستهزاء ، فـراج
يمبر عن احساسه وتأثره وانفعاله بهذه الصور والمشاهد التي يراها القارئ
بهشوة في كتاب " محمد " والتي اخترنا منها آنفا بعض الصور والمشاهد ..

ولعل القارئ يستطيع أن يلمس مدى الاحساس والتأثر والانفعال
الذي عاشه الحكيم ، وهو يستمض تاريخ كآح الرسول وجهاده في سبيل
الدعوة ... لعل القارئ يستطيع أن يلمس هذا كله من الصور والمشاهد
التي اختارها الحكيم ، وحسب القارئ المنظر الأخير ، من المناظر التي
اخترناها - آنفا - وهو الذي يصور ما لاقاه الرسول من أذى وسخرية وهو
يدعو ثقيفا للإسلام ، فما يكاد القارئ ينتهي من قراءة حتى يمتلئ قلبه
أسى وألما على ما لقي النبي من أذى وهوان وعذاب ، وقيل أن يمتلئ
قلب القارئ بهذا الأسى والألم امتلاهما قلب الحكيم ، وهذا نموذج من
 تلك المناظر المؤثرة التي قدمها الحكيم في هذا الكتاب ..



حـ - المعجزات والخوارق :

والحكيم الأديب الفنان - الذي كتب " شهرزاد " و " ابن ميمون " -
وانفعل بما فيهما من أساطير - انفعل أيضا بما تتأثر في بعض كتب

السيرة من أخبار وروايات تدور حول شخصية الرسول ، تصور وقوع خوارق ومعجزات على يد الرسول الكريم ، بل استهوت الأخبار والروايات التي تصور وقوع خوارق ومعجزات قبل ميلاده وبمبعثه ، تنشر بمولده وقرب بمبعثه .

ووجد الحكيم في هذه الأخبار والروايات مجالا طليقا يخلق فيه الخيال ، بما تفتح أمامه من عوالم فُصَّاحٍ ، كما وجد فيها أيضا مادة يشرى بها الأدب ، وتشير في القلب المتفتح مختلف العواطف والأحاسيس ، وترضى النفس التي تعمل الى هذا اللون من الأخبار وتستريح له .

وجد الحكيم في تلك الأخبار والروايات هذا كله . . فأطلق قلمه من عقاله يصورها ويعبر عنها .

(١) ففي المنظر الأول من المقدمة ، يحدثنا الحكيم عن علامة من تلك العلامات التي سبقت ميلاد الرسول ، إذ يصور يهوديا وقف على أطيه^(١) يمشرب هاتقا يتقومه مشيرا الى السماء ويقول : طلع الليلة نجم أحمد .

" على أطيه يمشرب . . الوقت ليل "

يهودى : " يصرخ بأعلى صوته " ياممشر يهود !

" جماعة من يهود يقبلون ويجمعون اليه "

الجماعة : " ويلك ! . . مالك ؟ . . "

اليهودى : " يشير الى السماء " انظروا ! . . انظروا ! . . "

الجماعة : " يتظلمون الى السماء " ماذا ؟

اليهودى : " يشير الى السماء " . . طلع الليلة نجم أحمد ! (٢) .

(١) الأطام - يتكون الطاء وضما - : الحصن والهيئ المرتفع .

(٢) محمد ص ٦ .

(٧) وفي المنظر الثاني من المقدمة ، يصور الحكيم قصة بشارة
عبدالمطلب بمحمد ، وقد جاءت عبدالمطلب بها امرأة تخبره بأمر عجيب
رأت آمنة حين خرج محمد منها ، فقد رأت آمنة نورا خرج منها ،
ويخرج عبدالمطلب ، ويرى فيها روت له المرأة تأويلا للرؤيا التي رآها .
"عبدالمطلب بجوار الكعبة "

امرأة : " تجرى نحوه عصي " : أبشر يا عبدالمطلب !
أبشر ! ..

عبدالمطلب : ماذا ؟

المرأة : جاءت آمنة بولد ، لا ككل ولدان ! ..

عبدالمطلب : ولدت ؟

المرأة : لقد نظرت - وهو يخرج منها - أن قد خرج
منها نور ، رأيت به قصور يصرى من أرض الشام !!

عبدالمطلب : " في فرح " انها والله للرؤيا التي رأيت *
هللى بنا !

المرأة : أى رؤيا ؟

عبدالمطلب : ألم أر فى منامى ، كأن سلسلة من فضة خرجت
من ظهري ، لها طرف فى السماء ، وطرف فى
الأرض ، وطرف فى المشرق ، وطرف فى المغرب ،
ثم كأنها شجرة ، على كل ورقة منها نور ،
واذا أهل المشرق والمغرب كأنهم يتعلقون بها
ويحمدونها ؟ ! * (١)

واذا كان الحكيم قد صور - فيما أوردناه آنفا - بعض الخوارق التي وقعت قبل مولده أو صاحبة له ، فإنه صور أيضا بعضا من هذه الخوارق التي وقعت بعد مولده وقبل ممته

(١) ففي المنظر الثالث من المقدمة يحكي الحكيم ما نقله "طيفة" المرضعة للنساء في سوق "عكاظ" عن محمد وعن البركة التي مستهم صاحبهم بطول محمد عندهم :

"في سوق عكاظ . . . طيفة" موضع
 "محمد" بين نسوة وهي تحمله على
 صدرها وعلى مقربة منها : أتاها وشاة لها"

أحدى النسوة : من هذا الصبي ؟
 طيفة : هو يتيم لا أب له ولا مال !
 المرأة : أنا لنرجو أن يكون بهاركا
 طيفة : انه لكذلك ، ولقد رأينا بركته ..
 المرأة : كيف ذلك ؟
 طيفة : كنت لا أرى ابني من لبني ، فهو وابني الآن
 يرويان ، ولو كان معهما ثالث لروى ! .. لقد
 أمرتني أمه أن أسأل عنه !! " (٢)

وتذهب طيفة هي والنسوة الى عراف بالسوق ينظر في وجه
 محمد ويقول : ابن من هذا ؟

طيمية : هو يتيم لا أب له !
 المصّاف : " يصح " يامعشر هذيل ! .. يامعشر العرب ! ..
 " يجتمع اليه الناس من أهل الموسم "
 الناس : مالك ؟ .. مالك ؟ ..
 المصّاف : اقتلوا هذا الصبي !
 طيمية : " تتسلّم بمحمد " : واللداء !
 الناس : " يلتفتون ولا يرون شيئا " أى صبي ؟
 المصّاف : " يلتفت حوله باحثا عن طيمية " هذا الصبي ..
 اقتلوه ! .. اقتلوه ! ..
 " الناس لا يرون شيئا " (١)

(٤) وفي المنظر الرابع من المقدمة ، يصور الحكيم بحيرى الراهب
 ينظر من صومعته الى ركبة مقبل ، وقد رأى غمامة تظلل محمدا ، وقد
 كان فى الثانية عشرة من عمره ، وهو فى رحلته الى الشام مع عمه أبى
 طالب ... ويرى بحيرى فى تظليل الغمامة محمدا آية على قرب زمان
 النبى الذى أظلل الناس زمانه .

" صومعة " بحيرى الراهب ، يهضرى من
 أرض الشام "

بحيرى : " ينظر من صومعته الى ركبة مقبلين " هذا
 ركبة تجار قرىش .. عجا !
 ماذا أرى فيه ؟ .. قد تغيّر هذا العام ؟ كثيرا
 ما يهرون بى فلا أرى ما أرى !
 " ينهض اليه خادمه نسطاس "

نسطاس : ماذا ترى ؟

بحيرى : انظر تلك الغمامة التى فوق القوم ! ..

نسطاس : " ينظر " .. نعم ! .. انها تظل غلاما
بين القوم ! ..

بحيرى : هذه الغمامة لا تظل الا نهبيا ! ..

نسطاس : نهبيا ؟ .. أتري هو الذى حَدَّثْتَنِي عنه ؟

بحيرى : أكبر ظنى .. لقد آن أوانه ! .. " (١)

ولا يكفى الحكيم بما أورد من خوارق ، وصوّر من معجزات
وقعت قبل ولادته أو معها أو قبل مجيئه - كما سبق أن قلنا - بل
أن الحكيم ليورد من تلك الخوارق ما وقع على يديه بعد مجيئه - صلى
الله عليه وسلم - ويكفى أن نورد واحدة منها عما صوره الحكيم قس
مناظر ومشاهد ..

(٥) فى المنظر السادس والثلاثين من الفصل الأول ، يروى
الحكيم قصة "أم معبد" مع الرسول ، إذ مرّ عليها وهو فى طريق هجرته
الى المدينة ومعها أبو بكر ، وقد كان عندها شاة مجعدة ولا لبن بها ،
فمسح الرسول على ضرعها فَتَجَاعَتَ (٢) الشاة وَاجْتَرَّتْ وَدَرَّتْ ، ويأتى "أبو معبد"
فيدهش حين يرى اللبن فى الإناء ويسأل :

أبو معبد : عجا .. من أين لكم هذا والشاة عازبة ،
ولا حلبة فى البهت ؟ ..

(١) محمد ص ١٠ .

(٢) فتحت ما بين رجلها .

أم معبد : لا والله .. الا أنه مرّ بنا رجلٌ مبارك ، ما
 مسح ضرع الشاة بدهه حتى شاجت وأدرت واجقرت ،
 وأنته له بالاناء فحلب فيه ^(١) ثَجًّا الى أن غلبه
 الثَّمَالُ ^(٢) فسقاني فشربت حتى رويت ، وسقى صاحبه
 حتى رويًا ، وشرب هو آخرهم ! ^(٣) .

ويستطيع القارئ أن يجد أمثال هذه الخوارق في مناظر أخرى
 صورها الحكيم في غير موضع من الكتاب .

(٦) ففي المنظر الحادى عشر من الفصل الثانى ، يروى الحكيم
 قصة عُمَيْرَ بْنِ وَهَبٍ ، ويذكر فيها أن الرسول قد علم في المدينة حديث
 اثنين يتسارآن بمكة ، ولا ثالث لهما ، وينتهى حديثهما بأن يرحل أحدهما
 وهو عمير بن وهب الى المدينة ليقتل الرسول ، فاذا جاء محمداً فاجاء
 بما دار بينه وبين صديقه ، ولا ينتهى الحكيم قصة عمير الا وقد صلب
 اسلامه ، اذ يكشف من إخبار الرسول له بما دار بينه وبين صديقه ،
 أنه رسول حقا ، وأن الذى أطعمه بذلك انما هو الله ^(٤) .

(٧) وفي المنظر الثلاثين من الفصل الأول ، يصور الحكيم قصة
 الفضل الذى ظهر خلف الرسول ، فيخافه أبو جهل ويخشى أن يأكله ،
 وذلك حين جاء اليه الرسول يطلب منه أن يدفع ما عليه من دين للرجل
 الأراشى الذى استمان برسول الله فى الحصول على حقه من أبى جهل ^(٥) .

(١) ثجا : انشبالا هوانصبابا .

(٢) الثمال : جمع ثماله .. أى : الرغبة - مثلثة الراء .

(٣) محمد من ١٢١ . (٤) انظر المصدر السابق من ١٨٠ : ١٨١ .

(٥) انظر المصدر السابق من : ٩٩ و ١٠٠ .

(٨) وفي المنظر السابع عشر من الفصل الثاني ٠٠ يروى الحكيم قصة الصخرة التي شق على الصحابة كسرها حين خفر الخندق فيدفعون بها إلى الرسول ، ويضربونها الرسول ثلاث ضربات طمع من خلالها أضواء ، يرى من خلالها قصور الشام وفارس وصنعاء (١) .

وهذه القصة والروايات التي تحكى هذه الخوارق - إن كان بعضها صحيحا ، جاءت بها روايات صحيحة - ليس هناك ما يمنع أن يقف الانسان من بعضها موقف الشك والتردد ٠٠ ولا على الحكيم من بأس أن صور كل هذا بأمانة وإخلاص ، لأنه أعلن مقدما أنه سيلتزم بما جاءت به كتب السيرة الصحيحة ، ومادامت هذه الروايات وتلك الأخبار قد أتت بها كتب السيرة الصحيحة ، فإن الحكيم لا يعنيه من أمرها شيء ، لأنه - كما قلنا - ليس مؤرخا يتمتع الأحداث والوقائع والأخبار بالتطويل والتحقيق والتفسير - بل هو أديب فنان ، اهتز بما في السيرة من أحداث ووقائع وروايات ، فراح يعبر عنها بهذه الصور وتلك المناظر ، ليمث في نفس القارئ الاحساس والانفعال اللذين شعر هو بهما ، ويشير في مشاعره الاحساس باللذة والمتعة ، وتلك هي مهمة الأديب الفنان ٠٠

٢ - محمد البشر :

ومحمد صلى الله عليه وسلم بشر قبل أن يكون رسولا ، ومحمد أن صار رسولا ، صفات البشر تجتمع فيه ، كما تجتمع في أي انسان آخر

(١) انظر : كتاب " محمد " ص ٢١٤ ، ٢١٥ .

من حب ومغف ومفرح وحزن ، وخوف وألم ، وصواب وخطأ ، ونوم وصحو . .
وتلك صفات انسانية تجتمع فى جميع أفراد البشر . .

وكما اجتمعت فيه تلك الصفات الانسانية العلية التى توجد
فى جميع أفراد البشر ، تجمعت فيه صفات خاصة نادرة ، من آداب عالية
وخلائق فاضلة ، وخصال كريمة ، تمثل الانسانية فى أعلى درجاتها ، والرجولة
فى أكل مراتبها ، من صدق وشجاعة وإيمان ، ومناقة وفصاحة وقبادة
وإدارة وساسة ، ومعاملة طيبة مع الصديق والمعدو ، والقريب والبعيد
والزوج والخادم ، الى غير ذلك من الصفات التى تعطى بها الرسول
الكريم . .

ولقد عنى الحكيم فيما عنى بإبراز بعض هذه الجوانب البشرية
وراج يصورها فى مناظر متعددة ومشاهد مختلفة . وهذه المناظر وتلك
المشاهد مبثوثة فى الكتاب كله . .

(١) فى المنظر الثانى من الفصل الأول ، يصور الحكيم محمدا
صلى الله عليه وسلم وقد أخذه خوف وروع شديدان حينما نزل عليه جبريل
عليه السلام بالوحي . .

" محمد يدخل على خديجة ، وهو
روع شديد " . .

خديجة : " تستقبله " أين كنت ؟ لقد بعثت رسلنى
طلبك حتى بلغوا مكة ورجعوا إلّى .
محمد : " مرتعدا " زملونى ! . . زملونى !
خديجة : " فى خوف " ماذا بك ؟ ! . .

محمد : زملونسى ! زملونسى (١)

« »

(٢) كما يصور الحكيم هذا الخوف والرعب حينما نزل عليه جبريل مرة ثانية .. وذلك يبدو واضحا فى المشهد الرابع من الفصل الأول .

” يبدو جبريل من جديد ، ويدنو من محمد ،

فيرتعد ، ويتصبب جبهته عرقا ”

محمد : ” مرتجف الصوت ” خديجة !

خديجة : ” تراه فتبهع اليه ” مالك يا ابن عم ؟

محمد : انسى ..

خديجة : ” فى قلق وخوف ” مالك ترتعد ؟ وما لجبهتك

يتضد عرقا ؟

محمد : دثرونى ! .. دثرونى ! .. (٢)

(٣) وكما يخاف محمد البشر الرسول عندما يحدث مغزى ، نراه

يفزع اذا ألمّ داعى الفزع والسرور ، وفق المنظر الخامس عشر من الفصل

الثالث يصور الحكيم فن الرسول حينما جاءته البشرى بمولده ولده ابراهيم ..

” النبى فى حق بالمدينة بين رهط مسكن

الناس .. ”

ابو رافع : ” يأتى وهو يجرى ويلهث ” يا رسول الله ! ..

ابشر ! .. ابشر ! ..

(١) محمد ص ٢٢

(٢) محمد ص ٢٦

- محمد : بماذا ؟ ..
 أبو رافع : ولدت لك " مارية القبطية " الليلة غلاما ! ..
 محمد : " فى فى " ولد لى غلام ؟ ! ..
 أبو رافع : نعم .. وربك قد ولد لك غلام ! ..
 محمد : " فرحا " يا أبا رافع ! .. لقد وهبت لك عبدا ! ..
 أبو رافع : " صائحا يجرى فى الناس " أبشروا أيها الناس !
 .. أبشروا ! ..
 محمد : " ينهض " أيها الناس ! ولد لى الليلة غلام !
 وانى سميت به باسم أبى ابراهيم ! .. (١) "

الجزء الثاني

(١) وكما يفرح الرسول مثانه يحزن اذا ألم به داعى الحزن ،
 ففي المنظر الثامن عشر من الفصل الثالث ، يصور الحكيم حزن الرسول
 المميق لموت ابنه ابراهيم .. فبعد أن يدفن ابراهيم يأمر برش الماء على
 قبره ، ثم لا يملك نفسه فيستعبر ياكيا ..

" تميل من عيني النبي الدموع "

اسامة : أتكى ، وقد نهيت عن البكاء ؟ ! ..
 محمد : " ياكيا " ان " ابراهيم " ابني ، وانه مات
 فى الشدى ، وان له لظفرين تكملان رضاعه فى
 الجنة ..

الفضل : يا رسول الله ! .. تهكى وأنت رسول الله ؟ !

محمد : انا أنا بشر ، تدمع المين ويخضع القلب ، ولا نقول
ان شاء الله الا ما يرضى الرب ، والله لولا أنه أجل
معدود ، ووعده صادق ، ووقت معلوم وأن آخرنا لا حق
بأولنا ، لجزعنا عليه جزعا غير هذا . . انا عليك
يا ابراهيم لمحزونون . (١)

وأشياء هذا المنظر كثيرة كحزنه صلى الله عليه وسلم على عمه
حمزة وزوجه خديجة وعمه أبي طالب .

وكما ألقى الحكيم الأضواء على بعض الصفات البشرية التي عـمـور
جانها من جوانب بشرية محمد صلى الله عليه وسلم ، من خوف وفزع وحسزن
تجلت في أفعال النبي وعصراته ، ألقى الأضواء - أيضا - على جانب
آخر من جوانب شخصية محمد البشر ، وهو محمد الرجل ، وما يحس به
الرجل من حب وميل للنساء ، وأبرز الحكيم هذا الجانب في أكثر من موضع ،
كما ألقى الأضواء على ما يدور - عادة - بين الرجل وزوجه من حديث ،
وتجلى ذلك - أيضا - واضحا في بعض المناظر .

(٥) أما بالنسبة لحب الرسول وميله الى النساء ، فانه يظهر في
المنظر الأول من الفصل الثالث ، وذلك حين يصور المنظر قلق عائشة
بعد غزوة بني المصطلق مخافة أن يكون بين الأسرى أسيرات جميلات ،
وغيرتها أن يختار الرسول منهن زوجة له . . (٢)

" عائشة فوسكتها بح خادماتها بريرة "

(١) محمد ص ٢٢٢ .

(٢) هذا كلام يدل على مرض في النفس ، وهو أشبه بكلام المستشرقين ،
والرسول وعائشة أعلى من هذه الخزعبلات التي يصورها الجاهل بمقامهما .

- بريرة : مالك ؟
 عائشة : " مطرقة " ما هي من شيء ؟
 بريرة : أنتكثبين ، وقد عاد النبي ظافرا من غزوة جديدة ؟
 عائشة : " بنى المصطلق " ؟
 بريرة : نعم !
 عائشة : " في ظلق " أجا ، يا سهايا كيرات ؟
 بريرة : نعم ، ومن بينهن ابنة سيد القوم ، وقد وقعت فسى
 سهم أحد الأنصار !
 عائشة : " تنفج أساريها " وقعت في سهم أحد الأنصار !
 اللهم حمدا ! .. " تعود الى القلق والاطراق"
 نعم .. لكن هناك أخرى .. (١)

ويحقق خوف عائشة وقلقها ، وذلك حين تدخل "جويرية بنت الحارث"
 من سهايا بنى المصطلق ، على الرسول تستمينه على مكاتبتها "ثابت بن
 قيس" الذي وقعت في سهمه .. ويراها الرسول فيعجب بها ويطلب منها
 الزواج .. ويتضح هذا واضحا في نهاية المنظر السابق ...

- محمد : " يطيل اليها النظر " هل لك في خير من ذلك ؟
 جويرية : ومن هو يا رسول الله ؟
 محمد : أفضى عنك كتابتك وأتزوجك !
 جويرية : " بخير تردد " نعم يا رسول الله !
 محمد : قد فعلت !
 عائشة : " من خلفه غير مثالكة " أتزوجها ؟

محمد : " يلتفت الى عائشة " نعم !
 عائشة : " تخفى ما بها وتبتسم " على خير طاهر ! ..
 محمد : أتكرهين ذلك ؟ ..
 عائشة : ليس لى أن أكره ما تحب
 محمد : أحببت ! ..
 عائشة : لقد حب اليك النساء ! ..
 محمد : حَبَّ الى الطيب والنساء ! (١)

(١) أما بالنسبة لتصوير ما كان يدور بين الرسول ومضى زوجاته من حديث يجرى عادة بين الرجل والمرأة فى الشؤون الخاصة بهما .. فانه يظهر واضحا فى المنظر التاسع من الفصل الثانى ... حين يصور الحكم الرسول وزوجه عائشة فى مسكنهما ليلا يتحدثان ..

عائشة : " بأسمة " جئت لك بما تحب من الطيب ! ..
 محمد : " بأسما " أتدريين ما أطيب الطيب ؟ ..
 عائشة : ما هو ؟ ..
 محمد : أطيب الطيب المسك ! ..
 عائشة : أدرى ورب محمد ، انك تتطيب بذكرارة الطيب ، والمسك والمنبر ..
 محمد : طيب الرجال ما ظهر ريحه وخفى لونه ! ..
 عائشة : " بأسمة " وطيب النساء ؟ ..
 محمد : ما ظهر لونه وخفى ريحه ! ..
 عائشة : انى أتطيب لك ! ..

محمد : انك امرأتى ! ..
عائشة : نعم .. ورب محمد انى امرأة رسول الله ! ..
..... (١)

كما يرسم هذا المنظر السابق - أيضا - لوحة لبعض الخلفاء
التي قد تحدث عادة بين الرجل وزوجه يوما يحقها من عتاب رقيق يسد
ما جرى من خلافات ، ففى خلال هذا الحديث الذى دار بينهما يجس
ذكر خديجة على لسان الرسول بما يدل على مكانتها عنده ، وتفكار
عائشة فتقول فى خديجة قولا يفض من الرسول ويرد عليها ، فتغضب
عائشة وتصح ويتدخل أبو بكر ، ويحاول أن يعاقب ابنه ويحول الرسول
بينه وبينها ويخرج أبو بكر .. ويهق الرسول وزوجه مطرقين صامتين ،
ثم لا تلبث عائشة أن تهكى ثم يعقب ذلك عتاب رقيق جميل ..
.....

" عائشة تهكى "

محمد : " يلتفت اليها " مالك يا عائشة ؟ ..
عائشة : ورب ابراهيم انسى ..
محمد : " يدنو منها ويهق لها " ألا ترين قد حطت بسنين
الرجل وهنك ؟
عائشة : وددت ورب ابراهيم انى عندك خير مما اكون ! ..
محمد : لا تغضبى !
عائشة : انى لست غصبي !
محمد : انى لأعلم اذا كت عنى راضية ، واذا كت على غصبي !

عائشة : ومن أين تعرف ذلك ؟
 محمد : " باسماء " اذا كنت غنى راضية فانك تقولين ورب محمد !
 واذا كنت على غضبي قلت ورب ابراهيم ! ..
 عائشة : " باسماء " اجل يا رسول الله ! والله ما أهجرا لا اسمك !
 (١)

وننتقل الحكيم ليلقى الضوء على جانب آخر من جوانب شخصية
 محمد البشرية ، وهى شخصية محمد القائد ، الذى يفكر فى أنجح الوسائل
 للانتصار على الأعداء .. القائد الذى يستشير رجاله ، بل ينزل عنده
 رأيهم مادام هو الرأى الصواب ، بل القائد الذى يفكر فيستقر على
 رأى ثم لا يهرى غضاضة - ان بدا غيره خيرا منه - فى أن يرجع عنه
 نزولا على رأى أحد رجاله ، وتأكيده لهدأ الشورى ، واعتدادا بأن الحلحة
 فى الأخذ به .

(٧) أما الحالة الأولى ، فيصورها المنظر السادس عشر من الفصل
 الثانى ، حين استشار الرسول أصحابه فيما يجب أن يتخذوه من خطط
 لحماية المدينة من هجوم المشركين يوم الأحزاب .. فيشير عليه " سلمان "
 الفارسى بحفر خندق حول المدينة ، ويقر الرسول هذا الرأى وينزل عليه .

محمد : نعم ! ان الموب ترمينا الآن عن قوس واحدة ! ..
 عمر : وما الرأى ؟ ...

محمد : أيها الناس .. أشيروا على ! ..
 " سلمان الفارسي يتقدم "
 سليمان : يا رسول الله ! .. ان عندى رأيا ! ..
 محمد : قل يا سلمان ! .. قل يا سلمان ! ..
 سلمان : نجمل حول المدينة خندقا ! ..
 عمر : خندقا ؟ ! ..
 سلمان : إنا - معشر الفارسيين - كنا اذا دهمنا عسدر ،
 خندقنا على أنفسنا ! ..
 محمد : "فكر قليلا " نعم الراى . . . اضربوا الخندق
 على المدينة . . . " (١)

(٨) وأما الحالة الثانية فيصورها المنظر الثامن من الفصل الثانى
 حين يختار الرسول مكانا لهزلوا فيه فى بدر ، ويصوّض عليه "الجَبَابُ" بن
 المنذر النزول فى مكان أفضل من الأول ، وينزل الرسول على رأى الجباب
 ابن المنذر .

.....
 محمد : هنا فأنزلوا ! ..

" الجباب بن المنذر يسرع الى محمد "

الجباب : نزل هذا المكان ؟ ..
 محمد : نعم !
 الجباب : يا رسول الله ! .. أرايت هذا المكان ، أمزلا أنزلكه
 الله ، ليس لنا أن نتقدمه ولا نتأخر عنه ، أم هو
 الراى والحرب والمكيدة ؟ ..
 محمد : بل هو الراى والحرب والمكيدة ! ..

الحباب : يا رسول الله .. ان هذا ليس بمنزل ، فسير بالناس
حتى تأتي أدنى ماء من القوم فننزله ، فاني عالم بها
وملكيها ، وبها قلب قد عرفت عذوبة ماءه ، لا ينزج
فتفور ما سواه من القلب ، ثم ينهي عليه حوضا ، ثم
نقاتل القوم فنشرب ولا يشربون ! ..

محمد : لقد أشرت بالرأى ! ..

الحباب : " يسير بالقوم الى القلب " هو هذا " القلب " ...
هنا فلنزل ! ..

" محمد ينزل ، وينزل معه الناس .. " (١)

١ - قيمة الكتاب وأثره :

يعد كتاب " محمد " للحكيم أول كتاب في العصر الحديث تناول السيرة النبوية في قالب مسرحي ، أو بأسلوب حوارى ، عرضت السيرة من خلاله في صور متعددة ومناظر مختلفة تمثل جوانب مختلفة من حياة الرسول الكريم منذ بدأت بشائر مولده حتى وفاته صلى الله عليه وسلم .

ولقد سبق أن أشرنا الى أن الحكيم لم يتناول كل أحداث السيرة ووقائعها ، بل اختار منها ما أثار عاطفته وهزّ كيانه ، فانفعل به ثم عبّر عنه . ولقد عرضنا نماذج مختلفة تمثل الجوانب التى اختارها الحكيم للتمثيل عنها ، والأحداث التى اختارها الحكيم من سيرة الرسول الكريم . .

ولقد بذل الحكيم فى هذا الكتاب جهدا كبيرا حين ألزم نفسه أن يتناول السيرة بهذا الأسلوب الحوارى فى ضوء ما أمامه من نصوص وردت فى كتب السيرة والأحاديث المعتمدة مثل " سيرة ابن هشام " " وأسد الغابة " لابن الأثير ، " صحيح البخارى . . " ولقد سبق أن أشرنا الى ذلك آنفا .

ومن أجل ذلك لم يستطع الحكيم أن يطلق العنان لخياله الانسى حدود ضيقة جدا ، ولا أن يعطى لقلبه الحرية الا حين يكون المتكلم شخصا أو جماعة لم تدخل فى دين الاسلام . .

وطى الرغم من هذه الحدود التى قيد فى إطارها قلمه ، تلك القيود التى حبس فى داخلها خياله . . استطاع الحكيم الأديب الفنان أن يقدم المشاهد الرائعة والصور المؤثرة من حياة الرسول الكريم ، قدّم لنا الحكيم من خلالها محمدا بشرا رسولا ، ورسم فى هذا الاطار صورا رائعة لمحمد البشر الانسان ، ومحمد الرسول العظيم . . وأبرز

الحكيم من خلال تلك الصور القدوة الحسنة والمثل الأعلى الذى يجب على الانسان المسلم أن يسير على نهجه ..

ولعل هذا الجهد الكبير الذى بذله الحكيم فى هذا المعمل الفنى الذى قدمه للقارئ من خلال كتابه " محمد " .. لعل هذا الجهد ، هو ما جعل جيلا كاملا من أدبائنا يشفقون من سلوك هذه الطريق ، لما يتطلبه هذا المعمل الفنى من جهد فى دراسة السيرة وتاريخ الاسلام وقراءة الأدب العربى .. وما يتطلبه أيضا من المام واسع وثقافة عريضة بالنواحي والجوانب الاسلامية من ناحية ، وما يقتضيه هذا المعمل - أيضا - من التزام كامل بما ورد فى السيرة ، وكتب الأحاديث من نصوص .. كما دفعهم الى الاشفاق خوفهم من الانزلاق والتردى فى الفكر - أو الرأى - ومن يتناولون أمثال هذه الجوانب التى يجب أن تحاط بمسباج من القداسة والتعظيم ، وما تفرضه تلك القداسة ويفرضه هذا التمتع من تنقيد للقيم وحبس للخيال - من ناحية أخرى ..

ومن هنا لم ير القارئ محاولة أخرى - تشبه محاولة الحكيم - تناولت السيرة النبوية بمثل ما تناولها الحكيم ، وكان يمكن للأدباء والفنانين أن يسلكوا الطريق نفسها ، وأن يدخلوا عليها من التجديد والتحسين ما يجعلها أقرب الى المسرحية الفنية بتقاعدها وأصولها المعروفة .

٢ - الشكل :

وإذا ما عدنا الى كتاب " محمد " هذا لنطلق عليه مصطلحا من المصطلحات الفنية ، أو لندرجه تحت لون من الألوان الأدبية المعروفة

نجد أن هذا الكتاب لا يمكن أن يكون سيرة ، ولا يمكن أن يكون قصة أو رواية ، ولا يمكن - أيضا - أن يكون مسرحية ، وإن كان مكتوها فـس حوار مثل الحوار المسرحى . . . والذين كتبوا عن مسرحيات الحكيم السقـى جاوزت ستين مسرحية طويلة و قصيرة ، ألفها على مدى خمسين سنة أو يزيد ، لم يذكروا من بينها هذا الكتاب .

وعلى الرغم من هذا كله ، يعد الكتاب من ناحية تأثيره فى النفوس وهزه للشعور من أرقى الكتب الأدبية الفنية الرقيقة ، ولست أدري لم يولج النقاد بمحاولة وضع أساليب الكتابة المختلفة وأنماط التفكير المتنوعة تحت أسماء مختلفة ومصطلحات متعددة ، فيسمون هذا قصة ، وذاك مقالة ، وذلك قصيدة ، وما أشبه تلك التسميات ثم يقررون أن كل ما خرج عـن أصول أى لون من هذه الألوان ، لا يسمى أدبا بالمعنى الفنى . . . أو بعبارة أخرى ، لا يصح أن نطلق عليه المصطلح الذى يتدرج تحته . . .

وإذا ما نظرنا الى كلمة " الأدب " أو الى عبارة " الفن " - على اختلاف أشكاله - نجده ذلك الذى يُحدث أثرا فى النفس ويهدهـمها الى أن تجيش بالمواطف والانفعالات المتهاينة من لذة وألم - وما بين هذا وذاك ما جاشت به من قبل نفس الأديب .

اذ لو تماثلنا " . . . ما الفن ^(١) (لكان الجواب) : هو عملية الاتصال بين عقل وعقل ، وقلب وقلب . . . هو أن يمتلى عقل الفنان وقلبه بفكرة ما ، أو شعور ما ، ثم يستطيع أن ينقل هذا الى عقل وقلب

(١) فى الأصل : " ما هو الفن " ؟ وهو تمبير خاطى " يقح فيسه كبار الكتاب وصغارهم . . . وهم لا يشعرون .

إنسان آخر ، فترتجف مشاعره لحظة قصيرة ، أو تستقر في مشاعره فترة طويلة . . . ليس الشكل أو أداة التوصيل هو الفن ، ولكن التأثير نفسى الاحساس ، وفى التفكير ، هو الفن . . . وهذا هو المقاس ، وليس هناك مقياس سواء الذى ^(١) ينهض أن نقيس به كل ما تمودنا أن نسميه فنا ! ولهمق بعد هذا ما يبقى وان كان ضئيلا . . . ولهذا هيب جفا كل ما عداه ^(٢) .

٣ - الحوار :

الكتابات المسرحية تعتمد أولا وأخيرا على الحوار ، فهو قلبها وقالبها ، والحوار هو اللغة التى يجربها الكاتب على السنة أشخاص المسرحية وأبطالها . ولا بد أن تكون هذه اللغة مطابقة تماما لمستوى ثقافة هؤلاء الأشخاص ومستوى تفكيرهم ، ومن هنا لا يصح أن يجرب الكاتب حوارا على السنة الأشخاص بلغة أعلى من مستواهم الثقافى وهم لا يعرفونها والعكس صحيح . . .

ويشترط فى هذا الحوار أن يكون سلسا ، مشوقا ، يدفع السامع أو القارئ الى تتبعه ، وأن يكون منتظما ومتسقا مع الفكرة التى يتضمنها ، ومتشبا مع نمو الأحداث وتدرجها بحيث يأخذ القارئ من فكرة الى فكرة فى اطار الفكرة العامة التى يقصدها الكاتب ، ومن هنا لا يصح للكاتب أن يقطع فكر القارئ بحوار دخل يفسد السياق ويشوه التماسل .

-
- (١) المعنا مرارا الى خطأ كلمة " فترة " فى تلك المواضع .
 (٢) كلمة " الذى " هنا مقحمة لا موضع لها ، ولكنها لغة كبار الكتاب فى العصر الحديث !!! .
 (٣) أخبار اليوم بتاريخ ١٩٧٧/٣/١٢ - من مقال بعنوان : طيف ثقافتنا ٣ - بقلم : عبدالحيد الكاتب .

كذلك لا بد أن يكون الحوار معتمداً على الكلمات المعبرة والألفاظ الموحية التى تغنى فيها الكلمة أو اللفظة عن كلمات وألفاظ ذلك لأن أسلوب المسرحية يعتمد على التركيز والإيجاز ، عكس القصة والرواية التى يعتمد أسلوبها على الشرح والتحليل والاطناب والتطويل ..



هذه كلمة لا بد منها ونحن نتمرض للحوار فى كتاب " محمد " للحكيم وإذا ما عدنا الى كتاب " محمد " نرى أن الحوار فيه قد اتسم بكل السمات التى يجب أن تتوافر فى الحوار المسرحى ..

فالحوار سلس مشوق ينتظم ويتسق مع الفكرة ، كما أنه يواكب نمو الأحداث وتدرجها - كذلك نجد لغة الحوار مليئة بالكلمات المعبرة والألفاظ الموحية بالإضافة الى تشبيهها مع لغة الأشخاص ومستواهم الفكرى ، فهى عربية فصحة بليغة أيضاً ، والذى ساعد الحكيم على ذلك ، هو أن لغة الكتاب أو لغة الحوار جرت على السنة عرب فصحاء ، لم تشبهها كلمات دخيلة أو ألفاظ غير فصحة .. ولقد قلنا سابقاً ان الحكيم اعتمد فى الحوار الذى جرى بين الأشخاص على ما ورد على ألسنتهم فى كتب السيرة والأحاديث ، خاصة ذلك الذى جرى على لسان الرسول الكريم أو أصحابه الكرام ...

ولم يتح الحكيم - بحواره الذى أجراه فى هذا الكتاب لنفسه - أن ينطلق من هذه المعالم الا فى حدود ضيقة ، حينما تكون الشخصية التى تتحاور شخصية غير اسلامية أو حين تكون شخصية خيالية افترضها الحكيم وابتدعها ، كشخصيتى ابلهين والحية ، تلكما الشخصيتين الرمزيتين اللتين أجرى الحكيم بينهما حواراً فى المنظر الثانى والثلاثين حينما اجتمع زعماء قريش

فى دار الندوة يتشاورون فى أمر محمد^(١) .. وكشخصة البلمس التى تكررت
فى غير ما موضح ، تتحدث وتداول حينما ظهرت فى شكل شيخ من نجد ..^(٢)

٤ - رأى بعض النقاد حول الكتاب :

ولقد اختلفت آراء النقاد والآدباء ازاء هذا الكتاب وتباينت مواقفهم
منه ، وانقسم الناس ازاءه قسمين : مادح وقادح ..

أما الذين مدحوه ، ولقى من جانبهم ترحيبا كبيرا ، بل عسده
مفئدا فنيا للمسيرة النبوية ، فهم المثقفون المحافظون كالأستاذ مصطفى صادق
الرافعى الذى أطراه وأشاد به ..

يقول الأستاذ مصطفى صادق الرافعى : " قرأ الأستاذ كتب المسيرة
وما تناولها من كتب التاريخ والطبقات والحديث والشمال ، بقرحة غـير
قريحة المؤرخ ، وفكرة غير فكرة الفقيه ، وطريقة غير طريقة المحدث وخيال
غير خيال القاص ، وعقل غير عقل الزندقة ، وطبيعة غير طبيعة السراى ،
وقصد غير قصد الجدل فخلص له الفن الجميل الذى فيها ، ان قرأ بقرحته
الفنية المشبهة ، وأمرها على احساسه الشمعى المتوثب واستلها من التاريخ
بهذه القريحة ، وهذا الاحساس ، كما هى فى طبيعتها السامية متجهة
الى غرضها الالهى ، محقة عجائبها الروحية المعجزة ، وقد أبدته المسيرة
بكل ما أراد ، وتطاولت له على ما اغتتهى ، ولانت فى يده كما يلـبـين

(١) انظر كتاب محمد ص ١٠٣ ، ١٠٤ ، ١٠٥ .

(٢) انظر الصدر السابق ص : ١٤ ، ١٠٥ ، ١٠٦ ، ١١٠ .

الذهب في يد صائغه ، فجاء بها من جواهرها وطبيعتها ، ليس له فيها خيال ولا رأى ولا تعبير ، وجاءت مع ذلك في تصنيفه حافلة بأبداع الخيال ، وأسمى الرأى ، وأبلغ المবারاة ٠٠٠ وجمع حوادثها المدونة ، ونصورها نفس هيتها وقوعها كما وقعت ، واستخرج القصص فأدارها حوارا كما جاءت في السنة أهلها ، وهذه الطريقة أعاد التاريخ حيا يتكلم ، وفيه الفكرة ، وملائكتها وشياطينها ، وكشف ذلك الجمال الروحاني ، فكان هو الفن ، وجلا تلك النفوس العالقة فكانت هي الفلسفة ، وأبقى على تلك الهلقة ، فكانت هي الهيان ٠٠ (١).

ثم يستطرد فيحدث عن فصاحة أسلحه وعن مزايا طريقته وهن مكانة الكتاب في الأدب فيقول : " ٠٠ ولا يرسى بالشئانة والركاكة وضميف النسق ، إذ هو فصاحة المرب الخالص ، كما رويت بالفاظها ، وقد حصنه المؤلف تحصينا لا يقتحم ، وكان في عمله مخلصا أتم الاخلاص ، وأميننا بأوفى الأمانة ، ودقيقا كل الدقة ، وحذرا بغاية الحذر ، ومن فوائده هذه الطريقة ، أنها هيأت السيرة للترجمة الى اللغات الأخرى ، ونسى شكل من أحسن أشكالها رغم هذا الزمن على أن يقرأ بالاهجاب تلك الحكاية المنفردة في التاريخ الانساني ، كما أنها قوت وسهلت فجمليست السيرة في نصها العربي كتابا مدرسيا يلينا بلاتقة القلب واللسان ، مريبا للروح ، ومرهقا للذوق ، وصححا للملكة الهيانية ، وحسب المؤلف أن يقال بعد اليوم في تاريخ الأدب العربي : ان ابن هشام كان أول من هذب السيرة تهذيبا تاريخيا ، على نظم التاريخ ، وأن توفيق الحكيم أول من هذبها تهذيبا فنيا ، على نسق الفن (٢) .

(١) وحى القلم ج٣ ص ٤٣٣ ، ٤٣٤ .

(٢) المصدر السابق ص : ٤٣٤ ، ٤٣٥ .

أما الذين قدحوه ونقدوه ، فهم المثقون المجددون - أعنى بعض المجددين - بل وهجموه وإن كان من وجهة فنية لا فكرية ، وكان من هؤلاء الناقدين الهاجمين الأستاذ اسماعيل مظهر الذى كتب فى مجلة " المقتطف " يقول : ان توفيق الحكيم لم يفعل الا أن قص الحوادث كما وقعت ، ونقل الأقوال كما قيلت بلسان أهل المصيرية الفصحح ، ولم يزد من عنده على الأحاديث فى شئ الا وظهر كالرقعة الدخيلة فى الثوب القديم^(١) .

وسهما يكن من شئ ، فحسب الكتاب أنه الكتاب الأول فى المصير الحديث فى طريقته وأسلوبه ... وحسبه أيضا أنه قدم السيرة فى صورة سهلة شائقة جلية الى النفس ، قريبة الى القلب : قلب المثقف ونصف المثقف والناس ، والدارس ... حسبه أنه قدم صورة جديدة عن شخصية محمد صلى الله عليه وسلم ، البشر والرسول ، مازجا بذلك بين المادة والروح ، وواصل الأرض بالسما ، وحسبه - أيضا - أنه الكتاب الرائد حين ساق السيرة النهرية بهذا الأسلوب وتلك الطريقة اللذين لم يسبق اليهما .

ٖٖ الباب الرابع ٖٖ

" السيرة والأسلوب الفلسفى النفسى "

من خلال

كتاب " عقريفة محمد " للمقباد

- الفصل الأول : بواعث الكتابة فى السيرة النبوية عند المقباد .
- الفصل الثانى : الفكرة والموضوع فى " عقريفة محمد " .
- الفصل الثالث : خصائص طريقة المقباد .
- الفصل الرابع : أسلوب المقباد وسماته .
- الفصل الخامس : منهج المقباد وأسسـه .
- الفصل السادس : " عقريفة محمد " فى ميزان النقد .

ٖٖ الفصل الأول ٖٖ

” بواعث الكتابة في السيرة النبوية عند العقائد ”

• بواعث عامة

• بواعث خاصة :

• الباعث الأول : الفيرة والانصاف

• الباعث الثاني : النشأة

• الباعث الثالث : التحول الفكري

بواعث عامة :

خلت المكتبة المربية بالعديد من كتب العقاد التي تهتم بدراسة الشخصيات الاسلامية ، وعلى رأس هذه الشخصيات شخصية الرسول صلى الله عليه وسلم ، فقد ظهرت للعقاد محققات : محمد والهدى - وعمر - والامام .. وقد عرفت هذه الكتب بـ " محققات العقاد الاسلامية " واشتهرت شهرة واسعة حتى صارت مجال اهتمام ودراسة صحت من الكتاب والباحثين ، كما صارت موضع اهتمام وعناية من قبل القائمين على التربية والتعليم ، حيث قرروا بعضا من هذه الكتب على طلاب المرحلة الثانوية في دور التعليم بصر ..

وبهنا أن نتحدث عن واحدة من هذه المبقيات ، هي " محققة محمد " ، مجال بحثنا في هذا الباب .

لقد ظهر كتاب " محققة محمد (١) " في وقت خلقت فيه المكتبة المربية بالعديد من الكتب التي تتناول الموضوعات والشخصيات الاسلامية ، كما ازدانت فيه " المجلات " التي كانت تصدر آنذاك بالمقالات الاسلامية ، وكانت مجلة " الرسالة " هي المجلة الرائدة في هذا المجال .

ولقد كانت شخصية الرسول صلى الله عليه وسلم وما يعمل بحياته وسيرته ، من الموضوعات التي حظيت بالتصويب الأوفى من هذه الكتابات .

ولقد كانت كثرة الكتابات في هذا المجال ظاهرة استرعت نظر كثير من الباحثين والدارسين ، وجذبت اهتمامهم ، فراحوا يحاولون تفسيرها وتوضيحها ، ويبحثون عن بواضها ودوافعها ، ومن هؤلاء العقاد نفسه ، كما سبق أن أشرنا .

(١) ظهر هذا الكتاب في طبعته الأولى سنة ١٩٤٢ .

ولعل من سهيل التذكير أن نلخص البواعث والدوافع التي ذكرها العقاد ، وكانت وراء هذه الظاهرة ، وهي بواعث ودوافع ترجع بالدرجة الأولى الى بواعث ودوافع مذهبية وفكرية ودينية .

أما البواعث المذهبية والفكرية : فانها تتصل بشيوع الفلسفة المادية وانتشارها واجتياحها العالم كلها قرن كامل ، واختار الناس بها فسى غير طائل ، وفشلها الذريع فى اقناع الناس بها بعد أن انتظروا منها التحليلات والتفسيرات التي تمهوا فى البحث عنها . . .

كان لهذا الفشل الذي مُنِيت به تلك الفلسفة ، ولهذا السراب الذي خُدِعَ الناس به الاثرُ الهائزُ فى توجيه الناس الوجهة السليمة ، وهى الرجوع الى الدين الاسلامى ، يلهمون حاجات نفوسهم منه ويغذون ارواحهم من مبادئ وآدابه وتشريعاته . . .

وكما تتصل هذه البواعث بشيوع الفلسفة المادية تتصل بظهور الحركات التنشيرية الواسعة التي قام بها صليبيو المصير الحديث فى كل مكان من أرجاء العالم المسمى ، والتي تركت أكثر فى مصر والشام . . . وزحفَت الارساليات التنشيرية عليهما كما ترحف الأفاعى الرقطة ليلا . . . كي تهتك سمومها القاتلة فى كل مكان تسير فيه .

ولقد اتخذت هذه الارساليات كافة الوسائل وشتى الطرق الملتوية المستورة تحت أسماء خداعة . . . فحلبوا للناس وصرفا لهم عن حقيقة أمرها .

كذلك تتصل هذه البواعث بظهور الحركات الشيوعية وما تحوى من كفر والحاد ومذاهب مادية ضالة ، وما أدى اليه ذلك من فزع الناس وخوفهم من هذه الأعداء الفتاكه واعتصامهم منها بالعقائد الروحية التي لا تسبغ

المذاهب المادية •

أما البواعث الدينية : فانها تتصل باللياذ بالمقيدة الدينية والرجوع اليها ، فان في اللياذ بها والرجوع اليها اعادة لذكرى مجد قديم ، هو المجد الاسلامى الذى ازدانت به صفحات التاريخ وازينست بروائه معالم الحياة ، وأضأت بما أضافه الى العالم من حضارة ، وما قدمه من علوم وآداب وتشريعات ..

فلا عجب اذا رأينا في أقطار العالم العربى والاسلامى وبغضمة جامعة دائمة في القراءة عن تاريخ الاسلام وزعماء المسلمين ، وما يرجس بهد اليوم للاسلام والمسلمين ، .. أو وجدنا حديثا دائما عن الاسلام والمسلمين .

ولا غرابة في ذلك في وقت اشتدت فيه الفارة على الاسلام وطس العالم الاسلامى ، وانتشرت الخرافات والتُرَهَّاتُ والتهم التي تُكَالُ للاسلام ولنبى الاسلام ، وتعمدت ضراوة هذه الفارة الشرسة من الأعداء المتبصين بالاسلام والمسلمين . وكان لا يحد ازله هذه الهجمات الضارية - من بقطة عربية ا سلامية تحس حس هذا الدين وتذود عن حماه ، وترجع بأبنائه اليه ، وتزيدهم حُبًّا له وحبها عليه .

بواعث خاصة :

ويتصل بهذه البواعث والدوافع العامة التي تحس شعور هذه الظاهرة - بواعث ودوافع خاصة تتصل بالمقادير نفسه وكانت وراء كتابه " عقيدة محمد " .

وحينما نحاول أن نتتبع هذه البواعث وتلك الدوافع نجد أنها ترجع إلى أنواع ثلاثة : باعث مرجعه الفيرة والانصاف ، وثان مرجعه النشأة ، وثالث مرجعه التحول الفكري في حياة المقاد .

الباعث الأول : " الفيرة والانصاف "

نستطيع أن نقول : أن " عقيدة محمد " للمقاد كانت ردّ فعل لما كان يشمر به المقاد نحو الرسول من حب وتعظيم واجلال ، فلم يكد المقاد يشمر بأن الرسول موضع طعن ومكان تطاول ومحل ثلم وتجرّح حتى شرع قلمه ليرد عن شخصية الرسول ، ويذب عن حماها ، ويذود عن حياضها أقلام المتطاولين على تلك المظنة ، والمهاترين حولها ، ممن يحلون في قلوبهم حقدا وضغينة ويُسَوِّونَ حقنا وِدْوَةً .. على الاسلام ونبيه صلى الله عليه وسلم .

ويرى المقاد أن التطاول على المظنة والاجترار عليها سنة من سمات هذا العصر وأن التطاول على المظنم والاجترار عليهم من تقاليد هذه الأيام التي أصبح للمظنة وللمعظم فيها مقاييس مختلفة ومعايير مختلفة . ظنا من أولئك المتطاولين أن الناس متساوون ولا فرق بين انسان وانسان ، وكانت شخصية الرسول الكريم من الشخصيات التي كثر حولها التطاول والاجترار من أعداء الاسلام والمسلمين ، ومن تمييز قلوبهم غيظا وحقدا .

واذا كان من الواجب على كل ذي همة وفيرة على المظنة - أيّا كانت هي - أن يدافع عنها ويتصرف لها من المتطاولين عليها ، فان من أوجب الواجبات على كل ذي همة وفيرة وإخلاص لله ولرسوله أن ينتفضي سيفه ويشرع قلمه دفاعا عن شخصية الرسول القدوة وعظمت التي لا تطاولها

عظمة .. حتى يرد اليها حقها من الفاطميين لها والمفتريين عليها ،
ولينتصف لها من أعدائها والمترفين بها .. ولهذا السبب شرع العقاد
قلمه وانتضى سيفه الذى يحارب به فكان كتابه " عبقريه محمد " اجلا
لعظمة الرسول وغيره عليها وانصافا لها ..

ولهذا الباعث قصة واقعية يذكرها العقاد فى مقدمة كتابه فيقول :
" تمود بنا هذه المقدمة ثلاثين سنة ، الى اليوم الذى سمعت فيه
اول اقتراح بتأليف كتاب عن محمد عليه الصلاة والسلام . وكنت أقسم
يومئذ فى ضاحية المباسية البحرية على مقربة من الساحة التى كانت معدة
للاحتفال بالمولد النبوى كل عام . ولنا رهط من الأصدقاء المشتغلين
بالأدب يشتركون فى قراءة كتبه العربية والافرنجية ويتدردون معا على الأحيا
الوطنية ، وقلمنا يترددون على غيرها ، فلا يزالون متقلبين بين الحمسى
الحسينى والحنى الزينبى ، أو بين منبهة القلعة وضاحية المباسية ، أو بين
الروضة والخليج .. على حسب المناسبات ، وعلى غير مناسبة فى كثير
من الأوقات ... وفى يوم من أيام المولد - والرهط يزورنى لنظم الساحة
مجتمعين فى المساء - كان الكاتب الانجليزى العظيم " توماس كارليل "
هو محور الحديث كله ، لأنه كما يعلم الكثيرون من قراء العربية صاحب
كتاب " الأبطال " الذى عقد فيه فصلا عن النبى محمد عليه السلام ،
وجعله نموذج البطولة النبوية بين أبطال العالم الذين اختارهم للوصف
والتدليل . وأنا لننذكر آراءه ومواقع ثنائى على النبى ، اذ بدرت من
أحد الحاضرين الغربة على الرهط كلمة نابية غصبتها لها واستكرناها لما
فيها من سوء الأدب وسوء الذوق وسوء الطوية . وكان الفتى الذى بدرت
منه الكلمة متحذلقا يتظاهر بالمعرفة ، ويحسب أن التناول على الأنبياء
من لوازم الاطلاع على الفلسفة والمعلوم الحديثة .. فكان ما قاله شمس

عن النبي والزواج ، وشئ من البطولة فحواه: أن بطولة محمد إنما هي بطولة سيف ودماء .

قلت : " ويحك " ما سرغ أحد السيف كما سوفته أنت بهذه القولة النابية . " وقال صديقنا المازني : " بل السيف أكرم من هذا ، وإنما سرغ صاحبنا شيئاً آخر يستحقه " .. وأشار إلى قدمه .

وارتفعت لهجة النقاش ههنا ، ثم هدأت بخروج الفتى صاحب الكلمة من الندى واعتذاره قبل خروجه وتفسير كلامه على معنى مقبول ، أو خيل إليه أنه مقبول . وتساءلنا : ما بالنا نقنع بتمجيد كارليل للنبي وهو كاتب غربي لا يفهمه كما نفهمه ، ولا يعرف الإسلام كما نعرفه ، ثم مآلني بعض الإخوان : " ما بالك أنت يا فلان لا تضع لقراء العربية كتاباً عن محمد على النمط الحديث ؟ " قلت : " أفعل .. وأرجو أن يتم ذلك في وقت قريب " (١)

وأقول - تعليقاً على قولهم : " ما بالنا نقنع بتمجيد كارليل للنبي وهو كاتب غربي ... " - أن الحق ما قالوه ، فأحق الناس بالكتابة في الموضوعات الإسلامية والسيرة النبوية خاصة ، هم الصادقون المخلصون من المسلمين ، لأنهم حين يكتبون فإنما يكتبون حقاً وصدقاً يستلزمهم ويتضمنهما واجب الإيمان وواجب الحب وواجب الوفاء ، أما غيرهم من الغربيين والمستشرقين فلا خير في كتابتهم في مثل هذه الموضوعات أو فيها خير إلا أن شرها أكثر من خيرها .. أما الغربيون فهم واحد من اثنين : أما مدخول النية سيئ الطوية ، وأما حسن النية منصف ..

أما الأول فهو ذو قلب يشتعل حقداً ويغلى ضغينةً وإن كتب نسي
مثل هذه الموضوعات فأنما يكتب زوراً يَشُوهُ به الحق ، ودَجَلًا يزور به التاريخ ،
ومثل هذا النوع من الكتاب لا خير في كتابته على أى حال من الأحوال .

وأما الثانى فلديه من الشجاعة الأدبية ما يجعله يكتب الحقائق
بأمانة ويسجل التاريخ بصدق دون دجل أو تزوير ، لكن كتابة مثل هذا
النوع من الكتاب ليست مضمونة النتائج ولا مأمونة العواقب ، إذ أن كثيراً
منهم لا يعرف الاسلام كما يعرفه المسلمون ، ولا يفهمه كما يفهمه المسلمون ،
ولا يعرف عن النبي كما يعرف المسلمون ، ولا يحيط بتاريخه مثلاً بحيط
المسلمون . . . وقد يقصر علمه عن كثير من الحقائق جهلاً بها ، وقد يقصر
ادراكه عن فهم كثير من الأشياء فيفهمها على غير وجهها الصحيح ،
وسبب جهله ببعض الحقائق وسبب قصور ادراكه عن فهمها الصحيح ، قد
يدخل في الاسلام ان كتب في الموضوعات الاسلامية ، أو قد يدخل نسي
تاريخ الرسول ان تناول سيرة الرسول - قد يدخل فيها ما ليس منهما ،
أو هو منها ولكن على نحو من التحريف والتعديل .

وأما المستغفرون : وهم الذين يسرون في فلك الغريبين ويقلدونهم
في أفكارهم ومناهجهم ومعالجتهم لمثل هذه الموضوعات ، بل يقلدونهم
في كثير من آرائهم المنحرفة ومبادئهم الشاذة ، أممانا في التقليد الأعمى ،
ومجارة للثقافة المزعومة - أما هؤلاء المستغفرون ، فهم أكثر خطراً وضراً
من الغريبين لأنهم - لاشك - أكثر فهماً للتاريخ الاسلامي وأكثر المأماً
به وأكثر احاطة بتاريخ الرسول صلى الله عليه وسلم من أولئك الغريبين ، مما
يجعل القارئ يقل قولهم على أنه قضية مسلمة . . . لأنه يفترض فيهم
الصدق والأمانة ووضوح الأمور في نصائبها وهذا هو ممكن الخطر وموطن الضرر .

وإذا كانت كتابات أمثال هؤلاء الغريبين والمستغفرين تشكل خطراً
ضرراً على تاريخ الاسلام عامة والسيرة النبوية خاصة ، لما قد شيره كتابات

هؤلاء وأولئك من شبهات واقتراءات وأباطيل ، نحن فى غنى عنها . . . كان من ألزم اللزائم وأوجب الواجبات أن يتناول مثل هذه الموضوعات الاسلامية كتاب مسلمون مخلصون عارفون بأنها هذه الموضوعات وحقائقها ، واقسمون على دقتها وأسرارها ، وهذا ما حدا بكثير من الكتاب والمشتغلين بالدراسات الاسلامية ، أن يحاولوا كتابة التاريخ الاسلامى من جديد كتابة يكشفون فيها حقائقه التى شوهتها الأباطيل ، وأن يحاولوا من جديد - أيضا كتابة سيرة الرسول العظيم ، ليُجْلُوا عظمته من ركام الباطلين وغبار المفتريين . . لأنهم وجدوا أنفسهم أحق الناس بالكتابة عن التاريخ الاسلامى وعن رسول الاسلام . . رسولهم ونبيهم . . . وقد أخذتهم الفسيرة أن يتناول السيرة النبوية كتاب غريبين ، مهما كان انصافهم وحيادهم ، كما ذكر العقاد فى مقدمة كتابه ، ما أشرنا اليه آنفا . .

الباعث الثانى : " النفساء " :

لا شك فى أن للنشأة التى نشأ عليها العقاد والبيئة التى عاش فيها ولما ورثه عن أبويه من خُلُقٍ وطباع - أثرا فى اتجاه العقاد نحو الموضوعات الاسلامية عامة ، والسيرة النبوية خاصة . والعقاد نفسه يعزى تعلقه بالموضوعات الاسلامية وما اعمل منها بالسيرة النبوية على التخصيص فيما يعزوه الى وراثته . . يقول العقاد : " ولدت لأبوين من أهل السنة ، أبى على مذهب "الشافعى" وأمى على مذهب "أبى حنيفة" وفتحت عيني على الدنيا وأنا أراها يصلحان ومتعظان قبل الفجر لأداء الصلاة - صلاة الصبح - حاضرة ، وربما زارنا أحد أخوالى فى تلك الساعات المبكرة ذاهبا الى المسجد القريب ، أو عائدا منه الى داره . وفتحت أذنى ، كما فتحت عيني على عبارات الحب الشديد للنبي عليه السلام وآله ، فبولد النبي حفلة سنوية فى البيت نترقبها نحن الصغار ، ونفرح بها

لأننا نحن القاطعون بالخدمة فيها . وأسماء النبي وآله تتعدد بين جوانب البيت ليل نهار ، لأنها أسماء اخوتى أجمعين : محمد وإبراهيم والمختار ومصطفى وأحمد والطاهر وبين ، وشقيقتي الوحيدة اسمها فاطمة ، واسمى أنا منسوب الى عم النبي لا الى الأمير الأسبق : عباس حلى الثانى كما كان يتوهم بعض معارفى ، لأننى ولدت قبل ولادته وأبىته فى المدرسة أن القَبَّ بلقب " حلى " جَرِيًّا على ما تعودته المدارس فى تلك الحقبة (١) .

ثم يقول : " ورثت هذا الحب الشديد للنبي وآله عليهم سلام الله ورضوانه ، وليس هذا الحب الشديد بالمستغرب من أهل السنة ، لأنهم يدينون بدستور السنة النبوية ، ولكنه كان فى بيتنا أشبه بالمأففة النفسية منه بالآداب المذهبية فاستفدت منه كثيرا فى دراسة تاريخ الاسلام " (٢) .

والعقاد لم تدفعه الى الكتابة عن الرسول وعظما الاسلام عاطفة مجردة من العلم بحقيقة الرسول وحقائق هؤلاء العظام ، ولم يدفعه تقليد أعمى كتقليد الأميين فى جهم للاسلام ولرسوله صلى الله عليه وسلم ، بل دفعت عاطفته محبة ، وقلب مؤمن ، وعقل مفكر ، رأت فى سيرة الرسول وعظمته الخالدة من الشواهد والآيات ما يدفع الناس دفعا ويسوقهم سوقا الى الكتابة عنها ، ورأى فى سيرة عظما الاسلام ما يشوق النفس السليسة للكتابة عنها لما فيها من مواقف بارزة ، وآثار شاهدة على عظمة أولئك الذين عاشوا وماتوا وهم فى رحاب الاسلام وتحت ظلال دعوتهم الفذة .

(١) فاطمة الزهراء والفاطميون ص : ٤

(٢) المرجع السابق ص : ٥ .

وهذا ما يؤكد المقاد نفسه ، يقول المقاد : " قارت سير
المظمة الاسلاميين ، و " النهيين " لأرضى ذهنى ، ولم يقنعنى أن أرضى
بها عاطفة لا أستمد من ذهنى شواهدا وآياتها ، فعظمة الاسلام
عندى اعلام انسانية باذخة ، تخولها مكان العظمة مناقب يكبرها المسلم
وغير المسلم ، وليست غاية الأمر فيهم أنهم (أصحاب) أضرحة للتبرك وتلاوة
الفاتحة والسلام " (١)

حتى فى تاريخه لفاطمة لم يكتبه لأنها بنت محمد أو زوج على
أو لأنها أم الحسن والحسين ، وفيهما الشهداء ، ولكنها مع هذه الكرامة
قد تكتب لها ترجمة ، لأنها هى فاطمة ، ولأنها هى " مصدر من مصادر القوة التاريخية
التي تتابعت آثارها فى دعوات الخلافة من صدر الاسلام الى الزمن الأخير " (٢)

الباعث الثالث : " التحول الفكرى "

قلما تسير حياة كاتب من الكتاب ، أو مفكر من المفكرين فى
طريق واحدة ثابتة من البداية الى النهاية ، وقلما يلتزم فكرهم خطأ
ثابتاً لا يتعداه . . بل كثيراً ما يتحول الكاتب أو المفكر فى حياته من
اتجاه الى آخر ، وكثيراً ما يتحول فى فكره من مذهب الى آخر ، وفى
أدبه من نوع الى آخر ، يخطف فى خصائصه عن النوع الأول .

ذلك لأن الكتاب والمفكرين يتأثرون فى مذاهبهم الفكرية واتجاهاتهم
الأدبية بما يحيط بهم من مؤثرات مما يلم بمجتمعهم الذى يعيشون فيه
من تحولات فكرية أو سياسية أو اجتماعية ، وما يطرأ على حياتهم هم الستى
يعيشونها من تغيير . . سواء أكان سياسياً أو اجتماعياً أو وظيفياً . . أضف

(١) فاطمة الزهراء والفاطميون ص : ٥ ، ٦ .

(٢) المرجع السابق ص ٦ .

الى ذلك ما يصاب الكاتب أو المفكر من تغيير ونتيجة لارتفاع السن واعمال
التجربة وازدياد المعرفة واتساع الأفق الثقافي .

والناظر في حياة الأدباء والمفكرين في مصر في مطلع هذا القرن
وأوائله يجدها قد تعرضت لتغييرات وتحولات .. في مجال السياسة
أو في ميدان العمل أو في محيط الفكر .. فممن من تحول سياسيا من
حزب الى حزب كما فعل المقاد وطه حسين ، فالأول قد خرج من حزب
الوفد ، والثاني قد دخله .. ومنهم من تحول وظيفيا من عمل الى آخر ،
كما فعل محمد السباعي وعبد القادر المازني ومحمد مسعود وداود بركات
حين انتقلوا من التعليم الى الصحافة .. ومنهم من تحول فكريا أو أدبيا
- وهذا الجانب هو ما يعنينا الآن - من مذهب الى آخر ، ومن لون
أدبي الى لون آخر ، ومن اتجاه في الكتابة الى اتجاه آخر .. وذلك
نتيجة للموامل التي أشرنا اليها سابقا ، كما فعل المازني وحافظ
صادق الرائسي ، وشكيب أرسلان حين تحولوا من الشعر الى النثر
حيث خيل اليهم أنهم مبرزون في الشعر واصلون فيه الى مكانة شوقي
وحافظ والهارودي ، فلما قصر بأعهم تركوه وعادوا الى النثر يبرزون فيه
وكما فعل طه حسين حين تحول من منهج في الكتابة الى منهج آخر ..
وذلك حين قدم للأدب العربي كتابه : " على هامش السيرة " يعتمد
أن قدم كتابه " في الشعر الجاهلي " على بعد ما بين الكتبيين فسي
المنهج والأسلوب ، كتاب " في الشعر الجاهلي " يعتمد - شكلا - على
المنهج الملئ ، بينما يعتمد " على هامش السيرة " على المنهج الأدبي ،
و " في الشعر الجاهلي " يعتمد في طريقته على الأسلوب الملئ المعروف
في البحث والتأليف ، بينما يعتمد " على هامش السيرة " في طريقته
على الأسلوب الأدبي القصي .

وبهنا هنا أن نقول : ان العقاد كان من أولئك الكتاب الذين تحولوا فكريا من لون الى لون آخر ، ومن نوع في الكتابة الى نوع آخر ، وذلك حين اتجه في كتاباته الى دراسة الموضوعات والشخصيات الاسلامية فقدم للأدب العربي والفكر الاسلامي عمقياته الاسلامية وهي عمقيات : محمد والصديق موعر موعلي ومخالده ، وقدم عن الشخصيات الاسلامية الكتب الآتية : - " عمرو بن العاص " و " الصديقة بنت الصديق " و " أبو الشهداء " .. وعن الموضوعات الاسلامية كتب : " الله " و " الديمقراطية في الاسلام " و " مطلع النور " و " الاسلام والاستعمار " و " الفلسفة القرآنية " و " حقائق الاسلام وأباطيل خصومه " و " التفكير نهضة اسلامية " .. الى غير ذلك ممن المبقيات والشخصيات والموضوعات الاسلامية .. التي أوردنا ما أوردنا منها على سبيل المثال لا الحصر ..

والمثال في كتابات العقاد - قبل هذا الاتجاه الاسلامي - يجد أنه يغلب عليها الطابع الأدبي أو الاجتماعي أو السياسي ، مثل دراويشه الشعرية : " لحظة الصباح " و " وهج الظهيرة " و " أشباح الأصيل " و " أشجان الليل " .. ومثل كتبه في الأدب والاجتماع والتاريخ : " العذرة " و " الفصول " - و " مطالعات في الكتب والحياة " - و " مراجعات في الأدب والفنون " - و " اليد القوية في مصر " - و " عالم الممدود والقيود " .. ومثل دراساته النقدية والأدبية التي منها : " الديوان في النقد والأدب " - و " ابن الرومي : حياته وشعره " - و " فيروز في الميزان " - و " شعرا " مصر هيئاتهم في الجيل الماضي " - و " رجعة الى أبي الملاء " .. ومثل كتبه في السياسة : " الحكم المطلق في القرن العشرين " - و " هنتر في الميزان " - و " النازية والأديان " .. الى غير ذلك من للكتب والدراسات التي تحمل الطابع الأدبي أو الاجتماعي أو السياسي ، كما ذكرنا سابقا ، مما يعد تحولاً حقيقياً وواضحاً في اتجاه

المقاد ٠٠ " ولا شك أن كتابات المقاد عن الاسلام ومقريبات الاسلام هي تحول خطير في اتجاهه ، لم يلبث أن تعمق واتسع وأصبح لـ طابع واضح ٠٠ " (١)

ولعل هذا التحول في اتجاه المقاد نحو الموضوعات الاسلامية يبدو أكثر وضوحا اذا علمنا أن المقاد كان من أولئك الذين يحطون بحملات عنيفة على أولئك الكتاب الذين يتجهون في كتاباتهم اتجاه اسلاميا واصفا هذا الاتجاه بأنه محاولة لصرف الناس عن الوطنية والتحرير الوطني . " وفي نفس الوقت (٢) الذي كانت تتوالى فيه الدراسات ذات الطابع الاسلامي ، كان المقاد يحمل حملات عنيفة على هذا الاتجاه ويصفه بأنه محاولة لصرف الناس عن الوطنية السياسية ، وقال : ان هذا الاتجاه هو محاولة من الاستعمار لخداع الناس وصرفهم عن التحرير الوطني . غير أن المقاد لم يلبث بعد سنوات ، وفي أوائل الحرب العالمية (الثانية) أن بدأ يكتب " المبقيات " ويؤجل في دراسة أعلام الرعيل الأول من المصير الاسلامي ، ولم يلبث أن كتب عن : " الله " و " الفلسفة القرآنية " وهذا أورد نفسه في نفس (٣) المورد الذي هاجمه من قبل ٠٠ " (٤)

ومن النقاد من يرجع هذا التحول في اتجاه المقاد نحو الموضوعات الاسلامية الى استفحال المادية وتوسع الدعوة الى الشيوعية ، وهذا من جهات كتاباته الاسلامية وخاصة عن الرسول وسيلة من وسائل مقاومة هذا الاتجاه ٠٠

-
- (١) أضواء على الأدب المعاصر ، ص ٢٧٤ .
 (٢) من الأساليب الخاطئة التي استعملها الكتاب المحدثون ، والصواب : وفي الوقت نفسه .
 (٣) من الاستعمالات الخاطئة التي شاعت بين المحدثين ، والصواب : المورد نفسه .
 (٤) أضواء على الأدب المعاصر ، ص ٢٨٦ .

ومما يؤيد هذا الرأي ما ذكره العقاد نفسه في مجلة "روز اليوسف"
- وقد سبق أن ذكرنا ذلك - حين أرجع ظاهرة كثرة الكتابات الإسلامية
الى عوامل عدة منها : الخوف من استفحال المادية والفرع من الشيوعية ..
ومنهم من يرجع هذا التحول الى محاولة العقاد تفطية كتاباته
السياسية التي توقفت بتوقف الصراع الحزبي في خلال سنوات الحروب
العالمية الثانية (١٩٣٩ - ١٩٤٥)^(١).

(١) أعضاء على الأدب العربي المعاصر ص ٢٢٤.

∴ الفصل الثاني ∴

" الفكرة والموضوع في " عقيدة محمد "

أ - الفكرة ..

ب - الموضوع ..

أ - الفكرة :

ذكرنا سابقا أن من البواعث والدوافع التي جعلت العقاد يتناول شخصية الرسول الكريم بالدرس والتحليل في كتابه " عبقرية محمد " - باعضا خاصا بالعقاد نفسه - كان وراء ظهور هذا الكتاب ألا وهو تجسسى المستغربين والمتطفلين على موائد الثقافة والمدعين فنون المعرفة - على شخصية الرسول الكريم وتطاولهم عليها - ونسبة أمور اليها هي منها بمرءة - ظنا منهم أن التطاول على الأنبياء من لوازم الاطلاع على الفلسفة والمعلوم الحديثة .. وكان مما قاله بعض هؤلاء الأغرار الجبهلاء - وكان سببا مباشرا من أسباب ظهور " عبقرية محمد " - شىء عن النبى والزواج - وشىء عن البطولة - فحواء : أن بطولة محمد إنما هي بطولة سيف ودماء .. وكانت هذه الكلمة الثابتة التي سمعها العقاد بأذنه بمثابة محرك ودافع له - كي ينشط ويكتب عن الرسول العظيم كتابه هذا - وان كانت الكتابة قد تأخرت عن الباعث ثلاثين سنة إلا أن السبب والباعث بقيا في ذاكرته لم تحبهما كثرة السنين .

ولعلنا من هذا الباعث الدافع نستطيع أن نحدد الفكرة التي ينطوى عليها هذا الكتاب فتقول : ان الكتاب في حقيقته ردٌ تقديرى لشخصية الرسول الكريم - ان صح هذا التعبير - واعطاؤها حقها من الاجلال والتعظيم - ودفاعٌ عنها ازاء أقاويل المقلولين وانقراضات المفتريين خاصة فيما نسبوه الى الرسول تلك اللبلة التي تار فيها لفظ ودار فيها حديث حول الرسول الكريم - مما أشار اليه العقاد في مقدمة كتابه ..

إذا كان الكتاب بهذه المثابة متفقا مع الباعث والدافع - فماذا نتظر أن تكون الفكرة ؟ .

اننا لا ننتظر أن تكون شرحا وتحليلا للسيرة ، ولا أن تكون شرحا وتحليلا للإسلام ومبادئه وأحكامه ، إنما الذى ننتظره ونتوقعه أن تكون الفكرة — فى إطار الباعث والدافع — كشفا لجوانب شخصية الرسول الكريم ، وإظهارا لسمات المعظمة فيها ، وتجلية لدلائل التميز والنفرد ، التى اختص بها الرسول صلى الله عليه وسلم — من خلال حياته الحافلة بكل جليل وعظيم من الصفات والأفعال والأقوال .. وأن تكون الفكرة — من خلال هذا الكشف وذاك الإظهار ، وتلك التجلية — تدليلا مرهنة على أن الرسول الكريم قد حاز أجمل الصفات وأكمل الخصال ، وأندر الأعمال ، وأجمل السمات ، وأنه — صلى الله عليه وسلم — كان مزيجا من المعظمة المتفردة فى هذا كله ..

يقول المقاد : " واليوم ونحن نضع كتابنا هذا عن " عبقرية محمد " بين يدي القراء ، لا نقول : أننا قد استوفيناه كما أردناه ولا أننا فصلنا فيه الفروض الذى توخيناه .. ولكننا نقول : أننا التزمنا فيه الباعث الذى أوحى الاقتراح بتأليفه لأول مرة . كأننا شرعنا فى كتابته مساء ذلك اليوم قبل ثلاثين سنة ، فكتهناه ونحن نستحضر فى الذهن تبرة المقام المحمدى من تلك الأقاويل التى يَلْقَظُ بها الأغوار والجهلاء عن خلفة أو سوء نية ، ونظرنا اثقا ، فإذا بأطول الفصول فيه الفصلان اللذان شرحنا فيهما موقف محمد من الحرب ومن الحياة الزوجية .. لأنهما كانا شار اللفظ تلك الليلة على مقربة من ساحة المولد ، وكانا شار اللفظ فى كل ما رددته سفهاء الشائئين من الأصلاح والمقنديسين فى هذا الباب . فسيرى القارئ أن " عبقرية محمد " عنوان يؤدى معناه فى حدوده المقصودة ولا يعتمداها ، فليس الكتاب سيرة نهية جديدة تضاف الى السير العربية والافرنجية التى حفظت بها " المكتبة المحمدية " حتى الآن .. لأننا لم نقصد وقائع السيرة لذاتها فى هذه الصفحات ،

على اعتقادنا أن المجال متسع لمشرات من الأسفار في هذا الموضوع ، ثم لا يقال انه استفد كل الاستفاد ، وليس الكتاب شرحا للإسلام أو لبعض أحكامه أو دفاعا عنه ، أو مجادلة لخصومه ، فهذه أغراض مستوفاة في مواطن شتى ، يكتب فيها من هم ذووها ولهم دراية بها وقدرة عليها . انما الكتاب تقدير لـ " عقيدة محمد " بالمقدار الذي يدين به كل انسان ، ولا يدين به المسلم وكفى ، والحقوق الذي يثبت له الحب في قلب كل انسان وليس في قلب كل مسلم وكفى ، فمحمد هنا عظيم لأنه قدوة للمقتدين في المناقب التي يتناها المخلصون لجميع الناس . (١)

ب - الموضوع :

لعل من اليسير علينا الآن أن نتعرف على موضوع الكتاب ، بمقد أن عرفنا الباعث على كتابته ، ومقد أن عرفنا فكره . . . وإذا كان الباعث على الكتابة هو اجترار الناس وتناولهم على مقام الرسول العظيم ، وإذا كانت الفكرة كشفا لجوانب شخصية الرسول ، وإظهارا لسمات المنظمة ، وتجليا لدلائل التميز والتفرد في هذه الشخصية الفذة ، وتدليلا صريحا على أن الرسول الكريم كان مزيجا من المنظمة المتفردة في جميع أفعاله وأقواله وصفاته وأحواله كلها . . . ودفاعا وذودا عن هذه الشخصية لدى هذا الاجترار ، وذاك التطاول من خلال الكشف عن جوانب تلك الشخصية النبوية بكل أبعادها المختلفة وزواياها المتعددة . . .

(١) عقيدة محمد ص ١١ ، ١٢ .

... اذا كان الباعث واذا كانت الفكرة كما ذكرناه فلا شك في أن يكون موضوع الكتاب هو سمات المنظمة في تلك الشخصية ودلائل التميز والتفرد فيها ، أو ما يسمى بـ " المبقرية " .

والمبقرية في شخصية الرسول - صلى الله عليه وسلم - ليست تفرُّدًا في صفة ، أو تميزًا في سمة ، أو عظمة في شارة ، ولكنها التشرد والتميز والمنظمة في جميع صفاته وسماته وشاراته ، بحيث يستحيل على كل انسان منصف أن يجد له تميزًا في سمة دون سمة ، أو تفردًا في صفة دون أخرى ، أو عظمة في جانب دون آخر . بل انه يجد ذلك كله واضحا في جميع جوانب شخصيته .

والمقاد في حديثه عن هذه المبقرية لم يترك طريقا اليها الا ولجها ، ولا سهيلا الا سلكها ، لذا رأينا يفتش عن هذه المبقرية في كل جانب من جوانب شخصيته صلى الله عليه وسلم . وينقب عن آياتها ودلائلها في كل مظهر من مظاهر حياته المظلمة . في أفعاله . وفي أقواله . وفي صفاته . وفي سماته . وفي علاقاته . وفي دعوته . وفي عبادته . " وحسبنا من " عبقرية محمد " أن نقيم البرهان على أن محمدا عظيم في كل ميزان : عظيم في ميزان الدين ، وعظيم في ميزان العلم ، وعظيم في ميزان الشعور ، وعظيم عند من يختلفون في المقائد ولا يسمهم أن يختلفوا في الطوائع الأدبية ، الا أن يرين المنن على الطوائع فتتحرف عن السواء ، وهي خاسرة بانحرافها ، ولا خسارة على السواء " (١)

وهو في بحثه وتنقيحه عن سمات هذه المبقرية ودلائلها في مظاهر هذه الحياة الفذة الفريدة ، لا يبرز هذه السمات ولا تلك الدلائل

مجردة من الدليل الذى يؤكدها والحجة التى تظاهرها ، بل يسوق الدلائل والحجج التى تؤكد هذه السمات وتظهر تلك الدلائل .

ولكن البرهان الذى يأتى به العقاد تدليلا على سمات تلك المبقرية المحمدية ، ليس برهانا يرتضيه هو ، بل برهان يتساوى فى الاقرار به المسلمون وغيرهم . . . برهان يفهمه الناس جميعا على اختلاف عقائدهم ، برهان لا يستطيع أن يختطف عليه اثنان . . . لهذا كان تقدير محمد بالقياس الذى يفهمه المعاصرون ^(١) ، ويتساوى فى اقراره المسلمون وغير المسلمين ، نافعا فى هذا الزمن الذى التوت فيه مقاييس التقدير . . . انه لنافع لمن يقدرون محمدا ، وليس بنافع لمحمد أن يقدروه . . . لأنه فى عظمت الخالدة لا يضار بانكاره ، ولا ينال منه بغى الجهلاء ، الا كما نال منه بغى الكفار . وانه لنافع للمسلم أن يقدر محمدا بالشواهد والبيئات التى يراها غير المسلم ، فلا يسمه الا أن يقدرها ويجرى على مجراها فيها . . . لأن مسلما يقدر محمدا على هذا النحو يحب محمدا مرتين : مرة بحكم دينه الذى لا يشاركه فيه غيره ، ومرة بحكم الشرائع الانسانية التى يشترك فيها جميع الناس ^(٢) .

والمقابل فى فصول كتاب " عقيرة محمد " يرى أن العقاد قد استطاع بها أن يستعرض حياة الرسول كلها وأن يستبطن من خلال هذه الحياة مظاهر المبقرية وسمات المنظمة ودلائل التفرد فى شخص الرسول العظيم ، كما يرى أنه قد أصابه التوفيق فى استعراضه الخارج لجوانب

(١) الا وفق : المعاصرون . . . لأن مادة "عاصر" غير موجودة فى اللفظة .

(٢) عقيرة محمد ص ١٤ .

هذه الحياة .. والتالى استعراضه لما فى هذه الجواب من آيات
التفرد والتميز .. كما يرى أنه قد حالفه النجاح فى تنجيمه الدقيق
لسانها وخصائصها ، فلم يترك سعة الا أبرزها ، ولا خصوصية الا جلاها
وضحها .

ذلك لأن حياة الرسول لا تخلو اما أن تكون دعوة وإبلاها لهذه
الرسالة التى نيطت به وكلف بها . ومن هنا كان الفضلان : " عقريّة
الداعى " و " الهليخ " واما أن تكون أعمالا مرتبطة بهذه الدعوة ، وهذه
الأعمال المرتبطة بهذه الدعوة ، اما أن تكون أعمالا متصلة بالحروب فى
سبيل دعم الدعوة الإسلامية وإعلان شأن الإسلام والمسلمين ومن هنا كان
الفصل " عقريّة محمد العسكرية " واما أن تكون أعمالا متصلة بالسلم ،
سواء أفى شئون السياسة أو الإدارة ومن أجل ذلك كان الفضلان " عقريّة
محمد السياسية " و " عقريّة محمد الادارية " واما أن تكون حياته صلى
الله عليه وسلم مجموعة من العلاقات التى تربط بينه وبين الناس على
اختلاف هذه العلاقات ، فهنا لاختلاف نوع الصلة التى تربط بينه صلى
الله عليه وسلم وبين هؤلاء الناس ، فالعلاقة التى بينه وبين غيره من
الناس قد تكون علاقة صداقة ، ومن هنا كان هذا الفصل " محمد
الصديق " ، وقد تكون علاقة بين رئيس ومؤسس ، ولذا كان هذا الفصل
" محمد الرئيس " وقد تكون علاقة بين زوج وزوجاته ، ومن أجل
ذلك كان الفصل " الزوج " ، وقد تكون علاقة بين أب وأولاده ، ومن
هنا كان الفصل " الأب " وقد تكون علاقة بين سيد ومسود ، ومن
هنا كان هذا الفصل " السيد " وقد تكون هذه العلاقة أعلى وأعظم
من كل تلك العلاقات السابقة وهى العلاقة التى بينه وبين الله ومعبوده ،
ومن هنا كان هذا الفصل " المأيد " .

وإذا كان العقاد قد تنهج سمات المبقرية النبوية في أشكالها المختلفة وألوانها المتعددة في الجوانب المختلفة لحياة الرسول - كما أنحصا سابقا - فإن العقاد لم ينس أن يبحث عن سمات هذه المبقرية في صفاته الجسدية وصفاته النفسية، وينتهي العقاد من هذا إلى أن محمدا في سماته الخلقية والخلقية كان مثالا نادرا للرجولة الكاملة، لما تغرد به من سمات وتميز به من صفات، ومن هنا كان الفصل " الرجل " .

يقي لدينا فصلان : " علامات مولد " و " محمد في التاريخ " وفي الفصل الأول " علامات مولد " لم ينس العقاد أن يبحث عن سمات العظمة في شخص الرسول الكريم ، حتى قبل أن يبحث رسولا ، من خلال حديثه عن أحوال محمد وصفاته التي ترشده لأن يكون رسولا ، والتي تميز بها محمد من دون الناس جميعا . . وفي الفصل الثاني " محمد في التاريخ " فإن العقاد يرى - اتاما للبحث - أن يتحدث عن مكانة هذه المبقرية المحمدية وتلك العظمة النبوية في التاريخ ، ومن هنا كان هذان الفصلان : " علامات مولد " و " محمد في التاريخ " .

ومن هذا المرض السريح لفصول هذا الكتاب ، نستطيع أن نقول - مؤكدا ما قررناه سابقا - : إن للعقاد قد حالفه النجاح وأصابه التوفيق حين استطاع أن يلم بجوانب حياة الرسول الكريم ، وحين استطاع أن يتتبع ويتقصى - من خلال هذه الجوانب المختلفة - منابع هذه المبقرية وروافد تلك العظمة .

وإذا كان العقاد قد نجح في الكشف عن منابع المبقرية المحمدية ، فما الطريقة التي سلكها العقاد في الكشف عن سمات هذه المبقرية ، من خلال هذه المنابع وتلك الروافد ؟ هذا ما سنتناوله في الفصل التالي .

ٖٖ الفصل الثالث ٖٖ

" خصائص طريقة العقائد "

- ١ - التتبع والاستقصاء .
 - ٢ - التفرع والتفصيل .
 - ٣ - تقصى البواعث والأسباب :
- (أ) الرجوع بالصفات المحددة الى أسبابها وعملها .
- (ب) الرجوع بالأفعال المحددة الى أسبابها ومواطنها .
- ٤ - إيراد الشواهد والأدلة .

يظهر لكل قارئ متأمل أن العقاد سلك في كتابه " عمقيرة " طريقة جديدة - لم يألفها القارئ من قبل - في الكشف عن سمات المبقرية المحدية المتتوعة ، وخصائصها المختقة من خلال بحثه عنها في جوانب حياة الرسول المتتوعة ، ولملنا لا نتجاوز الحق اذا قلنا : ان طريقة العقاد هذه قد انتظمت معظم عمقيراته الاسلاميه وتراجعه الشخصية والقارئ المتأمل يستطيع أن يلمح سمات هذه الطريقة وخصائصها من خلال قراءته كتاب " عمقيرة محمد " وهذه السمات والخصائص التي امتازت بها طريقة العقاد " تهدو واضحة فيها يأتي :

١ - التتبع والاستقصاء :

أولى هذه الخصائص: هي خصوصية التتبع والاستقصاء ، ولقد ظهرت هذه الخصوصية - في خطوطها المرهفة - حينما حاول العقاد أن يتناول ألوان المبقرية المحدية وأنماطها المتعددة من خلال تتبعها في جوانب حياة الرسول المتعددة ، ولعل القارئ يستطيع أن يلمح هذا التتبع وذلك الاستقصاء من خلال استعراضنا السابق لفصول الكتاب .

ثم ظهرت خصوصية التتبع والاستقصاء أكثر جلاء ووضوحا - في خطوطها الفرعية الدقيقة - حينما حاول العقاد أن يتناول كل لون من ألوان هذه المبقرية ، وكل نمط من أنماطها بالشرح والتحليل ، كاشفا عما فيه من سمات ، وما اشتمل عليه من صفات . ماضيا مع كل صفة من هذه الصفات ، وكل سمة من هذه السمات الى أقصاها ، وهذا هو ما نعينه من التتبع والاستقصاء . ولما يمكن أن يسميه البعض بظاهرة " الانفصام " .

ومن المميز على القارئ أن يلمح هذه الخصوصية في مواضع كثيرة من هذا الكتاب . . .

فمثلا حينما يحدثنا العقاد في فصل " عقوبة الداعي " عن سمة من سمات هذه الحبقرية ، وهي الفصاحة . . لا يقف هنا العقاد عند معنى الفصاحة فحسب ، ولكنه يضى مع المعنى الى أقصاه ، فهي فصاحة في الكلام ، وفصاحة في هيئة نطقه ، وفصاحة في موضوعه . . " أما فصاحة محمد فقد تكاملت له في كلامه ، وفي هيئة نطقه لكلامه ، وفي موضوع كلامه " (١)

وحيثما يحدثنا العقاد في فصل " محمد الصديق " عن عاطفة محمد الانسانية التي تعد من ظواهر عظمة محمد في باب الصداقة - فان العقاد لا يقف عند معنى العاطفة الانسانية فحسب ، ولكنه يضى مع المعنى الى أقصاه . . فهي عاطفة انسانية نحو الانسان ، وعاطفة انسانية نحو الحيوان ، وعاطفة انسانية نحو الجناد . .

وحيثما يحدثنا العقاد في فصل " الزوج " عن المعاملة الطيبة التي كان يعامل بها الرسول زوجاته ، نراه لا يكتفى بالوقوف عند معنى المعاملة الطيبة فحسب ، بل يضى مع هذا المعنى الى أقصاه أيضا ، فهي معاملة طيبة في مخاطبتهم ، والطف معهم ، وهي معاملة طيبة في توليه خدمة البيت معهم ، وهي معاملة طيبة في التوعية بينهم ، وهي معاملة طيبة حتى في الحالة التي لا يرجى معها طيب المعاملة . .

وحيثما يحدثنا العقاد في فصل " السيد " عن بر الرسول بالخدم والمبيد ، لا يقف عند هذا المعنى بل يضى معه الى أقصاه ، فهو بر بخدمه وجيده ، وبر بالخدم والمبيد على وجه العموم ، وبر بالخدمة أيضا . .

٢ - التفریع والتفصیل :

وتواكب خاصة التتبع والاستقصاء ، خاصة أخرى هي خاصة التفریع والتفصیل ، فالعقاد في تتبعه واستقصائه الصفات والسمات في جميع أحوالها وأشكالها ، لا يقتضى بسرد تلك الأحوال والأشكال ، بل يتناول كل حال من أحوال الصفة وكل شكل من أشكالها بالتفریع والتفصیل ، ولا يقتضى بالتفریع والتفصیل في تعقب الصفة وتبويبها ، بل يلتقط لها من الأقوال والأعمال ما هو ميثوث في السيرة ما يؤيدها ، بل يفتح بها الآخرون اقناعاً .

ولنضرب على ذلك من الأمثلة ما أورده آتفا من الصفات النبوية التي تتبعها العقاد ، واستقصاها ، فضلاً حين حدثنا :

أ : عن فصاحة الرسول أخذ في تتبعها واستقصائها - كما أوضحنا سابقاً - ثم أخذ كل شكل من أشكال تلك الصفة بالتفریع عليه والتفصیل له . ثم أخذ بعد ذلك بورد من الشواهد ما يؤيده ويظاهاه .

وببدأ العقاد في تتبع أحوال تلك الصفة - الفصاحة - فيقول :
 ١ - فالفصاحة صفة تجتمع للكلام، ولهيئة النطق بالكلام ، ولموضوع الكلام . . . فيكون الكلام فصيحاً وهيئة النطق به غير فصيحة ، أو يكون الكلام والنطق به فصيحين . ثم لا تجتمع لموضوعه صفة الفصاحة السارية في الأسماع والقلوب " (١) . ثم يمتد العقاد - بعد ذلك - فيقرر أن الرسول الكريم قد استوفى من الفصاحة جميع أحوالها . . . " أما فصاحة محمد . . .

(١) عبقريّة محمد ص ٣٠ .

فقد تكاملت له في كلامه وفي هيئة نطقه لكلامه وفي موضوع كلامه^(١) ، ثم بعد ذلك يأخذ العقاد في التشرح والتفصيل وإيراد الشواهد والأدلة في كل حال من أحوال فصاحته صلى الله عليه وسلم . . . فكان أعرب العرب كما قال عليه السلام : (أنا قرشي ، واسترضعت في بني سعد بن بكر) فله من اللسان العربي أضحه بهذه النشأة القرشية الهدوية الخالصة . . . وهذه هي فصاحة الكلام ، ولكن الرجل قد يكون عربيا قرشيا مسترضعا في بني سعد ، ويكون نطقه بعد ذلك غير سليم ، أو يكون صوته غير محبوب ، أو يكون ترتيبه للكلمات غير مانوس ، فيحتاج له الكلام الجميل ، ثم يعمره الفطيق الجميل ، أما محمد فقد كان جمال فصاحته في نطقه كجمال فصاحته في كلامه ، وخير من نفسه بذلك عائشة رضي الله عنها ، حيث قالت : (ما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يَسْرُرُ كسر دكم هذا ، ولكن كان يتكلم بكلام يَجِيءُ فَصْلًا يحفظه من جلس إليه) واتفقت الروايات على تنزيه نطقه من عيوب الحروف ومخارجها ، وقدرته على إيقاعها في أحسن مواقعها . . . فهو صاحب كلام سليم في منطق سليم ، ولكن الرجل قد يكون عربيا قرشيا مسترضعا في بني سعد ، ويكون سليما في كلامه ، سليما في نطقه . . . ثم لا يقول شيئا يستحق أن يستمع إليه السامع في موضوعه . فهذا أيضا قد تنزه عنه الرسول في فصاحته السائفة من شتى نواحيها . . . فما من حديث له حفظه لنا الرواة الثقات إلا وهو دليل صادق على أنه قد أوتي حقا (جوامع الكلم) ، ورزق من فصاحة الموضوع كَمَا رَزَقَ من فصاحة اللسان وفصاحة الكلام^(٢) .

(١) عبقريه محمد ص ٣٠ .

(٢) عبقريه محمد ص ٣٠ و ٣١ .

ب : ونجد المقاد - حين يحدثنا عن عاطفة الرسول الانسانية - يأخذ في تهمها واستقصاء جوانبها ، ثم يتناول كل جانب منها بالتفريغ والتفصيل . . ثم يورد بعد ذلك من الشواهد ما يؤيده ويقنع الآخرين به .

فيحدثنا - أولا - عن عاطفة الرسول الانسانية نحو الانسان وكونها عاطفة رحمة شملت من حولها من الناس كما أنها كانت سجيته صغيرا وكبيرا . . . يقول المقاد : " كان عطوفا يرام من حوله ويودهم ويدوم لهم على المودة طول حياته ، وان تفاوت ما بينه وبينهم من سن وعرق ومقام ، كان صيبا في الثانية عشرة يوم سافر عنه ، فتعلق بسبه حتى أشفق العم أن يتركه وحده ، فاصطحبه في سفره . . وكان شيخا قارب الستين يوم بكى على قبر أمه بكاء من لا ينسى . . وليس في سجل المودة الانسانية أجمل ولا أكرم من حنانه على مرضعته حليمة " ومن خفاوته بها وقد جاوز الأمهين فيلقاها هاتفا بها : أمي ! أمي ! ويفرش لها رداءه ويمسك ثديها بيده . . . كأنه يذكر ما لذلك الشدى عليه من جميل ، ويمطئها من الابل والشاة ما يغنيها في السنة الجدياء . . وحضنته في طفولته جارية عجماء فلم ينس لها مودتها بقية حياته ، وشغلته أن تتعم بالحياة الزوجية ما يشغل الأب من امرئياته ورحمه ، فقال لأصحابه : (من سره أن يتزوج امرأة من أهل الجنة فليتزوج أم أيمن . .) وما زال يناديهي يائمه يائمه كلما رآها وتحدث اليها ، وربما رآها في وقعة قتال تدعو الله وهي لا تدري كيف تدعو بملكوتها الأعجمية فلا تسميه الوقعة الحازنة أن يصفى اليها ويمطف عليها " (١)

واذا كان تعلق الرسول بعمه وهو صغير قد يكون مبعثه حنان الطفولة ويكأوه على قبر أمه قد يكون مبعثه ذكرياته العزيزة مع أعر الناس اليه :

أمه التي افتقدتها وهو صغير .. وعطفه ومودته على مرضعته طيبة قد يكون مبعثه أنه يذكره بِرَحِمِ الرضاع - فان هذا لا يعنى أن عطـف الرسول ومودته وحنانه كان قاصرا على من له بهم صلة قرابة أو رحم - كلا فان عطفه اتسع لكل من حوله ، حتى ولو لم يذكره بهذا أو ذاك ... يقول العقاد : " وكان هذا عطفه على كل ضعيف ولو لم يذكره بحنان الطفولة ورحم الرضاع . فما نهر خادما ولا ضرب أحدا ، وقال أنس : خدمت النبی صلى الله عليه وسلم عشر سنين فما قال لى أى قسـط ولا قال لشیء صنعت : لم صنعت ، ولا لشیء تركته : لم تركته ؟ " (١)

بل ان عطفه ومودته وحنانه همه - صلى الله عليه وسلم - لم يكن قاصرا على ذوى قباء أو ذوى رحمه من أصفیائه وأحابیه - بل تعداه الى من ليس بينهم وبينهم صلة أو قرابة كما مر ، بل تعدى عطفه همه الى أعدائه وشائنيه ..

يقول العقاد : " على أننا نلمس دلائل هذا القواد الرحب وهذا المطف الانسانى الشامل فى معاملته لأعدائه وشائنيه فضلا عن معاملته للأصفیاء ومن ليس بينهم وبينهم عدا ولا صفا ، فما ثار من أحد أساء اليه فى شخصه ، وقد عفا عن رجل كَمَّ بقتله وهو نائم ، ورفح السيف ليتهوى به فسقط من يده على كُرَّةٍ منه ، وما حارب قط أحدا كان فى وُسْطِهِ أن يسالنه ويحاسنه ويتقى شره " (٢).

ثم يسوق العقاد من الأمثلة الدالة على رحابة عاطفته واتساع سماعته ما يبرهن به على أن عاطفته صلى الله عليه وسلم همه لم يكونا

(١) عبقريه محمد ص ١٢٣ .

(٢) عبقريه محمد ص ١٣٠ .

قاصرين على أحبابه بل كانا شاملين للأحباب والأعداء .

وأبرز مثل على ذلك معاملته صلى الله عليه وسلم لعبد الله بن أبي . . . على ما يَدْر منه من عَدْر ونفاق ، وترفع به حتى موته . . . ثم بعد موته يعطيه ابنه قميصه ليكفنه فيه ، بل يعلى عليه ، بل ويقف على قبره حتى يفرغ من دفنه . . . على الرغم من محاولة عمر اثنا عشر سنة عن الصلاة عليه مُذَكِّراً الرسول بالآية الكريمة : " استغفر لهم أولاً تستغفر لهم ان تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم " (١) فيقول الرسول المطوف الرحيم : (لو أعلم أنني ان زدت على السبعين غفر له زدت) .

وهكذا نرى العقاد ينتهج هذا الجانب من جوانب عطفه الانساني ، وهو عطفه على مَنْ حوله من الناس ، ويأخذ في التفريق والتفصيل ، وينتهي من هذا كله الى أن عاطفة الرسول على من حوله من الناس ، كانت شاملة للناس جميعاً . . . أيأ كانوا : أقرباء أو ذوى رحم ، ومن ليسوا بهذا أو ذاك ، أو كانوا أعداء . . . وأن جمعتها أنها صفة ملازمة من صفات الرسول الكريم التي عليها نشأ بها انصاف ، وليس جمعتها صلة أو قرابة أو غير ذلك . . .

ثم يحدثنا العقاد - ثانياً - عن عاطفة الرسول الانسانية نحو الحيوان . . . ويورد العقاد من الشواهد ما يبرهن به على سمو هذه العاطفة التي اتسمت للأحباء جميعاً . . .

يقول العقاد : " وقد اتسع عطفه حتى بسطه للأحباء كافة فلم يقصره على ذوى الرحم من الناس ولا على الناس من غير ذوى الرحم ،

(١) الآية : ٨٠ من سورة " التوبة "

فكان يمشي الاناء للهرة لتشرب وكان يواسي في موت طائر يلهو به
أخو خادمه ، وأوصى المسلمين بقوله : (اذا ركبتم هذه الدواب فأعطوها
حظها من المنازل ولا تكونوا عليها شياطين) وكرر الرصايا بها فقال :
(اتقوا الله في البهائم فاركبوها سالحة وكلوها سالحة) وقال : (ان الله
غفر لامرأة موسى مرت بقلب على رأس ركي^(١) يلهث قد كاد يقطعه الممشى ،
فنزعت خفيها فأوثقته بخمارها ، فنزعت له من الماء فغفر لها بذلك)
وقال في هذا المعنى (دخلت امرأة النار في هرة ربطتها فلا همى
أطمعتها ولا هي تركتها تأكل من خشاش^(٢) الأرض^(٣)) .

ثم ينتقل العقاد الى جانب آخر من جوانب عاطفة الرسول الانسانية
الرحمة الشاملة ، وهو عاطفته نحو الجماد . . ويسوق العقاد من اللحاحات
والاشارات ما يبرهن بها على رحابة هذه العاطفة النبوية . وأنها لم
تسح للأحياء من انسان وحيوان فحسب بل اتسعت حتى شملت الأحياء
والجماد . .

يقول العقاد : " لا بل شمل عطفه الأحياء والجماد كأنه
من الأحياء ، فكانت له قصعة يقال لها " الفراء " ، وكان له سيف مطسى
يسمى هذا الفقار ، وكانت له درع موشحة بنحاس تسمى ذات الفضول " .
وكان له سرج يسمى " الداج " ، وسباط يسمى " الكر " ، وركوة تسمى
" الصادر " ، وبرة تسمى " المدلة " ، ومقراض يسمى " الجامع " ، وقضييب
يسمى " المشقوق " . . وفي تسمية تلك الأشياء بالأسماء معنى الألفه
التي تجعلها أشبه بالأحياء المعروفين ممن لهم السمات والمناويس ،
كان لها " شخصية " قوية تميزها بين مثلاتها ، كما يتميز الأحياء بالوجوه

(١) ركي : الركبة : البئر لم تَطَو .
(٢) الخشاش المراد به هنا : حشرات الأرض .
(٣) عقربة محمد ص : ١٢٣ ، ١٢٤ .

والملاح والكنى والألقاب (١)

ح : وحين يتحدث العقاد عن معاملة الرسول الطيبة لزوجاته نراه يتمتع ويستقصى جوانب هذه المعاملة - كما ذكرنا سابقا - ثم يتناول كل جانب من هذه الجوانب بالتفصيل والتفصيل ، ثم يورد من الشواهد والأدلة ما يؤيد ذلك ويؤكد .

فيحدثنا العقاد عن الجانب الأول من جوانب تلك المعاملة الطيبة ، وهو طيب المعاملة في مخاطبته زوجاته والتططف بمهن . . بل طيب معاملته مع مخاطبتهن اياه بشدة لا تليق بمقام الرسول العظيم .

يقول العقاد : " فكان يشفق أن يرينه غير باسم في وجوههن ، ويزورهن جميعا في الصباح والمساء ، وإذا خلا بهن (كان ألين الناس ضحاكا بساما) كما قالت عائشة رضي الله عنها ، ولم يجعل من ههنا التوبة سدا رادعا بينه وبين نساءه ، بل أنساهن برفقه وأيناسه أنهن يخاطبن رسول الله في بعض الأحيان . فكانت منهن من تقول له أمام أبيها : (تكلم ولا تقل الا حقا) ومن تراجعنه أو ففاضه سحابة نهارها ، ومن تلغ في الاجترار ما يسمع به رجل كعمر بن الخطاب في شدة فمجب له وبهم بأن يخطن بابتنة " حفصة " لأنها تجترى كما يجترى الزوجات الأخريات ، وإذا رأى النبي غضبه (١) كهذا من جرأة كلك كف من غضب الأب وقال له : ما لهذا دعوناك ."

ثم ينتقل العقاد الى جانب آخر من جوانب تلك المعاملة وهي معاملته الطيبة لهن . . تلك التي تظهر في توليه خدمة البيت مهن .

(١) عقبة محمد ص ١٢٤

(٢) عقبة محمد ص ١٤٥

يقول العقاد : " وقد كان يتولى خدمة الهيت معهن أو كما قال :
(خدمتك زوجتك صدقة) " (١)

وينتقل العقاد الى جانب ثالث من جوانب تلك المعاملة ، وهى
تلك المعاملة الطبية التى تظهر فى التسوية بينهن لدرجة أنه كان يستغفر
الله فيما لا يملك من التسوية بينهن فى الميل القلبي . . يقول العقاد :
" وكان يستغفر الله فيما لا يملك من التسوية بين احداهن وسائرهن ،
وهو ميل قلبه . . (اللهم هذا قسمي فيما أملك فلا تلمني فيما لا أملك)
ولما أقعده مرض الوفاة أن يزورهن كل يوم كما عودهن ، بعث اليهن
فقطف فى سؤالهن : (أين أنا غدا ؟ أين أنا غدا) ليقطن عنده
عائشة ويأذن له فى الإقامة بهيتها " (٢) ، ويستشف العقاد من سؤال
الرسول نساء هذا السؤال استئذانه لباهى فى الإقامة بهيت عائشة . .
وفى هذا من السمو والمعاملة الطبية ما يمد ضربا من ضرب المعاملة
التي لم تحلم ولن تحلم بها الانسانية .

ثم ينتقل العقاد الى جانب آخر من جوانب تلك المعاملة الطبية
التي حظيت بها نساء الرسول من الرسول - صلى الله عليه وسلم -
جانب هو أدل على سمو هذه المعاملة ورقيها ، وعلى أنها ضرب من
ضرب الخيال . وذلك هو طيب المعاملة حين تتعرض الحياة الزوجية
لخطر ميسها ، وهو خطر المساس بالوفاة . . إذ أن طيب المعاملة
والحالة هذه أدل على الخلق المكن والطبع الأصيل ، وأنه أمر مركسوز
فى الطباع لا يفارق النفس ولا يفارقه .

(١) عمقيرة محمد ص ١٤٥ .

(٢) عمقيرة محمد ص ١٤٥ ، ١٤٦ .

يقول الحقاد : " والمعاملة الطيبة فى الزمن الطويل خلقت نادراً بين الناس ، ولكنه فى حالة الرضا خلق لا يشق فهمه على كثيرين الا أن الخلق الذى يشق فهمه على الأكثرين هو طيب المعاملة عندما تتعرض الحياة الزوجية لأخطر ما يمسها من خطر وهو المساس بالوفاء .. فى هذه الخلقة تتسامى الحضارة الحديثة ما تتسامى فلا نخالها تحلم بمعاملة أطيب ولا أكرم من المعاملة التى أثرت عن النبى فى قصة عائشة بنت الصديق وهى أحظى نساءه لديه ، وتلخصها ما روتها بلسانها ، إذ تقول رضى الله عنها ... الخ " (١)

ومع أن يروى هذه القصة ، يخلص منها إلى أن الرسول صلى الله عليه وسلم قد ضرب المثل الأعلى والقذوة الحسنة فى معاملته لزوجته عائشة " بعد أن أحاطت بها التهم ، وأشارت إليها أصابع الشك والارتباب .. معاملة طيبة فيها رفق ورمزة فى حالة يفقد فيها الرفق والمرأة بل يتوقع فيها ضد هذه ، وذلك فهذه القصة " مसार صادق يسير لنا أغوار المرء والمرء فى معاملة النبى لزوجاته حيث لا رفق ولا مرؤة عند الأكرمين ، فليس النبى هنا فى حالة من حالات الرضا التى تَشْلَعُ بالطهارة ، ولا تستغرب معها المودة وطول الأناة ، ولكنه فى حالة من تلك الحالات التى تثير الحمية وتثير الحب وتثير النعمة ، وتثير فى النفس البشرية كل سلكة تدعو إلى طيب المعاملة ، فلم يكن فى هذه الحالة إلا كرمًا خالصًا بما سلك فى أمر نفسه وفى أمر أهله وفى أمر دينه ، ولم يدع لحالم من حالى الحضارة الحديثة مرتقى يتطلع إليه فى جميع هذه الغفوات .. " (٢)

- (١) عبقريّة محمد ص ١٤٦ .
(٢) عبقريّة محمد ص ١٥١ ، ١٥٢ .

د : وحين يتحدث العقاد عن معاملة محمد لمبيده وخدمته
نجد أنه يتبع ويستقصى جوانب هذه المعاملة التي لم تقف عند حدود ما أمر به
الدين في معاملة المبيد والخدم ، بل كانت فوق ما أمر به الدين ،
ولم يقف العقاد عند معنى المعاملة الطيبة فحسب ، بل مضى بالمعنى
الى أقصاه ، فمعاملة الطيبة لخدمه ومبيده كانت برا بهم ٠٠ كما كانت
برا بالخدمة ، وفي البر بالخدمة ارتضاع بالخدام الى مقام السادة .

ومد أن يتبع العقاد جوانب المعاملة الطيبة التي حظى بها
عبيد محمد وخدمته ٠٠ بل المبيد والخدم عموما ، وهي البر بالخدم
والبر بالخدمة - يأخذ في تفصيل كل جانب مع إيراد الشواهد والأدلة
على ذلك ٠٠

فمن الجانب الأول : وهو البر بالخدم والأرقاء يقول العقاد : ٠٠ ولو
وقف النبي عند هذا الحد - أي : الحد الذي فرضه الدين - فسي
معاملة الأرقاء لأحسن وأجمل وأماز بأمر دينه على كل محسن الى الأرقاء
في زمانه ، الا أننا نقرر الواقع ولا نتعمده قيد شعرة حين نقول : ان كثيرا
من الأبناء لا يتمتعون عند آبائهم خيرا من المعاملة التي ظفروا بها خدام
محمد ومبيده ، ومن من الآباء يحسن الى أبنائه خيرا من أحسان محمد
لزيد بن حارثة ولاينه أسامة ؟ (١)

ثم يضرب العقاد الأمثلة على ذلك فيقول : " فقد أعتق زيدا
ورآه أهلا للزواج بمقيلة من أقرب قريباته اليه وأولاهن بحده وتوقيره ،
وهي التي رآها بعد ذلك أهلا لزواجه بها وحظوتها لديه ، فلم يعطه

الحرية وكفى ، ولم يحطه المساواة في العيش وكفى ، بل رفعه الى المنزلة الاجتماعية التي يرتفع اليها السادة ، ولا يثبتها شئ كما يثبتها شرف المصاهرة ، ثم حفظ هذا البر الابوى لابنه أسامة فولاه جيش الشام وهو دون العشرين وفي الجيش طائفة من أكابر الصحابة فلو كان للنبي ولد في سنه لما تكفل به أحسن من هذه الكفالة ولا ميزه أشرف من هذا التمييز . (١)

وبرينا العقاد - وهو يَهْضُلُ هذا الجانب وهو يهره بخدمة ومجده - أن هر الرسول بخدمة ومجده كان طبعه وذيدته في جميع الأحوال - حتى في الحالة التي تستوجب التأديب والعقاب - تأديها للنفس وتهذيبها للخلق - وهي الحالة التي يَهْضُرُ فيها المبد أو الخادم عن أداء واجب أو تنفيذ خدمة أمره بها سيده أو مخدومه - حتى في هذه الحالة كان النبي يرا كله وعظما كله وكانت كلماته الى المخالفين منهم أقرب الى الملاطفة منها الى العقاب .

يقول العقاد " . . . ولم يستبح في غضبه ما يستبيحه المملسم والوالد من ضرب وتعزير ، وربما كانت كلماته للخادم المخالف أقرب الى الملاطفة منها الى العقاب ، ومن ذلك قصة الصيفة التي أرسلها فأبطأت في الطريق فإزاد على أن قال لها حين عادت : (لولا خوف القصاص لأوجعتك بهذا السواك !) ضرب سواك لابن عزيز ليس بالشئ الكبير ولكن محمدا يخشى القصاص اذا استباحه في معاملة صيفة تهمل أمره ، وهو الذي لا يهمل له أمر عند سادة الشرفاء . . . وروى أنس أن النبي أرسله في حاجة فأنحرف الى صبيان يلعبون في السوق (وإذا رسول الله صلى الله عليه وسلم قد قهض ثيابه من ورائي فنظرت اليه صلى الله عليه

وسلم وهو يضحك ، فقال : يَا أُنَيْتُ اذهب الى حيث أمرتك . " (١) ثم يقول العقاد معلقا على هذا الحديث : " كلمة أمر لا يقولها لخدامه الا وقد ناداه مدلا ، وقابله ضاحكا ، كأنه يعتب على قرين ، وقد يسلم القرين بأشد من هذا الايلاء " (٢)

ويغوص العقاد في أعماق هذه النفس البارة ليرينا أن بر الرسول بالخدم والمعيد لم يكن قاصرا على خدمه وعبيده بل " كانت رحمته بمبيد غيره كرحمته بمبيده ، فكان يجاملهم ويَجَبِّرُ كسرهم ويقل منهم الهديسة ويكافئ عليها ويلبى دعوتهم اذا دعوه الى طعام ، ويوصى بهم قائللا ، (هم اخوانكم وخولكم جعلهم الله تحت أيديكم فمن كان أخوه تحت يده فليطعمه مما يأكل ويلبسه مما يلبس ولا تكلفوهم ما يغلبيهم فان كلفتموهم فأعينوهم) و (اتقوا الله في الضعيفين : النساء والرقيق) " (٣)

وينتقل العقاد الى الجانب الثانى من معاملة الرسول لمبيده وخدمه - وهو البر بالخدمة - وفي هذا الجانب يرينا العقاد أن بر الرسول بخدمه وعبيده لم يقف عند حدود الرحمة بهم والمطف عليهم - والاحسان اليهم - كما مر في الجانب الأول - بل تعداه الى أمر هو أدل على المعاملة الطيبة من الرحمة نفسها والمطف نفسه ، ألا وهو اشعارهم بالمساواة وأنه مثلهم ، حيث كان صلى الله عليه وسلم يقوم بهمض الأعمال الهيئية التى هى من شأن الخادم أو المبد الذى يعمل عنده مخدومه أو سيده ، وفي هذا رفع من أمر الخادم أو المبد فى عين نفسه

(١) عهدة محمد ص : ١٩٦ ، ١٩٧ .

(٢) المرجع السابق : ص ١٩٧ .

(٣) المرجع السابق : ص ١٩٧ .

وَتَطْيِيبٌ لِّخَاطِرِهِ وَجَبَرٌ لِّكُسرِهِ ، كما أنه أنقى للهوان. الذى يشمر به
هؤلاء الضعفاء فى قرارة نفوسهم ، حيث يرون مخدومهم أو سيدهم
يشاركهم بعض الأعمال التى يقومون بها ..

يقول العقاد " وربما كان البر بالخدمة فى هذا المقام أكرم
وأبقى للهوان من البر بالخدم .. فالبر بالخدام علف عليه ، أما البر
بالخدمة فارشاع بالخدام الى مقام السادة حيث لا يأنف السادة من خدمة
أنفسهم بأيديهم ، وذلك هو البر بالخدمة كما عرفت ، وذلك هو أدب النبى
الذى جرى عليه فى بيته وبين أهله وخدمه " (١)

ويضرب العقاد الأمثلة على ذلك فيقول : " فقد كان يَحْلِبُ شاتيه
وَيُخَصِّفُ نعله ، ويخدم نفسه ، وَيَلْبِسُ ناضحاً أى الهمير الذى يستقى عليه
الماء - فإذا رأى الخدم لهم عملاً فى البيت يماثل عمل سيدهم ومالك
أمرهم ، فظنك هى المساواة التى تسمح بظهور الخدمة وتجبر كسرهما ولا تقتصر
على المطف والرحمة .. ولم يقل عليه السلام خدمة من خادم يأنف
الأحرار أن يقضوها له شاكرين . فما كان فى رجالات المسلمين كاهن من
كاهن الا كان يتمنى أن يؤدى لهنه تلك الخدمة التى تطوعت بها نفوس
مواليه وأتباعه . وهذا ضرب آخر من ضرب البر بالخدمة والتسوية فيها
بين مقام الخادم ومقام المريد . فكان عمل الخادم عنده عمل التلميذ
الذى يجلس الى قدمي أستاذه رُحاً لا خُتوطاً ، وتوقيراً لا مذلةً ، وأدباً
يفرضه على نفسه وليس بضرية مكتوبة يفرضها عليه المرف والتأديب .. " (٢)

وما أردنا من أمثلة وشواهد على خاصتى : التهج والاستقصاء ،
والشرح والتفصيل فى عرض العقاد لجوانب المبيعة المحمدية ، من خلال

(١) عقيدة محمد ص ١٩٧

(٢) المصدر السابق ص ١٩٨

جوانب حياته المخططة - انتهيا بها على سهيل المثال لا الحصر ، ووسع القارئ أن يلح الكثير من الأمثلة والشواهد على هاتين العمودتين من خلال فصول هذا الكتاب ..

٣ - تقصى البواعث والأسباب :

وكما يتتبع المقاد صفات الثفرد وسمات التميز في جوانب شخصية الرسول الكريم من فصاحة ، وعاطفة انسانية .. وطيب محاملة .. وير يخدمه ، مما أوردناه سابقا ، وغير ذلك من صفات وسمات وشارات مما لم نذكره ..

... كما يتتبع المقاد هذه الصفات وتلك السمات ويستقصيها منقبا عنها في أقواله وأفعاله وتصرفاته صلى الله عليه وسلم ، وما يستتبع هذا التتبع ذاك التقصى من شرح وتحليل وتفرع وتفصيل ، كما أوضحنا سابقا - كان المقاد كثيرا ما يتتبع بواعثها وتقصى أسبابها ويكشف عن مكوناتها .. كما يتتبع وتقصى البواعث والأسباب لكثير من التصرفات والأحوال ، خاصة تلك التصرفات والأحوال التي وقعت في حياته صلى الله عليه وسلم ، وحرفها عن بواعثها الحقيقية وأسبابها الرئيسة كثير من المتعصبين والمفرضين والحاقدين ، وهو في تنهيه وتقصيه للبواعث والأسباب لا يكتفى بسردها ، بل يواكب التتبع والتقصى ويسايرهما شرح وتحليل وتفسير مدعوم بالشواهد والأدلة من أفعال النبي - صلى الله عليه وسلم - وأقواله وأحواله وتصرفاته ..

١ : فمن النوع الأول - وهو الرجوع بالصفات المحمدية والسمات النبوية الى بواعثها وأسبابها - ما يذكره المقاد حين يتحدثنا عن :

١ - صفة " الرسالة " فى الرسول صلى الله عليه وسلم فيقول :
 " خلق محمد بن عبدالله ليكون رسولا مبشرا بدين .. " (١)

فالعقاد هنا حين يثبت صفة الرسالة للرسول صلى الله عليه وسلم لا يثبتها له غمراً بلا ضابط ، ولكنه يفتح الأسباب ويتقصى الموامل التى جعلت الرسالة فى محمد شيئاً طبعياً .. صفة الرسالة فى محمد شئ طبعى ، لأنها صفة اجتمعت له أسبابها ، حين تعددت هذه الأسباب وتوعدت بين نوعين : .. أسباب خارجة عن محمد نفسه ، وأسباب راجعة إليه هو .

أما الأسباب الخارجة عن محمد : فهى أسباب تتصل بزمان الرسالة ومكانها والبيئة التى تحتاج إليها .. فالزمان الذى وقعت فيه هذه الرسالة يقول : ان العالم وقتذاك كان فى حاجة الى نبي ورسول ، لأنه " كان عالماً متداعياً قد شارب النهاية .. خلاصة ما يقال فيه أنه عالمٌ فَقَدَ العقيدة كما فقد النظام " (٢) .. عالم يتطلع الى حال غير حاله .. عالم يتهدى للتهديل أو للهدم ثم للبناء " (٣) وحوادث الكون تقول : ان الأمة العربية هى أحق الأمم المتداعية آنذاك أن يبحث فيها النبي والرسول ، لأنها " أمة ليست بذات دولة ، ولكنها تتأهب لاقامة دولة .. وقد تيقظت لوجودها وشمرت بمكانتها كما شمرت بالخطر عليها همواض النقص فيها .. خطر من خارجها ، يزداد الأمة يقظة وانتهاها لوجودها ، وخطر من داخلها يدفع بها دفعا الى الزوال ، أو الى استكمال النقص المستشري فى حياتها " (٤)

(١) عمقيرة محمد ص ٢٥

(٢) المصدر السابق ص ١٢ (٣) المصدر السابق ص ١٨

(٤) المصدر السابق ص ١٨ ، ١٩

كما تقول حوادث الكون: ان البيئة التى تحتاج الى هذه الرسالة
هى البيئة المكية، لأن مكة هى المدينة التى " تجتمع فيها ثروة الجزيرة،
وصبة واحدة من سادة القوم، تجتمع فى أيديها ثروة المدينة .. حالمة
لا استقرار فيها .. فمن هنا الترف والطمع والخمر والقمار والمتعة وتسخير
الأقوياء للضعفاء .. ومن هنا الفاقة والحسرة والشك فى صلاح الأمور ..
ولكنه شك يحث ويضطرب .. وليس بالشك الذى يستجمل ويستكين .. حالة
لا تستقر .. ولا تزال فى طلب الاستقرار .. وأمة يقتل .. وخطر محقق
بها ما حولها .. وما هو فى داخلها وأحشائها .. حالة تنذر بالزوال،
وقلما يزول أمة يقتل فى أوان انتهاءها .. فذلك اذن حالة للتهديم
والتجديد " (١)

وأما الاسباب الراجعة الى محمد: فهى أسباب تعمل بتقبلته
حيث: جده وأبيه .. وأسباب تعمل بمحمد نفسه .. ويحدث العقاد عن
قبيلة الرسول فيقول:

لها شمتان: احداها من أصحاب الترف والطمع واستهزاء ما
هو قائم كما كان قائماً على هواها .. والاخرى من أصحاب التقوى والسماحة
والتوسط بين مقام القوى الذى يجور ويظلم ويستبقى أداة الجور والظلمان،
ومقام الضعيف الذى يحتل الأذى ويصير على الكبرياء ولا يملك مع السيد
الامر الا أن يذعن له .. ويأكل من فضلات يديه " (٢)

حيث محمد - كما يقول العقاد -: " من تلك الشمة الوسطى
له كرم النسب العريق ولهم له لخم الثروة الجامعة والكبرياء الجائحة والقسوة

(١) عبقريه محمد ص ١٩، ٢٠.

(٢) عبقريه محمد ص ٢١.

على من دونه من المحرومين • ذلك هو بيت عبدالمطلب من صميم قريش
ومن ذؤابتها العليا ، وإن لم يكن معدودا من أثرياء القبيلة القرشية
فى ذلك إلا وإن • ورأس هذا البيت — عبدالمطلب — رجل قوى الخلق
قوى الايمان فيما آمن به ، حكيم مع قوة طبعه وشدة ايمانه ، خليم
أن ينجب العقب الذى يشر بدعوة وينزع عن دين... وإذا كان عبدالمطلب
جدا صالحا لنبي كريم ، فابنه عبدالله نعم الأب لذلك النبي الكريم •
لأننا كان بضعة من عالم الغيب ، أرسلت الى هذه الدنيا لتمقب فيها
نبيها وهى لا تراه ثم تعود •• (١)

وإذا كانت قبيلة محمده وإذا كان بيت محمد : أبوه وجده ، أصلح
ما يكونون لانجاب ذلك النبي الذى يتطلع العالم اليه — فان نفسى
محمد من الصفات والمناقب ما يرشحه لدرجة النبوة والرسالة ، وهنا يحدثنا
المقاد عن هذه الصفات وتلك المناقب التى رشحته للنبوة والرسالة — أى :
عن الأسباب المتصلة بمحمد نفسه ، فيقول :

” رجل لا يَشْرُكُهُ رجلٌ آخر فى صفاته ومقدماته ، ولا يدانيه رجل آخر
فى مناقبه الفضلى التى هيأته لتلك الرسالة الروحية المأمولة فى المدينة ••
وفى الجزيرة •• وفى العالم بأسره :

نبيل عريق النسب •• وليس بالوضيح الخامل ، فيصْفُرُ قدره نفسى
أمة الأنساب والأحساب ••

فقير •• وليس بالغنى المترف فيطفيه بأس النبلاء الأغنياء ، ويخلق
قلبه ما يخلق القلوب من جشع القوة والفساد •

يشم بين رحمة ٥٥ ظلم هو بالمدلل الذي يقتل فيه التدليس ملكة الجذ والارادة والاستقلال ، وليس هو بالمهجور المنهذ الذي تقتل فيه القسوة روح الأمل وعزة النفس وسليقة الطموح ، وفضيلة العطف على الآخرين .

خير بكل ما يختبره العرب من ضرب العيش في البادية والحاضرة . تربي في الصحراء وألف المدينة ، ورعى القطعان ، واشتغل بالتجارة ، وشهد الحروب والأحلاف ، واقترب من المرأة ولم يعتمد من الفقراء ٥٥ فهو خلاصة الكفاية العربية في خير ما تكون عليه الكفاية العربية ٥٥ وهو على صلة بالدنيا التي أحاطت بقوة ٥٥ فلا هو يجهلها فيَقْلُ عنها ، ولا هو يناسها كل الغفلة فيَهْرَقُ في لجتها ، أصلح رجل من أصلح بيت في أصلح زمان لرسالة النجاة المرقومة ، على غير علم من الدنيا التي ترقبها (١)

ومثل هذا التمثل والتفسير يكشف العقاد عن الأساليب التي رشت محمدا ليكون النبي الذي تنتظره الدنيا .

٢ - ومن هذا النوع ما يذكره العقاد حين يتحدث في فصل " عقبة الداعي " فيقول : " فما من عجب أذن أن يكون محمد صاحب دعوة ، وما من عجب أن تتجه دعوته حيث اتجهت ، وأن تبلغ من وجهتها النهاية التي بلغت " . (٢)

فالعقاد - هنا - حين ينفي العجب أن يكون محمد صاحب دعوة ، وحين ينفي العجب أن تبلغ دعوته من وجهتها النهاية التي بلغت ، فإنه يثبت - في الوقت نفسه - لمحمد صلى الله عليه وسلم - الداعية

(١) عقبة محمد ص ٢٤ ، ٢٥ .

(٢) المرجع السابق ص : ٣٤ .

صفة الثغرد والامتياز فى ابلهه دعوته على الوجه الأكمل ، والتي به بلغت الغاية التى بلغتها . والمعاد ، لا يخلع على الرسول -داعياً- صفات الداعى الحسنى بلا حساب ، ولكنه يرجع بالقارئ الى الأسباب التى جعلت من محمد صلى الله عليه وسلم خير داعية ، ويرجع به - بالتالى - الى الأسباب التى جعلت دعوة محمد تهلج الغاية التى بلغتها .

يقول المعاد : " فكان محمد مستكماً للصفات التى لا غنى عنها فى انجاح كل رسالة عظيمة من رسالات التاريخ .. كانت له فصاحة اللسان واللغة .. وكانت له القدرة على تأليف القلوب وجمع الثقة .. وكانت له قوة الايمان بدعوته وبغيرته الهالفة على نجاحها .. " (١)

ثم يأخذ المعاد فى تحليل كل صفة من هذه الصفات التى بها كان محمد خير داعية ، والتي بها استطاع محمد أن يصل بدعوته الى الغاية التى وصل اليها .. فيحدثنا عن فصاحته - وهى الصفة الأولى - فيقول : " أما فصاحة محمد .. فقد تكاملت له فى كلامه ، وهى هوشية نطقه بكلامه ، وهى موضوع كلامه .. " (٢) ثم يتناول المعاد جوانب فصاحته بالشرح والتفصيل .

ثم يحدثنا عن الصفة الثانية - وهى قدرته على تأليف القلوب وجمع الثقة - أما قدرته صلى الله عليه وسلم على تأليف القلوب ، فيرجعها المعاد الى صراحة وجهه ودمائه خلقه اللتين تجهانه الى كل من رآه .. وكانت له مع الفصاحة صراحة ودمائة تجهانه الى كل من رآه ، وتجمعان اليه قلوب من عاشروه ، وهى صفة لم يختلف فيها صديق ولا عدو ، ولم ينقل

(١) عقيدة محمد ص ٣٠

(٢) المصدر السابق ص ٣٠

عن أحد من أقطاب الدنيا أنه بلغ بهذه الصفة مثل ما بلغه محمد بن
الضعفاء والأقوياء على السواء^(١) ثم يأخذ العقاد في إيراد الشواهد
على محبة الناس على اختلافهم للرسول الكريم ..

أما قدرته - صلى الله عليه وسلم - على جمع الثقة فيرجعها
العقاد الى صدق الرسول وأمانته " وكان مشهورا بصدقه وأمانته كاشتهاره
بوسامته وحنانه ، وشهد له بالصدق والأمانة أعداؤه ومخالفوه ، كما شهد
بهما أحابيه وموافقوه ، وامتلأ هو من العلم بمنزلة من ثقة القوم ، فأحسب
أن يستعين بها على هدايتهم وترغيبهم في دعوته فكان يسألهم : " أرايتم
لو أخبرتكم أن خيلا يفتح هذا الجيل أكنتم تصدقوني ؟ " فيقولون :
" نعم ، أنت عندنا غير متهم "^(٢) وينتهي العقاد الى أن الرسول
بوسامته ودماثة خلقه وصدقه وأمانته ، كان حائزا على محبة الناس وثقتهم ،
ومن هنا كانت له القدرة على تأليف القلوب وجمع الثقة .. أما محمد
فقد كان جامعا للمحبة والثقة كأفضل ما تجتمعان^(٣) .

ثم يتناول العقاد الصفة الثالثة - وهي إيمانه صلى الله عليه وسلم
بدعوته وغيرته عليها - ، فيبين أن الرسول كان مؤمنا بدعوته أشد الإيمان ،
غيرا عليها ، أشد ما تكون الغيرة ، وإيمانه بها وغيرته عليها ناهيان
من يقينه أنها الدعوة الحق ، ومن علم أنها الدعوة المناسبة لفساد
الزمان ، ولقد كان متشوقا الى الدين الحق ، لأنه كان يؤمن بفساد
الزمان وضلال الأوثان .. " وقد قضى محمد عليه السلام شبابه وهو
يؤمن بفساد الزمان وضلال الأوثان .. وجارره أناس أقل منه نهلا في النفس

(١) عترة محمد ص ٣٢

(٢) عترة محمد ص ٣٣

(٣) المصدر السابق ص ٣٣

ولطفًا في الحسن ونفورا من الرجس ، آمنوا بمثل ما آمن به من فساد عصره وضلال أهله ، ومن حاجتهم الى عبادة غير عبادة الأصنام ، وآداب غريب آدابهم في تلك الأيام .. " (١) ثم يقول : " ولما آمن برسالته هو ودعوة به اياه الى القيام بأداء تلك الرسالة ، لم يَهْجُم على هذا الايمان هجوم ساذج ولا هجوم يوم ، ولم يتعجل الأمر تعجل من يخدع نفسه قبل أن يخدع غيره ، ولكنه تردد حتى استوثق وجزع حتى اطمأن . وخطر له في فترة (٢) من الوحي أن الله قلاه وأعرض عنه ، ولم يأذن له في دعوة الناس الى دينه ، ثم طلق الطمأنينة من وحي به ومن وحي قلبه ومن وحي صمحه ، فصدع بما أمر ورضى ضميره بما أوتى من الهداية على النحو الذي رضيت به ضائير الأنبياء وأصحاب الفطرة الدينية .. " (٣)

وهذا التحليل والتفسير يكشف لنا العقاد عن الصفات والمؤهلات التي رشحت محمدا ليكون خير داعية ، يَلْغ الناس خير دعوة على خير وجه ، وهي النتيجة التي انتهت اليها العقاد بعد كشفه عن هاتيك المؤهلات وتلك الصفات .. التي أشرنا اليها — أول هذا الكلام — حين قال : " فما من عجب اذن أن يكون محمد صاحب دعوة . وما من عجب أن تتجه دعوته حيث اتجهت ، وأن تبلغ من وجهتها الغاية التي بلغت .. " (٤)

٣ — ومن هذا النوع أيضا ما ذكره العقاد حين تحدث في فصل " محمد الصديق " أن محمدا كان محبا للناس ، كما كان أهلا لجهنم اياه ، وهو بهذا الحب المتبادل قد تمت له أداة الصداقة من طرفيهما ..

والعقاد — كما قلنا سابقا — لا يثبت الصفات ولا يخلق السمات

(١) عبقريه محمد ص ٣٣ و ٣٤ .

(٢) الصواب : في فترة ، أما الفترة فاستعمالها خطأ هنا .

(٣) عبقريه محمد ص : ٣٤ .

(٤) المصدر السابق ص : ٣٤ .

بلا قانون ولا ضابط .. ولكنه - كما قلنا أيضا - يرجع بالصفات ويمرود
بالسمات الى بواعثها وأسبابها .. فهو - هنا - لا يكفى بتقرير
أن محمدا قد تمت له أداة الصداقة من طرفيها .. لأنه كان محمدا
للناس .. مجيها منهم .. بل يمرود بالقارئ ليطلع على السر الذي
جعل محمدا حائزا هذه المنزلة .. والسر هو أن محمدا كان مستكملا
لشروط أداة الصداقة : " انما تتم أداة الصداقة بالمعاطفة الحية ،
والذوق السليم ، والخلق المتين ، وقد كان محمد فى هذه الخصال جميعا
مثلا عاليا بين صفوة خلق الله " (١)

ثم يأخذ العقاد كل خصلة من هذه الخصال بالشرح والتحليل
وايراد ما يدل عليها من الشواهد والأدلة .

فمن الخصلة الأولى - المعاطفة الحية - يقول : " كان عطفنا
يؤاؤم من حوله ويودهم ، ويدوم لهم على المودة طول حياته ، وان تفاوت
ما بينه وبينهم من سن وعرق ومقام .. كان صبييا فى الثانية عشرة يوم
سافر عنه ، فتعلق به ، حتى أشفق العم أن يتركه وحده فاصطحبه ففى
سفره ... وليس فى سجل المودة أجمل ولا أكرم من خنائه على مرضعته
حطية ، ومن حفاوته بها وقد جاوز الأعمى ، فعلقها هاتقا بها :
أى ! أى ! ، ويفرش لها رداءه ، ويمس ثديها بيده ... كأنه يذكر
ما لذلك الثدي عليه من جمال ، ويعطيها من الأهل والشاة ما يغنيها
فى السنة الجديدة ... وقد اتسع عطفه حتى يسهل للأخوة كافة ،
.. فكان يضى الاناء للهرة لتشرب ، وكان يواسى فى موت طائر يلهمو

به أخو خادمه ٠٠ لا يل شمل عطفه الأحياء والجماد - كأنه من الأحياء -
فكانت له قصعة يقال لها "الغراء" ، وكان له سيف مطى يسمى "ذا الفقار" (١) .

وعن الخصلتين : الثانية والثالثة - الذوق السليم والخلق المتين -
يقول : " هذه العاطفة الانسانية التى رجحت حتى شملت كل ما أحاطت
به وأحاط بها ، لم تكن هى كل أداة الصداقة فى تلك النفس العلوية ،
بل كان معها ذوق سليم يضارعها رفعة ونهلا ، ويمثل - فيما يرجع
الى علاقات النبى بالناس - فى رعاية شعورهم أتم رعاية وأدائها على
الكرم والجود (كان اذا لقيه أحد من أصحابه فقام معه قام معه ،
فلم ينصرف حتى يكون الرجل هو الذى ينصرف عنه ، واذا لقيه أحد
من أصحابه فتناول يده ثاوله اياها فلم يتزع يده منه حتى يكون الرجل
هو الذى يتزع يده منه ٠٠) (وكان اذا ودّع رجلا أخذ بيده فلا يدها
حتى يكون الرجل هو الذى يدع يده ٠٠) (وكان أرحم الناس بالصبيان
والعمال) ٠٠ (وكان أشد حياء من المذراء فى خدرها ٠ وأصبر
الناس على أقدار الناس) يحفظ مغيبيهم كما يحفظ مخضرمهم ، ويقول لصجه :
(من أطلع فى كتاب أخيه بخير أمره فكأنما اطلع فى النار) " (٢)

ويلاحظ أن المقاد لم يكتف بتحليل هذه الخصال الثلاثة ،
بل استطرد فأضاف اليها بعضا من خلائقه النفسية - صلى الله عليه
وسلم - ومزاياء الخلقية ، التى كانت أدبا مرعيا منه فى صداقاته مع
الناس " ومع العاطفة الانسانية والذوق السليم والأدب الكريم : سَمْتُ جَمِيلٌ
ونظافة بالغة وجِوُزٌ على أن يراء الناس فى أجمل مرآه ، ومع هذا كله

(١) عمقيرة محمد ص ١٢٢ ، ١٢٣ ، ١٢٤ .

(٢) المصدر السابق ص : ١٢٤ ، ١٢٥ .

أمانة يثق بها العدو فما بال الصديق ؟ وحسبك من ثقة الناس به —
ما أو دعوته لديه من أمانات وهم ينصبونه المداء " (١)

وهذا التحليل والتفسير يكشف العقاد عن عظمة الرسول في باب
الصدقة، وأنها عظمة استمدت أصولها ومنابعها من المزاي التي امتاز
بها الرسول — صلى الله عليه وسلم — في صداقاته المتعددة وجعلته
محا لمن حوله ، جديرا بحبهم إياه .

وهذا التحليل — أيضا — يخلص العقاد الى هذه النتيجة —
التي راجع يبحث عن مقدماتها وأسبابها — " كل هذه المزاي النفسية —
بل بعض هذه المزاي النفسية — خليق أن يتم لصاحبه أداة الصداقة
أو في تمام ، وأن يجعله محا لمن حوله ، جديرا منهم بأحسن حسب
وولاء " (٢)

ب : ومن النوع الثاني — وهو الرجوع بتصرفات النبي وأحواله
التي وقعت منه الى بواعثها وأسبابها وظلها الحقيقية ، والتي حرقها
عن مواضعها كثير من المستشرقين والمتصبيين والحاquدين — من هذا
النوع ما يذكره العقاد حين يحدثنا عن الأسباب الحقيقية التي كانت وراء
تعدد زوجات الرسول ، وحين يحدثنا عن البواعث الحقيقية التي كانت
وراء خروج الرسول الى ساحة المعركة لرؤية صرعى بدر من المشركين ،
وحين يحدثنا — أيضا — عن الأسباب الحقيقية التي كانت وراء نجاح
الدعوة الإسلامية ..

(١) عبقريّة محمد ص : ١٢٥ .
(٢) الصدر السابق ص : ١٢٦ .

والمقاد في كشفه عن الأسباب والبواعث الحقيقية لهذه التصرفات
وتلك الأحوال، إنما يرد على أولئك اللاططين والمهاترين والحاquدين الذين
حاولوا أن يسوغوا بعض تصرفات النبي وأفعاله تسويهاً يثقف وهواههم
وأن يرجعوها إلى أسباب هوائيات تتفق وما ينطوى في نفوسهم من غشيل
وحقد نحو رسول الاسلام صلى الله عليه وسلم .

ومن الجدير بالذكر أن المقاد عني بالجوانب التي كانت مشار
طمن وافترء ، ومحل جدل وكلام عني تلك الأمسية التي حدثنا عنها
المقاد ، وهي مسألة تعدد زوجات الرسول ، ومسألة أن بطولة محمد ،
أنما هي بطولة سيف ودماء . ومن هنا يكمن السر في طول الفصلين :
"عقربة محمد المسكربة - الزيج ."

يقول المقاد : " .. ونظرنا اتفاقاً فإذا بأطول الفصول فيه
للفصلان اللذان شرحنا فيهما موقف محمد من الحرب ومن الحياة الزوجية
لأنهما كانا مثار اللفظ تلك الليلة على مَقَرَّةٍ من ساحة المولد ، وكانا مشار
اللفظ في كل ما ردهه سفيهاً الشائنين من الأصلاء والمقتدين في هذا
الباب " (١) .

وحسبنا أن نشير إلى بعض هذه الجوانب التي تناولها المقاد
بالشرح والتحليل ، كما تناول بواعثها وأسبابها الحقيقية ، رداً على
المستشرقين ، ودفعاً لللاططين والمهاترين :

١ - تعدد زوجات الرسول ..

كانت مسألة تعدد زوجات الرسول صلى الله عليه وسلم من المسائل

التي ثار حولها اللفظ وكثر ازهاها الجدل والكلام ، بل كانت إحدى هدفين أراد المستشرقون المتعصبون والحاقدون المكابرون أن يضيوا الرسول فيها ، وأن ينالوا من علمته عن طريق التشهير به - كذبا وافتراف - من خلال هذين الهدفين ، وكان الهدف الأول : أن الرسول بحرمته وانتصاراته لم يكن إلا بطل سيف ودما . وأن الاسلام - لذلك - قام بالسيف وعلى الدما ، ولم يقم على الحجة والافتقار . . . أما الهدف الثاني ، فهو ما نحن بصدده الآن ، وهو أن الرسول بزواجه من تسع نساء وقد جمع بينهما في وقت واحد ، لم يكن إلا رجلا مستعلما لنزوات شهوته وشهوات حسه ، ولم يكن لتعدد زواجه من أسباب سوى ذلك إما هكذا رماه المشبهون في هذين الهدفين : السيف والمرأة " كأنهم يريدون أن يجمعوا على النبي بين الاستعلاء للخضب والاستعلاء للهوى ، وكلامها بعيد عن صفات الأنبياء " (١)

والمقاد في هذه المسألة سلك طريقتين مما :

الطريق الأولى ، هي دفع هذه الفرية : وهي أن الرسول رجل مستسلم لنزوات شهوته . . وابطالها ودحضها بالأدلة الدامغة والحجج البينة . .

الطريق الثانية : هي شرح وتحليل الأسباب الحقيقية والبواعث النفسية التي كانت وراء تعدد زواجه صلى الله عليه وسلم ، وكشفها والبحث عنها . .

ويسلك المقاد الطريق الأولى ، فيقول : " فمن ذا الذي يعلم ما صنع النبي في حياته ثم يقع في روعه أن المرأة شغلته عن عمل كبير

أو عن عمل صغير ؟ مَنْ مِنْ بَنَاءِ التاريخ قد بنى فى حياته ومعد مآثره تاريخاً أعظم من تاريخ الدعوة المحمدية والدول الإسلامية ؟ ومن ذا الذى يقول ان هذا عمل رجل مشغول ؟

عَمَّ شغلته المرأة ؟ ومن ذا تفرغ لمطيم من المسمى فبلغ فيه شأو محمد فى سماء ؟ فان كانت عظمة الرجل قد أتاحت له أن يعطى الدعوة حقها ويعطى المرأة حقها ، فالمطمة رجحان وليست بنقص ، وهذا الاستيفاء السليم كمال وليس بمعيب . (١)

والمقاد لا يدفع هذه الغربة عن الرسول صلى الله عليه وسلم بدافع الحب والخيرة ، بل يدفعها بالمنطق البين والحجة القوية ، بسل وورد من الشواهد والأدلة ما يبرهن به على كذب مطلق ما يتقوّ به أولئك المفترون والمهملون . . مستخرجاً تلك الشواهد وهذه الأدلة من تاريخ الرسول نفسه بعد الرسالة ، بل قبل أن يبعث رسولا .

يقول المقاد : " وأعجب شيء أن يقال عن النبى أنه استسلم للذات الحسنة ، وقد أوشك أن يطلق نساءه أو يخبرهن فى الطلاق لأنهن طلبن اليه المزيد من النفقة وهو لا يستطيعها ، وقد شكّون - على فخرهن - بالانتماء اليه - أنهن لا يجدن نصيبهن من النفقة والزينة ، واجتمعت كلمتهن على الشكوى واشتدتن فيها حتى وجَّه النبى وهم يتصرحن - أو يخبرهن بين الصبر على معيشتهم والتسريح علام يدل هذا ؟ نساء محمد يشكون قلة النفقة والزينة ، ولو شاء لأغدق عليهن النعمة وأغرقهن فى الحرير والذهب وأطايب اللذات . . أهذا فُعل رجل يستسلم

للذات حسه ؟ أما كان يسيرا عليه أن يفرض لنفسه ولأهله من الأنفـال
والفنائم ما يرضيهـن ولا يفضـب المسلمين ، وهم موقنون أن ارادة الرسول
من ارادة الله ؟ ... وهكذا نهـث عن الرجل الذى توهـمه المشـهرون
من مؤرخى أوربا^(١) فلا نرى الا صورة من أعجب الصور التى تقع فى وهم
واهم : نرى رجلا كان يستطيع أن يمشى كما يمشى الطوك ويتنـج مع هذا
بممشية الفقراء ، ثم يقال : انه رجل غلبته لذات حسه ، ونرى رجلا
تألبت عليه نسائه لأنه لا يعطيهـن الزينة التى يتحلين بهـا لعينهـه ،
ثم يقال : انه رجل غلبته لذات حسه ، ونرى رجلا أثر ممشية الكفاف
والقنـاق على ارضه نساءه بالتوسعة التى كانت فى وسعه ، ثم يقال : انه
رجل غلبته لذات حسه ،

ذلك كلام لو شاء المشهرون أن يرسلوه كالما ضحكا مستغيبا
لأنـلحوا فيما قالوا أحسن فلاح أو لعله أتبع فلاح^(٢) .

والمقاد - كما سبق أن قلنا - لا يكفى فى دفع هذه القرينة
ودحضها بإيراد الشواهد والأدلة من تاريخ الرسول بعد الرسالة ،
بل يستخرجها - أيضا - من تاريخه قبل الرسالة ..

يقول العقاد .. " ويزيد فى غرابته (يعنى الكلام الذى ظالمه
المشهرون) : أن الرجل الذى توهـمه ذلك التوهم لم يكن مجهولا
قبل زواجه ، ولا بعد زواجه فـتـنـحـط فيه الثـنـون ذلك الكـهـط الذى رجع
فمحمـد كان معروف الشهاب قبل قيامه بالدعوة الدينية كأشهر ما يعرف
فى من قريش وأهل مكة . كان معروفا من صباح الى كهولته ، فلم

(١) كذا شاع هذا الرسم للكلمة وهو خطأ ، والصواب : أوربة .

(٢) عـقـريـة محمد ص ١٥٨ - ١٦١ .

يعرف عنه أنه استعلم للذات الحسن في ريعان صباه ، ولم يسمح
 عنه أنه كَمَا كَمَا يَلْمُوهُ الفتان ، حين كانت الجاهلية تبيع ما لا يحاج ،
 بل عرف بالطهر والأمانة ، واشتهر بالجد والرياسة ، وقام بالدعوة بعدها ،
 فلم يقل أحد من شائيه والناعين عليه والمنقبين وراءه عن أهون الهنات :
 تَعَالَوْا يَا قَوْمِ فَانظُرُوا هَذَا الْقَتْلَى الَّذِي كَانَ مِنْ شَأْنِهِ مَعَ النِّسَاءِ كَيْتٌ وَكَيْتٌ
 يدعوكم اليوم إلى الطهارة والعفة ونهذ الشهوات . . . كلا . . . لم يقل
 أحد هذا قط من شائيه وهم عديد لا يحصى . ولو كان لقوله موضح
 لجرى على لسان ألف قائل . ولما بنى بأول زوجاته - خديجة - لم
 تكن لذات الحسن ، هي التي سيطرت على هذا الزواج ، لأنه بنى بها
 وهي في نحو الأربعين ، وهو في نحو الخامسة والعشرين ، ونيف على
 الخمسين وأوى الفتح المبين وليس له من زوجة غيرها ولا من رضىة
 في الزواج بأخرى (١)

ثم يسلك العقاد الطريق الثانية . . في هذه المسألة - وهي
 شرح وتطيل وكشف وتقيب عن الأسباب الحقيقية والبواعث النفسية التي
 كانت وراء تعدد زوجاته - صلى الله عليه وسلم - وهذا هو ما يعنوننا
 في هذه المسألة - ويأخذ العقاد في الكشف عن هذه الأسباب وتلك
 البواعث التي كانت وراء زواجه بتسع نساء جمع بينهن بعد وفاة السيدة
 خديجة رضى الله عنها فيقول : " لو كانت لذات الحسن هي التي
 سيطرت على زواج النبی بعد وفاة خديجة لكان الأحجى بإرضاء هذه
 الملمات أن يجمع اليه تسعا من الفتيات الأبنكار اللاتي اشتهرن بفتنة
 الجمال في مكة والمدينة والجزيرة العربية ، فيسرعن اليه راضيات فخورات ،

وأولياء أمورهن أضى منهن وأخبر بهذه المصاهرة التي لا تملوها مصاهرة
لكنه لم يتزوج بكراً قط غير عائشة رضى الله عنها ، ولم يكن زواجه بها
مقصوداً في بداية الأمر ، حتى رَجَعَتْ فِيهِ خَوْلَةُ بِنْتُ حَكِيم ، التي عرضت
عليه الزواج بعد وفاة خديجة . . . ثم كانت سودة هي أولى النساء
اللاتي بنى بهنَّ بعد وفاة خديجة ، وكان زوجها الأول - ابن عمها -
قد توفي بعد رجوعه من الهجرة الى الحبشة ، وكانت هي من أسبق
النساء الى الاسلام فأمنت وهجرت أهلها ونجا بها زوجها الى الحبشة
فرازا من اعتات المشركين له ولها . فلما مات لم يبق لها الا أن تمرد
الى أهلها فتصفا وتؤذي ، أو تتزوج بغير كف ، أو بكف لا يريد لها ،
فضمها النبي اليه حماية لها وتأليفا لأعدائه من أهلها . وكان غدير
هذا الزواج أولى به لو نَظَرَ الى لذات حس ومآل الى متاع ^(١)

ثم يكشف العقاد عن الباعث على زواج الرسول من زينب بنت
جحش ، صاحبة الفتاة والجمال والحسب ، فهي شابة وعلى قدر كبير
من الجمال ، ومن عقيات بنى هاشم ، ولعل مظنة الرغبة في الشهوة
أو الاندفاع وراء لذات الحس متوافرة في مثل هذه الزيجة ، أو هكذا
يبدو . . ولكن حتى هذه الزيجة لم تكن الرغبة في الشهوة هي الدافع
اليها ، ولا لذات الحس هي الباعث عليها ، وإنما كان وراءها باعث
ودافع آخر " . . وهذه أيضا - يقصد زينب بنت جحش - لم يكن
(للذات الحس) المزعومة سلطان في بناء النبي بها بعد تطبيق
زيد أياها ، وتعذر التوفيق بينهما ، ولو كان للذات الحس سلطان
في هذا الزواج لكان أيسر شيء على النبي أن يتزوجها ابتداءً ، ولا يروى

على قبول زيد وهى ثأباه ، فقد كانت ابنة عمته ، يراها من طفولتها ولا يفاجئته من حسننها شيء كان يجمله يوم عرض عليها زيدا ، وشدد عليها فى قبوله ، فلما تجافى الزوجان ، وتكررت شكوى زيد من اعراضها عنه وترفعها عليه ، ولغلاظها القول له ، كان زواج النبی بها " حلا لمشكلة " بهتية بين ربيب فى منزلة الابن ، وابنة عمه أطاعته نفسى زواج لم يقرن بالتوفيق " (١)

وهنا نحب أن نضيف سببا آخر — هو فى حد ذاته السبب الاصيل فى زواج الرسول من زينب بنت جحش — وهو أن الله تعالى أراد أن يطل ما كان متوارثا عند العرب من عادة التهنى التى تقضى باعطاء الابن المتهنى ما للابن الاصيل من حقوق شرعية وحرمان دينية .. ومن بينها تحريم زوجة الابن المتهنى على أبيه بالتهنى اذا توفى عنها أو طلقها تماما كما تحرم زوجة الابن الاصيل .. فأراد الله أن يطل هذه المادة المتوارثة ، بل أن ينسب هؤلاء الأبناء الى آبائهم الاصيلين ، وليس الى آبائهم بالتهنى ، كما أراد الله تعالى أن يجعل ابطل هذه المادة ، على يد رسوله الكريم ، بأن يتزوج من كانت زوج ابنته بالتهنى ، وزوج رجل كان عبدا ودخل بها — وهى الحسية النسبية — زينب بنت جحش زوج زيد بن حارثة ، ليكون قدوة تقتدى ، ومثلا يحتذى كما أشار القرآن. وهذا السبب لم يَحْضِرْ اليه العقاد ، وهذا مما يؤخذ عليه ، لا سيما أنه كان يسهل كشف البواعث والأسباب التى كانت وراء تعدد زوجات الرسول الكريم .

ثم يحدثنا العقاد عن زواج الرسول ببقية زواجه .. ذلك
الزواج الذى لم يكن له من سبب يدعو اليه سوى الصلحة العامة ، أو
المروءة والنخوة ، أو تكريم من يستحق التكريم ، أو تأليف القلوب وتطبيع
النفوس ، أو أى سبب آخر الا أن يكون ذلك السبب هو لذات الحسن
المزعومة .

يقول العقاد : * أما سائر زواجه عليه السلام فما من واحدة
منهن رضى الله عنهن الا كان لزوجيه بها سبب من الصلحة العامة
أو من المروءة والنخوة دون ما يَهْدُرُ به المرجفون من لذات الحسن
المزعومة . فأم سلمة كانت كهلة مسنة يوم خطبها كما قالت له معتذرة
اليه ، لاغنائى من تكليف نفسه أن يتزوجها ، جبرا لخاطرها بعد موت
زوجها عبد الله المخزومي من جُرِي أصابه فى غزوة أحد ، ولما برز بها
الحزن لوفائه ، واسأها رسول الله قائلا : (سلى الله أن يجررك فى
مهيبتك وأن يَخْلِفَكَ خيرا) فإجابته : (وَمَنْ يَكُونُ خيرا من أبى سلمة ؟)
فأوجب على نفسه خِطْبَتَهَا لأنها تعلم أنه لم يهر من أبى سلمة . . . وجويرية
بنت الحارث سيد قوم كانت إحدى السبايا فى غزوة بنى المصطلق
فقتزوجها النبى ليمتقها ويخضع المسلمين على عتق أسراهم وسباياهم ،
غريبا عنهم وتألفا لقلوبهم ، فأسلموا جميعا ، وحسن إسلامهم . . . وحفصة
بنت عمر بن الخطاب مات زوجها فمرضها أبوها على أبى بكر فسكت ،
وعلى عثمان فسكت ، ومات عمر أسفا للنبى ، فلم يكن عليه السلام ليضن
على وليه وصديقه بالصاهرة التى شَرَفَ بها أبى بكر ، وقال : (يستترج
حفصة مَنْ هو خَيْرٌ من أبى بكر وثمان) . . . (١)

وبمثل هذا التبطيل يكشف المقاد عن الأسباب الحقيقية والبواعث النفسية التي كانت وراء زواجه — عليه السلام — بهزواته الأخريات من أمثال : رمة بنت أبي سفيان ، رصفية بنت حيي بن أخطب اليهودية ، سيدة بنى قريظة .

ويرى أستاذنا الدكتور عبدالسلام سرطان أن تعدد الزوجات للرسول كان لحكمة علياء أشار إليها القرآن الكريم بقوله تعالى : " وَادْكُرْنَ كَمَا مَتَلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ ^(١) " فأمهات المؤمنين كان عليهن تحمل نقل أقوال الرسول وأفعاله التشريعية لئلا حيث يكون ممهمن ، أما بالنهار فينقل عنه الرجال ، ولهذا كان أمهات المؤمنين من ذلك النوع الرصين الرزين القادر على فقه السنة ، وفهم الدين على الوجه الصحيح ، ولهذا لم يكن شابات بل كن سيدات عاقلات حسيصات شديداً الايمان ، وهذا رأى جَدِّ سديدٍ . . لم أقرأه لأحد قبل اليوم .

٢ — نجاح الدعوة الاسلامية :

يَدْعَى الْمُفْرَضُونَ مِنْ أَعْدَاءِ الْإِسْلَامِ أَنْ نَجَاحَ الدَّعْوَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ لَيْسَ لَهُ مِنْ سَبَبٍ غَيْرِ الْوَعْدِ وَالْوَعْدِ أَوْ غَيْرِ الْإِغْرَاءِ بِلَذَاتِ النِّعَمِ وَمَتْعَةِ الْخَيْرِ وَالْحُورِ الْعِينِ وَغَيْرِ الْإِرْهَابِ بِالسَّهْفِ

والمقاد — كما تعودنا منه — حاول أولاً : أن يفند مزاعم المفرضين ودعاوى المفترين ، ثم أتبع ذلك بذكر الأسباب الحقيقية التي هيأت للدعوة الاسلامية أن تنجح وللإسلام أن يعلو وينتشر .

(١) الآية : ٣٤ من سورة الأحزاب .

تفنيد المزاعم : أما عن الزعم الذى يقول : ان الاسلام نجس لأنه قام على الوعيد ، أو على الارهاب بالسيف فيقول العقاد : " أى ارهاب وأى سيف ؟؟ ان الرجل حين يقاتل من حوله انما يقاتلهم بالمثات والألوف ، وقد كان المثات والألوف الذين دخلوا فى الدين الجديد يتمرضون لسيف المشركين ولا يمرضون أحدا لميوسفهم ، وكانوا يلقون عنتا ولا يصيرون أحدا يهنت ، وكانوا يُخْرِجُونَ من ديارهم لِهَادَا بأنفسهم وأبنائهم من كيد الكائدين وثقة الناقمين ولا يُخْرِجُونَ أحدا من دياره . فهم لم يسلخوا على حد السيف خوفا من النبى الأعزل المفرد بين قومه ، الفاضلين عليه ، بل أسلموا على الرّم من سيف المشركين ووعد الأقوياء المتحكيين . ولما تكاثروا وتناصروا حملوا السيف ليدفعوا الأذى ويطلبوا الارهاب والوعيد ، ولم يحلوه ليدأوا واحدا بعدوان أو يستطيلوا على الناس بالسلطان ، فلم تكن حرب من الحروب النبوية كلها حرب هجسوم ، ولم تكن كلها الا حروب دفاع وامتناع . (١)

أما عن الزعم الذى يقول : ان الاسلام نجس لأنه قام على الوعيد ، أو على الاغراء بلذات النعيم ومتعة الخمر والحرور المين ، فيقول العقاد : " وأما الاغراء بلذات النعيم ومتعة الخمر والحرور المين . . . فلو كان هو باعثا للإيمان لكان أحرى الناس (ب) أن يستجيب الى الدعوة المحمدية هم فسقة المشركين وفجرتهم ، وأصحاب الترف والثروة فيهم . ولكن طفاة قريش هم أسبق الناس الى استدامة الحياة واستبقاء النعمة ، فان حياة النعيم بعد الموت محبة الى المتعمين تحببها الى المحرومين ، بل لعلها أشهى الى الأولين وأهني . . . ولعلهم أحسن عليها وأحسنى ، لأن الحرمان بعد التدقيق والاستمرار أصعب من حرمان من لم يذُق ولم

يستفیر علیه حال . " (١)

ثم يسوق العقاد الأمثلة على قوله هذا فيقول : " لم يكن أبو لهب أزهد في اللذة من عمر ، ولم يكن السابقون إلى محمد أرغب في النعيم من المتخلفين عنه ، ولكننا ننظر إلى السابقين وننظر إلى المتخلفين فنرى فارقا واحدا بينهم أظهر من كل فارق . ذلك هو الفارق بين الأخيار والأشرار ، وبين الرحماء المنصفين والظلمة المصلفين ، وبين من يعتقدون ويصفون إلى القول الحق ، ومن يستكبرون ولا يؤمنون إلى قول " (٢)

محمد أن يفيض العقاد في ذكر الأمثلة التي تدل على بطلان مزعم الزاعمين : أن الاسلام نجح لأنه قام على الوعيد والوعود . . . أو قام على الارهاب بالسيف والاغراء بلذات النعيم . . . يذكر الأسباب الحقيقية التي كانت وراء نجاح الدعوة الاسلامية ، ويخلص العقاد هذه الأسباب فيقول : " انما نجحت دعوة الاسلام لأنها دعوة طلبتها الدنيا ، ومهدت لها الحوادث ، وقام بها داع تهبأ لها بحناية ربه وموافقة أحواله صفاته " (٣)

٣ - صرى يدر من المشركين وخروج الرسول لرويتهم : .

من الأشياء التي أخذها بعض المستشرقين من الحاقديين والمشركين على النبي صلى الله عليه وسلم خروجه إلى ساحة الحرب بعد الواقعة الحربية في غزوة (بدر) ورويته صرى المشركين . وهم

(١) عبقريّة محمد ص ٣٦ .

(٢) المصدر السابق ص ٣٦ .

(٣) المصدر السابق ص ٤١ .

يعللون هذا الخروج لرؤية صرعى المعركة من قتل المشركين الى قسوة النسبى قسوة تجعله يغنى لمنظر الدماء . هكذا رى هؤلاء المستشرقون النسبى صلى الله عليه وسلم ، وهكذا عللوا هذا الخروج ، وهو تحليل يفتق وأهواهم وأنغراضهم الخبيثة التى يقصدون من ورائها الى رى الرسول بكل ما هو معيب ومهين ، ليشوهوا صورة النبى فى نظر المسلمين وغيرهم على السواء .

ولكن خروج الرسول صلى الله عليه وسلم الى ساحة المعركة ليرى نتائجها ، لم يكن للسبب الذى ذكره أولئك الناقدون الحاقدون ، ولكن دعت اليه أسباب أخرى غير ذلك . . . أسباب تتفق مع الطبيعة الانسانية والعادة ، كما تتفق مع العقل والمنطق السليم ، وهذه الأسباب بسطها العقاد فى كتابه ليرد بها على أولئك الذين تأسوا كل سبب يتفق مع العقل والمنطق .

والعقاد يرجع خروج الرسول لرؤية صرعى المشركين الى أسباب عدة : أسباب تتفق مع الطبيعة والعادة والمعرف ، كما تتفق مع العقل والمنطق السليم كما سبق أن ذكرنا آنفا .

أما كون خروجه صلى الله عليه وسلم لرؤية صرعى المشركين أمراً يتفق مع الطبيعة الانسانية التى لا يحاب عليها صاحبها ، فان العقاد يقول : " أما رؤية القتلى فى ساحة الحرب ، فقد نسى فيها أولئك الناقدون أن اغتياط المنصر بفوز طبيعة انسانية لا غشاضة فيها . . . ما لم تجاوز حدها الى الفرح برؤية الدماء لمحض الفرح برؤية الدماء ، وهذا ما لم يزعمه أحد من شاعدى المعركة عن النبى عليه الصلاة والسلام ، ولا تم عليه كلام أحد من المشركين أو المسلمين . " (١)

وإذا كان خروجه صلى الله عليه وسلم لرؤية صرعى بدر أمراً يثشق
مع الطبيعة الإنسانية فإنه أمر يثشق - كذلك - مع العادة وعرف البيئتين
التي يعيشها الإنسان العربي ، يقول العقاد : " ونسى أولئك الناقدون
أن الرجل الذي يرى الدم في المدينة المصرية غير الرجل الذي يرى
الدم في حروب البادية وفي حياة البادية على الأجمال .. ونعني بها
حياة الرعاة التي تتكرر فيها أراقة الدم كل يوم .. وحياة القبائل التي
كانت تغزو وتغزى في كثير من الأيام " (١)

ويخلص العقاد ذلك فيبين أن تحرك الشخص لرؤية الدماء في
بيئة اعتاد الناس رؤية الدماء فيها كالبيئة الهدوية لا يجعلنا نحكم على
ذلك الشخص بأنه قاسى القلب ، كما لا نرى بالقسوة الطبيب الذي ألف
النظر إلى الجثث والأشلاء والجراحات والدماء ..

يقول العقاد : " فأنك لا ترى بالقسوة طبيبا قد ألف النظر
إلى الجثث وأشلائها ، والأجسام الحية وجراحها .. لأن الطب لن يكون
في الدنيا رحمة من الرحمت ان لم يألف الأطباء هذه المناظر ويملكوا
جأشهم ، وهم يفتحون أعينهم عليها ، ولكنك قد ترى بالقسوة انسانا لم
تقع عينه على منظر مثلها ، ثم هي تتأججه فلا ينفر منها ، وما من رجل
عاش في البادية وشهد غزوة من غزواتها يمكن أن يقاتل فيه ان ساحة
الحرب تتأججه بما لم يكن يراه أو بما يستلزم كون النظرة اليه قسوة في
الطباع واستراحة إلى رؤية الدماء " (٢)

وكما كان خروجه صلى الله عليه وسلم لرؤية صرعى بدر أمراً يثشق
مع الطبيعة الإنسانية ، كما يثشق مع أعراق البيئة العربية ، التي ألفت

منظر الدماء - كان خروجه صلى الله عليه وسلم أمرا يتفق والمقل ويتفق والمنطق السليم ، والمقل والمنطق السليم يحتجان على الرسول أن يخرج الى ساحة المعركة ليرى بعينه نتيجة معركة كادت تكون المعركة الأخيرة في تاريخ الاسلام ، فاما أن ينتصر الاسلام وتقوم قائمته ، واما أن يهزم هزيمة لا تقوم له بعدها قائمة ..

يقول المقاد " كان على أولئك الناقدين أن يشهدوا بهـدرا لينظروا بعين النبي الى عواقب هذه الوقعة التي أوشكت أن تصبـح الوقعة الحاسمة في تاريخ الاسلام " (١)

والمقل والمنطق السليم يحتجان على الرسول أن يخرج ليرى نتيجة معركة تتقاتل فيها فريقان غير متعادلين عددا وعدة ، والجيش الاسلامي هو الأقل عددا وعدة ..

يقول المقاد : " .. كان عليهم أن ينظروا هنالك بعين النبي الى جيشين : أحدهما فيه السلاح والخيل والعدد ، والآخر في ثلاث من يقاتلونه عددا ، ويكاد أن يتجرد من كل سلاح غير السيف ، ومن كل مطية غير الأقدام " (٢)

والمقل والمنطق السليم يحتجان على أولئك الناقدين أن يلتصقوا للرسول ألف عذر وعذرا في خروجه ، ليرى نتيجة معركة أشق من عاقبتها وخشى أن تكون نهاية الاسلام فيها ، فطلق يدعو به ويسأله النصـر وينشده المون والتأييد ، حتى سقط رداؤه وهو لا يدري لاستفراقه فـسى الدعة .

(١) عبقريه محمد ص ٨٢

(٢) المصدر السابق ص ٨٢

يقول العقاد : " وكان عليهم أن يلمسوا اشتاق النبي — من عاقبة هذه الوقعة ويستمروا اليه وهو يناشد ربه (اللهم هذه قرىش قد أتت بخيلائها تكذب رسولك • اللهم فنصرك الذي وعدتني •) وكان عليهم أن ينظروا اليه وقد مَدَّ يديه وشَخَّصَ ببصره وَجَّعَ نفسه في صلاته... حتى جعل رداؤه يسقط عن منكبيه وأبوبكر يرده ويناديه (بِهَفْزٍ) مناشدتك ربك • فان الله مُنْجِزٌ لك ما وعدك (وهو لا يلتفت الى سقوط رداؤه ولا الى مناداته صَفِيٍّ لاستخراقه في الدعاء " (١)

والعقل والمنطق السليم يحتمان على الرسول أن يخرج ليشهد صرعى قرىش الذين كانوا أحرص ما يكونون على مناوأة النبي وإعادة الكرة عليه ..

يقول العقاد : " وكان عليهم أن يملأوا حرص قرىش أن يعتنقوا رجالا منهم يرجعون الى مكة قبل المعركة أو بعدها ليشابروا على مناوأة النبي وإعادة الكرة عليه • حتى لا يهدأ له بال بعد الصبر على هذا الجهد وليس الصبر عليه بميسر " (٢)

وينتهي العقاد من بسط هذه الأسباب وتلك التعليقات لخروج الرسول لرؤية صرعى بدر من المشركين الى هذه النتيجة • وهي أن هذا الخروج أمر لا غرابة فيه • ليس فيه ما يعاب أو يذم • بل الغرابة أن يتصرف الرسول دون أن يشهد نتيجة معركة سمقتها كل تلك المخاوف وستلحق بها كل تلك المواقب • بل ان العقاد ليدلل على أن هذا الخروج أمر طبعى لا غرابة فيه • بما يفعله أعقاب كل معركة مراسلو الصحف

(١) عبقريّة محمد ص ٨٢ و ٨٣ •

(٢) المصدر السابق ص ٨٣ •

الحييون حين يشهدون - بعد انجلاء الفريقين - ساحة الممارك ليدرسوا نتائج هذه الممارك ، وليشرحوا دروس النصر والهزيمة .

إذا كان من واجب أولئك المراسلين أن يشهدوا تلك الممارك ليسجلوا ما لا غنى عن تسجيله من دروس وعبر ، فما بالك بالقائد المسئول عن قيادة المعركة ، وقبل ذلك وحده هو مسئول عن تلميح دعوة ونشر رسالة ؟

يقول العقاد : " كان على الناقدين أن يعلموا هذا كله ليعلموا أن الشهور بالقرن في مثل هذا الموقف المصيب أمر لا غرامة فيه ، وأنه شعور مطبوع في نفس حية تجاوب كل ما يحيط بها من بواعث الحياة في مواقف السلم أو مواقف القتال . . . ان محمداً رجل حقٍّ جَسَّاسٍ النفس بدواعي الحياة وليس يناسك مهزول من نَسَاك الصوامع الذين يَكْمَثُونَ في جوانحهم كل دافعة وكل احساس . . فامتناه أن يشهد نتيجة المعركة التي سبقتها كل تلك المخاوف وستطرق بها كل تلك العواقب - أمر لم يكن بالمنتظر من قائد في مثل موقعه ، ولم تكن توجهه الفسطة الانسانية على المقاتل . . وهو في اللحظة الأولى بعد التفكر خليق أن يعلم مدى انتصاره ، ومدى ما يتوقعه بعده ، ومدى ما فعلته الفئة القليلة بالفتة الكبيرة ، ليقيس عليه ما شعله مثلها فيما يليها من وقعات ، وهولاء مراسلو الصحف الحييون الذين يدرسون اليوم أشباه هذه المواقف يجدون من واجهم ألا يتخلفوا عن ساحات القتال بعد انجلاء الفريقين ليشرحوا دروس النصر والهزيمة بينهما ، ويسجلوا ما لا غنى عن تسجيله في جميع الحروب ، فانصرف محمد عن ساحة بدر على إثر النصر على غريبٍ يُحِلُّ بمكانة القائد ، وواجب التحقيق والاستفادة من كل ما يفيد " (١)

ومثل هذا التحليل والتفسير استطاع العقاد أن يكشف عن البواعث النفسية والأسباب الحقيقية لكثير من أفعال النبي وعصرفته غير ما ذكرنا من أمثلة، مما هو مبثوث في كتابه ، ويسير على القاري أن يرجع الى صفحات هذا الكتاب ليرى صحة ما نقول .

٤ - الشواهد والأدلة :

قلنا - سابقا - ان العقاد في " مبقرية محمد " ، قد حاول الكشف عن سمات المظنة وآيات المبقرية في شخصية الرسول العظيم ، وهو في محاولته تلك قد تتبع وتقصى تلك السمات وهاتيك الآيات بما حوت من تميز وتغرد ، ليس في جانب واحد من جوانب شخصيته صلى الله عليه وسلم بل في جميع جوانب حياته المختلفة ، وقلنا - أيضا - ان العقاد لم يكتف بسرد هذه السمات وتلك الصفات ، وعرضها عرضا موجزا ، بل تناول كل ذلك بالشرح والتحليل . . ولم يكتف بذلك أيضا بل حاول العقاد ارجاع هذه السمات الى بواطنها وأسبابها . .

والعقاد لم يكتف بكل ذلك ، في الكشف عن هذه السمات وتلك الصفات ، بل أضاف الى كل ذلك خصوصية رابعة - نهجها الآن - وهي : إيراد الشواهد والأدلة ، لاثبات تلك السمات وهاتيك الصفات ، فالعقاد في شرحه وتطيله للمبقرية المحمدية ولحظاها وآياتها ، يؤيد السمة بالدليل ، ويؤكد الصفة بالشاهد .

والعقاد لا يستقصى كل الشواهد والأدلة التي تؤيد السمة ويؤكد الصفة ، بل يدل عليها بحوادث منتقاة وظواهر بارزة ، ويختار من التصرفات والأفعال والأقوال المشهورة ما تكون أكثر دلالة على تلك السمات والصفات .

فمثلاً حين يدلل المقاد على خصائص التفرد وسمات التميز المحمدية في الجوانب المسكوية نراه لا يستقصى كل ما ورد من شواهد ومراهمين، لها دلالتها على هذه السمات في هذه الجوانب .. وحين يدلل على تميز الرسول وتفرد في باب الصداقات، تجده لا يتتبع كل ما يدل على هذا التميز وذلك التفرد .. وهكذا .. بل يختار المقاد - كما قلنا - ما يدل على تلك الخصائص وهاتيك السمات من الحوادث المنتقاة والظواهر البارزة ..

يقول الأستاذ سيد قطب : " لدينا طريقة المقاد في رسم صورة نفسية " للبطل بمحور خصائصه الأساسية ^(١) البارزة ، والتدليل عليها بحوادث منتقاة من تاريخه لها دلالتها على هذه الخصائص دون الدخول في تفاصيل حياته وتفتح خطاه ، وكتب " المبقيات " كلها من هذا الطراز " ^(٢)

ويلاحظ كل قارئ متأمل أن الشواهد التي يختارها المقاد والأدلة التي ينتقيها من الحوادث البارزة ، والتصرفات المشهورة ، يرتقى فيها المقاد من شاهد على السمة قوى الى شاهد أقوى منه الى شاهد أكثر قوة .. ومن دليل أكيد على الصفة الى دليل أكد منه ، الى دليل آخر أكثر تأكيداً من سابقه وهكذا ..

ونستطيع أن ندلل على صحة هذه الملاحظة من الأمثلة والشواهد التي ساقها المقاد للتدليل على سمات التفرد التي امتاز بها الرسول الكريم في صداقته ، وفي عاطفته الانسانية ، وفي معاملته لزوجاته ،

(١) كما يكتب الناس وهو خطأ شائع ، والصواب : خصائصه الأساس

البارزة - بكسر الهمزة وهي جمع أساس ... بفتحها ..

(٢) النقد الأدبي : سيد قطب ص ٨٩

وفى معاملته لخدمه ، كما سبق أن أشرنا اليها بالشرح والتحليل ففى
خصوصية التشريح والتفصيل ..

فمثلا حين يدلل على عاطفته الانسانية ، نراه يدلل على هذه
الماطقة - أولا - نحو الانسان ، ويضرب عليها من الشواهد والأمثال
ما يدل عليها ، ثم يدلل على عاطفته الانسانية - ثانيا - نحو الأحباء
بوجه عام ، ويدخل فيها الحيوان ويضرب على ذلك من الشواهد والأدلة
ما يدل عليها ، ثم يدلل على عاطفته الانسانية - ثالثا - نحو الجساد ،
ويسوق من الأمثلة والشواهد ما يدل عليها ... ويظهر لكل ذى عقل
أن الأدلة التى ساقها تدليلا على عاطفته صلى الله عليه وسلم نحو
الحيوان أدل على هذه الماطقة من الأدلة التى ساقها تدليلا على
عاطفته نحو الانسان ، وأن الأدلة التى ساقها تدليلا على عاطفته السنى
شملت الجساد - أيضا - أكثر دلالة على سمو هذه الماطقة ورحابتهما
من الأدلة الأولى والثانية ..

وكذلك اذا ما رجعنا الى الأمثلة والشواهد التى ساقها تدليلا
على عاطفته نحو الانسان ، نجد فيها أن المقاد ارتقى من دليل السى
دليل ، وكل دليل أدل على هذه الماطقة من الذى قبله .. فالشاهد
الذى ساقه على عاطفته نحو مرضته حليمة وحفاته بها وعلى عاطفته نحو
حاضته أم أيمن ، أدل على عاطفته على من حوله من الشاهد بن اللذين
ساقها تدليلا على عاطفته نحو عمه الذى تعلق به وهو صغير ، ونحو
أمه التى بكى على قبرها وهو فى الستين .. والشاهد الذى ساقه
تدليلا على عاطفته نحو كل ضعيف وإن لم يكن بينه وبينه علاقة نسب
أو رضاع أو حضنة - أدل على عاطفته على من حوله من الشواهد التى
سبقها ، ذلك أن عاطفته نحو عمه وأمه ونحو مرضته وحاضته لها مسا
يسوقها ، وهى علاقة النسب والقهى وعلاقة الرضاع والحضنة ، أما عاطفته

نحو كل ضعيف ولو لم يذكره بحنان الطفولة ورحم الرضاع فليس لها ما يَمَوِّفُهَا إلا سمو العاطفة وارتقاؤها .. والشاهد الذى ساقه تدليلاً على عاطفته الانسانية نحو أعدائه، وهو بِرُّهُ وعطفه على عبد الله بن أُبَيٍّ ابن سلول - أكثر دلالة على سمو هذه العاطفة من كل ما تقدم من أمثلة وشواهد وأدلة .. ذلك لأن القسوة على العدو هى التى ينفى أن تكون موضح البر والمطف .. فإذا تجاوز القادر على هذه القسوة هذه القسوة الى البر والمطف، فذلك يُهَلُّ منه قَائِ الرِّفْدِ وسمو نفسه العاطفة جَاوِزَ كل الحدود .

وكذلك اذا ما رجعنا الى الأمثلة والشواهد التى ساقها العقاد تدليلاً على معاملة الرسول الطيبة لزوجاته، نرى أن العقاد ارتقى من دليل الى دليل ، وكل دليل أدل على طيب هذه المعاملة من الذى سبقه .. فتولى رسول الله صلى الله عليه وسلم خدمة البيت مع زوجاته أدل على طيب المعاملة من مجرد التطف واللين ممهن ... واستغفاره الله فيما لا يملك من التسوية بينهن وهو المولى القلبى أكثر دلالة على طيب المعاملة من الشواهد الأولى والثانية . ومعاملة الرسول زوجه عائشة - وقت حديث الافك - معاملة طيبة فى وقت تمتحل فيه مثل هذه المعاملة أكثر دلالة على طيب هذه المعاملة من كل ما تقدم من أمثلة وأدلة ..

وكذلك اذا ما رجعنا الى الأمثلة والشواهد التى ساقها العقاد تدليلاً على بِرِّ الرسول بخدمة وعيده، نرى أن العقاد ارتقى فيها من دليل الى دليل ، وكل دليل أدل على بر الرسول بخدمته وعيده من الذى سبقه . فقهاء الرسول بخدمة نفسه كَطَبِ شاته وخصف نعله وَطَفِ ناضحه - وهى أمور من شأن الخادم وعمله - ارتضاع بالخادم الى مقام السادة حيث لا يأنف السادة من خدمة أنفسهم بأيديهم ..

وهو بالتالى أدلّ على البر بالخدم وأكرم لهم من مجرد البر بهم والمعطف عليهم . فالبر بالخادم عطف عليه ، والبر بالخدمة ارتضاع بالخادم ، ولا شك أن الثانى أدل على هذا البر من الأول ..

وكذلك الشأن فى الأدلة والشواهد التى ساقها المقاد تدليلاً على بر الرسول بخدمه وعطفه عليهم ، نرى فيها هذا الترقى من دليل قوى الى دليل آخر أقوى الى ثالث أكثر قوة .. وهكذا .. فقد أعتق الرسول زيدا ... ولم يكف الرسول بذلك ، بل زوجه بمحقلة من قريباته .. ولم يكف الرسول بذلك ، بل تزوج الرسول زوج زيد بعد أن طلقها ، ويسير على القارئ أن يلح أن الدليل الثانى أدل على بر الرسول بزيد بن حارثة من الأول ، وأن الدليل الثالث أدل على ذلك من الثانى .

يقول المقاد : " .. فلم يحطه الحرمة وكفى ، ولم يحطه المساواة فى الميـش وكفى ، بل رفعه الى المـزلة الاجتماعية التى يرتفع اليها السادة ، ولا يثبتها شئ كما يثبتها شرف الصاهرة " (١) بل ان الرسول لم يكف فى المعطف على زيد ، والبر به الى هذا الحد ، بل نقل هذا البر من بعده الى ابنه أسامة ، فبطله جيش الشام وهو دون العشرين ، وفى الجيش طائفة من أكابر الصحابة ، وفى هذا البر بأسامة دليل على بر الرسول بزيد ليس فوقه دليل .. وهكذا فى باقى الأدلة نرى المقاد يترقى فيها من دليل الى دليل ، وكل دليل أقوى من سابقه وأدل على الصفة منه ..

§ الفصل الرابع §

أُسْلُوبُ الْمُقَادِ وَمَاتَمُهُ

- ١ - الطَّلِيحُ الْمَامُ لِأُسْلُوبِ الْمُقَادِ .
- ٢ - غَلْبَةُ التَّرَاكِيِبِ الْمُنْطَقِيَّةِ .
- ٣ - قُوَّةُ الْاِقْتِصَاعِ وَالْحِجْزَةِ .

١ — الطابع العام لأسلوب العقاد :

أسلوب العقاد في كتابه " عقيرة محمد " هو أسلوب العقاد نفسى جميع كتاباته وهو ذلك الأسلوب العلمى ، إلا أن يكون الموضوع الذى يكتب فيه أديها خالصا ، حينذاك تغلب عليه طبيعة الموضوع ..

وأعنى بأسلوب العقاد العلمى ، ذلك الأسلوب المنطقى الذى يعتمد على المقدمات والنتائج حتى ليحس القارئ أو السامع أزا كنهه أو مقالاته بأن أفكارها مرتبة ترتيبا يتميز فيه الهدى والختام ..

وإذا ما حاولنا أن نطبق هذا القول على كتابه " عقيرة محمد " وجدنا ذلك واضحا كل الوضوح .. نجد ذلك واضحا ليس فى فصل واحد .. أو اثنين .. بل فى فصول الكتاب كلها ، وحسبنا أن نشير الى تلك الحقيقة — بالإضافة الى ما أوردناه من تحليلات فى مباحث سابقة تدل على أسلوب العقاد — بإيراد مثال أو مثالين من هذا الكتاب ..

فمثلا فى فصل " علامات مولد " يرى القارئ العقاد قد انتهى فى نهاية هذا الفصل الى نتيجة هى : أن محمدا هو صاحب الرسالة التى انتظرتها الدنيا .. ولكن كيف وصل العقاد الى تلك النتيجة ، وإلى غيرها من النتائج ؟ وفى الإجابة على هذا السؤال يظهر أسلوب العقاد .

إن العقاد يصل — دائما — الى أفكاره التى يريد أن يظهرها وإلى النتائج التى يريد أن يصل إليها عبر مقدمات يسوقها بين يدي تلك النتائج ، ومن خلال خط واضح مستقيم يصل به الى أفكاره ، وهو نفسى هذه المقدمات ويعبر هذا الخط الواضح المستقيم ينتقل من فكرة الى فكرة ، ومن جزئية الى المقدمة الى جزئية أخرى ، وفى كل جزئية من تلك الجزئيات

يمسك الأسباب ويشرح المسببات ، كما أنه ينتقل من الاجمال الى التفصيل ، وهو في هذا التفصيل ، يحلل ويحلل ، ويشرح ويشرح ، كما أنه يضع الشاهد ويقيم الدليل . . . فاذا بالقارئ - وقد انتهى من هذه المقدمات - قد وصل الى النتيجة التي يريد العقاد أن يصل به اليها ، واذا بهذه النتيجة قد بدت واضحة جلية ، ليس عليها أثر من غوض أو إيهام . . . تسعف العقاد في كل ذلك تلك القوة ونشاط ذهنه واسع ، قادر على المرض والتحليل والتفسير . . .

ونعود بعد هذا الاستطراد الى النتيجة التي أشرنا اليها سابقا والتي توصل اليها العقاد في نهاية فصل " علامات مولد " . . . لنرى الطريق التي سلكها في الوصول اليها . . .

يبدأ العقاد هذا الفصل بالحديث عن احدى مقدمات هذه النتيجة ، وهي أن العالم آنذاك كان في حاجة الى رسالة ، لأنه قد وصل الى حافة الهاوية " كان عالما متداعيا قد شارف النهاية خلاصة ما يقال فيه : أنه عالم فقد العقيدة كما فقد النظام (١) . "

ومع أن يلخص العقاد تلك المقدمة يبدأ في تحليلها وتفسيرها . . . أي أنه فقد أسباب الطمانينة في الباطن والظاهر . . . طمانينة الباطن التي تنشأ من الركون الى قوة في النسيب تهبط المعدل وتحبس الضعف وتجزي الظلم وتختار الأصل الأكمل من جميع الأمور . . . وطمانينة الظاهر التي تنشأ من الركون الى دولة تقضى بالشرعية وتفصل بين البهاسة والأبرياء ، وتحرس الطريق وتخفف العاثين بالفساد (٢) .

(١) عمقيرة محمد ص ١٧ .
(٢) المصدر السابق ص ١٧ .

ومعد تحليل هذه المقدمة وتفسيرها ينتقل العقاد الى ايراد الشواهد والأدلة على ذلك بينا الأسباب التي أدت الى ذلك ..

ثم ينتقل العقاد الى مقدمة أخرى تتصل بالهيئة التي تحتاج الى هذه الرسالة ، وهذه الهيئة هي الهيئة المربية أو الأمة المربية وأن العالم اذا كان يتطلع الى نبي ، فان هذه الأمة تتطلع الى هذا النبي ، وأن الأمم المتداعية - آنذاك - وان كان حقيقا أن يعمت فيها هذا النبي ، ترى أن الأمة المربية هي أحق الأمم آنذاك أن يعمت فيها هذا النبي .. لأنها أمة : " تيقظت لوجودها وشعرت بمكانتها ، كما شعرت بالخطر عليها ومواضع النقص منها ، في أيديها تجارة العالمين كلها " (١) ثم يشرح العقاد مكانة الأمة المربية وتوسطها بين العالم وأثرها في تجارة هذا العالم ، كما يشرح أحوال هذه الأمة ، وكيف تيقظت لوجودها ، وشعرت بالخطر عليها من الخارج والداخل ..

ومعد أن ينتهي العقاد من شرح وتحليل هذه المقدمة الثانية - ينتقل الى مقدمة ثالثة ، تتصل بالمدينة التي تتطلع الى ذلك النبي .. ومعد أن يسلك العقاد فيها الطريق نفسها التي سلكها في المقدمتين : الأولى والثانية من شرح وتحليل وإيراد للشواهد والأدلة .. ينتقل العقاد الى مقدمة رابعة ، تتصل بتهيئة النبي .. ثم الى خلاصة تتصل بهيئة النبي .. وينتهي منها - بعد شرح وتحليل - الى أن بيت هذا النبي - محمد - أباء وجده ، أصل ما يكون لانجاب هذا النبي .. ثم ينتقل بعدها الى مقدمة سادسة تتصل بالنبي محمد نفسه ، وهي صفاته وخلائقه التي ترشحه لأن يكون ذلك النبي الذي تنتظره الدنيا .. ومعد أن يفيض العقاد في تحليل هذه الصفات وتلك الخلائق ، يكون قد

انتهى الى النتيجة التى وصل اليها - والتى أشرنا اليها آنفا - وهى أن محمدا هو صاحب تلك الرسالة التى تنظرها الدنيا لأنه " أصلح رجل من أصلح بيت فى أصلح زمان لرسالة النجاة المرقمة " (١)

وهكذا تتسلسل المقدمات ، وتأخذ جزئياتها : كل جزئية بحجز أختها ، وهكذا يظل المقاد يعمل ، ويشرح ، ويفسر ، ويورد الشواهد والأدلة . . . حتى يصل الى النتيجة التى يريد ، والفكرة التى يريد أن يظهرها . . . ومن الميسر على القارئ التأمل أن يلحظ الأسلوب المنطقى فى كتاب " عقبة محمد " فى فصول الكتاب كلها ، وحسننا أن نشير بها لإضافة الى ما ذكرناه - الى فصول : (عقبة الداعى - محمد الصديق - الزوج - السيد) ليرجع القارئ اليها اذا أراد .

على أنه يمكن أن يعد من خصائص الأسلوب المنطقى ما سبق أن أضحناه من خصائص امتازت بها طريقة المقاد ، من مثل خصائص : التبع والاستقصاء ، والشرح والتفصيل ، والبحث عن الأسباب والبواعث وتبويبها وتنظيمها ، وإيراد الشواهد والأدلة ، وما سبق أن فصلنا القول فيه وأنضنا ، وما لنا فى حاجة الى إعادة القول فيه .

٢ - غلبة التراكم المنطقية :

وما يزيد ما نقول تأكيدا ، أن المقاد - بإضافة الى أسلوبه المنطقى الذى يعتمد على المقدمات والنتائج - يستخدم فى أسلوبه الأدوات والتراكيب المنطقية التى تعتمد على الجمل الشرطية ، وطى القضايا الموجبة والسالبة - كلية أو جزئية - كما يعتمد على الأدوات التى

تستعمل غالبا للتقسيم والتفريع ، والاجمال والتفصيل . . الى غير ذلك من الأدوات والتراكيب التي يستعملها المناطق في أساليبهم . .

ويستطيع القارئ أن يلمح أدوات التقسيم والتفريع في أسلوب المقاد ، في حديثه عن فصاحة الرسول الجامعة لأنواع الفصاحة في فصل " عمقيرة الداعي " يقول العقاد : " فالفصاحة صفة تجتمع للكلام ، ولهيئة النطق بالكلام ، ولموضوع الكلام ، فيكون الكلام فصيحاً وهيئة النطق به غير فصيحة ، أو يكون الكلام والنطق به فصيحين ، ثم لا تجتمع لموضوعه صفة الفصاحة السارية في الأسماع والقلوب " (١) ومعد هذا التقسيم يبدأ العقاد في عملية التفصيل ، يقول العقاد : " أما فصاحة محمد . . فقد تكاملت له في كلامه ، وفي هيئة نطقه بكلامه ، وفي موضوع كلامه . . الخ " (٢)

ويستطيع القارئ أن يلاحظ استخدام المقاد للقضايا المنطقية - بالإضافة الى استخدامه أدوات التقسيم والتفريع - في الفصل نفسه حين يقول : " . . . ولكن الرجل قد يكون عربياً قرشياً مسترضعاً في بني سعد ويكون نطقه بعد ذلك غير سليم ، أو يكون صوته غير محبوب ، أو يكون ترتيبه للكلمات غير مانوس . . فحتاج له الكلام الجميل ثم يميزه النطق الجميل . . . ولكن الرجل قد يكون عربياً قرشياً مسترضعاً في بني سعد ويكون سليماً في كلامه سليماً في نطقه . . ثم لا يقول شيئاً يستحق أن يستمع إليه السامع في موضوعه . . " (٣)

كما يستطيع القارئ أن يلاحظ الجمل الشرطية - بالإضافة الى القضايا المنطقية ، وأدوات التقسيم والتفريع والتفصيل أيضا - في مثل

(١) عمقيرة محمد ص ٣٠ (٢) المصدر السابق ص ٣٠

(٣) المصدر السابق ص ٣١

قوله في فصل " محمد الصديق " .. " اذا كان الرجل محبا للناس أهلا لحبهم اياه فقد تمت له أداة الصداقة من طرفيها .. وانما تتم له أداة الصداقة بمقدار ما رزق من سعة العاطفة الانسانية ومن سلامة الذوق ومثانة الخلق وطبيعة الوفاء ، فلا يكفى أن يحب الناس لمحبوه لأنه قد يحبهم وفي ذوقه نفس ينفرهم منه ويذهم في حبه .. ولا يكفى أن يكون محبا سليم الذوق ليلج من الصداقة بمثلها ، فقد يكون محبا محبا حسن الذوق ، ثم يكون نصيبه من الخلق المتين والطبع الرفيع نزرا ضعيفا لا تدوم عليه صداقة ولا تستقر عليه علاقة .. " (١)

٣ - قوة الاقتناع والحجة :

ومن خصائص الأسلوب المنطقي ، أنه يعتمد على قوة الاقتناع وقوة الحجة والقدرة على أن ينفذ الى العقل بسهولة ويسر ، ولقد كان العقاد في أسلوبه كذلك ، فقد كانت له قوة الاقتناع وقوة الحجة ، كما كانت له القدرة على أن ينفذ بفكرته الى عقل القارئ أو السامع وفكرهما بسهولة ويسر ، لما كان يتمتع به العقاد من ذهن ثاقب وثقافة واسعة وقدرة على المناقشة ..

ويستطيع القارئ أن يرى هذه السمات في أسلوب العقاد في مواطن كثيرة من هذا الكتاب ويكفى أن نشير الى موطن من هذه المواطن ..

في فصل " علامات مولد " تحت عنوان : بشائر الرسالة ، يناقش العقاد قضية هذه البشائر ، فيرى أكثر المؤرخين أن ميلاد الرسول

(١) عبقريّة محمد ص ١٢١ .

صلى الله عليه وسلم قد سبقته ارهاصات ومشارت ودلائل تدل على قرب ميلاده من أمثال تلك المعجزات والخوارق التي أفاض فيها المؤرخون. أو من أمثال تلك المعجزات والخوارق التي صاحبت ميلاده - صلى الله عليه وسلم - حين ظهرت الدعوة واستفاض أمر الاسلام.

ومعنا يرى هؤلاء المؤرخون ذلك ينكر العقاد هذه البشائر ، ولا ينكرها لأنها وقعت أو لم تقع . . . بل ينكرها ، لأنه لا يرى لها قيمة وأثر في الدلالة على قرب ميلاد النبي أو الدلالة على صدق الرسالة . . . وإذا لم يكن لتلك البشائر وتلك العلامات أثر أو قيمة ، فما أثرها وقيمتها في حوادث التاريخ ، ولم هذا الاهتمام الواضح بها ، والاستقصاء التام لها من قبل كتاب السيرة والمؤرخين ؟

يقول العقاد : " والمؤرخون يجهدون أقلامهم غاية الجهد في استقصاء بشائر الرسالة المحمدية . . . يَسْرُدُونَ ما أكدته الرواة منها وما لم يؤكدوه ، وما قبله الثقات منها وما لم يقبلوه ، وما أبدته الحوادث أو ناقضته ، وما وافقته العلوم الحديثة أو عارضته ، ويشرقون في الرأي والهوى بين تفسير الايمان وتفسير العميان وتفسير العمرة وتفسير الجاهالة ، فهل يستطيعون أن يختلفوا لحظة واحدة في آثار تلك البشائر التي سبقت الميلاد أو صاحبت الميلاد حين ظهرت الدعوة واستفاض أمر الاسلام ؟ لا موضع هنا لاختلاف " (١)

وبدلل العقاد - بقوة منطق واقناع حجة - على افتقار تلك البشائر وهاتيك العلامات للآثار والقيمة ، إذ ليس لها أثر في التدليل

على صدق رسالة الرسول يوم نادى الرسول بها ، يقول العقاد : " فصار من بشارته قط من تلك البشارات كان لها أثر في اقتناع أحد بالرسالة يوم صدع النبي بالرسالة ، أو كان ثبوت الاسلام متوقفا عليها ، لأن الذين شاهدوا العلامات المزعومة يوم الميلاء لم يعرفوا يومئذ مفزاها ومؤداها ، ولا عرفوا أنها علامة على شيء أو على رسالة ستأتى بعد أربعين سنة ، ولأن الذين سمعوا بالدعوة وأصاخوا الى الرسالة بعد البشائر بأربعين سنة لم يشهدوا بشارته واحدة منها ، ولم يحتاجوا الى شهودها ليؤمنوا بصدق ما سمعوه واحتاجوا اليه . وقد ولد مع النبي عليه الصلاة والسلام أطفال كثيرون في مشارق الأرض ومغاربها ، فإذا جاز للصدق أن ينسبها الى مولده ، جاز للمكابر أن ينسبها الى مولد غيره ، ولم تفصل الحوادث بالحق بين الصديقين والمكابرين الا بعد عشرات السنين . . يوم تأتى الدعوة بالآيات والبراهين غنية عن شهادة الشاهدين وانكار المنكرين " (١)

وحسبنا - بعد هذا المثال السابق - أن نحيل القارئ السى مواطن أخرى في الكتاب ليرى فيها قوة المنطق وقوة الاقتناع والقدرة على المناقشة والتدليل التي كان يتمتع بها العقاد ، وذلك مثل مناقشاته قضية " تعدد زوجات الرسول " وقضية : " أن الاسلام انتشر بالسيف والارهاب أو بالتغريب في الجنة وما فيها من خمر وحرور عين هكذا يقول المستشرقون ، وقضية : " صرعى بدر وخرج الرسول لرؤيتهم " وقد سبق أن أفضنا القول في ذلك كله . .

:: الفصل الخامس ::

" منهج العقاد وأسلوبه "

- ١ - الجانب التحليلي .
- ٢ - الجانب النفسي .
- ٣ - الجانب العقلي .

نستطيع أن نقول من خلال ما قدمناه من عرض وتحليل لطريقة العقاد في كتابه "عقريّة محمد" أن العقاد اتّبع في كتابه هذا المنهجاً ذا جوانب ثلاثة : جانب تحليلي ، وجانب نفسي ، وجانب عقلي .

١ - الجانب التحليلي :

أما أنه منهج تحليلي فما لا يخفى على ذي لب أن العقاد قد عني بتحليل جوانب الشخصية المحدية للكشف عن آيات العظمة ودلائل المبقرية النبوية ، كما عني بتتبع خصائصها ، واستقصاء سماتها ، وهذا الجانب واضح فيما قدمناه .

٢ - الجانب النفسي :

وأما أنه نفسي فلأن العقاد - في هذا الكتاب - لم يستعرض حياة الرسول وجوانبها المتعددة استمراراً تاريخياً كما جرت بذلك عادة أكثر مؤرخي السيرة النبوية ، بل اتجه إلى الجوانب النفسية نفسية شخصية الرسول بالكشف عن آيات العظمة ودلائل المبقرية فيها ، كما راج يكشف عن بواطنها النفسية ودوافعها الداخلية ، كما راج - أيضاً - يكشف عن التصرفات والأفعال والأقوال ، وما تدل عليه من صفات نفسية ومزايا خلقية . وهذا الجانب واضح - أيضاً - فيما قدمناه .

والذي نود أن نقوله هنا - ما هو متصل بالجانب النفسي - أن العقاد قد حاول بمنهجه النفسي أن يرجع آيات العظمة المحدية ودلائل المبقرية النبوية إلى ما يتمتع به الرسول محمد صلى الله عليه وسلم من ملكات نفسية وقدرات عقلية ، وأودعها الله نفس محمد صلى الله عليه وسلم ، ولا يد للمجتمع أو الهيئة فيها .

وارجاع المنظمة النفسية والقدرات الانسانية وما فيهما من مزايا
وخلائق عالية الى الانسان نفسه بما وهبه الله من مزايا وخصال ، وأودع فيه
من ملكات وقدرات - نظرية علمية حديثة ، تدعى نظرية " المبقرية -
الفردية " أو " البطولة الفردية " .

والمقاد بهذا يحاول أن يطبق هذه النظرية الحديثة في تحليله
لجوانب المبقرية المحمدية ، وهو بهذا يرى أن عظمة النبي أو عبقريته
التي فتح بها قلوب الناس ، كما فتح البلاد والأصهار ، هي سليفه
نفسية وطبيعة فطرية لا يد للهيئة أو للمجتمع أو المصير في صنعها .

وهنا يطرح سؤال نفسه : إذا كان المقاد يرى ذلك فلم هذا
الفصل الذي مهد به للحديث عن هذه المبقرية بالحديث عن أوضاع
العالم الذي ظهر فيه محمد وأوضاع الأمة وأوضاع القبيلة والأسرة التي
نشأ فيها الرسول . هذا الفصل الذي نشره المقاد مستقلاً في كتاب
- بعد أن وسعه وأضاف إليه - بعنوان " : مطلع النور " ما يشتم
منه أن لهذه الأوضاع دخلاً في صنع المبقرية المحمدية ؟

والجواب على ذلك هو أن هذا الفصل لم يكن سوى حديث للدلالة
على حاجة العالم آنذاك لنبوة محمد صلى الله عليه وسلم ، وليس فيه
ما يدل على تأثير محمد بهذه الأوضاع في خلائقه وصفاته ، وليس فيه
ما يدل على أن عبقرية محمد وليدة هذه الأوضاع . . لأن المقاد
يرفض رفضاً قاطعاً كل ما يقال عن تأثير محمد بما كان يضطرب فيه المصير
من عقائد وأفكار ، أو أنه كان التمهيد للفد عن جملة من التفسيرات
الجديدة تجمعت في عصره واستوعبها ، وجملة من الحاجات الجديدة التي
أدركها ولهاها .

يقول العقاد : " ... لا انه لم يكن ثمة عصره ، بل كان رد فعل لعصره لقد ظهر على الرغم من هذا العصر ، الذى لم يكن فيه الا ما يناقض محمدا ويناقض رسالته ، كان العصر عصر شرك والاسلام دين توحيد ، وكان عصر صراع قهلى عشائرى ^(١) ، والاسلام حركة جمعت العرب فى أمة ، وكان عصر صراع قوسى ، والاسلام دين انسانى ، وكان عصر قلق واضطراب ، وقد جاء الاسلام ليحل محل ذلك الأمن والمسالمة وكان عصر خرافة ودجل ، والاسلام يخاطب العقل ويستند اليه " ^(٢)

والعقاد فى هذه النظرية يتفق مع الكاتب والفيلسوف الأسكتلندى " توماس كارليل " (١٧٩٥ - ١٨٨٨م) بل يستعير منطقته فى الدفاع عن البطولة الفردية ضد كل ما جاء به العصر الحديث من مذاهب ونظم ترد البطولة الى صنع الهيئة والمصر والمجتمع .

يقول كارليل : " فشأنى هذا العصر رأى باطل هو انكار وجود الأبطال ، بل كراهة وجود الأبطال . أذكر لمعشر النقاد بطلا : الامام " لوتار " مثلا ، فاذا هم قد انبروا ينتقدونه ، لا يأخذون فى اجلاله ، بل فى أخذ مقاسه ، ويسفر المقاس عنه رجلا عاديا ضعيفا ضئيلا ، ثم يقولون ان ما ينسب اليه من العظمة هو مستعار من أحوال عصره ، وظروف وقته ، فالوقت هو الذى أحدثه وشهره ، هو ابن الوقت ، وكل ما جرى على يديه هو من فعل الوقت لا فعله . هذا والله أَفْسُنٌ وسُخْفٌ ما أقول النقاد ان الوقت هو الذى أحدث ذاك الرجل - وأسفاه ، لقد طالما صاحت الأوقات : أين الهطل ؟ ولا بطل ، أين المظلم ؟ ولا عظيم ، تصرخ الأوقات : باللفتى فيذهب نداؤها صحبة

بنو الخراز

(١) كذا نسب للجميع وهو خطأ نحوى ، لأن الجمع هنا ليس علما ، والصواب : عَشِيرَتٌ ٥٥ نسبة الى عشيرة - كهيلة - .

(٢) محمد وهولاء ص ٩١ .

فى واد وثغمة فى رماد ، وما ذاك الا أن البطل والفتى لم يكن وقت
النداء موجودا ، ولم يكن الله قد أرسله رحمة للعالم ، وحد أن يسمع
صوت الوقت ولا مجيب ، تنهار أركانه ويهدم بنيانه ويعمه الخراب
والطف ، لأن البطل لم يدركه حينما صاح يستجده (١)

ويستطيع كل قارئ متأمل أن يجد أثر هذه النظرية فى كتاب
" عقيدة محمد " وذلك حين يقيم العقاد المقارنات والموازنات بين
ما جاء به النبي من مبادئ فى مجال الحرب ، أو فى مجال السياسة ،
أو فى مجال التشريع - منذ ما يقرب من أهمة عشر قرنا - والمبادئ
الحديثة التى يراها العالم أعظم ما جاء به العصر الحديث ، رابعا من
ورا هذه المقارنات والموازنات الى نسبتها للسان المبقري . . لا الى
المجتمع أو العصر ، فاذا تشابهت الأعمال والأفكار فى عصرين مختلفان
جدا ، كما يختلف القرن السابع الميلادى والقرن التاسع عشر . . . وفى
مجتمعين مختلفان جدا ، كما يختلف المجتمع العربى الهدوى فى الجاهلية ،
والمجتمع الفرنسى الحديث ، كان علينا أن نرد التشابه الى وحدة
المبقرات الانسانية لا الى المجتمعات والمصور المختلفة المتناقضة
وأن نشهد للسابق بالهظة والتفوق .

فى مجال الحرب والعسكرية ، يقارن العقاد ويوازن بين قيادة
النبي للحروب ، وقيادة أساطين الحرب فى العصر الحديث ، ويشهد
سبق النبي الى كثير من طرق الحرب الحديثة . . ويختار العقاد للمقارنة
والموازنة فى هذا المجال قائدا من أبرع قواد العصر الحديث ، وهو
" نابليون بونابرت " القائد الحوى الفرنسى العظيم . .

يقول العقاد : " ونختار أبرع القادة المحدثين ، وهو نابليون
بونابرت " على أسلوب حرب الحركة الذى كان هو الأسلوب الغالب فى المصور
الماضية ، والذى ظهر فى الحرب العالمية الحاضرة أنه لا يزال الخطوة
الأخيرة فى جميع الحروب ، على الرغم من الحصون والسدود لأن
اختيار نابليون بونابرت يبين لنا السبق فى خطط النبى العسكرية ،
بالمضاهاة بينها وبين خطط هذا القائد العظيم . . . (١)

١ - " فتابعون كان يوجهه هذه الأول الى القضاء على قوة
العدو العسكرية بأسرع ما يستطيع فلم يكن معناه ضرب المدن ولا اقتحام
المواقع . . . وانما كانت غنائه الكبرى منصرفة الى مهادنة الجيش الذى
يعتمد عليه العدو بهجة سريعة يفاجئه بها أكثر الأحيان وعند
أنه يستفيد بخطته تلك ثلاثة أمور . . . أن يختار الموقع الملائم له ،
وأن يختار الفرصة ، وأن يعاجل العدو قبل تمام استعداداته .

وكان عليه السلام سابقا الى تلك الخطط فى جميع تفصيلاتها ،
فكان - كما قدمنا - لا يبدأ أحدا بالعدوان ، ولكنه اذا علم بمزم
الأعداء على قتاله لم يهملهم حتى يهاجموه (٢) جهد ما تواتره الأحوال . .
وكان عليه السلام يعمد الى القوة العسكرية حيث أصابها ، فيقضى على
عزائم أعدائه بالقضاء عليها ، ولا يضيع الوقت فى انتظار ما يختاره أولئك
الأعداء . . . (٣)

٢ - " وكان نابليون يقول : ان نسبة القوة الممنونة الى الكثرة
المدنية كسبة ثلاثة الى واحد . . . والنبى عليه السلام كان عظيم

(١) عقبة محمد ص ٥٢ .

(٢) الصواب : حتى يهاجموه ، وهجم ، تمتد ولازم ، ولم ترد هاجم .

(٣) عقبة محمد ص ٥٢ ، ٥٣ .

الاعتماد على هذه القوة الممنونة ، التي هي في الحقيقة قوة الايمان (١) .

٣- " وكان نابليون معتدا برأيه في الفنون العسكرية ، ولا سيما الخطط الحربية ، ولكنه كان مع هذا الاعتداد الشديد لا يستغنى عن مشاورة صحبه في مجلس الحرب الأعلى قبل ابتداء الزحف أو قبل القتال على القتال ، ومحمد عليه السلام كان على رجاء رأيه يستشير صحبه في خطط القتال وحيل الدفاع ، ويقبل مشورتهم أحسن قبول ، ومن ذلك ما صنعه ببدر - وألعمنا اليه آنفا - حين أشار عليه الجهابذ ابن المنذر بالانتقال الى مكان غير الذي نزلوا فيه أول الأمر ثم بتفوير الآبار هناك حوض للشرب لا يصل اليه الأعداء ، وقيل في روايات كثيرة : انه عمل بمشورة سلمان الفارسي في حفر الخندق عند المنفذ الذي خيف أن يهجم منه المشركون على المدينة ، فحفر الخندق وعمل النبي بيديه الكريمتين في حفره " (٢)

الى غير ذلك من تلك المقارنات والموازنات التي بسطها العقاد في كتابه بين النبي ونابليون . . وينتهي العقاد من هذه المقارنات والموازنات التي عقدها بين الخطط والمعدات التي سبق اليها النبي محمد ، والخطط والمعدات التي جرى عليها نابليون بمد ثبات السنين - ينتهي العقاد من هذه المقارنات - أو بمقارنة أصح ، يقصد العقاد من وراء هذه المقارنات والموازنات - الى شئئين :

أولا : أن هذا التشابه في الخطط والمعدات العسكرية بين قائدين مختلفين . . في عشرين مختلفين ، يرجع الى وحدة المبادئ

(١) عبقريه محمد ص ٥٣ ، ٥٤

(٢) المصدر السابق ص ٥٥ ، ٥٦

الانسانية ، لا الى المجتمعات والمصور المختلفة المتنافسة ..

ثانيا : أن سبق الرسول محمد صلى الله عليه وسلم - ففى الخطط العسكرية والمعدات الحربية قائدا كاهليون اتخذ الحرب حرفة صناعة - يشهد للرسول بالعظمة والثوق والسبق .. مع أن الرسول لم يتخذ الحرب صناعة ولا عمد اليها الا لدفع غارة وابتداء عداوة .. ومع فاروق آخر : هو أن ناهليون لم يبلغ من نتائجه بعض ما بلغه الرسول القائد الأسمى بين رمال الصحراء ..

ويتقدم المقاد بموازنة أخرى - فى مجال الحرب والعسكرة ، ليدل على وحدة المبادئ الانسانية - بين "هتلر" فى اعتدائه على الجواسيس المؤمنين به ، وعلى ما يقومون به خلف خطوط القتال ، وبين ما حققه الرسول بهرجل واحد هو "تعيم بن مسعود" فى هزيمة الأحزاب ، حين حاصروا المدينة ، فاستطاع أن يفرق شملهم ويشتت جمعهم لانتهازه فرصة العناصر الطهية والعناصر التى تتألف منها جماعة الأحزاب .. وما فعله النبى - أيضا - حين أرسل عبدالله بن جحش ليهانى اليه بأخبار قريش ..



واذا كان النبى قد سبق ناهليون وهتلر فى بعض الخطط الحربية ، فان النبى قد سبق فى مجال السياسة بعض ساسة العصر الحديث وزعماء فى خططهم السياسية .. فقد سبق "غاندى" فى فكرة " المقاومة السلمية " وذلك فى عهد الحديدية الذى تعاقد فيه على تسير أعمال العنف بين المسلمين وبين قريش الى حين ..

يقول العقاد : " نفى عهد الحديبية تجلى تدبير محمد ففى سياسة خصومه وسياسة أتباعه ، وفى الاعتماد على السلم والمهادنة حيث يَحْسُنَانِ وَيَصْلِحَانِ ، والاعتماد على الحرب والقوة حيث لا تحسن المسالمة ولا تصلح المهادنة . . . وقد سمعنا كثيرا فى المصور الحديثة عن المقاومة السلمية أو المقاومة التى تجتنب العنف ولا تعتمد على غير وجه الحق والحجة . سمعنا بها فى الحركة الهندية التى قام على رأسها غاندى وتابعه فيها بعض مريديه ، حتى كان لها من الأثر فى ازعاج الحكومة البريطانية ما لم يكن للقنابل ولا للمشافيح الدامية . " (١)

وفى مجال التشرىح سبق الرسول الدساتير الحديثة التى تنص على أن " الأمة مصدر السلطات " حين يقول صلى الله عليه وسلم : " كما تكونوا يول عليكم " (٢) . كما سبق الرسول أحرار الفكر المصريين حين يقول : " ان الله تجاوز لأمتى عما حدثت به نفسها ما لم تتكلم به " أو تعمل به .

يقول العقاد : " واليوم يكر اللاقطون بحرية الفكر ويحسبونهم كشافا من كشف الثورة الفرنسية وما بعدها ، ويحرمون على الحاكم أن يؤاخذ الناس بما فكروا فيه ما لم يتكلموا أو يعملوا ويكن فى كلامهم وعملهم ما يخالف الشريعة . . . فهذا الذى يحسبونه كشافا من كشف المصر الأخير قد جرى عليه حكم النبى قبل أربعة عشر قرنا ، وشهد لأمتيه فى أحاديثه حين قال عليه الصلاة والسلام : " ان الله تجاوز لأمتى عما حدثت به نفسها ما لم تتكلم به أو تعمل به " (٣)

(١) عقبة محمد ص : ٨٨ ، ٨٩ .

(٢) ليس هذا من قول الرسول الكريم ، بل هو قول الحسن البصرى ، والرواية " يولى " بالياء - راجع : " كشف الخفا وزيل الالهام " عما اشتهر من الحديث على ألسنة الناس ج : ٢ ص : ١٢٦ ، ١٢٧ للمحدث : اسماعيل بن محمد المجلوني الجراحى .

(٣) عقبة محمد ص : ١٣٧ .

كما سبق الرسول صلى الله عليه وسلم الصالحين المحدثين حين قدم الرحمة على المدل ، وذلك حيث يقول : " ان الله تعالى لما خلق الخلق كتب بيده على نفسه ان رحمتى تغلب غضبى " .

يقول العقاد : " وزعموا كذلك ان تقديم الرحمة على المدل فى تطبيق الشريعة دعوة من دعوات الصالحين المحدثين لم يُستَقْبَلْوا اليها ، وهى هى دعوة النبى العرسى التى كررها ، ولم يَدْعُ قط الى غيرها فقال : " ان الله تعالى لما خلق الخلق كتب بيده على نفسه ان رحمتى تغلب غضبى " وقال : " ان الله تعالى رفيق يحب الرفق ويمطى عليه ما لا يمحط على العنف " (١)

كما سبق الرسول صلى الله عليه وسلم الصالحين الاجتماعيين فى تقريره لحقوق المرأة ، والعقاد يقارن ويوازن بين ما يقرره الاسلام للمرأة من حقوق بما فى ذلك حقها فى أن تعلم الناس الدين ، وحقوق المرأة فى المجتمعات الحديثة خلال القرن الماضى ، فيرى أن المرأة المسلمة كانت الى القرن الماضى تتمتع بما لا تتمتع به المرأة الأوروبية ، فمنذ بضعة وثمانين عاما كانت المرأة الأوروبية محرومة من حقها الكامل فى ملك العقار وحرية التقاضى ، وهو ما قرره الاسلام للمرأة منذ أرمية عشر قرنا ، بينما كانت المرأة الأوروبية فى عصر القروسية — وهو المصير الذى اشتهر باحترامه للمرأة — تزف الى الرجل فجأة لتسهل المحادثات الحربية أو لتسهل صفقة من الصفقات — بينما كانت المرأة الأوروبية على هذا الحال ، كان النبى يقول فيها يقول للمسلمين قبل ذلك بمعدة قرون : " اذا خطب أحدكم المرأة وهو يَخْضِبُ بالسواد فَلْيُعْلِمْهَا أَنَّهُ

(١) عبقريّة محمد ص : ١٣٧٠

يخضب .

وينتهى المقاد من هذه المقارنات والموازنات بين الرسول والقادة
الحريين أو المعظماء السياسيين أو كبار المشرعين أو المصلحين الاجتماعيين
— الى أن الرسول قد سبق هؤلاء في خططهم الحوية وتشريعاتهم
السياسية والاجتماعية ، وأن التشابه بينه وبينهم في تلك الخطط وهذه
التشريعات موده الى وحدة المبقرات الانسانية التي ترجع الى الانسان
نفسه وما فيه من ملكات وقدرات وزايا وصفات ، لا الى المجتمع أو المصير
الذي يعيش فيه الانسان .

و " كتابات المقاد مثلاً عن المبقرات والبطولات كانت تحمل طابع
المفهوم الغربي وربما التفريبي عن دراسة الشخصية وتحليلها المستمدة
من نظرية " فرويد " والتي تحاول أن ترد كل تصرفات الانسان الى
شخصيته ودوافعه الخاصة أكثر مما تمزوها الى أثر البيئة والتحول الفكري
في مجتمعه ، ومن هنا يبدو المقاد ، وكأننا يريد أن ينسب هذه
البطولات الى مصادر نفسية لا الى أثر الاسلام نفسه الذي حول مفاهيمهم
وغير بيئتهم . (١)

٣ — الجانب العقلي :

ونصل الآن الى الجانب الثالث من جوانب منهج المقاد فـ
" عقبة محد " وهو الجانب العقلي . ومعنى أنه عقلي : أن المقاد ،
وهو يكشف عن آيات المبقرية المحدية . لم يشأ أن يدلل على هذه

(١) أضواء على الأدب العربي المعاصر ص ٢٨٧ .

الآيات الا بما يؤمن به العقل ويصدق ٠٠ لذا راج العقاد يكشف عنها في أفعال الرسول وأقواله وتصرفاته وخائفته ٠٠ في جميع جوانب حياته وعلاقاته ٠٠ لأن هذه الأمور لا يختلف عليها اثنان. والعقاد يهدف بكتابه هذا أن يجلو صورة المظلة الانسانية المحمدية كما يفهمها البشر بحيث يفهمها البشر ، ولم يكن يستهدف بكتابه المؤمنين بمظلة محمد ، الذين يقبلون هذه المظلة دون حاجة الى برهان أو دليل ، ويحسونها في قلوبهم التي عمرها الايمان بلا ممونة من اثبات وتوكيد .

نعم . كان العقاد يستهدف من في قلوبهم مؤس ، من شاءوا ، الا يعترفوا بشئ ، ومن أرادوا ألا يؤمنوا بشئ ، كما كان يستهدف بكتابه هؤلاء الذين طفت المادة وطفى التفكير العلمي الحديث على نفوسهم وعقولهم فلم يحدوا يقبلون الا كل ما قام عليه دليل مادي أو برهان علمي .

لهؤلاء جميعا تجرد العقاد في كتابه ، فكان طبعها أن يهمل كل ما جاء في كتب السيرة من الحكايات الخارقة سواء أكانت للدلالة على تأهب العالم لاستقبال الرسول ، أم كانت للدلالة على قدرات الرسول ، وإمكاناته الخارقة ٠٠

ومن أجل هذا راج العقاد يفتش عن عمقيرة الرسول وعظمته في طبائعه وخلائقه وقدراته الشخصية ، وملكاته النفسية ، وترك ما سوى ذلك من المعجزات والخوارق ، لأن المعجزات والخوارق أمور لا يتفق عليها الجميع ، أما طبائعه صلى الله عليه وسلم وخلائقه

وقدراته وملكانه فأبهر يثشق عليها الجميع ، ومقياس تقاس به عظمة محمد ،
حتى عند مَنْ لا يؤمنون به .. " لهذا كان تقدير محمد بالمقياس الذى
يفهمه المحاصرون ويتساوى فى اقراره المسلمون وغير المسلمين نافعا فسى
هذا الزمن الذى التوت فيه مقاييس التقدير ^(١) " ^(٢) .

بل ان العقاد ليذهب الى ما هو أبعد من هذا فيقول
ان البشارات التى حكاها المؤرخون على أنها مقدمات للرسالة لم
يكن لها من أثر فى الرسالة نفسها ، فهى لم تقدم ولم تؤخر كثيرا ..
" فما من بشارة قط من تلك البشارات كان لها أثر فى اقناع أحد
بالرسالة يوم صدع النبى بالرسالة ، أو كان ثبوت الاسلام متوقفا عليها
لأن الذين شهدوا العلامات المزعومة يوم الميلاد لم يعرفوا يومئذ
مفزاها وبؤداها ولا عرفوا أنها علامة على شىء أو على رسالة ستأتى
بعد أربعين سنة " ^(٣) .

ولهذا جاء كتاب " عقبة محمد " غُفْلًا من كل المعجزات والخوارق
التي ساقها أكثر مؤرخى السيرة النبوية ، فلم يشر اليها العقاد من
قريب أو بعيد ، لأن العقاد يرى أن عظمة النبى تظهر فى أعماله
وتصرفاته وسياسته للأمر أكثر مما تظهر فى تلك المعجزات والخوارق ..

وليس معنى اغفال العقاد هذه المعجزات وتلك الخوارق أنه
لا يؤمن بها أصلا ، فالمسألة ليست مسألة ايمان أو غيره ، إنما المسألة
أن العقاد أراد أن يدل على عظمة الرسول أمام المنكرين لها .. وخير
له أن يدل عليها بالشواهد والبيئات التى لا مجال للاختلاف عليها ، بدلا من
أن يلتبس الأدلة عليها من المعجزات والخوارق التى هى مجال اختلاف ومحل
جدل وكلام .

(١) الصواب : المصريون .

(٢) عقبة محمد ص ١٤ (٣) عقبة محمد ص : ٢٧ .

ٖٖ الفصل السادس ٖٖ

" عبقرية محمد " فى ميزان النقد

- ١ - قيمة الكتاب وأثره .٠٠ وبيان مكانه من الدراسات الأدبية .
- ٢ - نقد طريقة العقاد (الاعتماد على الصفات البارزة) .
- ٣ - نقد أسلوب العقاد (غلبة الأسلوب العلمى المنطقى عليه) .
- ٤ - نقد منهج العقاد (الجانب النفسى)

١ - قيمة الكتاب وأثره .. ميان مكانه من الدراسات الأدبية :

مما لا شك فيه أن كتاب " عقيدة محمد " يمد إضافة جديدة في فن التراجم الشخصية ، أو في أدب التراجم الشخصية ، بل تعد تراجم العقاد الشخصية وبحقرياتة الاسلامية بصفة عامة ، إضافة جديدة ، بما أضافه الى هذا الفن من طريقة جديدة ومنهج جديد .

ولعل اطلاق لفظ " الترجمة " على كتب العقاد هذه يعد من باب التجوز ، لأن واحدا منها لا يمكن أن يعد داخل في هذا الفن ، اذا ما حاولنا أن نقيسها بالمقاييس الفنية لهذا اللون من الأدب ، كذلك نرى أن اطلاق لفظ " السيرة " على هذه الكتب ، يعد تجوزا في التعبير ، لأن واحدا منها لا يمكن أن يتدرج تحت هذا اللون من الكتابة اذا ما حاولنا أن نقيسها بالمقاييس المعروفة لهذا اللون .

فالترجمة الشخصية - كما يقول سيد قطب :- " .. فن حديث من فنون الأدب ، انفصل عن عالم التاريخ ودخل عالم الأدب من باب الطاقة الشمورية التي يشها الأديب في موضوعه والقيم الفنية التي يضمنها تعبيره ، والتراجم على هذا الوضع تشتمل المنصرين الأساسيين ^(١) للعمل الأدبي : " التجهة الشمورية " و "المهارة الموحية عن هذه التجريبية" .. فاذا خلت الترجمة من هذين المنصرين أو من أحدهما استحالت سيرة أو تاريخا بعيدا عن عالم الأدب . " ^(٢)

(١) في الأصل : الأساسيين ، وهو خطأ .

(٢) النقد الأدبي : سيد قطب ص ٨٨ .

وعلى ضوء هذا التعريف لفن الترجمة لا يمكن أن نعد عبقريّة محمد " أو غيرها من العبقريات والتراجم الشخصية التي كتبها المقاد ترجمة بهذا التعريف ، لأن التجهة الشمورية المطلوب توافرها لا تتم الا باستحضار حياة من يترجم له واحساس الكاتب بهذه الحياة وظروف بطله وحالاته النفسية . . ومحاولة استنفاد الملاحظات التي أحاطت بحياة البطل وذهبت به في تيه الوجود . واستحضارها في الذهن والشمور من حياة البطل لحظة فلحظة . .

والتجربة الشمورية - على ضوء هذا - ليست واضحة قوينة في " عبقريّة محمد " أو غيرها من العبقريات ، لأن المقاد لم يستعرض حياة من يترجم له ولم يستحضر هذه الحياة في ذهنه وشموره لحظة فلحظة ، بل اكتفى المقاد في تراجمه وعبقرياته بالتركيز على بعض جوانب شخصياته فسلط عليها الأضواء بإبراز سمات واضحة صفات مشهورة لها دلالتها على هذه الجوانب . . التقط لها من حياة البطل ما يعززها ويؤكدها . . وما كان للتجهة أن تتم أو يكون لها وجود حقيقي بمثل هذه الصفات المشهورة أو تلك السمات الهائلة التي يختارها المقاد ليكشف بعض جوانب هذه الشخصية .

والمهارة الموحية - وهي المنصر الثاني في الترجمة - توجد بوجود التجهة الشمورية قوة وضعفا ، كذلك حال التجربة الشمورية لا يتحقق لها وجود - الا في ذهن الكاتب - ما لم تتح لها المهارة الموحية التي يصب داخها تلك التجهة الشمورية ، وإذا اكتم هذان المنصران أصبح تاريخ البطل حياة تهاد وروحاً تتحرك ، وهذا هو الذي يعطى للترجمة قيمتها وأهميتها . . ومنه على ذلك تؤكد أننا نكاد نفتقد المهارة الموحية في تراجم المقاد ، لافتقارنا التجربة الشمورية ،

هذا بالإضافة الى أن أسلوب المقاد بمبارات وألفاظه أسلوب علمى منطقي بعيد عن التعبير الموحى الجميل كما سبق أن أشرنا .

وإذا كان " عقبة محمد " ليس ترجمة بالمعنى الدقيق لهذه الكلمة ، فإن " عقبة محمد " ليس سيرة — كما سبق أن ألقنا — ذلك لأن السيرة تعنى أن يتتبع الكاتب حياة بطله ووقائع هذه الحياة وأحداثها مستعرضاً جوانب حياته المختلفة ، معتداً فى ذلك على الوثائق والمدونات والأسانيد القاطعة ، إلا أنها أغنى من التاريخ العام بالمواقف والأحاسيس ، والسيرة بذلك تحتاج الى أن يكون الكاتب جامعاً بين قدرة المسوّن وإحساس الأديب معا^(١) ، كما سبق أن أوضحنا ذلك .

وعلى ضوء هذا التعريف لفن السيرة لا يمكن أن نعد " عقبة محمد " سيرة . لأن المقاد لم يستعرض تاريخ حياة الرسول من جوانبها المختلفة — كما يستعرضها مؤرخو السير — ولم يكشف عن وقائعها وأحداثها ، متبهماً هذه الوقائع وتلك الأحداث فى أسبابها ووجودها ونماذجها ونتائجها — كما يفعل ذلك هؤلاء المؤرخون — بل تناول جانباً واحداً من جوانب شخصيته ، وهو عقبة صلى الله عليه وسلم .

يقول المقاد : " . . . فسيرى القارئ أن " عقبة محمد " عنوان يؤدى معناه فى حدوده المقصودة ولا يتمدها ، فليس الكتاب سيرة نبوية جديدة تضاف الى السير العربية والأجنبية التى حظت بها " المكتبة المحمدية " حتى الآن ، لأننا لم نقصد وقائع السيرة لذاتها فى هذه الصفحات انما الكتاب تقدير لمعربة محمد بالمقدار الذى يديمن به كل انسان ولا يدين به المسلم وكفى " .^(٢)

(١) راجع : التاريخ والسير ص ٦١ . (٢) عقبة محمد ص ١٢ .

وإذا كان "عقريه محمد" ليس "ترجمة" بالاصطلاح الفننى
لتلك الكلمة ، وليس "سيرة" تاريخية بمفهوم كلمة "سيرة" فإذا يمكن
أن يكون ذلك الكتاب ؟

ان العقاد فى "عقريه محمد" .. بل فى عقرياته كلها...
لا يستعرض حياة مَنْ يترجم له بجوانبها المختلفة ، بل يستعرض جانبها
واحدا حظى باهتمام العقاد فى تراجمه الشخصية ، وهو جانب المبقرية
وموضع العظمة فى شخص من يترجم له .. وللعقاد فى الكشف عن هذه
المبقرية وتلك العظمة طريقة خاصة ، بل جديدة أيضا ، وقد أفضنا القول
فى خصائصها وسماتها عند الحديث عنها ، ولا مانع من الإشارة إليها
هنا إشارة عاجلة فنقول :

ان العقاد يقوم بالكشف عن هذه المبقرية فى جميع جوانب
الشخصية التى يترجم لها من خلال استعراض حياتها وما وقع فيها من
وقائع وأحداث .. فيفتش العقاد فى أقوال تلك الشخصية وأفعالها
وعصرقاتها عن كل ما ينبغى عن آيات المبقرية ، وينتقل العقاد من هذا
الاستعراض وذاك الاستقراء الى التقسيم الأعم والأكمل .. فيجمع التصرفات
والأقوال فى خطوط عريضة تحدد معالم المبقرية والعظمة فى تلك
الشخصية ، والتى تعدّ فى الوقت نفسه تحديدا لمعالم تلك الشخصية
وتأكيدا لخصائصها ، وهذا ما يمكن أن يسمى بالاستقراء أو الاستقراء
الأفقى ..

ونستطيع أن نلخص هذا فى كتاب "عقريه محمد" حينما حاول
العقاد استعراض جوانب حياة الرسول صلى الله عليه وسلم واستقراء
ما فيها من أفعاله وأقواله مما يدل على عظمته وعبقريته ، ومحاولة تجميع

هذه الأعمال وتلك الأتوال فى خطوط عريضة تحدد معالم هذه المبقرية المحمدية وتوضح ألوانها ، ومن هنا كانت هذه الفصول التى توضّح تلك المعالم وتبين تلك الألوان : عقبة الداعى - عقبة محمد العسكرية عقبة محمد السياسية ... الخ .

ثم ينتقل العقاد من هذا التحديد لمعالم المبقرية وتخطيطها - من خلال الاستقراء الأفقى عنها فى جميع حياتها صلى الله عليه وسلم - الى استقراء رأسى بالكشف عن سمات كل معلم من تلك المعالم وإبراز خصائصه وألوانه .. فيتناول كل عقبة من تلك المبقرات المحمدية التى وضعها من خلال الفصول التى أشرنا إليها .. بالشرح والتحليل والتفصيل مستعرضا ما فيها من سمات دقيقة وصفات فرعية .

ومن خلال هذا الاستقراء الأفقى والرأسى لدلائل المبقرية وآيات المظلة تتحدد معالم الشخصية وتبرز صورتها ، ومن هنا يمكن أن نسمى " عقبة محمد " وما يشبهه من عقبات العقاد الأخرى " صورة نفسية " كشفت عن أبرز معالم الشخصية وأشهر صفاتها ..

يقول سيد قطب .

" ... أنا طريقة العقاد فهى جديدة على المكتبة العربية جدة كاملة : (فى) العلاج والطريقة معاً ، هى ليست " سيرة " على طريقة السيرة العربية ، وليست " ترجمة " على طريقة التراجم فى اللغات الأوربية ، إنما هى " صورة " تتألف من بضعة خطوط سريعة حاسمة يبرز من خلالها " إنسان " (١)

ويقول أيضا : " ولدينا في اللغة العربية عدة نماذج للتراجيم ليست واحدة منها مما ينطبق عليه نص الاصطلاح الحرفي " ترجممة " لدينا طريقة العقاد في رسم " صورة نفسية " للهطل بمحض خصائصه الأساسية^(١) البارزة والتدليل عليها بحوادث منتقاة من تاريخه لها دلالتها على هذه الخصائص دون الدخول في تفصيلات حياته ، وتتبع خطاه ، وكتب " المبعريات " كلها من هذا الطراز " (٢) .

ويقول احسان عباس : " فالمبعريات أو ما كتبه العقاد على مثالها ليست سيرا بالمعنى الدقيق ولكنها تفسير لبعض مظاهر الشخصيات الكبيرة ، والأحداث والأقوال المتعلقة بها ، على قاعدة شبيهة بالتطويل النفسى ولمست هو ، وإنما هي لباقة في المروء ومهارة في اللبس والتشهير " (٣) .

وطريقة العقاد هذه التي انتهجها في الكشف عن مالم شخصياته وتأكيد خصائصها من خلال البحث عنها من وقائع حياتهم ومن خلال تصرفاتهم وأقوالهم : من التصرف الذي قد يبدو للقارئ غير المتأمل صغيرا . . ومن الكلمة التي قد تبدو له عادية لا يأبه لها . . فيحولها العقاد المتأمل الى خصائص وسمات لها دلالاتها الكبيرة على الشخصية . . وهذه تعد إضافة جديدة أضافها العقاد الى طرائق كتابة التراجيم .

أقول : ان طريقة العقاد هذه ، وهي التقاطع للأعمال والأقوال وتحويلها الى دلالات كبيرة - كما قلنا - منهج انتهجه " أندريه -

(١) الصواب : الأساس - بكسر الهمزة - جمع أساس - يفتحها - .

(٢) النقد الأدبي ص : ٨٩ .

(٣) فن السيرة ص : ٦٧ .

موروا " و " استيفان زفايج " و " لودفيج " كما أن طريقته في تفسير الحوادث والتصرفات والأفعال تفسيراً عقلياً - كما سبق أن أوضحنا ، عند الكلام عن منهجه - منهج سيق إليه أشهينجلر " الفكر الألماني " والاستاذان الماصران ^(١) : أرنولد توينبى " و " بيترهم سوركس - غير أن العقاد اخطف عنهم في عدم التزام الخط التاريخي ، حين زاد عليهم التفسير النفس والخلق . . . ^(٢)

" الأستاذ العقاد يفسر التصرفات على طريقة التفسير المحدد ، وهو يريحك بأعطائك النتيجة والرد على أسئلتك الحائرة وكشف الغموض الذي يلف عادة شخصية العظيم هذا (على) حين يحرض " أندريه سوروا " التصرفات في شريط ويدع لك التفسير ، كما يدع لك تلوين فكره بنفسك . أندريه موروا يشوقك ويشدك إليه حين يجعلك تلهث وراءه لمعرفة النتائج والنهائيات " ^(٣)

وليس ما في طريقة العقاد ومنهجه في كتابة التراجم من جودة وطرافة هو كل ما أضافه ، بل أن لكل من هذه الطريقة وذاك المنهج ميزة وقيمة . . .

أما الميزة ، فهي أن العقاد في تجلته لمعالم الشخصية وإبراز خصائصها يكشف لك عن سمة عامة لتلك الشخصية ، هي جماع ما غرق من معالم تلك الشخصية وخصائصها ، وتكاد تكون السلسلة التي تتنظم فيها كل تلك المعالم وهاتيك الخصائص ، بل يكاد القارئ المتأمل

(١) تمبير خاطي شاع بين الناس والصواب : المصبران ،
(٢) الجمال والحرية والشخصية الانسانية في أدب العقاد ص ٦٦
(٣) المرجع السابق ص : ٦٦ .

يجدها في كل معلم من تلك المعالم ، وفي كل خاصة من تلك الخصائص ، وهذه السمة العامة هي ما يسميها بعض النقاد " بمفتاح الشخصية " .

يقول سيد قطب : " وميزته في هذه الدراسات أنه يحطه — كـ " مفتاح الشخصية " التي يتناولها فتعرف على الفور " من هو " هذا الانسان ^(١) الذي يحدثك عنه ، وتبين سماته وملامحه ، من بين الملايين أو من بين الألوف التي ^(٢) ينتمي اليهم ويندمج فيهم ، كما تستطيع أن تجزم بصحة الأخبار والحوادث والأعمال التي تسب اليه أو عـ صحتها ولو لم ترد في دراسة العقاد له ، لأنك أصبحت تعرفه وتذكر خصائصه وتلاحظ مزاجه وتعلم ما يمكن أن يأتي أو يدع من الأمور ، شأنك في هذا شأن الصاحب الذي أطلت عشرة صاحبه فعرف أعق خواجه وأدق " لوازمه " . وفي كل ما كتب العقاد عن " الشخصيات " تتضح هذه الميزة ، وانها لتتضح في كتب الدراسة الكاملة أمثال " ابن الرومي " و " سعد زغلول " ثم تبلغ أقصى درجات النضج في كتب " البعقريات " الأخيرة " ^(٣)

وتقول د . نعمات أحمد فؤاد : " فالعقاد يدور حول الشخصية ويَلَفَّ طويلا بعين لامة وأذن مرهفة ، انه يتسقط كل حرف يخرج من فمها في سبيل الوقوف على سرها . . أي : مفتاح الشخصية ، ليدخل السـ رحابها وشمايها ، فاتحاً به كل قول مستغلق ، أو تصرف يحتل التأويل والتعميل " ^(٤)

الملاحـ

(١) الصواب : من هذا الانسان : كما في قوله تعالى : " فما الحاقـة " ، و " القارعة ما القارعة " .

(٢) الأصوب : الذين يدل التي . (٣) كتب وشخصيات ص ٢٩٩ .

(٤) الجمال والحرية والشخصية الانسانية في أدب العقاد ص ٧٦ .

وإذا ما رجعنا الى كتاب " عقريه محمد " لنفتش فيه عن
 " مفتاح شخصية " الرسول صلى الله عليه وسلم فإننا نجد هذا المفتاح
 يتجلى فى صفة " الانسان " بكل ما تحتله هذه الكلمة من ممانه
 فانسانية الرسول هى السمة العامة الهارزة التى تجلت فى أعماله وأقواله
 وانعكست على تصرفاته وأفعاله .. فهو انسان فى دعوته .. فى حربه ..
 فى ادارته .. فى سياسته .. فى رياسته .. فى صداقته .. فى
 معاملاته لزوجاته .. فى كل جانب من جوانب حياته .. كانت الانسانية
 هى سمة الرسول العامة وصفته المتميزة ..

أما القيمة فتبرز فى أن العقاد قد استطاع فى عقرياته أن يجلس
 الجوانب المشرقة من التراث الاسلامى .. وأن يكشف القناع عن أمثلة حياة
 من البطولة النادرة والمظنة الباهرة .. وعقرياته بذلك تعد دعوة صريحة
 الى الاعتزاز بالتراث فى صورته المشرقة . وتتجلى تجلية الجوانب المشرقة
 من التراث الاسلامى فى كتابه " عقريه محمد " حيث كشف للقارئ الجوانب
 الانسانية والمظنة المثالية فى شخص الرسول صلى الله عليه وسلم .. وأبرز
 ما كان يتحلى به الرسول من شيم وأخلاق، تعدُّ منارةً للانسانية تهديها
 سواء السبيل . ومثل هذه التجلية لتلك الجوانب المشرقة تغدو للتاريخ
 قيمته الحضارية، لأنها قيمة انسانية ..

وتبرز هذه القيمة فى كشف العقاد فى عقرياته - وخاصة " عقريه
 محمد - عن كثير من قيم الاسلام ومبادئه ... التى افترى عليها
 المفكرون . (١)

(١) راجع: الجمال والحرية والشخصية الانسانية ص ٩٣ - ٩٨ .

وتبرز هذه القيمة - من الناحية الأدبية - في الطريقة التي نهجها العقاد في عقرياته من حيث الأسلوب الجديد الذي صور به شخصياته وأبطاله .. ومن حيث المنهج الذي سلكه في بحثه عن دلائل المبقرات الإسلامية وآيات المظنة فيها التي تجلت في الشخصيات الإسلامية التي رسمها العقاد .. وكانت عقرياته العقاد بطريقته الجديدة : بأسلوبها ومنهجها فتحت جديدا في مجال الدراسات الأدبية في بساط التراجم الشخصية ..

" ان عقرياته العقاد الإسلامية أجدى على الاسلام من حيث هو دين ونظام ، وعلى الأدب العربي من حيث هو تصوير وتعبير ، وعلى الأدب الانساني من ناحية اعلاها للمشاكل الانسانية من خير وحرية واستقلال رأى وشعور بالتهمة وإثارة للمعدل .. أجدى على الدين والدنيا في اجلائها المعقدة واحترامها العقل الانساني من كتب كثيرة ليس فيها من الجهد والعلم والقيم .. وان أغنت في ناحية أو أخرى معطيات العقاد التي أسداها مخلصا لله وللانسان عن ايمان^(١) "



الا أن طريقة العقاد هذه التي انتهجها في عقرياته وتراجمه - على ما فيها من جدة وطرافة وما لها من ميزة وقيمة - لا تخلو من عيوب وأخطاء .. سواء في الطريقة نفسها .. أو في الأسلوب .. أو في المنهج ..

(١) الجمال والحرية والخصومة الانسانية ص ١٠٣ ، ١٠٤ .

٢ - نقد طريقة العقاد (الاعتماد على الصفات البارزة)

اعتمد العقاد في تصوير شخصياته على إبراز الصفات المشهورة والأحداث البارزة في حياتهم ، وتجلية تلك الصفات وهذه الأحداث وترك ما سوى ذلك من صفات وأحداث قد تكون لها دلالتها الكبيرة في رسم الشخصية وتصويرها . .

وتصوير الشخصيات لا يتم بإبراز الصفات المشهورة عندها ، ولا بالتركيز على الأحداث البارزة في حياتها ، بل لابد في تصوير الشخصية من استعراض جميع الصفات والأحداث التي وقعت للبطل حتى يتم تصويره من جميع الجوانب ، فلا يترك الكاتب في ذلك صفة ولا حادثة : صغيرة أو كبيرة ، ولا سنة : مشهورة أو مضمورة ، حتى يتم تصوير الشخصية بكل أبعادها وجوانبها في جميع ملامحاتها وأحوالها ، وحتى يضمن بهذا التصوير الكلى سنة القصة ، وهي سنة ضرورة للترجمة الشخصية ومعروف أن الاكتفاء في تصوير الشخصية بإبراز الصفات المشهورة والأحداث البارزة يعدُّ استقراً ناقصاً لا يكفل تصوير الشخصية تصويراً كاملاً ، والاستقراء الناقص يعد عيباً ، بل خطراً من مخاطر " المنهج التاريخي " .

هذه ناحية ، وناحية أخرى : أن العقاد لا يعنى - فيما يورد من نصوص وحوادث - بتحرير تلك النصوص ولا بتوثيق تلك الحوادث التي يرتكن إليها في رسم خطوط الشخصية . . وهذا قد يؤدي إلى أخطاء في تصوير الشخصية . .

يقول سيد قطب : " ولكن هذه الطريقة - يعنى طريقة العقاد - على ما فيها من ابداع ليست مأمونة ، لأن الغلظة الصغيرة فيها تذهب بالبصرة كلها ، فهي غلظة في سنة انسانية ، لا في حادثة جزئية ،

ولا تخلو من نقص وخطر . لأن الشخصية الانسانية ، ليست وحدة ثابتة
فى جميع الظروف والأحوال ، فالأكتفاء بالسمات البارزة والخصائص الكبيرة ،
والحوادث المختارة ، لا يكفل تصوير الشخصية من كل جوانبها ، ونسى
جميع ملامحاتها ، ولا يضمن لنا صورة من الحياة المتسلسلة للبهل كما
عاشها أول مرة . . . أى : لا يضمن لنا سمة القصة ، وهى سمة ضرورية
فى " ترجمة الشخصية " كما أن قلة عناية المتأد بتحرير النص
والحوادث التى يرتكن إليها فى رسم خطوط الشخصية الأساسية ^(١) قد
تقود الى أخطاء أساسية فى تصويرها ، وتنتهى الى صورة مضللة
أو محرفة . . . ^(٢)

ومن خطأ الاعتماد على الاستقراء الناقص - الذى أشرنا إليه -
يقول سيد قطب :

" فالاستقراء الناقص يؤدى بنا دائما الى خطأ فى الحكم ، ومن
الاستقراء الناقص الاعتماد على الحوادث البارزة والظواهر الفذة التى
لا تمثل سير الحياة الطبيعية ^(٣) ، فالبح الحوادث وأبرز الظواهر ليست
أكثر دلالة من الحوادث العامة والظواهر الصغيرة ، وما نراه نحن
أكثر دلالة قد لا يكون كذلك فى ذاته ، بل ربما كان انجذابنا الخاص
للأعجاب به أو المزاية عليه هو علة ما نرى فيه من دلالة بارزة . والأسلم
أن نجعل أقصى ما نستطيع الحصول عليه من الظواهر والدلائل : حادثة
أو نصا أو مستندا وألا نصدر أحكامنا الا بعد الانتباه من جميع
هذه الأسانيد ، فذلك أضمن وأكمل بالصواب . . . وأضرب بعض الأمثلة

(١) الصواب : الشخصية الأساس - دون نسبة .

(٢) النقد الأدبى ص ٨٩ ، ٩٠ .

(٣) الصواب : الطبيعى ، حقا ، الياء خطأ .

المختصرة على خطر الاستقراء الناقص من أعمال أدبائنا المعاصرين .. (١)

استد الأستاذ العقاد من كتب " المبهريات " على بضع حوادث بارزة فذة في تاريخ بعض الشخصيات - بعضها غير مقطوع بصحته - لتصوير شخصية " بطلها " ولهذه الحوادث دلالتها من غير شك، ولكن استعراض سلسلة حياة هذه الشخصية أضمن وأكمل بصحة تصوير الشخصية .. " (٢)

وعنه أيضا يقول احسان عباس : " .. ولا يستقصى العقاد نفس هذه النماذج، وإنما يتناول المعارف المشهور بتفسير جديد، وهذا تصوير شديد، إذا اغتر في بعض النواحي فلا يغتر في دراسة الشخصيات الإسلامية، لأن الروايات عنها مبثوثة في هادر كثيرة، بعضها يكمل بعضها أو ينقذه، فالاكتمال بالحدود المشهورة لا يغني الدراسة في شيء، فكم من صور وشخصيات شوهتها الروايات المشهورة، ومن خطر هذه الطريقة أن يستعملها من لم يؤت ذكاء العقاد وقوة سفسطائيته وشوئا من فهمه النفس، فتصبح كتابة السيرة دجلا يسرور به التاريخ، وتحدرد معه مكانة الحقيقة الموضوعية " (٣)

٣ - نقد أسلوب العقاد (غلبة الأسلوب العلمي المنطقي عليه)

أسلوب العقاد - كما سبق أن أوضحنا - أسلوب علمي منطقي .. أسلوب يعتمد على المقدمات والنتائج .. على الأسباب والنتائج .. على التقسيم والتفريع .. على الشرح والتفصيل والتفسير ... على مناقشة

(١) الصواب : المعاصرين .

(٢) النقد الأدبي ص : ١٤٦ و ١٤٧ .

(٣) فن السيرة ص ٦٧ .

المقل ومخاطبته ..

وهذا الأسلوب ان جاز في البحوث والدراسات ذوات الظاهر العلمى ، فانه لا يجوز في مجال تصوير الشخصيات ورسم النفوس ، لأن تصوير تلك الشخصيات وهذه النفوس واستعراض ما في حياتها من أحداث ووقائع لا يتم الا بتلوين هذه الشخصيات والنفوس وتلوين حياتها بما يضيفه الكاتب عليها من تجارب وأحاسيس يشعر بها نحو من يترجم له ، ولا يتم تلوين هذا كله بطوك التجهة التي يمشيها الكاتب ، الا اذا صاغ هذه التجهة في قالب أدبي جميل وبهارة معبرة موحية ، تجسم الأحداث وعصور الوقائع كأنها شاحصة قائمة تدب فيها الحياة ..

أما الأساليب العلمية والتقارير المنطقية التي سار عليها العقاد ، فلا ترسم نفسا ولا تصور شخصية " .. فالصورة الانسانية لا تبرز بمثل هذه التقارير الحاسمة التي يرسلها العقاد ولا تبرز بطوك المقدمات التي يديجها في أول كل فصل ، ولا تظهر بوضوح من وراء تعالسى العقاد نفسه في عرض شخصياته ، ذلك التمالى الذى يجعله أسير الفضلك الذهنية والتحل الشديد .. هذا وان محمدا عليه السلام حاضر في أنفسنا بسيرته من حيث هو صديق وأب ، وزوج ورئيس على وضع طبيعى^(١) بسيط حتى صادق قريب ، فلا يكون موقف العقاد في عرضه لهذه الخصائص من شخصية الرسول الا موقف الناشى الذى يقرر وينشئ أحكاما وقواعد ملزمة ويحدد عن الحادثة التصويرية ويمثل قلمه للمناقشة والحساب ، لا للبناء الإيجابى ويستطيع القارئ المادى أن يحس بوجود " محمد الصديق " - مثلا - من الحكايات البسيطة الواردة عن

(١) الصواب : طبيعى - يحذف الياء . وكلمة بسيط - أو بسيط - معناها : الواسع الكبير ، والصواب هنا : سهل أو بسيط أو السهلة البسيطة .

مواقفه من أصحابه أكثر مما يحس به فى فصل يكتبه العقاد عن هذه الناحية . (١)

٤ - نقد منهج العقاد (الجانب النفسى)

قلنا - سابقا - أن منهج العقاد فى كتابه " عقيدة محمد " ذو جوانب ثلاثة ، أو يعتمد على جوانب ثلاثة : فهو منهج تطليلى عقلى نفسى ، وقد سبق - أيضا - أن أوضحنا هذه الجوانب الثلاثة . . . وبهذه فى هذا الموضع أن نتحدث عن الجانب الثالث من هذا المنهج ، وهو الجانب النفسى . . .

سبق أن أشرنا الى أن العقاد تناول الحديث عن شخصية الرسول صلى الله عليه وسلم من خلال الحديث عن عقيدته ، . . . كما أشرنا - أيضا - الى أن العقاد قد تحدث عن هذه العقيدة من خلال نظرية نفسية ، هى " نظرية : العقيدة الفردية " وهى النظرية التى ترجع عظمة الانسان أو عقيدته أو بطولته الى ما فيه من ملكات وقدرات ومواهب شخصية ، لا الى البهية أو المجتمع أو المصر ، وما فيه من عوامل ومؤثرات .

أما بالنسبة للنقطة الأولى ، وهى الحديث عن الرسول صلى الله عليه وسلم من خلال الحديث عن عقيدته - فنحب أن نقول : أن هذا اتجاه ، جارى فيه العقاد الكتاب الغربيين الذين راحوا يتحدثون

(١) فن السيرة : ص ٢٦٤ ، ٢٦٥ .

عن النبي من خلال هذه الجوانب : البطولة..المهقرية .. العظيمة ..
أو من غيرها من الجوانب .. ولعل مما يؤيد ذلك تأثير العقاد بالكتاب
" توماس كارليل " في حديثه عن بطولة النبي ، حيث عقد فصلا لـ
في كتابه " الأبطال " .

وهدف أولئك الكتاب الفريسيين أن يبعدوا عن الرسول كل ما له
صلة بالنبوة والرسالة ، لأنهم غير مؤمنين بملك النبوة وملك الرسالة ، وحتى
يُكَوِّنُوا صورة أخرى للرسول ، قد تكون صورة " القائد " أو " الهطل " أو
" المهقري " أو ما أشبه ذلك من صفات واللقاب ، إلا أن تكون
تلك الصورة ، صورة النبي أو الرسول ، ولا أن يكون ذلك اللقب لقب
النبي أو الرسول ، وذلك بقصد ترويح هذه الألقاب وتلك الصفات التي
أطلقوها على النبي لدى المسلمين ، حتى يتربى لديهم الاحساس بهذه
المفاهيم الفريسية الفريية ، وحتى تنشأ الناشئة على هذه التربية الفكرية
الفاصلة ، وهي إبعاد المسلمين عن جوهر شخصية الرسول ، وهي —
النبوة والرسالة ..

وقد حاولوا — أعني هؤلاء الكتاب الفريسيين — أن يفسروا هذه
المفاهيم الفاسدة ، وتلك الأفكار الالحادية في رؤوس المفكرين المسلمين ،
فراحوا يَطْلُون هذه الأفكار وتلك المفاهيم بمهارات التقدير والاعجاب مثل :
محمد الهطل .. محمد القائد .. محمد المهقري ، حتى يخدعوا
هؤلاء المفكرين المسلمين عن هدفهم الحقيقي ، وهو إلغاء شخصية محمد
النبي أو محمد الرسول من الرؤوس والأفهام ، حيث تتفاد شخصية محمد
النبي أو محمد الرسول في أذهان المسلمين مع مرور الزمن ، وتبرز نفسى
أذهانهم شخصية أو صورة " محمد المهقري " أو " محمد القائد " أو
" محمد الهطل " ، وعندها لا ينهض أن يتصور — بطبيعة الحال —

أى سبب لتكاثر مختلف الناس والأمم من حول الرسول وانضوائهم تحت لوائه وانسياقهم فى دعوته الا التأثير بمعرفته ومقومات القيادة فى حياته. (١)

ولأسف انما كتابنا بحسن نية وراء هؤلاء الكتاب الغربيين منخدعين بهرق كلامهم عن الرسول المفضل بعبارات الاعجاب والاطراء ، فراحوا يكتهون عن الرسول صلى الله عليه وسلم مختارين صفات والألقاب عنونوا بها كتبهم من أمثال " محمد القائد " و " بطل الأبطال " و " عبقريّة محمد " . . الى غير ذلك من الصفات والألقاب ، ما يمدل دلالة قاطعة على تأثيرهم بأولئك الكتاب الغربيين فى مثاهجهم وأفكارهم . . كما راحوا يشرحون ويطلعون هذه الصفات ويكشفون عنها ويقدمون الرسول من خلالها ، وكأنه لم يعد هناك شئ يوصف به الرسول سوى هذه الصفات ، وكأن عظمة الرسول لا تعتقى الا من هذه الصفات ، ونسبوا أو تناسوا أن الأصل والأساس فى عظمتهم ومكانته التى احتل بهما مكانه فى قلب المؤمنين به . — راجع أولا وأخيرا الى صفته الأولى ، وهى النبوة والرسالة ، لأن كل ما اعصف به الرسول من عبقريّة وطولة وقيادة ، صفات نادرة ، وآداب انسانية سامية ، يرجع الى أنه نبي ورسول ، اذن فلا غرابة أن يأتي رسول الله على أكمل ما تصف به الانسانية ، وعلى أتم ما ينتظر من انسان ، لأن الله قد صنعه على عينه وأعده لرسالته .

ومن هنا نرى أنه من الخطأ أن يطلق على الرسول مثل هذه الصفات أو تلك الألقاب ، اذ يشعر اطلاق هذه الألقاب وتلك الصفات عليه صلى الله عليه وسلم بمماثلته — صلى الله عليه وسلم — لمن يطلق

(١) راجع : " فقه السيرة " ، لمحمد سعيد رمضان البوطي ص ١٤٨ .

عليهم أمثال هذه الألقاب من البشر العاديين ، وإن لا فرق بينهم وبينهم ، وإن عقيدته أو بطولته أو قيادته من نوع تلك المبتكرات أو البطولات أو القيادات ، وأنه يجرى عليه من مقاييس هذه المبتكرات أو تلك البطولات أو تلك القيادات ما يجرى على غيره !!

وهذا منحدر فكري خطير ، أراد به أعداء الإسلام أن يتردى فيه المسلمون .

يقول الدكتور : محمد أحمد الخمراوى . . . كتب الكاتيون في عظمة الرسول ما كتبوا ، فلم يهلكوا إلا بعض قدره ، فمن المحدثين من قارنه صلى الله عليه وسلم بأبطال التاريخ ، وخرج من المقارنة بأنه بطل الأبطال ، فأخطأ بالمقارنة والحكم سوء السبيل ، لأنه أوهم بهذه المقارنة وهذا الحكم أن الرسول والبطل من قهبل واحد ، وهو بالطبع ليس كذلك ، ولا يمكن أن يكون كذلك ، فشتان بين بطولة البطل ورسالة الرسول ، فرسالة الرسول صلى الله عليه وسلم ، خرجت الأبطال ، وريت عظماء الرجال ، بل لم يعرف التاريخ عظمة في أبطاله تضارع أو تقارب عظمة أصحاب الرسول رضوان الله عليهم أجمعين ، وأين في التاريخ ، إلا في تاريخ الإسلام من دانت له الدنيا بالفعل فأعرض عنها وعن زخرفها ، غير معتزل في جبل ، ولا مترهب في صومعة ، بل كان حاكما بين الناس بالعدل ، وسائما إليهم بالحق والحزم ، من غير أن يبرأهم من دنياهم إلا بمقدور القوت . أن بطولة أبطال التاريخ تنفصل إذا قيست ببطولة أصحاب الرسول عليه الصلاة والسلام ، فكيف يمكن أن يحشر الأبطال مع الرسول ، ومنهم حين أصحابه من الهمد ما بين أصحابه وبينه صلوات الله وسلامه عليه . ومن الناس من التمس في المبقرية وجه الشك على الرسول وتقديره ، ولو جعله عبقري المباقرة :

(هـ) الأوضح والأصح : وازنه ، والموازنة .

ما وفاء حقه ، بل ما زاد على أن يجمله فردا من نوع متجدد ،
وإن يكن نوعا نادرا في الناس ، فالذى يشنى بالمعقريّة كالذى يشنى
بالبطولة ، كل قد غفل عن أن المعارقة والأبطال يوجدون في كل زمان
ولا كذلك الأنبياء والرسل ، بل أعظم الرسل وخاتمهم سيدنا محمد
عليه الصلوة والسلام (١)

وأما بالنسبة للنقطة الثانية ، وهى أن المقاد تناول هذه المعقريّة
من خلال نظرية " المعقريّة الفردية " التى سبق أن أشرنا إليها - فنحب
أن نقول : أن هذه النظرية إن جاز تطبيقها على المعارقة والأبطال
الماديين ، فإنه لا يصح تطبيقها على الأنبياء والرسل ، ورسول الله
محمد منهم ، لأن ما اعترف به محمد صلى الله عليه وسلم من ملكات
وقدرات راجع الى الصفة الأولى ، وهى النبوة والرسالة ، كما سبق أن أشرنا
فمثل هذه النظريات لا يصح أن تطبق عليه .

ومن الغريب أن نرى بعضا من الكتاب يجرون فى مثل هذا الاتجاه
ويحاولون أن يصوروا النبى من خلال المقاييس التى يطبقونها على البشر
الماديين ، وإذا كان المقاد قد تناول عقريته صلى الله عليه وسلم من
خلال النظرية المسماة بـ " المعقريّة الفردية " فإن هذا البعض راجع يبحث
عن بواعث عظمته وعقريته من خلال المؤثرات والموامل المحيطة به . . . راجع
يبحث عنها فى بيئته ، وفى زمانه ومكانه ، كما راجع هذا البعض يبحث
عن الموامل التى أثرت فى جوانب شخصيته ، وعن الأحوال السائدة
فى عصره فمن دينية وسياسية وحضارية واقتصادية . . بل ذهب بعضهم
الى أن الرسول قد تأثر بثقافات عصره ، وتعرف على معالم هذا العصر ،

(١) مجلة " قافلة الزيت " ص ٥٢ - المجلد الثانى والمستورن - المجلد الثانى عشر .

واستطاع أن يستوعب ثقافته وأن يلم بمشاكله وأن يعرف متطلباته وما يحتاج إليه^(١) . . . أى أنه إذا كان العقاد يرد عقيدة الرسول الى ما يتمتع به من ملكات نفسية وقدرات فطرية ، فان هؤلاء يردونها الى تأثير محد بالبيئة والعوامل المحيطة به . أى أن الرسول عند العقاد رد فعل للحصر الذى ظهر فيه ، وعند هؤلاء الكتاب ثمرة لهذا الحصر .

وسواء أصبحت هذه النظريات أم لم تصبح ، فان أمثال هؤلاء النظريات ، لا يصح أن تقاس من خلالها شخصيات الرسل والأنبياء ، لأن الرسل والأنبياء — وان كانوا من البشر — قد ارتقوا الى مرتبة النبوة والرسالة ، واعملوا بالوحي ، وبالنبوة والوحي كانت لهم درجاتهم الخاصة ، وكان لهم تكوينهم النفسى الخاص .

(١) من هؤلاء الكتاب الأستاذ : عبد الرحمن الشرقاوى ، راجع كتابه :
" محمد رسول الحرية " .

٥٥٥ :: الباب الخامس ::

٥٥٥
" السيرة والأسلوب الفلسفى التاريخى "

من خلال

كتاب " فقه السيرة " للفزائلى

- الفصل الأول : بواعث الكتابة فى السيرة النبوية عند الفزالى .
- الفصل الثانى : طريقة الفزالى فى " فقه السيرة " وخصائصها .
- الفصل الثالث : أسلوب الفزالى فى " فقه السيرة " وسماته .
- الفصل الرابع : كتاب " فقه السيرة " فى ميزان النقد .

ٖٖ الفصل الأول ٖٖ

”بواعث الكتابة فى السيرة النبوية عند الفزالى”

لعمل أول شيء يلفت نظر القارئ ، هو عنوان الكتاب " فقه السيرة" ^(١) وإذا بحثنا عن كلمة " فقه " فى مادتها اللغوية نجدها —
 تمنى الفهم والعلم ، وفهم الشيء والعلم به ، يحنى الوقوف على
 حقائقه وأسراره ودقائقه ، وهذا هو المعنى الذى قصد اليه الكاتب
 حين تناول السيرة النبوية ..

ان الكاتب حين تناول السيرة النبوية فى كتابه هذا ، أراد أن
 يكشف عن حقائقها وأسرارها ، وأن يجلو للكهـار والبـصائر ما فيها
 من دروس وعبر ، وأن يستخرج ما تحتوى عليه من حكم بالغة وعظـمات
 نافعة .. حتى يقف الناس على ذلك كله ، ويستحضروا فى أذهانهم
 حياة الرسول الكريم المشرقة الضيئة ، الحافظة بكل ما هو مـثالـى
 نادر من جليل الصفات وجـمـيل السمات ، والـلمـيـة بكل مظاهر الاسلام
 من آداب وتشريعات وأخلاق — فـيـجـعـلـوها نصب أعينهم مثلاً وقدوة تـشـرـب
 أعناقهم للمتحدث عنها ، وقد شُفِّفَتْ قلوبهم بها جا ، جا يترجم
 الى عمل وسلوك ..

ولعل هذا المقصد الذى قصد به الكاتب من وراء كتابة السيرة
 النبوية ، والهدف الذى سعى اليه بكتابه هذا ، هو الذى حـدـدنا
 بالكاتب أن يتناول السيرة على هذا النحو الذى أشرنا اليه .. بـلـ
 ان هذا المقصد وذاك الهدف هو الذى يجب أن يكون نصب عـيـن
 كل كاتب مخلص ، يحاول أن يكتب السيرة النبوية ، ذلك لأن السيرة
 النبوية ليست سيرة لحياة رجل عظيم وكفى ، بل سيرة رجل اصطفاه
 الله ليكون رسولا ، وقد كلفه بنشر رسالة ، وأمره بتخليقها .

(١) ألف الأستاذ الشزالى هذا الكتاب سنة ١٩٥٢ ، حينما كان فى المدينة
 المنورة وظهرت الطبعة الاولى منه سنة ١٩٥٣ .

وحياة الرسل - قبل الرسالة ومهدا - لا بد أن تكون نمطاً
فريداً في كل شيء قولاً وعلاً ... لذلك كانت دراسة حياتهم لا تعنى
الوقوف على جوانب الخلقة فيهم ، أو الإلمام بعناصر الكمال لديهم ،
فقط غاية دنيا ، وما تكون غاية بعض المعجبين الذين يصفحون سير
عظماء الرجال ، ليتلوا من عناصر النهج فيها ، وليتابعوا بأعجاب مسالكها
فى الحياة ..

أما حياة الرسل والأنبياء ، فان دراستها تعنى شيئاً أسمى من
هذا وأرفع ، ... تعنى دراستها الوقوف على أسرارها ودروسها
وعظاتها وأن تتحول هذه الحياة - بما فيها من دروس وعظات وعبر
وآداب وتشريعات وأخلاق - لدى كل مسلم الى شيء إيجابى لا سلبى .
تتحول الى سلوك يلتزمه ومنهج فى حياته ينتهجه ، وقدوة فى عمله
يجملها نصب عينيه .. تلك هى الغايات العليا من دراسة السيرة
النبوية .

ووراء هذا المقصد وذاك الهدف باعث ودافع جعل الكاتب يتناول
السيرة على هذا النحو المشار اليه . هذا الباعث وذاك الدافع ، هو
جهل الناس بالسيرة النبوية ..

ويعنى الكاتب بجهل الناس بالسيرة عدم معرفتهم لأسرارها ، وعدم
وقوفهم على ما فيها من دلائل وعظات ، وما ترمز اليه من آداب الاسلام
وتشريعات واتخاذها مصدراً للقدوة والأُسوة ، وغاية معرفتهم بها قشور
خفيفة ومسطحات رقيقة لا تغنى شيئاً .

يقول الفزالى : " ان المسلمين يعرفون عن السيرة قشوراً خفيفة ،
لا تحرك القلوب ولا تستثير الهمم ، وهم يحظون النبى وصحابته عن

تقليد موروث وبمعرفة قليلة ، ويكتفون عن هذا التمثيل باجلال اللسان ،
أو بما قلت مثونته من عمل ، وبمعرفة السيرة على هذا النحو التافه
تساوى الجهل بها . .

.. انه من الظلم للحقيقة الكبرى أن تتحول الى غارقة ، ومن
الظلم لفترة^(١) نابضة بالحياة والقوة أن تمض في أركان الموتى .

ان حياة محمد ليست - بالنسبة للمسلم - مسألة شخص فارغ
أو دراسة ناقد محايد . . كلا . . كلا . . انها صدر الأسرة الحسنة
التي يقتضيها ، ومنهج الشريعة العظيمة التي يدين بها ، فأى حيف
في عرض هذه السيرة ، وأى خلط في سرد أحداثها : اساءة بالفئة
في حقيقة الايمان نفسه . .^(٢)

ومن الجهل بالسيرة النبوية ، جهل الناس بحقيقة محبة الرسول
صلى الله عليه وسلم ، فمحبة لا تتمثل في الصلاة عليه ، أو في زيارة
ضريحه ، أو الميئذ بجواره ، بقدر ما تتمثل في الاقتداء به واتباع ما
جاء به . ان محبة الناس للرسول على هذا النحو الذي أشرنا اليه ،
محبة سلبية ، أما محبة الرسول الايجابية ، فهي التي تتمثل في اتباعه
والاقتداء به في حياته التي تنبع من تعاليم الاسلام وتشرعاته . .

يقول الغزالي : " ومحمد ليس قصة تتلى في يوم ميلاده ، كما
يفعل الناس الآن ، ولا التتويه به يكون في الصلوات المخترعة التي قد
تضم الى الفاظ الأذان ، ولا اكان حبه يكون بتأليف مدائح له أو صياغة

(١) أشرنا مرارا الى أن استعمال " فترة " في هذا الموطن خطأ شائع
وقع فيه الكبار والصغار .

(٢) فقه السيرة ص ٤٠ .

نموت مستغنية يطوها الماشقون ويتأوهون أو لايتأوهون . فرباط السلم برسوله الكريم أقوى وأعق من هذه الروابط الطففة المكذبة على الدين ، وما جنب المسلمون الى هذه التعابير - فى الإهانة عن تعلقهم بهم - الا يوم أن تركوا اللباب الملى وأعيامهم حمله ، فاكشفوا بالمظاهر والأشكال . فهدلا من الاستماع الى قصة المولد يطوها صوت رخيم (يجب أن) ينهضى المرء الى تقويم نفسه واصلاح شأنه حتى يكون قريبا من سنن محمد صلى الله عليه وسلم فى معاشه ومماده وحرمة وسلمه وتلمه وعلمه ، وعاداته وعجاداته .

ان المسلم الذى لا يعيش الرسول فى ضميره ، ولا تهمة بصيرته فى علمه وتفكيره ، لا يفنى عنه أبدا أن يحرك لسانه بألف صلاة فى اليوم والليلة . . . فليفقه المسلمون سيرة رسولهم ، وهيهات أن يتم ذلك الا بالفقه فى الرسالة نفسها ، والادراك الحق لحياة صاحبها والالتزام الدقيق لما جاء به .^(١)



وهذا الفهم الصحيح للسيرة النبوية وحسانها صادرا من مصادر التأسى والاعتداء فى الحياة : عقيدة وسلوكا وعلا ، وهذه النظرية للرسول صلى الله عليه وسلم . . لا تتأتى الا بدراسة السيرة النبوية دراسة واعية ، مميزة ما فيها من حكم وعبر وعظات . . ومن هنا سلك الكاتب هذه الطريقة التى تعنى بدراسة السيرة النبوية دراسة تكشف عن جوهرها وحقيقتها وتظهر ما تنطوى عليه من دروس وعبر وحكم ، حرصا

منه على أن يقدم للقارئ السيرة النبوية على الوجه الذى ينفى أن تظهر عليه ، اذ ما قيمة قراءة السيرة ودراستها والنظر فيها ، اذا لم تكن قراءتها ودراستها شيئا دافعا لاعتناق الحق والوفاء له . . . والى هذه الاهداف قصد الكاتب من دراسته للسيرة ، ولا غرر فالكاتب رجل داعية ، سلك طريق الدعوة منذ شبابه يدعو الى الله على بصيرة ، فهو حريص على أن يعصر الناس بمواضع أقدامهم ، حتى يعيشوا فى حياتهم على هدى وعلى صراط مستقيم . .

يقول الفزالى : " . . . وقصدت من وراء ذلك أن تكون السيرة شيئا ينمى الايمان ، ويذكر الخلق ، ويلهب الكفاح ، ويغرى باعتناق الحق والوفاء له ، ويضم شجرة طائفة من الائمة الرائعة لهذا كله . " (١)

ومن أجل ذلك نهج الكاتب منهجا تربويا يتفق مع الأهداف التى قصدها وهو المنهج الذى يظهر فى محاولته الربط بين ماضى الأمة الاسلامية المشرق المضى وبين حاضرها المظلم الممتع ، عن طريق الموازنة بين ذلك الماضى وهذا الحاضر ، وذلك حين يوازن بين أحداث السيرة النبوية ووقائعها وبين ما يشابهها من أحداث عصرنا الحاضر .

ولا شك أن لهذا المنهج اثره فى النفس وخطره فى دفع الناس الى الاستفادة بأحداث السيرة النبوية الحافلة بالدروس والمعبر والمعات . .

يقول الفزالى : " . . ثم اننى أكتب وأمام عيني منظر قائمة من تأخر المسلمين الماطفى والفكرى ، فلا عجب اذا قصصت وقائع السيرة بأسلوب يوسى من قرب أو من بعد الى حاضرتنا المؤسف ، كلما أوردت قصة جعلتها تحصل فى طياتها شحنة من صدق العاطفة وسلامة الفكر ، وجلال العمل " (٢)

ٖٖ الفصل الثاني ٖٖ

" طريقة الخزالي في فقه السيرة " وخصائصها "

- ١ - الوحدة الموضوعية •
- ٢ - الربط بين الأحداث والوقائع •
- ٣ - تحليل الأحداث وفلسفتها •
- ٤ - تحقيق بعض الأحداث وتمحيصها •
- ٥ - إبراز الحكم واستنباط المبرر •
- ٦ - الربط بين أحداث السيرة وما يشابهها من أحداث عصرية •
- ٧ - التعليل على الأحداث والوقائع •
- ٨ - إيراد النصوص والآثار •

والغزالي في كتابه " فقه السيرة " يسلك طريقة مزدوجة يجمع فيها بين طريقتي كتاب السيرة القدامى وكتابتها المحدثين ، ولكنه لا يأخذ كل ما في الطريقة القديمة ، ولا كل ما في الطريقة الحديثة ، وإنما يأخذ من كل طريقة أحسن ما فيها ، فأخذ من الطريقة الحديثة التحليل والتعليل والموازنة و ربط الحوادث المختلطة في سياق متناسك ، وأخذ من الطريقة القديمة إيراد النصوص والآثار ..

يقول الغزالي : " .. وقد استفدت من السير التي كتبها القدامى والمحدثون ، استفادة حسنة ، أن المؤرخين المحدثين يميلون إلى التحليل والموازنة و ربط الحوادث المختلطة في سياق متناسك ، وذلك أحسن ما في طريقتهم ، والمؤرخين القدامى يعتمدون على حشد الآثار وتحصيص الأسانيد وتسجيل ما دق وجل من الوقائع والظواهر ، وفي هذه المخطوطات الكيرة نفائس ذات (١) خطر ، لو أحسن الاستشهاد بها ، وإيرادها فسي مواضعها .. " (٢)

ولكن كيف تم الجمع بين الطريقتين ؟

يقول الغزالي : " .. ولعلنا هنا مزجت بين الطريقتين على نحو جديد ، يجمع بين ما في كليهما من خير ، فجعلت من تفاصيل السيرة موضوعاً متناسكاً ، يشد أجزاءه ريب واحد ، ثم وزعت النصوص والمرويات الأخرى ، بحيث تتسق مع وحدة الموضوع ، وتعين على اتقان صورته ، وإكمال حقيقته " (٣)

(١) كذا ، والصواب : ذوات خطر .. لأنها وصف للجمع .

(٢) فقه السيرة ص ٤٤ .

(٣) فقه السيرة ص ٤٤ .

ومن خلال ما تقدم آنفا عن طريقة الغزالي يستطيع القارئ أن يلمح سمات هذه الطريقة وخصائصها التي يمكن أن تتجلى فيما يأتي :

١ - الوحدة الموضوعية :

وأول شيء يلحظه القارئ المتصفح لفصول الكتاب ، تلك الوحدة الموضوعية التي تربط بين أحداث السيرة ووقائعها ، بمعنى أنه قد جمع الأحداث والوقائع التي يمكن أن يؤلف منها موضوعا ذا وحدة فكرية ، أو موضوعية ، في فصل واحد ، بعنوان واحد ، تندرج تحته تلك الأحداث والوقائع ، معنونة بأسمائها .

أو بعبارة أخرى نقول : أنه قد جمع الأحداث والوقائع التي يمكن أن تكون مرحلة من مراحل أحداث السيرة النبهية التي لها من الخصائص والسمات ما يجعلها وحدة مستقلة - في فصل واحد أطلق عليه اسما ينطبق على ما وقع في هذا الفصل من أحداث . مع ملاحظة أنه راعى في هذا الجمع بين الأحداث والوقائع الواقعة في الفصل الواحد التسلسل الزمني لوقوعها ، فلم يذكر حادثة قبل أخرى وقعت قبلها ، كما أنه راعى هذا التسلسل الزمني - أيضا - في إبراده للمراحل المختلفة التي تغلها فصول الكتاب ، فلم يذكر مرحلة قبل أخرى ساهت عليها .

ويستطيع القارئ أن يلمح تلك السمة - أعني الوحدة الموضوعية - التي تربط بين أحداث السيرة النبهية ، كما يستطيع أن يلمح ما اشتملت عليه تلك الوحدة من مراعاة التسلسل الزمني لوقوع الأحداث سواء كان بين المراحل المختلفة ، أو بين أحداث الفصل الواحد .

... يستطيع القارئ أن يلمح هذا وذاك من خلال استعراضه لفصول الكتاب . ومن خلال استعراضه لأحداث الفصل الواحد .

فصول الكتاب تتضح منها تلك الوحدة الموضوعية - باستثناء
الفصل الأول الذى كان فصلا تمهيديا لا يمثل فى شئ أحداث السيرة
النبيهة ووقائعها - فهى ترد على النحو التالى : من الميلاد إلى
البعث - جهاد الدعوة - الهجرة الحامة : مقدماتها ونتائجها - أمم
البناء للمجتمع الجديد - الكفاح الدامى - طور جديد - أممات
المؤمنين - الرفيق الأعلى ..

وواضح من هذا الترتيب للفصول على هذا النحو مراعاة لوقوعها
الزمنى ، غير أنه مما يؤخذ عليه فى هذا الترتيب مادام قد التزم بمدر
وضعه فصل " أممات المؤمنين " فى مكانه هذا ، فمادام قد أراد أن يعمد
لذلك استقلاله ، كان من الأليق أن يضعه آخر الكتاب حتى لا يحصر
الفصول والأحداث من تسلسلها الزمنى ..

كما تتضح الوحدة الموضوعية - إذا أمعنا النظر - فى أحداث
الفصل الواحد ، وتتضح معها - أيضا - سمة التسلسل الزمنى الذى
أشرنا إليه ، ولنختار فصلا من الكتاب ، ويمكن فصل " الكفاح الدامى " .
لنتبين مدى تلك الوحدة التى تربط بين أحداثه ووقائعها ، مرتبة حسب
وقوعها .. فأحداث الفصل تجرى على النحو التالى : " سرايا " - " سرية
عبدالله بن جحش " - " معركة بدر " - " محاسبة وكتاب " - " نفسى
أعقاب بدر " - " بدء الصراع بين اليهود والمسلمين " - " مناقشات
مع قريش " - " معركة أحد " - " عبر المحنة " - " شهداء أحد " -
" آثار أحد " - " أجلاء بنى النضير " - " بدر الآخرة " - " دومة
الجنندل " - " حديث الافك " - " غزوة الأحزاب " - " مع قريظة " .

٢ - الرباط بين الأحداث والوقائع :

والغزالي في تناوله لأحداث السيرة ووقائعها وعرضه وتحليله لها ، وفي انتقاله من مرحلة الى مرحلة ، ومن حالة الى أخرى - ؛ ذو منهج منطقي ، بمعنى أنه لا ينتقل من احدى مراحل السيرة أو من أحد أحداثها الى مرحلة أخرى ، أو حادث آخر ، الا بعد أن يكون قد مهد لها وله ، وهياً القارئ لها ، وتهذب مراحل السيرة وأحداثها المختلفة ، وكأنها عقد نظم في سلك واحد .

وهذا يعنى أنه لم يتناول أحداث السيرة تناول بعض المؤرخين الذين يتناولونها دون رباط يجمعها أو تماسك يؤلف بينها ، بل انهم قد جعل من أحداث السيرة ووقائعها موضوعاً متماسكاً يشد أجزاءه وروح واحد فهو ينتقل بالقارئ من مرحلة الى مرحلة ، أو من حدث الى آخره في تسلسل منطقي سليم ونسق أدبي جميل وترايبط محكم متين ، حتى لا يكاد القارئ يجد انفصلاً بينهما أو فراغاً بين أجزاءهما .

وهنا نسوق مثالا على ذلك ، وليكن فصل : " الهجرة : مقدماتها ونتائجها " . فحينما يتناول الكاتب هذا الفصل من حيث هو مرحلة من مراحل السيرة النبوية - نراه يمهّد للحديث عنه بفقرات في نهاية الفصل الذى قبله - " جهاد الدعوة " - وتهذب هذه الفقرات وكأنها مقدمة له ، يشعر القارئ بعد الانتهاء منها بأنه مسوق لقراءة ما بعدها ، وكان ما بعدها نتيجة حتمية لها .

وفي هذه الفقرات التى أوردها الكاتب في نهاية فصل " جهاد الدعوة " ، يوضح الكاتب أن الرسول لم يلق خلال ثلاثة عشر عاماً ، أذانا صاغية لدعوته ، ولا قلباً مفتوحاً لرسالة ربه ، سواء من قريش

أهل مكة أو من القبائل الأخرى التى عرض عليها الاسلام ، مما استحال
 معه نجاح أمر الدعوة ، ونشرها ، وما جعل الرسول يبحث لهذه الدعوة
 عن أرض جديدة خصبة تنمو فيها ، وتستوى على سوقها وعن قلوب جديدة
 تنفتح لهذا الدين وتستجيب له ، وفى بداية فصل " الهجرة " يحدثنا
 الكاتب عن محاولة الرسول تلك ، وكيف بدأ الرسول الكريم يعرض نفسه
 على وفود يشرب القادمة الى مكة فى مواسم الحج ، ويعرض عليها الاسلام ..
 وكان فى اقبال أهل " يثرب " على هذا الدين واعلانهم عن نصرته
 ومؤازرته بداية لمرحلة فى حياة دعوة الاسلام ، ومقدمة طهيمة لهجرة
 الرسول الى يثرب موطن أولئك الأنصار ..

يقول الفزالى فى نهاية فصل : " جهاد الدعوة " : .. مضى
 رسول الله صلى الله عليه وسلم على نهجه القديم ، يندرج بالوحى كل
 من يلقى ويخوض بدعوتهم المجامع ، ويغشى المواسم ، ويهتج الحجاج نفسى
 منازلهم ويغير قدميه الى أسواق " عكاظ " و " مجنة " و " ذى المجاز " ،
 داعيا الناس الى نهذ الأوثان والاستماع الى هدى القرآن ، وكان يسأل
 عن منازل القبائل قبيلة قبيلة ، ويعرض عليهم نفسه لهؤمنا به ، ويتابعونه ،
 ويضمونه ، وكان معه أبو لهب يحشى وراءه ويقول : لا تطيعوه فإنه صابئ
 كذاب . فيكون جواب القبائل : أسرتك وعشيرتك أطم بك . ثم يردونه
 أتعج الرد .

ومن القبائل التى أتاها الرسول عليه الصلاة والسلام ودعاها
 الى الله فأبى الاستجابة له : فَرَارَةَ ، وَغَسَّانَ ، وَنَمِرَةَ ، وَحَنَيفَةَ ، وَسَلِيمَةَ ،
 وَجَبْنَ ، وَنَوَ النَّضَرَ ، وَكَيْدَةَ ، وَكَلْبَ ، وَغَدَرَةَ ، وَالْحَضَارَةَ ، وَنَوَ عَامَرَ بْنِ
 صَحَصَةَ ، وَمُخَارَ بْنَ حَفْصَةَ .. الخ .. ما وجد فى هؤلاء قلوبا مفتوحا
 ولا صدرا مشروحا ، بل كان الراحطون والمقيمون يتواصون بالبعد عنه ،

ويشعرون اليه بالأصابع وكان الرجل يجي من الآفاق المهيمة فيزوده قومه بهذه الوصاة : احذر غلام قريش .. لا يفتنك !! ومع ذلك فإن الرسول عليه الصلاة والسلام - في هذا الجو القاهض - لم ينامر اليأس قلبه ، واستمر - مشابرا - في جهاد الدعوة حتى تأذن الحق أخيرا بالفرج (١) .

وفي بداية فصل : " الهجرة : مقدماتها ونتائجها " يقول : " .. حرم مشركو مكة الخير كله مُدَّجِدُوا الرسالة ، وقعدوا بكل صراط يوعدون ويصدون عن سبيل الله من آمن به ويخونونها عوجا ، ولئن نجحت دعايتهم الكاذبة في منع قبائل كثيرة من دخول الاسلام ، فكان الحق لا بد أن يخلو ، وأن يثوب اليه الضاللون والمخدوعون ، على شرط أن يظل أهلهم أوفياء له حراسا عليه ، صابرين محتسبين . وقد قبض الله للاسلام من استنقذه من اليأس التي صادته ، فأنس بعد وحشة ، واستوطن بعد غربة ، وشق طريقه في الحياة بعد أن زالت الجلايم والصلدة اللقطة في مجراه . وبدأ هذا التحول على أيدي الوفود القادمة من يثرب الى مكة في موسم الحج .. " (٢)

ومن نهاية فصل " جهاد الدعوة " بداية فصل " الهجرة " اللتين أوردناهما سابقا - يستطيع القارئ أن يلمح مدى الترابط بينهما بحيث لا يشعر وهو يقرأ بفواصل أو فجوة .

(١) دخول الفاء هنا خطأ ، والصواب . وجدنا الرسول .. الخ .

(٢) فقه السيرة ص ١٤٦ ، ١٤٧ .

(٣) هذا أسلوب من الخطأ يمكن لأن الجواب هنا للقسم لا للشرط .

نحذف الفاء واجب ، والصواب بأن الحق صائب أن يفعله الكبار الكتاب .

(٤) فقه السيرة ص ١٥٠ .

ويمتطيع كل قارئ أن يلمح هذا الترابط بين أغلب فصول الكتاب.

وكما حرص الكاتب على أن يربط بين مراحل السيرة النبوية ،
أو بين فصول الكتاب ، في سياق متماثل ، ونسق متعادل ٠٠ - حرص
على أن يربط بين أحداث المرحلة الواحدة ، أو الفصل الواحد ، في
سياق متماثل ، بحيث ينتقل القارئ من حدث إلى آخر ، أو من واقعة
إلى أخرى وكأنه ينتقل من مقدمة إلى نتيجة ٠٠

ونستطيع أن ندلل على هذا الربط وذلك التماسك بين أحداث
المرحلة الواحدة - بفصل الهجرة الذي أشرنا إليه آنفا ٠٠

إن القارئ لو أنعم النظر في هذا الفصل لوجد أحداثاً
ووقائع قد انتظمت في سلك واحد وسياق مترابط ، كل حدث يقود
إلى ما بعده ٠٠

وقد قلنا آنفاً إن بداية فصل " الهجرة " تتحدث عن التحول
الكبير الذي طرأ على حياة دعوة الاسلام حين استجابت وفود يثرب إلى
هذه الدعوة دون عناء ٠ ولكن هذه البداية تحمل في طياتها سؤالا ،
هو: ما السر في استجابة وفود يثرب السريعة لدعوة الاسلام وقبولهم لها
على عكس ما قبلت به هذه الدعوة من أهل مكة ؟ على الرغم من أن الرسول
بحث فيهم ، وهم يحملون صدقه وأمانته ، وعلى وجه الخصوص قريب
قبيلته وعشيرته التي كان طبعيا أن يتوقع منها الاستجابة والمساندة
والتأييد ؟

إن هذا السؤال في حاجة إلى جواب ، وطبعي أن تأتي الإجابة
بعد هذه البداية مباشرة ، وتأتي الإجابة لتبين السر في ذلك ، وتعرف
أنه راجع إلى طبيعة كل من مكة والمدينة وتكوين كل منهما اقتصاديا

واجتماعيا، وهو وضع كان له أعمق الأثر في طباع السكان فيها .. ومن هنا كان طبيعيا أن تلى تلك الهداية مباشرة فقرة بعنوان : " فروق بين البلدين " (١). وفيها يجيب عن هذا السؤال .

وأثناء تحليل الكاتب للفروق بين البلدين - تلك التي كانت سببا في نكوص أهل مكة عن الحق ، وإقبال أهل يثرب عليه - يتحدث عن الوضع الاجتماعي في يثرب المتمسم بالتفرق والاختلاف والعداوة والبغضاء بين قبائل الأوس والخزرج والذي كان سببا في استجابة أهل يثرب السريعة للإسلام .. لعل الله أن يجمع كلمتهم بهذا الدين وذاك الرسول .

وأثناء حديث المؤلف في هذا المجال ، يرجع الكاتب هذا الوضع إلى أولئك اليهود الذين كانوا يسكنون الأوس والخزرج في يثرب ، حين وضعوا بذرة الشقاق والتفرق بين القبيلتين ..

وطبعي أن تلى فقرة " فروق بين البلدين " التي تضمنت نفس نهايتها إشارة إلى أولئك اليهود فقرة مباشرة لها تتحدث عن صنع اليهود ومكائدهم بين الأوس والخزرج ، وأن تكون هذه الفقرة بعنوان : " صنع اليهود " (٢).

وأثناء حديث الكاتب عن صنع اليهود ومكائدهم وشبه الشقاق بين أهل يثرب ، وما أدى إليه ذلك من فتن متلاحقة ، جعلت أهل المدينة أسرع ما يكونون إلى الإسلام حين عرض عليهم .. - أثناء ذلك حدثنا الكاتب عن أولئك النفر الذين التقى بهم الرسول أول مرة ، وعرض عليهم الإسلام ، وأنهم كانوا طلائع الدعاية الموقفة للإسلام نفس

(١) فتح السيرة ص ١٥١ .

(٢) فتح السيرة ص ١٥٣ .

يشرب فلم تهق دار الا دخلها الاسلام ولم يستدر الحام ولم يقبل موسم الحج حتى خرج من يشرب اثنا عشر رجلا من الذين أسلموا - فيهمم الستة الذين كلمهم الرسول في الموسم السابق - وعزموا على الاجتماع برسول الله ليوثقوا معه اسلامهم ، فكان اجتماعهم به عند العقبة ، وكان طبعها أن تلى فقرة " صنع اليهود " فقرة بعنوان : " بيعة العقبة الأولى " لتحدثنا عن هذا اللقاء الخطير . . (١)

وحين تناول الكاتب " بيعة العقبة الأولى " ، حدثنا أن الرسول أرسل مع وفد يشرب اثني عشر مصمبا يفتهم في الدين ، واستطاع مصمب بقوة إيمانه وأخلصه في دعوته وحلوة منطقه أن يفرض طلب أهل يشرب ، فآذا بالانفذة ترق له وتتفتح للدين الجديد ، وحدثنا أن مصمبا عاد الى الرسول بمكة قهول الموسم يخبره بما لقي الاسلام من قبول حسن في يشرب ويشره أن جموعا غفيرة دخلت فيه عن اقتناع . . وسوف يرى من وفودهم بهذا الموسم ما تقر به العين . . ويلتقى الرسول بمصمبين رجلا من أهل يشرب عند العقبة ، وطبعها أن تلى فقرة " بيعة العقبة الأولى " فقرة بعنوان : " بيعة العقبة الكبرى " لتحدثنا عن لقاء هؤلاء المصمبين بالرسول الكريم . (٢)

وكانت الطلائع المسلمة من أهل يشرب الذين التقى بهم الرسول في مواسم الحج ، في أول لقاء ، وفي بيعتي العقبة الأولى والعقبة الكبرى - كانت هذه الطلائع المسلمة اللهنات الأولى في صنع الاسلام الجديد الذي بنى بالمدينة .

(١) فقه السيرة ص ١٥٤ .

(٢) فقه السيرة ص ١٥٦ .

اذن أصبح للإسلام وطن جديد فى يثرب .. وإذا كان الاسلام قد أصبح له وطن ، فعلى كل مسلم قادر أن يسهم فى بناء هذا الوطن ، والاسهام فى بناء هذا الوطن - من قبل مسلمى أهل مكة - يكون بالهجرة اليه. وتنادى المسلمون : هلموا الى يثرب .. وأخذ المسلمون المهاجرون يتركون مكة زرافات ووحدانا متوجهين الى الوطن الاسلامى الجديد ففى يثرب .. ومن هنا كان طبعيا أن تلى فقرة " بيعة العقبة الكبرى " فقرة بعنوان : " طلائع الهجرة " (١)

وفى هذه الفقرة " طلائع الهجرة " يحدثنا الكاتب عن خسوف قريش وقلعها من جراء هجرة المسلمين الى يثرب وشعورها أن الاسلام قد أضحت له دار يأوى اليها ، وحسن يحتضن به ، وأن محمدا لا بد مدرك أصحابه اليوم أو غدا ، فلتعجل به قبل أن يستدير اليها ، وأخذت تفكر فى الخلاص منه .. حين اجتمعت تتشاور فى أمره فى دار الندوة ، وطبعى أن تلى فقرة " طلائع الهجرة " فقرة بعنوان : " فى دار الندوة " (٢)

وهكذا نجد الكاتب لا يكاد ينتهى من فقرة حتى يكون قد مهد فى نهايتها للفقرة التى تليها .. بحيث تهدو فقرات الفصل الواحد - التى تمثل موضوعات متنوعة فى حلقة واحدة - مشدودا بعضها الى بعض ، فى أسلوب مترابط .. وقل مثل ذلك فى غالب فصول الكتاب ..

٣ - تحليل الأحداث وفلسفتها :

وتحليل الأحداث يعنى الوقوف على أسبابها وظلها ومحاولة معرفة حقيقتها وكشفها للقارئ حتى يقف عليها .

(١) فقه السيرة ص ١٦٣ .
(٢) المصدر السابق ص ١٦٧ .

ولقد عنى الفزالى بتلك الناحية ، فحاول فى كثير من الدواضع تحليل بعض الأحداث وفلسفتها مبينا أسبابها وظلها ونختار هنا للقارئ بعض أمثلة من الكتاب ، تدليلا على هذه الخاصية وتلك السمة ..

أ — فعلا حينما يتحدث الكاتب عن مستهل نشأة الرسول ، وكيف أنه أوضع فى قبيلة بنى سعد ، حيث كانت عادة أشراف العرب أن يرسلوا أولادهم مع المرضعات ، كي يعيش الأطفال سنوات حياتهم الأولى فى البادية ...

... حينما يتحدث الكاتب عن هذا نراه لا يكتفى بسرد الحادثة كما يفعل كثير من كتاب السيرة ، بل نراه يملئ تلك العادة وفلسفتها ، ويقف بالقارئ على بواعثها وأسبابها .. وهى أن حياة البادية أصح لتنمية الأجسام ورضا الحقوق ، وتهية المشاعر والملكات ..

يقول الفزالى — معللا ذلك — : « .. وتشقة الأولاد فى البادية ليمرحوا فى كف الطبيعة ويستمتروا بجوها الطلق وشعاعها المرسى ، أدنى الى تركية الفطرة وانماء الأعضاء والمشاعر واطلاق الأفكار والحوافض (١) » .

ثم يستطرد الفزالى لينفذ الى موازنة بين تشقة الأطفال فى البادية وما تتمتع الحياة فيها من حرية وانطلاق وتركية للفطرة وانماء الأعضاء والمشاعر ، .. وتشقتهم فى المدن وما تجره الحياة فيها على الأطفال من تضيق وانغلاق وتقييد للأفكار وجهن للمشاعر والملكات ، معللا بذلك ما نراه من ضيق الصدور واضطراب الأعصاب لأولئك الذين يعيشون بعيدا عن الطبيعة البكر التى لم يفسدها تكلف المدنية والاضغراق فى التصنع ..

يقول الفزالي : " .. انها لتعاسة أن يحبس أولادنا في شقص ضيقة من بيوت متلاصقة كأنها علب أغلقت على من فيها وحرمتهم لئذ التفتس المميق والهواء المنعش ، ولا شك أن اضطراب الأصحاب البذى تارن الحضارة الحديثة يعود — فيما يعود اليه — الى العهد عمن الطبيعة والاغراق فى التصنع ، ونحن نقدر لأهل مكة اتجاههم الى البادية لتكون عرصاتها الفساح مدارج طفولتهم ، وكثير من علماء التربية يود لو تكون الطبيعة هى المشهد الأول للطفل حتى تتسق مداركه مع حقائق الكون الذى وجد فيه ، ويبدو أن هذا حلم عسر التحقيق .. " (١)

١١١

ب — وحينما يتحدث الكاتب عن بدء الصراع بين اليهود والمسلمين وكيف أن اليهود لم يكونوا عند عهدهم مع الرسول ، فقد نقضوا هذا العهد بانتهاك يهود بنى قينقاع كرامة امرأة عربية ، وكان هذا أول نقض لهم ، تالاه ثان وثالث ... حينما يتناول الكاتب جوانب موقف اليهود من الاسلام والمسلمين ، وأنه موقف يتسم بالحق والكراهية للاسلام والمسلمين — نرى الكاتب لا يعرض هذا الموقف عرضا تاريخيا دون أن يكشف حقيقة هذا الموقف وسر هذا الصراع ، بل نراه يحلل هذا الموقف من جانب اليهود نحو الاسلام والمسلمين ، ويفلسف سر هذا الصراع الدائر بين اليهود والاسلام ، ويضع أيدينا على أسبابه وهواخه الحقيقية ، ويرينا أن السر فيه لا يعتمد على نزعة دينية بقدر ما يعتمد على مصالح مادية وأغراض دنيوية .

يقول الفزالي : " .. ويحسن أن نتأمل في سيرة هؤلاء اليهود
وسر نفقتهم الشديدة على الاسلام ونبيه ، وتحيزهم المعيب الى الوثنية
في نضال الاسلام معها ..

أصحى أن نزاع اليهودية والاسلام كان سياسيا لا دينيا ؟
وأن الانفراد بالسلطان في الجزيرة العربية هو مبعث هذا الخصام الحاد ؟

ان التفلفل في فهم المواطن والمشاعر الانسانية يفسر كثيرا
من المواقف الغامضة . لقد رأينا المسلمين في مكة يتحسسون للنصرانية
في صراعها مع المجوسية ، ويحزنون لانكسار الروم أمام الفرس مع أن الاسلام
لم يكن قد اتصل بعد بالنصارى اتصالا يبرر هذا الحساس ، لكنه الشمور
الطبيعى^(١) الذى ينتظر من الرجل المخلص لدينه ، فالمسلمون أصحاب
كتاب يدعو الى التوحيد ، والنصارى - وان اضطرب فهمهم لمعنى التوحيد
وشابوا الحق بالخرافة - فهم^(٢) على كل حال أهل كتاب ، ويعتبر^(٣) برون
أعلى مرتبة من عبدة النار ، فالرغبة في انتصارهم على الوثنية الصريحة
الشرك ضرب من الوثنية للاسلام نفسه . ومن الاحترام للحقيقة التى معك
أن تقترب مما يقرب منها وأن تهتمد عن كل ما يبعد عنها ، وقد كان
المشركون من أهل مكة منطقيين مع أنفسهم حين رجعوا بانتصار الفرس
وعدوه ومزا لغلبة الوثنية في كافة صورها على أديان السماء جللة ..

-
- (١) كلمة " يبرر " : لا توجد في اللغة بالمعنى المراد ، فهي خطأ
مشهور ، والصواب : يسوغ .
(٢) كلمة " الطبيعى " خطأ نحوى واضح .. ولكن الكتاب يقوم فيه ،
والصواب : الطبيعى .
(٣) التعبير خطأ والأسلوب ركيك ، والفاء لا تدخل على الخبر الا اذا أشبه
الشرط عند سيوفه فقط ، فالصواب حذف كلمة " فهم " .
(٤) صواب الفصل هنا : يعدون ..

الفرض للتخل منها • وقد كان اليهود يبنون عظمتهم المادية والسياسية على تفرق العرب قبائل متناحرة • فلما دخل العرب في الاسلام وأخذت الحزازات القديمة تتلاشى • وتناهت الأيام تؤكد أن الاسلام سوف يصنح من العرب أمة واحدة • • استشعر اليهود القلق وساورتهم الهـمـوم • وشرعوا يفكرون في الكيد لهذا الدين والتمهص بآبائهم • • (١)

٤ — تحقيق بعض الأحداث وتمحيصها :

أحيانا يأخذ الفزالي في تحليله للأحداث وشرحه لها جانبا التحقيق • فنراه يأخذ الحادثة ويعرضها على مائدة البحث والتحقيق على أساس علمي بقصد كشفها وإظهارها على الوجه الصحيح •

ولغضب مثلا على ذلك • تحقيقه لقصة الخرائق • •

يأخذ الفزالي — أولا — في عرض القصة على النحو الذي صورته بعض الكتب التي دس فيها كثير من المفتريات على الرسول صلى الله عليه وسلم — ثم يدلل — ثانيا — على كذب القصة واختلاقها ثم يورد — ثالثا — القصة على النحو الصحيح الذي ورد في الكتب الصحيحة •

يقول الفزالي : " • • • ويزعم بعض المغفلين أنه وقمت هـدنة حقا بين الاسلام والوثنية • أساسها أن محمدا صلى الله عليه وسلم تقرب الى المشركين بمدح أصنامهم والاعتراف بمثلتها ! وأن هذه الهدنة الواقعة هي التي أعادت المسلمين من الحشة • • • وماذا قال محمد عليه الصلاة والسلام في مدح الأصنام ؟ •

يجيب هؤلاء المخفلون بأنه قال : تلك الفرائق المـ
 وإن شفاعتهن لترتجى ! وأين وضع هذه الكلمات ؟ وضعها في سورة النجم
 بقصيدة وسط الآيات التي جاء فيها ذكر هذه الأصنام ، فأصبحت هكذا
 (أَقْرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْمَازِيَ . وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَى) (*) تلك الفرائق العلاء .
 وإن شفاعتهن لترتجى . (أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنثَى . عَلَيْكَ إِذِنْ قَسَمْتُ
 لِمِزَى . إِنَّ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءُ سَمَّيْتُهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ
 سُلْطَانٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ . . .) (x)

ويكون معنى الكلام على هذا : خبروني عن أصنامكم : أهى كذا
 وكذا ؟ إن شفاعتهن مرجوة ، أنها أسماء لا حقائق لها ، خرافات ابتدعت
 واتهمت ما لكم جعلتموها آثانا ونسبتموها لله وأنتم تكرهون نسبة الانك
 لكم ؟ تلك قصة جائرة !!

فهل هذا كلام يصدر عن عاقل فضلا عن أن ينزل به وحى
 حكيم . . . (١)

ثم يدلل الغزالي على كذب هذه القصة واختلاقها وعلى سُخْفِها ،
 وعلى أن الكلام الذي سيقت فيه هذه القصة لا يمكن أن يصدر عن الرسول . .

يدلل على ذلك من القرآن نفسه ، فيقول : " . . . ان محمدا
 صلى الله عليه وسلم لو كذب على الله باختلاق كلام عليه لقطع عقه بنـ
 الكتاب الذي جاء به . قال الله جل شأنه . . . (وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضُ
 الْأَقَاوِيلِ . لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ . ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ . فَمَا مِنْكُمْ مِنْ
 أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ) " (٢) (٣)

(*) الآيات ١٩ - ٢٣ من سورة " النجم " .

(١) فقه السيرة ص ١١٦ .

(٢) الآيات ٤٤/٤٧ من سورة " الطه " .

(٣) فقه السيرة ص ١١٦ .

ثم يورد الفزالي القصة على النحو الصحيح ، فيقول : " .. والذي ورد في الصحيح أن الرسول عليه الصلاة والسلام قرأ سورة " النجم " فنى محفل يضم مسلمين ومشركين ، وخواتيم هذه السورة قوارح تطير لها القلب ، فلما أخذ صوت الرسول صلى الله عليه وسلم يهدر بها ، ويرعد بنذرها حتى وصل الى قول الله : (.. وَالْمَوْعِظَةُ أَوْهَى . فَفُتِّهَاهَا مَا غَشَى . فَيَأْتِي آلَ رَبِّكَ تَتَمَارَى . هَذَا نَذِيرٌ مِنَ النَّذْرِ الْأُولَى . أَرَفَسْتَ الْآيَةَ . لَمْ يَسْ لَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ كَاشِفٌ . أَفَبِعِنِ هَذَا الْحَدِيثِ تَعَجُّبُونَ . وَتَعْجَبُونَ وَلَا تَتَكُونُونَ . وَأَنْتُمْ سَائِدُونَ) (١) كانت روضة الحق قد صدعت الحنائد في نفوس المستكبرين والمستهزئين ، فما تمالكوا أن يخرخوا للـ ساجدين مع غيرهم من المسلمين ، فلما نكسوا على رؤوسهم وأحسوا أن جلال الايمان لوى زمامهم ندموا على ما كان منهم ، وأحسوا أن يعتذروا عنه بأنهم ما سجدوا مع محمد صلى الله عليه وسلم الا لأن محمدا عطس على أصنامهم بكلمة تقدير [كذا] وليس يستغرب هذا من قوم كانوا يؤلفون النكت للضحك من المسلمين ، ولا يستحى أحدهم .. وهو ابن خال النبي عليه الصلاة والسلام — أن يقول له ساخرا : كَلِمَتُ الْيَوْمِ مِنَ السَّمَاءِ يَا مُحَمَّدُ ؟ .. وليس أسجع من اعتذار المشركين عن سجودهم الا تصديق هذا الاعتذار ، وقد حاول المشركون أن ينشروا فريبتهم هذه ليمكروا على الرسول عليه الصلاة والسلام ، ولهو شوشوا (٢) على الوحي ، وليوهوا بأن محمدا صلى الله عليه وسلم فى بعض أحيائه مال الجهم .. وهيهات .. فان الحرب التى شنها محمد صلى الله عليه وسلم على الوثنية لم تزدها الليالى الا ضراما ، ولم تزده من عبيدها الا خصاما (٣)

(١) الآيات ٦١/٥٣ من سورة " النجم " .

(٢) قال فى القاموس : " التشويش والمشوش والتشوش كلها لحن ووهم الجوهرى والصواب : التيهيش والمهوش والتيهوش .. فانظر ...

(٣) فقه السيرة ص ١١٧ ، ١١٨ .

٥ - إبراز الحكم واستنباط المعبر :

وأحيانا يأخذ التحليل للأحداث والوقائع ، جانب إبراز الحكمة واستنباط المعبرة التي يمكن أن تستخلص من الحادثة أو الواقعة ، فنرى الفزالي - في أحيان كثيرة - يُفِيض في تحليل الحادثة أو الواقعة بقصد أن يستشف ما تحتها من عبرة وحكمة ، ودرس وعظة ، ولنضرب على ذلك بعض الأمثلة . . .

أ - في قصة الاسراء والمصراع ، نراه يتناول هذه الحادثة بالشن والتحليل والتعليل ، مظهرا ما فيها من المعاني والدلالات التي تدل على تكريم الله لرسوله محمد صلى الله عليه وسلم ، ثم نراه يعمد ذلك - يفيض في تبيان الحكمة من الاسراء والمصراع ، وإبراز ما ترمز اليه هاتان الحادثتان من دلائل ومعبر وحكم . . .

فمن الحكمة من الاسراء والمصراع ، يقول : " . . . والله عز وجل يتيح لرسوله فرص الاطلاع على المظاهر الكبرى لقدرته حتى يملأ قلوبهم ثقة فيه واستنادا اليه ، إذ يواجهون قوى الكفار المتألبة ، وبهاجمون سلطانهم القائم وقد علمت أن ثمرة الاسراء والمصراع اطلاع الله نبيه على هذه الآيات الكبرى " (١)

وأما عن الدلائل والمعبر والحكم التي ترمز اليها هاتان الحادثتان فيقول : " وفي قصة الاسراء والمصراع طبع أوامر القوي بين الأنبياء كافة ، وهذا المعنى من أصول الاسلام [يتشمل في قوله تعالى]

(١) ذكرنا مرارا خطأ " هاجم " صوابها : ويهجمون .

(٢) المصدر السابق : ص ١٣٩ ، ١٤٠ .

(آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا تَفَرُّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ ^(١)) والتحيات المتبادلة بين النبي وأخوته السابقين توثق هذه الآصرة ، ففي كل سماه أحل الله فيها أحد رسله ، كان النبي يستقبل فيها بهذه الكلمة : مرحباً بالأخ الصالح والنبي الصالح . والخلاف بين الأنبياء وهم صنعته الأمم الجائرة عن المصالح السوى . أو بالأحرى صنعته الكهان والمطجرون بالأديان أما محمد فقد أظهر أنه مرسل لتكملة النبوة الذي تمهده من سبقوه ومنع الزلازل من تصديقه ^(٢) .

ويقول أيضاً : " وفي ليلة الاسراء والمعراج تأكدت الصفة الأولى لهذا الدين ، وهى أنه دين الفطرة ، ففي الحديث (٠٠ ثم أتيت بآناه من خمر وآناه من لبن ، فأخذت اللبن ، فقال : (أى : جبريل) هى الفطرة التى أنت عليها وأمتك ٠٠) " ^(٣) .

ثم أخذ يفرض فى تحليل هذا المعنى فيقول : " ٠٠٠ ان سلامة الفطرة لب الاسلام ، ويستحيل أن تفتح أبواب السماء لرجل فاسد السيرة عليل القلب ، ان الفطرة الرديئة كالعين الحمة لا تسهل الا قدراً وسواداً وربما أخفى هذا السواد الكرم وراء ألوان زاهية ومظاهر مزوقة بيوت أن ما ينطلى على الناس لا يخدع به رب الناس ٠٠ " ^(٤) .

ويقول أيضاً : " وفى المعراج شرعت الصلوات الخمس ، شرعت فى السماء لتكون معراجاً يرقى بالناس كلما تدلت بهم شهوات النفوس

(١) بعض الآيات ٢٨٥ من سورة " البقرة "

(٢) فقه السيرة ص : ١٤٠ ، ١٤١

(٣) المصدر السابق ص : ١٤٢ .

(٤) المصدر السابق ص ١٤٢ .

وأعراض الدنيا ، والصلوات التي شرع الله : غير الصلوات التي يؤديها
الآن كثير من الناس . وعلاوة صدق الصلاة أن تعصم صاحبها من الدنايا ،
وأن تخلجه من البقاء عليها أن ألم بشيء منها ، فإذا كانت الصلاة
مع تكرارها لا ترفع صاحبها الى هذه الدرجة فهي صلاة كاذبة . (١)

ب - وحينما يتكلم الفزالي عن نشأة الرسول وأسرته ، وكيف
ولد من أسرة زاكية المحدث نبيلة النسب نراه لا يترك الحديث عن الرسول
وأسرته حتى يخرج منه بحكمة وعبرة ، وهي أن أصل الانسان ونسبه
لا يفيد شيئا ولا يمنحه فضلا ما لم يكن مؤهلا له . وكأنه يريد أن يقول :
إذا كان محمد قد اختير نبيا وسولا ، فليس نسبه الحريق هو الذي منحه
هذا الشرف ولا أسرته النبيلة هي التي أكسبته هذا الفضل ، وهذا المسمى
يشير الى أن النبوة ليست اكتسابا ، وأن الرسالة ليست اجتهدا ، ولكلتهما
فضل من الله ونعمة يهبهما من يشاء من عباده . . . فلا الأسرة ، ولا النسب
بجاءل الانسان نبيا أو رسولا . يقول الفزالي : " . . . وعراة الأصل
لا تمنح الرجل الفاضل فضلا ، كالصلب إذا ترك للصدأ يمسى لا غناء
فيه ، أما إذا تمهده اليد الصانع فانها تهدع منه الكثير . . . " (٢)

ويبين الفزالي أنه إذا كانت عراة الأسرة أو القبيلة ليست بمانحة
الانسان النبوة أو الرسالة - فان يُتَمَّ الانسان ليس بمانحة منهما ، وينتهي
الى أن وجود الأب لا يمنح هذه المرتبة ، وأن عدم وجوده لا يمنحها
ثم يزيد هذه الحقيقة وضوحا وتأكيدا حين يسوق - تدليلا عليها - قصة
يعقوب وابنه يوسف ، يقول الفزالي : " . . . لكن الحقيقة القاسية - برغم (٣)
حفاوة الجد الحنون - باقية ، فان محمدا يتيم ، برز الى الدنيا بعد ما

(١) فقه السيرة ص : ١٤٣

(٢) فقه السيرة ص ٥٨ .

(٣) الصحيح في هذا التعبير : " على الرغم من حفاوة . "

غادر أبوه الدنيا • ليكن • • ولنفرض عبدالله بقى حيا • • ماذا عسى كان يفعل لابنه ؟ أكان يربيه ليهبه النبوة ؟ ما كان له ذلك • ان الأب عنصر واحد من عناصر شتى تتحكم فى مستقبل الطفل • وتخر له فى الحياة مجراه • ولو كانت النبوة بالاكتماب ما قربتها حياة الوالد شيئا • فكيف وهى اصطفا ؟ كان يحقوب حيا يرزق له شيوخه وتجارته وحكمته • بل له نهوته وقد نظر يوما ما ظم يجد يوسف قريبا منه • انه فقد فى أخطر فترات العمر ^(١) : فترة الصبا اللدن واليافة الفضة • ومع فساد الهيئات التى احتوت يوسف • فقد ^(٢) كان باطنه ينضج بالتقى والمعاف كما يتقد الصباح فى أعما ^(٣) الليل المدلهم • فلما التقى الابن بوالده بمسد لأى • رأى يحقوب ابنه نبيا صديقا •

لقد ولّى عبدالله وترك ابنه يتيمًا • بيد أن هذا اليتيم كان يمد من اللحظة الأولى لأمر جلل • أمر يصح به امام المصطفين الأخهار • وما الأب والجد • ما الأقربون والأبعدون • ما الأرض والسما الا وسائل مسخرة لانعام قدر الله وابلاغ نعمة الله من اصطفمه الله • • ^(٤)

ح - • ونحنما يتحدث الكاتب عن الأذان • وكيف شرع • فأنه يتناول بالتطويل ميلاد هذه الشميرة • والحادثة التى وقعت فى هذا الصد ثم يقول : " • • • هذه الكلمات الطيبة التى تروى بين الحين والحسين تفرح الأذان وتوقظ القلوب • وتصحى بالناس : هلموا الى الله • • • وعاشا فى رؤيا صالحة ذهن نير • فأسرع بها الى رسول الله • • • يروىها كما أقيمت فى روحه • لتكون نداء المسلمين الى الصلاة • ما أقيمت على الأرض صلا • " ^(٥)

(١) استعمال فتراتنا خطأ • والصواب : حقب أو أزمدة أو مدد أو سنوات •

(٢) الكلمة " فقد " هنا خطأ ويجب حذفها •

(٣) قال فى القاموس : " والأعما : الجهال جمع عى • وأنفال الأرض الستى لا عارة بها كالمعاصى " فالأنسب : أعماق الليل •

(٤) فقه السيرة ص ٦٢ (٥) فقه السيرة ص ٢٠٣ • ٢٠٤ •

ويتحدث الفزالي أثناء تطيله ذلك ، أن الوحي قد جاء مقرا هذا الأذان على النحو الذي رآه الصحابي عبدالله بن زيد ، والصيغة التي سمعها ، ولا يكفى الفزالي بذلك بل يملل ويفلسر موافقة الوحي لما تخضت عنه نفس هذا الصحابي من رؤيا صالحة ، ويخرج الفزالي من فلسفته هذه بحكمة ، وهي أن النفوس اذا صفت بلغت غاية التائق وقمة الحق ، " وتجاوب النفوس مع الوحي هو غاية التائق وقمة الحق ، وهو إمامة على أن الهدى أصبح غريزة فيها ، فهي تستقيم عليه في اليقظة والنوم ، وتتجه اليه على البديهة بعد التروى ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يهبط أصحابه بالوحي النازل عليه من السماء رباطا موثقا يقرأ عليهم ، ويقرأونه عليه ، لتكون هذه المداينة اشمارا بما على الصحاب من حقوق الدعوة وتهات الرسالة فضلا عن ضرورة الفهم والتدبر . . " (١)

٦ - الربط بين أحداث السيرة وما يشابهها من أحداث عصرية .

في أحيان كثيرة نرى الفزالي يحاول الربط بين أحداث السيرة ، وما يشابهها من أحداث عصرية ، بقصد الموازنة بينها واطهار الفسوق بين ما كان عليه المسلمون في أول الاسلام . . . وما عليه المسلمون الآن ، بين ما كان عليه المسلمون الأوائل من ايمان وتقدم . . وما عليه المسلمون الآن من ضعف في الايمان وتخلّف في السلوك الصحيح . .

يقول الفزالي : " ثم أننى أكتب وأمام عيني مناظر قائمة من تأخر المسلمين المحافظين والفكرى ، فلا عجب اذا قصص وقائع السيرة

بأسلوب يومي من قرب أو من بعد الى حاضرنا المؤلف ، كلما أوردت قصة جعلتها تحمل في طياتها شحنة من صدق العاطفة وسلامة الفكر وجلال العمل " (١)

ولنختار مثله عدة من الكتاب تدليلا على هذه السمة :

١ - حينما يتحدث الفزالي عن نجاح مصعب بن عمير في نشر الاسلام في يثرب وجمع الناس عليه ، حين أرسله الرسول مع اهل يثرب - وقد بيمة المقة الأولى - كي يفقه الناس في دينهم ، ويعمل على توسيع رقعة الاسلام في هذا البلد الجديد - حينما يحدثنا عن هذا كله .. فانه يخلص من هذا الى موازنة بين مصعب بن عمير في ايمانه بالاسلام واخلاصه في نشره ، وصدقه في جمع الناس حوله على أسس من الحق والعدل والصدق - ودعاة المسيحية اليوم من المرتزة الذين دسهم الاستعمار الغربى من أولئك المبشرين المخادعين المنافقين ، وينتهى من هذه الموازنة الى بعد البون بين داعية الاسلام - مصعب - ودعاة المسيحية ، فصعب له شرف الرسالة ، ونهل المقصد ، وسمو الهدف ، وأما أولئك الدعاءة ، فيحطلون بين جوانحهم - حين يدعون الناس الى مسيحيتهم - نفاقا فسى دعوتهم وانحطاطا في مقصدهم ، وخسة في هدفهم ..

يقول الفزالي : " .. ولا تحسبن مصعبا كأولئك المرتزة من المبشرين الذين دسهم الاستعمار الغربى بين يدي زحفه على الشرق ، فترى الواحد منهم يتجج تحت سرير مريض ليقول له : هذه القارورة . تقدمها لك المذراة . وهذا الرغيف يهديك اياه المسيح . وربما فتح مدرسة

ظاهرها الثاقفة المجردة ، أو ملجأ ظاهره البر الخالص ، ثم لوى زمام الناشئة من حيث لا يدرون ومال بهم حيث يريد . . هذا ضرب من التلصص الروحي يتوارى تحت اسم الدعوة الى الدين ، والذين يمثلون هذه المساخر يجدون الجراءة على عملهم من الدول التي تهتم بهم فاذا رأيت اصرارهم ومغامراتهم فلا تنس القوى التي تساند ظهورهم في البر والبحر والجو .

أما مصعب فكان من ورائه نبىٌ مضطهد ورسالة معتبرة (١) ضد القانون السائد ، وما كان يملك من وسائل الاغراء ما يطمح طلاب الدنيا ونهازي الغرض .

كل ما لديه ثروة من الكياسة واللفظة قبسها من محمد صلى الله عليه وسلم واخلاص لله جملة يضحى بمال أسرته وجاهاها في سهول عقيدته . . ثم هذا القرآن الذى يتأنسق في تلاوته ويتخير من روايته ما يفز به الألباب فاذا الأفئدة ترق له ، وتتفتح للدين الجديد . . (٢)

ب - ونحنما يتحدث عن نجاح المسلمين في تأسيس وطن لهم بالمدينة - هو بالتالى وطن للاسلام - في وقت كانت صحراء الجزيرة العربية وما حولها تنوع بالكفر والضلالة ، وذلك بفضل ايمانهم وصدقهم واخلاصهم لهذا الدين ، وتحملهم في ذلك ما تنوء بحمله كبار النفوس والمزائم - حينما يتحدث عن ذلك ، ينفذ الغزالي الى موازنة بين هذا النجاح الذى حققه المسلمون في اقامة وطن للاسلام بالمدينة - والنجاح الذى حققه اليهود - في عصرنا - باقامة وطن لهم فى

(١) استعمال " معتبرة " هنا خطأ ، والصواب : معدودة ، أو محسوبة أو مظلونة .

(٢) فقه السيرة ص ١٥٥ ، ١٥٦ .

فلسطين ، وينتهى من هذه الموازنة الى بعد البون بين نجاح المسلمين حينذاك . . . ونجاح اليهود اليوم ، ذلك لأن المسلمين حققوا هـذا النجاح بفضل عقيدتهم وجهادهم وحدهم دون مساعدة . . . أما اليهود ، فلم يكن نجاحهم فى اقامة هذا الوطن بسبب أنهم أصحاب عقيدة ويبدأ بل كان بسبب مساعدة الآخرين لهم من تلك الدول التى ساعدتهم . . . واذا كان لليهود أن يفخروا بذلك ، فان أولئك المسلمين أحق منهم بهذا الفخر وأجدر . . .

يقول الغزالي : " . . . ان نجاح الاسلام فى تأسيس وطن له وسط صحراء تروج بالكفر والجهالة ، هو أخطر كسب حصل عليه منـذ بدأت الدعوة له ، وقد تنادى المسلمون من كل مكان : هلموا الى يثرب . . . فلم تكن الهجرة تخلصا فقط من الفتنة والاستهزاء ، بل كانت تعاوننا عاما على اقامة مجتمع جديد فى بلد آمن . . . وفى عصرنا هذا أعجب اليهود بأنفسهم وعانق بعضهم بعضا مهنئا بأنهم استطاعوا تأسيس وطن قومي لهم بعد أن عاشوا مشردين قرونا طويلا . ونحن لا ننكر جهد اليهود فى اقامة هذا الوطن ولا حماس المهاجرين من كل فج للمعيش به ومحاولة احيائه واعلاجه . ولكن ما أبعد البون بين ما صنع اليهود اليوم - أو بتمهيد أدق ما صنع لليهود اليوم - وما صنع الاسلام ونهوه لأنفسهم يوم هاجروا الى يثرب نجاة بدعوتهم واقامة لدولتهم . . . ان اليهود جاءوا على حين فرقة من العرب وغفلة وضعف ، وحاكوا مؤامراتهم فى ميدان السياسة الضمنية الناقصة على الاسلام وأهله . فاذا بالعالَم كله يهجم على فلسطين بالمال والسلاح والنساء والذهاب ، فلم يستطع مليون عربى حصرتهم الخيانات فى مأزق ضيقة أن يصنعوا شيئا ، فهاموا على وجوههم فى الأرض نتيجة اغتاق أمريكا وروسيا وانجلترا وفرنسا^(١)

(١) الصواب : أمريكا وروسيا وانجلترا ، وفرنسة .

و... ملوك العرب على خذلان أولئك العرب التمسوا • وذلك قسام
الوطن القوي لليهود • وحث الدعاية لتشجيع الهجرة اليه واسـ...
المون له من دهاقين السياسة والمال في أنحاء الدنيا ••

أين هذا الحضيض من رجال أخلصوا لله طواياهم وترفعت عن
المآرب همهم • وذهلوا عن المتاع المذول والأمان المتاح • واستهوتهم
الضل العليا وحدها في عالم يحج بالصم اليكم • ورحلوا مستقبلهم بمستقبل
الرسالة المبرأة التي اعتقوها وتعموا صاحبها المتجرد المكاف •• (١)

ح - وحينما يتحدث الغزالي عن مسجد الرسول الذي بنى
عقب هجرته الى المدينة وعن السهولة التي تم بها • وكيف أن هذا
البناء المتواضع ربى ملائكة البشر وقادة المسلمين - حينما يتحدث عن
ذلك ينشد لى موازنة بين هذا المسجد المتواضع الذى رى صفوة البشر ••
ومساجد المسلمين اليوم ذوات البناء السامق والزخرفة الجميلة • فى
الوقت الذى تضم فيه هولين بمعبدين عما يجب أن يتربى عليه الصلـ
من خلائق جميلة ••

يقول الغزالي : " ••• وتم المسجد فى حدود البساطة (٢) •
فراشه الرمال والحصبة • وسقفه الجريد • وأعمدته الجذوع • وربما أمطرت
السما فأرطحت أرضه • وقد نُفِثَ الكلاب اليه فتفرد وتروى • هذا البناء
المتواضع الساذج هو الذى رى ملائكة البشر ويؤدى الجاهلية وطـوك
الدار الآخرة • فى هذا المسجد أذن الرحمن لنبي يوم بالقرآن •
خبرة من آمن به • يتعهدهم بأدب السماء من غيش الفجر الى غسقى

(١) فقه السيرة ص ٦٦٣ • ١٦٤

(٢) البساطة معناها السعة والامتداد • ولذلك كان الخطأ فى استعمالها
فاحشا • والصواب : البهارة أو الضرورة •

الليل . ان مكانة المسجد في المجتمع الاسلامي تجعله مصدر التوجيه الروحي والمادى . فهو ساحة للمهاداة ومدرسة للمعلم وندوة للأدب وقد ارتبطت - بفريضة الصلاة - وصفوفها - أخلاق وتقاليد هي لباب الاسلام . لكن الناس لما أعياهم بناء النفوس على الخلاق الجميلة ، استعاضوا عن ذلك ببناء المساجد السامقة تضم مهلين أقراما .. أما الأسلاف الكبار فقد انصرفوا عن زخرفة المساجد وتشبيدها الى تركية أنفسهم وتقويمهم فكانوا أمثلة صحيحة للإسلام" (١)

د - وحينما يتحدث الغزالي عن عمل الرسول وأصحابه فى حفر الخندق ، وأن الرسول كان يحفر بيده ويحمل الأتربة على عاتقه ، وأن الصحابة الذين لم يألوا هذا العمل قط - قد تأسوا به وراحوا جميعا يملطون فى حفر هذا الخندق تدفعهم عقيدة ، ويدفعهم اخلاص .. حينما يتحدث عن هذا يخلص الى موازنة بين عمل الرسول فى حفر الخندق وقذف الأتربة ، وبين عمل بعض الزعماء فى عصرنا ، حين يشاركون فى وضع حجر الأساس - مثلا - لبناء مسجد أو مستشفى .. وينتهى من هذه الموازنة الى أن عمل الرسول يصاحبه اخلاص وصدق ، وأن عمل هؤلاء الزعماء يشوبه نفاق وتشبه ..

يقول الغزالي : " .. علم رسول الله صلى الله عليه وسلم أن الالتحام مع هذه الجيوش الضخمة فى ساحة مهيدة ليس طريق النصر ، فما عسى أن تصنع قلة مؤمنة مكافحة مع هذا السيل الدائق ؟ لذلك لجأ الى هذه المكيدة ، ويروى أن الذى أشار بها سلمان الفارسى . وتقدم

رجالها لأحكامها وانجازها غناخذ يحفر بيده ويحمل الأثربة والأحجار على
عاتقه موتاًسى به الرجال الكبار من لم يألوا هذا العمل قطه فشهدت
يشرب منظراً عجيباً : وجودها ناصعة تتألف منها فرق شتى تضرب بالفسوس
وتحمل المكاتل وتتمرى من لباسها وزينتها لتطيس حلالاً من نعيم الفهار
المتراكم والعرق واللغوب . . . ان الدفاع عن الاسلام ومخافة الفتنة
لو انتصر المشركون جعلت الرسول صلى الله عليه وسلم وصحابته يمالجون
هذا العمل الثقيل ونفوسهم راضية مستهتة مع ما يلقون فيه من عناء
وصحوة (١)

وينتقل الفزالى من الحديث عن عمل الرسول وأصحابه فى حفر
الخندق الى المقارنة بين عمل الرسول وعمل زعماء عصرنا فيقول : " ولا تحسبن
عمل رسول الله صلى الله عليه وسلم فى تعميق الخندق وقف انتهت
من قهيل التشيل الذى يحسنه بعض الزعماء فى عصرنا . كلا كلا . ان
الرجولة الكاذبة الجادة فى أنهى صورها كانت تقهين من مسلك الرسول
صلى الله عليه وسلم فى هذه المعركة . يقول البراء : لقد وارى عنى
التراب جلدة بطنه وكان كبير الشعر . آجل انه استغرق فى العمل مع
أصحابه ، فالرجولة الصادقة لا تعرف التشيل " . (٢)

٧ - التعليق على الأحداث والوقائع :

نستطيع أن نقول من خلال ما تقدم : ان السمات الغالبة فى
طريقة الفزالى ، هى تلك السمات التى تقوم على تحليل الأحداث وفلسفتها
تارة ، وعلى تحقيقها وتحصيلها تارة أخرى ، وعلى استنهاط المعظمة

(١) فقه السيرة . ص ٣١٨ ، ٣١٩ .

(٢) فقه السيرة . ص ٣١٩ .

واستخراج الحكمة منها مرة ، وعلى الرّبط بين أحداث السيرة وما يشابهها
من أحداث عصية مرة ثانية .

ونستطيع أن نقول هنا : ان الغزالي - في أحيان كثيرة - كان
يعتمد عن تلك السمات الغالبة ، فلا يتناول الأحداث على نحو ما ألفنا
منه من تحلوّل وتحليل وتحقيق ، وربط بين الأحداث العصرية والأحداث
الماضية . . بل يتناول الحادثة ويسردها سرداً تاريخياً ، ثم يعلّق
عليها بأسلوب أشبه بأسلوب الخطابي . والأمثلة على ذلك كثيرة . .

١ - حينما يتحدث الغزالي عن أبي طالب وأثره في نصرة
الدعوة الى الاسلام ، والمحافظة على ابن أخيه على الرغم من بقاءه على
شركه ، . . نراه ينتقل من هذا الحديث ليمطينا صورة أخرى مقابلته
لصورة أبي طالب ، هي صورة عمه أبي لهب ، هذا الذي وقف من
الدعوة صاحبها موقف الخصومة والعداء ، وبعد أن يرسم هاتين الصورتين
ويبين مسلك أبي لهب ، يأخذ الغزالي في التعليق على هذا المسلك
الشائن الغزري الذي وقفه أبو لهب .

يقول الغزالي - بعد استعراضه موقف أبي لهب - : . . لكن
ما أبو لهب ؟ وما قريش ؟ وما العرب ؟ وما الدنيا كلها ؟ بازه رجل
يحمل رسالة من الله الذي له ملك السموات والأرض ، يريد أن يعيد بها
الرشد لعالم فقد رشد ، وأن يحو بها الأوهام في حياة مؤمنها الأوهام
في الرّغام . ما تجدى وقفة جهول ؟ أو غفلة مغرور ؟ في منح هذه
الرسالة الكبيرة من الضى الى هدفها البعيد . ان الحطاب العائنة
لا توقف السفن الماخرة . . ان الدعوة التي بدأ بها محمد صلى الله
عليه وسلم من بطن مكة لم تكن لبناء وطن صغير ، بل كانت انشـاء
جديداً لأجبال وأمم تظل تتوارث الحق وتتدفق به في رحاب الأرض الى

أن تتجس من فوق ظهر الأرض قصة الحياة والأحياء • فإذا تصنع خصومة فرد أو قبيلة لرسالة هذا شأنها في حاضرها ومستقبلها ؟ (١)

ب - وحينما يتحدث الغزالي عن هجرة المسلمين من مكة إلى المدينة • وما تحلوه في سبيل ذلك من صواب ومثاق • لا يطيقها إلا المؤمن قوى العقيدة • شجاع القلب • إذ ليست رحلة ترفيهية ولا سفراً قاصداً • وإنما هي رحلة شاقة تحيط بصاحبها كل أسباب الخوف والقلق والهلاك ••

حينما يتحدث عن ذلك يعلق عليه بقوله : " •• ليست الهجرة انتقال موظف من بلد قريب إلى بلد ناء • ولا ارتحال طالب قوت من أرض مجدبة إلى أرض مخصبة • إنها اكراه رجل آمن في سره • متمدن الجذو في مكانه •• على اهدار ماله أو التضحية بأمواله • والنجاة بشخصه فحسب • واشعاره - وهو يهني مركزه - بأنه مستباح منسوب قد يهلك في أوائل الطريق أو نهايتها • وأنه يسير نحو مستقبل مجهول لا يدري ما يتخض عنه من قلق وأحزان • ولو كان الأمر مفامرة فرد بنفسه ل قيل : مفامر طياش • فكيف وهو ينطلق في طول البلاد وعرضها يحمل أهله وولده ؟ وكيف وهو بذلك رضى الضمير رضاء الوجه ••

انه الايمان الذى يزن الجبال ولا يطيش • وايمان بمن ؟ بالله الذى له ما فى السموات وما فى الأرض وكله الحمد فى الآخرة وهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ (٢) •• هذه الصعاب لا يطيقها إلا مؤمن • أما الهشاش الخوار القلق فما يستطيع شيئاً من ذلك " (٣)

(١) فقه السيرة ص ١٠٤
(٢) الآية ١ من سورة سبأ ••
(٣) فقه السيرة ص ١٦٥

من الوقائع والشؤون .. (١)

ولكن إيراد الفزالي للنصوص والآثار في كتابه يختلف عن إيراد
القدامى له .

انهم يَحْشِدُونَ الآثار ، ويكثرون من إيرادها في الموضوع الواحد
على نحو سردى ، بقصد إيراد كل الآثار المتعلقة بهذا الموضوع أو ذاك ..
أما الفزالي فانه يورد هذه الآثار وتلك النصوص على نحو مختلف ..
فقد حاول أن يوزع تلك الآثار على الأحداث والوقائع بقصد الاستشهاد
والاستدلال ، بحيث تتسق مع وحدة الموضوع وتعين على اعتقان صورته
واكمال حقيقته ..

ويستطيع القارئ أن يرى تلك النصوص والآثار منهقة في ثنايا
الكتاب ..

ولنضرب ببعض الأمثلة على ذلك ..

١ - حينما يتحدث الكاتب عن حب الصحابة للرسول صلى الله
عليه وسلم حبا فاق مدى التصور والوصف فانه يورد من النصوص ما يسدل
على ذلك .. يقول ..

.. على أن الذين عاشوا محمدا أحبه الى حد الهيام ، وما
يبالون أن تتدق أعناقهم ولا يחדش له ظفر وما أحبه كذلك الا لأن أنصبت
من الكمال الذي يعشق عادة لم يورق بخلها بشرة ..

كان ثمان مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم شديد الحب له ، قليل الصبر عنه ، فاتاه ذات يوم وقد تَغَيَّرَ لونه ، يصرخ الحزن فى وجهه ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : ما غيرَ لونك ؟ فقال : يا رسول الله ، ما بين مؤمن ولا وجه ، غير أنى اذا لم أرك استوحشت وحشة شديدة حتى ألتك ، ثم انى اذا ذكرت الآخرة أخاف ألا أراك ، لأنك ترفع الى عظيم مع النبيين ، وانى ان دخلت الجنة كنت فى منزلة أدنى من منزلتك ، وان لم أدخلها لم أرك أبدا ، فتول قوله تعالى : (وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصَّدِيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا) (١) (٧)

ب - حينما يتحدث الكاتب عن عبر المحنة التى أصابت المسلمين فى أحد ، وعن الدروس التى استفادها المسلمون من خلالها ، وكيف أن تلك المعركة كانت امتحانا قاسيا كشف النقاب عن صنفين من الناس : عن المنافقين الذين انسحبوا ولم يدخلوا المعركة وعلى رأسهم عبد الله بن أبى ٠٠٠ وعن المؤمنين الصادقين الذين ثبتوا فى مستقع الموت وكتبوا التاريخ بدمائهم ، وحين حديثه عن أولئك المؤمنين ، يضرب الأمثلة على هذا الصنف من المؤمنين فيورد من الأحاديث والآثار ما يدل على ذلك ، اكالا للموضوع واتقانا لصورته ٠٠

يقول الفزالى : " ٠٠ ان الرجال الذين يكتبون التاريخ بدمائهم ويوجهون زمامه بحزماتهم هم الذين صلوا هذه الحرب ، وحفظوا بها صير الاسلام فى الأرض . روى أن " خشيمة قتل ابنه فى معركة بسدر فجاء الى رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : لقد أخطأتنى وقعة بسدر كنت - والله - عليها حرمها ، حتى ساهمت ابنى فى الخروج فخرج

(١) الآية ٦٩ من سورة " النساء " .
(٢) فقه السيرة ص : ٢١٢ .

فى القرعة سه سههم ، فوزق الشهادة . وقد رأيت الباهرة ابنى فسى
النوم فى أحسن صورة يسرى فى ثمار الجنة وأنهارها يقول : الحق بنىنا
ترافقنا فى الجنة فقد وجدت ما وعدنى ربي حقاً ، ثم قال : وقد أصبحت
يارسول الله مشتاقاً الى مرافقتك . وقد كبرت سنى ورق عظمى وأحببت
لقاك ربي ، فادع الله يارسول الله أن يرزقنى الشهادة ومرافقة ابنى خيامة
فى الجنة ، فدعا الرسول عليه الصلاة والسلام له ، فقتل بأحد شهداء^(١) .
ولا يكفى بمثل بل يضرب أمثلة عدة من أمثال : عمرو بن الجحوم ونعميم
ابن مالك فيورد النصوص والآثار الواردة فيها .

ح - وحينما يتحدث عن معركة الأحزاب ، يصف الكاتب ليلة
شامية : ظلمة هردا وريحا كما يصف الجو النفسى الذى أحاط بالمسلمين
تلك الليلة ، ثم ينتقل الكاتب من هذا الوصف الى ضرب الأمثلة ، فيورد
النصوص والآثار الدالة على ذلك .

يقول الفزالى : " . . . وكأنما كان زئير الرياح الهوج سوطاً
يلهب المهاجمين^(٢) حتى لا يتوانوا فى الخلاص من هذا الموقف . ونظير
رسول الله صلى الله عليه وسلم من وراء أسوار المدينة وحوله أصحابه جاثمون
فى مكائهم . يرمقون الأفق بحذر ، ويرقبون الغيب بأمل ، والظلام البارء
الثقل يرين على كل شىء فى الصحراء المترامية .

قال حذيفة بن اليمان : رأيت ليلة الأحزاب ونحن صافون قمود
وأبو سفيان ومن معه نوقتا وقريظة أسفل منا نخافهم على ذرارينا ، وما
أنت علينا ليلة قط أشد ظلمة ولا أشد ريحا منها ، تطن فى رياحها

(١) فقه السيرة ص ٢٨١ .

(٢) المهاجمون خطأ ، والصواب : المهاجمون .

أصوات أمثال الصواعق وما يستطيع أحدنا أن يرى أصبعه من قنابها السائد ولم يكن على جنة من المدو ولا من البرد الا حوطاً لا مواتى لا يجاوز ركبتي ، فأثنى الرسول صلى الله عليه وسلم وأنا جاك على الأرض ، فقال من هذا ؟ فقلت حذيفة ، فقال : حذيفة ؟ فتقاصرت في مضمي وأنا أقول : يلى يا رسول الله - كراهية أن أقوم - فندبني لما يريد ، وقال : انه كائن في القوم خير فأتني به ، فخرجت وأنا أشد الناس فرحاً وأشدهم قراً ، فدعا لى بخير ، فضمت لشأني كأننا أمشي في حمام .
انها حجارة الايمان وحاسة الطاعة جعلت الرجل يغلب بمطافئته المتقدة نسوة الجو . . . (١)

والفزالى قد يلجأ أحياناً - وهو يورد النصوص والآثار - الى تفسير نص أو دليل ، خاصة اذا كان من القرآن الكريم ، فهمقب عليه بالشئ والتفسير ، حتى يعطى الموضوع حقه ، والأمثلة على ذلك كثيرة ، نورد منها ما يلى . .

أ - حينما يتناول الكاتب الدروس المستفادة من غزوة أحد - تحت عنوان : عبر المحنة - يورد الآيات التى نزلت فيها تبهها وتوجيهها وعتاباً من الله للمؤمنين ، شارحاً ما فيها من المعانى والمبهر ، مبتدئاً هذا كله بموازنة بين الآيات التى نزلت في غزوة بدر - عتاباً من الله للنبي والمؤمنين على أخذهم الغدية وتركهم قتل المشركين - وهذه الآيات التى نزلت في غزوة أحد عقب ما أصابهم فيها . . مبيناً أن المتنا

كان شديداً في الأولى ، رقيقاً في الثانية .

يقول الفزالي - بعد تناوله عبر المحنة في أحد :

"تروق القرآن الكريم وهو يعقب على ما أصاب المسلمين في أحد ، على عكس ما نزل في بدر من آيات ، ولا غرو فحساب المنصر - على أخطائه - أشد من حساب المنكسر في المرة الأولى ، قال : « تَرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ » . لَوْلَا كِتَابٌ مِنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيهَا أَهْدُمُ عَذَابٌ عَظِيمٌ » (١) .

أما في أحد فقال : " مَنكُم مَّن يَرِيدُ الدُّنْيَا وَمَنكُم مَّن يَرِيدُ الْآخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَا عَنْكُمْ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ » (٢) . " حسب المخطئين ما لحقهم من أضرار الهزيمة ، وفي القصاص الماجل درس يذكر المخطئ بسوء ما وقع فيه " (٣) .

ثم يأخذ الكاتب - بعد ذلك - في شرح وفلسفة الآيات التي نزلت في أحد - عتاباً من الله للمؤمنين - مبيناً ما فيها من توجيهات ودروس تتفح المؤمن مستقبلاً ، يقول : " وقد اتجهت الآيات التي مزج الصواب الرقيق بالدرس النافع وطماننة المؤمنين حتى لا يتحول انكسارهم في الميدان إلى قنوط يفل قواهم ، وحسرة تشل انتاجهم (٤) " " قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْفَرِينَ " .

(١) الآيات ٦٧ و ٦٨ من سورة " الأنفال "

(٢) الآية ١٥٢ من سورة " آل عمران " .

(٣) فقه السيرة ص ٢٨٥ . (٤) في الأصل : تعلمين ، والصواب كما ذكرنا .

(٥) كلمة انتاج هنا : خطأ - يقال أنتجت الناقة إذا قربت ولادتها ، والصواب نتاجهم .

هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِلْمُتَّقِينَ . وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (١) (٢)

ب - وحينما يتحدث عن غزوة تبوك ، نراه يشير الى بعض الآيات التى نزلت فيها معلقا عليها بالشرح والتفسير . . . يقول :

” . . . وللذلولوف العصية التى اكتنفت اعداد هذا الجيش ، سعى ” جيش المصرة “ ، والآيات التى أنزلها الله فى كتابه - متعلقة بغزوة العسرة - هى أطول ما نزل فى قتال بين المسلمين وخصومهم . وقد بدأت باستنهاض الهمم لرد هجوم المسيحية على الاسلام وافهمهم المسلمين مغبة تصيرهم فى أداء هذه الفريضة ، واشمارهم بأن الله لا يقبل ذرة من شريط فى حماية دينه ونصرة نبيه ، وأن التراجع أمام الصعوبات الحائلة دون قتال الروم يعتبر (٣) مزلقة الى الردة والنفاق ” يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ اتَّقُوا اللَّهَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَنْتَظِمُوا إِلَى الْأَرْضِ أَرْضَكُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ كَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِى الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ . . . (٤) وضت الآيات تتحدث فى صراحة وعنفض فضحت المنافقين وكشفت عن المترددين ، وأهانت طلاب الدعة والراحة الذين آثروا ظل القمود فى بيوتهم وحقولهم على حر الصحراء ووحش السفير ومتاع الجلاذ . . . (فِرَقَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعِدِهِمْ خِلَافَ رَسُولِ اللَّهِ وَكَرِهُوا أَنْ يَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَالُوا لَا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ قُلْ : تَارَ جَهَنَّمَ أَشَدَّ حَرًّا لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ . (٥) (٦) ”

(١) الآيات ١٣٢/١٣٩ من سورة ” آل عمران “ .

(٢) فقه السيرة ص ٢٨٦ .

(٣) أشرنا مرارا الى خطأ هذا التعبير وأن الصواب : يمد .

(٤) الآية ٢٨ من سورة ” التوبة “ .

(٥) الآية ٨١ من سورة ” التوبة “ (٦) فقه السيرة ص ٤٣٧ .

الفصل الثالث ::

أسلوب الغزالي في " فقه السيرة " ومبادئه

- ١ - هل نجد " فقه السيرة " كتاب تاريخ أم كتاب أدب ؟
- ٢ - سمات أسلوب " فقه السيرة " :
 - أ - السمة الفلسفية .
 - ب - السمة الأدبية .
 - ج - السمة الخطابية .

١ - هل نعد " فقه السيرة " كتاب تاريخ أم كتاب أدب ؟

قبل أن نتحدث عن أسلوب الفزالي وخصائصه في كتاب " فقه السيرة " يرد سؤال يقول : هل نعد كتاب " فقه السيرة " كتاب تاريخ أم كتاب أدب ؟

والحقيقة أن الباحث يقع في حيرة حينما يحاول أن يضع هذا الكتاب تحت أى من هذين النوعين . . . فالكتاب بطريقته ومنهجه وتقسيمه السيرة إلى مراحل وفصول يجعله يندرج تحت اسم التاريخ ، وهو بأسلوبه الذى امتاز بالاشراق والسلامة والصياغة الجميلة مفلحا بمطابقة قريحة مشهورة ، يجعله يندرج تحت اسم الأدب بالمعنى العام .

وهذا الازدواج بين التاريخ - طريقة ومنهجا - والأدب - أسلوبا وصياغة - يطلق عليه فى العصر الحديث " تأديب التاريخ " ، ولعلنا - سابقا - أن أول من فتح هذا الباب وتناول السيرة النبوية على هذا النحو هو الدكتور محمد حسين هيكل ، وقد سبق أن أوضحنا ذلك عند الحديث عن كتابه " حياة محمد " .

ولقد نحا الفزالي - فى تناوله للسيرة على هذا النحو من الجمع بين النهج التاريخى والأسلوب الأدبى - نحو هيكل ، فجاء كتابه مزيجا من هذا وذاك . . . وقد سبق أن قلنا أن الفزالي حاول فى كتابه هذا دراسة السيرة على نهج المحدثين القائم على التحليل والتعليق والموازنة والاستنباط - أى : النهج الذى يمكن أن يسمى " النهج الفلسفى " - أى : فلسفة السيرة ، ومحاولة تحليلها وتعليلها والوقوف على حقائقها وأسرارها . . . ولكن الفزالي فى فلسفته للسيرة لم يحاول أن يعرضها فى لفظ جاف ولا أسلوب جامد ، بل جهد أن يصب هذه

فصدق الماطقة عند الفزالي وهو يكتب السيرة ، ومحاولة عن طريقها اثاره الانفعال في نفوس القراء والسامعين بأحداث السيرة ، وما فيها من عظات وعبر ، ومحاولة الوقوف على بعض أحداثها وما فيها من جمال وتأثير - هي التي أكتسب أسلوب الفزالي في " فقه السيرة " طابعا أدبيا " ولكن الغاية في الأسلوب الأدبي هي اثاره الانفعال في نفوس القراء والسامعين ، وذلك بعض الحقائق رائعة جميلة ، كما أدركها أو تصورها الكاتب الأديب ، وهذا يجمع الأسلوب الأدبي بين الافادة والتأثير " . (١)

ومن هنا نستطيع أن نقول : ان أسلوب الفزالي في " فقه السيرة " أسلوب ذو طابع أدبي ، وان كنا نقصد بكلمة " أدب " الأدب بالمعنى العام .

وما يؤكد الطابع الأدبي في أسلوب الفزالي ، تلك النزعة الخطابية التي نلاحظها بشوة بكرة أثناء عرضه وتحليله لأحداث السيرة ، ومعروف أن النزعة الخطابية من سمات الأسلوب الأدبي ، إذ يعتمدان بهما الأديب في اثاره المواظف والوجدان .

٢ - سمات أسلوب " فقه السيرة :

ونستطيع بعد هذا العرض أن نخلص الى سمات أسلوب الفزالي ، فنقول : ان أسلوبه في فقه السيرة أسلوب فلسفي أدبي خطابي . .

أ - السمة الفلسفية: وهى السمة الغالبة فى أسلوب الفزالى، ويستطيع القارئ أن يلمحها فى أكثر من موضع، بل يراها بارزة فى غالب صفحات الكتاب .. وإن كنا نريد مثالا تبرز فيه ملامح هذه السمة جلية، فليكن تحليله وفلسفته للأدان ..

يقول الفزالى : " .. الله أكبر الله أكبر ، الله أكبر الله أكبر .. " هذه الصيحات المؤكدة تذكر الناس بالفاية الأولى من محياهم ، والمرجع الحق بعد ماتهم ، فكم ضللت البشر غايات صغيرة أركضتهم على ظهر الأرض ركن الوحوش فى البرارى ، واجتذبت انتباههم كله ، فاستغرقوا فى السعى وراء الحطام . وامتلكت عواطفهم كلها ، فالحزن يقطبهم للحرمان والفرح يقطبهم بالامتلاء ولم يشف المرء نفسه بالفيهة فى هذه التوافه ؟ أن صوت الحق يستخرجه من وراء هذه الحجب المتراكمة ، ليلقى فى روعه ما كاد ينساه ، وهو تكبير سيد الوجود ورب العالمين ، سيده ومولاه ..

" أشهد أن لا اله الا الله ، أشهد أن لا اله الا الله .

" لقد سقط الشركاء جميعا ، طالما ضرع الناس للوهم ، واعتزوا بالبهائم ، وأطوا الخير فيمن لا يملك لنفسه نفعا ، وانتظروا النجدة ممن لا يدفع عن نفسه عدوان ذهابه ، ولم يجدوا فى هذه المتاهات ؟ أن كان المفلتون يشركون مع الله بعض خلائقه أو يؤلهونها دون الله ، فالمسلمون لا يعرفون الا الله ربنا ، ولا يرون غيره موقلا .

" والتوحيد المحض هو النهج المعتد للفاية التى استشهد فوها .

" ولكن من الأسوة ؟ من الامام فى هذه السبيل ؟ من الظليمة الهادية المؤنسة ، أن المؤذن يستلنى لذكر الجواب :

" أشهد أن محمداً رسول الله ، أشهد أن محمداً رسول الله .
 " سيرة هذا الرجل النبيل هي المثل الكامل لكل انسان يمشى
 الحياة الصحيحة ، ان محمداً انسان يرسم بحسنه الفاضلة السلوك الفريد
 لمن اعتنق الحق وعاش له .

" وهو يهيب بكل ذى عقل أن يقبل على الخير ، وأن ينشط
 الى موضة ولق أمره ، ولق نعمته فيحث الناس أولاً على أدائه عبادة
 ميسورة رقيقة .

" حقاً على الصلاة ، حقاً على الصلاة .

" هذه الصلوات هي لحظات التأمل في ضجيج الدنيا ، هي
 لحظات المآب كلما انحرف الانسان عن الجادة ، هي لحظات الخضوع
 لله ، كلما هاج بالمرء التزق وطفقت على فكره الأثرة فنظرت الى ما حوله ،
 وكأنه اله صغير ، هي لحظات الاستمداد والالهام ، وما أفقر الانسان
 - برغم^(١) غروره - الى من يلهمه الرشد فلا يستحق ، ويمده بالقوة
 فلا يمجز ويستكين . . ثم بحث الناس أخيراً على تجنب الخيبة فمس
 شؤونهم كلها ، والخيبة انما تكون في الجهد الضائع سدى في الممسل
 الباطل لأنه خطأ ، سواء أكان الخطأ في الأداء ، أو في المقصد . .
 وهو يحذر من هذه الخيبة عندما يدعو :

" حقاً على الفلاح ، حقاً على الفلاح .

" ويوم يخرج المصل من الانسان ، وهو صحيح في صورته ونهته ،
 فقد أفلح ، ولو كان من أعمال الدنيا البهجة ، ألم يعلم الله نبيه

(١) المأثور في اللغة : على الرغم من غروره .

أن يجعل شئون حياته ، بعد نسكه وصلاته خالصة لله ؟ .. قُلْ
إِنَّا صَلَّيْنَا وَنُسَكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ . لَا شَرِيكَ لَهُ
مَذَلِكُ أَمْرٌ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ^(١)

" ولا سهيل الى ذلك الا باصفار ما عدا الله من غايات ، والتزام
توحيده أبدا ، ومن ثم يعود الى تقرير الغاية والمنهج مرة أخرى :

" الله أكبر . الله أكبر . لا اله الا الله .

" ان كلمات الأذان تغلل العناوين البارزة لرسالة كبيرة فـ
الاصـ ^(٢)

* * *

ب — وأما السمة الأدبية : فتظهر فى مواضع كثيرة من الكتاب ،
وحسب البحث أن يشير الى بعض هذه المواضع :

١ — تحت عنوان : " فى غار حراء " ، يصور الكاتب العزلة التى كان
يميشها الرسول فى هذا الغار المنقطع بعيدا عن لغو الحياة وصخبها
التماسا للحق ، كما يصور نفس الرسول وهى ترتب هذا العالم وما فيه
من ظلام وفتن ، كما يصور حسرتها على ما وصلت اليه الانسانية من
خسوف فى الحقايد والمعاملات ، وأملها فى الخائى من هذا كله ..
كما يصور أيضا تلك المجاهدة النفسية التى أخذ بها الرسول نفسه ،
وتلك الرياضة الروحية التى دأب عليها ، حتى يَصْقُلَ قَلْبُهُ وَتَرَقَّى رُوحُهُ ..
يقول الفخرالى : " .. وكان محمد صلى الله عليه وسلم يهجر
مكة كل عام ليقضى شهر رمضان فى غار حراء ، وهو غار على مسافة بضعة

(١) الآيتان ١٦٢ ، ١٦٣ من سورة " الأنعام " .

(٢) فقه السيرة ص ٤١٦ — ٤١٨ .

أميال من القرية الصاخبة ، في رأس جبل من هذه الجبال المشرفة على مكة والتي ينقطع عندها لغو الناس وحديثهم الباطل ، ويبدأ السكون الشامل المستغرق .

في هذه القبة السامقة المنزوية كان محمد صلى الله عليه وسلم يأخذ زاد الليالي الطوال ثم ينقطع عن العالمين متجهاً بقواده المشوق الى رب العالمين. في هذا الغار المهيب المحجب كانت نفس كبيرة تطل من عليائها على ما تتوج به الدنيا من فتن ومفانم واعتداء وانكسار ثم تطوى حصرة وحيرة لأنها لا تدري من ذلك مخرجاً ، ولا تعرف لـه علاجاً .

في هذا الغار النائي كانت عين نفاذة محصية تستعرض تسرات الهداة الأولين من رسل الله ، فتجده كالمنجم المعتم لا يستخلص منه الممدن النفوس الا بعد جهد جهيد وقد يخطط القرب بالتبر فـما يستطيع بشر فصله عنه .

في غار حراء كان محمد عليه الصلاة والسلام يتعبد ويهقل قلبه وينقى روحه ، ويقترب من الحق جهده ، ويبتعد عن الباطل وسمه ، حتى وصل من الصفاء الى مرتبة عالية ، انعكست فيها أشعة الفهب على صفحته المجلوة ، فأمسى لا يرى رؤيا الا جاءت كفلق الصبح .

في هذا الغار اعلم محمد بالملأ الأعلى . ومن قلبه شهد بطن الصحراء أخا لمحمد عليه الصلاة والسلام يخرج من هرقاراً مستوحشاً ، ويجتاز القفار ملتمساً الأمن والسكنة والهدى لنفسه وقومه ، فبرقت لـه من شاطئ الوادي الأيمن نار مounسة ، فلما فهمها (موسى) اذا النداء الأقدس يهزم مسامحه ويتخلل مشاعره ، " إِنِّي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا

فَأَعِزَّنِي وَأَقْرِبْ صَلَاتِي لِذِكْرِي * (١)

ان شعلة من هذه النار اجتازت القرون لتتقد مرة أخرى فسى جوانب الفار الذى حوى رجلا يتحنث ويتطهر نائها بجسمه وروحه عمن أرجاس الجاهلية ومساوئها ، لكن الشعلة لم تكن نارا تستدج الناظر بل كانت نورا يهبط بين يدى وحى مبارك يسطع على القلب العانى بالالهام والهداية والتثبيت والعناية .. (٢)

٢ - وتحت عنوان : " الى دار الهجرة " - يوازن الفزالى بين عودة النبي إلى المدينة ظافرا بعدما أهده الله بالفتح المبين - فتح مكة فى العام الثامن للهجرة - . . . ومقدمه الى تلك المدينة منذ ثمانية أعوام طريدا غربا .

يقول الفزالى : " . . . لله ما أفصح المدى بين هذه الأصبة الظافرة بعد أن توج الله هامة بالفتح المبين ، حين مقدمه الى هذا البلد النهيل منذ ثمانية أعوام . لقد جاءه مطاردا بينى الأمان ، غربا مستوحشا ينشد الايلاف والايئاس ، فأكرم أحله مشواه ، وآووه ونصروه ، واتهموا النور الذى أنزل معه ، واستخفوا بعداوة الناس جميعا من أجله ، وما هو ذا بعد ثمانية أعوام يدخل المدينة التى استقبلته مهاجرا خائفا لتستقبله مرة أخرى وقد دانت له مكة وألقت تحت قدميه كبرياءها وجاهليتها فأنهضها ليمرّها بالاسلام وعفا عن خطيئتها الأولى (٣)

ح - وأما السمة الخطابية : فتهدو واضحة فى ثنايا الكتاب وحسب البحث أن يشير الى بعض الأمثلة التى تدل عليها .

(١) الآية ١٤ من سورة " طه " .

(٢) فقه السيرة ص ٨٨ ، ٨٩ (٣) المصدر السابق ص ٤٣٣ ، ٤٣٤ .

١ - تحت عنوان : " الصطفون الأخيار " ، يتحدث الفزالى عن أصحاب الرسول الذين صفت نفوسهم بصحته ورقت مشاعرهم بملازمته ، ذلك لأن محمداً أشرق نفسه عليهم فنضحت نفسه على نفوسهم فأشرق فيها نور الالهام فأصبحت هذه النفوس فى اشراقها وصفائها قريباً من اشراق نفس الرسول وصفائها ..

ومعد أن يوضح الفزالى هذه الحقيقة يستطرد ويطل الحديث فى هذا المعنى فى أسلوب خطابه ، فيقول : " .. وقد التفت بمحمد صلى الله عليه وسلم فريق من الهمانيين الأنقياء ، كانوا له تلاميذ مخلصين فزكت بصحته نفوسهم وشفقت طباعهم حتى أشرق عليها من أنوار الالهام ما جعلها تنطق بالحكمة وفصل الخطاب .. (١)

ثم يستطرد فيقول : " .. ولا تحسن العقل الجهار - مهما أوتى من نفاذ - يستطيع ادراك الكمال بقوته الخاصة ، فإذا لم تعدده عناية عليا فإنه سيجوب كل أفق دون أن يصر غاية أو يهتدى طريقاً ، كالطيار الذى يضل فى الجو عندما يتكاثر أمام عينه الضباب ، أنه يحكم القيادة ، ويضبط الآلات ، ويوصل أنوار هدايته فى أحشاء النجوم المتراكة ، فإذا لم يطق إرشاداً يحدد له مكانه صمده ، وكيف يهبط ... فإنه سيظل يحلق عمثاً .. ثم تهوى به الريح نفسى مكان سحيق ..

وكم من فلاسفة عالجوا شؤون الكون والحياة : فمنهم من ضل عن الحق على طول بحثه عنه ، فلم يصل اليه قط . ومنهم من

استغرق فى الوصول اليه أعواما طويلا ، ولومش وراء الرسل لانتهى اليه
فى أيام قصار ، وهو فى مأمن من الشرود والعتار .. (١)

٢ - وتحت عنوان " أبو طالب " يتحدث الفزالى عن نصرة
أبى طالب للرسل .. ثم ينتقل ليحدد موازنة بين أبى طالب وأبى
لهب ، وكيف أن الأول نصره وآزره ، والثانى خذله وعاداه .. ثم
ينتقل بعد ذلك - مستطردا فى أسلوب خطابه انشائى - فيبين
أن أبا لهب وأمثاله لا يؤثرون فى مسيرة الدعوة ولا يوقفون تقدمها ..
يقول الفزالى : " .. لكن ما أبو لهب ؟ وما قريش ؟ وما الحبيب ؟
وما الدنيا كلها ؟ بازاء رجل يحمل الرسالة من الله الذى له ملك
السموات والأرض ، يريد أن يمهّد بها الرشد لعالم فقد رشد ، وأن
يمحو بها الأوهام فى حياة مرغتها الأوهام فى الرغام .

ما (ذا) تجدى وقفة جهول ؟ أو غصبة مفرور ؟ فى منح هذه
الرسالة الكبيرة من المضى الى ههنا الهيمد ..

ان الطحالب العائمة لا توقف السفن الماخرة ، ولئن نَمَّ الجاهليون
على المسلمين مروقهم من بين قومهم بهذه الدعوة - حتى ليسونهم
الصَّباة - ان المسلمين لأشد نقة عليهم أن سفهوا أنفسهم وحققوا
عقولهم وتشبثوا بخرافات ما أنزل الله بها من سلطان .. (٢)

(١) فقه الميرة ص ٢٠٠ و ٢٠١ .

(٢) فقه الميرة ص ١٠٤ .

الفصل الرابع

كتاب " فقه الميرة " في ميزان النقد

- ١ - قيمة الكتاب وأثره .
- ٢ - نقد أسلوب الكتاب (غلبة السمة الخطابية عليه) .

١ - قيمة الكتاب وأثره :

يعد كتاب " فقه السيرة " للفرزالي من الكتب التي أسهمت في شرح السيرة وتلخيصها والوقوف على أسرارها ودقائقها ، وتوجيه النظر إلى ما فيها من دروس وعبر ، والدعوة إلى العمل بها حتى تكون السيرة مثارة يهتدى بها كل من حاول أن يمشى في ضوئها .

وقد وفق الكاتب في عرض السيرة ودراستها على هذا النحو . . . فشرح وحلل وعلل . . . واستنطقت العبرة واستخرج العظة ، كمسبباً وازن وربط بين أحداث السيرة وما يشابهها من أحداث عصية وقصد سبق أن تناولنا ذلك بالشرح والتحليل . . .

وقد صاغ الكاتب السيرة النبوية - على هذا النحو الذي أشرنا إليه - في قالب يجمع بين الفلسفة والأدب ، أي : أنه قد جمع بين المباشرة الفلسفية العميقة التي تمتع العقل والمباشرة الأدبية الرشيفة التي تهز الوجدان حتى يستطيع أن يُدْخِلَ إلى عقل القارئ والسامع - بسهولة ، ما يريد أن يدخله إليه .

٢ - نقد أسلوب الكتاب . (غلبة السمة الخطابية عليه) :

وإذا كان هناك شيء يؤخذ عليه الكاتب فهو اسرافه في الاعتداد على الأسلوب الخطابي الانشائي الطغى بالنصائح والارشادات والوعظ والخطب . . . وهذا واضح في الكتاب كله .

والنقاد يمدون ذلك عيها في كتابة التاريخ ، والسيرة نوع من التاريخ بوصفها تاريخاً خاصاً بحياة الأفراد والأشخاص ، ومن هنا كان يجب أن تتأى عن هذه النغمة الخطابية ، ألا تكون ممرضاً

للخطب والمواعظ ..

يقول الأستاذ أحمد الشايب : " .. ليحذر المؤرخ أن يتخذ التاريخ مَحْضاً للخطب والمواعظ لأن التاريخ - كالترواية - ثوبٌ من المظنة منه بطريق غير مباشرة ، على أن ذلك يحد نقلاً للتاريخ من دائرة النشر العلمي الى مجال النشر الأدبي الخالص ، وذلك خلط واضطراب لا يلقى بالكاتب البليغ " (١)

١١ أننا نستطيع أن نجد للكاتب المذر في سلوكه هذه الطرق ، وهو أن الكاتب داعية اعتقل بالدعوة الى الله حقبة طويلة - وما زال يدعو - فقلبت طريقته في الدعوة بها فيها من وعظ وإرشاد على أسلوب كتابته ولا شك أن الكاتب يتأثر - في أسلوبه - بتكوينه الشخصي ، وطريقته في الحياة ، كما يتأثر بدراساته وثقافته ..

وحسب المؤلف أخيراً - بدراسته للسيرة على هذا النحو - أن جمل من السيرة النبوية مجالاً للدعوة ، وطريقاً للإرشاد ، وضرب من جواهرها ووقائمه ، وما تحمل من عظات وعبر ، الأمثلة على أن المجتمع الاسلامي الحديث يعيش حياته على نهج مخالف لما جاء في هذه السيرة من أفعال النبي وأقواله ..

وتعد السيرة - بهذه الطريقة - تذكيراً للمسلمين وحاً لهم على أن يعودوا الى هذا المورد العذب ، ليرتقوا منه ، وليعملوا به ، حتى يكون في اتباعهم له واقتدائهم به ، طريقهم للحمة ، والمجد لهم ، وللإسلام ..

الكلمة الأخيرة :

والى هنا يتوقف القلم عن الاسترسال بعدما تحقق ما هدفنا اليه من آمال ..

.. والى هنا تنتهى الدراسة الدقيقة التى اتجهت اليها ، وعكفت عليها خمس سنوات متتابعات ، حتى أتت على موضوعات المنهج العلمى الذى وضع لهذه الرسالة ، وحقت الآية التى توفرت للوصول عليها هذا الزمن الممتد الطويل .

والقارئ الكريم قد أحس — دون ما شك — بذلك الجهد الجاهد الذى بذلته عن رضا فى دراسة موضوع الرسالة ، والمعيش مع مراجعها ومصادرها رَدْحًا من الزمن حتى تهذلت أغصان ذلك البحث ، ودنت الثمرة من أيدي القاطنين .

ولقد اجتاز قارئى معى بعض الفناوز ، وسبح مسمى فى بعض البحار العميقة الأغوار ، ثم خرجنا سويا بكثير من الأصداف المخلفة على عديد من اللآلئ التى أخرجناها للناس مثلة فى هذا البحث الدارس الدانى الجنى ، الشهى القُطُوف .

واننى لأنتهد نفسى أن وفقنى الله الى اتمام هذه السلسلة المتشابهة ، ونظم تلك المقود المتناسكة ، مترجمة الى هذا البحث الذى لم يأل جهدا فى الوصول بالدراسة الى ما وصلت اليه .

وانى لأضع هذا النتاج المشرى بين يدي أساتذتى الجهابذة ؛ أعضاء لجنة الحكم الموقرة ، وأنا على ثقة تامة بأنهم قادروه ومنصفوه

ويعطوه حقه من الرعاية والمناية الى حد جد حميد .

وكلى رجاء في الله أن أكون قد وفقت فيما قمت به من عمل ،
تمتريج له النفس ، ويهدأ معه الحس ، ويدلف هنا الى مجالات
الهدأة والدعة والسكون .

" ربنا عليك توكلنا واليك أنهننا واليك المصير " .

الباحث

الخاتمة

محمد . . فان هذه الرسالة قد استطاعت أن تعطى صورة واضحة السمات ، بارزة القسما ، عن معالم الكتابة الأدبية في السيرة النبوية : اتجاهاتها ومواضعها وطرائقها وأساليبها ومناهجها في أدبنا المصري الحديث ، وذلك من خلال الكتب والمؤلفات التي خصتها بالدراسة وآثرتها بالتحليل ، ومن خلال الاشارات العابرة للكتب الأخرى ، كما استطاعت أن تعطى لمحات عابرة وموجزة عن ملامح الكتابة في السيرة النبوية ومناهجها قديما ، وذلك في البحث التمهيدى الذى تصدر الرسالة .

وبهنا فى هذه الخاتمة أن نلخص هذه الرسالة ، وأن نوجز ما توصلت اليه من نتائج وما انتهت اليه من آراء حول كتابة السيرة النبوية فى أدبنا الحديث .

أما عن النقطة الأولى ، وهى اعطاء القارئ مجعلا عن هذه الرسالة ، فنستطيع أن نقول : ان هذه الرسالة تقف فى خمسة أبواب ، تصدرها مقدمة ، وبحث تمهيدى ، وتتقوها خاتمة .

أما المقدمة : فتناولت موضوع الرسالة وأهميته وسر اختصاره ، كما تناولت ما اتخذ مجالا للدراسة والتحليل من كتب ومؤلفات ، موضحة سر اختيارها ، كما تناولت منهج الباحث وعمله وجهده فى هذه الرسالة .

وأما البحث التمهيدى : فقد تناول - فى ايجاز - كتابة السيرة النبوية قديما من حيث نشأتها ومواقع الكتابة فيها والمراحل التى مرت بها من لدن بداية التدوين فيها حتى القرن العاشر الهجرى ، متناولا الحديث عن مؤلفي السيرة القدامى ومناهجهم ، وما امتازت به هذه

المناهج من سمات وخصائص ، وبيان منزلة هذا المؤلف أو ذاك ، وما له من أثر وجهه في هذا المجال ، محاولا - في ايجاز - تقويم هذه المؤلفات ببيان منزلتها وأهميتها .

وأما الباب الأول : فيتناول كتاب " حياة محمد " بصفته مشـلا للأسلوب العلمي الحديث ويحتوى على خمسة فصول :

وقد تناول الفصل الأول : بواعث الكتابة في السيرة عند هيكل ، وقد كشف هذا الفصل عن هذه البواعث وألوانها ، وبين أن منها ما هو عام ، أي : بواعث تتنظم معظم الكتابات الحديثة في السيرة ، واليهما يرجع معظم مؤلفاتها ، وذلك كمثل الفلسفة المادية في اقتناع الناس بها واتجاههم الى الدين الاسلامي والتاريخ الاسلامي ، يليون حاجات نفوسهم منه . . ومنها الحركة التثنية ، والفرع من الشيوعية ، ومنها اليقظة العربية والليان بالمقيدة الاسلامية والرغبة في احياء التراث القديم الذي يمدى ذكرى المجد القديم .

ومن هذه البواعث ما هو مباشر أي : بواعث مباشرة لكتابة هيكل في السيرة ، كالحركة التثنية التي كانت تحتاج مصر في نهايتها المشهية وأوائل الثلاثينات . . ومنها ما هو خاص ، أي : بواعث خاصة بهيكل نفسه ، وذلك كرهته في كتابة السيرة بأسلوب علمي ، وبالتحول الفكري الذي طرأ على حياته .

وقد تناول الفصل الثاني : طريقة هيكل في هذا الكتاب كما كشف هذا الفصل عن هذه الطريقة وأبان عن سماتها وخصائصها ، واستطاع أن يرجع ميزات هذه الطريقة الى ثلاث سمات ، هي : ١ - التسهيل ، وما يعتمد عليه من شرح وتفسير ، ٢ - والتحقيق

وما يعتمد عليه من ايراد للنصوص وعرض للأدلة ومطالبة الموازنة بينهما
ثم الاستنباط ٣ - والتصوير ٤ وما يعتمد عليه من وصف وتخيل ٥

والسمتان الأوليان هما الفالهيان في طريقة هيكل ٤ أما السمة
الثالثة فتمح في ثنايا الكتاب في بعض الأحيان ٥

وقد تناول الفصل الثالث أسلوب هيكل في هذا الكتاب ٤ وفي
هذا الفصل تضمن الكلام حديثا عن الفرق بين السيرة والترجمة ٤ حتى
يعرف من أى النوعين أسلوب هيكل ٤ ثم تناول الفصل الكلام عن
خصائص أسلوب الكتاب وجمعه بين الأسلوب الملمى والأسلوب الأدبى ٤
وظلة الأول عليه ويان السر في ذلك ٤ مدلا على هذا الأسلوب
وخصائصه بشواهد وأثلة من الكتاب ٤ كما كشف هذا الفصل - من
خلال كشفه عن أسلوب الكتاب - عن أن " حياة محمد " سيرة تاريخية ٤
وليس تاريخا وليس ترجمة أدبية ٥

وقد تناول الفصل الرابع منهج هيكل في كتابه هذا ٤ وكشف
عن هذا المنهج وبين الأساس الذى يعتمد عليه ٤ وهو العقل ٤ وقصر
هيكل المعرفة العقلية على الوقائع المادية وحدها وعدم امتدادها الى
الجوانب الروحية والخيالية ومجالات العقيدة والايمان ٤ كما استطاع
هذا الفصل أن يطفى منهج هيكل هذا على الخوارق والممجازات وعلى المزاعم
والشبهات التى افتراها المستشرقون ٥

وقد تناول الفصل الخامس نقد كتاب " حياة محمد " وتولى
هذا النقد بيان قيمة هذا الكتاب وأثره ٤ كما تحدث عن منهج هيكل
العقلى وسر ركونه اليه ٤ كما عمد هذا الفصل الى مناقشة هيكل فى
تفسيره الخاطى ٤ لبعض الخوارق التى فسرها تفسيراً عقليا ٤ ودلـ

الى مناقشته أيضا في تحليله الخاطئ لبعض الأحداث والوقائع —
وتفسيرها التفسير الصحيح .

* * *

وأما الباب الثانى: فيتناول الحديث عن كتاب " على هامش
السيرة " بصفته مثلا للأسلوب القصصى . وهذا الباب يحتوى على ستة
فصول :

تحدث الفصل الأول منها: عن بواعث الكتابة فى السيرة عند طه
حسين ، وقد كشف هذا الفصل عن أنواعها ، وبين أنها ترجع الى
أنواع ثلاثة : باعث أدبى ، وباعث تعليمى ، وباعث اجتماعى .

وقد تناول الفصل الثانى: الموضوع والفكرة فى " على هامش
السيرة " وكشف عن موضوع الكتاب وبين أنه يدور حول تصوير ذلك
العصر الفذ فى تاريخ البشر : عصر الرسالة المحمدية ، بما كان يصطرع
قبله من عقائد ، وما يسود من ظلم ، وما يضطرب فيه الناس من بحث
عن الحق والتعاضد لنهى توالى بمشائره . . . وما سبق ميلاده وبهيمته من
بشائر وآيات ، وما تبع بهيمته من تغيير شمل الحياة كلها ، كما كشف
هذا الفصل عن فكرة الكتاب ، وبين أنها تدور حول أفكار ثلاثة ، هى :

١ - أن العالم آنذاك - أى قبل الرسالة المحمدية - كان
فى حاجة الى رسالة .

٢ - أن محمدا هو النبى المنتظر لحمل هذه الرسالة .

٣ - انتصار الاسلام وانتشاره .

وقد تناول الفصل الثالث: أسلوب كتاب " على هامش السيرة " وكشف هذا الفصل عن نوعية هذا الأسلوب وبين أنه أسلوب قصصى ، مدللا على ذلك بأثلة من الكتاب .

أما الفصل الرابع: فقد تناول الألوان القصصية في هذا الكتاب ، وقد كشف هذا الفصل عن ألوانها ، وبين أنها ترجع الى ألوان ثلاثة .

١ - القصة الشخصية : ٢٠ - القصة الحديثة - ٣ - القصة التي تصور الممى وتبرز الفكرة . وضرب على ذلك بأثلة من الكتاب ، محاولا تحليل قصة مختارة من كل نوع من هذه الأنواع مبرزاً ما فيها من سمات أدبية ومشيرا الى ما سواها فى ايجاز .

وأما الفصل الخامس : فقد تناول طريقة طه حسين فى " على هامش السيرة " وقد كشف هذا الفصل عن طبيعة هذه الطريقة ، وبين أن طريقة طه حسين فى " على هامش السيرة " هى طريقة الاستعراض التصويرى ، كما كشف عن ألوانها ، واستطاع أن يرجعها الى ألوان خمسة ، هى : ١ - تصوير الأشخاص - ٢ - تصوير الأحداث - ٣ - تصوير الممانى والخواطر - ٤ - تصوير الشخصيات الخيالية - ٥ - تصوير الهيئة والمكان الذى تقع فيه الحوادث .

وأما الفصل السادس: فتناول نقد الكتاب ، وقد كشف هذا الفصل عن قيمة الكتاب وأثره ، كما تناول بعض أفكار الكتاب بالنقد والتقويم ، كما كشف عن موقف النقاد من هذا الكتاب ورأيهم فيه .

* * *

وأما الباب الثالث : فقد تناول الحديث عن كتاب " محمد " للحكيم ، بصفته مثلاً للأسلوب المسرحى . ويحتوى هذا الباب على خمسة فصول :

أما الفصل الأول : فيتحدث عن الحكيم والأدب المسرحى ، ويكشف هذا الفصل عن ريادة الحكيم لهذا اللون من الأدب .

وأما الفصل الثانى : فيتحدث عن الحكيم ومسرحياته الدينية ، ويكشف هذا الفصل عن رغبة الحكيم فى استلهاهم الجوانب الدينية ، واتخاذها مادة للأدب وكشف ما فيها من جوانب روحية ، كما يكشف هذا الفصل عن الخط الفكرى الذى التزمه الحكيم فى مسرحياته الدينية ، وهو ان العالم مزيج من المادة والروح .

وأما الفصل الثالث : فقد تناول الفكرة والمنهج فى كتاب " محمد " أما الفكرة التى يدور حولها الكتاب ، فهى أن محمداً بشر رسول ، وأما المنهج فهو منهج أدبى ، وليس بالمنهج العلمى ولا بالمنهج التاريخى .

وأما الفصل الرابع : فيتحدث عن الجوانب التى تناولها الحكيم من السيرة ، وقد كشف الفصل عن هذه الجوانب وبين أنها جانبان : جانب النبوة ، وجانب البشرية ، وأن محمداً صلى الله عليه وسلم بشير رسول .

وفى جانب النبوة تناول هذا الفصل : الوحي ، والتليغ والمعجزات والخوارق ، وفى جانب البشرية تناول بعض الصفات البشرية وأحوالها .

وأما الفصل الخامس : فقد تناول نقد الكتاب ، وبيننا قيمة الكتاب وأثره ، والشكل الذى كتب به ، والحوار فيه ، ورأى النقاد حوله .

وأما الباب الرابع : فقد تناول كتاب " عبقرية محمد " بصفته مثلاً للأسلوب الفلسفى النفسى . وهذا الباب يحتوى على ستة فصول :

أما الفصل الأول : فقد تناول البواعث والدوافع التى كانت وراء " عبقرية محمد " وقد كشف هذا الفصل عن هذه البواعث ، وأرجعها إلى

نوعين : عامة ، وهى التى ترجع الى شيوع الفلسفة المادية والفرع من الشيوعية ، والحركات التبشيرية ، ومحاولة اللباز بالمعقيدة الاسلامية ، والرفعة فى احياء التراث الاسلامى القديم . . وخاصة وهى التى ترجع الى العقاد نفسه ، وقد استطاع هذا الفصل أن يبرمجها الى أنسواع ثلاثة : ١ - الفيرة والانصاف - ٢ - النشأة - ٣ - التحول الفكرى .

وأما الفصل الثانى : فيتناول الفكرة والموضوع فى كتاب " عبقرية محمد " أما الفكرة ، فهى أن محمداً عظيم بجميع مقاييس المظلمة التى يؤمن بها الناس جميعا ، وأما الموضوع فيدور حول آيات المظلمة ودلائل العبقرية فى شخصية محمد صلى الله عليه وسلم ، وقد كشف هذا الفصل عن جوانب العبقرية المحمدية ، وأناطها المتعددة .

وأما الفصل الثالث : فيتناول طريقة العقاد فى " عبقرية محمد " وقد كشف هذا الفصل عن سمات هذه الطريقة وخصائصها ، وبين أن هذه الطريقة تنتم بسمات هى :

١ - التبع والاستقصاء . - ٢ - التفرج والتفصيل . - ٣ - تقصى البواعث والأسباب . - ٤ - إيراد الشواهد والأدلة .

وأما الفصل الرابع : فقد تناول أسلوب العقاد فى هذا الكتاب وخصائصه ، وقد كشف هذا الفصل عن سمات هذا الأسلوب ، وبين أنه أسلوب طلى ، كما أنه أسلوب منطقى تغلب عليه التماييز المنطقية ، كما أنه أسلوب يتسم بقوة الاقتناع والحجة .

وأما الفصل الخامس : فقد تناول منهج العقاد فى هذا الكتاب وخصائصه ، وبين أن منهج العقاد فى هذا الكتاب منهج تطهلى نفسى .

وأما الفصل السادس فقد تناول نقد كتاب "عقريه محمد" وقد كشف هذا الفصل عن قيمة الكتاب وأثره هيجان مكانه من الدراسات الأدبية ، كما تناول طريقة العقاد ، وبين خطأ اعتماد العقاد فيها على الصفات البارزة ، والحوادث المنتقاة ، كما تناول أسلوب العقاد ، وبين أنه كان من الأفضل للعقاد — وهو يكتب التراجم الشخصية — أن يستعمل الأسلوب الأدبي ، وأن ينأى عن الأسلوب العلمى المنطوق ، كما تناول هذا الفصل منهج العقاد ، وبين خطأه فى تطبيق المنهج النفسى بمفاهيمه ومقاييسه على شخصية الرسول الكريم .

وأما الباب الخامس : فقد تناول كتاب " فقه السيرة " للفرزلى بصفته مثلاً للأسلوب الفلسفى التاريخى . وهذا الباب يحتوى على أربعة فصول :

أما الفصل الأول : فقد تناول بواعث الكتابة فى السيرة عند الفرزلى ، وقد كشف هذا الفصل عنها ، وبين أنها تنلخص فى رغبته فى الكشف عما فى السيرة النبوية من عظات وحكم ودروس وغيره ، حتى يتأسى بها المسلمون ، ويقتدوا بها أصحابها عليه الصلوة والسلام .

وأما الفصل الثانى : فقد تناول طريقة الفرزلى فى كتابه " فقه السيرة " وقد كشف هذا الفصل عن سمات هذه الطريقة وخصائصها ، وبين أن هذه الطريقة تتم بسمات هى : ١ — الوحدة الموضوعية — ٢ — الربط بين الأحداث والوقائع — ٣ — تحليل الأحداث وتلخيصها — ٤ — تحقيق الأحداث وتمييزها — ٥ — إبراز الحكم واستنباط المسبر — ٦ — الربط بين أحداث السيرة وبين ما يشاهدها من أحداث عصرية — ٧ — التعليق على الأحداث — ٨ — إيراد النصوص والآثار .

وأما الفصل الثالث : فقد تناول أسلوب الغزالي في هذا الكتاب وخصائصه ، وقد كشف هذا الفصل -أولا - عن مكان هذا الكتاب ، وهل يعد كتاب تاريخ أم كتاب أدب ، ثم تناول أسلوب هذا الكتاب وخصائصه ، وبين أنه يتسم بسمات ، هي : ١ - السمة الفلسفية - ٢ - السمة الأدبية - ٣ - السمة الخطابية .

وأما الفصل الرابع : فقد تناول نقد هذا الكتاب ، فبين قيمته وأثره ، كما نقد أسلوبه ، وبين أنه كان من الأفضل للغزالي أن ينأى بأسلوبه عن النغمة الخطابية التي يجب أن تنتزه عنها الدراسات التاريخية .

* * *

وأما عن النقطة ~~التي~~ ، وهي إيجاز ما توصلت إليه هذه الرسالة من نتائج ~~والتي~~ من آراءه ، فنستطيع أن نقول :

١ - أن الكتابة الأدبية في السيرة النبوية في أدبنا الحديث لم تكن مصروفة قبل كتابات هيكل وطه حسين والحكيم والمشهدي والزيات والمقاد ، ومن هذا حظهم ممن جاء بعدهم . بل كانت الكتابة في السيرة النبوية قبلهم ذات طابع تاريخي بحت ، يصدق هذا - على سبيل المثال - على كتاب " نهاية الإيجاز في سيرة ساكن الحجاز " لرفاعة الطهطاوي ، وعلى كتاب " نور المهقين في سيرة سيد المرسلين " لمحمد الخضري . وكانت هذه الكتابات - بطبيعة الحال - امتدادا للكتابات السابقة القديمة من حيث العناية بمررد الوقائع والأحداث مسجودا تاريخيا بغية الوصول الى الحقائق التاريخية ، ولم يكن فيها - والحال كذلك - أي حظ للجمال الفني أو الامتاع النفسي اللذين يلتصبان في الكتابات الأدبية .

٢ - وتبعا لما تقدم نستطيع أن نقول : ان هيكله هو أول من فتح باب الكتابة فى السيرة النبوية بأسلوب أدبى ، أو بمباراة أدق ، بأسلوب يجمع بين الأدب والتاريخ ، وهذا يعنى أن كتابة السيرة النبوية نفسى المصر الحديث حتى الثلاثينيات كانت ذات طابع تاريخى ، لم تحمل بعد ملامح الكتابة الأدبية .

٣ - ظلت محاولة هيكل فى كتابته السيرة النبوية بشكل جديد وأسلوب جديد أيضا محاولات أخرى تجمع بين الأدب والتاريخ ، وكونست ما يسمى بأدب السيرة النبوية ، ولقد استطاع البحث - من خلال الكتب التى اختارها للدراسة - أن يكشف عن بواعث الكتابة لهذه المؤلفات ودوافعها ، وأن يكشف عن طرائقها وأساليبها ومناهجها وموضوعاتها كما استطاع أن يكشف عن أنواع تلك البواعث ، وعن خصائص هذه الطرائق ، وعن سمات تلك الأساليب ، وعن أسس هذه المناهج ، وعن أنواع تلك الموضوعات ، وأن يحدد هذا كله فى إطار بارز ، واضح المعالم ، يبين القسامات :

أ - فمن حيث البواعث والدوافع التى دفعت بالكثير من الكتاب الى كتابة السيرة النبوية ، استطاع البحث أن يكشف عن الكثير من هذه البواعث وتلك الدوافع ، وأن ينتهى الى أن وراء هذه المكرة الكثيرة من الكتب والمؤلفات التى تناولت السيرة النبوية فى أدبنا الحديث مجموعة من البواعث والدوافع التى حركت الأدباء والكتاب ، وأن هذه البواعث وتلك الدوافع قد تنوعت ، فمنها ما هو عام ، أى بواعث تنظم معظم الكتابات التى تناولت السيرة النبوية ، وكانت دائما لكثير من الأدباء والكتاب ، واستطاع البحث أن يكشف عن أصول هذه البواعث ومصادرها وانتهى الى أن هذه البواعث العامة ترجع: إما الى الرغبة فى احيا التراث

الاسلامى القديم ، وكشف صفحاته المشرقة ، وما فيها من دروس نافعة وعسير بالغة ومواقف بارزة ، وأحداث فذة . . . أو ترجع الى مواجهة الحملات التبشيرية التى اتسح نشاطها فى نهاية العشرينيات وأوائل الثلاثينيات ، أو ترجع الى الفزع من الشيوعية والاعتصام منها بالعقيدة الاسلامية ، والليمان بها من المذاهب المادية ، أو يرجع الى المناسبات الخاصة كذكرى الهجرة وذكرى المولد . ومنها ما هو خاص ، أى بواعث تحصل بالكاتب نفسه خاصة ، واستطاع البحث أن يكشف عن أصول هذه البواعث ومصادرها ، وانتهى البحث الى أن هذا البواعث الخاصة قد ترجع اما الى نشأة الكاتب ، أو الى ثقافته ، أو ترجع الى مذهبه الفكرى ، أو الى مجتمعه الذى يعمش فيه ، أو الى حياته وما قد بطراً عليها من تحول وتغيير .

ب - ومن حيث طرائق الكتابة ، استطاع البحث أن يكشف عن هذه الطرائق ، ويبين خصائصها ومساتها ، وانتهى البحث الى أن طرائق الكتابة التى تنوالت من خلالها السيرة النبوية ، قد تنوعت ونهانت :

فهناك الطريقة العلمية الحديثة : التى تعتمد على الشرح والتحليل والتعليل وإيراد النصوص والأدلة والموازنة والمناقشة .

وهناك الطريقة القصصية : التى تحاول صياغة أحداث السيرة النبوية ووقائعها وشخصها فى قالب قصصى بما يحويه من سرد وصف وتصوير ، يعيد أحداث الماضى وكأنها أحداث اليوم ، ويصور الأشخاص وكأنها شائعة تتحدث وتتحرّك .

وهناك الطريقة ذات الشكل المسرحى : التى تحاول إبراز السيرة النبوية وأحداثها ووقائعها فى قالب مسرحى ، له ما للمسرحية من شكل ومحتوى من فصول ومناظر ومشاهد وحوار ، مما يحيل أحداث السيرة النبوية ووقائعها الى صورة حية نابضة تمر على خاطر القارئ وتغلبه ،

وكانها أحداث مسرحية يشاهدها أو يقرؤها ، وهذا ينفى على السيرة النبوية جدة وطرافة ، وينفى على نفس القارئ أو السامع متعة مهججة تحبهان اليهما قراءة السيرة وسماعها .

وهناك الطريقة الفلسفية: التي تحاول فلسفة السيرة النبوية بأحداثها ووقائعها والوقوف على أسرارها ودقائقها ، وهذه الفلسفة قد تكون فلسفة لأحداث السيرة ووقائعها ، أى فلسفة للتاريخ نفسه ، وسبب أغواره والوصول الى أسرار هذا التاريخ المطر ودقائقه وحكمه ، والانتباه من ذلك الى دروس وعظات يستفيد منها المسلم فى حاضره وغضده ، وقد تكون هذه الفلسفة فلسفة للجوانب الشخصية والصفات النفسية فى شخصية الرسول الكريم وسحاولة الوقوف على بواطنها الحقيقية وكوامنها الخفية ، والتصرف على الأسباب الحقيقية لكثير من أعمال الرسول الكريم وعصراته ، والكشف عما يتخفى به الرسول صلى الله عليه وسلم من خلق نادر وأدب عال وشيم حميدة ، وخلال جميلة .

وهناك طريق المقالة: التي تحاول أن تبرز جانباً من جوانب السيرة المتعددة ، أو توضح زاوية من زواياها المختلفة ، أو تمكس الضوء على حدث من أحداثها . . . وكان للمقالة نصيب كبير فى تناول الكثير من جوانب السيرة وزواياها وأحداثها بالتحليل والتفسير .

كذلك استطاع البحث أن يكشف عن السمات الخاصة لهذه الطرائق وأن يدلل عليها بالشواهد الكثيرة والأمثلة المتعددة .

فالطريقة العلمية تتسم بسمات أبرزها : ١ - التحليل - ٢ - التعليل - ٣ - إيراد النصوص والأدلة - ٤ - المناقشة - ٥ - الاستنباط .

والطريقة القصصية تقوم على أسس أهمها : ١ - السرد
٢ - الوصف ٠ ٣ - التصوير ٠

والطريقة المسرحية تعتمد على الفصول والمناظر والمشاهد ، وهذا
من الناحية الشكلية ، أما من الناحية اللغوية فتعتمد على الحوار ٠

والطريقة الفلسفية تتم بسمات أشهرها : ١ - التبحر والاستقصاء
٢ - الشرح والتفسير ٠ ٣ - البحث عن البواعث والأسباب ٠٠

ح - ومن حيث أساليب الكتابة : استطاع البحث أن يكشف عن
هذه الأساليب ، ويبين عن خصائصها وسماتها ، وانتهى البحث إلى
أن الأساليب التي صيغت من خلالها السيرة النبوية في أدبنا الحديث ،
قد تنوعت وظنوت تهما لتنوع وظنون طرائق الكتابة التي أشرنا إليها آنفا ٠

فهناك الأسلوب العلمي : الذي يناسب الطريقة العلمية بما يعتمد
عليه من دقة وتحديد واستقصاء وسهولة العبارة ووضوحها ٠

وهناك الأسلوب الأدبي : الذي يناسب الطريقة القصصية والطريقة
المسرحية ، بما يعتمد عليه من سرد ووصف وتصوير بالنسبة للأسلوب
القصصي ، وما يعتمد عليه من كلمات معبرة وألفاظ موحية ، وعبارات موجزة
مركزة من خلال الحوار المسرحي بالنسبة للأسلوب المسرحي ٠

وهناك الأسلوب التحليلي التفسيري : الذي يناسب الطريقة الفلسفية
بما يعتمد عليه من شرح وتفصيل وتبويب واستقصاء ومنطقية العبارة ودقتها
وهكذا ٠

د - ومن حيث مناهج الكتابة : استطاع البحث أن يكشف عن
هذه المناهج ، وانتهى إلى أن هذه المناهج التي عولجت من خلالها

السيرة النبوية قد اختلفت وتباينت تهما لاختلاف وتباين الكتاب فكريا
وثقافيا ومذهبيا ، فلكل كاتب منهجه الفكري الخاص الذى يلتزم به .

فهناك المنهج العلمى العقلى : الذى يعتمد على العقل وحده
فى تحليل أحداث السيرة النبوية ووقائعها ، ويحاول أن يخضعها للمقاييس
العقلية ولمدركات العقل المحسوسة .

وهناك المنهج العلمى المادى الذى يعتمد على الأدلة المادية
المحسوسة فى تحليل بعض جوانب السيرة النبوية خاصة تلك الجوانب
المقدنية والروحية والفنية ، بقصد التدليل على امكان هذه الجوانب
ووقوعها من واقع الأدلة العلمية المادية ، التى يؤمن بها ماديو المصير
الحديث .

وهناك المنهج الأدبى : الذى يعنيه أن يصوغ أحداث السيرة
النبوية من خلال أسلوب أدبى جميل وعجالة شائقة ، ولفظة معبرة موحية ،
موجهة الى النفس ، بقصد جذب القارئ أو السامع الى التراث الاسلامى
القديم والسيرة النبوية العظيمة ، واسطهبام ما فيها من عبر وعظات
ودروس نافعات ، ولا يعنيه أن يصوغ السيرة من خلال رؤية علمية تاريخية
تتيح الحدث التاريخى بالدراسة والتحليل والتحقيق ، كما يفعل المؤرخون
والعلماء ، بل يختار من الأحداث والوقائع ما يشد الانتباه ، ويستوعق
الفكر دون التزام بترتيب لها أو تسعيق بينها ، ومطولة صياغتها - كما
قلنا - فى عبارة أدبية جميلة .

وهناك المنهج الفلسفى : الذى يعتمد على فلسفة السيرة النبوية
بأحداثها ووقائعها بقصد اظهار ما فيها من عبر وعظات ، أو يعتمد
على تحليل الجوانب النفسية والصفات الانسانية فى الرسول الكريم ، وارجاعها

الى منابعها الأصلية فى أغوار هذه النفس الظاهرة .

د- ومن حيث الموضوعات التى تناولتها كتب السيرة النبوية استطاع البحث أن يكشف عنها ويحدد جوانبها ، وقد انتهى البحث الى أن موضوعات الكتابة فى السيرة قد تنوعت وتمددت بحسب اتجاه الكاتب وإشاره بعض الجوانب على بعض .

فهناك من الكتاب من تناول السيرة النبوية من أولها الى آخرها ، وهى طريقة معظم الكتاب .

ومنهم من تناول موضوعات معينة خصها بالدراسة وأشرها بالمعناية .

وهذه الموضوعات المعينة قد تنوعت أيضا : ١ - فمن المؤلفات ما تناول الحديث عن عقيدة الرسول صلى الله عليه وسلم ٢ - ومنها ما تناول صفات الرسول صلى الله عليه وسلم ٣ - ومنها ما تناول طفولته وصباه ٤ - ومنها ما تناول الجوانب الانسانية فى شخصية الرسول صلى الله عليه وسلم ٥ - ومنها ما دار حول قيادة الرسول العسكرية وعقيدته الحربية ٦ - ومنها ما دار حول نبوته ورسالاته ومحاولة التدليل على صدق دعواه النبوة والرسالة ٧ - ومنها ما تناول جانب النبوة والبشرية معا فى شخصية الرسول الكريم ، وهكذا .

٤ - انتهى البحث الى أنه كان لثقافة الكتاب وتأثرهم بالنظريات الحديثة ، كما كان لمناهجهم وأفكارهم التى يؤمنون بها - كان لهذا كله أثره البين فى دراستهم السيرة النبوية وتحليلهم لها ، وظاهر هذا واضحا فى كتاباتهم .

فمثلا كان لايمان هيكل بمثابة البحث العلمي الحديثة واعتادها على العقل وحده أثره الواضح في تفسير هيكل لأحداث السيرة وتحليله لها . . كما كان لتأثره بآراء " جان جاك روسو " في آرائه الحديثة في علم الاجتماع ، وتأثره بنظرية " الرجل الطبيعي " أثره الواضح في تفسير هيكل لتهيهو محمد واستعداده لتلقى النبوة والرسالة ، وذلك حين يصور رحلته الى الشام ، واشتغاله برعى الغنم ، واتصاله - خلال ذلك - بالطبيعة ، كما سبق أن أوضحنا .

وكان لايمان طه حسين يهبط الأفكار التي يدور بها ، مثل : وحدة الثقافة أو الحضارة ، مثل : سبق الحضارة اليونانية والرومانية للحضارة العربية - كان لايمانه بهذه الأفكار أثره الواضح في كتابه " على هامش السيرة " كما سبق أن أشرنا .

وكان لايمان الحكم بأن العالم مزيج من المادة والروح أنثوره الواضح في كتابه " محمد " حين حاول أن يزاوج فيه بين جانبيين : محمد البشر ، ومحمد الرسول ، فقدم صورا ومشاهد متنوعة لكل من الجانبين .

وكان لايمان المقاد بالنظريات العلمية الحديثة في تحليل النفس البشرية ، وارجاع بعض هذه النظريات سر نهوض النابغة ، وعقريته المبقرى الى الشخص نفسه ، لا الى الالهية أو الوراثة أو الثقافة ، أو غير ذلك - مما يطلق عليها " المبقرية الفردية " أو " البطولية الفردية " - كان لايمان المقاد هذا أثره في تحليل المبقرية المحددية وفلسفتها ، وانتهائوه من هذا الى أن ما يتمتع به الرسول من ملكات نفسية وقدرات شخصية ، راجع الى شخص الرسول نفسه ، وإلى ما يتشبع به من تغرد ونهوض وعقريه ، لا الى النبوة أو الرسالة .

وكان لايمان الفزالى بأن الهدف من دراسة السيرة النبوية يجب أن يكون توجيه نظر المسلم الى ما فى السيرة النبوية من دروس وعبر وعظات وحكم ، والى ما تنطى به السيرة من آداب الاسلام وتشريعاته وأخلاقه ، التى كانت آداب الرسول وتشريعاته وأخلاقه تعبيراً عنها - كان لايمان الفزالى بهذا الهدف أثره الواضح فى نحوه هذا المنحى فى دراسته للسيرة النبوية .

٥ - انتهى البحث الى أنه من الخطأ البين اخضاع وقائع السيرة النبوية وأحداثها - عند دراستها وتحليلها - الى مناهج البحث الحديثة التى تعتمد على العقل وحده ، أو على الأدلة العادية مثلما فعل هيكىل ، على أساس أن هناك كثيراً من الجوانب التى تنطى بها السيرة النبوية ما لا يمكن أن تخضع لمثل هذه المناهج كالجوانب الروحية والنفسية التى يجب التسليم بها مادام قد تواتر خبرها ، فضلاً عن ورودها فى القرآن أو السنة .

كما أنه من الجهل تحليل شخصية الرسول وجوانبها النفسية على ضوء نظريات علم النفس الحديثة التى ينتهجها بعض علماء النفس ، حينما يحاولون تحليل شخصية من الشخصيات الفذة ، أو عمق من العباقرة أو بطل من الأبطال ، مثل : نظرية " البطولة الفردية " أو " العبقرية الفردية " التى اعتمد عليها العقاد فى تحليله لجوانب العبقرية المحمدية ، أو محاولة تحليل بعض جوانب من حياة الرسول التى عاشها ، كمسألة اشتغاله برعى الغنم ورحلته الى الشام - على ضوء بعض نظريات علم الاجتماع الحديثة ، مثل نظرية " الرجل الطبيعي " كما فعل هيكىل ، وقد أشرنا الى ذلك فى موضعه .

وذلك على أساس أن شخصية الرسول ليست شخصية عادية — ينطبق عليها ما ينطبق على الشخصيات الأخرى ، وأنه ان جاز تطبيق هذه النظريات على هذه الشخصيات الأخرى ، فانه لا يجوز تطبيقها على شخصية الرسول الكريم .

٦ — يوصى البحث بأنه يجب أن تنزه السيرة النبوية خاصة والتاريخ الاسلامى عامة عن الأخبار المقتربة والأحاديث المبتدعة ، والشخصيات المقتربة ، وأنه لا يصح للكاتب الذى يعمد لدراسة السيرة النبوية أن يبيع لنفسه حرية اختراع الأخبار ، وابتداع الأحاديث ، واقتراح الشخصيات ، على أساس أن السيرة النبوية — بما تضم من أفعال الرسول وأقواله ، وتشريعاته وآدابه وسلوكه — تعد تعبيراً عن العقيدة الاسلامية ، وترجمة لجادتها وتشريعاتها ، وفق — أى السيرة — تعد — لذلك — جزءاً من العقيدة الاسلامية التى بها تؤمن ، ولها ندين ، ومن هنا لا يصح لكاتب — أى كاتب — أن يضيف اليها ما ليس منها ، حتى لا يلتبس على الناس أمر دينهم ، وذلك كما فعل طه حسين ، حين أباح لنفسه حرية وسعة فى اختلاق بعض الشخصيات ومعض الأحاديث ، كما سبق أن أوضحنا .

حمد .. فأننى أشكر لله آلاءه ، وأقدر نعمته ، حين وفقنى الى تلك الدراسات الدقيقة ، ثم ابرازها فى ثوب الحقيقة بالنسبة للسيرة النبوية الطاهرة التى تعد سجلا حافلا بأطهر الأخبار ، وأزكى الكلمات ، وأشرف المهارات ، الى سمو الأفعال ، وطو المثال من تصرفات سيدنا رسول الله محمد صلوات الله وسلامه عليه .

ولن أنسى ما حبيت هذا الجهد الجاهد الذى بذله عن رضا وسخاء أستاذى ووالدى الدكتور عبدالسلام سرحان .. فى تكوين هذه الرسالة وتلوينها ، ونقايتها من جميع الهنوات والمناقص التى تتسم بها الكتابات فى المصور الحديثة .

ولقد كان متأثرا أيضا تأثر بموضوع الرسالة وصلتها بالنبي الأكرم سيد المرسلين وخاتم النبيين ، ومن هنا عنى بها العناية الكبرى ، وأولها الرعاية المثلى ، وأولها حقها من التهذيب والتشذيب مثنى وثلاث ورباع .. حتى خرجت - كما يعتقد - صورة متكاملة بالكمال ، مزودة بسمات الجمال ، مزودة بطايع الدرس والتحقيق ، مزينة بشمار الفوص وراة الحقائق بكل سهيل .

وقد ارتضى من الباحث جهده المكثف فى القراءة والاطلاع ، وشخصيته البارزة فى الدراسة والعرض والتحليل ... الى سعة الباع ، ورخابة الصدر فى العيش مع كل رأى ، والتعوج مع كل مذهب ، والسير الى الحق وحده فى ميدان البحث الفسيح .

ولن أنسى ما حبيت توجيهاته الرشيدة ، ولا نصائحه السديدة ، ولا مشاركته الجادة فى كل حرف وكل كلمة تكونت منها عبارات هذه الرسالة .. المتعددة الأبواب والفصول .

ولا يغوتنى أن أذكر بالشكر والتقدير الأستاذين الكريمين : عضوى
لجنة الحكم الموقرة على ما بذلا من جهد ، وما لقيتا من عنت فى قسرة
هذه الرسالة ، ووزنها بميزان التقدير الصحيح .

جزى الله الجميع عنى خير الجزاء وأوفاه .

وما يهمنى الالمام اليه أن اعترف اعترافا تاما كاملا بأننى قد
نلت من نفعات الرسول الكريم وبركاته الشئ الكثير ، فقد تأذن المولى
تبارك وتعالى بأن يكون تأليفها فى الرحاب الطاهرة حول الروضة الشريفة
بطيبة الفرا . . . حيث كنت مبعوثا بها لمدة أربع سنوات متوالت
نلت فيها من بركات الرسول الكريم وفيوضات المدينة المنورة الشئ الكثير
الكثير . .

فإذا كنت قد وفقت - بفضل الله - فذلك ما أبهى ، وذاك ما
اشتهى ، وإن كانت الأخرى ، فما أنا الا طير صغير لم يصل بعد الى
طاقة النسر الكبير ، ويكون عذرى أننى لازلت أجو فى أول الطريق .

وما توفيقى الا بالله عليه توكلت والله أنيب .

الباحث

:: المصادر والمراجع ::

- ١ - (أ) القرآن الكريم .
- (ب) كتب الأحاديث والآثار :
- ٢ - أسد الغابة في معرفة الصحابة : لابن الأثير (أبو الحسن : علي بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد) طبعة : دار الشعب .
- ٣ - الشفا بتمريف حقوق المصطفى : للقاضي عياض (أبو الفضل : عياض ابن موسى بن عياض بن عمرو) نشر مصطفى أفندي نهدي الكتيبي بصر ١٣١٨ هـ : المطبعة الشرفية .
- ٤ - صحيح مسلم للإمام مسلم (مسلم بن الحجاج القشيري) تحقيق : محمد قواد عبد الباقي . طبعة : عيسى البابي الحلبي . . . الطبعة الأولى ١٣٧٥ هـ / ١٩٥٥ م .
- ٥ - كشف الخفا ومزيل الالهام عما اشتهر من الأحاديث على السنة الناس : للشيخ اسماعيل بن محمد المجلوني الجواحي . نشر مكتبة القدس : بالأزهر - القاهرة ١٣٥٢ هـ .
- ٦ - كثر العمال في سنن الأتوال والأعمال : للشيخ علا الدين علي المتقي بن حسام الدين الهندي . طبعة : دائرة المعارف النظامية بحيدر آباد - الهند ١٣١٣ هـ .

- ٧ - المجموع : شين المذهب للشيرازي : للامام أبي زكريا محيي الدين
ابن شرف النووي • تحقيق : محمد نجيب المطيحي
نشر : مكتبة الارشاد • جدة • المملكة العربية
السعودية •

(ح) كتب السيرة النبوية : محور الدراسة ومجال التطويل :

- ٨ - حياة محمد : للدكتور : محمد حسين هيكل • مطبعة مصر • الطبعة
الأولى ١٣٥٤هـ •

- ٩ - عمقيرة محمد : للاستاذ : عباس محمود العقاد • نشر : دار الكتاب
المصري • بيروت • الطبعة الثانية ١٩٦٩م •

- ١٠ - على هامش السيرة : للدكتور : طه حسين • نشر : دار المعارف •
مصر • الجزء الأول : الطبعة الثامنة عشرة •
والجزء الثالث : الطبعة الثانية عشرة • والجزء
الثاني بدون تحديد وتاريخ •

- ١١ - فقه السيرة : للاستاذ : محمد الفزالي • الطبعة الخامسة ١٩٦٥م •

- ١٢ - محمد : للاستاذ : توفيق الحكيم • نشر : مكتبة الآداب •

(د) كتب في السيرة النبوية : رجع إليها الباحث :

- ١٣ - انسانيات محمد : للاستاذ : خالد محمد خالد • نشر : دار المعارف •
مصر • الطبعة الخامسة ١٩٧٥م •

- ١٤ - تهذيب السيرة : تحقيق الاستاذ : عبدالسلام هارون • نشر :
المكتبة الأموية • دمشق ١٩٧٢م •

- ١٥- جهاد النبی : للاستاذ : محمد محمود زيتون • لجنة النشر
للجامعيين • مكتبة مصر • دار مصر للطباعة •
- ١٦- جوامع السيرة : لابن حزم (أبو محمد : علي بن أحمد بن سعيد)
تحقيق الاستاذين : احسان عباس ، وناصر
الدين الأسد. نشر: دار المعارف • مصر •
- ١٧- دلائل النبوة : للبيهقي (أبو بكر : أحمد بن الحسين بن علي)
تحقيق الدكتور : عبدالرحمن عثمان • نشر: للمكتبة
السلفية • المدينة المنورة • الطبعة الأولى
١٣٨٩ هـ / ١٩٦٩ م •
- ١٨- الرسول القائد : للواء الركن : محمود شيت خطاب • نشر :
الحركة الاسلامية للطباعة والنشر بغداد • الطبعة الاولى
١٣٧٧ هـ / ١٩٥٨ م •
- ١٩- الرض الأنف : للسبيلي (عبدالرحمن بن عبدالله بن أحمد) تحقيق
الاستاذ : عبدالرحمن الوكيل • نشر: دار الكتب
الحديثة. القاهرة • الطبعة الأولى ١٣٨٧ هـ /
١٩٦٧ م •
- ٢٠- سيرة ابن هشام : لابن هشام (أبو محمد : عبدالملك بن هشام بن
أبيوب) تحقيق الاستاذ : محمد محيى
الدين عبدالحميد • طبعة الطبى •
- ٢١- " " " : لابن هشام (أبو محمد : عبدالملك بن هشام بن
أبيوب) تحقيق الاستاذ : محمد محيى
الدين عبدالحميد • طبعة المدني ١٣٨٣ هـ / ١٩٦٣ م •
- ٢٢- سيرة ابن هشام : لابن هشام (أبو محمد : عبدالملك بن هشام بن
أبيوب) تحقيق الاستاذ : محمد محيى الديـ
عبدالحميد. طبعة دار الفكر • بيروت •

- ٢٣- سيرة ابن هشام : لابن هشام (أبو محمد : عبد الملك بن هشام
ابن أيوب) تحقيق الأستاذة : مصطفى السقا
وزملائه . طبعة : مصطفى الهادي الطبعة ١٣٥٥هـ
١٩٣٦م .
- ٢٤- سيرة ابن هشام لابن هشام (أبو محمد عبد الملك بن هشام
أيوب) تحقيق الأستاذة : مصطفى السقا
وزملائه . طبعة : مصطفى الهادي الطبعة الثانية
١٣٧٥ / ١٩٥٥م .
- ٢٥- سيرة الرسول : صور مقتبسة من القرآن الكريم وتطبيقات ودراسات
قرآنية : للأستاذ : محمد عزة دروزة . طبعة
الطبعة الثانية ١٩٦٥م .
- ٢٦- السيرة النبوية : لابن كثير (أبو الفداء : اسماعيل بن عمر بن
كثير) تحقيق الأستاذ : مصطفى عبد الواحد .
طبعة الطبعة الأولى .
- ٢٧- شائل الرسول ودلائل نبوته وفضائله وخصائصه : لابن كثير (اسماعيل
ابن عمر بن كثير) تحقيق الأستاذ : مصطفى
عبد الواحد : طبعة الطبعة الأولى
١٣٨٦هـ / ١٩٦٧م .
- ٢٨- صور اسلامية : للأستاذ : عبد الحميد المشهدي . طبعة النجدة
القاهرة .
- ٢٩- صور من حياة الرسول : للأستاذ : أمين دويدار . نشر : دار
المعارف . مصر ١٩٦٨م .
- ٣٠- عظمة النبي : للأستاذ : محمد عطية الابراشي . نشر : دار القلم
١٩٦٥م .

- ٣١- فاطمة الزهراء والفاطميون : للاستاذ : عباس محمود العقاد . نشر :
دار الهلال .
- ٣٢- فقه السيرة : للاستاذ : محمد سعيد رمضان البوطي . نشر :
دار الفكر . بيروت . الطبعة الخامسة ١٣٩٣هـ /
١٩٧٢م .
- ٣٣- محمد : محاولة لفهم السيرة النبوية : للاستاذ : مصطفى محمود .
نشر : دار المعارف . مصر - الطبعة الأولى
١٩٧٥م .
- ٣٤- محمد رسول الله والذين معه : للاستاذ : عبد الحميد جودة السحار
نشر : مكتبة نهضة مصر .
- ٣٥- محمد رسول الحرية : للاستاذ : عبدالرحمن الشرقاوي . نشر :
عالم الكتب . القاهرة . ١٩٦٦ .
- ٣٦- محمد رسولا نبيا : للاستاذ : عبد الرزاق نوفل . نشر : مؤسسة
المطبوعات الحديثة . الطبعة الأولى ١٩٦١م .
- ٣٧- محمد : الرسالة والرسول : للاستاذ : نظمي لوقا . نشر :
دار الكتاب العربي . الطبعة الثانية ١٩٥٩م .
- ٣٨- محمد : في طفولته وصباه : للاستاذ : محمد شوكت التونسي .
مطبعة مصر ١٩٥٩م .
- ٣٩- محمد المثل الكامل : للاستاذ : محمد أحمد جاد المولى .
مطبعة : دار الكتب المصرية . الطبعة الأولى
١٣٤٩هـ / ١٩٣١م .

٤٠- من أخلاق النبي : للاستاذ : أحمد الحوفي . نشر : المجلس
الأعلى للشؤون الإسلامية ١٣٩٠ هـ / ١٩٧٠ م.

٤١- مورد الصفا في سيرة المصطفى : للاستاذ أحمد الحملاوي . مطبعة
مصطفى الطيبي . الطبعة الأولى ١٣٥٨ هـ /
١٩٣٩ م.

٤٢- نبي الانسانية : للاستاذ : أحمد حسين . نشر المجلس الأعلى
للشؤون الإسلامية ١٩٧٠ م.

٤٣- محمد : نهاية الابهاز في سيرة ساكن الحجاز : لرفاعة رافع
الطهطاوي . تحقيق الدكتور : فايوق أبو زيد .
نشر : دار الفكر والفن .

٤٤- نور اليقين في سيرة سيد المرسلين : للاستاذ : محمد الخضري .
المكتبة التجارية الكبرى . الطبعة السابعة
١٣٥٤ هـ / ١٩٣٥ م.

٤٥- الوفا بأحوال المصطفى : لابن الجوزي (أبو الفرج : عبدالرحمن
ابن علي بن محمد) تحقيق الاستاذ : مصطفى
عبدالواحد . نشر : دار الكتب الحديثية
القاهرة - الطبعة الأولى ١٣٨٦ هـ / ١٩٦٦ م.

(هـ) كتب التاريخ :

٤٦- الاعلان بالتمهين لمن ذم التاريخ : للسخاوي (شمس الدين
محمد بن عبدالرحمن) نشر : القدس . دمشق
مطبعة الترقى عام ١٣٤٩ هـ.

٤٧- تاريخ بغداد : للخطيب البغدادي (أبو بكر : أحمد بن علي
ابن ثابت) نشر : دار الكتاب العربي .
بيروت .

٤٨- تاريخ بغداد : للخطيب البغدادي (أبو بكر : أحمد بن علي
ابن ثابت) نشر : مكتبة الخانجي .

٤٩- تاريخ الرسل والملوك : لابن جرير الطبري (أبو جعفر : محمد
ابن جرير بن يزيد) تحقيق الأستاذ : أبو
الفضل إبراهيم . نشر : دار المعارف : مصر
١٩٦٠ .

٥٠- ضحى الاسلام : للأستاذ : أحمد أمين . طبعة : لجنة التأليف
والترجمة والنشر . الطبعة الأولى ١٣٥٣ هـ /
١٩٣٥ م .

٥١- ضحى الاسلام : للأستاذ : أحمد أمين . طبعة : النهضة
المصرية . الطبعة السادسة .

٥٢- الديارات الكبرى : لابن سعد (أبو عبد الله : محمد بن سعد
ابن منيع) تقديم د . احسان عباس . نشر :
دار بيروت للطباعة والنشر . دار صادر
١٣٧٦ هـ / ١٩٥٧ م .

٥٣- فتوح البلدان : للبلاذري (أحمد بن يحيى بن جابر) تحقيق
الدكتور : صلاح الدين المنجد . نشر : مكتبة
النهضة المصرية ١٩٥٦ م .

٥٤- مذكرات في السياسة المصرية : للدكتور : محمد حسين هيكل .
نشر : النهضة المصرية ١٩٥١ .

٥٥ - المفازي : للواقدي (أبو عبد الله : محمد بن عمر بن واقد)
تحقيق : مارسدن جونز . نشر : جامعة
أكسفورد ١٩٦٦ م .

٥٦ - المفازي الأولى ومؤلفاتها : لهورنتز (يوسف) ترجمة : الدكتور :
حسين نصار . طبعة الطبى .

(و) كتب الأدب والنقد :

٥٧ - الأدب الحديث ومدارسه : للدكتور : محمد عبد المنعم خفاجى .
الطبعة المحمدية . الطبعة الأولى .

٥٨ - الأدب القصصى والمسرحى فى مصر : للدكتور : أحمد هيكـل :
نشر : دار المعارف . مصر . الطبعة الأولى
١٩٦٨ م

٥٩ - الأسلوب : للاستاذ : أحمد الشايب . نشر : مكتبة النهضة
المصرية . الطبعة الخامسة .

٦٠ - أضواء على الأدب العربى المعاصر : للاستاذ : أنور الجنيدى .
نشر : دار الكاتب العربى للطباعة والنشر .
القاهرة . ١٣٨٨ هـ / ١٩٦٩ م .

٦١ - الجمال والحرية والشخصية الانسانية فى أدب العقاد : للدكتورة :
نعمات أحمد فؤاد . نشر : دار المعارف
سلسلة (اقرأ) العدد (٤٠٩) ١٩٧٦ م .

٦٢ - فن السيرة : للدكتور : احسان عباس . نشر : دار الثقافة
بيروت . الطبعة الثانية .

٦٣- قصة الأدب المحاصر في مصر الحديثة : للدكتور : محمد عبد المنعم
خفاجي • المطبعة المنيرية • الطبعة الأولى
١٩٥٦/١٣٢٥

٦٤- كتب وشخصيات : للاستاذ : سيد قطب • نشر : دار الشروق •
بيروت •

٦٥- ما هو الأدب ؟ للدكتور : رشاد رشدي • نشر : مكتبة الانجلو
١٩٦٠م •

٦٦- نشأة الكتابة الفنية في الأدب العربي : للدكتور : حسين نصار •
نشر : مكتبة النهضة المصرية • الطبعة الأولى
١٩٥٤م •

٦٧- النقد الأدبي : أصوله ومناهجه : للاستاذ : سيد قطب • نشر :
دار الشروق • بيروت •

٦٨- النقد الأدبي الحديث : للدكتور : محمد غنيمي هلال • طبعة :
دار الشعب • الطبعة الثالثة ١٩٦٤م •

٦٩- وحي الرسالة : للاستاذ : أحمد حسن الزيات • نشر : مكتبة
نهضة مصر • المجلد الأول : الطبعة الثامنة •
المجلد الثاني : الطبعة السادسة • المجلد
الثالث : الطبعة الخامسة : المجلد الرابع :
الطبعة الثانية •

٧٠- وحي القلم : للاستاذ : مصطفى صادق الرافعي • تعليق : محمد
سميد المريان • الطبعة السادسة •

(ز) كتب التراجم والأعلام والمعارف العامة :

- ٧١- الأبطال : لتوماس كارليل • تعريب الأستاذ : محمد السباعي •
المطبعة المصرية • الطبعة الثالثة ١٣٤٩ هـ /
١٩٣٠ م
- ٧٢- الأصمى : للدكتور : أحمد كمال زكي • نشر : وزارة الثقافة
والإرشاد • سلسلة (أعلام العرب) الممدد
(١٨) •
- ٧٣- الأعلام : لخير الدين الزركلى • الطبعة الثانية •
- ٧٤- الأغاني : للكصيهاني (أبو الفرج : على بن الحسين بن محمد بن
أحمد بن الهيثم) نشر : دار التحرير •
- ٧٥- بغية الجعاة في طبقات اللغويين والنحاة : للسيوطي (عبدالرحمن
ابن أبي بكر بن محمد) مطبعة السعادة •
الطبعة الأولى ١٣٢٦ هـ •
- ٧٦- التاريخ والسير : للدكتور : حسين فوزى النجار • نشر : وزارة
الثقافة • سلسلة (المكتبة الثقافية) الممدد
(١٢١) •
- ٧٧- التراجم والسير : للأستاذ : محمد عبدالغنى حسن • نشر : دار
المعارف - الطبعة الثانية ١٩٦٩ م •
- ٧٨- تهذيب التهذيب : لابن حجر (أبو الفضل : أحمد بن على بن
حجر الحسقلاني) طبعة الهند • الطبعة
الأولى ١٣٢٦ هـ

- ٧٩- حلية الأولياء وطبقات الأصفياء : للأصبهاني (أبو نعيم : أحمد
ابن عبدالله بن أحمد) نشر : مكتبة الخانجي
ومطبعة السعادة - الطبعة الأولى ١٣٥٢هـ /
١٩٣٣م.
- ٨٠- دائرة المعارف الاسلامية : اعداد : أحمد الشنتاوي ، وإبراهيم
زكي خورشيد ، وعبد الحميد يونس . طبع القاهرة .
الطبعة الثانية . ١٣٥٣هـ / ١٩٣٤م.
- ٨١- الدكتور محمد حسين هيكل : اشراف : الأستاذ : أحمد لطفى
السيد . مطبعة مصر ١٩٥٨م.
- ٨٢- الدكتور محمد حسين هيكل : للاستاذ : طه عمران وادى . مكتبة
النهضة المصرية ١٩٦٩م.
- ٨٣- رفاة رافع الطهطاوى : للدكتور : أحمد أحمد بدوى . نشر
لجنة البيان العربى . الطبعة الثانية ١٩٥٩م.
- ٨٤- الشمر والشعراء : لاهن قتيبة (أبو محمد : عبدالله بن مسلم)
نشر : دار الثقافة . بيروت ١٩٦٤م.
- ٨٥- الطبرى : للدكتور : أحمد الحوفى . نشر : وزارة الثقافة . سلسلة
(أعلام العرب) الممدد (١٣) يناير ١٩٦٣م.
- ٨٦- طبقات الشعراء : لاهن سلام (محمد بن سلام الجمحى) نشر :
حامد عجان الحديد الكتبى . مطبعة السعادة .
مصر .
- ٨٧- طه حسين فى معارك الأدبية : للاستاذ : سامح كرم . كتاب
الاذاعة والتليفزيون (٢١) يناير ١٩٧٤م.

- ٨٨- الفهرست : لابن النديم (أبو الفرج : محمد بن اسحاق بن محمد بن اسحاق) مطبعة الاستقامة • القاهرة .
- ٨٩- كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون : لحاجي خليفة (مصطفى ابن عبدالله) المكتبة الاسلاميه • طهران • الطبعة الثالثة ١٣٧٨هـ .
- ٩٠- محمد وهولاه : للشاعر أحمد عبدالمعطي حجازي • نشر : مؤسسة روزاليوسف • الكتاب الذهبي • نوفمبر ١٩٧١م .
- ٩١- المعارف : لابن قتيبة • تحقيق الدكتور : ثروت عكاشة • نشر : وزارة الثقافة والارشاد القومي ١٩٦٠م .
- ٩٢- معجم الأدباء : لياقوت الحموي (أبو عبدالله : ياقوت بن عبدالله) طبعة : دار المأمون .
- ٩٣- المعجم الوسيط : اعداد واخراج : ابراهيم أنيس وزملائه • طبعة : دار المعارف • مصر • الطبعة الثانية ١٣٩٢هـ / ١٩٧٢م • نشر واشراف : مجمع اللغة العربية .
- ٩٤- مع طه حسين : لسمي الكوايلي • نشر : دار المعارف • سلسلة (اقرأ) .
- ٩٥- وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان : لابن خلكان (القاضي : أحمد) طبعة القاهرة ١٢٩٩هـ .

(ح) الصحف والمجلات :

- ١ - مجلة (الأزهر)
- ٢ - مجلة (الرسالة)
- ٣ - ملحق (السياسة)
- ٤ - مجلة (قافلة الزيت) سعودية
- ٥ - مجلة (رابطة العالم الاسلامي)
- ٦ - مجلة (اليمامة)
- ٧ - مجلة (المجتمع) كويتية
- ٨ - مجلة (العربي)
- ٩ - صحيفة (أخبار اليوم)

فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة
المقدمة	١ - ب ب
بحث تمهيدى : كتابة السيرة النبوية قديما	١ - ٨٢
أ - تدوين السيرة النبوية ومواقع :	٢ - ١١
١ - تعريف بالسيرة النبوية ص ٢٠٢ - السيرة	
والحديث ص ٣٠٢ - بداية تدوين الحديث ص ٣	
٤ - حركة التصنيف والتأليف : أ - مرحلة الجمع	
العام ص ٥٠ ب - مرحلة الترتيب والتشقيق ص ٥	
ح - مرحلة استقلال علم السيرة عن علم الحديث	
ص ٦٠ ٥ - بواعث الكتابة فى السيرة النبوية :	
أ - السيرة جزئ من الحديث ص ٧٠ ب - اشتغال	
السيرة على الكثير من الجوانب التشريعية ص ٧٠ ح -	
رغبة المسلمين فى تدوين سيرة الرسول الكريم ص ٩٠	
ب - كتاب السيرة القدامى ومناهجهم :	١١ - ٧٥
١ - الطبقة الأولى : أ - أبان بن عثمان بن	
غان ص ١١ - ١٢٠ ب - عروة بن الزبير ومنهجه	
فى كتابة السيرة ص ١٢ - ١٥٠ ح - إفرج جليل	
ابن سعد ص ١٥ - ١٦٠ د - وهب بن منبه	
ص ١٦ - ١٨٠ ٢ - الطبقة الثانية : أ - عاصم	
ابن عمر بن قتادة ص ١٩ - ٢٠٠ ب - الزهري	
ومنهجه فى كتابة السيرة ص ٢٠ - ٢٣ ح - عبد الله	
ابن أبى بكر بن حزم ص ٢٣ - ٢٤٠ ٣ - الطبقة	

الثالثة : أ - موسى بن عتبة ومنهجه في كتابة
السيرة ص ٢٦ - ٢٨ . ب - معمر بن راشد
ص ٢٩ - ٣٠ . ج - أبو معشر المدني ص ٣٠ .
د - ابن اسحاق ومنهجه في كتابة السيرة وأثره
ص ٣٠ - ٤٢ . هـ - الواقدي وأثره ومنهجه
في كتابة السيرة (المفازي) ص ٤٢ - ٥١ ، ٥٤
٤ - السيرة على يدى ابن هشام وابن سعد :
أ - ابن هشام وأثره في سيرة ابن اسحاق
ص ٥٢ - ٥٦ . ب - ابن سعد وأثره ص ٥٦ -
٦٢ . ٥ - السيرة على يد الطبرى : الطبرى
وأثره ص ٦٢ - ٧٠ ، ٦٠ - السيرة بمعد
الطبرى :: الاتجاه نحو الكشف عن شوائب
الرسول وخصائصه وأحواله ودلائل نبوته ص ٧١ -
٧٤ . الاتجاه نحو تلخيص كتب السيرة السابقة
وتجميع المعلومات منها ص ٧٤ . الاتجاه نحو
شرح بعض الكتب السابقة ص ٧٥ .

ج - نقد وتقويم :

٧٦ - ٨٢

أهم المؤلفات في السيرة وأثرها وقيمتها : (١) - المؤلفات
الأولى في السيرة واتسامها بالصدق والاستقام
ص ٧٦ - ٧٧ ، ٧٠ - ٢ - سيرة ابن اسحاق
ومنزلتها ص ٧٧ - ٧٨ . ٣ - (مفازي)
الواقدي وأثرها وقيمتها ص ٧٨ . ٤ - (طبقات)
ابن سعد وقيمتها ص ٧٨ ، ٥ - (تاريخ) الطبرى
ومنزلة ص ٧٩ . ٦ - أهم مصادر السيرة :

سيرة ابن اسحاق ، ومغازي الواقدي ، وطبقات ابن سعد
، وتاريخ الطبري ص ٧٩ ٠ ٧ - منزلة الكتب الستة
تلت هذه الكتب الأربعة وقيمتها واتجاهاتها ، والمآخذ
التي وجهت إليها ص ٨٠ - ٨٢ ٠

الباب الأول

السيرة النبوية والأسلوب العلمي الحديث من خلال " حياة

١٨٨ - ٨٣

محمد " لهيكل ٠

الفصل الأول : بواعث الكتابة في السيرة النبوية عند هيكل ٨٤ - ٩٧

بواعث عامة ص ٨٥ - ٨٧ . بواعث خاصة : ١ - جهل

القرب بسيرة الرسول صلى الله عليه وسلم ص ٨٧ - ٨٩

٢ - التحول الفكري في حياة هيكل ص ٨٩ - ٩١ ٠

٣ - الرغبة في كتابة السيرة بأسلوب علمي : أ -

المستشرقون والدعوة ضد الاسلام ص ٩١ - ٩٣ . ب -

الحملات التشهيرية ص ٩٣ - ٩٥ . ج - تنقيصة

السيرة ما شابها ص ٩٥ - ٩٧ ٠

١٢٤ - ٩٨

الفصل الثاني : طريقة هيكل وسماتها

تمريف بطريقة هيكل ص ٩٩ - ١٠٢ . سماتها : ١ - التحليل

والتحليل للأحداث والوقائع : اجلاء يهود بنى قينقاع

ص ١٠٣ - ١٠٤ ايقاد الرسول رسله الى المسوك

والأمراء ص ١٠٤ - ١٠٧ ٢ - التعليق على الأحداث

والوقائع : دعوة الرسول قومه الى عبادة الله وحده

ص ١٠٧ - ١٠٨ ٣ - التحقيق والتحصيل للوقائع

والأحداث : طريقتة في التحقيق ص ١٠٨ — ١٠٩ . قصة
الفرانتيق وطريقة هيكل في تحقيقها ص ١١٠ — ١١٩ .
٤ — الوصف والتصوير : تصوير نفسية الرسول ابراهيم
حادثة الافك ص ١٢٠ . تصوير نفسية عائشة وقت حديث
الافك ص ١٢٠ — ١٢٢ . تصوير مشاعر المسلمين يوم
خرجوا لأداء حجة القضاء ص ١٢٢ — ١٢٣ .

١٢٥ — ١٤٥

الفصل الثالث : أسلوب هيكل وخصائصه

١ — الفرق بين السيرة والترجمة الأدبية ص ١٢٦ — ١٢٨ .
٢ — خصائص أسلوب هيكل وجمعه بين الأسلوبين : العلمي
والأدبي وغلبة الأول عليه ص ١٢٩ — ١٣١ السرفسي
غلبة الأسلوب العلمي على الأسلوب
الأدبي : ثقافته — نظميته — دراسته القانونية
ص ١٣١ — ١٣٣ . ٣ — نماذج تطبيقية على أسلوب
هيكل الموضوع : وصف حث الرسول المسلمين على
التقدم الى صفوف القتال في بدر ص ١٣٣ — ١٣٥ وصف
فترة التخت في غار حراء ص ١٣٥ — ١٣٩ تصوير
موقف الرسول من عمه حين طلب منه عمه التخلي عما هو
فيه ص ١٣٩ — ١٤٠ قصة زواج الرسول من زينب
بنت جحش ص ١٤٠ — ١٤٢ تحليل أسرار النبي
ومراجعته ص ١٤٢ — ١٤٣ . ٤ — " حياة محمد "
سيرة تاريخية ، وليس تاريخاً ولا ترجمة أدبية ص ١٤٣ —
١٤٥ .

١٤٦ — ١٦٠

الفصل الرابع : منهج هيكل وأسمه

١ — أساس منهج هيكل : العقل : دعوة محمد تدعو

الى تحكيم العقل ص ١٤٨ - ١٤٩ تأثر هيكل بالفكر
الأوربي ص ١٤٩ - ١٥٠ - ٢ - تطبيق منهج هيكل
في المعجزات والخوارق ، وفي تفنيد المزاعم : المعجزات
والخوارق : معجزة غزوة الأحزاب ص ١٥١ معجزة أصحاب
الفيل وصددهم عن الكعبة ص ١٥١ - ١٥٢ معجزة الاسراء
والمصراع ص ١٥٢ - ١٥٤ . تفنيد المزاعم : قضية تعدد
الزوجات واتهام الرسول بحب النساء والرد على ما زعمه
المستشرقون ص ١٥٥ - ١٦٠ .

الفصل الخامس : " حياة محمد " في ميزان النقد ١٦١-١٨٨

١ - قيمة الكتاب وأثره : " حياة محمد " فتح جديسد
في مجال الدراسات الاسلامية عامة والسيرة خاصة
ص ١٦٢ - ١٦٣ - ٢ - مناقشة هيكل في خطأ اعتماده
منهجه على العقل فقط وتعليل ركونه اليه ص ١٦٣ - ١٦٩
٣ - مناقشة هيكل في تطويله لبعض الخوارق التي حاول
تفسيرها تفسيراً عقلياً ، وتطويل الباحث لها تطويلاً
علمياً يكشف عن خطأ تفسير هيكل لها : قصة أصحاب
الفيل ص ١٦٩ - ١٧٢ حادثة الاسراء والمصراع ص ١٧١
- ١٧٤ . استناد هيكل فيها يذهب اليه من انكار المعجزة
بالآية : " وما منحنا أن نرسل بالآيات " . والرد عليه ،
وبيان خطأ استدلاله بهذه الآية وتوجيهها للتوجيه السليم
ص ١٧٤ - ١٧٥ - ٤ - مناقشة هيكل في تطويله الخاطئ
لبعض الأحداث والوقائع ، وتطويل الباحث لها تطويلاً
علمياً يكشف عن خطأ تطويل هيكل لها : أ - تقديم
خديجة القرابين للكهنة ! ص ١٧٥ - ١٧٨ ب - أعمال
محمد بالطهيمه دهاة لتلقى النبوة والرسالة ص ١٧٨ - ١٨٦

ح - الأعراب الذين تخلفوا عن عهد الحديدية من غير المسلمين ١٨٦ - ١٨٨

الباب الثاني

السيرة النبوية والأسلوب القصصى من خلال

"على هامش السيرة" لطف حسين ١٨٩ - ٢٩١

الفصل الأول : بواعث الكتابة فى السيرة النبوية عند طه حسين ١٩٠ - ١٩٩

- ١ - الباحث الأدبى : اتخاذ التاريخ المرمى عامية والسيرة خاصة مادة للأدب واستلها ما فيها من مواقف وأحداث وشخصيات ، وعرضها فى أسلوب أدبى ص ١٩٢ - ١٩٥
- ٢ - الباحث التلخيصى التوجيهى : تهذيب الشباب الى قراءة السيرة خاصة والأدب القديم عامة ص ١٩٥ - ١٩٦ توجه نظر الكتاب والأدباء الى تاريخهم القديم واستلهاه مادة لأدبهم ص ١٩٦ تهذيب الشباب فى حب الحياة المهيبة الأولى وما فيها من يسر وجمال ص ١٩٦ - ١٩٧
- ٣ - الباحث الاجتماعى : محاولة طه حسين بكتابه "على هامش السيرة" تصحيح موقفه الشعبى ص ١٩٧ - ١٩٩

الفصل الثانى : الموضوع والفكرة فى "على هامش السيرة" ٢٠٠ - ٢٠٩

- أ - الموضوع : بعض أحداث وقائع من السيرة وبعض الشخصيات التى كان لها أثر بارز فى مسار أحداث السيرة ووقائعها ص ٢٠١ - ٢٠٥
- ب - الفكرة : أن العالم آنذاك كان فى حاجة الى رسالة ص ٢٠٦ أن محمداً كان هو النبی المنتظر لحمل الرسالة ص ٢٠٦ انتصار الاسلام وانتشاره ص ٢٠٧ "على هامش السيرة" صورة عامة للحياة فى الجزيرة العربية ، وصور ولمحات عن بعض

المجتمعات الأخرى ص ٢٠٨. على هامش السيرة " تمبير
واضح عن فكر طه حسين حول وحدة الثقافة ص ٢٠٨ رأي
الاستاذ سيد قطب في الكتاب ص ٢٠٨ - ٢٠٩.

الفصل الثالث : أسلوب كتاب " على هامش السيرة ٢١٨-٢١٠

١ - " على هامش السيرة " ذو أسلوب قصصي ص ٢١١ -
٢١٢ . ٢ - مثال تطبيقي على قصصية الأسلوب : قصة
" الوفا " المر " تطويل للقصة ، والاستدلال بها على
استيفاء فصول " على هامش السيرة " لشرائط الفنون
القصصية ص ٢١٢ - ٢١٨ . أشادة " المازني " بطه
حسين القصص ص ٢١٨ . أشادة الدكتور " خفاجي " أيضا
ص ٢١٨ .

الفصل الرابع : الألوان القصصية في " على هامش السيرة " ٢١٩-٢٤٧

١ - القصة الشخصية : تعريف القصة الشخصية ص ٢٢١ -
٢٢٢ . على هامش السيرة ملئ بهذا اللون من القصص ص
٢٢٢ . عرض لخصائص القصص الشخصية في الكتاب وأناطتها
ص ٢٢٣ - ٢٢٤ . تطويل قصة " صريح الحسد " : مضمون
القصة تفصيلا ص ٢٢٤ - ٢٢٨ . السمات الفنية لهذه
القصة ص ٢٢٨ - ٢٣١ . المآخذ على هذه القصة ص ٢٣١ -
٢٣٢ . ٢ - القصة الحداثية : تعريف القصة الحداثية
ص ٢٣٢ . على " هامش السيرة " ملئ بهذا اللون من
القصص ص ٢٣٢ - ٢٣٤ . تطويل قصتي : " ميلاد الرسول
ونشأته " و " أصحاب القمل " : مضمون القصتين تفصيلا
ص ٢٣٤ - ٢٣٧ . السمات الفنية لهاتين القصتين ص ٢٣٧ -
٢٤٠ . المآخذ على هاتين القصتين ودفع هذه المآخذ ص ٢٤٠ -

٢٤٣ + ٣ - القصة التي تصور المعنى وتبرز الفكرة :
تعريف بهذه القصة ص ٢٤٣ " على هامش السيرة " ملق
بهذا اللون من القصص ٢٤٣ - تطيل قصة " الفيلسوف
الحائر " : مضمون هذه القصة تفصيلا ص ٢٤٣ - ٢٤٥
السمات الفنية لهذه القصة ص ٢٤٥ - ٢٤٧ .

الفصل الخامس : طريقه طه حسين أو مذهبه الفني ٢٤٨ - ٢٧٦

١ - تعريف بطريقه طه حسين ص ٢٤٩ - ٢٥٢ + ٢٠ لوان
هذه الطريقه : أ - تصوير الشخصيات ص ٢٥٢ - ٢٦٠ +
ب - تصوير الأحداث ص ٢٦٠ - ٢٦٥ + ج - تصوير
المعاني والخواطر ص ٢٦٥ - ٢٧٠ + د - تصوير
الشخصيات الخيالية ص ٢٧٠ - ٢٧٤ + هـ - تصوير
البهيمه ص ٢٧٤ - ٢٧٦ .

الفصل السادس : " على هامش السيرة " في ميزان النقد ٢٧٧ - ٢٩١

١ - قيمة الكتاب وأثره : الكتاب تصوير للسيرة في لوحة
جميلة محبة للنفس ص ٢٧٨ . اتخاذ التاريخ مادة للأدب
أحياء " للتراث المجيد ص ٢٧٨ . أثر طه حسين بكتابه
هذا فهين بعده ص ٢٧٨ . نجاح طه حسين في تحقيق
هدفه ص ٢٧٨ - ٢٧٩ . رأى الأستاذ " الشايب " في
براعة التصوير القصصى في " على هامش السيرة " ص ٢٧٩
الأستاذ " سيد قطب " يشهد ببراعة التصوير القصصى
في " على هامش السيرة " ص ٢٧٩ . نجاح طه حسين في
عرض الأفكار التي قصد بها من الكتاب ص ٢٧٩ - ٢٨٢ .
٢ - نقد بعض أفكار الكتاب : وحدة الثقافة أو الحضارة
ص ٢٨٢ - ٢٨٣ . سبق الحضارة اليونانية والرومانية

للحفاوة الصربية • والر د عليه ص ٢٨٤ - ٢٨٥ ما جاء في قصة
زواج الرسول بزينب بنت جحش من أفكار خاطئة ودحضها
والرد عليها ص ٢٨٥ - ٢٨٧ • ٣ - موقف بعض النقاد
من الكتاب : المناقشون : نقدهم موجه الى شخص طه
حسين وليس الى الكتاب ص ٢٨٨ • المجددون : نقدهم موجه
الى طريقة الكتاب ص ٢٨٨ - ٢٩٠ رأى يقول : ان طه
حسين يمتلق الجماهير بكتابه هذا ص ٢٩٠ - ٢٩١ •

الباب الثالث

المعيرة النبوية والأسلوب المسرحي من خلال

كتاب " محمد " لتوفيق الحكيم ٢٩٢ - ٣٦٠

الفصل الأول : الحكيم والأدب المسرحي ٢٩٥ - ٢٩٣

ريادة الحكيم للأدب المسرحي العربي الحديث ص ٢٩٤ • الفن
المسرحي قبل الحكيم ص ٢٩٤ • الفن المسرحي على يد
الحكيم ص ٢٩٤ . أثر الحكيم في الفن المسرحي الحديث ص ٢٩٥

الفصل الثاني : الحكيم ومسرحياته الدينية ٢٩٦ - ٣٠١

الحكيم يتخذ من التاريخ الشرق مادة لمسرحياته : التاريخ
الفرعوني • اليوناني • العباسي • القصص القرآني • التاريخ
الاسلامي ص ٢٩٧ • الهدف من مسرحية محمد ص ٢٩٧ - ٢٩٨
مسرحيات الحكيم الدينية تعتمد على فكرة المزاوجة بين المسادة
والرب ص ٢٩٨ - ٣٠٠ • السرفى هذه المزاوجة ص ٣٠٠ - ٣٠١ •

الفصل الثالث : الفكرة والمنهج في كتاب " محمد " ٣٠٢ - ٣١٢

أ - الفكرة : تدور حول أساس المزاوجة بين المادة والروح •
وأن محمداً بشر رسول يوحى اليه ص ٣٠٢ • ليس المقصود بالكتاب

فكرة يريد الكاتب أن يبرزها ص ٣٠٣ - ٣٠٤. ملاحظة
الحكيم على الحقائق التاريخية ص ٣٠٤ - ٣٠٥. كتاب
" محمد " ليس مسرحية ص ٣٠٥ - ٣٠٦ . جهـ
الحكيم : الصب والصيغة ص ٣٠٦. نجاح الحكيم في تقديمه
السيرة النبوية بهذه الصورة المسرحية ص ٣٠٦ - ٣٠٧. المسرح
في عدم نهج الحكيم في كتابه هذا نهجا فنيا خالصا
ص ٣٠٧.

ب - المنهج : الكتاب ذو منهج أدبي عام ، وليس
منهجاً أدبياً خالصاً وليس منهجاً علمياً ولا تاريخياً
ص ٣٠٧ - ٣١٢.

٣١٣ - ٣٥١ الفصل الرابع : جوانب السيرة في كتاب " محمد "

ما تضمنه المقدمة ص ٣١٤. ما يشتمل عليه الفصل الأول ص ٣١٤
ما يحتويه الفصل الثاني ص ٣١٤ - ٣١٥. ما يحتويه
الفصل الثالث ٣١٥ ما تضمنه الخاتمة ص ٣١٥. الحكيم
لا يستعرض كل الأحداث بل ينتقى ويختار ص ٣١٥.
١ - محمد الرسول : أ : الوحي : في غار حراء ص ٣١٧. محمد
وخبيفة بعد نزول الوحي ص ٣١٨. جبريل يدعو الرسول
بالبجهر بالدعوة ص ٣١٨ - ٣١٩. جبريل ينزل على الرسول
بعد طول انقطاع ص ٣١٩ - ٣٢٠. جبريل ينزل حين
حزن الرسول على عمه حمزة ص ٣٢٠ - ٣٢١. جبريل
ينزل على الرسول آمراً إياه بالذهاب إلى بني قريظة
ص ٣٢١. نزول جبريل لبيان حديث الافك ص ٣٢٢ - ٣٢٣.
احسان الحكيم بهذه الصور والمشاهد التي صورها
ص ٣٢٣ - ٣٢٦ . ب : الخلق : الرسول على جبل الصفا

يدعو قومه ص ٣٢٧ - ٣٢٩ الرسول وأبو طالب وموقف الرسول
من قول عمه ص ٣٢٩ - ٣٣٠ الرسول يدعو بني عامر
وأبولهب من خلفه يكذبه ص ٣٣٠ - ٣٣١ الرسول يتجه
الى الطائف وما لقيه من أذى وقت ص ٣٣١ - ٣٣٤ .
احساس الحكيم بهذه الصور والمشاهد التى صورها ص ٣٣٤ .
ح - المعجزات والخوارق : نجم أحمد الذى رآه اليهودى
ص ٣٣٥ رؤيا آمنة بخروج نور منها ص ٣٣٦ رؤيا عبدالمطلب
ص ٣٣٦ البركة التى مست خديجة ص ٣٣٧ خديجة ومحمد
والمراف ص ٣٣٧ - ٣٣٨ محمد وحيرى فى صحراء الشام
ص ٣٣٨ - ٣٣٩ قصة أم معبد ص ٣٣٩ - ٣٤٠ عمير بن
وهب ص ٣٤٠ الفحل الذى ظهر خلف أبى جهل ص ٣٤٠
الصخرة التى أضأت حين كسرها الرسول ص ٣٤١ أما ننة
الحكيم فى تصوير هذا الخوارق ص ٣٤١ - ٢ - محمد
البشر : الرسول تجسدت فيه كل صفات البشر ص ٣٤١ - ٣٤٢
خوف الرسول حين نزول الوحي عليه فى المرة الأولى
والثانية ص ٣٤٢ - ٣٤٣ فرح الرسول بمولد ابنه إبراهيم
ص ٣٤٣ - ٣٤٤ حزن الرسول لموت إبراهيم ص ٣٤٤ - ٣٤٥
صور ومواقف للرسول وغيره عطف عليه ص ٣٤٥ - ٣٤٩ .
محمد القائد الذى يستشير أصحابه ص ٣٤٩ - ٣٥٠ نزول
الرسول على رأى أحد أصحابه ص ٣٥٠ - ٣٥١ .

الفصل الخامس : كتاب " محمد " فى ميزان النقد ٣٥٢ - ٣٦٠

١ - قيمة الكتاب وأثره : الحكيم أول من عرض السيرة النبوية
بأسلوب مسرحى ص ٣٥٣ التزام الحكيم بما جاء فى كتاب
السيرة ص ٣٥٣ براعة الحكيم فى عرض السيرة بهذه الطريقة

- ص ٣٥٣ — ٣٥٤. جهد الحكيم في هذا الكتاب ص ٣٥٤.
- ٢ — الشكل : الكتاب ليس مسرحية ص ٣٥٤ — ٣٥٦.
- ٣ — الحوار : توافر الشروط الفنية في الحوار الذي سلكه الحكيم في كتاب " محمد " ص ٣٥٦ — ٣٥٨ — ٤٠ — رأى بعض النقاد حول الكتاب : رأى للاستاذ مصطفى صادق الرافعي ص ٣٥٨ — ٣٦٠. رأى للاستاذ اسماعيل مظهر ص ٣٦٠. رأى للباحث ص ٣٦٠.

الباب الرابع

السيرة النبوية والأسلوب الفلسفي

من خلال " عمقيرة محمد " للحقار ٣٦١ — ٤٧٥

الفصل الأول : بواعث الكتابة في السيرة النبوية عند العقاد ٣٦٢ — ٣٧٦

بواعث عامة : البواعث المذهبية والفكرية ص ٣٦٤ — ٣٦٥ البواعث الدينية ص ٣٦٥

بواعث خاصة : الباعث الأول : الخير والانصاف ص ٣٦٦ — ٣٧٠

الباعث الثاني : النشأة ص ٣٧٠ — ٣٧٢ . الباعث الثالث :

التحول الفكري ص ٣٧٢ — ٣٧٦ .

الفصل الثاني : الفكرة والموضوع في " عمقيرة محمد " ٣٧٧ — ٣٨٤

أ — الفكرة : الكتاب تقدير وتعظيم للرسول محمد ، واثبات

أنه عظيم بجميع المقاييس ص ٣٧٨ — ٣٨٠ ب — الموضوع :

عمقيرة الرسول وجوانبها المتعددة ص ٣٨٠ — ٣٨١. استعراض

العقاد لجميع مظاهر العمقيرة المحمدية ص ٣٨١ — ٣٨٤ .

٤٣٢ — ٣٨٥

الفصل الثالث : خصائص طريقة العقاد

- ١ — التبحر والاستقصاء : أمثلة على استقصاء العقاد لصفات
المعظمة المحمدية : الفصاحة ص ٣٨٧. الصداقة ص ٣٨٧
معاملة الرسول الطيبة لزوجاته ص ٣٨٧. بهر الرسول بخدمه
وعبيده ص ٣٨٧ .
- ٢ — التفرع والتفصيل : أمثلة على طريقة العقاد في التفرع
والتفصيل عندما يتناول الصفات : أ — الفصاحة ص ٣٨٨ —
٣٨٩ . ب — عاطفة الرسول الانسانية ص ٣٩٠ — ٣٩٤ .
ج — معاملة الرسول لزوجاته ص ٣٩٤ — ٣٩٦ . د — معاملة
الرسول لخدمه وعبيده ص ٣٩٧ — ٤٠٠ . هـ — تقصى
البواطن والأسباب : أ — الرجوع بالصفات المحمدية الى
بواخها وأسبابها : ١ — الرسالة ومحمد صلى الله عليه
وسلم ص ٤٠٢ — ٤٠٥ . ٢ — محمد الداعية ص ٤٠٥ —
٤٠٨ . ٣ — محمد الصديق ص ٤٠٨ — ٤١١ .
- ب — الرجوع بصرفات النبي وأحواله الى بواخها وأسبابها :
١ — تعدد زوجات الرسول ص ٤١٢ — ٤٢٠ . ٢ — نجاح
الدعوة الاسلامية ص ٤٢٠ — ٤٢٢ . ٣ — صرى بـدر
من المشركين وخروج الرسول لرؤيتهم ص ٤٢٢ — ٤٢٧ .
- ٤ — الشواهد والأدلة : العقاد يورد أدلته من
الحوادث المنتقاة والمصرفات المشهورة والشواهد البارزة
ص ٤٢٨ — ٤٢٩ . ترقى العقاد في إيراد الأدلة ص ٤٢٩ —
٤٣٢ .

٤٤١ — ٤٣٣

الفصل الرابع : أسلوب العقاد وسماته

- ١ — الطابع العام لأسلوب العقاد : غلبة الأسلوب العلمي
المنطقي عليه ص ٤٣٤ — ٤٣٧ . ٢ — غلبة التراكم

المنطقية : أدوات التقسيم والتضريح ص ٤٣٨ . القضايا المنطقية
ص ٤٣٨ . الجمل والأدوات الشرطية ص ٤٣٨ — ٤٣٩ .
٣ — قوة الاقتناع والحجة ص ٤٣٩ — ٤٤١ .

الفصل الخامس : منهج العقاد وأسمه ٤٤٢ — ٤٥٤

١ — الجانب التحليلي ص ٤٤٣ . ٢ — الجانب النفسي :
تطبيق نظرية " المبقرية الفردية " على شخصية الرسول
الكريم ص ٤٤٣ — ٤٤٤ . العقاد يتفق في هذه النظرية
مع " توماس كارليل " ص ٤٤٥ — ٤٤٦ . العقاد يقيم المقارنات
بين الرسول وبين عباقرة الحرب والسياسة والتشريع
والاجتماع ص ٤٤٦ — ٤٥٢ . النتيجة التي انتهى اليها
العقاد من هذه المقارنات ص ٤٥٢ . ٣ — الجانب
المعقلى : التدليل على عظمة الرسول وعبقريته بما يؤمن
به العقل ص ٤٥٢ — ٤٥٤ .

الفصل السادس : " عبقرية محمد " في ميزان النقد ٤٥٥ — ٤٧٥

١ — قيمة الكتاب وأثره . ٥٠ . ميزان مكانه من الدراسات
الأدبية : طريقة العقاد في عبقريته اضافة جديدة نفس
فن التراجم الشخصية ص ٤٥٦ . " عبقرية محمد " ليس ترجمة
أدبية ، وليس سيرة تاريخية ص ٤٥٦ — ٤٥٩ . طريقة العقاد
في الكشف عن جوانب المبقرية ص ٤٥٩ — ٤٦٠ . " عبقرية
محمد " " صورة نفسية " ٤٦٠ — ٤٦١ . ميزة طريقة
العقاد : تجلية معالم الشخصية وإبراز خصائصها ص ٤٦٢ —
٤٦٤ . قيمة طريقة العقاد في الكشف عن المبقرية : اعلاؤها
للمسائل الانسانية ص ٤٦٤ — ٤٦٥ . ٢ — نقد طريقة
العقاد (الاعتماد على الصفات البارزة) ص ٤٦٦ — ٤٦٨ .

٣ - نقد أسلوب العقاد (غلبة الأسلوب العلمي المنطقي عليه) ص ٤٦٨ - ٤٧٠ - نقد منهج العقاد (الجانب النفسي) ص ٤٧٠ - ٤٧٥ .

الباب الخامس

السيرة النبوية والأسلوب الفلسفي التاريخي

من خلال " فقه السيرة " للفزائلي ص ٤٧٦ - ٥٣٤

الفصل الأول : بواعث الكتابة في السيرة النبوية عند الفزالي
الرغبة في تجلية جوانب السيرة النبوية واستخراج ما فيها
من دروس وعبر ص ٤٧٨ - ٤٧٩ . جهل الناس بالسيرة
النبوية ص ٤٧٩ - ٤٨٠ . جهل الناس بالاعتقاد الأشمل
بالرسول الكريم ص ٤٨٠ - ٤٨٢ .

الفصل الثاني : طريقة الفزالي في " فقه السيرة " وخصائصها ص ٤٨٣ - ٥٢٠
طريقة الفزالي تجمع بين الطريقتين : القديمة والحديثة
ص ٤٨٤ - ٤٨٥ . سمات طريقته :-

- ١ - الوحدة الموضوعية ص ٤٨٥ - ٤٨٦ . ٢ - الوسيط بين الأحداث والوقائع ص ٤٨٧ - ٤٩٣ . ٣ - تلميسل الأحداث وفلسفتها : أ - لماذا أرسل الرسول صلى الله عليه وسلم قبيلة بني سمد ؟ ص ٤٩٤ - ٤٩٥ . ب - سر الصراع بين اليهود والمسلمين ص ٤٩٥ - ٤٩٨ . ٤ - تحقيق بعض الأحداث وتحصيلها : تحقيق قصة " الفرانيسق " وتشهيد ما فيها من مزايا ص ٤٩٨ - ٥٠٠ . ٥ - إبراز الحكم واستنباط المعبر : أ - حكم الاسراء والمعراج ص ٥٠١ - ٥٠٣ . ب - نشأة الرسول وأسرته ص ٥٠٣ - ٥٠٤ .

ح - ميلاد شميرة الأذان ص ٥٠٤ - ٥٠٥ - ٦ - الربط
 بين أحداث السيرة النبوية وما يشابهها من أحداث
 عصرية : أ - مصعب بن عمير ومبشرو المسيحية اليوم
 ص ٥٠٦ - ٥٠٧ ب - نجاح المسلمين في تأسيس
 وطن للإسلام بالمدينة ونجاح اليهود في تأسيس وطن
 لهم بفلسطين ص ٥٠٧ - ٥٠٩ ح - مسجد الرسول
 ومساجد المسلمين اليوم ص ٥٠٩ - ٥١٠ د - مشاركة
 الرسول أصحابه في العمل ومشاركة حكام اليوم ص ٥١٠ -
 ٥١١ ٧ - الصلوة على الأحداث والوقائع : أ - موقف
 أبي لهب من دعوة الرسول ص ٥١٢ - ٥١٣ ب - هجرة
 المسلمين من مكة إلى المدينة وما تحلوه من صواب ص ٥١٣
 ح - بهمة العقبة الكبرى ص ٥١٤ - ٨ - إيراد النصوص
 والآثار : أ - حب الصحابة للرسول ص ٥١٥ - ٥١٦
 ب - ثبات المؤمنين الصادقين ص ٥١٦ - ٥١٧
 ج - معركة الأحزاب ص ٥١٧ - ٥١٨ تفسير بمصنفين
 النصوص والأدلة : أ - تفسير بعض الآيات الواردة في
 غزوة أحد ص ٥١٨ - ٥٢٠ ب - تفسير بمصنفين
 الآيات الواردة في غزوة تبوك ص ٥٢٠

الفصل الثالث : أسلوب الفزالي في " فقه السيرة " وسماعه ٥٢١ - ٥٣١

أ - هل نعد " فقه السيرة " كتاب تاريخ أم كتاب
 أدب ؟ ص ٥٢٢ - ٥٢٤
 ب - سمات أسلوب " فقه السيرة " : أ - السمة الفلسفية :
 فلسفة الأذان ص ٥٢٥ - ٥٢٧ ب - السمة الأدبية :
 أ - في غار حراء ص ٥٢٧ - ٥٢٩ ب - إلى دار الهجرة

ص ٥٢٩ - ح - المصنف الخطيب : ٩ - الصنفون
الأخبار ص ٥٢٠ - ٥٢٦ - ٩ - موقف أبي لهب
من الدعوة ص ٥٢١

للعمل الطبع : كتاب " فقه الشريعة " في ميزان التقدير
١ - فقه الكتاب وأثره ص ٥٢٢ - ٢ - فقه السبب
الكتاب (فقه السبب) ص ٥٢٢ - ٥٢٤

الكلمة الأخيرة :
الكتاب :
فهرس الحادي والتراجع :
فهرس الموضوعات :
٥٢٦ - ٥٢٥
٥٥٦ - ٥٢٧
٥٦٩ - ٥٥٧
٥٨٦ - ٥٧٠